

سيرة



# فی ظلال القرآن

المجزء الثالث والعشرون

بم

سید قطب

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

من سورة يس والصفات وص

## سُورَةُ يَسِّ ٧ مَكِّيَّةٌ وآياتها ١٣

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسَّ ١ ﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ • إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ • عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ • تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ • لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ • لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ • إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ • وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ • وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ • إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ • إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ •

• وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ • إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ، فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ، فَقَالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ • قَالُوا : مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ • قَالُوا : رَبَّنَا بِمَلَأْنَا إِيَّاكُمْ لَمُرْسَلُونَ • وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ • قَالُوا : إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ ، لَئِن لَّمْ تَنْتَهُبُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ • قَالُوا : طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، إِنْ ذُكِّرْتُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ •

• ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ، قَالَ : يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ • أَتَّبِعُوا

مَنْ لَا يَنْتَظِرْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ؟ .  
 أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ؟  
 إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِيَّيَّ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ .  
 قِيلَ : أَدْخُلِ الْجَنَّةَ . قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ  
 الْمُكْرَمِينَ

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ » إِنْ كَانَتْ  
 إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ »

هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثم جاء عدد آياتها  
 ثلاثاً وثمانين ، بينما هي أصغر وأقصر من سابقها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون .  
 وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتلاحق إيقاعاتها ، وتدق  
 على الحس دقائق متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تحملها  
 المشاهد المتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار .  
 والموضوعات الرئيسية للسورة هي موضوعات السور المكية . وهدفها الأول هو بناء  
 أسس العقيدة . فهي تعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة منذ افتتاحها : « يس . والقرآن  
 الحكيم . إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . . . » . وتسوق قصة  
 أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ؛ وتعرض  
 هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه . وقرب نهاية السورة  
 تعود إلى الموضوع ذاته : « وما علنناه الشعر - وما ينبغي له - إن هو إلا ذكر وقرآن مبين  
 لينذر من كان حياً ويعحق القول على الكافرين » . . .

كذلك تعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية . فيجاء استنكار الشرك على لسان  
 الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شأن المرسلين وهو يقول : « وما لي

## الجزء الثالث والعشرون

لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا يتقدون ؟ إنى إذا لقي ضلال مبين » . . . وقرب ختام السورة بحجىء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى : « وأخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » . . .

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة هي قضية البعث والنشور ، وهي تتردد في مواضع كثيرة في السورة . تجيء في أولها : « إنانحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » . . . وتأتي في قصة أصحاب القرية ، فيما وضح للرجل المؤمن . وقد كان جزاؤها العاجل في السياق : « قيل : ادخل الجنة . قال : ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » . . . ثم ترد في وسط السورة : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » . . . ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة . وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل يحيى الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . . .

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر في السور المكية . ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها .

هذه المؤثرات منزعجة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلمخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازل حتى يعود كالمرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !

وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه : منها صورة للكذابين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تفهم الآيات والنذر : « إنا جعلنا

في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ؛ وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . . ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار . . ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . . وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود .

\*\*\*

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط :

يبدأ الشوط الأول بالقسم بالحرفين : « يا . سين » وبالقرآن الحكيم ، على رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنه على صراط مستقيم . يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغافلين الذين يكذبون . وهي حكم الله عليهم بألا يجدوا إلى الهداية سبيلاً ، وأن يحال بينهم وبينها أبداً . ويبان أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ؛ فاستمد قلبه لاستقبال دلائل الهدى وموجيات الإيمان . . ثم يوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ، فيقص قصة التكذيب وعاقبة المكذبين . كما يعرض طبيعة الإيمان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني ببدء الحسرة على العباد الذين ما يفتأون يكذبون كل رسول ويستهزئون به . غير معتبرين بمصارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات الله في الكون وهي كثر . . وهنا يعرض تلك المشاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السورة ، كما يعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل .

والشوط الثالث يكاد يلخص موضوعات السورة كلها . فينفي في أوله أن ماجاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - شعر ، وينفي عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلاً . ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المتفردة ، وينمى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يتبعون عندهم النصر وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة . ويتناول قضية البعث والنشور فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ليروا أن إحياء العظام وهي رميم كذلك النشأة ولاغرابة . ويذكرهم بالشجر الأخضر الذي تكمن فيه النار وهما في الظاهر بعيد من بعيد . ويخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر في الأولى والآخرة . . وأخيراً يجيء

الإيقاع الأخير في السورة : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون . فسبحان الذي يده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

والآن نأخذ بعد هذا العرض المجمل في التفصيل . .

\*\*\*

« يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتندر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشىناهم فهم لا يسمعون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نهي المولى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » . .

يقسم الله سبحانه بهذين الحرفين : « يا . سين » كما يقسم بالقرآن الحكيم . وهذا الجمع بين الأحرف المقطعة والقرآن يرجح الوجه الذي اخترناه في تفسير هذه الأحرف في أوائل السور ؛ والملاقة بين ذكرها وذكر القرآن . وأن آية كونه من عند الله ، الآية التي لا يتدبرونها فيردم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ؛ ولكن نسقه التكميلي والتكميري فوق ما يملكون صياغته من هذه الحروف .

ويصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه « القرآن الحكيم » . والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقدرة والإرادة . وهي من مقتضيات أن يكون حكماً . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحاً وإن له لصفات الحي الذي يماطقك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصفي له روحك وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ؛ ويقف على الأبواب ينصت إذا سمع من داخلها من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب !

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه . ويضرب على الوتر الحساس في قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .



والقرآن حكيم . يربى بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسى مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاما كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .

يقسم الله سبحانه ياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الوحي والرسالة إلى الرسول الكريم :

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » ..

وما به سبحانه من حاجة إلى القسم . ولكن هذا القسم منه - جل جلاله - بالقرآن وحروفه ، يخلع على القسم به عظمة وجلالا ، فما يقسم الله سبحانه إلا بأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين !

« إنك لمن المرسلين » .. والتعبير على هذا النحو يوحي بأن إرسال الرسل أمر مقرر ، له سوابق مقررة . فليس هو الذي يراد إثباته . إنما المراد أن يثبت هو أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء المرسلين . ويخاطبه هو بهذا القسم - ولا يوجهه إلى النكرين الكاذبين - ترفعا بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل أو مناقشة . إنما هو الإخبار المباشر من الله للرسول .

« إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » ..

وهذا بيان لطبيعة الرسالة بعد بيان حقيقة الرسول . وطبيعة هذه الرسالة الاستقامة . فهي قائمة كحد السيف لا عوج فيها ولا انحراف ، ولا التواء فيها ولا ميل . الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس . ولا يميل مع هوى ولا ينحرف مع مصلحة . يجده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص .

وهي لاستقامتها - بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران . لا تنقد الأمور ولا توقع في إشكالات من القضايا والتصورات والأشكال الجدلية . وإنما تصدع بالحق في أبسط صورة من صورها ، وأعراها عن الشوائب والأخلاق ؛ وأغناها عن الترح ، وتخصيص المبارات وتوليد الكلمات ، والدخول بالمعانى في الدروب والنخيات ؛ يمكن أن يعيش بها وممها البادى والحاضر ، والأبى والعالم ، وساكن الكوخ وساكن العمارة ؛ ويجد فيها كل حاجته ؛ ويدرك منها ما تستقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين .

## الجزء الثالث والعشرون

وهي مستقيمة مع فطرة الكون وناموس الوجود ، وطبيعة الأشياء والأحياء حول الإنسان ، فلا تصدم طبائع الأشياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصدما . إنما هي مستقيمة على نهجها ، متسقة معها ، متعاونة كذلك ، مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجود وما فيه ومن فيه .

وهي من ثم مستقيمة على الطريق إلى الله ، واصلة إليه موصلة به ، لا يخشى تابعا أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتوى عن الطريق إليه . فهو سالك دربا مستقيما واصلا ينتهي به إلى رضوان الخالق العظيم .

والقرآن هو دليل هذا الصراط المستقيم . وحيثما سار الإنسان معه وجد هذه الاستقامة في تصويره للحق ، وفي التوجيه إليه ، وفي أحكامه الفاصلة في القيم ، ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق .

« تنزيل العزيز الرحيم » . .

يعترف الله عباده بنفسه في مثل هذه المواضع ، ليدر كوا حقيقة ما نزل إليهم . فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريد . وهو الرحيم بعباده الذي يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل .

فأما حكمة هذا التنزيل فهي الإنذار والتبليغ :

« لتندر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » . .

والغفلة أشد ما يفسد القلوب . فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته . معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة . تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحسها أو يدركها . ودون أن ينبض أو يستقبل . ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم ، الذين مضت الأجيال دون أن يندرم منذر ، أو ينبههم منبه . فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعلد من رسول . فالإنذار قد يوقظ الغافلين المستغرقين في الغفلة ، الذين لم يأتهم ولم يأت آباؤهم نذير .

ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين ؛ وعما نزل بهم من قدر الله ، وفق ما علم الله من قلوبهم ومن أمرهم . ما كان منه وما سيكون :

## سورة يس

« لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » . .

لقد قضى في أمرهم ، وحق قدر الله على أكثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم . فهم لا يؤمنون . وهذا هو المصير الأخير للأكثرين . فإن نفوسهم محجوبة عن الهدى مشدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها .

وهنا يرسم مشهداً حسياً لهذه الحالة النفسية ، يصورهم كأنهم مغلولون ممنوعون قسراً عن النظر ، محال بينهم وبين الهدى والإيمان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصارهم فلا يبصرون :

« إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً ، فهي إلى الأذقان ، فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . فأغشىناهم فهم لا يبصرون » . .

إن أيديهم مشدودة بالأغلال إلى أعناقهم ، موضوعة تحت أذقانهم . ومن ثم فإن رؤوسهم مرفوعة قسراً ، لا يمكن أن ينظروا بها إلى الأمام ! ومن ثم فهم لا يمكنون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف ! وهم إلى هذا محال بينهم وبين الحق والهدى بسد من أمامهم وسد من خلفهم ؛ فلو أرخى الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هذه السدود ! وقد سدت عليهم سبيل الرؤية وأغشيت أبصارهم بالكلال !

ومع عنف هذا المشهد الحسى وشدة فإن الإنسان يلتقى بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلاً عنيماً كهذا بينهم وبينه . وأنه إذا لم تكن هذه الأغلال في الأيدي ، وإذا لم تكن الرؤوس مقمحة ومجبرة على الارتفاع ، فإن نفوسهم وبصائرهم كذلك . . مشدودة عن الهدى قسراً وملفوفة عن الحق لفتاً . وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك . وكذلك كان أولئك الذين واجهوا هذا القرآن بمثل ذلك الإنكار والجحود . وهو يصدع بالحجة ، ويدلى بالبرهان . وهو بذاته حجة ذات سلطان لا يتأسك لها إنسان .

« وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . .

فلقد قضى الله فيهم بأمره ، بما علمه من طبيعة قلوبهم التي لا ينفذ إليها الإيمان . ولا ينفع الإنذار قلباً غير مهياً للإيمان ، مشدود عنه ، محال بينه وبينه بالسدود . فالإنذار لا يخلق القلوب ، إنما يوقظ القلب الحى المستعد للتلقى :

« إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم » . . .  
والذكر يراد به هنا القرآن - على الأرجح - والذي اتبع القرآن ، وخشى الرحمن دون  
أن يراه ، هو الذي ينتفع بالإندار ، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار . وكأنما الرسول  
- صلى الله عليه وسلم - قد خصه به ، وإن كان قد عم . إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ،  
فانحصر في من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب . وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإندار:  
« فبشره بمغفرة وأجر كريم » .. المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصير . والأجر الكريم  
على خشية الرحمن بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر . وهما متلازمان في القلب . فما  
تحل خشية الله في قلب إلا ويتبعها العدل بما أنزل . والاستقامة على النهج الذي أراد .

وهنا يؤكد وقوع البعث ؛ ودقة الحساب ، الذي لا يفوته شيء :

« إنا نحن نحي الموتى ، ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » ..  
وإحياء الموتى هو إحدى القضايا التي استغرقت جدلاً طويلاً . وسيرد منه في هذه السورة  
أمثلة متنوعة . وهو ينذرهم أن كل ما قدمت أيديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ،  
كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسى . والله سبحانه هو الذي يحيى الموتى ، وهو  
الذي يكتب ما قدموا وآثارهم ، وهو الذي يحصى كل شيء ويثبته . فلا بد إذن من وقوع هذا  
كله على الوجه الذي يليق بكل ماتولاه يد الله .

والإمام المبين . واللوح المحفوظ . وأمثالها . أقرب تفسير لها هو علم الله الأزلى القديم  
وهو بكل شيء محيط .

\*\*\*

وبعد عرض قضية الوحي والرسالة ، وقضية البعث والحساب ، في هذه الصورة التقريرية ،  
يعود السياق ليعرضها في صورة قصصية . تلمس القلب بما كان من مواقف التكذيب  
والإيمان وعواقبهما معروضة كاليان :

« واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما  
فعرزنا ثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون . قالوا : ما أتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن  
من شيء ، إن أتم إلا تكذبون . قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ

المبين . قالوا : إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولنيسنكم منا عذاب اليم . قالوا : طائرکم معکم ، إنا ذکرتم ؟ بل أتم قوم مسرفون ..

ولم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية . وقد اختلفت فيها الروايات . ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات .

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها . ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها . فهي قرية أرسل الله إليها رسولين . كما أرسل موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون وملائته . فكذبهما أهل تلك القرية ، فعزها الله برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند الله . وتقدموا ثلاثهم بدعواهم ودعوتهم من جديد « فقالوا : إنا إليكم مرسلون » . .

هذا اعترض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات . .

« قالوا : ما أتم إلا بشر مثلنا » . . « وما أنزل الرحمن من شيء » . . « إن أتم

إلا تكذبون » . .

وهذا الاعتراض التكرار على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول . فقد كانوا يتوقعون دائماً أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير . . أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير ؟ ! كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟ ! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت ؟ !

وهذه هي سذاجة التصور والتفكير . فالأسرار والألغاز ليست صفة ملازمة للنبوة والرسالة . وليست في هذه الصورة الساذجة الطفولية . وإن هنالك لسراً هائلاً ضخماً ، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسيطة الواقعة . حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللدني الذي يتلقى به وحى السماء ، حين يختاره الله لتلقى هذا الوحي العجيب . وهو أعجب من أن يكون الرسول ملكاً كما كانوا يقترحون !

والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية . وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي . النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه .

## الجزء الثالث والعشرون

ومن ثم كانت حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - معروضة لأنظار أمته . وسجل القرآن - كتاب الله الثابت - المعالم الرئيسية في هذه الحياة بأصغر تفصيلاتها وأحداثها ، بوصفها تلك الصفحة المعروضة لأنظار أمته على مدار السنين والقرون . ومن هذه التفصيلات حياته المنزلية والشخصية . حتى خطرات قلبه سجلها القرآن في بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيال وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان .

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القرينية هي التي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان !  
ولقد قال أهل تلك القرية لرسولهم الثلاثة : « ما أتم إلا بشر مثلنا » . . . وقصدوا أنكم لستم برسول . . . « وما أنزل الرحمان من شيء » . . . مما تدعون أنه نزله عليكم من الوحي والأمر بأن تدعونا إليه . « إن أتم إلا تكذبون » . . . وتدعون أنكم مرسلون !

وفي ثقة المطمئن إلى صدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل :  
« قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين » . . .  
إن الله يعلم . وهذا يكفي . وإن وظيفة الرسل البلاغ . وقد أدوه . والناس بعد ذلك أحرار فيما يتخذون لأنفسهم من تصرف . وفيما يحملون في تصرفهم من أوزار . والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن الله ؛ فمتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى الله .  
ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هذا المأخذ الواضح السهل اليسير ؛ ولا يطبقون وجود الدعاة إلى الهدى ؛ فتأخذهم العزة بالإثم ؛ ويمعدون إلى الأسلوب الغليظ العنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصدر عرييد :

« قالوا : إنا تطيرنا بكم ! لئن لم تنتهوا لنرجنكم ، ولنجنكم منا عذاب أليم » . . .  
قالوا : إنا نتشائم منكم ؛ وتوقع الشر في دعوتكم ؛ فإن لم تنتهوا عنها فإنا لن نسكت عليكم ، ولن ندعكم في دعوتكم : « لرجنكم ، ولنجنكم منا عذاب أليم » . . .  
وهكذا أسفر الباطل عن شمه ؛ وأطلق على الهداة تهديده ؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التمييز والتفكير !

ولكن الواجب الملقى على عاتق الرسل يقضى عليهم بالمشي في الطريق :

« قالوا : طائزكم معكم » . . .

قائول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبتهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبتهم خيرا أو أن يجعلوه شرا . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات . . . فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !

وقالوا لهم : « إن ذكركم ؟ » . .

يعنى أترجمونا وتعذبونا لأننا نذكركم ! أفهذا جزاء التذكير ؟

« بل أنتم قوم مسرفون » . .

تجاوزون الحدود في التفكير والتقدير ؛ وتجاوزون على الموعظة بالتهديد والوعيد ؛

وتردون على الدعوة بالرجم والتعذيب !

\*\*\*

تلك كانت الاستجابة من القلوب المغلقة على دعوة الرسل . وهي مثل للقلوب التي تحدثت عنها السورة في الجولة الأولى ؛ وصورة واقعية لذلك النموذج البشري المرسوم هناك .

فأما النموذج الآخر الذي اتبع الذكر وخشى الرحمان بالغيب ، فكان له مسلك آخر وكانت له استجابة غير هذه الاستجابة :

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى ؛ قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . وما لي لأعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بصر لا تفن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقدون ؟ إني إذا لفي ضلال مبين . إني آمنت بربكم فاسمعون » . .

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة . فيها الصدق . والبساطة . والحرارة . واستقامة الإدراك . وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين .

فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بمد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقاله لقومه . وحينما استشمر قلبه حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق

عليها سكوتاً؟ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؟ ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره ونحرك في شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويحقدون ويتوعدون ويهددون . وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفهم عن البغي ، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان . ولم يكن في عزوة من قومه أو منعة من عشيرته . ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها . .

« قال : يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .

إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجراً ، ولا يبتغي مغناً . . إنه لتصادق . وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفاً من الله ؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتكيلهم ، وهو لا يجني من ذلك كسباً ، ولا يطلب منهم أجراً ؟

« اتبعوا من لا يسألكم أجراً » . . « وهم مهتدون » . .

وهدهم واضح في طبيعة دعوتهم . فهم يدعون إلى إله واحد . ويدعون إلى نهج واضح . ويدعون إلى عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض . فهم مهتدون إلى نهج سليم ، وإلى طريق مستقيم .

ثم عاد يتحدث إليهم عن نفسه هو وعن أسباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه فاقنمت بالبرهان الفطري السليم :

« ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ؟ أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تنعني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟ إني إذاً لفي ضلال مبين » .

إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشدودة إلى مصدر وجودها الوحيد . . « ومالي لا أعبد الذي فطرني؟ » وما الذي يحيد بي عن هذا النهج الطبيعي الذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذي فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحرف عنه إلا بدافع آخر خارج على فطرتها . ولا تلتوى إلا بمؤثر آخر ليس من طبيعتها . والتوجه



إلى الخالق هو الأولى ، وهو الأول ، وهو المتجه الذي لا يحتاج إلى عنصر خارج عن طبيعة النفس وأنجذابها الفطري . والرجل المؤمن يحس هذا في قرارة نفسه ، فيعبر عنه هذا التعبير الواضح البسيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيد !

وهو يحس بفطرته الصادقة الصافية كذلك أن المخلوق يرجع إلى الخالق في النهاية . كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل . فيقول :

« وإليه ترجعون » . . .

ويتساءل لم لا أعبد الذي فطرني ، والذي إليه المرجع والمصير ؟ ويتحدث عن رجعتهم هم إليه . فهو خالقهم كذلك . ومن حقه أن يعبدوه .

ثم يستعرض النهج الآخر المخالف للنهج الفطري المستقيم . فيراه ضلالاً بيناً : « أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمان بضر لا تنعني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون ؟ » . . .

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلوق إلى عبادة خالقه ، وينحرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع ؟ وهل أضل ممن ينحرف عن الخالق إلى آلهة ضعاف لا يحمونه ولا يدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله ؟

« إني إذا لفي ضلال مبين » . . .

والآن وقد تحدث الرجل بلسان الفطرة الصادقة العارفة الواضحة يقرر قراره الأخير في وجه قومه المكذبين المهديين المتوعددين . لأن صوت الفطرة في قلبه أقوى من كل تهديد ومن كل تكذيب :

« إني آمنت بربكم فاسمعون » . . .

وهكذا ألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة . وأشهدهم عليها . وهو يوحى إليهم أن يقولوها كما قالها . أو أنه لا يبالي بهم ما ذا يقولون !

\*\*\*

ويوحى سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلوه أن قتلوه . وإن كان لا يذكر شيئاً من هذا صراحة . إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القوم وما هم فيه ؛ ويرفقه لئلا يرى هذا السيد الذي جهر بكلمة الحق ، متبعا صوت الفطرة ، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد

والتكامل . نراه في العالم الآخر . ونطلع على ما ادخر الله له من كرامة . تليق بتقام المؤمن الشجاع المخلص الشهيد :

« قيل : ادخل الجنة . قال : يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » ..  
وتتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة . ونرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عالم البقاء . وخطوة مخلص بها المؤمن من ضيق الأرض إلى سعة الجنة . ومن تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق . ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم . ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين .  
ونرى الرجل المؤمن . وقد اطلع على ما آتاه الله في الجنة من المغفرة والكرامة ، يذكر قومه طيب القلب رضى النفس ، يتمنى لو يراه قومه ويرون ما آتاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين .

\*\*\*

هذا كان جزاء الإيمان . فأما الطغيان فكان أهون على الله من أن يرسل عليه الملائكة لتدمره . فهو ضعيف ضعيف :

« وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء . وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون » ..

ولا يطيل هنا في وصف مصرع القوم ، تهويناً لأشأنهم ، وتصغيراً لتقدرهم . فما كانت إلا صيحة واحدة أخذت أنفاسهم .. ويسدل الستار على مشهدهم البائس المهين الدليل !

● يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ! مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ● أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ؟ ● وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ●

● « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ● وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ● لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ

أَيْدِيهِمْ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ ● سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ  
وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ●

● « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ● وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ،  
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ● وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ●  
● لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ  
يَسْبَحُونَ ●

● « وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ● وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ  
مَا يَرَوْنَ كَبُونَ ● وَإِنْ نَشَاءُ نَغْرِقْهُمْ فَلَا يَصْرِخُ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ● إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا  
إِلَىٰ حِينٍ ●

● « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ● وَمَا  
تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ●

● « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ . قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : أَنْطَعِمُ  
مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ●

● « وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ؟ ● مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً  
وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ● فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ●  
● وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ● قَالُوا : يَا وَيْلَتَنَا ! مَنْ بَعَثَنَا  
مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ● إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً  
فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ● فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ  
تَعْمَلُونَ ●

● « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ● هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَىٰ

الْأَرَانِكِ مُتَكِبُونَ • لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّؤُنَ • سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ •

• « وَامْتَاذُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ • أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ • وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ • وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ؟ • هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ • أُصَلُّوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ • الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ •

• « وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ؟ • وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِضًا وَلَا يَرْجِعُونَ • وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟ » •

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالكذب ؛ والثل الذي ضربه لهم في قصة أصحاب القرية المكذبين ؛ وما انتهى إليه أمرهم « فإذا هم خامدون » . . . يبدأ الحديث في هذا الدرس بالتميم في موقف المكذبين بكل ملة ودين ؛ ويعرض صورة البشرية الضالة على مدار القرون ، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم لا يسمعون بصارع الهالكين ، الذين يذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الدين : « وإن كل لما جميع لدينا محضرون » .

ثم يأخذ في استعراض الآيات الكونية التي يمررون عليها معرضين غافلين ؛ وهي مبثوثة في أنفسهم وفيها حولهم وفي تاريخهم القديم .. وهم مع هذا لا يسمعون ؛ وإذا ذكروا لا يذكرون : « وماتأتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » . . . وهم يستمعون بالعذاب غير مصدقين : « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . . .

## سورة يس

وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يستعرض مشهداً مطولاً من مشاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الذي به يستعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون .

\*\*\*

« يا حصرة على العباد ! ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ؟ وإن كل لما جميع لدينا محضرون . . . »  
والحصرة انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئاً حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه . والله سبحانه وتعالى - لا يتحسر على العباد ؛ ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد بما يستحق حصرة التحسين ! فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم !

يا حصرة على العباد تناح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون بها . ويفتح الله لهم أبواب رحمته بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ؛ ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ويسيثون الأدب مع الله : « وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . . »

« ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون . . . »  
ولقد كان في هلاك الأولين الداهيين لا يرجعون ، على مدار السنين وتطاول القرون . . . لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر . ولكن العباد البائسين لا يتدبرون . وهم صائرون إلى ذات المصير . فآية حالة تدعو إلى الحصرة كهذا الحال الأسيء ؟ !

إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ؛ ويحاول أن يتوقاه قدر ما يستطيع . فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعاً في ذات الطريق ؟ والغرور يعلو له ويخدعه عن رؤية المصير المطروق ! وهذا الخط الطويل من مصارع القرون معروض على الأنظار ولكن العباد كأنهم عمى لا يبصرون !

وإذا كان الهالكون الداهيون لا يرجعون إلى خلفاتهم المتأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله بعد حين . . .

« وإن كل لما جميع لدينا محضرون . . . »

\*\*\*

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . .

إنهم يكذبون الرسل ، ولا يتدبرون مصارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون . والرسل إنما يدعونهم إلى الله . وكل ما في الوجود حولهم محدثهم عن الله ، ويدل عليه ويشهد بوجوده . وهذه هي الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لأحياة فيها ، ولأما ، ينشئ الحياة ، ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتزدان بالجنات من نخيل وأعناب ، وتنفجر فيها العيون . فتجري بالحياة حيث تجرى .

والحياة معجزة لأعمالك يد البشر أن تجريها ؛ إنما هي يد الله التي تجري المعجزات ، وتبث روح الحياة في الموات . وإن رؤية الزرع النامي ، والجنان الوارفة ، والثمر اليانع ، لتفتح العين والقلب على يد الله المبدعة ، وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنور ، وتنضج العود المستشرف للشمس والضياء ، وتزين العنق اللدن بالورق والثمار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجنى والقطاف . . « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » . . ويد الله هي التي أقدرتهم على العمل ، كما أقدرت الزرع على الحياة والتماء ؛ « أفلا يشكرون ؟ » .

ويلتفت عنهم بعد هذه اللسة الرفيقة ليسبح الله الذي أطلع لهم النبت والجنان ، وجعل الزرع أزواجاً ذكرانا وإناثاً كالناس وكغيرهم من خلق الله الذي لا يعلمه سواه :

« سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » . .

وهذه التسيحة تطلق في أوانها وفي موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق . . وحدة القاعده والتكوين . . فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرها . . « مما لا يعلمون » . وإن هذه الوحدة لبثى بوحدة اليد المبدعة . التي توجد قاعده التكوين مع اختلاف الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله . . ومن يدري فرما كانت هذه قاعده الكون كله حتى الجماد ؛ وقد أصبح معلوماً أن الذرة - أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربى . سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ؛ كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تألف من نجمين مرتبطين

يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نعمة رتبية !

\*\*\*

. تلك آية الأرض الميتة تنبتق فيها الحياة . . ومنها إلى آية السماء وما يتعلق بها من ظواهر  
يراهها العباد رأي العين ، ويد الله تجريها بالحوارق المعجزات :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير  
العزیز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك  
القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » . .

ومشهد قدوم الليل ، والنور يخفت والظلمة تغشى . . مشهد مكرور يراه الناس في كل  
بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة ( فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها  
الليل أسابيع وأشهر آقرب القطبين في الشمال والجنوب ) وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو  
إلى التأمل والتفكير .

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبیر فريد . فهو يصور النهار متلبس  
بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . وعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير  
الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة  
الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت  
تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولقها الظلام - وهكذا تتوالى هذه الظاهرة  
على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسليخ فيحل محله الظلام . فهو تعبیر مصور للحقيقة  
الكونية أدق تصوير .

« والشمس تجري لمستقر لها » . .

والشمس تدور حول نفسها . وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول  
نفسها . ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها . إنما هي تجري . تجري فعلاً .  
تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني المهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً  
في الثانية ! والله - ربها الخبير بها وبجربانها وبمصيرها - يقول : إنها تجري لمستقر لها . هذا  
المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه . ولا يعلم مواعده سواه .  
وحيث تصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه . وأن هذه

الكلمة الهائلة تحرك وتجرى في الفضاء ، لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم :

« ذلك تقدير العزيز العليم » . .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » . .

والعباد يرون القمر في منزله تلك . يولد هلالاً . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً . ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم . والعرجون هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة .

والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب : « حتى عاد كالعرجون القديم » . . وبخاصة ظل ذلك اللفظ « القديم » . فالقمر في ليلته الأولى هلال . وفي ليلته الأخيرة هلال . . ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحى العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة . والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجم من تأثيرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال ؛ المدبرة للأجرام بذلك النظام . سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم . فالمشاهدة وحدها كفيلاً بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفكير .

وأخيراً يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق :

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » . .

ولسلك نجم أو كوكب فلك ، أو مدار ، لا يتجاوز في جريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومئتي مليون من الأميال . . وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب



نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومئة ألف من الأميال في الثانية الواحدة ! ( أى إن أقرب نجم إلينا يبعدنا بنحو مئة وأربعة مليون مليون ميل ! ) .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتى يأتي الأجل المعلوم - فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه في طريقه ، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبدا فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان !

« وكل في فلك يسبحون » . . .

وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الحضم الفسيح . فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطة سابحة في ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة . متناثرة في ذلك الفضاء ، سابحة في ذلك الحضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تأهية في ذلك الفضاء الفسيح !!!

\*\*\*

« وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ، وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون ، إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . . .

إن في السياق مناسبة لطيفة بين النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ، والفلك المشحون السابح في الماء يحمل ذرية بني آدم ! مناسبة في الشكل ، ومناسبة في الحركة ، ومناسبة في تسخير هذا وذلك بأمر الله ، وحفظه بقدرته في السماوات والأرض سواء .

وهذه آية كتلك يراها العباد ولا يتدبرونها . بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرا لو فتحو قلوبهم للآيات .

ولعل الفلك المشحون المذكور هنا هو فلك نوح أبي البشر الثاني ؛ الذي حمل فيه ذرية آدم . ثم جعل الله لهم من مثله هذه السفن التي تخربهم العباب . وهؤلاء وهؤلاء حملتهم قدرة

## الجزء الثالث والعشرون

الله ونواميسه التي تحكم الكون وتصرفه ؛ وتجعل الفلك يعوم على وجه الماء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخواص الريح أو البخار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى . وكلها من أمر الله وخلقه وتقديره .

« وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين » . .  
والسفينة في الحضم كالريشة في مهب الريح ، مهما ثقلت وضخمت وأتقن صنعها . وإلا تدر كها رحمة الله فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهار . والذين ركبوا البحار سواء عبروها في قارب ذي شراع أو في عابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هول البحر الخيف ؛ وضآلة العصمة من خطره الهائل وغضبه الجبار . ويحسون معنى رحمة الله ؛ وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيارات في هذا الخلق الهائل الذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامع ، ولا تمسكه يد سواها في أرض أو سماء . وذلك حتى يقضى الكتاب أجله ، ويحل الموعد المقدر في حينه ، وفق ما قدره الحكيم الخبير : « ومتاعا إلى حين » . .

\*\*\*

ومع تلك الآيات الواضحات فالعباد في غفلة ، لا تتوجه أنظارهم ، ولا تستيقظ قلوبهم ؛ ولا يكفون عن سخرتهم وتكذيبهم ، واستعجالهم بالعذاب الذي ينذرهم به الرسولون :  
« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أتم إلا في ضلال مبين . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . .

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير في قلوبهم التطلع والتدبر والحساسية والتقوى . وهي بذاتها كافية أن تثير في القلب الفتوح هزة ورعشة وانتفاضة ؛ وأن تخلطه بهذا الوجود . هذا الكتاب الفتوح الذي تشير كل صفحة من صفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تديره وتقديره . ولكن هؤلاء المطموسين لا يرونها . وإذا رأوها لا يتدبرونها . والله - لعظيم رحمته - لا يتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويوجههم إلى رب هذا الكون وبارئ هذا الوجود . ويثير في قلوبهم الحساسية والخوف والتقوى ويحذرهم موجبات الغضب والعذاب ، وهي محيطة بهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، إلا ينتهبوا لها يقعوا فيها في كل خطوة من

خطواتهم . وتوالى عليهم الآيات مضافة إلى الآيات الكونية التي تحيط بهم في حين يتجهون .  
ولكنهم مع هذا يظنون في عمايتهم سادرين :

« وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

وإذا دعوا إلى إنفاق شيء من مالهم لإطعام الفقراء : قالوا ساخرين متعتين :

« أنظم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » . .

وتطاولوا على من يدعونهم إلى البر والإنفاق قائلين :

« إن أنتم إلا في ضلال مبين » !

وتصورهم للأمر على هذا النحو الآلى يشى بعدم إدراكهم لسنن الله في حياة العباد . فالله هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميع . وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العباد هي من خلقه ، فلم يخلقوا هم لأنفسهم منها شيئاً ، وما هم بقادرين على خلق شيء أصلاً . ولكن مشيئة الله في عمارة هذه الأرض اقتضت أن تكون للناس حاجات لا ينالونها إلا بالعمل والكد ؛ وفلاحة هذه الأرض ؛ وصناعة خاماتها ؛ ونقل خيراتها من مكان إلى مكان ، وتداول هذه الحيرات وما يقابلها من سلعة أو نقد أو قيم تختلف باختلاف الزمان والمكان . كما اقتضت أن يتفاوت الناس في المواهب والاستعدادات وفق حاجات الخلافة الكاملة في هذه الأرض . وهذه الخلافة لا تحتاج إلى المواهب والاستعدادات المتعلقة بجمع المال والأرزاق وحدها ، إنما تحتاج إلى مواهب واستعدادات أخرى قد تحقق ضرورات أساسية لخلافة الجنس الإنساني في الأرض ، بينما يفوتها جمع المال والأرزاق ويعوزها !

وفي خلال هذا الحضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمواهب والاستعدادات اللازمة لها ، وما يترتب على هذه وتلك من تداول للمنافع والأرزاق ، وتصارع وتضارب في الأنصبة والحظوظ . . في خلال هذا الحضم الواسع المترابط الحلقات لافي جيل واحد ، بل في أجيال متعددة قريبة وبعيدة ، ماضية وحاضرة ومستقبلية . . في خلال هذا الحضم تتفاوت الأرزاق في أيدي العباد . . ولكي لا ينتهي هذا التفاوت إلى إفساد الحياة والمجتمع ، بينا هو ناشئ أصلاً من حركة الحياة لتحقيق خلافة الإنسان في الأرض ، يعالج الإسلام الحالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الثراء عن قدر من مالهم يعود على الفقراء ويكفل طعامهم وضرورياتهم . وبهذا

القدر تصلح نفوس كثيرة من الفقراء والأغنياء سواء . فقد جعله الإسلام زكاة . وجعل في الزكاة معنى الطهارة . وجعلها كذلك عبادة . وألف بها بين الفقراء والأغنياء في مجتمعه الفاضل الذي ينشئه على غير مثال .

قولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة الله في الحياة : « أنظعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ » .. وتطاولهم على الداعين إلى الإنفاق بقولهم : « إن أتم إلا في ضلال مبين » .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيقي عن إدراك طبيعة سنن الله ، وإدراك حركة الحياة ، وضخامة هذه الحركة ، وعظمة الغاية التي تتنوع من أجلها المواهب والاستعدادات ، وتوزع بسببها الأموال والأرزاق . والإسلام يضع النظام الذي يضمن الفرص العادلة لكل فرد ، ثم يدع النشاط الإنساني المتنوع اللازم للخلافة في الأرض يجري مجراه النظيف . ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية .

وأخيراً يجيء شكهم في الوعد ، واستهزاؤهم بالوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » ..

ووعده الله لا يستقدم لاستعجال البشر ؛ ولا يستأخر لرجائهم في تأخيره . فكل شيء عند الله بمقدار . وكل أمر مرهون بوقته المرسوم . إنما تقع الأمور في مواعيدها وفق حكمة الله الأزلية التي تضع كل شيء في مكانه ، وكل حادث في إبانته ، وتمضي في تصريف هذا الكون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين .

أما الرد على هذا السؤال النكر فيجيب ، فيشهد من مشاهد القيامة يرون فيه كيف يكون ، لامتى يكون ..

\*\*\*

« ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخضون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » ..

يسأل المكذبون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .. فيكون الجواب مشهداً

خاطفاً سريعاً . . . صيحة تصعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء :

« ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون توصية ولا إلى

أهلهم يرجعون » . . .

فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصامهم في معترك الحياة ، لا يتوقعونها ولا يحسبون لها

حساباً . فإذا هم منتهون . كل على حاله التي هو عليها . لا يملك أن يوصى بمن بعده . ولا يملك

أن يرجع إلى أهله فيقول لهم كلمة . . . وأين هم ؟ إنهم مثله في أما كنهم منتهون !

ثم ينفخ في الصور فإذا هم ينفضون من القبور . ويمضون سراغاً ، وهم في دهش وذعر

يتساءلون : « من بعثنا من مرقدنا ؟ » . ثم تزول عنهم الدهشة قليلاً ، فيدركون ويعرفون :

« هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » !

ثم إذا الصيحة الأخيرة . صيحة واحدة . فإذا هذا الشئب الحائر المذهول السارع في خطاه

الدهوش . . يثوب : « فإذا هم جميع لدينا محضرون » . . وتنظم الصفوف ، وتهيأ الاستعراض

في مثل لمح البصر ورجع الصدى . وإذا القرار العلوي في طبيعة الموقف ، وطبيعة الحساب والجزاء

يعلن على الجميع :

« فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

وفي هذه السرعة الخاطفة التي تتم بها تلك المشاهد الثلاثة تناسق في الرد على أولئك الشاكين

المرتابين في يوم الوعد المبين !

ثم يطوى السياق موقف الحساب مع المؤمنين ، ويسجل بعرض ما صاروا إليه من نعم :

« إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون .

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولاً من رب رحيم » . .

إنهم مشغولون بما هم فيه من النعم ، ملتذون متفكهون . وإنهم لفي ظلال مستطابة

يستروحون نعيمها . . وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم . لهم فيها فاكهة

ولهم كل ما يشاءون ؛ وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يدعون . ولهم فوق اللذائد التأهيل

والتكريم : « سلام » . . يتلقونه من ربهم الكريم : « قولاً من رب رحيم » . .

فأما الآخرون فلا يطوى السياق موقف حسابهم ، بل يعرضه ويرز فيه التبكيت

والتكيل :

## الجزء الثالث والعشرون

« وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا . أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون .. »

إنهم يتلقون التحقير والترذيل : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » .. انزلوا هكذا بعيدا عن المؤمنين !

« ألم أعهد إليكم - يا بني آدم - ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ؟ .. »  
ونداؤهم هنا « يا بني آدم » .. فيه من التبكيت ما فيه . وقد أخرج الشيطان أباهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين .

« وأن اعبدوني » .. « هذا صراط مستقيم » ..

واصل إلى مؤد إلى رضاي .

فلم تحذروا عدوكم الذي أضل منكم أجيالا كثيرة .. « أفلم تكونوا تعقلون ؟ »

وفي نهاية هذا الموقف العصيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، في تهكم وتأنيب :

« هذه جهنم التي كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ! »

ولا يقف الشهد عند هذا الموقف المؤذي ويطويه . بل يستطرد العرض فإذا مشهد

جديد عجيب :

« اليوم نختم على أفواههم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » ..

وهكذا يخذل بعضهم بعضا ، وتشهد عليهم جوارحهم ، وتفكك شخصيتهم مزقا وآحادا

يكذب بعضها بعضا . وتعود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلما .

إنه مشهد عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب !

\*\*\*

كذلك انتهى الشهد وألسنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا

يعبدون من أمرهم وعلى غير ما كانوا ينتظرون . ولو شاء الله لفعل بهم غير ذلك ، ولأجرى

عليهم من البلاء ما يريد .. ويعرض هنا نوعين من هذا البلاء لو شاء الله لأخذ بهما من يشاء :

« ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط ، فأنى يصرون ؟ ولو نشاء لمسخناهم على مكاتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون » . . .

وهما مشهدان فيها من البلاء قدر ما فيها من السخرية والاستهزاء . السخرية بالكاذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولون : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » . . .

فهم في المشهد الأول عريان مظموسون . ثم هم مع هذا العمى يستبقون الصراط ويتزاحمون على العبور ، ويتخبطون تخبط العميان حين يتسابقون ! ويتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين ! « فأنى يصرون ؟ » !

وهم في المشهد الثاني قد جمدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تعضى ولا تعود ؛ بعد أن كانوا منذ لحظة عريانا يستبقون ويضطربون !

وإنهم ليدون في المشهدين كالدمى واللعب ، في حال تير السخرية والهزاء . وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعد ويستهزئون !

\*\*\*

ذلك كله حين يحين الموعد الذي يستمجلون . . . فأما لو تركوا في الأرض ، وعمرها طويلا وأمهلهم الوعد المرسوم بعض حين ؛ فإنهم صأثرون إلى شر يحمدون معه التعجيل . . . إنهم صأثرون إلى شيخوخة وهرم ، ثم إلى خرف ونكسة في الشعور والتفكير :

« ومن نمره نكسه في الخلق . أفلا يعقلون » . . .

والشيخوخة نكسة إلى الطفولة . بغير ملاحاة الطفولة وبراعتها المحبوبة ! وما يزال الشيخ يتراجع ، وينسى ما علم ، وتضعف أعصابه ، ويضعف فكره ، ويضعف احتماله ، حتى يرتد طفلا . ولكن الطفل محبوب اللثغة ، تبسم له القلوب والوجوه عند كل حماقة . والشيخ مجتوى لا تقال له عثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثار السخرية كلما بدت عليه مخايل الطفولة وهو عجوز . وكما استحمق وقد قوست ظهره السنون !

فهذه العاقبة كنتك تنتظر المكذبين ، الذين لا يكرمهم الله بالإيمان الراشد الكريم . . .

## الجزء الثالث والعشرون

● « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ● لِيُنذِرَ

مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ●

● « أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ● وَذَلَّلْنَاهَا

لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ● وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ ؟ ●

● وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ● لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ

مُحَضَّرُونَ ● فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ●

● « أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ● وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا

وَنَسِيَ خَلْقَهُ . قَالَ : مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ● قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ● الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ

توقِدُونَ ● أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلَى

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ● إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ . فَيَكُونُ ● فَسُبْحَانَ

الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ●

في هذا القطع الأخير من السورة تستعرض كل القضايا التي تعالجها السورة . . قضية  
الوحي وطبيعته وقضية الألوهية والوحدانية . وقضية البعث والنشور . . تستعرض في مقاطع  
منفصلة . مصحوبة بمؤثرات قوية في إيقاعات عميقة . كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل  
كل شيء في هذا الكون وتمسك بمقاييد الأمور كلها . ويتمثل هذا المعنى مركزاً في النهاية  
في الآية التي تختم السورة : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » . .  
فهذه اليد القوية المتدعة خلقت الأنعام للبشر وذللتها لهم . وهي خلقت الإنسان من نطفة .  
وهي تحيي رميم العظام كما أنشأتها أول مرة . وهي جعلت من الشجر الأخضر ناراً . وهي  
أبدعت السماوات والأرض . وفي النهاية هي مالكة كل شيء في هذا الوجود . . وذلك قوام هذا  
للقطع الأخير . .

في ظلال القرآن، [ جلد ٧ ]



« وما علمناه الشعر - وما ينبغي له - إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » . .

وردت قضية الوحي في أول السورة : « يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . . . » . . والآن نبجىء في صورتها هذه للرد على ما كان يدعيه بعضهم من وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه شاعر ؛ ووصف القرآن الذى جاء به بأنه شعر . وما كان يخفى على كبراء قريش أن الأمر ليس كذلك . وأن ما جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - قول غير معهود في لغتهم . وما كانوا من الغفلة بحيث لا يفرقون بين القرآن والشعر . إنما كان هذا طرفاً من حرب الدعاية التى شنوها على الدين الجديد وصاحبه - صلى الله عليه وسلم - فى أوساط الجماهير . معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر ، الذى قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه .

وهنا ينبغى الله - سبحانه - أنه علم الرسول الشعر . وإذا كان الله لم يعلمه فلن يعلم . فما يعلم أحد شيئاً إلا ما يعلمه الله . .

ثم ينبغى لياقة الشعر بالرسول - صلى الله عليه وسلم - : « وما ينبغي له » فالشعر منهج غير منهج النبوة . الشعر انفعال . وتعبير عن هذا الانفعال . والانفعال يتقلب من حال إلى حال . والنبوة وحى . على منهج ثابت . على صراط مستقيم . يتبع ناموس الله الثابت الذى يحكم الوجود كله . ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة ، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التى لا تثبت على حال .

والنبوة اتصال دائم بالله ، وتلقى مباشر عن وحى الله ، ومحاولة دأمة لرد الحياة إلى الله . بينما الشعر - فى أعلى صوره - أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بمحدود مداركه واستعداداته . فأما حين يهبط عن صورته العالية فهو انفعالات وزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد ، وفورة لحم ودم ! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس . هذه - فى أعلى صورها - أشواق تصعد من الأرض . وتلك فى صميمها هداية تنزل من السماء .

« إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » . .

## الجزء الثالث والعشرون

ذكر وقرآن . . . وهما صفتان لشيء واحد . ذكر بحسب وظيفته . وقرآن بحسب تلاوته . فهو ذكر لله يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشغل به اللسان . وهو منزل ليؤدي وظيفة محددة :

« لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين » . . .

ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة . فيجعل الكفر موتاً ، ويجعل استعداد القلب للإيمان حياة . ويبين وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - لينذر من به حياة . فيجدي فيهم الإنذار . فأما الكافرون فهم موتى لا يسمعون النذير ؛ ووظيفة القرآن بالقياس إليهم هي تسجيل الاستحقاق للعذاب ، فإن الله لا يعذب أحداً حتى تبلغه الرسالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معذرة !

وهكذا يعلم الناس أنهم إزاء هذا القرآن فريقان : فريق يستجيب فهو حي . وفريق لا يستجيب فهو ميت . ويعلم هذا الفريق أن قد حق عليه القول ، وحق عليه العذاب !

\*\*\*

والمقطع الثاني في هذا القطاع يعرض قضية الألوهية والوحدانية ، في إطار من مشاهدات القوم ، ومن نعم الباري عليهم ، وهم لا يشكرون :

« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ؟ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ؟ واتخذوا من دون الله آلهة لعلمهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » . . .

أو لم يروا ؟ فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ، ليست غائبة ولا بعيدة ، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير . . . إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملكهم إياها . وذلكها لهم يركبونها ويأكلون منها ويشربون ألبانها ، وينتفعون بها منافع شتى . . . وكل ذلك من قدرة الله وتديره ؛ ومن إبداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام ، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها . وجعلها مدللة نافعة ملبية لشيء حاجات الإنسان . وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً . وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وما يملكون أن يذللوا ذباباً لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم . . . « أفلا يشكرون ؟ » . . .

وحيث ينظر الإنسان إلى الأمر بهذه العين وفي هذا الضوء الذي يشعه القرآن الكريم . فإنه يحس انوه أنه مغمور بفيض من نعم الله . فيض يتمثل في كل شيء حوله . وتصبح كل مرة يركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشرب جرعة من لبن ، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن . أو يلبس ثوباً من شعر أو صوف أو وبر . . . إلى آخره إلى آخره . . . لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته . ويتردد هذا في كل ما لمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حى أو جامد في هذا الكون الكبير . وتمود حياته كلها نسيحاً لله وحمداً وعبادة آتاء الليل وأطراف النهار . . .

ولكن الناس لا يشكرون . وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون الله : « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » : وفي الماضي كانت الآلهة أصناماً وأوثاناً ، أو شجراً أو نجوماً ، أو ملائكة أو جنات . . . والوثنية ما تزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض . ولكن الدين لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيد . وقد يتمثل شركهم اليوم في الإيمان بقوى زائفة غير قوة الله ؛ وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غير الله . والشرك ألوان ، تختلف باختلاف الزمان والمكان .

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينالوا بها النصر . بينما كانوا هم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة أن يعتدى عليها معتد أو يصيبها بسوء ، فكانوا هم جنودها وحماتها الممدون لنصرتها : « وهم لهم جند محضرون » . . . وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير . غير أن غالبية الناس اليوم لم ترتق عن هذا السخف إلا من حيث الشكل . فالذين يؤثون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعدون كثيراً عن عباد تلك الأصنام والأوثان . فهم جند محضرون للطغاة . وهم الذين يدفعون عنهم ويحمون طغيانهم . ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين ! إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها . وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخالص أى اضطراب جاءت الوثنية ، وكان الشرك ، وكانت الجاهلية ، ولا عصمة للبشرية إلا بالتوحيد الخالص الذي يفرد الله وحده بالألوهية . ويفرده وحده بالعبادة . ويفرده وحده بالتوجه والاعتماد . ويفرده وحده بالطاعة والتعظيم .

« فلا يحزنك قولهم . إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » .

الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يواجه أولئك الذين اتخذوا من دون الله

### الجزء الثالث والعشرون

آلهة . والذين لا يشكرون ولا يذكرون . ليطمئن بالا من ناحيتهم . فهم مكشوفون لعلم الله . وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه . فلا على الرسول منهم . وأمرهم مكشوف للقدرة القادرة . والله من وراءهم محيط . . .

ولقد هان أمرهم بهذا . وما عاد لهم من خطر يحسه مؤمن يعتمد على الله . وهو يعلم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون . وأنهم في قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون !

\*\*\*

والقطع الثالث في هذا القطاع الأخير يتناول قضية البعث والنشور :

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحي العظام وهي رميم ؟ قل : يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثاهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن . فيكون . . . »

. ويبدأ هذا القطع بمواجهة الإنسان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسه . وهذا الواقع يصور نشأته وصورته مما يراه واقعا في حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكررا معادا . ثم لا ينتبه إلى دلالاته ، ولا يتخذ منه مصداقا لوعد الله ببعثه ونشوره بدموته ودثوره .

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصم مبين » . . .

فما النطفة التي لا يشك الإنسان في أنها أصله القريب ؟ إنها نقطة من ماء مريم ، لا قوام ، ولا قيمة ، نقطة من ماء تحوى ألوف الحلايا . . خاية واحدة من هذه الألوف هي التي تصير جنينا . ثم تصير هذا الإنسان الذي يجادل ربه ويخاصمه ويطالب منه البرهان والدليل ، والقدرة الخالقة هي التي تجعل من هذه النطفة ذلك الخصم المبين . وما أبد التقلية بين

المنشأ والمصير ! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عايبا أن تعيده وتناثره بهد البلى والدثور ؟  
« وضرب لنا مثلا - ونسى خلقه - قل : من يحي العظام وهي رميم . قل : يحيها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . . .

باللبساطة ! وبالمنطق الفطرة ! ومنطق الواقع القريب المنظور !

وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك

النفثة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أو ليس الذي حول تلك النفثة إنسانا ،  
وجعله خصيا مبينا بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقا حيا جديدا ؟  
إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال . فما بال الجدل الطويل ؟ !  
« قل : بحيبها الذي أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » . . .  
ثم يزيدهم إيضاحا لطبيعة القدرة الخالقة ، وصنعها فيما بين أيديهم وتحت أعينهم  
بما يمكن :

« الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » . . .

والمشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة ! العجيبة التي يمرون عليها غافلين .  
عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحترق بعضه ببعض فيولد نارا ؟ ثم يصير هو وقود  
النار . بعد اللدونة والاختضار . . . والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحرارة التي تخزنها الشجر  
الأخضر من الطاقة الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة ؟ والتي  
تولد النار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق . . . هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة  
بروزا في الحس ووضوحا . والخالق هو الذي أودع الشجر خصائصه هذه . والذي أعطى كل  
شيء خلقه ثم هدى . غير أننا لانرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس  
الواعي . فلا تكشف لنا عن أسرارها العجيبة . ولا تدلنا على مبدع الوجود . ولو فتحنا لها  
قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ، ولعشنا معها في عبادة دائمة وتسبيح !

ثم يستطرد في عرض دلائل القدرة وتبسيط قضية الخلق والإعادة للبشر أجمعين :

« أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق

العليم » . . .

والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق . . . هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا  
ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لا يبلغ نحن شيئا من حجمها ، ولا شيئا من حقيقتها ، ولا نعلم  
عنها حتى اليوم إلا القليل . . . هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التي تعيش أرضنا  
الصغيرة على ضوءها وحرارتها . . . وهذه الشمس واحدة من مئة مليون في المجرة الواحدة التي  
تتبعها شمسا ، والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنيات  
كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مئة مليون مجرة بمنظيرهم المحدودة . وهم

## الجزء الثالث والعشرون

في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراسد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مئة ألف سنة ضوئية ( السنة الضوئية تقدر بـ ستة وعشرين مليون مليون من الأميال ! ) . . . وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من ثارها كانت تلك الشمس . وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشمس التي لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجرى فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس . . . وكلها تجرى وتدور في دقة وفي دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الواسع . . .

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوره . . . فذلك شيء يدير الرؤوس !

« أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ » . . .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟

« بلى ! وهو الخلاق العليم » . . .

ولكن الله - سبحانه - يخلق هذا وذلك ويخلق غيرها بلا كلفة ولا جهد . ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير وخلق الصغير :

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن . فيكون » . . .

يكون هذا الشيء سماء أو أرضاً . ويكون بموضة أو نملة . هذا وذلك سواء أمام الكلمة . . . كن . . . فيكون !

ليس هناك صعب ولا سهل . وليس هنالك قريب ولا بعيد . فتوجه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون . إنما يقرب الله للبشر الأمور ليدركوها بمقاييسهم البشرية المحدود .

\*\*\*

وعند هذا القطع يجيء الإيقاع الأخير في السورة . الإيقاع المصور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود :

## سورة يس

« فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء . وإليه ترجعون » . . .  
ولفظة ملكوت بصياغتها هذه تضخم وتمظم حقيقة هذه العلاقة . علاقة الملكية المطلقة  
لكل شىء فى الوجود . والسيطرة القابضة على كل شىء من هذا الملوك .  
ثم إن إليه وحده المرجع والمصير . . .  
إنه الإيقاع الختامى المناسب لهذه الجولة الهائلة ، والسورة كلها ، ولموضوعاتها المتعلقة بهذه  
الحقيقة الكبيرة ، التى يندرج فيها كل تفصيل . . .



**سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ**  
**وآيَاتُهَا ١٨٢**

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

« وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ .

« إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَمْ أَسَدٌ خَلَقْنَا أَمْ مِنْ خَلْقِنَا ؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

« وَقَالُوا : إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ ۝ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ ۝ قُلْ : نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝ وَقَالُوا : يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ .

« مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ؟ ۝ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝ وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا : بَلْ لَمْ تَكُونُوا



مُؤْمِنِينَ \* وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ \* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَاتِقُونَ \* فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ \* فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .

« إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ \* وَيَقُولُونَ : إِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ \* بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّكُمْ لَذَاتِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ \* وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ \* أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَمْلُومٌ \* فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ \* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ \* يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ \* بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ \* لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ \* وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ \* كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ \* فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ \* يَقُولُ : أَأِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ \* إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ؟

« قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ \* فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ \* قَالَ : تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُزِدِنِي \* وَلَوْ لَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

« أَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ \* إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ؟ \* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ .

« أذَلِكَ خَيْرٌ نَزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ؟ \* إِنَّا جَمَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ \* إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ \* طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ \* فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا فَمَا لَثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ \* ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ \* ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ » ۝

هذه السورة المكية - كسابقها - قصيرة الفواصل ، سريعة الإيقاع ، كثيرة المشاهد والمواقف ، متنوعة الصور والظلال ، عميقة المؤثرات ، وبعضها عنيف الوقع ، عنيف التأثير . وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صورته وأشكاله . ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلاً ؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . . تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله - سبحانه - وبين الجن . وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من الأزواج بين الله - تعالى - والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث ، وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تعرض لحملة قوية في هذه السورة ؛ تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : « والصفات صفا . فالزاجرات زجراً : فالتاليات ذكراً » . . ويتلوها حديث عن الشياطين المردة ، وتعرضهم للرجم بالنهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملائكة الأعلى . ولا يتسمعوا لما يدور فيه ؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طورردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبه ثمار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقييح والتفطيع ! وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المنهافة : « فاستفهم الربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفاكم ليقولون : ولد الله وإناهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين . وجعلوا بينه وبين الجنة نسياً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . . سبحانه الله عما يصفون ! » . .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكية . فثبتت فكرة التوحيد مستدلة بالكون والشهود : « إن إلهكم لواحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشرق » . . وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذبين في ثانياً مشهد من مشاهد القيامة : « فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ،

## سورة الصافات

ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لتدثقون العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » . . .

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء . « وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . وإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل نعم وأنتم داخرون » . . . ثم تعرض بهذه المناسبة مشهدا مطولا فريدا من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قولهم : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ » والرد عليهم : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » . . .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . تكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للكاذبين بالعذاب والتكيل : « ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين تأنظر كيف كان عاقبة المنتذرين . إلا عباد الله المخلصين » . . .

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه اسماعيل . قصة الذبح والفداء وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله في أروع صورها وأعمقها وأرفعها ؛ وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

\*\*\*

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها ، تتمثل بشكل

واضح في :

مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الحظفة فأتبعه شهاب ثاقب » . . .

وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ، ومفاجأتها الفريدة ، وانفعالاتها القوية . والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقا سلسه عند استعراضه تفصيلا في مكانه من السورة .

وفي القصص ومواقفه وإيماءاته . وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل - عليها

## الجزء الثالث والعشرون

السلام وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي نهز القلوب هزا عميقا عنيقا .  
ذلك إلى الإيقاع الموسيقي في السورة وهو ذو طابع مميز يتفق مع صورها وظلالها ومشاهدتها  
ومواقفها وإيحائها المتلاحقة العميقة .

\*\*\*

ويجري سياق السورة في عرض موضوعاتها في ثلاثة أشواط رئيسية :  
الشوط الأول يتضمن افحاح السورة بالقسم بتلك الطوائف من الملائكة : والصفات  
صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا على وحدانية الله رب المشارق ، مزين السماء  
بالكواكب . ثم تجيء مسألة الشياطين وتسميهم للملأ الأعلى ورجمهم بالشهب الثاقبة . يتلوها  
سؤالهم : « أم أشد خلقا » أم تلك الخلائق : الملائكة والسماء والكواكب والشياطين والنهب ؟  
للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون  
بوقوعه . ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعم والعذاب . وهو مشهد  
فريد . . .

والشوط الثاني يبدأ بأب هولاء الضالين لهم نظائر في السابقين ، الذين جاءتهم  
النذر فكان أكثرهم من الضالين . ويستطرد في قصص أولئك المنذرين من قوم نوح  
وإبراهيم وموسى وهارون وإيلياس ولوط ويونس ؛ وكيف كانت عاقبة المنذرين  
وعاقبة المؤمنين .

والشوط الثالث يتحدث عن تلك الأسطورة التي مر ذكرها . أسطورة الجن والملائكة .  
ويقرر كذلك وعد الله لرسله بالظفر والغلبة : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم  
لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » . . . وينتهي بنختم السورة بتزييه الله سبحانه  
والتسليم على رسله والاعتراف بربوبيته : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام  
على المرسلين . والحمد لله رب العالمين » . . . وهي القضايا التي تناولها السورة في الصميم . . .  
والآن تأخذ في التفصيل :

\*\*\*

« والصفات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا ، إن إلهكم لو واحد . رب السماوات  
والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . .

## سورة الصافات

والصافات والزاجرات والتاليات . . . طوائف من الملائكة ذكرها هنا بأعمالها التي يعلمها . والتي يجوز أن تكون هي الصافات قوائمها في الصلاة ، أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله . والزاجرات لمن يستحق الزجر من العصاة في أثناء قبض أرواحهم مثلاً أو عند الحشر والسوق إلى جهنم أو في أية حالة وفي أي موضع . والتاليات للذكر . . القرآن أو غيره من كتب الله أو المسبحات بذكر الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الطوائف من الملائكة على وحدانيته : « إن إلهكم لوحد » . . ومناسبة هذا القسم - كما أسلفنا - هو تلك الأسطورة التي كانت شائعة في جاهلية العرب من نسبة الملائكة إلى الله ، واتخاذهم آلهة بما أنهم - بزعمهم - بنات الله ! ثم يعرف الله عباده بنفسه في صفته المناسبة للوحدانية :

« رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » . . .

وهذه السماوات والأرض قاعة حيال العباد ؛ تمدتهم عن الخالق الباري المدبر لهذا المكوت الهائل ؛ الذي لا يدعى أحد أنه يملك خلقه وتديره ؛ ولا يملك أحد أن يهرب من الاعتراف لخالقه بالقدر المطلق والربوبية الحقة . « وما بينهما » . . من هواء وسحاب ، وضوء ونور ، ومخلوقات دقيقة يعرف البشر شيئاً منها الحين بعد الحين ، ويخفى عليهم منها أكثر مما يكشف لهم !

والسماوات والأرض وما بينهما من الضخامة والعظمة والدقة والتنوع والجمال والتناسق بحيث لا يملك الإنسان نفسه أمامها - حين يستيقظ قلبه - من التأثر العميق ، والروعة البالغة ، والتفكير الطويل . وما يمر الإنسان بهذا الخلق العظيم من غير ماتأثر ولا تدبر إلا حين يموت قلبه ، ويفقد التأثر والاستجابة لإيقاعات هذا الكون الحافل بالعجائب .

« ورب المشارق » . .

ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهي مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة . . وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك . فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب - فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية . حتى إذا تحركت الأرض كانت هناك

## الجزء الثالث والعشرون

مشرق آخر على القطاع التالي ومغرب آخر على القطاع المقابل له وهكذا... وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن الكريم؛ ولكن خبرهم بها الله في ذلك الزمان القديم، وهذا النظام الدقيق في توالي المشارق على هذه الأرض. وهذا البهاء الرائع الذي يفخر الكون في مطالع المشارق.. كلاهما جدير بأن يوقع في القلب البشري من التأثيرات الموحية، ما يهتف به إلى تدبير صنعة الصانع المبدع، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبر، بما يبدو من آثار الصنعة الموحدة التي لا اختلاف في طابعها الدقيق الجميل.

تلك هي مناسبة ذكر هذه الصفة من صفات الله الواحد في هذا المقام. وسنرى أن ذكر السماء وذكر المشارق له مناسبة أخرى فيما يلي هذه الآيات من السورة. عند الحديث عن الكواكب والشهب والسياطين والرجوم...

\*\*\*

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب، وحفظا من كل شيطان مارد، لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويقذفون من كل جانب، دحورا ولهم عذاب واصب، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ».

بعد مامس في مطلع السورة شطر الأسطورة الخاص بالملائكة، عاد يمس هنا شطرها الثاني وهو الخاص بالسياطين. وكانوا يزعمون أن بين الله وبين الجنة نسا. وبعضهم كانوا يمدون السياطين على هذا الأساس. وعلى أساس أن السياطين يعرفون الغيب لاتصالهم بالملائ الأعلى...

وبعد ذكر السماوات والأرض وما بينهما وذكر المشارق. إما مشارق النجوم والكواكب. وإما المشارق المتوالية على قطاعات الأرض. وإما هذه وتلك وأنوارها وأضوائها... يجيء ذكر الكواكب:

« إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »..

ونظرة إلى السماء كافية لرؤية هذه الزينة؛ ولإدراك أن الجمال عنصر مقصود في بناء هذا الكون؛ وأن صنعة الصانع فيه بديعة التكوين جميلة التنسيق؛ وأن الجمال فيه فطرة عميقة لا عرض سطحي؛ وأن تصميمه قائم على جمال التكوين كما هو قائم على كمال الوظيفة سواء بسواء. فكل شيء فيه بقدر، وكل شيء فيه يؤدي وظيفته بدقة؛ وهو في مجموعه جميل.

## سورة الصافات

والسما . وتناثر الكواكب فيها ، أجمل مشهد تتمع عليه العين . ولا تمل طول النظر إليه .  
وكل نجمة بوصول بضوئها وكل كوكب بوصول بنوره ؛ وكأنه عين محبة تخانك النظر ؛  
فإذا أنت حدثت فيها أغمضت وتوارت ؛ وإذا أنت التفت عنها أبرقت ولعت ! وتتبع مواقعها  
وتغير منازلها ليلة بعد ليلة وأنا بعد آن متعة نفسية لا تعلمها النفس أبدا !

ثم تقرر الآية التالية أن لهذه الكواكب وظيفة أخرى ، وأن منها شيئا ترجم بها الشياطين  
كأن لا تدنو من الملائ الأعلى :

« وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملائ الأعلى ويقذفون من كل جانب  
دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب .. »

فمن الكواكب رجوم تحفظ السماء من كل شيطان عات متمرد وتدوده عن الاستماع  
إلى ما يدور في الملائ الأعلى ؛ فإذا حاول التسمع تلقفته الرجوم من كل جانب ، فتدحره دحرا ،  
وله في الآخرة عذاب موصول لا ينقطع . ولما يخطف الشيطان المارد خطفة سريعة مما يدور  
في الملائ الأعلى ، فيتبعه شهاب يلاحقه في هبوطه فيصيه ويحرقه حرقا .

ونحن لانعرف كيف يتسمع الشيطان المارد ؛ ولا كيف يخطف الخطفة ؛ ولا كيف يرجم  
بالشهاب الثاقب . لأن هذه كلها غيبات تعجز طبيعتنا البشرية عن تصور كفياتها ؛ ومجالنا  
فيها هو تصديق ما جاء من عند الله فيها . وهل نعلم عن شيء في هذا الكون إلا القشور ؟  
والمهم أن هذه الشياطين التي تمنع من الوصول إلى الملائ الأعلى ، ومن التسمع لما يدور  
فيه هي التي يدعى المدعون أن بينها وبين الله نسيبا ، ولو كان شيء من هذا صحيحا لتغير وجه  
المعاملة . ولما كان مصير الأنبياء والأصهار - بزعمهم - هو المطاردة والرجم والحرق أبدا !

\*\*\*

وبعد ذكر الملائكة . وذكر السماوات والأرض وما بينهما . وذكر الكواكب التي  
تزين السماء الدنيا . وذكر الشياطين المردة والفدائف التي تلاحقها . . يكلف الرسول -  
صلى الله عليه وسلم - أن يسألهم أم أشد خلقا أم هذه الخلائق ؟ وإذا كانت هذه الخلائق  
أشد وأقوى فقيم يدهشون لقضية البعث ويسخرون منها ، ويستبدون وقوعها ، وهي  
لا تقاس إلى خلق تلك الخلائق الكبرى :

« فاستفتهم أم أشد خلقا أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون .

## الجزء الثالث والعشرون

وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون : وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . وإذا  
متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » .

فاستفتهم وأسألهم إذا كانت الملائكة والسموات والأرض وما بينهما والشياطين  
والكواكب والنهب كلها من خلق الله . فهل خلقهم هم أشد وأصعب من خلق هذه  
الأكوان والخلائق ؟

ولا ينتظر منهم جوابا ، فالأمر ظاهر ؛ إنما هو سؤال الاستنكار والتعجب من حالهم  
العجيب . وغفلتهم عما حولهم ، والسخرية من تقديرهم للأمر . ومن ثم يعرض عليهم مادة  
خلقهم الأولى . وهي طين رخو لزج من بعض هذه الأرض ، التي هي إحدى تلك الخلائق :  
« إنا خلقناهم من طين لازب » . . .

فهم قطعا ليسوا أشد خلقا من تلك الخلائق ! وموقفهم إذن عجيب . وهم يسخرون من آيات  
الله ، ومن وعده لهم بالبعث والحياة . وسخريتهم هذه تثير العجب في نفس الرسول - صلى الله  
عليه وسلم - وهم في موقفهم سادرون :

« بل عجبنا ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون » . . .

وحق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعجب من أمرهم . فإن المؤمن الذي يرى الله  
في قلبه كما يراه محمد - صلى الله عليه وسلم - ويرى آيات الله وانحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه  
الكثرة ، يعجب - لا شك - ويدهش كيف يمكن أن تعنى عنها القلوب ؟ وكيف يمكن أن  
تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعجب منهم هذا العجب ، إذا هم يسخرون من القضية  
الواضحة التي يعرضها عليهم ، سواء في وحدانية الله ، أو في شأن البعث والنشور . وإذا هم  
مطموسون لا تفتح قلوبهم للتذكير . وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجب  
يربهم إياها ، واستدعاء أسباب السخرية وطلبها طلبا كما يوحي لفظ « يستسخرون » !

ومن ذلك وصفهم القرآن بأنه سحر ، وعجبهم مما يعدم به من البعث :

« وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين . وإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟  
أو آباؤنا الأولون ؟ » . . .



## سورة الصافات

لقد غفلوا عن آثار قدرة الله فيما حولهم ، وفي ذات أنفسهم . غفلوا عن آثار هذه القدرة في خلق السماوات والأرض وما بينهما ؛ وفي خلق الكواكب والشهب ؛ وفي خلق الملائكة والشياطين ؛ وفي خلقهم هم أنفسهم من طين لازب . . غفلوا عن آثار القدرة في هذا كله ووقفوا يستبعدون على هذه القدرة أن تعيدهم إذا ماتوا وصاروا ترابا وعظاما ، هم وآباؤهم الأولون ! وما في هذا البعث والإعادة من غريب على تلك القدرة ولا بعيد ؛ إن يتأمل هذا الواقع ويتدبره أقل تدبر ؛ في ضوء هذه المشاهدات التي تحيط بهم في الآفاق وفي أنفسهم .

\*\*\*

وإذا كانوا لا يتدبرون هذه المشاهدات في هواة ويسر ، وفي طمأنينة وهدوء . فهو يوقظهم إذ ذك بشدة وعنف ، على مشهدهم في الآخرة مبعوثين . ويصور لهم ذلك المشهد وهم فيه يضطربون<sup>(١)</sup> :

« قل : نعم وأتم داخرون » . .

نعم سنبعثون أتم وآباؤكم الأولون . سنبعثون وأتم داخرون ، ذلولون ، مستسلمون . غير مستعصين ولا متأينين . . نعم . . ثم يدخل في استعراض ذلك كيف يكون . وإذا هم أمام مشهد من المشاهد المطولة المتعددة الجوانب . المتنوعة الأساليب . المزدهجة بالمناظر الحية والحركات المتتابعة . يلتقي فيها الوصف بالحوار . فتسير على نسق الحكاية نثرة ، ثم تنتقل إلى نسق الحوار أخرى . ويتخلل عرض الأحداث والحركات تعليقات وتعقيبات عليها . وبذلك يستكمل المشهد كل سمات الحياة :

« فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون » . .

هكذا في ومضة خاطفة بمقدار ماتنبعث صيحة واحدة . تسمى « زجرة » للدلالة على لون من الشدة فيها ، والعنف في توجيهها ، والاستعلاء في مصدرها . . « فإذا هم ينظرون » . . فجأة وبلا تمهيد أو تحضير . وإذا هم يصيحون مبهوتين :

« قالوا : يا ويلنا . هذا يوم الدين » . .

وبينما هم في بهتهم وبغتهم إذا صوت بحمل إليهم التقرير من حيث لا يتوقعون :

« هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » . . ١

(١) لتعير هنا في تفسير هذا المشهد صفحات من كتاب : « شاهد القيامة في القرآن » مع تصرف قليل .

### الجزء الثالث والعشرون

وهكذا ينتقل السياق من الخبر إلى الخطاب موجهاً لمن كانوا يكذبون يوم الدين . وإن  
هي إلا تفرقة واحدة حاسمة . ثم يوجه الأمر إلى الموكلين بالتنفيذ :  
« احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم .  
وقفوهم إنهم مسئولون » .

احشروا الذين ظلموا ومن هم على شاكلتهم من المذنبين ، فهم أزواج متشاكلون ..  
وفي الأمر - على ما فيه من لهجة جازمة - تهكم واضح في قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » ..  
فما أعجبها من هداية خير منها الضلال . وإنما لهي الرد المكافيء لما كان منهم من ضلال عن الهدى  
القويم . وإذ لم يهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم ، فليهدوا اليوم إلى صراط الجحيم !  
وهام أولاء قد هدوا . هدوا إلى صراط الجحيم . ووقفوا على استعداد للسؤال .  
وهاهو ذا الخطاب يوجه إليهم بالتقريع في صورة سؤال برىء !

« مالكم لا تتصرون ؟ » !

مالكم لا ينصر بعضهم بعضاً ، وأنتم هنا جميعاً ؟ وكلكم في حاجة إلى الناصر المعين ؟ !  
ومعكم آلهتكم التي كنتم تعبدون !

ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام ! إنما يرد التعليق والتعقيب :

« بل هم اليوم مستسلمون » ..

عابدين . ومعبودين !!!

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحكاية ، ويعرض مشهدهم يجادل بعضهم بعضاً :  
« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » ..  
أي كنتم تؤسسون لنا عن يميننا - كما هو المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالباً - فأنتم  
مسؤولون عما نحن فيه .

وعندئذ ينبرى التهمون لتسفيه هذا الاتهام ، وإلقاء التبعة على وجهيه :

« قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين » ..

فلم تكن وسوستنا هي التي أغوتكم بعد إيمان ، وأضلتكم بعد هدى ..

« وما كان لنا عليكم من سلطان » ..

## سورة الصافات

نرغمكم به على قبول ما نراه ، ونضطركم إليه اضطراراً لا ترغبون فيه .

« بل كنتم قوماً طاعينين » ..

متجاوزين للحق ، ظالمين لا تقفون عند حد .

« فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون » ..

فاستحققنا نحن وأنتم العذاب ، وحق علينا الوعيد بأن نذوق العذاب .

وقد انزلتكم معنا بسبب استعدادكم للغواية ، وما فعلنا بكم إلا أنكم اتبعتمونا في غوايتنا :

« فأغويناكم إنا كنا غاوين » ..

وهنا يرد تعليق آخر ، وكأنه حكم يعلن على رؤوس الأشهاد ، يحمل أسبابه ، ويعرض

ما كان منهم في الدنيا مما حقق قول الله عليهم في الآخرة :

« فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون . إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا إذا قيل

لهم : لا إله إلا الله يستكبرون ؛ ويقولون : إنا لنتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » .

ثم يكمل التعليق متوجهاً فيه بالتأنيب والتوبيخ لقائل هذا الكلام المرذول :

« بل جاء بالحق وصدق المرسلين . إنكم لذائقو العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم

تعملون . إلا عباد الله المخلصين » ..

وعلى ذكر عباد الله المخلصين - الذين استثناهم من تذوق العذاب الأليم - يعرض صفحة

هؤلاء العباد المخلصين في يوم الدين . ويعود العرض متبعاً نسق الإخبار المصور للنعم الذي

يتقبلون في أعطافه - في مقابل ذلك العذاب الأليم للكاذبين - :

« أولئك لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين .

يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون . وعندما

قاصرات الطرف عين . كأنهنبيض مكنون ... » .

وهو نعيم مضاعف يجمع كل مظاهر النعيم . نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس .

وتجد فيه كل نفس ما تشتهي من ألوان النعيم .

فهم - أولاً - عباد الله المخلصون . وفي هذه الإشارة أعلى مراتب التكريم . وهم - ثانياً -

« مكرمون » في الملائكة الأعلى . وبإله من تكريمهم ثم إن لهم « فواكه » وهم على « سرر

متقابلين » . وهم يخدمون فلا يتكفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم :

## الجزء الثالث والعشرون

« يطاق عليهم بكأس من معين . ييضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » . . .  
وتلك أجمال أوصاف الشراب ، التي تحقق لذة الشراب ، وتنفي عقابيله . فلا حمار يصدع  
الرؤوس ، ولا منع ولا انقطاع يذهب بلذة المتاع ! « وعندهم قاصرات الطرف عين » حور  
حيات لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن حياء وعفة ، مع أنهن « عين » واسعات حبيبات  
العيون ! وهن كذلك مصونات مع رقة ولطف ونعومة : « كأنهن بيض مكنون » . . .  
لا تبتذله الأيدي ولا العيون !

ثم يعنى في الحكاية المصورة ؛ فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء - بعد ما يسرت لهم كل  
ألوان المتاع - ينعمون بسحر هادئ ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر - وذلك في مقابل  
التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين في أول المشهد - وإذا أحدهم يستعيد ماضيه ، ويقص  
على إخوانه طرفا مما وقع له :  
« قال قائل منهم : إني كان لى قرين . يقول : أإنك إن الصدقين . إذا متا وكنا ترابا  
وعظاما إنا لمدينون ؟ » . .

لقد كان صاحبه وقرينه ذلك يكذب باليوم الآخر ، ويسأله في دهشة : أهو من الصدقين  
بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟ !  
وبينا هو ماض في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه  
ذاك ليعرف مصيره . وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم . فيتطلع ويدعو إخوانه  
إلى التطلع معه :

قال : « هل أتم مطلقون ؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم » . . .  
عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجدته في وسط الجحيم . يتوجه إليه ليقول له : يا هذا . لقد  
كدت توردنى موارد الردى بوسوستك . لولا أن الله قد أنعم على ، فصحنى من الاستماع إليك :  
« قال : تالله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين » . . .

أى لكنت من الذين يساقون إلى الموقف وهم كارهون .  
وتشير رؤيته لقرينه في سواء الجحيم شعوره بجزالة النعمة التي نالها هو وإخوانه من عباد  
الله المخلصين . فيجب أن يؤكدها ويستعرضها ، ويطمئن إلى دوامها ، تلذذا بها وزيادة  
في المتاع بها فيقول :

## سورة الصافات

« أفما نحن بعيتين إلا موتتنا الأولى ؟ وما نحن بمعذبين ؟ إن هذا هو الفوز العظيم » ..

وهنا، يرد تطيق بوقظ القلوب ويوجهها إلى العمل والتسابق مثل هذا المصير :

« لكُل هذا » النعم الذي لا يدركه فوت ، ولا يخشى عليه من تقاد ، ولا يعقبه موت ،

ولا يتهده العذاب . لكُل هذا فليعمل العاملون .. فهذا هو الذي يستحق الاحتفال . وما عداه

مما ينفق فيه الناس أعمارهم على الأرض زهيد زهيد حين يقاس إلى هذا الخلود .

ولكى يتضح الفارق الهائل بين هذا النعم الخالد الآمن الدائم الراضى ؟ والمصير الآخر

الذى ينتظر الفريق الآخر . فإن السياق يستطرد إلى ما ينتظر هذا الفريق بعد موقف الحشر

والحساب الذى ورد فى مطلع المشهد الفريد :

« أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ! إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل

الجحيم . طلعتها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لا يكلون منها فمائلون منها البطون . ثم إن لهم

عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم إلى الجحيم » ..

أذلك النعم القيم خير منزلا ومقاما أم شجرة الزقوم ؟

وما شجرة الزقوم ؟

« إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعتها كأنه رؤوس الشياطين » ..

والناس لا يعرفون رؤوس الشياطين كيف تكون ! ولكنها مفزعة ولا شك . ومجرد

تصورها يثير الفزع والرعب . فكيف إذا كانت طلعا يأكلونه ويملاؤن منه البطون ؟ !

لقد جعل الله هذه الشجرة فتنة للظالمين . فحين سمعوا باسمها سخرُوا وقالوا : كيف تنبت

شجرة فى الجحيم ولا تحترق . وقال قائل منهم هو أبو جهل ابن هشام يسخر ويتفكك :

« يامعشر قريش هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة

يثرب بالزبد ! والله لئن استمكننا منها لنزقمها نزقما ! ولكن شجرة الزقوم هذه شئ آخر غير

ذلك الطعام الذى كانوا يعرفون !

« فإنهم لا يكلون منها فمائلون منها البطون » ..

فإذا شاكت حلوقهم وهى كـرؤوس الشياطين - وحرقت بطونهم - وهى تنبت فى أصل

الجحيم ولا تحترق لأنها من نوع الجحيم ! - وتطلعوا إلى برد الشراب ينقع الفلاة ويطفىء

## الجزء الثالث والعشرون

الليب . فإنهم لشاربون عليها ماء ساخا مشوبا غير خالص : « ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم » . . .

وبعد هذه الوجبة يغادرون تلك المائدة عائدين إلى مقرهم المقيم . وبإله من نزل ! وبإله من معاد !

« ثم إن مرجمهم لإلى الجحيم » . . .

بذلك يختم المشهد الفريد . وينتهي الشوط الأول من السورة . وكأنما كان قطعة من الواقع المشهود .

« إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿١٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ \* وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولَٰئِينَ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ \* فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ .

« وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ \* وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ \* وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ \* وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ .

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ \* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ \* أَفَكَا أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ \* فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ \* فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ \* فَقَالَ : إِنِّي سَقِيمٌ \* فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ \* فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِتِهِمْ فَقَالَ : أَلَا تَأْتَاكُمْ كَلِمَةٌ \* مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ؟ \* فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ \* فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ \* قَالَ : أتعبدون ما تنحتون ؟ \* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ؟ \* قَالُوا : أَبْنَاؤُا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ \* فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْقَلِينَ \* وَقَالَ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ \* رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ \* فَبَشِّرْهُ بِأُمَّةٍ حَلِيمَةٍ \* فَلَمَّا بَلَغَ

مَعَهُ السَّعَى قَالَ : يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ . قَالَ :  
 يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ \* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ  
 وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ \* قَدْ صَدَّقَت الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّ هَذَا  
 لَهَوَ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ \* وَوَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ \* وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى  
 إِبْرَاهِيمَ \* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ \* وَبَشَرْنَاهُ إِسْحَاقَ  
 نَبِيًّا مِن الصَّالِحِينَ \* وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ  
 مُبِينٌ .

« وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ \* وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ \*  
 وَنَعَرْنَا لَهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَالِغِينَ \* وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ \* وَوَدَّيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ  
 الْمُسْتَقِيمَ \* وَتَرَكَنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ \* إِنَّا كَذَلِكَ  
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُمَا مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : أَلَا تَتَّقُونَ ؟ \* أَتَدْعُونَ بَعْلًا  
 وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ آتَالَتَيْنِ \* اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ \* فَكَذَّبُوهُ فَأَنهَمُ  
 لَمُحْضَرُونَ \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ \* وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ \* سَلَامٌ عَلَى  
 إِلْيَاسَ \* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ \* إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

« وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ \*  
 ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ \* وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُؤُنَ سَائِرِينَ مُصْبِحِينَ \* وَاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟  
 « وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ \* إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ \* فَسَامَ فَكَانَ  
 مِنَ الْمُدْحَضِينَ \* فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ \* فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ \* لَلَبِثَ  
 فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ \* وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ  
 يَقْطِينٍ \* وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ \* فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ » ﴿٥٦﴾

## الجزء الثالث والعشرون

في هذا الدرس يعود السياق من الجولة الأولى في ساحة الآخرة ، وفي عمالي العم ودارات العذاب ، يعود ليستأنف جولة أخرى في تاريخ البشر مع آثار النذاهيين الأوليين ، يعرض فيها قصة المهدي والضلال منذ فجر البشرية الأولى ؛ فإذا هي قصة مكرورة معاده ؛ وإذا القوم الذين يواجهون الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مكة بالكفر والضلال بنية من أولئك المكذبين الضالين . ويكشف لهؤلاء عما جرى ابن كان قبلهم ، ويلبس قنوبه بهد ، الصفحات المطوية في بطون التاريخ . ويطمئن المؤمنين برعاية الله التي لم تتخل في الماضي عن المؤمنين .

وفي هذا السياق يستعرض طرفاً من قصص نوح ، وإبراهيم ، وإسماعيل وإسحاق ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس . . . ويقف وقفة أطول أمام قصة إبراهيم وإسماعيل . يعرض فيها عظمة الإيمان والتضحية والطاعة ، وطبيعة الإسلام الحقيقية كما هي في نفس إبراهيم وإسماعيل ، في حلقة لا تعرض في غير هذه السورة ، ولا ترد إلا في هذا السياق . . . وهذا القصص هو قوام هذا الدرس الأصيل . . .

\*\*\*

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأوليين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . . .

إنهم عريقون في الضلالة ، وهم في الوقت ذاته مقلدون لا يفكرون ولا يتدبرون ؛ بل يطبرون معجلين يقفون خطى آباءهم الضالين غير ناظرين ولا متفكرين :

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » . . .

وهم وآباؤهم صورة من صور الضلال التي يمثلها أكثر الأوليين :

« ولقد ضل قبلهم أكثر الأوليين » . . .

وكان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير :

« ولقد أرسلنا فيهم منذرين » . . .

ولكن كيف كانت العاقبة ؟ كيف كانت عاقبة المكذبين ؟ وكيف كانت عاقبة عباد الله المخلصين ؟ إنها معروضة في سلسلة القصص . وهذا الإعلان في مقدمتها للتنبيه :



## سورة الصافات

« فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، إلا عباد الله المخلصين » ...

\*\*\*

ويبدأ بقصة نوح في إشارة سريعة تبين العاقبة ، وتقرر عناية الله بعباده المخلصين :

« ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون . ونجينا أهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين . وترتنا عليه في الآخريين ، سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخريين » . .

وتضمن هذه الإشارة توجه نوح بالنداء إلى ربه ، وإجابة دعوته إجابة كاملة وافية . إجابتها من خير مجيب . الله سبحانه . « فلنعم المجيئون » . . وتضمن نجاته هو وأهله من الكرب العظيم . كرب الطوفان الذي لم ينج منه إلا من أراد له الله النجاة وقدر له الحياة . . وتضمن قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عمارة لهذه الأرض وخلفاء . وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان : « وتركنا عليه في الآخريين » . . وتعلن في الحاققين سلام الله على نوح . جزاء إحسانه : « سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين » . . وأى جزاء بعد سلام الله . والذكر الباقي مدى الحياة ! أما مظهر الإحسان وسبب الجزاء فهو الإيمان : « إنه من عبادنا المؤمنين » . . وهذه هي عاقبة المؤمنين . . فأما غير المؤمنين من قوم نوح فقد كتب الله عليهم الهلاك والفناء : « ثم أغرقنا الآخريين » . . ومضت سنة الله منذ فجر البشرية البعيد . وفق ذلك الإجمال في مقدمة القصص : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين » . .

\*\*\*

ثم نجى قصة إبراهيم . نجى في حلقتي رئيسيتين : حلقة دعوته لقومه ، وتحطيم الأصنام ، وهمهم به ليقتلوه ، وحماية الله له وخذلان شائثيه - وهو حلقة تكررت من قبل في سور القرآن - وحلقة جديدة لا تعرض في غير هذه السورة . وهي الخاصة بمحادث الرؤيا والتدريج والفداء ، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف ، في أسلوبها الأخاذ وأدائها الرهيب . أمثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم العقيدة في تاريخ البشرية الطويل .

« وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ إنك آلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » . .

## الجزء الثالث والعشرون

هذا هو افتتاح القصة ، والمشهد الأول فيها . . . نقلة من نوح إلى إبراهيم . وبينهما صلة من العقيدة والدعوة والطريق . فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين ؛ ولكنه المنهج الإلهي الواحد ، الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشتركان فيه . ويرز من صفة إبراهيم سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير :

« إذ جاء ربه بقلب سليم » . . .

وهي صورة الاستسلام الخالص . تمثل في مجيئه لربه . وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تمثل في سلامة قلبه . والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لدلوله . وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم . ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة ، والإخلاص والاستقامة . . . إلا أنه يبدو بسيطاً غير معقد ، ويؤدي معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات ! وتلك إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد .

وبهذا القلب السليم ، استنكر ما عليه قومه واستبشعه . استنكار الحس السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور ومن سلوك :

« إذ قال لأبيه وقومه : ماذا تعبدون ؟ أفكآلهة دون الله تريدون ؟ فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . . وهو يراهم يعبدون أصناماً وأوثاناً . فيهدف بهم هتاف الفطرة السليمة في استنكار شديد . « ماذا تعبدون ؟ » ماذا ؟ فإن ما تعبدونه ليس من شأنه أن يعبد ، ولا أن يكون له عابدون ! وما يعبد الإنسان في شبهة من حق . إنما هو الإفك المحض . والافتراء الذي لا شبهة فيه . فهل أتم تقصدون إلى الإفك قصداً وإلى الافتراء عمداً : « أفكآلهة دون الله تريدون ؟ » وما هو تصوركم لله ؟ وهل يهبط وينحرف إلى هذا المستوى الذي تنكره الفطرة لأول وهلة : « فما ظنكم برب العالمين ؟ » . . . وهي كلمة يبدو فيها استنكار الفطرة السليمة البريئة ، وهي تطلع على الأمر البين الذي يصد الحس والعقل والضمير .

ويسقط السياق هنا ردهم عليه ، وحوارهم معه ؟ ويمضي مباشرة في المشهد التالي إلى عزيمته التي قررها في نفسه تجاه هذا الإفك المكشوف :

« فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا تأكلون ؟ ما لكم لا تنطقون ؟ فراغ عليهم ضرباً باليمين » . . .

ويروى أنه كان للقوم عيد - ربما كان هو عيد النيروز - يخرجون فيه إلى الحدائق

## سورة الصافات

والحلوات ، بعد أن يضعوا الثمار بين يدي آلهتهم لتباركها . ثم يعودون بعد الفسحة والرح  
 فيأخذون طعامهم المبارك ! وأن إبراهيم - عليه السلام - بعد أن ينس من استجابتهم له ؛  
 وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له ، اعتمز أمرا . وانتظر هذا اليوم الذي  
 يبعدون فيه عن المعابد والأصنام لينفذ ما اعتمز . وكان الضيق بما هم فيه من انحراف قد بلغ  
 منه أقصاه وأتعب قلبه وقواه . فلما دعى إلى مغادرة المعبد قلب نظره إلى السماء وقال : « إني  
 مقيم » . لا طاقة لي بالخروج إلى المنزهات والحلوات . فإني أخرج إليها طلاب اللذة والمتاع ،  
 أخلياء القلوب من الهم والضيق - وقلب إبراهيم لم يكن في راحة ونفسه لم تكن في استرواح .  
 قال ذلك مبرأ عن ضيقه وتعبه . وأفصح عنه ليركوه وشأنه . ولم يكن هذا كذبا منه .  
 إنما كان له أصل في واقع حياته في ذلك اليوم . وإن الضيق ليرض ويستقم ذويه !

وكان القوم معجلين ليذهبوا مع عاداتهم وتقاليدهم ومراسم حياتهم في ذلك العيد ؛ فلم  
 يتلبثوا ليفحصوا عن أمره ، بل تولوا عنه مدبرين ، مشغولين بما هم فيه . وكانت هذه هي  
 الفرصة التي يريد .

لقد أسرع إلى آلهتهم المدعاة . وأمامها أطيب الطعام وبواكير الثمار . فقال في تهكم :  
 « ألا تأكلون ! » .. ولم تجبه الأصنام بطبيعة الحال . فاستطرد في تهكمه وعليه طابع الغيظ  
 والسخرية : « مالكم لا تنطقون ؟ » .. وهي حالة نفسية معروفة . أن يوجه الإنسان كلامه  
 إلى ما يعلم حقيقته ، ويستيقن أنه لا يسمع ولا ينطق ! إنما هو الضيق بما وراء الآلهة المزعومة  
 من القوم وتصورهم السخيف . . . ولم تجبه الآلهة مرة أخرى ! ! وهنا أفرغ شحنة الغيظ  
 المكتوم حزكة لا قولاً : « فراغ عليهم ضرباً باليمين » .. وشفي نفسه من السقم والهم  
 والضيق . . . !

ويتهى هذا المشهد فليبه مشهد جديد . وقد عاد القوم فاطلموا على جذاذ الآلهة ! ويختصر  
 السياق ما يفصله في سورة أخرى من سؤا لهم عن صنع بآلهتهم هذا الصنع ، واستدلالهم  
 في النهاية على الفاعل الجريء . يختصر هذا ليقفهم وجهها لوجه أمام إبراهيم !

« فأقبلوا إليه يزفون » ..

لقد تساموا بالخبر ، وعرفوا من الفاعل ، فأقبلوا إليه يسرعون الخطى ويحدثون حوله  
 زفيفا .. وهم جمع كثير غاضب هائج ، وهو فرد واحد . ولكنه فرد مؤمن . فرد يعرف

## الجزء الثالث والعشرون

طريقه . فرد واضح التصور لإلهه . عقيدته معروفة له محدودة . يدركها في نفسه ، ويراها في الكون من حوله . فهو أقوى من هذه الكثرة الهائجة المائجة ، المدخولة العقيدة ، المضطربة التصور . ومن ثم يجبههم بالحق الفطري البسيط لا يبالى كثرتهم وهياجهم وزيفهم !

« قال : أتعبدون ما تتحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ؟ » . .

إنه منطق الفطرة يصرخ في وجههم : « أتعبدون ما تتحتون ؟ » . . والعبود الحق ينبغي أن يكون هو الصانع لا المصنوع : « والله خلقكم وما تعملون » . . فهو الصانع الوحيد الذي يستحق أن يكون المعبود .

ومع وضوح هذا المنطق وبساطته ، إلا أن القوم في غنمهم وفي اندفاعهم لم يستمعوا له - ومتى استمع الباطل إلى صوت الحق البسيط ؟ - واندفع أصحاب الأمر والنهي فيهم يزاولون طغيانهم في صورته الغليظة :

« قالوا : ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم » . .

إنه منطق الحديد والنار الذي لا يعرف الطغاة منطلقا سواء ؛ عند ما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل . وحينما تخرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين .

ويختصر السياق هنا ما حدث بعد قوتهم تلك ، ليعرض العاقبة التي تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين :

« فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين » . .

وأين يذهب كيد العباد إذا كان الله يريد ؟ وماذا يملك أولئك الضعاف المهازيل - من الطغاة والتجبرين وأصحاب السلطان وأعوانهم من الكبراء - إذا كانت رعاية الله تحوط عباده المخلصين ؟ . .

\*\*\*

ثم نجيء الحلقة الثانية من قصة إبراهيم . . لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه . لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسبواها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الأخرسين ؛ ونجاء من كيدهم أجمعين .

عندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ؛ وطوى صفحة لينشر صفحة :

« وقال : إني ذاهب إلى ربي سيهدين » . .

## الجزء الثالث والعشرون

هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . هاهو ذا يرزق في كبرته وهرمه بسلام . طالما تطلع إليه . فلما جاءه جاء غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة : . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم . . نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا . ولكنها إشارة من ربه . . وهذا يكفي . . هذا يكفي ليلى ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه . . لماذا ياربي أذبح ابني الوحيد ؟ !

ولكنه لا يلبى في ازعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب . . كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب :

« قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى » . .

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه . وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه ، في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق - مافي ذلك شك - فهو لا يطلب إليه أن يرسل لابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكافه أمرا تنتهي به حياته . . إنما يطلب إليه أن يتولى هو يده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه . . وهو - مع هذا - يتلقى الأمر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا المرض ؟ ويطلب إليه أن يتروى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه !

إنه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ إشارة ربه . وينتهي . إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المألوف من الأمر . فالأمر في حسه هكذا . ربه يريد . فليكن ما يريد . على العين والرأس . وابنه ينبغي أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاما ، لا قهرا واضطرارا . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوق لذة التطوع التي ذاقها ؟ وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى . . فماذا يكون من أمر الغلام ، الذي يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها أبوه ؟

## سورة الصافات

هكذا . . . إني ذاهب إلى ربي . . . إنها الهجرة . وهي هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية . هجرة يترك وراءه فيها كل شيء من ماضى حياته . يترك أباه وقومه وأهله ووطنه وكل ما يربطه بهذه الأرض، وبهؤلاء الناس . ويدع وراءه كذلك كل عائق وكل شاغل . ويهاجر إلى ربه متخففاً من كل شيء ، طارحاً وراءه كل شيء ، مسلماً نفسه لربه لا يستبق منها شيئاً . موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها في الطريق المستقيم .

إنها الهجرة الكاملة من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع ، ومن أواصر شتى إلى آصرة واحدة لا يزحمها في النفس شيء . إنه التعبير عن التجرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين .

وكان إبراهيم حتى هذه اللحظة وحيداً لا عقب له ؛ وهو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحة والمعرفة . وكل مألوف له في ماضى حياته ، وكل ما يشده إلى الأرض التي نشأ فيها ، والتي انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه في الجحيم ! فاتجه إلى ربه الذي أعان أنه ذاهب إليه . اتجه إليه يسأله الذرية المؤمنة والخلق الصالح :

« رب هب لي من الصالحين » . . .

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذي ترك وراءه كل شيء ، وجاء إليه بقلب سليم . . .

« فبشرناه بغلام حليم » . . .

هو إسماعيل - كما يرجح سياق السيرة والسورة - وسرى آثار حله الذي وصفه ربه به وهو غلام . ولنا أن تصور فرحة إبراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من أهله وقرابته . لنا أن تصور فرحته بهذا الغلام ، الذي يصفه ربه بأنه حليم .

والآن آن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد في حياة إبراهيم . بل في حياة البشر أجمعين . وأن أن نقف من سياق القصة في القرآن أمام المثل الموحى الذي يعرضه الله للأمة المسلمة من حياة أبيها إبراهيم . . .

« فلما بلغ معه السعي . قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك ، فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت افعل ما تؤمر : متجدني إن شاء الله من الصابرين » . . .  
يا لله ! وبالروعة الإيمان والطاعة والتسليم . . .

## سورة الصافات

إنه يرتقى إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه :

« قال : ياأبت افعل ما تؤمر . ستجدني - إن شاء الله - من الصابرين » . . .

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضى كذلك وفي يقين . . .

« ياأبت » . . . في مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعبه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل

لا يفقده أدبه ومودته .

« افعل ما تؤمر » . . . فهو يحس ما أحسه من قبل قلب أبيه . يحس أن الرؤيا إشارة .

وأن الإشارة أمر . وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب .

. ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على

ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانتة على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

« ستجدني إن شاء الله من الصابرين » . . .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعا إلى الخطر دون مبالاة .

ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا . . . إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على

ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به : « ستجدني - إن شاء الله - من الصابرين » . . .

بالأدب مع الله ! وبالروعة الإيمان . وبالنبل الطاعة . وبالعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام . . . يخطو إلى التنفيذ :

« فلما أسلما وتله للجبين » . . .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف

عليه بنو الإنسان . . .

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استمدادا . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا .

وقد وصل الأمر إلى أن يكون عيانا .

لقد أسلما . . . فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى

وتسليم . . . نفيذ . . . وكلاهما لا يجرد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير

الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجرأة . وليس الاندفاع والحماة . لقد يندفع المجاهد في الميدان ،

يقتل ويقتل . ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذي

## الجزء الثالث والعشرون

يصنع إبراهيم وإسماعيل هنا شيء آخر .. ليس هنا دم فاجر ، ولا حماسة دافعة ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والكوص إنما هو الاستسلام الواعي المتفعل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، مطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضى الهادى ، المنتشر المذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أديا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقيا إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه . . . وهذا أمر لا يعنى شيئا في ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أرادته منهما ربهما . . .

كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحققت . ولم يعد إلا الألم البدنى . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء ، بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح .

وعرف الله من إبراهيم وإسماعيل صدقتهما . فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقًا :

« وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا لمحو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم » . . .

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت هي النفس والحياة . وأنت - يا إبراهيم - قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أى ذبح من دم ولحم ! ويفدى الله هذه النفس التى أسلمت وأدت . يفديها بذبح عظيم . قيل : إنه كبش وجدته إبراهيم مهياً بفعل ربه وإرادته لذبحه بدلا من إسماعيل !

وقيل له : « إنا كذلك نجزي المحسنين » .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقذارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء !

في خلال القرآن [ جلد ۷ ]



## سورة الصافات

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة حقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم ، الذي تتبع ملته ، والذي ترث نسيبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة مليية لا تسأل ربها لماذا؟ ولا تلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبق لنفسها في نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقدمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم .

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد أن تأتبه طائفة مليية وافية مؤدية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفداها . وأكرمها كما أكرم أباه . . .

« وتركنا عليه في الآخرين » . .

فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهي وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله له عقبا ونسبا إلى يوم الدين .

« سلام على إبراهيم » . .

سلام عليه من ربه . سلام يسجل في كتابه الباقي . ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

« كذلك نجزي المحسنين » . .

كذلك نجزيهم بالبلاء . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .

« إنه من عبادنا المؤمنين » . .

وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين .

ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق في شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبيا من الصالحين :

« وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق » . .

وتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثته هذه الذرية لهما ليست وراثته الدم والنسب

إنما هي وراثه الملة والنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

« ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » .

\*\*\*

ومن ذريتهما موسى وهارون :

« ولقد منّا على موسى وهارون . ونجيناها وقومها من الكرب العظيم . ونصرناهم فكانوا هم الغالبين . وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناها الصراط المستقيم . وتركنا عليهما في الآخرين . سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين » .. وهذه اللمحة من قصة موسى وهارون تعنى بإبراز منة الله عليهما باختيارهما واصطفائهما . وبنجاتهما وقومهما « من الكرب العظيم » الذى تفصله القصة فى السور الأخرى . وبالنصر والغلبة على جلاذيتهم من فرعون وملكه . وإعطائهما الكتاب الواضح المستبين . وهدايتهما إلى الصراط المستقيم . صراط الله الذى يهدى إليه المؤمنين . وبإبقاء ذكرهما فى الأجيال الآتية والقرون الأخيرة . وتنتهى هذه اللمحة بالسلام من الله على موسى وهارون . والتعقيب التكرار فى السورة لتقرير نوع الجزاء الذى يلقاه المحسنون ، وقيمة الإيمان الذى يكرم من أجله المؤمنون ..

\*\*\*

وتعقب تلك اللمحة لمحة مثلها عن إيليا ، والأرجح أنه النبى المعروف فى العهد القديم باسم إيلياء . وقد أرسل إلى قوم فى سورية كانوا يعبدون صنما يسمونه بعلا . وما تزال آثار مدينة بعليك تدل على آثار هذه العبادة .

« وإن إيليا لمن المرسلين . إذ قال لقومه ألا تتقون ؟ أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ؟ فكذبوه فإنهم لمحضرون . إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إيليا . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين » .

ولقد دعا إيليا قومه إلى التوحيد ، مستكرا عبادتهم لبعل ، وتركهم « أحسن الخالقين »

## سورة الصافات

ربهم ورب آباؤهم الأولين كما استنكر إبراهيم عبادة آبيه وقومه للأصنام . وكما استنكر كل رسول عبادة قومه الوثنيين .  
 وكانت العاقبة هي التكذيب . والله سبحانه يقسم ويؤكد أنهم سيحضرون مكرهين ليلقوا جزاء المكذبين . إلا من آمن منهم واستخلصه الله من عباده فيهم .  
 وتختتم اللمحة القصيرة عن إلياس تلك الخاتمة المكررة المقصودة في السورة ، لتكريم رسل الله بالسلام عليهم من قبله . ولييان جزاء المحسنين . وقيمة إيمان المؤمنين .  
 وسيرة إلياس ترد هنا لأول مرة في مثل تلك اللمحة القصيرة . ونقف لنلم بالناحية الفنية في الآية : « سلام على إلياسين » فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقي في إرجاع اسم إلياس بصيغة « إلياسين » على طريقة القرآن في ملاحظة تناسق الإيقاع في التعبير<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

ثم تأتي لمحة عن قصة لوط . التي ترد في المواضع الأخرى تالية لقصة إبراهيم :  
 « وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ؟ » ..  
 وهي أشبه باللمحة التي جاءت عن قصة نوح . فهي تشير إلى رسالة لوط ونجاته مع أهله إلا امرأته . وتدمير المكذبين الضالين . وتنتهي بلهسة لقلوب العرب الذين يمرون على دار قوم لوط في الصباح والمساء ولا تستيقظ قلوبهم ولا تستمع لحديث الديار الخاوية . ولا تخاف عاقبة كماقبتها الحزينة ا

\*\*\*

وتختتم هذه اللمحات بلمحة عن يونس صاحب الحوت :  
 « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . لبث في بطنه إلى يوم يمشون . فنبذناه بالمرء وهو سقيم . وأنبثنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتناهم إلى حين » ..  
 ولا يذكر القرآن أين كان قوم يونس . ولكن المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر .

(١) يراجع فصل التناسق الفني في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » فقرة الإيقاع الموسيقي .

### الجزء الثالث والعشرون

وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدرا بتكذيب قومه . فأندرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضبا أبقا . فقاده الغضب إلى شاطئ البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفي وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكبا مغضوبا عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لا بد أن يلقى في الماء لتنجو السفينة من الفرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس - وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه في البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو « مليم » أي مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضبا قبل أن يأذن الله له . وعند ما أحس بالضيق في بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين . وقال : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » . فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت . « فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون » . وقد خرج من بطن الحوت سقيا عاريا على الشاطئ . « فأنبثنا عليه شجرة من يقطين » . وهو القرع . يظله بورقه المريض ويمنع عنه الذباب الذي يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة . وكان هذا من تدبير الله واطفه . فلما استكمل عاقبته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبا . وكانوا قد خافوا ما أندرهم به من العذاب بعد خروجه ، فأمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين : « فأمنوا فمتعناهم إلى حين » وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين<sup>(١)</sup>

وهذه اللجة بنيانها هنا تبين عاقبة الدين آمنوا ، بجانب ما تبينه القصص السابقة من عاقبة الدين لا يؤمنهين . فيختار قوم محمد - صلى الله عليه وسلم - إحدى العاقبتين كما يشاءون !! وكذلك ينتهي هذا الشوط من السورة بعد تلك الجولة الواسعة على مدار التاريخ من لدن نوح ، مع المنذرين : المؤمنين منهم وغير المؤمنين ..

« فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ؟ ﴿١٨﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ؟ ﴿١٩﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ : ﴿٢٠﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢١﴾ أَصْطَفَى

(١) تراجع القصة في سورة الألباء الجزء السابع عشر .

الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ \* مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ \* أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ \* أَمْ لَكُمْ  
سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ؟ \* فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

« وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ، وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ \* سُبحَانَ  
اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ! \* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِكِتَابٍ مُّبِينٍ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُبَشِّرُونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُنذِرُونَ \* وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ . \*  
« وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ : \* لَوْ أَنَّا عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ \* لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ  
الْمُخْلِصِينَ \* فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

« وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ \* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ \* وَإِن جُنَدُنَا  
لَهُمُ الْغَالِبُونَ \* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ \* وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ \* أَفَبِعَذَابِنَا  
يَسْتَعْجِلُونَ ؟ \* فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ \* وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ \*  
وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

« سُبحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ \* وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ \* وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ » ﴿١٧٨﴾

على ضوء ذلك القصص الذي سبق به الشوط الثاني في السورة ، وما اشتمل عليه من  
حقيقة الصلة بين الله وعباده ، ومن أخذه المكذبين بهذه الحقيقة ، الذين يعبدون غير الله  
أو يشركون معه بعض خلقه . وعلى ضوء تلك الحقيقة ذاتها كما تضمنها الدرس الأول  
في السورة . . . يوجه في هذا الشوط الأخير من السورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن  
يناقش معهم تلك الأسطورة التي يزعمون فيها أن الملائكة بنات الله . والأسطورة الأخرى  
التي يزعمون فيها أن بينه - سبحانه - وبين الجنة نسا . وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل

أن تأتيهم هذه الرسالة من عندهم أن يرسل الله فيهم رسولا ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم رسول . وكيف كفروا عند ما جاءهم الرسول .. وتختم السورة بتسجيل وعد الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبترزيه الله سبحانه عما يصفون . والتوجه بالحمد لله رب العالمين ..

\*\*\*

« فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ؟ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ ألا إنهم من إفكهم يقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون ؟ أم لكم سلطان مبين ؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين .. »

إنه يحاصر أسطورتهم في كل مسارها ؛ ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم التي يعيشون فيها . وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ؛ ويمدون ولادة الأنثى محنة ، ويمدون الأنثى مخلوقا أقل رتبة من الذكر . ثم هم هم الذين يدعون أن الملائكة إناث . وأنهم بنات الله ! فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت الأسطورة وسخفها حتى بقايبهم الشائعة :

« فاستفتهم .. الربك البنات ولهم البنون ؟ »

أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ؛ جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم بالبنين ؟ ! أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ ! إن هذا أو ذلك لا يستقيم ! فاسألهم عن هذا الزعم المتهاافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها . من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فمرفوا جنسهم ؟

« أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ؟ »

ويستعرض نص مقولتهم المفتراة الكاذبة على الله :

« ألا إنهم من إفكهم يقولون : ولد الله . وإنهم لكاذبون »

وهم كاذبون حتى بحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات . فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

« أصطفى البنات على البنين » !

ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجارى :

## سورة الصافات

« مالكم؟ كيف تحكمون؟ أفلا تدكرون؟ » .

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم؟

« أم لكم سلطان مبين؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » . .

والأسطورة الأخرى . أسطورة الصلة بينه - سبحانه - وبين الجنة :

« وحملوا بينه وبين الجنة نسيا . ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » . .

وكاوا يرعمون أن الملائكة هم بنات الله - بزعمهم - ولدتهم له الجنة ! وذلك هو النسب

والترابيد ! والجن تعلم أنها خاق من خاق الله . وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله . وما هكذا

تكون معاملة النسب والصر !

وهنا يتره ذاته سبحانه عن هذا الإفك التهافت :

« سبحان الله عما يصفون » . .

ويستثنى من الجن الذين يحضرون للعذاب مكرهين تلك الطائفة المؤمنة . وقد كان في

الجن مؤمنون . .

« إلا عباد الله المخلصين » . .

ثم يتوجه الخطاب إلى المشركين وما يعبدون من آلهة مزعومة ، وما هم عليه من عقائد

منحرفة . يتوجه الخطاب إليهم ، من الملائكة كما يبدو من التعبير :

« فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه بفاتنين ، إلا من هو صالح الجحيم . وما لنا إلا له

مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون » .

أى إنكم وما تعبدون لا تفتنون على الله ولا تضلون من عباده إلا من هو محسوب من

أهل الجحيم ، الذين قدر عليهم أن يصلوها . وما أنتم بقادرين على فتنة قلب مؤمن الفطرة

محسوب من الطائنين . فملججهم وقود من نوع معروف ، طبيعته تؤهله أن يستجيب للفتنة ؟

ويستمع للفاتنين .

ويرد الملائكة على الأسطورة ، بأن لكل منهم مقامه الذي لا يتمداه . فهم عباد من خلق

الله . لهم وظائف في طاعة الله . فهم يصفون للصلاة ، ويسبحون بحمد الله . ويقف كل منهم

على درجة لا يتجاوز حده . والله هو الله .

•••

## الجزء الثالث والعشرون

ثم يعود للحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأساطير ؛ فيعرض عهودهم ووعودهم ، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ؛ ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين - من إبراهيم أو من جاء بعده - لكنا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا :

« وإن كانوا يقولون : لو أن عندنا ذكر من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين »  
 حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ماجاء إلى هذه الأرض تكروا لما كانوا يقولون :  
 « فكفروا به . فسوف يعلمون » . . .

فالتهديد الخفي في قوله : « فسوف يعلمون » هو اللائق بالكفر بعد التنى والوعود ؛  
 وبمناسبة التهديد يقرر وعد الله لرسله بالنصر والغلبة :

« ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون » . . .  
 والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض ؛ وقام بناء الإيمان ،  
 على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب الكاذبين ، وعلى الرغم من التكيل  
 بالدعاة والتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ؛ وبقيت  
 العقائد التي جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم ، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم .  
 وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض . وكل  
 المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة  
 أخرى قد باءت بالفشل . باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها . وحقت كلمة الله لعباده  
 المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون .

هذه بصفة عامة . وهي ظاهرة ملحوظة . في جميع بقاع الأرض . في جميع العصور .  
 وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرد لها الدعاة . إنها غالبية  
 منصوره مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العقائل . ومهما رصد لها  
 الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة . وإن هي  
 إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله والذي لا يخلف  
 ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتكفين .

هذا الوعد سنة من سنن الله الكونية . سنة ماضية كما تعض هذه الكواكب والجوهر



## سورة الصافات

في دوراتها المنتظمة ؛ وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ؛ وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء . . ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبدا ولا تخلف وقد تحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين !

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسوله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريد الله . ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون . . ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم غير قرش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الراجحة الهينة ؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة . وكان ما أراد الله هو الخير لهم والإسلام . وكان هو النصر الذي أراد الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام .

ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك ، وتدور عليهم الدائرة ، ويقسو عليهم الابتلاء ؛ لأن الله يعدم للنصر في معركة أكبر . ولأن الله يهيء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع ، وفي خط أطول ، وفي أثر أدوم .

لقد سبقت كلمة الله ، ومضت إرادته بوعده ، وثبتت سنته لا تخلف ولا تحيد :

« ولقد سبقت كلمتنا لمبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » .

\*\*\*

وعند إعلان هذا الوعد القاطع ، وهذه الكلمة السابقة ، يأمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتولى عنهم ، ويدعهم لوعده الله وكلمته ، ويتروك ليصرمهم وقد حقت عليهم الكلمة ، ويدعهم ليصروا ويروا رأى العين كيف تكون :

« فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون ؟ فإذا نزل

بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون » ..

فتول عنهم ، وأعرض ولا تحفلهم ؛ ودعهم لليوم الذي تراهم فيه ويرون هم ما ينتهي إليه وعد الله فيك وفيهم . وإذا كانوا يستعجلون بعذابنا ، فيأويلهم يوم ينزل بهم . فإنه إذا نزل بساحة قوم صبحهم بما يسوء ، وقد قدم له النذير .

### الجزء الثالث والعشرون

ويكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم والتهديد الملقوف في ذلك الأمر الخيف :  
« وتول عنهم حتى حين » .. كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون : « وأبصر فسوف  
يصبون » .. ويدعه مجملا يوحى بالهول المرهوب ..

\*\*\*

ويختتم السورة بتعزیه الله سبحانه واختصاصه بالعزة . وبالسلام من الله على رسله . وإعلان  
الحمد لله الواحد .. رب العالمین بلا شریک ..  
« سبحان ربك - رب العزة - عما يصفون . وسلام على المرسلین . والحمد لله  
رب العالمین » ..  
وهو الختام المناسب لموضوعات السورة . الملائخ للتمضایا التي عالجتها السورة .

## سُورَةُ صَّاتِ مَكِّيَّةٍ وآياتها ١٨

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ \* كَمْ أَهْلَكْنَا  
 مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِلْكَ حِينِ مَنَاصٍ \* وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ  
 الْكَاْفِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ  
 عُجَابٌ \* وَانطَاقَ الْأَمْلاُ بِهِمْ أَنْ أَنشُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ \*  
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْعِلْمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ \* أَأَنْزَلَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟  
 بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابٍ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ  
 الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ \* أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ \*  
 جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ  
 ذُو الْأَوْتَادِ \* وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ \* إِنْ كُنتُمْ إِلَّا  
 كَذَّابٌ الرَّسُلِ فَحَقَّ عِقَابٌ \* وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ \*  
 وَقَالُوا : رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝ . . . »

هذه السورة مكية ، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد ، وقضية الوحي  
 إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وقضية الحساب في الآخرة . وتعرض هذه القضايا الثلاثة

## الجزء الثالث والعشرون

في مطلعها الذي يؤلف الشوط الأول منها . وهو آيات الكريمة التي فوق هذا الكلام . وهي تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - لهم إلى توحيد الله ؛ وإخبارهم بقصة الوحي واختياره رسولا من عند الله : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ، أجعل آللهة إلها واحدا : إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائمة منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . كما تمثل استهزاءهم واستنكارهم لما أوعدهم به جزاء تكذيبهم من عذاب : « وقالوا : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . . .

لقد استكثروا أن يختار الله - سبحانه - رجلا منهم ، لينزل عليه الذكر من بينهم . وأن يكون هذا الرجل هو محمد ابن عبد الله . الذي لم تسبق له رئاسة فيهم ولا إمامة ! ومن ثم ساء لهم الله في مطلع السورة تعقبا على استنكارهم هذا واستنكارهم وقولهم : « أنزل عليه الذكر من بيننا » ساء لهم : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ فليرتقوا في الأسباب » . . . ليقول لهم : إن رحمة الله لا يعسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء . وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء . وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشق الإنعامات بلا قيد ولا حد ، ولا حساب . . . وفي هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ؛ وما أغدق الله عليها من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطيور ، وتسخير الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلطان والمتاع .

وما - مع هذا كله - بشر من البشر ؛ يدركها ضعف البشر وعجز البشر ؛ فتداركها رحمة الله ورعايته ، وتسدد ضعفها وعجزها ، وتقبل منها التوبة والإنابة ، وتسدد خطاها في الطريق إلى الله .

وجاء مع القصتين توجيه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين ، والتطلع إلى فضل الله ورعايته كما تمثلها قصة داود وقصة سليمان : « اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد إنه أواب . . . الخ » . . .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضر . . . وصبر أيوب

## سورة نَصّ

مثل في الصبر رفيع . وتصور حسن العاقبة ، وتداركه برحمة الله ، تعمده بفيضها ، ونمسخ على آلامه يدها الحانية . . وفي عرضها تأسية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين ، عما كانوا يلقونه من الضر والبأساء في مكة ؛ وتوجيه إلى ما وراء الابتلاء من رحمة ، تفيض من خزائن الله عند ما يشاء .

وهذا القصص يستغرق معظم السورة بعد المقدمة ، ويؤلف الشوط الثاني منها . كذلك تضمن السورة ردا على استعجالهم بالعذاب ، وقولهم : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » . . فيعرض بها - بعد القصص - مشهد من مشاهد القيامة ، يصور النعم الذي ينتظر المتقين . والجحيم التي تنتظر الكاذبين . ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية في الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء . حين يرى الملائة التكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم في الأرض ويسخرون ، ويستكثرون عليهم أن تاهلهم رحمة الله ، وهم ليسوا من العطاء ولا الكبرياء . وبينما المتقون لهم حسن مآب « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب » . . فإن للطاغين لشر مآب « جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج » . . وهم يتلاعنون في جهنم ويتخاصمون ، ويدكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين : « وقالوا : مالنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار اتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار؟ » فإنهم لا يجدونهم في جهنم . وقد عُرف أنهم هنالك في الجنان ! فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء !

وهذا المشهد يؤلف الشوط الثالث في السورة .

كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمر الوحي . ويتمثل هذا الرد في قصة آدم في الملائة الأعلى . حيث لم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم - حاضرا ؛ إنما هو إخبار الله له بما كان ، بما لم يشهده - غير آدم - إنسان . . وفي ثنايا القصة يتبين أن الذي أوردى إبليس ، وذهب به إلى الطرد واللعنة ، كان هو حسده لآدم - عليه السلام - واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه . كما أنهم هم يتكثرون على محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يصطفيه الله من بينهم بتزليل الذكر ؛ ففي موقفهم شبه واضح من موقف إبليس الطرود اللعين !

## الجزء الثالث والعشرون

وتختم السورة بنختم هذا الشوط الرابع والأخير فيها ؛ بقول النبي - صلى الله عليه وسلم -  
لهم : إن ما يدعوم إليه لا يتكلفه من عنده ، ولا يطلب عليه أجرا ، وإن له شأنا عظيما  
سوف يتجلى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكافئين . إن هو إلا ذكر للعالمين .  
ولتعلمن نبأه بعد حين » . .

\*\*\*

هذه الأشواط الأربعة التي تجرى بموضوعات السورة هذا المجري ؛ تجول بالقلب البشري  
في مصارع الغابرين ، الذين طفوا وتجبروا واستعلوا علي الرسل والمؤمنين ، ثم انتهوا إلى  
الهزيمة والدمار والخذلان : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب . كذبت قلبهم قوم نوح  
وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب  
الرسل فحق عقاب » .

تعرض على القلب البشري هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطفاة  
الماكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين ،  
في قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك في واقع الأرض . . ثم تطوف بهذا القاب في يوم القيامة وما وراءه من صور  
النعم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لونا آخر مما يلقاه الفرقان في دار  
البقاء . بعد ما لقياه في دار الفناء . .

والجولة الأخيرة في قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول ، الذي  
يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد في ثنايا القصص لفئة تلمس القلب البشري وتوقظه إلى الحق الكامن  
في بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس  
في الأرض . فهذا من ذلك : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » . . وهي  
لفئة لها في القرآن نظائر . وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن  
للكي الأصيلة . .

والآن نأخذ في التفصيل . . .

\*\*\*

« ص . والقُرآن ذى الذکر . بل الذین کفروا فی عزة وشقاق . کم أهلکنا من قبلهم من قریر . فنادوا ولات حین مناس » . . .  
 هذا الحرف . . « صاد » یقسم به الله سبحانه كما یقسم بالقُرآن ذی الذکر . وهذا الحرف من صنعة الله تعالى . فهو موجوده . موجوده صوتا فی حناجر البشر ؟ وموجوده حرفا من حروف المحاء التي يتألف من حذسها التعبير القرآنی . وهي فی تناول البشر ولكن القرآن لیس فی تناولهم لأنه من عند الله . وهو متضمن صنعة الله التي لا یملك البشر الإیمان بتلها لا فی القرآن ولا فی غیر القرآن . وهذا الصوت . . « صاد » . . الذي تخرجه حنجرة الإنسان ، إنما یخرج هكذا من هذه الحنجرة بمقدرة الخالق المبدع ، الذي صنع الحنجرة وما تخرجه من أصوات . وما یملك البشر أن یصنعوا مثل هذه الحنجرة الحیة التي تخرج هذه الأصوات ! وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس یتدبرون الحوارق المعجزة فی كل جزئیة من جزئیات کیانهم القریب ! ولو عقلوها مدهشوا لوحی یوحیه الله لبشر یختاره منهم . فالوحی لیس أكثر غرابة من إبداع تکوینهم هذه الخصائص المعجزات !

« صاد . والقُرآن ذی الذکر » . .

والقرآن یشتمل الذکر كما یشتمل غیره من التشریع والقصاص والتهذیب . . ولكن الذکر والاتجاه إلى الله هو الأول . وهو الحقیقة الأولى فی هذا القرآن . بل إن التشریع والقصاص وغیرها إن هی إلا بعض هذا الذکر . فکلها تذکر بالله وتوجه القلب إلیه فی هذا القرآن . وقد یكون معنی ذی الذکر . أی المذكور المشهور . وهو وصف أصیل للقرآن :

« بل الذین کفروا فی عزة وشقاق » . .

وهذا الإضراب فی التعبير یلفت النظر . فهو یبدو كأنه انقطاع عن الموضوع الأول . موضوع القسم بصاد وبالقرآن ذی الذکر . هذا القسم الذي لم یتم فی ظاهر التعبير . لأن القسم علیه لم ینذکر واكتفی بالقسم به ثم أخذ یتحدث بعبء عن الشرکین . وما هم فیه من استکبار ومن مشاققة . ولكن هذا الانقطاع عن القضية الأولى هو انقطاع ظاهری ، یزید الاهتمام بالقضية التي تلیه . لقد أقسم بصاد وبالقرآن ذی الذکر فدل علی أنه أمر عظیم ، یشحق أن یقسم به الله سبحانه . ثم عرض إلى جانب هذا استکبار الشرکین ومشاققتهم فی هذا القرآن . فلی قضية واحدة قبل حرف الإضراب « بل » وبعده . ولكن هذا الالتفات فی الأسلوب

## الجزء الثالث والعشرون

يوجه النظر بشدة إلى المفارقة بين تعظيم الله - سبحانه - لهذا القرآن ، واستكبار المشركين عنه ومشاقتهم فيه . وهو أمر عظيم !

وعقب على الاستكبار والمشاقة ، بصفحة الهلاك والدمار لمن كان قلبهم ، ممن كذبوا مثلهم ، واستكبروا استكبارهم ، وشاقوا مشاققتهم . ومشهدهم وهم يستغيثون فلا يفتنون ، وقد نحى عنهم الاستكبار وأدركتهم الدالة ، وتخلوا عن الشقاق ولجأوا إلى الاستعطف . ولكن بعد قوات الأوان :

« كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص » !  
 فلعلهم حين يتملون هذه الصفحة أن يطامنوا من كبريائهم ؛ وأن يرجعوا عن شقاقتهم .  
 وأن يمثلوا أنفسهم في موقف أولئك القرون . ينادون ويستغيثون . وفي الوقت أمامهم فسحة ، قبل أن ينادوا ويستغيثوا ، ولات حين مناص . ولا موضع حينذاك للغوث ولا للخلاص !

\*\*\*

يطرق قلوبهم تلك الطريقة ، ويوقع عليها هذا الإيقاع قبل أن يعرض تفصيل تلك العزة وهذا الشقاق .. ثم يفصل الأمر ويحكي ما هم فيه من عزة وشقاق :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب ! وانطلق الملائمة منهم : أن امشوا واصبروا على آلهتكم . إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » ..

هذه هي العزة : « أنزل عليه الذكر من بينا » .. وذلك هو الشقاق : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ » .. « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ! » .. « هذا ساحر كذاب » .. « إن هذا إلا اختلاق » .. الخ . الخ ..

وقصة العجب من أن يكون الرسول بشرا قصة قديمة ، مكرورة معادة ، قالها كل قوم وتعللوا بها منذ بدء الرسالات . وتكرر إرسال الرسل من البشر ؛ وظل البشر مع هذا يكررون الاعتراض :

« وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » ..  
 وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون النذر منهم . بشراً يدرك

في ظلال القرآن [ مجلد ٧ ]



كيف يشكر البسر وكيف يشعرون ؛ ويحس ما يفتلج في نفوسهم ، وما يشتجر في كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أو لا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعترهم من مؤثرات واستجابات ...  
بشراً يعيش بين البشر - وهو منهم - فتكون حياته قدوة لهم ؛ وتكون لهم فيه أسوة .  
وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شياً وصلة . فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لاتباعه . وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته ...

بشراً منهم . من حيلهم . ومن لسانهم . يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم . ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه ، ويتجاوبون وإياه . ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه . أو اختلاف لغته . أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

ولكن أوجب شيء ، وأقربه إلى أن يكون ، هو الذي كان دائماً موضع العجب ، ومحط الاستنكار ، وموضوع التكذيب ؛ ذلك أنهم كانوا لا يدركون حكمة هذا الاختيار ؛ كما كانوا يخطئون تصور طبيعة الرسالة . وبدلاً من أن يروها قيادة واقعية للبشرية في الطريق إلى الله . كانوا يتصورونها خيالية غامضة محوطة بالأسرار التي لا يصح أن تكون مفهومة هكذا وقرية ؛ كانوا يريدونها مثلاً خيالية طائفة لا تلمس بالأيدي ، ولا تبصر في النور ، ولا تدرك في وضوح ، ولا تعيش واقعية في دنيا الناس ؛ وعندئذ يستجيبون لها كأسطورة غامضة كما كانوا يستجيبون للأساطير التي تؤلف عقائدهم المتهافنة ؛

ولكن الله أراد للبشرية - وبخاصة في الرسالة الأخيرة - أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية . عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة في هذه الأرض . لا وهماً ولا خيالاً ولا مثلاً طائراً في سماء الأساطير والأحلام ؛ يبرز على التحقيق ويهرب في ضباب الخيالات والأوهام ؛

« وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » . . .

قالوا كذلك استبعاداً لأن يكون الله قد أوحى إلى رجل منهم . وقالوه كذلك تنفيراً

للعمامة من محمد - صلى الله عليه وسلم - وتهويشاً على الحق الواضح في حديثه ، والصدق المعروف عن شخصه .

والحق الذي لا مرية فيه أن كبراء قريش لم يصدقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - الذي يعرفونه حق المعرفة : إنه ساحر وإنه كذاب ! إنما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التي يتقنها الكبراء ؛ ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكمهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة ؛ ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء !

ولقد نقلنا من قبل ونقل هنا واقعة الاتفاق بين كبراء قريش على استخدام حرب الدعاية ضد محمد - صلى الله عليه وسلم - والحق الذي جاء به ، لحماية أنفسهم وأوضاعهم بين الجماهير في مكة . ولصد القبائل التي كانت تفتد إلى مكة في موسم الحج ، عن الدين الجديد وصاحبه - صلى الله عليه وسلم - .

قال ابن إسحاق : إن الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش - وكان ذا سن فيهم - وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً . ولا تختلفوا فيكذب بضمك بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس قتل وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمنة الكاهن ولا سجمه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بنخفه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرم ، فما هو بنفهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعنق<sup>(١)</sup> ، وإن فرعه لجناة<sup>(٢)</sup> . وما أتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فنفرقوا عنه

(١) العنق : الكثير الشعب والأطراف . (٢) جناة : أي فيه عمر يعني .

بذلك . فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا موسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ،  
وذكروا له أمره ...

فذلك كان شأن الملائ من قريش في قولهم : ساحر كذاب . وهم يعلمون أنهم يكذبون  
فما يقولون . ويعرفون أنه لم يكن - صلى الله عليه وسلم - بساحر ولا كذاب !  
وعجبوا كذلك من دعوته إياهم إلى عبادة الله الواحد . وهي أصدق كلمة وأحقها بالاستماع:  
« أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائ منهم : أن امشوا  
واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » .  
ويصور التعبير القرآني مدى دهشتهم من هذه الحقيقة القطرية القرية . « أجعل الآلهة إلهاً  
واحداً ؟ » كأنه الأمر الذي لا يتصوره متصوراً ! « إن هذا لشيء عجاب » . . . حتى البناء  
اللفظي « عجاب » يوحى بشدة العجب وضخامته وتضخمه !

كما يصور طريقته في مقاومة هذه الحقيقة في نفوس الجماهير ، وثبيتهم على ما هم عليه من  
عقيدة موروثية متهافة . وإيهامهم أن وراء الدعوة الجديدة خبيثاً غير ظاهرها ؛ وأنهم هم  
الكبراء العليمون بواطن الأمور ، مدركون لما وراء هذه الدعوة من خبيث ! « وانطلق  
الملائ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد » . . . فليس هو الدين ، وليست  
هي العقيدة ، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة . شيء ينبغي أن تدعه الجماهير  
لأربابها ، ولمن يحسنون فهم الخبآت وإدراك المناورات ! وتتصرف هي إلى عاداتها الموروثة ،  
وآلهتها المعروفة ، ولا تعنى نفسها بما وراء المناورة الجديدة ! فهناك أربابها الكفيلون بمقاومتها .  
فلتطمئن الجماهير ، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم !

إنها الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة ،  
والبحث وراء الحقيقة ، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة . ذلك أن اشتغال الجماهير بمعرفة  
الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة ، وخطر على الكبراء ، وكشف للأباطيل التي يفرقون  
فيها الجماهير . وهم لا يعيشون إلا بإغراق الجماهير في الأباطيل !

ثم يموهون على الناس بظواهر العقيدة القرية منهم . عقيدة أهل الكتاب . بعدما دخلت  
إليها الأساطير التي حرقها عن التوحيد الخالص فيقولون :  
« ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة . إن هذا إلا اختلاق » .

## الجزء الثالث والعشرون

وكانت عقيدة التثليث قد شاعت في المسيحية. وأسطورة العزير قد شاعت كذلك في اليهودية. فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هذا وهم يقولون : « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة » . . . ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فما يقول إذنت إلا اختلاقاً !

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التي طرأت على العقائد التي سبقتة . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد في الوقت ذاته قاعدة لاتصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها .

ويحسن ونحن نستعرض مقاومة قريش لهذه العقيدة ودهشتها وعجبها من جعل الآلهة إلهاً واحداً. ومقاومة المشركين قبل قريش على مدار القرون ومدار الرسائل لهذه الحقيقة كذلك. وإصرار كل رسول عليها ، وقيام كل رسالة على أساسها . والجهد الضخم الذي بذل في إقرار هذه الحقيقة في نفوس البشر على مدار الزمان . . . يحسن أن تتوسع قليلاً في بيان قيمة هذه الحقيقة .

إنها حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود . . . إن وحدة النواميس الكونية التي تتحكم في هذا الكون الذي نراه واضحة ؛ وناطقة بأن الإرادة التي أنشأت هذه النواميس لا بد أن تكون واحدة . . . وحيثما نظرنا إلى هذا الكون واجهتنا هذه الحقيقة . حقيقة وحدة النواميس . وحدة تشي بوحدة الإرادة .

كل ما في هذا الكون في حركة دائمة منتظمة . . . الذرة الصغيرة وهي الوحدة الأولى لكل ما في الكون من شيء - حتى أو غير حتى - في حركة مستمرة . فهي مؤلفة من الكتلونات تتحرك حول النواة المؤلفة من بروتونات . كما تدور الكواكب حول الشمس في المجموعة الشمسية . وكما تدور المجرة المؤلفة من مجموعات شمسية ومن كتل سديمية حول نفسها . . . واتجاه الدورة في الكواكب وفي الشمس وفي المجرة اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق . عكس دورة الساعة (١) .

(١) عن كتاب: مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي المدير السابق لجامعة القاهرة .

والعناصر التي تكون منها الأرض وبقية الكواكب السيارة واحدة . وعناصر النجوم هي كذلك من عناصر الأرض . والعناصر مؤلفة من ذرات . والذرات مؤلفة من الكتلونات وروتونات ونيوترونات .. كلها مؤلفة من هذه اللبنات الثلاث بلا استثناء ..

« وفي الوقت الذي ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات . يرد العلماء « القوى » إلى أصل واحد: الضوء والحرارة . الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيكية . وكل إشعاع في الدنيا .. كلها صور متعددة لقوة واحدة . تلك القوة المغناطيسية الكهربائية . إنها جميعا تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة .

« المادة ثلاث لبنات . والقوى موجات متأصلات .

« ويأتى اينشتين وفي نظريته النسبية الخاصة ، يكافئ بين المادة والقوى ؛ ويقول : إن المادة والقوى شيء سواء . وتخرج التجارب تصدق دعواه . وخرج تجربة أخيرة صدقت دعواه بأعلى صوت تسمعه الدنيا . ذلك انفلاق الذرة في القنبلة اليودينوتية .

« المادة والقوى إذن شيء سواء » (١) .

هذه هي الوحدة في تكوين الكون كما عرفها الإنسان أخيراً في تجاربه المحسوسة . . وهناك الوحدة الظاهرة في نظام الكون كما أشرنا إلى قانون الحركة الدائبة . ثم هي الحركة المنظمة المنسقة التي لا يشذ فيها شيء في هذا الكون . ولا يضطرب فيها شيء . . توازن هذه الحركة في جميع الكائنات بحيث لا يعطل بعضها بعضاً ولا يصدم بعضها بعضاً . وأقرب مثل هذه الكواكب والنجوم والمجرات الضخمة التي تسبح في الفضاء : « وكل في فلك يسبحون » . . والتي تشهد بأن مجريها في هذا الفضاء ، المنظم لحركتها وأبعادها ومواقعها واحد لا يتعدد ، عارف بطبيعتها وحركتها . مقدر لهذا كله في تصميم هذا الكون العجيب .

ونكتفي بهذه اللمحة الخاطفة في تتبع حقيقة الوحدة التي ينطق بها نظام هذا الكون ويشهد بها كل ما فيه .

وهي حقيقة لا يستقيم أمر هذه البشرية إلا عليها . فوضوح هذه الحقيقة في الضمير البشري ذو أهمية بالغة في تصور البشر للكون من حولهم ، ولوضعهم في هذا الكون ، ولعلاقتهم بكل ما فيه من أشياء وأحياء . ثم في تصورهم لله الواحد والحقيقة ارتباطهم به ، وبما

(١) كتاب : « مع الله في السماء » للدكتور أحمد زكي مدير جامعة القاهرة السابق .

## الجزء الثالث والعشرون

عداء ومن عداء في هذا الوجود . . . وكل ذلك ذو أهمية بالغة في تكيف مشاعر البشر وتصورهم لكل شؤون الحياة .

والمؤمن بالله الواحد ، المدرك لمعنى هذه الوجدانية ، يكيف علاقته بربه على هذا الأساس ، ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، في موضعها الذي لا تعداه . فلا توزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله ممن خلق الله !

والمؤمن بأن الله الواحد هو مصدر هذا الوجود الواحد يتعامل مع الوجود ومن فيه وما فيه على أساس من التعارف والتعاون والألفة والمودة ، يجعل للحياة طعما وشكلا غير ما لها في نفس من لا يؤمن بهذه الوحدة ، ولا يحسها بينه وبين كل ما حوله ومن حوله .

والمؤمن بوحدة الناموس الإلهي في الكون يتلقى تشريعات الله له وتوجيهاته تلقيا خاصا ، لينسق بين القانون الذي يحكم حياة البشر والناموس الذي يحكم الكون كله ؛ ويؤثر قانون الله ، لأنه هو الذي ينسق بين حركة البشر وحركة الكون العام .

وعلى الجملة فإن إدراك هذه الحقيقة ضروري لصالح الضمير البشري واستقامته واستنارته وتصالحه مع الكون من حوله . وتنسيق حركته مع الحركة الكونية العامة . ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه . ثم بينه وبين الكون حوله . ثم بينه وبين كل ما في الكون من أحياء ومن أشياء ؛ وما يتبع هذا من تأثيرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية وإنسانية عامة في كل مجال من مجالات الحياة (١) .

ومن ثم كان هذا الحرص على إقرار عقيدة التوحيد . وكان هذا الجهد الموصول المكثور مع كل رسالة وكل رسول . وكان هذا الإصرار من الرسل - صلوات الله عليهم - على كلمة التوحيد بلا هوادة .

وفي القرآن الكريم يتضح الحرص والجهد والإصرار في تكرار عرض قضية التوحيد ومقتضياتها في السور المسكية على وجه التخصيص وفي السور المدنية كذلك في صور تناسب طبيعة الموضوعات التي تعالجها السور المدنية .

وهذه هي الحقيقة التي كان المشركون يعجبون ذلك العجب من إصرار محمد - صلى الله

(١) أرجو أن يوفق الله لي تفصيل هذا كله في كتاب : « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان » .

عليه وسلم - عليها ومحاورونه فيها ويداورونه ، ويعجبون الناس منه ومنها ، ويصرفونهم عنها بكل وسيلة .

\*\*\*

وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره - صلى الله عليه وسلم - ليكون رسولا :  
« أنزل عليه الذكر من بينا ؟ » . .

وما كانت في هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد ، الحسد الذي يدعو إلى العناد والكابرة والشقاق .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد ابن مسلم ابن شهاب الزهري ، أنه حدث ، أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل ابن هشام ، والأخنس ابن شريق ابن عمرو ابن وهب الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ؛ فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوه أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض . لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا . . فلما أصبح الأخنس ابن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ا قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تمأذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدقه ا ققام عنه الأخنس وتركه . .

## الجزء الثالث والعشرون

فهو الحسد كما نرى . يقعد بأبي جهل عن الاعتراف بالحق الذي غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد قد بلغ إلى مالا مطمع فيه لطامع . وهو السر في قولة من كانوا يقولون :

« أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ » . .

وهم الذين كانوا يقولون : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . يقصدون بالقريتين مكة والطائف، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم الحاكمون السودون؛ الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الدين ، كلما سمعوا أن نبياً جديداً قد أطل زمانه . والذين صدموا صدمة الحسد والكبر حينما اختار الله - على علم - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - وفتح له من أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنها ما علم أنه يستحقه دون العالمين .

ويرد على تساؤلهم ذلك رداً تفوح منه رائحة التهم والإنذار والتهديد :

« بل هم في شك من ذكرى . بل لما يذوقوا عذاب » . .

إنهم يسألون : « أنزل عليه الذكر من بيننا ! » . . وهم في شك من الذكر ذاته ، لم تستيقن نفوسهم أنه من عند الله ؟ وإن كانوا يمارون في حقيقته ، وهو فوق المألوف من قول البشر مما يعرفون .

ثم يضرب عن قوهم في الذكر ، وعن شكهم فيه ، ليستقبل بهم تهديداً بالعذاب ، « بل لما يذوقوا عذاب » . . وكأنما ليقول : إنهم يقولون ما يقولون لأنهم في منجاة بعد من العذاب ؛ فأما حين يذوقونه فلن يقولوا من هذا شيئاً ، لأنهم حينئذ سيفرفون !

ثم يعقب على استكثارهم رحمة الله لمحمد في اختياره رسولا من بينهم ، بسؤالهم إن كانوا يملكون خزان رحمة الله ، حتى يتحكموا فيمن يعطون ومن يمنون :

« أم عندهم خزان رحمة ربك العزيز الوهاب ؟ » . .

ويندد بسوء أدبهم مع الله ، وتدخلهم فيما ليس من شأن العبيد . والله يعطي من يشاء ويمنع من يريد . وهو العزيز القادر الذي لا يملك أحد أن يقف لإرادته . وهو الوهاب الكريم الذي لا ينفد عطاؤه .

وهم يستكثرون على محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يختاره الله . فأى حق وبأية صفة يوزعون عطاء الله ؟ وهم لا يملكون خزان رحمة الله ؟



« أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما ؟ » .

وهي دعوى لا يجروون على ادعائها . ومالك السماوات والأرض وما بينهما هو الذي يمنع ويتبع ، ويصطفى من يشاء ويختار . وإذ لم يكن لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فما بالهم يدخلون في شؤون المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء ؟

وعلى سبيل التهكم والتبكيت عقب على السؤال عما إذا كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما . بأنه إن كان الأمر كذلك « فليرتقوا في الأسباب » . . ليشرفوا على السماوات والأرض وما بينهما ، ويتحكموا في خزائن الله ؛ ويعطوا من يشاءون ويمنعوا من يشاءون . كما هو مقتضى اعتراضهم على اختيار الله المالك المتصرف فيما يملك بما يشاء !

ثم أنهى هذا الفرض التهكمي بتقرير حقيقتهم الواقعية :

« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . .

إنهم ما يزيدون على أن يكونوا جندا مهزوما ملقى « هنالك » بعيداً ؛ لا يقرب من تصريف هذا الملك وتدير تلك الخزائن . ولا شأن له فيما يجري في ملك الله ؛ ولا قدرة له على تغيير إرادة الله ؛ ولا قوة له على اعتراض مشيئة الله . . « جند ما » . . جند مجهول منكر هين الشأن ، « مهزوم » . . كأن الهزيمة صفة لازمة له ، لاصقة به ، مركبة في كيانه ! « من الأحزاب » . . المختلفة الاتجاهات والأهواء !

وما يبلغ أعداء الله ورسوله إلا أن يكونوا في هذا الموضع الذي تصوره ظلال التعبير القرآني ، الموحية بالمجز والضعف والبعد عن دائرة التصريف والتدير . مهما تبلغ قوتهم ، ويتناول بطشهم ، ويتجبروا في الأرض فترة من الزمان .

ويضرب الله الأمثال لأولئك المتجبرين على مدار القرون ؛ فإذا هم « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » :

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة .

أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » . .

فهذه أمثلة ممن سبقوا قريشاً في التاريخ . قوم نوح . وعاد . وفرعون صاحب الأهرام التي تقوم في الأرض كالأوتاد . وثمود . وقوم لوط . وقوم شعيب أصحاب الأيكة - الغابة الملتفة -

« أولئك الأحزاب » الذين كذبوا الرسل. فماذا كان من شأنهم وهم طغاة بغاة متجبرون ؟ ..  
« حق عقاب » .. وكان ما كان من أمرهم . وذهبوا فلم يبق منهم غير آثار تنطق بالهزيمة  
والانحدار !

ذلك كان شأن الأحزاب الغابرة في التاريخ . . فأما هؤلاء فمتروكون - في عمومهم - إلى  
الصيحة التي تنهى الحياة في الأرض . قيل يوم الحساب :

« وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » ..

هذه الصيحة إذا جاءت لا تستأخر ولو فترة قصيرة مقدار فواق ناقة . وهي المسافة بين  
الجلبتين ! لأنها تجيء في موعدها المحدد ، الذي لا يستقدم ولا يستأخر . كما قدر الله لهذه الأمة  
الأخيرة أن ينظرها ويمهلها ، فلا يأخذها بالدمار والهلاك كما أخذ من قبل أولئك الأحزاب .  
وكان هذا رحمة بهم من الله . ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه الرحمة ، ولم يشكروا الله هذه  
المنة . فاستعجلوا جزاءهم ، وطلبوا أن يوفهم الله حظهم ونصيبهم ، قبل اليوم الذي أنظرهم إليه :  
« وقالوا : ربنا عجل لنا قتنا قبل يوم الحساب » ..

وعند هذا الحد يتركهم السياق . ويلتفت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يليه عن  
حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ، واستعجالهم بالجزاء ، وتكذيبهم بالوعيد ، وكفرهم  
برحمة الله . . . ويدعوه أن يذكر ما وقع للرسول قبله من ابتلاء . وما نالهم من رحمة الله  
بعد البلاء . . .

« وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا  
أَلْجَبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَا بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ \* وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ \* وَشَدَدْنَا  
مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ .

« وَهَلْ أَتَاكَ نَبِيًّا أَنْقَضَ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ ففَزِعَ مِنْهُمْ  
قَالُوا : لَا تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَنِي بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ، فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ،  
وَأَهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ \* إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَإِلَىٰ نَعْجَةٍ وَاحِدَةٍ

فَقَالَ : أَكْفَلْنِيهَا ، وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ \* قَالَ : لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَى تِعَاجِهِ ،  
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخَالِطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
- وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ - وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ \* فَفَغَفَرْنَا  
لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّا لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ .

« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ  
الْهُوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا  
سَوَّاءُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا . ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ  
لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ \* أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي  
الْأَرْضِ ؟ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ \* كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا  
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ \* إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ  
الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ \* فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ  
بِالْحِجَابِ \* رُدُّوهَا عَلَيَّ ، فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ، ثُمَّ أَنَابَ \* قَالَ : رَبِّ اغْفِرْ  
لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ \* فَسَخَرْنَا لَهُ  
الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَرَادَ \* وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ \* وَآخِرِينَ  
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ \* هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَإِنَّا لَهُ عِندَنَا  
لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ .

« وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ \*  
إِذْ لَقْنَاهُ مِن جَانِبِ النَّوْاسِ فَسَبَّوهُ سُبًّا \* وَنَمَّوهُ سَبْعَ سِنِينَ \* وَنَجَّيْنَاهُ مِن جَانِبِ  
الْبَحْرِ إِذْ يَضْرِبُ الْوَجْهَ الْكَاسِبَ \* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيُحْيَىٰ \* وَمَثَلُهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ سَوَاءٌ أَلْهَاهُم مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ \* وَذِكْرُنَا لِيَكْتُمِبَ الْفَائِزِينَ \* وَإِنَّا لَهُ  
عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ .

وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ \* وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَتْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

« وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ \* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ، ذِكْرَى الدَّارِ \* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ .

« وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ » ﴿٤٨﴾

هذا الدرس كله قصص وأمثلة من حياة الرسل - صلوات الله عليهم - تعرض كي يذكرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويدع ما يعاينه من قومه من تكذيب واتهام وتعجيب واقتراء ؛ ويصبر على ما يواجهونه به مما تضيق به الصدور .

وهذا القمص يعرض - في الوقت ذاته - آثار رحمة الله بالرسل قبله : وما أغدق عليهم من نعمة وفضل ، وما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك ردا على عجب قومه من اختيار الله له . وما هو يبدع من الرسل . وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ؛ وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ؛ وفيهم من سخر له الريح والشياطين .. كداود وسليمان . . فما وجه العجب في أن يختار الله محمدا الصادق لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان ؟

كذلك يصور هذا القمص رعاية الله الدائمة لرسوله ، وحياتهم بتوجيهه وتأييده . فقد كانوا بشرا - كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر - وكان فيهم ضعف البشر . وكان الله يرعاهم فلا يدعهم لضعفهم ؛ إنما يبين لهم ويوجههم ، ويتلهم ليغفر لهم ويكرمهم . وفي هذا ما يطمئن قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى رعاية ربه له ، وحماته وحياطته في كل خطوة يخطوها في حياته .

\*\*\*

« اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا أيوب ذا الأيد ، إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه

## سورة ص

يسبحن بالعشى والإشراق . والطير محشورة كل له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة  
وفصل الخطاب » . .

« اصبر » . . إنها الإشارة إلى الطريق المطروق في حياة الرسل - عليهم صلوات الله -  
الطريق الذي يضمهم أجمعين . فكلمهم سار في هذا الطريق . كلمهم عانى . وكلمهم ابتلى .  
وكلمهم صبر . وكان الصبر هو زادهم جميعا . وطابعهم جميعا . كل حسب درجته في سلم الأنبياء . .  
لقد كانت حياتهم كلها محربة مفعمة بالابتلاءات ؛ مفعمة بالآلام ؛ وحتى السراء كانت ابتلاء  
وكانت محكا للصبر على النعماء بعد الصبر على الضراء . وكانها في حاجة إلى الصبر والاحتفال . .  
ونستعرض حياة الرسل جميعا - كما قصها علينا القرآن الكريم - فرى الصبر كان قوامها ،  
وكان العنصر البارز فيها . ورى الابتلاء والامتحان كان مادتها وماءها . .

لكأنما كانت تلك الحياة المختارة - بل إنها كذلك - صفحات من الابتلاء والصبر  
معروضة للبشرية ، لتسجل كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام والضرورات ؛ وكيف  
تستعلى على كل ما تعزبه في الأرض ؛ وتتجرد من الشهوات والمغريات ؛ وتخلص لله وتنجح  
في امتحانه ، وتختاره على كل شيء سواه . . ثم لتقول للبشرية في النهاية : هذا هو الطريق .  
هذا هو الطريق إلى الاستعلاء ، وإلى الارتفاع . هذا هو الطريق إلى الله .

« اصبر على ما يقولون » . . وقد قالوا : « هذا ساحر كذاب » . . وقالوا : « أجعل  
الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب » . . وقالوا : « أنزل عليه الذر من بيننا ؟ » . .  
وغير ذلك كثير . والله يوجه نبيه إلى الصبر على ما يقولون . ويوجهه إلى أن يعيش بقلبه مع  
نماذج أخرى غير هؤلاء الكفار . نماذج مستخلصة كريمة . هم إخوانه من الرسل الذين كان  
يذكرهم - صلى الله عليه وسلم - ويحس بالقرابة الوثيقة بينه وبينهم ؛ ويتحدث عنهم حديث  
الأخوة والنسب والقرابة . وهو يقول . . رحم الله أخى فلاناً . . أو أنا أولى بفلان .

« اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب » . .  
يذكر داود هنا بأنه ذو القوة . وبأنه أواب . . وقد جاء من قبل ذكر قوم نوح وعاد  
وفرعون ذى الأوتاد وشمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة . . وهم طغاة بغاة . كان مظهر قوتهم  
هو الطغيان والبنى والتكذيب . فأما داود فقد كان ذا قوة ، ولكنه كان أوابا ، يرجع إلى  
ربه طائما تائبا عابدا ذا كرا . وهو القوى ذو الأيد والسلطان .

## الجزء الثالث والعشرون

وقد مضى في سورة البقرة بدء قصة داود ، وظهوره في جيش طالوت ، في بني إسرائيل - من بعد موسى - إذ قالوا لنبيهم : ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله . فاختار لهم طالوت ملكا . ولقي بهم عدوهم الجبار جالوت وجنوده . وقتل داود جالوت . وكان إذ ذاك فتى . ومنذ ذلك الحين ارتفع نجمه حتى ولى الملك أخيراً ؛ وأصبح ذا سلطان . ولكنه كان أواباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

ومع النبوة والملك آتاه الله من فضله قلباً ذا كرا وصوتاً رخياً ، يرجع به تراتيله التي يمجدها فيها ربه . وبلغ من قوة استغراقه في الذكر ، ومن حسن حظه في الترتيل ، أن تزول الحواجز بين كيانه وكيان هذا الكون . وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال والطيور في صلتها كلها ببارئها ، وتمجيدها له وعبادتها . فإذا الجبال تسبح معه ، وإذا الطير مجموعة عليه ، تسبح معه لمولاه ومولاه :

« إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . والطيور محشورة كل له أواب .. »  
ولقد يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ . الجبال الجامدة تسبح مع داود بالعشى والإشراق ، حينما يغلو إلى ربه ، يرتل ترانيمه في تمجيده وذكره . والطيور تتجمع على نغماته لتسمع له وترجع معه أناشيده . . . لقد يقف الناس مدهوشين للنبأ ، إذ يخالف مألوفهم ، ويخالف ما اعتادوا أن يحذوه من العزلة بين جنس الإنسان ، وجنس الطير ، وجنس الجبال ! ولكن فيم الدهش ؟ وفيم العجب ؟ إن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة . وراء تميز الأجناس والأشكال والصفات والسمات . حقيقة واحدة يجتمعون فيها يباري الوجود كله : أحيائه وأشياءه جميعاً . وحين تصل صلة الإنسان بربه إلى درجة الخلوص والإشراق والصفاء ، فإن تلك الحواجز تنزاح ؛ وتنساح الحقيقة المجردة لكل منهم . فتتصل من وراء حواجز الجنس والشكل والصفة والسمة التي تميزهم وتمزجهم في مألوف الحياة !

وقد وهب الله عبده داود هذه الخاصية ؛ وسخر الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق . وحشر عليه الطير ترجع مع ترانيمه تسيحاً لله . وكانت هذه هبة فوق الملك والسلطان ، مع النبوة والاستخلاص .

« وهددنا ملكه . وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب .. »  
فكان ملكه قوياً عزيزاً . وكان يسوم به بالحكمة والحزم جميعاً . وفصل الخطاب قطعه

## سورة ص

والجزم فيه برأى لا تردد فيه . وذلك مع الحكمة ومع القوة غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان .

ومع هذا كله فقد تعرض داود للفتنة والابتلاء ؛ وكانت عين الله عليه لترعاه و تقود خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطاه ، وتوقيه خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه :  
« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود ففزع منهم . قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض . فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ، فقال : أ كفلنيها ، وعزني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلقاء ليغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وقليل ما هم - وظن داود أنما فتناه . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأتاب » . .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شؤون الملك ، ولل قضاء بين الناس . ويخصص البعض الآخر بالحلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسيحاً لله في المحراب . وكان إذا دخل المحراب للعبادة والحلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس .

وفي ذات يوم فوجيء بشخصين يتسوران المحراب المغلق عليه . ففزع منهم . فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فادرا يطمثانه . « قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض » . وجئنا للتقاضي أمامك « فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط » . . وبدأ أحدهما فعرض خصومته : « هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة . فقال : أ كفلنيها ( أى اجعلها لي وفي ملكي وكفالتني ) « وعزني في الخطاب » ( أى شدد علي في القول وأغلظ ) .

والتقضية - كما عرضها أحد الخصمين - تحمل ظلماً صارخاً مشيراً لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى بحكم : « قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلقاء - ( أى الأقرباء الخالطين بعضهم لبعض ) - ليغى بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » . .

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان ا

## الجزء الثالث والعشرون

امتحان النبي الملك الذي ولاء الله أمر الناس ، يقضى بينهم بالحق والعدل ، ولتبيين الحق قبل إصدار الحكم . وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مشيرة .. ولكن القاضي عليه ألا يستتار ، وعليه ألا يتعجل . وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد . قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله ، أو بعضه ، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا .

عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء :

« وظن داود أنما فتناه » ..

وهنا أدركته طبيعته .. إنه أواب .. « فاستغفر ربه وخر راكعا وأتاب » .

« ففترنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » .. وخاضت بعض التفسير مع الإسرائيليات حول هذه الفتنة خوفا كبيرا . تنزه عنه طبيعة النبوة . ولا يتفق إطلاقا مع حقيقتها . حتى الروايات التي حاولت تخفيف تلك الأساطير سارت معها شوطا . وهي لاتصلح للنظر من الأساس . ولا تتفق مع قول الله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » ..

والتعقيب القرآني الذي جاء بعد القصة يكشف كذلك عن طبيعة الفتنة ؛ ويحدد التوجيه المقصود بها من الله لعبده الذي ولاء القضاء والحكم بين الناس :

« يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فأحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد . بما نسوا يوم الحساب » ..

فهى الخلافة في الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى . واتباع الهوى - فيما يختص بنبي - هو السير مع الانفعال الأول ، وعدم التريث والتثبت والتبين .. مما ينتهي مع الاستطراد فيه إلى الضلال . أما عقب الآية المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبيل الله . وهو نسيان الله والتعرض للعذاب الشديد يوم الحساب .

ومن رعاية الله لعبده داود ، أنه نبهه عند أول لفتة . وردة عند أول اندفاعه . وحذره النهاية البعيدة . وهو لم يخط إليها خطوة . وذلك فضل الله على المختارين من عباده . فهم يشترتهم قد تثر أقدامهم أقل عثرة ، فيقبلها الله ، ويأخذ يدهم ، ويعلمهم ، ويوقهم إلى الإنابة ، وينفر لهم ، وينطق عليهم ، بعد الابتلاء ..





وعند تقرير مبدأ الحق في خلافة الأرض ، وفي الحكم بين الناس . . . وقبل أن تمضي قصة داود إلى نهايتها في السياق . . . يرد هذا الحق إلى أصله الكبير . أصله الذي تقوم عليه السماء والأرض وما بينهما . أصله العريق في كيان هذا الكون كله . وهو أشمل من خلافة الأرض ، ومن الحكم بين الناس . وهو أكبر من هذه الأرض . كما أنه أبعد مدى من الحياة الدنيا . إذ يتناول صميم الكون كما يتناول الحياة الآخرة . ومنه وعليه جاءت الرسالة الأخيرة ، وجاء الكتاب المفسر لذلك الحق الشامل الكبير :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا . فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ، ليدبروا آياته ، وليتذكر أولو الألباب » . . . وهكذا : في هذه الآيات الثلاث ، تقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة . بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها . . .

إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا ، ولم يتم على الباطل . إنما كان حقا وقام على الحق . ومن هذا الحق الكبير تفرع سائر الحقوق . الحق في خلافة الأرض . والحق في الحكم بين الخلق . والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم ؛ فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؛ ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار . والحق الذي جاء به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة ، التي لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا . . . « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » . . .

إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون . وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس . وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي ، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف . وإن الانحراف عن شريعة الله والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي قامت عليه السماء والأرض ؛ وهو أمر عظيم إذن ، وشر كبير ، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بد أن يتحطم في النهاية ويزهق . فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن

### الجزء الثالث والعشرون

سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود . . ما يمكن أن يصمد بقوته الهزيلة الضئيلة لتلك القوى الساحقة الهائلة ، ولجولة الكون الجبارة الطاحنة !

وهذا ما ينبغي أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكروه أولو الألباب . .

\*\*\*

وبعد هذا التعقيب المعترض في صلب القصة لكشف تلك الحقيقة الضخمة ، يعنى السياق يعرض نعمة الله على داود في عقبه وولده سليمان ؛ وما وهبه الله من ألوان الإنعام والإفضال . كما يعرض فتنه وابتلاءه ورعاية الله له ، وإغداقه عليه بعد الفتنة والابتلاء :

« ووهبنا لداود سليمان . نعم العبد . إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافات الجياد . فقال : إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردها عليّ . فطفق مسحاً بالسوق والأعناق . ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب . قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . . »

والإشارتان الواردتان هنا عن الصافات الجياد وهى الخيل الكريمة . وعن الجسد الذى ألقى على كرسي سليمان . . كالتأشير إلى أنهما إشارتان لم تسترح نفسى لأى تفسير أو رواية مما احتوته التفسير والروايات عنهما . فعلى إما إسرائيليات منكورة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبى ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه فى تفسيرها وتصورها سوى حديث صحيح . صحيح فى ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخرجه البخارى فى صحيحه مرفوعاً . ونصه : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذى نفسى بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون » . . وجائز أن تكون هذه هى الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا . وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال . . أما قصة الخيل قليل : إن سليمان - عليه السلام - استعرض خياله بالعشى .

ففاتته صلاة كان يصلها قبل الغروب . فقال ردوها عليّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله . . . وكلتا الروايتين لا دليل عليهما . ويصعب الجزم بشيء منها .

ومن ثم لا يستطيع مثبت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يتلى الله أنبياءه ليوجههم ويرشدهم ، ويعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء :

« قال : رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » . . . وأقرب تأويل لهذا الطلب من سليمان - عليه السلام - أنه لم يرد به أثره . إنما أراد الاختصاص الذى يتجلى في صورة معجزة . فقد أراد به النوع . أراد به ملكاً ذا خصوصية تميزه من كل ملك آخر يأتى بعده . وذا طبيعة معينة ليست مكررة ولا مبهودة في الملك الذى يعرفه الناس .

وقد استجاب له ربه ، فأعطاه فوق الملك المهود ، ملكاً خاصاً لا يتكرر :

« فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد » . . .

وتسخير الريح لعباد من عباد الله بإذن الله ؛ لا يخرج فى طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله . وهى مسخرة لإرادته تعالى ولا يشك ، تجرى بأمره وفق نواميسه ؛ فإذا يسر الله لعبده من عباده فى فترة من الفترات أن يسر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها ؛ وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد ؛ فذلك أمر ليس على الله بمستبعد . ومثله يقع فى صورته . والله سبحانه يقول فى القرآن للرسول - صلى الله عليه وسلم - « لأن لم ينته المناقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً » . . . فما معنى هذا ؟ معناه أنهم إذا لم ينتهوا فستجبه إرادتنا إلى تسليطك عليهم وإخراجهم من المدينة .

### الجزء الثالث والعشرون

وسيم هذا بتوجيه إرادتك أنت ورغبتك إلى قتلهم وإخراجهم ؛ فتم إرادتنا بهم عن طريقك .  
فهذا لون من توافق أمر الله - سبحانه - وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - وإرادة الله وأمره  
هما الأصيلان . وهما يتجليان في إرادة الرسول وأمره وفق ما أراد الله . وهذا يقرب إلينا معنى  
تسخير الريح لأمر سليمان - عليه السلام - تسخيرها لأمره المطابق لأمر الله في توجيه هذه  
الرياح ، المثل لأمر الله المعبر عنه على كل حال .

كذلك سخر له الشياطين لتبني له ما يشاء ؛ وتغوص له في البحر والأرض في طلب  
ما يشاء . وأعطاه السلطة لعقاب المخالفين والمفسدين ممن سخرهم له وتكبيهم بالأصفاة مقرونة  
أيديهم إلى أرجلهم . أو مقرنين اثنين اثنين أو أكثر في القيود عند الاقتضاء .

ثم قيل له : إنك مطلق اليد فيما وهب الله لك من سلطة ومن نعمة . تعطى من تشاء كيف  
تشاء . وتمسك بمن تشاء قدر ما تشاء :

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » ..

وذلك زيادة في الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قربي في الدنيا وحسن  
مآب في الآخرة :

« وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » ..

وتلك درجة عظيمة من الرعاية والرضى والإنعام والتكريم .

\*\*\*

ثم نغض مع قصة الابتلاء والصبر ، والإنعام بعد ذلك والإنضال . نغض في السياق مع  
قصة أيوب :

« واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك .  
هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب .  
وخذ يدك ضغثا فاضرب به ولا تمنث ، إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » ..

وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهى تضرب مثلا للابتلاء والصبر . ولكنها  
مشوبة بإسرائيليات تطفئ عليها . والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب - عليه السلام -  
كان كما جاء في القرآن عبدا صالحا أوبا ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبرا جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه

كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا . ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخصائمه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته ، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه . وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء . فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف أن يشفاه الله ليعضها عدا عينه - قيل مئة . وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقي من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس لخصائمه ، ووقع هذا الإيذاء في نفسه :

« أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب .. »

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ :

« اركض برجلك . هذا مغتسل بارد وشراب .. »

ويقول القرآن الكريم :

« ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب .. »

وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس في النصر ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بمودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لدوى العقول والإدراك .

والمهم في معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يتلهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليعضها زوجها . فرحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وصبرته على بلائه وبلاؤها به ، أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد الذي حددته . فيضربها به ضربة واحدة . تجزى عن يمينه ، فلا يحث فيها :

« وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحث .. »

## الجزء الثالث والعشرون

هذا التيسير ، وذلك الإنعام ، كانا جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على  
البلاء وحسن الطاعة والالتجاء :

« إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد ، إنه أواب » . . .

\*\*\*

وبعد عرض هذه التخصيص الثلاثة بشيء من التفصيل ؛ ليدكره رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - ويصبر على ما يلاقه . يجمال السياق الإشارة إلى مجموعة من الرسل . في قصصهم  
من البلاء والصبر ، ومن الإنعام والإفضال ، ما في قصص داود وسليمان وأيوب - عليهم السلام -  
ومنهم سابقون على هؤلاء معروف زمانهم . ومنهم من لا نعرف زمانه ، لأن القرآن والمصادر  
المؤكدة لدينا لم تحددده :

« واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم  
بخالصة ذكرى الدار . وإنيهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل  
وكل من الأخيار ... » . . .

وإبراهيم وإسحاق ويعقوب - وكذلك إسماعيل - كانوا قبل داود وسليمان قطعاً . ولكن  
لا نعرف أين هم من زمان أيوب . وكذلك اليسع وذا الكفل . ولم يرد عنهما في القرآن إلا  
إشارات سريعة . وهناك نبي من أنبياء بني إسرائيل اسمه بالعبرية : « إيليش » وهو اليسع بالعربية  
على وجه الترجيح . فأما ذو الكفل فلا نعرف عنه شيئاً إلا صفة هذه « من الأخيار » . . .  
ويصف الله سبحانه : إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، بأنهم « أولى الأيدي والأبصار » . . .  
كناية عن العمل الصالح بالأيدي والنظر الصائب أو الفكر السديد بالأبصار . وكان من لا يعمل  
صالحاً لا يده له . ومن لا يفكر تفكيراً سليماً لا عقل له أو لا نظر له !

كما يذكر من صفاتهم التكريمية أن الله أخلصهم بصفة خاصة ليدكروا الدار الآخرة ،  
ويتجردوا من كل شيء سواها : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » . . . فهذه ميزتهم  
ورفعتهم . وهذه جعلتهم عند الله مختارين أخياراً : « وإنيهم عندنا لمن المصطفين الأخيار » . . .  
وكذلك يشهد الله - سبحانه - لإسماعيل واليسع وذي الكفل أنهم من الأخيار . وبوجه  
خاتم أنبيائه وخير رسله - صلى الله عليه وسلم - ليدكرهم ويميش بهم ، ويتأمل صبرهم ورحمة  
الله بهم . ويصبر على ما يلقاه من قومه المكذبين الضالين . فالصبر هو طريق الرسالات .

سورة ص

وطريق الدعوات . والله لا يدع عباده الصابرين حتى يموضهم من صبرهم خيرا ورحمة وبركة واصطفاء .. وما عند الله خير . وهان كيد الكائدين وتكذيب الكاذبين إلى جانب رحمة الله ورعايته وإنعامه وإفضاله .

« هَذَا ذِكْرٌ ، وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿١٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَعَةً لَهُمُ الْأَنْبَابُ \*  
مُنَكِّبِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ \* وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ  
أَثْرَابٌ \* هَذَا مَا وَعَدُونَن لِيَوْمِ الْحِسَابِ \* إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ .  
« هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ \* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ \* هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ  
حَمِيمٌ وَغَتَّاقٌ \* وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ .

« هَذَا قَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ . لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ، إِنَّهُمْ بِصَالُوا النَّارِ \* قَالُوا : بَل  
أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ، أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ، فَبِئْسَ الْقَرَارُ \* قَالُوا : رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا  
هَذَا فَرِزْدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ .  
« وَقَالُوا : مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ \* أَخَذْنَاكُمْ بِسِحْرٍ يَاسِرٍ ؟  
أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ .

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٢٠﴾

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله . مع الابتلاء وسبر .  
والرحمة والإفضال . كان هذا ذكرا لتلك الحيات الرفيعة في الأرض وفي هذه الدنيا . ثم  
يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين ، ومع المكذابين الطاغين إلى العالم الآخر وفي الحياة  
الباقية .. يتابعه في مشهد من مشاهد القيامة . نستعير لمرضه صفحات من كتاب مشاهد  
القيامة في القرآن مع تصرف قليل :

## الجزء الثالث والعشرون

بدأ الشهيد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء ، وفي السمات والهيئات : منظر « التقيين » لهم « حسن مأب » . ومنظر « الطاغين » لهم « شر مأب » . فأما الأولون فلمهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب . ولهم فيها راحة الاتكاء ، ومتعة الطعام والشراب . ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب . وهن مع شبابهن « قاصرات الطرف » لا يتطلعن ولا يمددن بأبصارهن . وكلهن شواب أتراب . وهو متاع دائم ورزق من عند الله « ماله من نقاد » .

وأما الآخرون فلمهم مهاد . ولكن لا راحة فيه . إنه جهنم « فبئس المهاد » ! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقي . إنه ما يئسق ويسيل من أهل النار ! أولهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب . يعبر عنها بأنها « أزواج » !

ثم يتم للشاهد بمنظر ثالث حتى شاخص بما فيه من حوار : فهامى ذى جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم . كانت في الدنيا متواودة متحابية . فهي اليوم متناكرة متنازرة . كان بعضهم على بعض في الضلال . وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعم . كما يصنع الملا من قريش وهم يقولون : « أنزل عليه الذكر من بينا ؟ » . .

هاهم أولاء يقتحمون النار فوجا بعد فوج . وهاهم أولاء يقول بعضهم لبعض : « هذا فوج مقتحم ممك » . . فماذا يكون الجواب ؟ يكون الجواب في اندفاع وحقق : « لامرجا بهم لأنهم صالوا النار » ! فهل يسكت المشتمون ؟ كلا ! إنهم يردون : « قالوا : بل أتم لامرجا بكم . أتم قدمتموه لنا فبئس القرار ! » . . فلقد كنتم أتم السبب في هذا العذاب . وإذا دعوة فيها الحق والضيق والانتقام : « قالوا : ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار » . .

ثم ماذا ؟ ثم هاهم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا ، وبظنون بهم شرا ، ويسخرون من دعواهم في النعم . هاهم أولاء يفتقدونهم فلا يرونهم معهم مقتحمين في النار ، فيتساءلون : أين هم ؟ أين ذهبوا ؟ أم ترام هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا ؟ : « وقالوا : ما لنا لآرى رجالا كنا نعدم من الأشرار اتخذناهم مغربا (١) ؟ أم زاغت عنهم الأبصار ؟ » . . بينا هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان !

(١) هناك قراءة لا تجعل جملة « اتخذناهم مغربا » استفهامية . ولكن إخبارية وقد اخترنا هذه القراءة لأن المعنى على أساسها أدق وأوضح . وتكون اتخذناهم مغربا تكملة لجملة قبلها ووصفا لرجالها .



ويحتم الشهيد بتفريده واقع أهل النار :

« إن ذلك لحق نجاههم أهل النار » !!

فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين . الذين كانوا يسخرون منهم ، ويستكثرون اختيار الله لهم . وما أبأس نصيبهم الذي كانوا يستعجلون به وهم يقولون : « ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » !

« قُلْ : إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ، وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ .

« قُلْ : هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ \* أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ \* مَا كَانَ لِي مِنِّ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ \* إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ : إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

« فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ \* إِلَّا إِبْلِيسَ اشْتَكَبَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ \* قَالَ : يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ؟ أَشْتَكَبْتَ

أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ \* قَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ \* قَالَ :

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ \* وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ \* قَالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي

إِلَىٰ يَوْمٍ يَبْعَثُونَ \* قَالَ : فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ \* إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ \* قَالَ :

فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ \* قَالَ : فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ :

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

« قُلْ : مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ \* وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿١٨﴾ »

هذا الدرس الأخير في السورة يعود إلى تقرير القضايا التي عرضت في مقدمتها : قضية التوحيد . والوحي . وقضية الجزاء في الآخرة . ويستعرض قصة آدم دليلاً على الوحي بما دار

## الجزء الثالث والعشرون

في اللأ الأعلى ذات يوم . وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب . كما تضمن القصة لونا من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أرداه وطرده من رحمة الله ؛ حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه . كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها . والتي يهدف من وراءها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في جباله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاما من أبيهم آدم ، وقد كان طرده بسببه . وهي معركة معروفة بالأهداف . ولكن أبناء آدم يستسلمون لمدوهم القديم !

وتختم السورة بتوكيد قضية الوحي ، وعظمة ما وراءه ، مما يغفل عنه المكذبون الغافلون ..

\*\*\*

« قل : إنما أنا منذر ، وما من إله إلا الله الواحد القهار . رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » . .

قل لأولئك المشركين ، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون : « أجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب » . . قل لهم : إن هذه هي الحقيقة : « وما من إله إلا الله الواحد القهار » . . وقل لهم : إنه ليس لك من الأمر ، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر ؛ وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار : « رب السماوات والأرض وما بينهما » . . فليس له من شريك . وليس من دونه ملجأ في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما . وهو « العزيز » القوي القادر . وهو « الغفار » الذي يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة ، ويغفر لمن يشوبون إلى حماه .

وقل لهم : إن ما جئهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون . وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون :

« قل : هو نبياً عظيم . أتم عنه معرضون » . .

وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود . ليس منفصلا ولا بعيدا عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد . ولقد جاء هذا النبا العظيم ليتجاوز قريشا في مكة ، والعرب في الجزيرة ، والجيل الذي

عاصر الدعوة في الأرض . ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ؛ ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها ؛ وكيف مصائرهما منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل في أوامره القدر له في نظام هذا الكون كله ، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطه يد القدر بهذا النبا العظيم . سواء في ذلك من آمن به ومن صدّ عنه . ومن جاهد معه ومن قاومه . في جيله وفي الأجيال التي تلت . ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبا العظيم . ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها ، وفي أجيال البشرية جميعها ، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال !

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبا إنما جاء ليغير وجه الأرض ؛ ويوجه سير التاريخ ؛ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ؛ ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها ؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالخلق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة . يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبا كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن في بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضا واقعيا ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا النبا الذين بهمهم دائما أن يصغروا من شأنه في تكييف حياة البشر وفي تحديد خط التاريخ . . . ومن ثم فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض في هذه الأرض إلى آخر الزمان . . .

ولقد كان العرب الأولون يظنون أن الأمر هو أمرهم وأمر محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - واختياره من بينهم ، لينزل عليه الذكر . وكانوا يحصرون مهمهم في هذه الشكليات . فالقرآن يوجه أنظارهم بهذا إلى أن الأمر أعظم من هذا جدا . وأنه أكبر منهم ومن محمد ابن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - وأن محمدا ليس إلا حاملا لهذا النبا ومبليا ؛ وأنه لم يبتدعه ابتداعا ؛ وما كان له أن يعلم ما وراءه لولا تعليم الله إياه ؛ وما كان حاضرا ما دار في اللأ الأعلى منذ البدء إنما أخبره الله :

« ما كان لي من علم بالملائكة الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين » . . .

\*\*\*

وعند هذا يأخذ السياق في عرض قصة البشرية ؛ ومادار في الملائكة الأعلى بشأنها منذ البدء .  
فما يحدد خط سيرها ، ويرسم أقدارها ومصائرهما . وهو ما أرسل محمد - صلى الله عليه وسلم -  
ليبلغه وينذر به في آخر الزمان :

« إذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي  
فصعوا له ساجدين » . . .

وما ندرى نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة . وما ندرى كذلك كيف يتلقى  
للملائكة عن الله ولا ندرى عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم في كتاب الله . ولا حاجة بنا  
إلى الخوض في شيء من هذا الذي لا طائل وراء الخوض فيه . إنما نضئ إلى مغزى القصة  
ودلالاتها كما يقصها القرآن .

لقد خلق الله هذا الكائن البشري من الطين . كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من  
طين . فمن الطين كل عناصرها . فيما عدا سر الحياة الذي لا يدرى أحد من أين جاء ولا كيف  
جاء . ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر . وفيما عدا تلك النفخة  
العلوية التي جعلت منه إنسانا . من الطين كل عناصر جسده . فهو من أمه الأرض . ومن  
عناصرها تكون . وهو يستحيل إلى تلك العناصر حينما يفارقه ذلك السر الإلهي المجهول ؛  
وتفارقه معه آثار تلك النفخة العلوية التي حدثت خط سيره في الحياة .

ونحن نجعل كنه هذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فأثارها هي التي ميزت هذا  
الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض . ميزته بخاصية التقابلية للرقى العقلي  
والروحي . هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه  
يتجاوز للمدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصة إنسانية بحتة ، لا يشاركها فيها سائر الأحياء  
في هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع  
في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس - ولا أحد أفرادها - عقليا أو روحيا . حتى  
مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي .

لقد تفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة

## سورة ص

في الأرض؟ وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له . حدود العارة ومقتضياتها من قوى وطاقات .

لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة . ومن يومها وهو يرتقى كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر في استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية ، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي . ولو تضخمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة .

وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة . . ما كان له أن ينال شيئا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة . . وإلا فمن هو؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذي يحيا على هذا الكوكب الأرضي مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الكوكب الأرضي إلا تابع صغير من توابع أحد النجوم . ومن هذه النجوم ملايين الملايين في ذلك الفضاء الذي لا يدري إلا الله مداه . . فإذا يبلغ هذا الإنسان تسجد له ملائكة الرحمان ؛ إلا بهذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انقصم منه ارتد إلى أصله الزهيد . . من طين !

ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هي فطرتهم :

« فسجد الملائكة كلهم أجمعون » . .

كيف؟ وأين؟ ومتى؟ كل أولئك غيب من غيب الله . ومعرفة لا تزيد في مغزى القصة شيئا . هذا المغزى الذي يبرز في تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين ؛ بعد ما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم .

سجد الملائكة امتثالا لأمر الله ، وشعورا بحكمته فيما يراه .

« إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين » . .

فهل كان إبليس من الملائكة؟ الظاهر أنه لا . لأنه لو كان من الملائكة ماعصى . فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . . وسيجيء أنه خلق من نار . والمأثور أن الملائكة خلق من نور . . ولكنه كان مع الملائكة وكان مأمورا بالسجود . ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالا لشأنه بسبب ما كان من عصيانه . إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التويخ إليه :

« قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ أستكبرت ؟ أم كنت من العالين ؟ » .  
ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ؟ والله خالق كل شيء . فلا بد أن تكون هناك  
خصوصية في خالق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه . هي خصوصية العناية الربانية بهذا  
الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية .

أستكبرت ؟ عن أمرى « أم كنت من العالين ؟ » الذين لا يخضعون ؟

« قال : أنا خير منه . خلقتني من نار وخلقته من طين ! »

إنه الحسد ينضح من هذا الرد . والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين  
في آدم ، والذي يستحق هذا التكريم . وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي  
تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود .

هنا صدر الأمر الإلهي العالى بطرد هذا المخاوق التمرد القبيح :

« قال : فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » ..

ولا تملك أن تحدد عائد الضمير في قوله : « منها » فهل هي الجنة ؟ أم هل هي رحمة  
الله . . هذا وذلك جائز . ولا محل للجدل الكثير . فإنما هو الطرد واللعنة والفضب جزاء  
التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد . وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس :

« قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون » ..

واقضت مشيئة الله للحكمة القدرة في علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التي أراد :

« قال : : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » ..

وكشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق فيه حقه :

« قال . فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » ..

وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه . إنه يقسم بمزة الله ليغوين جميع الآدميين . لا يستثنى إلا من ليس  
له عليهم سلطان . لا تطوعا منه ولكن مجزا عن بلوغ غايته فيهم ! وبهذا يكشف عن الحاجز  
بينه وبين الناجين من غوايته وكيد . والعاصم الذي يحول بينهم وبينه . إنه عبادة الله التي  
تخلصهم له . هذا هو طوق النجاة . وجبل الحياة ! .. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره  
في الردى والنجاة . فأعلن - سبحانه - إرادته . وحدد المنهج والطريق :

« قال : فالحق . والحق أقول . لأملأن جهنم منك وعمن تبعك منهم أجمعين » .

والله يقول الحق دائما . والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه في هذه السورة في شق

صوره ، وأسبانه . فالخصم الذين تسوروا المحراب على داود يتمولون له : « فاحكم بيت بالحق ولا تتطعل . . . والله يادي عبده داود : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » . . . ثم يعقب على هذا بالإشارة إلى الحق السكامن في خلق السموات والأرض : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا » . . . ثم يحىء ذكر الحق على لسان القوى العزيز : « قال فالحق والحق أقول » . . . فهو الحق الذي تتعدد مواضعه وصوره ، وتتحد طبيعته وكنهه . ومنه هذا الوعد الصادق :

« لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » . . .

وهى المعركة إذن بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم . والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين . وعليهم تبعه ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان . وقد شاءت رحمة الله ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين . فأرسل إليهم المنذرين .

\*\*\*

وفي نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى إليهم بالقول الأخير :

« قل : ما سألكم عليه من أجر ؟ وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين » . . .

إنها الدعوة الخالصة للنجاة ، بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجرا . وهو الداعية السليم الفطرة ، الذي ينطق بلسانه ، لا يتكلف ولا يتصنع ، ولا يأمر إلا بما يوحى منطلق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون وينفلون . وإنه للنبا العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم ، ويعلمن نبأه بعد حين . نبأه في الأرض وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » . . .

إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها . وهو الإيقاع المدوي العميق ، الموحى بضخامة ماسيكون : « ولتعلمن نبأه بعد حين » . . .

تم الجزء الثالث والعشرون . ويليه الجزء  
الرابع والعشرون مبدوءاً بسورة الزمر (١)

(١) ينتهى الجزء الثالث والعشرون بالآية ٣١ من سورة الزمر ولكننا آتينا عرض السورة كاملة في الجزء الرابع والعشرين

# فی ظلال القرآن

الجزء الرابع والعشرون

بم

سید قطب



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ  
من سورة الزمر وغافر وفصلت

## سُورَةُ الزُّمَرِ وَآيَاتُهَا ٧٥

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ \* أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ؛ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ \* لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ \* خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ \* خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَانِ ، وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ، يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَىٰ تُصْرَفُونَ ؟ \* إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑤ »

## سورة الزمر

هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد . وهي تطوف بالقلب البشرى في جولات متعاقبة ؛ وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة ؛ وتهزه هزا عميقا متواصلا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها ، وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة . ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها ؛ يعرض في صور شتى .

ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على علاجها : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين . ألا الله الدين الخالص ... الخ » . . . وتتردد في مقاطعها على فقرات متقاربة فيها إما نصا . وإما مفهوما . . .

نصا كقوله : « قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت أن أكون أول المسلمين . قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل : الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ... الخ » . . . أو قوله : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحى إليك وإلى الدين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين » .

ومفهوما كقوله : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا : الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . . . أو قوله : « أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالدين من دونه ، ومن يضل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل . أليس الله بعزير ذي انتقام ؟ » . . .

وإلى جانب حقيقة التوحيد التي تعالج السورة أن تطبعها في القلب وتمكنها نجد في السورة توجيهات وإيحاءات لإيقاظ هذا القلب واستجاشته وإثارة حساسيته ، وإرهافه للتلقى والتأثر والاستجابة . ذلك كقوله : « والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنا ابوا إلى الله لهم البشرى . فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » . . . « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله : ذلك هدى الله يهدي به من يشاء . ومن يضل الله فما له من هاد » . . . « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيا إليه ، ثم إذا خوله أمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله . قل : تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار » . . .

وهناك ظاهرة ملحوظة في جو السورة . . إن ظل الآخرة يجللها من أولها إلى آخرها .  
وسياقها يطوّف بالقلب البشري هناك في كل شوط من أشواطها القصيرة ؛ ويميش به في ظلال  
العالم الآخر معظم الوقت ؛ وهذا هو مجال العرض الأول فيها والمؤثر البارز التكرار في ثناياها .  
ومن ثم تتلاحق فيها مشاهد القيامة أو الإشارة إليها في كل مقطع من مقاطعها الكثيرة .  
مثل هذه الإشارات : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة  
ربه ؟ » . . « قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » . . « أفمن حق عليه  
كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ؟ » . . « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ » . .  
« وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . . « أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟ » . .  
« ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به من العذاب يوم القيامة ؛ وبداء  
لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . . « وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب  
ثم لاتتصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم  
لاتشعرون . أن تقول نفس : يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين .  
أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة  
فأكون من المحسنين . . » . . وهذا غير المشاهد الكاملة التي تشغل حيزاً من السورة كبيراً ،  
وتظلل جوها بظلال الآخرة .

أما المشاهد الكونية التي لاحظنا كثرتها وتنوعها في السور الكية في ثنايا عرضها  
لحقائق العقيدة فهي قليلة في هذه السورة . .

هنالك مشهد كوني يرد في مطلعها : « خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على  
النهار ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . الا هو  
العزیز الغفار » . .

ومشهد آخر في وسطها : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ؛  
ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ؛ ثم يهيج فتراه مصفراً ؛ ثم يجعله حطاباً ؛ إن في ذلك لذكرى  
لأولي الألباب » . .

وهناك إشارات سريعة إلى خلق السماوات والأرض غير هذين الشهادين البارزين .  
كذلك تتضمن السورة لمسات من واقع حياة البشر ، وفي أغوار نفوسهم ، تتوزع في ثناياها

## سورة الزمر

يرد في مطالعها عن نشأة البشرية : « خلقكم من نفس واحدة ؛ ثم جعل منها زوجها .. وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو . فأتى تصرفون ؟ » .

ويرد عن طبيعة النفس البشرية في الضراء والسراء : « وإذا مس الإنسان ضر دعاه به منيا إليه ؛ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل . . . الخ » .. « فإذا مس الإنسان ضر دعانا ؛ ثم إذا حولناه نعمة منا قال : إنما أوتيته على علم . بل هي فتنة .. » ..

ويرد في تصوير أنفس البشر في قبضة الله في كل حالة : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ؛ فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

ولكن ظل الآخرة وجوها يظل مسيطرا على السورة كلها كما أسلفنا . حتى تختم بمشهد خاشع يرسم ظل ذلك اليوم وجوه : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » .

هذا الظل يتناسق مع جو السورة ، ولون اللسان التي تأخذ القلب البشري بها . فهي أقرب إلى جو الحشية والخوف والفرع والارتعاش . ومن ثم نجد الحالات التي رسمها للقلب البشري هي حالات ارتعاشه وانتفاضه وخشيته . نجد هذا في صورة القانت أثناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . وفي صورة الذين يخشون ربهم تقشروا جلودهم لهذا القرآن ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . كما نجد في التوجيه إلى التقوى والخوف من العذاب ، والتخويف منه : « قل : يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم » . « قل : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .. « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون » .. ثم نجد في مشاهد القيامة وما فيها من فزع ومن خشية ، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع .

\* \* \*

والسورة تعالج الموضوع الواحد الرئيسي فيها في جولات قصيرة متتابعة ؛ تكاد كل جولة منها تختم بمشهد من مشاهد القيامة ، أو ظل من ظلالها . وسنحاول أن نستعرض هذه الجولات المتتابعة كما وردت في السياق . إذ أنه يصعب تقسيم السورة إلى دروس كبيرة . وكل مجموعة

## الجزء الرابع والعشرون

قليلة من آياتها تصلح حلقة تعرض في موضعها . ومجموع هذه الحلقات يتناول حقيقة واحدة حقيقة التوحيد الكبيرة . .

\* \* \*

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصاً له الدين . ألا الله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » .  
تبدأ السورة بهذا التقرير الحاسم .

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » . .  
العزيز القادر على تنزيله .

الحكيم الذي يعلم فيم أنزله ولماذا أنزله ؟ ويفعل ذلك بحكمة وتقدير وتدبير .  
ولا تلبث السياق عند هذه الحقيقة طويلاً ؛ فهي مقدمة للقضية الأصلية التي تكاد السورة تكون وقفاً عليها ؛ والتي نزل الكتاب لتقريرها وتوكيدها . قضية توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإخلاص الدين له ، وتزبيها عن الشرك في كل صورة من صورته ؛ والاتجاه إليه مباشرة بلا وسيط ولا شفيع :

« إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » .

وأساس الحق الذي أنزل به الكتاب ، هو الوجدانية المطلقة التي يقوم عليها الوجود .  
وفي الآية الخامسة من السورة يجيء : « خلق السماوات والأرض بالحق » . فهو الحق الواحد الذي قامت به السماوات والأرض ، وأنزل به هذا الكتاب . الحق الواحد الذي تشهد به وحدة النظام الذي يصرف السماوات والأرض ؛ والذي ينطق به هذا الكتاب . الحق الذي يتسم به كل ما خرج من يد الصانع المبدع في هذا الوجود . .  
« فاعبد الله مخلصاً له الدين » .

والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي أنزل إليه الكتاب بالحق . وهو منهجه الذي يدعو إليه الناس كافة . . عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، وقيام الحياة كلها على أساس هذا التوحيد .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له ، ليس كلمة تقال باللسان ؛ إنما هو نهج حياة كامل يبدأ من تصور واعتقاد في الضمير ؛ ويتنهي إلى نظام يشمل حياة الفرد والجماعة .

## سورة الزمر

والقلب الذي يوحد الله . يدين الله وحده ، ولا يحى هامته لأحد سواه ، ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه . فالله وحده هو القوى عنده ، وهو القاهر فوق عباده . والعباد كهم ضعاف مهزبل ، لا يملكون له نقما ولا ضرا ؛ فلا حاجة به إلى أن يحى هامته لو احد منهم . وهم مثله لا يملكون لأنفسهم نقما ولا ضرا . والله وحده هو المانع المانع ، فلا حاجة به إلى أن يتوجه لأحد غيره وهو الغنى والخلق كلهم فقراء .

والقلب الذي يوحد الله ، يؤمن بوحدة المأموس الإلهي الذي يصرف الوجود كله ؛ ويؤمن بإذن بأن النظام الذي اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك المأموس الواحد ، لاتصلح حياة البشر ولا تستقيم مع الكون الذي يعيشون فيه إلا باتباعه . ومن ثم لا يختار غير ما اختاره الله من الظم ، ولا يتبع إلا شريعة الله المتسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة .

والقلب الذي يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يد الله في هذا الكون من أشياء وأحياء ؛ ويحيا في كون صديق يعاطفه ويتجاوب معه ؛ ويحس يد الله في كل ماحوله ، فيعيش في أنس بالله وبدائعه التي تلمسها يدها وتقع عليها عيناه . ويشعر كذلك بالتحرج من إيذاء أحد ، أو إتلاف شيء ، أو التصرف في أحد أو في شيء إلا بما أمره الله . خالق كل شيء ، ومحي كل حي . ربه ورب كل شيء وكل حي ..

وكذلك تبدو آثار التوحيد في التصورات والشاعر ، كما تبدو في السلوك والتصرفات . وترسم للحياة كلها منهاجا كاملا واضحا متميزا . ولا يعود التوحيد كلمة تقال باللسان . ومن ثم تلك العناية بتقرير عقيدة التوحيد وتوضيحها وتكرار الحديث عنها في الكتاب الذي أنزله الله : وهو حديث يحتاج إلى تدبره كل أحد ، في كل عصر ، وفي كل بيئة . فالتوحيد بمعناه ذلك معنى ضخم شامل يحتاج إلى فهم وإدراك .

« ألا لله الدين الخالص » ..

يملأها هكذا مدوية عالية في ذلك التعبير المجلجل . بأداة الافتتاح « ألا » وفي أسلوب القصر « لله الدين الخالص » . فيؤكد معناها بالبناء اللفظي للعبارة . . . فهي القاعدة التي تقوم عليها الحياة كلها . بل التي يقوم عليها الوجود كله . ومن ثم ينبغي أن ترسخ وتضع وتعلن في هذا الأسلوب الجازم الحاسم : « ألا لله الدين الخالص » ..

ثم يعالج الأسطورة المعقدة التي كان المشركون يواجهون بها دعوة التوحيد .

## الجزء الرابع والعشرون

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه مختلفون . إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » ..

فلقد كانوا يعلنون أن الله هو خالقهم وخالق السماوات والأرض . . . ولكنهم لم يكونوا يسيرون مع منطق الفطرة في أفراد الخالق إذن بالعبادة ، وفي إخلاص الدين لله بلا شريك . إنما كانوا يبتدعون أسطورة بنوة الملائكة لله سبحانه . ثم يصوغون للملائكة تماثيل يعبدونها فيها . ثم يزعمون أن عبادتهم لتماثيل الملائكة - وهي التي دعوها آلهة أمثال اللات والعزى ومناة - ليست عبادة لها في ذاتها ؛ إنما هي زلفى وقربى لله . كي تشفع لهم عنده ، وتقرّبهم منه ! وهو انحراف عن بساطة الفطرة واستقامتها ، إلى هذا التعقيد والتخريف . فلا الملائكة بنات الله . ولا الأصنام تماثيل للملائكة . ولا الله - سبحانه - يرضى بهذا الانحراف . ولا هو يقبل فيهم شفاعاة . ولا هو يقربهم إليه عن هذا الطريق !

وإن البشرية لتتحرف عن منطق الفطرة كلما انحرفت عن التوحيد الخالص البسيط الذي جاء به الإسلام ، وجاءت به العقيدة الإلهية الواحدة مع كل رسول . وإنما لئرى اليوم في كل مكان عبادة للقديسين والأولياء تشبه عبادة العرب الأولين للملائكة - أو تماثيل الملائكة - تقرباً إلى الله - بزعمهم - وطلباً لشفاعتهم عنده . وهو سبحانه يحدد الطريق إليه . طريق التوحيد الخالص الذي لا يتلبس بوساطة أو شفاعاة على هذا النحو الأسطوري العجيب !

« إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار » ..

فهم يكذبون على الله . يكذبون عليه بنسبة بنوة الملائكة إليه ؛ ويكذبون عليه بأن هذه العبادة تشفع لهم عنده ! وهم يكفرون بهذه العبادة ؛ ويخالفون فيها عن أمر الله الواضح الصريح . والله لا يهدي من يكذب عليه ، ويكفر به . فالهداية جزاء على التوجه والإخلاص والتخرج ، والرغبة في الهدى ، وتحري الطريق . فأما الذين يكذبون ويكفرون فهم لا يستحقون هداية الله ورعايته . وهم يختارون لأنفسهم البعد عن طريقه .

ثم يكشف عن سخف ذلك التصور وتهافته :

« لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء . سبحانه ! هو الله الواحد القهار » . وهو فرض جدلي لصحيح التصور . فانه لو أراد أن يتخذ ولدا لاختار ما يشاء من بين خلقه ؛ فأرادته مطلقة غير مقيدة . ولكنه - سبحانه - نزه نفسه عن اتخاذ الولد . فليس لأحد



أن ينسب إليه ولدا ، وهذه إرادته ، وهذه مشيئته ، وهذا تقديره ؟ وهذا تزييه لذاته عن الولد والشريك :

« سبحانه ! هو الله الواحد القهار » ..

وما اتخذ الولد ؟ وهو مبدع كل شيء ؛ وخالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ؟ وكل شيء وكل أحد ملكه يفعل به ما يشاء :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ؛ وسخر الشمس والقمر كل مجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار » ..

وهذه اللفظة إلى ملكوت السماوات والأرض ، وإلى ظاهرة الليل والنهار ، وإلى تسخير الشمس والقمر توحى إلى الفطرة بحقيقة الألوهية التي لا يلبق معها أن يكون هناك ولد ولا شريك . فالذي يخلق هذا الخلق وينشئه إنشاء ، لا يحتاج إلى الولد ولا يكون معه شريك . وآية الوجدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض ، وفي الناموس الذي يحكم الكون . والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحى بوحدة الإرادة الخالقة المدبرة . وما كشفه الإنسان - حتى اليوم - من دلائل الوحدة فيه الكفاية . فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة في ماهيتها ، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة . وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التي تتألف منها سواء في ذلك الأرض التي نسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى في حركة دائمة ، وأن هذه الحركة قانون ثابت لا يتخلف لا في الذرة الصغيرة ولا في النجم الهائل . واتضح أن لهذه الحركة نظاما ثابتا هو الآخر يوحى بوحدة الخلق ووحدة التدبير . . وفي كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة في تصميم هذا الوجود . ويكشف عن حق ثابت في هذا التصميم لا يتقلب مع هوى ، ولا ينحرف مع ميل ، ولا يتخلف لحظة ولا يجيد .

« خلق السماوات والأرض بالحق » ..

وأزل الكتاب بالحق .. فهو الحق الواحد في ذلك الكون وفي هذا الكتاب .. وكلاهما صادر من مصدر واحد . وكلاهما آية على وحدة المبدع العزيز الحكيم .

« يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » ..

وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية

## الجزء الرابع والعشرون

الأرض ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطيء وتصيب ، وثبت اليوم وتبطل غدا . والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ، ولا يستمدّها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل !

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرنى قسرا على النظر في موضوع كروية الأرض . فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض . فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس ؛ فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذي كان عليه النهار . وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكورا والليل يتبعه مكورا كذلك . وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل . وهكذا في حركة دائبة : « يتكور الليل على النهار ويتكور النهار على الليل » . واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها . وكروية الأرض ودوراتها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » .

والشمس تجرى في مدارها . والقمر يجري في مداره . وهما مسخران بأمر الله . فما يزعم أحد أنه يجريهما . وما يقبل منطق الفطرة أن يجريا بلا محرك ، يدبرها بمثل هذا النظام الدقيق الذي لا يخل شعرة في ملايين السنين . وستجرى الشمس وسيجرى القمر « لأجل مسمى » . . لا يعلمه إلا الله سبحانه .

« ألا هو العزيز الغفار » . .

فمع القوة والقدرة والعزة ، هو غفار لمن يتوب إليه وينيب ، ممن يكذبون عليه ويكفرون به ، ويتخذون معه آلهة ، ويزعمون له ولدا - وقد سبق حديثهم - والطريق أمامهم مفتوح ليرجعوا إلى العزيز الغفار . .

\*\*\*

ومن تلك اللقطة إلى آفاق الكون الكبير ، ينتقل إلى لقطة في أنفس العباد ؛ ويشير إلى آية الحياة القرية منهم في أنفسهم وفي الأنعام المسخرة لهم :

« خلقكم من نفس واحدة . ثم جعل منها زوجها . وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .

## سورة الزمر

يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك .  
لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ »

وحيث يتأمل الإنسان في نفسه . نفسه هذه التي لم يخلقها . والتي لا يعلم عن خلقها إلا ما يقصه الله عليه . وهي نفس واحدة . ذات طبيعة واحدة . وذات خصائص واحدة . خصائص تميزها عن بقية الخلائق ، كما أنها تجمع كل أفرادها في إطار تلك الخصائص . فالنفس الإنسانية واحدة في جميع الملايين المنبثين في الأرض في جميع الأجيال وفي جميع البقاع . وزوجها كذلك منها . فالمرأة تلتقي مع الرجل في عموم الخصائص البشرية - رغم كل اختلاف في تفصيلات هذه الخصائص - مما يشي بوحدة التصميم الأساسي لهذا الكائن البشري . الذكر والأنثى . ووحدة الإرادة المبدعة لهذه النفس الواحدة بشقيها .

وعند الإشارة إلى خاصية الزوجية في النفس البشرية ترد الإشارة إلى هذه الخاصية في الأنعام كذلك . مما يشي بوحدة القاعدة في الأحياء جميعا :

« وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » :

والأنعام الثمانية كما جاءت في آية أخرى : هي الضأن والمعز والبقر والإبل . من كل ذكر وأنثى . وكل من الذكر والأنثى يسمى زوجا عند اجتماعهما . فهي ثمانية في مجموعها . . . والتعبير يعبر عن تسخيرها للإنسان بأنه إنزال لها من عند الله . فهذا التسخير منزل من عنده . منزل من عليائه إلى عالم البشر . ومأذون لهم فيه من عنده تعالى .

ثم يعود - بعد هذه الإشارة إلى وحدة خاصية الزوجية في الناس والأنعام - إلى تتبع مراحل الخلق للأجنة في بطون أمهاتها :

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق » ..

من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام . إلى الخلق الواضح فيه عنصر البشرية .

« في ظلمات ثلاث » . . .

ظلمة الكيس الذي يظف الجنين . وظلمة الرحم الذي يستقر فيه هذا الكيس . وظلمة البطن الذي تستقر فيه الرحم . ويد الله يخلق هذه الخلية الصغيرة خلقا من بعد خلق . وعين الله ترعى هذه الخلية وتودعها القدرة على النمو . والقدرة على التطور . والقدرة على الارتقاء . والقدرة على السير في تمثيل خطوات النفس البشرية كما قدر لها بارئها .

## الجزء الرابع والعشرون

وتتبع هذه الرحلة القصيرة الزمن ، البعيدة الآماد ؛ وتأمل هذه التغيرات والأطوار ؛ وتدبر تلك الخصائص العجيبة التي تقود خطى هذه الخلية الضعيفة في رحلتها العجيبة ... في تلك الظلمات وراء علم الإنسان وقدرته وبصره ..

هذا كله من شأنه أن يقود القلب البشري إلى رؤية يد الخالق المبدع . رؤيتها بآثارها الحية الواضحة الشاحصة . والإيمان بالوحدانية الظاهرة الأثر في طريقة الخلق والنشأة . فكيف يصرف قلب عن رؤية هذه الحقيقة ؟ :

« ذلكم الله ربكم له الملك . لا إله إلا هو . فأنى تصرفون ؟ » ..

\*\*\*

وأمام هذه الرؤية الواضحة لآية الوحدانية المطلقة ، وآية القدرة الكاملة ، يفهم أمام أنفسهم . في مفرق الطريق بين الكفر والشكر . وأمام التبعة الفردية المباشرة في اختيار الطريق . ويلوح لهم بنهاية الرحلة ، وما ينتظرهم هناك من حساب ، يتولاه الذي يخلقهم في ظلمات ثلاث . والذي يعلم ماتكن صدورهم من خفايا الصدور :

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم . ولا يرضى لعباده الكفر . وإن تشكروا يرضه لكم . ولا تزر وازرة وزر أخرى . ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون . إنه عليم بذات الصدور » ..

إن هذه الرحلة في بطون الأمهات هي مرحلة في الطريق الطويل . تليها مرحلة الحياة خارج البطون . ثم تعقبها المرحلة الأخيرة مرحلة الحساب والجزاء . بتدبير المبدع العليم الخبير . والله - سبحانه - غنى عن العباد الضعاف المهزلة . إنما هي رحمته وفضله أن يشملهم بعنايته ورعايته . وهم من هم من الضعف والهزال !

« إن تكفروا فإن الله غنى عنكم » ..

فإيمانكم لا يزيد في ملكه شيئاً . وكفركم لا ينقص منه شيئاً . ولكنه لا يرضى عن كفر الكافرين ولا يحبه :

« ولا يرضى لعباده الكفر » :

« وإن تشكروا يرضه لكم » ..

سورة الزمر

ويعجبه منكم ، ويعجبه لكم ، ويجزيكم عليه خيرا .  
وكل فرد مأخوذ بعمله ، محاسب على كسبه ؛ ولا يحمل أحد عبء أحد . فلكل  
حمله وعبؤه :

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

والمرجع في النهاية إلى الله دون سواه ؛ ولا مهرب منه ولا ملجأ عند غيره :

« ثم إليه مرجعكم فينبشكم بما كنتم تعملون » ..

ولا يخفى عليه من أمركم شيء :

« إنه عليم بذات الصدور » ..

هذه هي العاقبة . وتلك هي دلائل الهدى . وهذا هو مفرق الطريق .. ولكل أن

يختار . عن بينة . وعن تدبر . وبعد العلم والتفكير ..

« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نِسِيَ  
مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ ، وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ . قُلْ : تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ  
قَلِيلًا ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝۸ »

« أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ، ويرجو رنة ربه ؟

قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب .

« قُلْ : يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ،

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ، إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝۱۰ »

في الجولة الأولى لس قلوبهم بعرض قصة وجودهم ؛ وخلقهم من نفس واحدة ؛ وتزويجها  
من جنسها ؛ وخلق الأنعام أزواجا كذلك ؛ وخلقهم في بطون أمهاتهم في ظلمات ثلاث .  
وأشهرهم يد الله تمنحهم خصائص جنسهم البشري أول مرة ؛ ثم تمنحهم خصائص البقاء والارتقاء .  
وهنا يلس قلوبهم لمسة أخرى وهو يعرض عليهم صورتهم في الضراء وصورتهم في السراء ؛

## الجزء الرابع والعشرون

ويريهم تقلبهم وضعفهم وادعاءهم وقلة ثباتهم على نهج ؛ إلا حين يتصلون برهيم ، ويتطلعون إليه ، ويقتنون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة ؛ وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

\* \* \*

« وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيا إليه . ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ، وجعل لله أندادا ، ليضل عن سبيله . قل : تمتع بكفرك قليلا ، إنك من أصحاب النار » . .

إن فطرة الإنسان تبرز عارية حين يمسه الضر ؛ ويسقط عنها الركام ؛ وتزول عنها الحجب ، وتكشف عنها الأوهام ؛ فتتجه إلى ربها ، وتنبئ إليه وحده ؛ وهي تدرك أنه لا يكشف الضر غيره . وتعلم كذب ما تدعى من شركاء أو شفعاء .

فأما حين يذهب الضر ويأتي الرخاء ، ويخوله الله نعمة منه ، ويرفع عنه البلاء . فإن هذا الإنسان الذي تمرت فطرته عند مس الضر يعود فيضع عليها الركام ، وينسى تضرعه وإنابته وتوحيده لربه . وتطلعه إليه في المحنة وحده ، حين لم يكن غيره يملك أن يدفع عنه محنته . . . ينسى هذا كله وينذهب يجعل لله أندادا . إما آلهة يعبدها كما كان في جاهليته الأولى ؛ وإما قبا وأشخاصا وأوضاعا يجعل لها في نفسه شركة مع الله ، كما يفعل في جاهليته الكثيرة ؛ فإذا هو يعبد شهواته وميوله ومطامعه ومخاوفه وماله وأولاده وحكامه وكبراءه كما يعبد الله أو أخلص عبادة ؛ ويحبها كما يحب الله أو أشد حبا والشرك ألوان . فيها الخفي الذي لا يحسبه الناس شركا ، لأنه لا يأخذ شكل الشرك المعروف وإنما هو من الشرك في الصميم .

وتكون العاقبة هي الضلال عن سبيل الله . فسبيل الله واحد لا يتعدد . وإفراده بالعبادة والتوجه والحب هو وحده الطريق إليه . والعقيدة في الله لا تحتل شركة في القلب . لا تحتل شركة من مال ولا ولد ولا وطن ولا أرض ولا صديق ولا قريب ، فأبما شركة قامت في القلب من هذا وأمثاله فهي اتخذ أنداد لله ، وضلال عن سبيل الله ، منته إلى النار بعد قليل من المتاع في هذه الأرض :

« قل : تمتع بكفرك قليلا : إنك من أصحاب النار » . .

وكل متاع في هذه الأرض قليل مهما طال . وأيام الفرد على هذه الأرض معدودة مهما

## سورة الزمر

عمر . بل إن حياة الجسد الدشري كما على الأرض لمتاع قليل ، حين يقاس إلى أيام الله !

\* \* \*

وإلى جانب هذه الصورة النكدة من الإنسان ، يعرض صورة أخرى . . صورة القلب الخائف الوجل ، الذي يذكر الله ولا ينساه في سراء ولا ضراء ؛ والذي يعيش حياته على الأرض في حذر من الآخرة ؛ وفي تطلع إلى رمة ربه وفضله ؛ وفي اتصال بالله ينشأ عنه العلم الصحيح المدرك لحقائق الوجود :

« أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً ، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » .

وهي صورة مشرقة مرهفة . فالقنوت والطاعة والتوجه - وهو ساجد وقائم - وهند الحساسة المرهفة - وهو يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه - وهذا الصفاء وهذه الشفافية التي تفتح البصيرة . وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى . . هذه كلها ترسم صورة مشرقة وضيفة من البشر تقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التي رسمتها الآية السابقة . فلا جرم يعقد هذه الموازنة :

« قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » . .

فالعلم الحق هو المعرفة . هو إدراك الحق . هو تفتح البصيرة . هو الاتصال بالحقائق الثابتة في هذا الوجود . وليس العلم هو المعلومات المفردة المنقطعة التي تزحم الذهن ، ولا تؤدي إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس .

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقي والمعرفة المستتيرة . . هذا هو . . القنوت لله وحساسة القلب ، واستشمار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ؛ ومراقبة الله هذه المراقبة الواجفة الخاشعة . هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللب ويعرف ، وينتفع بما يرى وما يسمع وما يجرب ؛ وينتهي إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة . فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعو معلومات وليسوا بالعلماء . .

« إنما يتذكر أولو الألباب » . .

وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المنفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق . المنتفعة بما ترى وتعلم ، التي تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاء . .

\* \* \*

## الجزء الرابع والعشرون

وبعد عرض هاتين الصورتين يتجه إلى الذين آمنوا يناديهم ليتقوا ويحسنوا ؛ ويتخذوا من حياتهم القصيرة على هذه الأرض وسيلة للكسب الطويل في الحياة الآخرة :

« قل : يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم . للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . وأرض الله واسعة . إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . . .

وفي التعبير : « قل : يا عباد الذين آمنوا » التفاتة خاصة . فهو في الأصل : قل لعبادي الذين آمنوا . . . قل لهم : اتقوا ربكم . ولكنه جعله يناديهم ، لأن في النداء إعلاناً وتنبهاً . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يقول لهم : « يا عبادي » فهم عباد الله . فهناك هذه الالتفاتة في أثناء تكليفه بتبليغهم أن يناديهم باسم الله . فالنداء في حقيقته من الله . وما محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا مبلغ عنه للنداء .

« قل : يا عباد الذين آمنوا . اتقوا ربكم » . . .

والتقوى هي تلك الحساسية في القلب ، والتطلع إلى الله في حذر وخشية ، وفي رجاء وطمع ، ومراقبة غضبه ورضاه في توفز وإرهاق . . . إنها تلك الصورة الوضيئة المشرقة ، التي رسمتها الآية السابقة لذلك الصنف الخاشع القانت من عباد الله .

« للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » . . .

وما أجزل الجزاء ! حسنة في الدنيا القصيرة الأيام الهزيلة المقام . تقابلها حسنة في الآخرة دار البقاء والدوام . ولكنه فضل الله على هذا الإنسان . الذي يعرف منه ضعفه وعجزه وضآلة جهده . فيكرمه ويرعاه !

« وأرض الله واسعة » .

فلا يقعد بكم حب الأرض ، وإلف المكان ، وأواصر النسب والقربى والصحبة في دار عن الهجرة منها ، إذا ضاقت بكم في دينكم ، وأعجزكم فيها الإحسان . فإن الالتصاق بالأرض في هذه الحالة مدخل من مداخل الشيطان ؛ ولون من أنخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان .

وهي لفظة قرآنية لطيفة إلى مداخل الشرك الخفية في القلب البشري ، في معرض الحديث عن توحيد الله وتقواه ، تنبيء عن مصدر هذا القرآن . فما يعالج القلب البشري هذا العلاج إلا خالقه البصير به ، العليم بخفائيه .

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس ، وأن التجرد من تلك الوشائج أمر شاق ، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة في أرض جديدة



## سورة الزمر

تكليف صعب على بنى الإنسان : ومن ثم يشير في هذا الموضع إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب :

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . . .

فيأخذ قلوبهم بهذه اللسنة في موضعها المناسب ، ويعالج ما يشق على تلك القلوب الضعيفة العلاج الشافي ، وينسم عليها في موقف الشدة نسمة القرب والرحمة . ويفتح لها أبواب العوض عن الوطن والأرض والأهل والإلف عطاء من عنده بغير حساب . . فسبحان العليم بهذه القلوب ، الحبير بمدخلها ومسارها ، المطلع فيها على خفي الديب .

« قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

المُسْلِمِينَ \* قُلْ إِنِّي أَخَافُ - إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي - عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

« قُلْ : اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي \* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ . قُلْ : إِنْ

أَخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ \* لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ، ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ، يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ .

« وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ، فَبَشِّرْ عِبَادِ \*

الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

« أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ؟

« لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ ، لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ » ٥

هذا المقطع كله يظلمه جو الآخرة ، وظل الخوف من عذابها ، والرجاء في ثوابها . ويبدأ بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ؛ وإعلان خوفه - وهو

## الجزء الرابع والعشرون

النبي المرسل - من عاقبة الانحراف عنها ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه . وركبهم هم إلى منهجهم وطريقهم . ويان عاقبة هذا الطريق وذاك . يوم يكون الحساب .

\*\*\*

« قل : إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ؛ وأمرت لأن أكون أول المسلمين . وإن : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » . . .

وهذا الإعلان من النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه مأمور أن يعبد الله وحده . ويخلص له الدين وحده ؛ وأن يكون بهذا أول المسلمين ؛ وأنه يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه . . هذا الإعلان ذو قيمة كبرى في تجريد عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام . فالتى - صلى الله عليه وسلم - في هذا المقام هو عبد لله . هذا مقامه لا يتعداه . وفي مقام العبادة يقف العبد كلهم صفاً ، وترتفع ذات الله سبحانه متفردة فوق جميع العباد . . وهذا هو المراد .

وعند ذلك يقر معنى الألوهية ، ومعنى العبودية ، ويتميزان ، فلا يختلطان ولا يشتبهان ، وتجرد صفة الوجدانية لله سبحانه بلا شريك ولا شبيه . وحين يقف محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مقام العبودية لله وحده يعلن هذا الإعلان ، ويخاف هذا الخوف من العيان ، فليس هنالك مجال لدعوى شفاعة الأصنام أو الملائكة بعبادتهم من دون الله أو مع الله بحال من الأحوال .

ومرة أخرى يكرر الإعلان مع الإصرار على الطريق ، وترك الشركين لطريقهم ونهايته الألفية :  
« قل : الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه . قل : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . ألا ذلك هو الخسران المبين » . . .

مرة أخرى يعلن : إني ماض في طريق . أخص الله بالعبادة ، وأخلص له الدينونة . فأما أتم فامضوا في الطريق التي تريدون ؛ واعبدوا ما شئتم من دونه . ولكن هنالك الخسران الذي ما بعده خسران . خسران النفس التي تنتهي إلى جهنم . وخسران الأهل سواء كانوا مؤمنين أم كافرين . فإن كانوا مؤمنين فقد خسرهم المشركون لأن هؤلاء إلى طريق وهؤلاء إلى طريق . وإن كانوا مشركين مثلهم فكأنهم خسر نفسه بالجحيم . . « ألا ذلك هو الخسران المبين » . . .

ثم يعرض مشهد الخسران المبين :

« لهم من فوقهم ظلم من النار ومن تحتهم ظلم . ذلك يخوف الله به عباده . يا عباد فاتقون » . . .

## سورة الزمر

وهو مشهد رعب حقا . مشهد النار في هيئة ظلل من فوقهم وظلل من تحتهم ، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة تلفهم وتحتوي عليهم . وهي من النار !

إنه مشهد رعب . يعرضه الله لعباده وهم بعد في الأرض يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن طريقه . ويخوفهم مغبته لعلهم يجتنبونه :

« ذلك يخوف الله به عباده » . .

ويناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا :

« يا عباد فاتقون » .

وعلى الضفة الأخرى يقف الناجون ، الذين خافوا هذا المصير المشؤوم :

« والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشري . فبشر عباد الذين

يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب » . .

والطاغوت صياغة من الطغيان ؟ نحو ملكوت وعظمت ورحموت . تفيد المبالغة

والضخامة . والطاغوت كل ما طغا وتجاوز الحد . والذين اجتنبوا عبادتها هم الذين اجتنبوا

عبادة غير المعبود في أية صورة من صور العبادة . وهم الذين أنابوا إلى ربهم . وعادوا إليه ،

ووقفوا في مقام العبودية له وحده .

هؤلاء ، « لهم البشري » صادرة إليهم من الملائكة الأعلى . والرسول - صلى الله عليه وسلم -

يبلغها لهم بأمر الله : « فبشر عباد » . . إنها البشري العلوية يحملها إليهم رسول كريم .

وهذا وحده نعيم !

هؤلاء من صفاتهم أنهم يستمعون ما يستمعون من القول ، فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد

ماعداءه ، فلا يلحق بها ولا يلصق إلا الكلم الطيب ، الذي تزكو به النفوس والقلوب . .

والنفس الطيبة تفتح للقول الطيب فتلقاه وتستجيب له . والنفس الخبيثة لا تفتح إلا للخبيث

من القول ولا تستجيب إلا له .

« أولئك الذين هداهم الله » . .

فقد علم الله في نفوسهم خيرا فهداهم إلى استماع أحسن القول والاستجابة له . والهدى هدى الله .

« وأولئك هم أولو الألباب » . .

فالعقل السليم هو الذي يقود صاحبه إلى الزكاة ، وإلى النجاة . ومن لا يتبع طريق الزكاة

والنجاة فكأنه مسلوب العقل محروم من هذه النعمة التي أعطاها له الله .

## الجزء الرابع والعشرون

وقبل أن يعرض مشهد هؤلاء في نعيمهم في الآخرة يقرر أن عبدة الطاغوت قد وصوا فعلا إلى النار . وأن أحدا لا يملك أن يتقدم من هذه النار :

« أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تتقدم من في النار ؟ » ..

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وإذا كان هو لا يملك إتقادهم من النار التي هم فيها فمن يملكها إذن سواه ؟

وأمام مشهد هؤلاء في النار - وكأنهم فيها فعلا الآن . مادام قد حق عليهم العذاب - يعرض مشهد الذين اتقوا ربهم ، وخافوا ما خوفهم الله :

« لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية ، تجري من تحتها الأنهار . وعد الله . لا يخلف الله الميعاد » ..

ومشهد الغرف المبنية ، من فوقها غرف ، تجري الأنهار من تحتها .. هذا المشهد يتقابل مع مشهد ظلل النار هناك من فوقهم ومن تحتهم . هذا التقابل الذي ينسقه التعبير القرآني وهو يرسم المشاهد للأُنظار .

ذلك وعد الله . ووعد الله واقع . لا يخلف الله الميعاد .

ولقد عاش المسلمون الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة . عاشوا هذه المشاهد فعلا وواقعا . فلم تكن في نفوسهم وعدا أو وعيدا يتلقونها من مستقبل بعيد . إنما كان هذا وذلك واقعا تشهد قلوبهم ونحوه وتراه . وتأثر وترتعش وتستجيب لمرآه . ومن ثم تحولت نفوسهم ذلك التحول ؛ وتكيفت حياتهم على هذه الأرض بذلك الواقع الأخرى ، الذي كانوا يعيشونه ويحجون به وهم بعد في الحياة ! وهكذا ينبغي أن يتلق المسلم وعد الله .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ قَرَارًا مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ①

أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربه ؟ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقَشِيرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَابِينَ جُلُودَهُمْ وَقَابُورُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ . ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ : وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ \* كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ \* وَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .  
 « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ \* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَحُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَارِكُونَ ، وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ④

في هذا المقطع من السورة لفتة إلى حياة النبات في الأرض عقب إنزال الماء من السماء ؛ وانتهائها إلى غايتها القريبة ، وكثيرا ما يضرب هذا مثلا للحياة الدنيا في حقيقتها الزائلة - وتوجيه لأولى الأبواب الذين يذكرون ويتدبرون ليتدبروا هذا المثل ويدكروه . وعلى ذكر إنزال الماء من السماء يشير إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتجاية القلوب وتشرح له الصدور ؛ مع تصوير موح لاستجابة القلوب المفتوحة لهذا الكتاب ، بخشية وقشعريرة ثم لين وطمأنينة . وتصوير كذلك لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله ، وفي النهاية يتجه إلى حقيقة التوحيد ، فيضرب مثلا لمن يعبد إلهًا واحدًا ومن يعبد آلهة متعددة . وهما لا يستويان مثلا ولا يتفان حالا . كما لا يستوي حال العبد الذي يملكه مادة متازعون والعبد الذي يعمل لسيد واحد لا ينازعه أحد فيه !

\*\*\*

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما ؟ إن في ذلك لذكرى لأولى الأبواب .»

## الجزء الرابع والعشرون

إن هذه الظاهرة التي يوجه القرآن إليها الأنظار للتأمل والتدبر ، ظاهرة تتكرر في أنحاء الأرض ، حتى لتذهب الألفة بجدتها وما فيها من عجائب في كل خطوة من خطواتها . والقرآن يوجه النظر إلى رؤية يد الله وتتبع آثارها في كل خطوة من خطوات الحياة .

فهذا الماء النازل من السماء .. ماهو وكيف نزل ؟ إننا نمر بهذه الخارقة سرعاً لطول الألفة وطول التكرار . إن خلق الماء في ذاته خارقة . ومهما عرفنا أنه ينشأ من اتحاد ذرى أيدروجين بذرة أكسوجين تحت ظروف معينة ، فإن هذه المعرفة خليقة بأن توقظ قلوبنا إلى رؤية يد الله التي صاغت هذا الكون بحيث يوجد الأيدروجين ويوحد الأكسوجين وتوجد الظروف التي تسمح باتحادها ، وبوجود الماء من هذا الاتحاد . ومن ثم وجود الحياة في هذه الأرض . ولولا الماء ما وجدت حياة . إنها سلسلة من التدبير حتى اتصل إلى وجود الماء ووجود الحياة . والله من وراء هذا التدبير . وكله مما صنعت يدها . . . ثم نزول هذا الماء بعد وجوده وهو الآخر خارقة جديدة ، ناشئة من قيام الأرض والكون على هذا النظام الذي يسمح بتكون الماء ونزوله وفق تدبير الله .

ثم تجيء الخطوة التالية لإنزال الماء :

« فسلكه ينابيع في الأرض » . . .

سواء في ذلك الأنهار الجارية على سطح الأرض ؛ أو الأنهار الجارية تحت طباقها مما يتسرب من المياه السطحية ، ثم يتفجر بعد ذلك ينابيع وعيوناً ، أو يتكشف آباراً . ويد الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التي لا يظهر منها أبداً !

« ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه » . . .

والحياة النباتية التي تعقب نزول الماء وتنشأ عنه ؛ خارقة يقف أمامها جهد الإنسان حسيماً . ورؤية النبتة الصغيرة وهي تشق حجاب الأرض عنها ؛ وتزيج أثقال الركام من فوقها ؛ وتطلع إلى الفضاء والنور والحرية ؛ وهي تصعد إلى الفضاء رويداً رويداً . . . هذه الرؤية كفيّة بأن تملأ القلب المفتوح ذكرى ؛ وأن تشير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والزرع المختلف الألوان في البقعة الواحدة . بل في النبتة الواحدة . بل في الزهرة الواحدة إن هو إلا معرض لإبداع القدرة ؛ يُشعر الإنسان بالعجز المطلق عن الإتيان بشيء منه أصلاً !

## سورة الزمر

هذا الزرع النامي اللدن الرخص الطرى بالحياة ، يبلغ تمامه ، ويستوفى أيامه :

« ثم يهيج قتره مصفرا » . .

وقد بلغ غايته القدرة له في ناموس الوجود ، وفي نظام الكون ، وفي مراحل الحياة ،  
فينضج للحصاد :

« ثم يجعله حطاما » . .

قد استوفى أجله ، وأدى دوره ، وأنهى دورته كما قدر له واهب الحياة . .

« إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب » . .

الذين يتدبرون فيذكرون ، وينتفعون بما وهبهم الله من عقل وإدراك .

\*\*\*

« أئمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ؟ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر  
الله . أولئك في ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين  
يخشون ربهم ؛ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ؛  
ومن يضل الله فما له من هاد » . .

وكما ينزل الماء من السماء ؛ فنبت لهم به زرعاً مختلفاً ألوانه ؛ كذلك ينزل من السماء ذكراً  
تلقاه القلوب الحية ؛ فتفتح وتشرح وتتحرك حركة الحياة ، وتلقاه القلوب القاسية كما تلقاه  
الصخرة القاسية التي لا حياة فيها ولا نداوة !

والله يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير ، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء . والفرق  
بين هذه القلوب وقلوب أخرى قاسية فرق بعيد . « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » . .  
« أولئك في ضلال مبين » . .

وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تلتقي الإسلام فتشرح له وتندى به . وتصور حالها  
مع الله . حال الانسراح والتفتح والنداوة والبشاشة ، والإشراق والاستنارة . كما تصور حقيقة  
القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها وموتها وجفافها ، وعتمتها وظلامها . ومن يشرح الله  
صدره للإسلام ويعد له من نوره ، ليس قطعاً كالقاسية قلوبهم من ذكر الله . وشتان شتان  
بين هؤلاء وهؤلاء .

## الجزء الرابع والعشرون

كذلك تصور الآية الثانية هيئة تلتقي المؤمنين لهذا القرآن . هذا الكتاب المتناسق الذي لا اختلاف في طبيعته ، ولا في اتجاهاته ، ولا في روحه ، ولا في خصائصه . فهو « متشابه » وهو « مثاني » تكرر مقاطعه وقصصه وتوجيهاته ومشاهدته . ولكنها لا تختلف ولا تعارض ، إنما تعاد في مواضع متعددة وفق حكمة تتحقق في الإعادة والتكرار . في تناسق وفي استقرار على أصول ثابتة متشابهة . لا تعارض فيها ولا اصطدام .

والذين يخشون ربهم ويتقون ، ويمشون في حذر وخشية ، وفي تطلع ورجاء ، يتلقون هذا الذكر في وجل وإرتعاش ، وفي تأثير شديد تقشعر منه الجلود ؛ ثم تهدأ نفوسهم ، وتأنس قلوبهم بهذا الذكر ؛ فقلوبهم وجلودهم وقلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله . .

وهي صورة حية حساسة ترسمها الكلمات ، فتكاد تشخص فيها الحركات .

« ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » . .

فما ترتعش القلوب هكذا إلا حين تحركها أصبع الرحمان إلى الهدى والاستجابة والإشراق . والله يعلم من حقيقة القلوب ما يجازيها عليه بالهدى أو بالضلال :

« ومن يضل الله فماله من هاد » . .

فهو يضل بما يعلمه من حقيقته المستقرة على الضلال ، التي لا تقبل الهدى ولا تجنح إليه بحال . ثم يعرض ما ينتظر أهل الضلال يوم القيامة في مشهد بائس في موعد حصاد الأعمال ؛ « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ؟ وقيل للظالمين : ذوقوا ما كنتم تكسبون » . . والإنسان يتقى وجهه عادة بيديه وجسمه . فأما هنا فهو لا يملك أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه ، فيدفعها بوجهه ، ويتقى به سوء العذاب . مما يدل على الهول والشدة والاضطراب . وفي زحمة هذا العذاب يتلقى التأنيب ، وتدفع إليه حصيلة حياته ويألفها من حصيلة : « وقيل : ذوقوا ما كنتم تكسبون » .

ويلتفت من هذا المنهد إلى الحديث عن المكذبين الذين يواجهون محمدا - صلى الله عليه وسلم - ليعرض عليهم ما جرى للمكذبين قبلهم لعلهم يتداركون أنفسهم :

« كذب الذين من قبلهم فأناهم العذاب من حيث لا يشعرون . فأذاقهم الله الحزى في الحياة الدنيا . وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . .

فهذه حال المكذبين في الدنيا والآخرة . في الدنيا أذاقهم الله الحزى . وفي الآخرة ينتظرهم



## سورة الزمر

العداب الأكبر . وسنة الله ماصبة لا تتخلف . ومصارع القرون من قبلهم شاهدة . ووعد الله لهم في الآخرة قائم . والفرصة أمامهم سانحة . وهذا الذكركل من يتعظ ويذكر « لو كانوا يعلمون » !

\*\*\*

« ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلمهم يتقون . ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل . هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » . . .

يضرب الله المثل للعبد الموحّد والعبد المشرك بعيد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضا فيه ، وهو بينهم موزع ؛ ولكل منهم فيه توجيه ، ولكل منهم عليه تكليف ؛ وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ؛ ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تعزق اتجاهاته وقواه ؛ وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلبه منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على نهج واحد صريح . . .

« هل يستويان مثلا ؟ » . . .

إنهما لا يستويان . فالذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذي يخضع لسادة متشاكسين معذب مقلقل لا يستقر على حال ولا يرضى واحدا منهم فضلا على أن يرضى الجميع ! وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال . فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى ، لأن بصره أبدا معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوى به الطريق . ولأنه يعرف مصدرا واحدا للحياة والقوة والرزق ، ومصدرا واحدا للنفع والضر ، ومصدرا واحدا للمنع والمنع ، فتستقيم خطاه إلى هذا المصدر الواحد ، يستمد منه وحده ، ويملق بيديه بحبل واحد يشد عروته . ويطمئن اتجاهه إلى هدف واحد لا يزوغ عنه بصره . ويخدم سيده واحدا يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يفضبه فيتقيه . . . وبذلك تتجمع طاقته كذلك وتتوحد ، فتج بكل طاقته وجهده وهو ثابت القدمين على الأرض منتطح إلى إله واحد في السماء . . .

ويعقب على ذلك المثل الناطق الموحى ، بالحمد لله الذي احتار لعباده الراحة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثرهم لا يعلمون . . .

## الجزء الرابع والعشرون

وهذا مثل من الأمثلة التي يضربها القرآن للناس لعلهم يتذكرون . وهو قرآن عربي ، مستقيم ، واضح ، لا لبس فيه ولا عوج ولا انحراف . يخاطب الفطرة بمنطقها القريب المفهوم .

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ \* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصُّدُقِ إِذْ جَاءَهُ ؟ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ؟ وَالَّذِي جَاءَ بِالصُّدُقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ \* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ \* لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ »

هذا المقطع تعقيب على ما قبله . فبعد أن عرض آية الماء النازل من السماء ، وآية الزرع الذي يخرج بهذا الماء ، وآية الكتاب النازل من عند الله ؛ وأشار إلى ما يضربه في القرآن من الأمثال « ولكن أكثرهم لا يعلمون » عقب على هذا بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمرهم موكل إلى الله ؛ وأنه هو الذي يحكم بينهم بعد الموت ، فيجازى الكاذبين المكذبين بما يستحقون ؛ ويجازى الصادقين المصدقين جزاء المحسنين .

\*\*\*

« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .. »  
 إنه الموت نهاية كل حي ؛ ولا يتفرد بالبقاء إلا الله . وفي الموت يستوى كل البشر بما فيهم محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكر هذه الحقيقة هنا حلقة من حلقات التوحيد الذي تفرره السورة كلها وتؤكد . ثم يلي ذلك تقرير ما بعد الموت . فالأوت ليس نهاية المطاف . إنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات النشأة القدرية المدبرة ، التي ليس شيء منها عبثاً ولا سدى . فيوم القيامة يختصم العباد فيما كان بينهم من خلاف . ويجيء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمام ربه ويوقف القوم للخصومة فيما كانوا يقولونه ويأتونه ، ويواجهون به ما أنزل الله إليهم من الهدى .

## سورة الزمر

« فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه؟ أليس في جهنم مثوى للكافرين؟ »  
سؤال للتقرير . فليس هنالك من هو أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له بنات وأنه له  
شركاء؟ وكذب بالصدق الذي جاء به رسوله؟ فلم يصدق بكلمة التوحيد . إنه الكفر . وفي  
جهنم مثوى للكافرين . على سبيل التقرير الذي يرد في صورة سؤال لزيادة الإيضاح والتوكيد .  
هذا طرف من الخصومة . فأما الطرف الآخر فهو الذي جاء بالصدق من عند الله .  
وصدق به فبلغه عن عقيدة واقتناع . ويشترك مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذه  
الصفة كل الرسل قبله . كما يشاركه فيها كل من دعا إلى هذا الصدق وهو مقتنع به مؤمن بأنه  
الحق ، يشارك قلبه لسانه فيما يدعو إليه . . « أولئك هم المتقون » ..

ويتوسع في عرض صفحة المتقين هؤلاء وما أعد لهم من جزاء :

« لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين » .

وهو تعبير جامع ، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب ، ويقرر أن هذا « لهم »  
عند ربهم ، فهو حقهم الذي لا يخب ولا يضيع . . « ذلك جزاء المحسنين » ..

ذلك ليحقق الله ما أَرَادَهُ لهم من خير ومن كرامة ، ومن فضل يزيد على العدل يعاملهم به ،  
متفضلاً محسناً :

« ليكفر عنهم أسوأ الذي عملوا؟ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون » ..

فالعادل أن تحسب الحسنات وتحسب السيئات؟ ثم يكون الجزاء .

والفضل هو هذا الذي يتجلى به الله على عباده المتقين هؤلاء . . أن يكفر عنهم أسوأ  
أعمالهم فلا يبقى لها حساب في ميزانهم . وأن يجزيهم أجرهم بحساب الأحسن فيما كانوا يعملون ،  
فزيد حسناتهم وتعلو وترجح في الميزان .

إنه فضل الله يؤتيه من يشاء . كتبه الله على نفسه بوعده . فهو واقع يطمئن إليه المتقون

المحسنون . .

« أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ! وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ  
فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ . أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ؟ »

« وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : اللهُ . قُلْ : أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ ؟ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي ؟ قُلْ : حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

« قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ \* مَنْ يَأْتِ بِعَذَابٍ يُخْزِيهِ ، وَيَجْلِبْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ \* إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ \* اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

« أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ ؟ قُلْ : أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ؟ \* قُلْ : لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَخُدَّةُ أَشْمَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ؛ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ \* قُلْ : اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ \* وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ \* وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ، ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ، وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ \* أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ﴿٥٦﴾

## سورة الزمر

هذه الجولة أوسع مقاطع السورة . وهي تتناول حقيقة التوحيد من جوانب متعددة . في لمسات متنوعة . تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن وموقفه بإزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ؛ واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة . ومن ثم ينفذ يده من هذه القوى الوهمية ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى الله يوم القيامة ؛ ويعرض في طريقه ثابتاً واثقاً مستيقناً بالمصير .

يتلو هذا بيان وظيفية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأنه ليس وكلاء على العباد في هدايتهم وضلالهم . إنما الله هو المسيطر عليهم ؛ الآخذ بناصيتهم في كل حالة من حالاتهم . وليس لهم من دونه شفيع فإن لله الشفاعة جميعاً . وإليه ملك السماوات والأرض . وإليه المرجع والمصير .

ثم يصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك . ويعقب على هذا بدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة ، وترك أمر المشركين لله . ويصورهم يوم القيامة وهم يودون لو يفتدون بعملهم الأرض ومثله معه . وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

ذلك . وهم يدعون الله وحده إذا أصابهم الضر . فإذا وهبهم منه نعمة ادعوا دعاوى عرضة وقال قائلهم : إنما أوتيته على علم عندي ! الكلمة التي قالها الذين من قبلهم فأخذهم الله القادر على أن يأخذ هؤلاء . وما هم بمعجزين . وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله ، تجري وفق حكمته وتقديره وهو وحده الباسط القابض : « إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ..

\*\*\*

« أليس الله بكاف عبده ؟ ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل . أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله . قل : أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسب الله ، عليه يتوكل المتوكلون . قل : يا قوم اعملوا على مكاتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..

هذه الآيات الأربع تصور منطق الإيمان الصحيح ، في بساطته وقوته ، ووضوحه ، وعمقه . كما هو في قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكما ينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن

## الجزء الرابع والعشرون

برسالة ، وكل قائم بدعوة . وهي وحدها دستور الذي يغنيه ويكفيه ، ويكشف له الطريق  
الواصل الثابت المستقيم .

وقد ورد في سبب نزولها أن مشركي قريش كانوا يخوفون رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
من آلهتهم ، ويحذرونه من غضبها ، وهو يصفها بتلك الأوصاف المزرية بها ، ويوعدهونه بأنه  
إن لم يكت عنها فتصيه بالأذى . . .

ولكن مدلول هذه الآيات أوسع وأشمل . فهي تصور حقيقة المعركة بين الداعية إلى  
الحق وكل مافي الأرض من قوى مضادة . كما تصور الثقة واليقين والطمأنينة في القلب المؤمن ،  
بعد وزن هذه القوى بميزانها الصحيح .  
« أليس الله بكاف عبده » ؟

بلى فمن ذا يخيفه ، وماذا يخيفه ؟ إذا كان الله معه ؟ وإذا كان هو قد أخذ مقام العبودية  
وقام بحق هذا المقام ؟ ومن ذا يشك في كفاية الله لعبده وهو القوى القاهر فوق عباده ؟  
« ويخوفونك بالذين من دونه » . . .

فكيف يخاف ؟ والذين من دون الله لا يخيفون من يحرسه الله . وهل في الأرض كلها  
إلا من هم دون الله ؟

إنها قضية بسيطة واضحة ، لا تحتاج إلى جدل ولا كد ذهن . . . إنه الله . ومن هم دون  
الله . وحين يكون هذا هو الموقف لا يبقى هناك شك ولا يكون هناك اشتباه .  
وإرادة الله هي النافذة ومشيئته هي الغالبة . وهو الذي يقضى في العباد قضاءه . في  
ذوات أنفسهم ، وفي حركات قلوبهم ومشاعرهم :

« ومن يضل الله فما له من هاد . ومن يهد الله فما له من مضل » . . .

وهو يعلم من يستحق الضلالة فيضله ، ومن يستحق الهدى فيهديه . فإذا قضى بقضائه  
هكذا أو هكذا فلا مبدل لما يشاء .

« أليس الله بعزيز ذي انتقام ؟

بلى . وإنه لعزيز قوى . وإنه ليجازي كلا بما يستحق . وإنه لينتقم ممن يستحق الانتقام .  
فكيف يخشى أحدا أو شيئا من يقوم بحق العبودية له ، وهو كافله وكافيه ؟

ثم يقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى منزعة من منطقتهم هم أنفسهم ، ومن واقع ما يقررونه من حقيقة الله في فطرتهم :

« ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ؟ ليقولن الله . قل : أفرايتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره ؟ أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ؟ قل : حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون » . .

لقد كانوا يقررون - حين يسألون - أن الله هو خالق السماوات والأرض . وما تملك فطرة أن تقول غير هذا ، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا . فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعا بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة . . إذا كان الله هو خالق السماوات والأرض . فهل يملك أحد أو شيء في هذه السماوات والأرض أن يكشف ضرا أراد الله أن يصيب به عبدا من عباده ؟ أم يملك أحد أو شيء في هذه السماوات والأرض أن يحبس رحمة أراد الله أن تنال عبدا من عباده ؟

والجواب القاطع : أن لا .. فإذا تقرر هذا فما الذي يخشاه داعية إلى الله ؟ ما الذي يخشاه وما الذي يرجوه ؟ وليس أحد بكاشف الضر عنه ؟ وليس أحد يمنع الرحمة عنه ؟ وما الذي يقلقه أو يخيفه أو يصدده عن طريقه ؟

إنه متى استقرت هذه الحقيقة في قلب مؤمن فقد انتهى الأمر بالنسبة إليه . وقد انقطع الجدل . وانقطع الخوف . وانقطع الأمل . إلا في جناب الله سبحانه . فهو كاف عبده . وعليه يتوكل وحده :

« قل : حسبي الله . عليه يتوكل المتوكلون » . .

ثم إنها الطمأنينة بعد هذا والثقة واليقين . الطمأنينة التي لانخاف . والثقة التي لاتقلق واليقين الذي لا يزعزع . والمضى في الطريق على ثقة بنهاية الطريق :

« قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه

ويحمل عليه عذاب مقيم » . .

يا قوم اعملوا على طريقكم وعلى حالكم . إني ماض في طريق لا أمل ولا أخاف ولا أقلق . وسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا ، ويحمل عليه عذاب مقيم في الآخرة . .

## الجزء الرابع والعشرون

لقد قضى الأمر بعد عرض الحقيقة البسيطة التي تنطق بها الفطرة ويشهد بها الوجود . . .  
 إن الله هو خالق السماوات والأرض . القاهر فوق السماوات والأرض . وهو صاحب هذه  
 الدعوة التي يحملها الرسل ويتولاها الدعاء . فمن ذا في السماوات والأرض يملك لرسوله شيئاً  
 أو لدعائه ؟ ومن ذا يملك أن يدفع عنهم ضراً أو يمسك عنهم رحمة ؟ وإذا لم يكن . فماذا  
 يخشون وماذا يرجون عند غير الله ؟

ألا لقد وضع الأمر ولقد تعين الطريق ؟ ولم يعد هناك مجال لجدال أو محال !

\* \* \*

تلك حقيقة الوضع بين رسل الله وسائر قوى الأرض التي تقف لهم في الطريق . فما  
 حقيقة وظيفتهم وما شأنهم مع المكذبين ؟

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق . فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .  
 وما أنت عليهم بوكيل . الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي  
 قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . أم  
 اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة  
 جميعاً . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون » ..

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق » .. الحق في طبيعته . والحق في منهجه . والحق  
 في شريعته . الحق الذي تقوم عليه السماوات والأرض ؛ ويلتقى عليه نظام البشرية في هذا  
 الكتاب ونظام الكون كله في تناسق . هذا الحق نزل « للناس » ليهتدوا به ويعيشوا معه  
 ويقوموا عليه . وأنت مبلغ . وهم بعد ذلك وما يشاءون لأنفسهم من هدى أو ضلال ، ومن  
 نعم أو عذاب . فكل مورد نفسه ما يشاء ؛ وما أنت بمسيطر عليهم ولا بمسؤول عنهم :  
 « فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

إنما الوكيل عليهم هو الله . وهم في قبضته في صحوهم ونومهم وفي كل حالة من حالاتهم ،  
 وهو يتصرف بهم كما يشاء :

« الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها . فيمسك التي قضى عليها الموت  
 ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » ..

فالله يستوفى الآجال للأنفس التي تموت . وهو يتوفاها كذلك في منامها - وإن لم



## سورة الزمر

نمت بعد - ولكنها في النوم متوفاة إلى حين . فالتى حان أجلها يمكها فلا تستيقظ . والتى لم يحن أجلها بعد يرسلها فتصحو . إلى أن يحل أجلها المسمى . فالأنفس في قبضته دائماً في صحوها ونومها .

« إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

\* \* \*

إنهم هكذا في قبضة الله دائماً . وهو الوكيل عليهم . ولست عليهم بوكيل . وإنهم إن يهتدوا فلا أنفسهم وإن يضلوا فعلها . وإنهم محاسبون إذن وايسوا بمتروكين . . فإذا يرجون إذن للفكك والخلاص ؟

« أم آخذوا من دون الله شفاء ؟ قل : أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعاً . له ملك السماوات والأرض ، ثم إليه ترجعون » ..

وهو سؤال لانهم والسخرية من زعمهم أنهم يعبدون تماثيل الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ! « أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ؟ » .. يعقبه تقرير جازم بأن لله الشفاعة جميعاً . فهو الذى يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء . فهل مما يؤهلهم للشفاعة أن يتخذوا من دون الله شركاء ؟ !

« له ملك السماوات والأرض » .. فليس هنالك خارج على إرادته في هذا الملك . . « ثم إليه ترجعون » .. فلا مهرب ولا مفر من الرجوع إليه وحده في نهاية المطاف . .

\* \* \*

وفي هذا الموقف الذى يتفرد فيه الله سبحانه بالملك والقهر يرض كيف هم ينفرون من كلمة التوحيد ويهشون لكلمة الشرك ، الذى ينكره كل ما حولهم في الوجود :

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » ..

والآية تصف واقعة حال على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - حين كان المشركون يهشون ويهشون إذا ذكرت آلهتهم ؟ ويتقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد . ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان . فمن الناس من تشمز قلوبهم وتتقبض نفوسهم

## الجزء الرابع والعشرون

كلما دعوا إلى الله وحده إلها ، وإلى شريعة الله وحدها قانونا ، وإلى منهج الله وحده نظاما حتى إذا ذكرت الحاج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث ، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد . هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم في هذه الآية ، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان . هم المسوخو الفطرة ، المنحرفو الطبيعة ، الضالون المضلون ، مها تنوعت البيئات والأزمنة ، ومها تنوعت الأجناس والأقوام .  
والجواب على هذا المسخ والانحراف والضلال هو ما لقنه الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة مثل هذه الحال :

« قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . .

إنه دعاء الفطرة التي ترى السماء والأرض ؛ ويتعذر عليها أن تبح لها خالقا إلا الله فاطر السماوات والأرض ، فتجبه إليه بالاعتراف والإقرار . وتعرفه بصفته اللاتقة بفاطر السماوات والأرض . « عالم الغيب والشهادة » المطلع على الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر . « أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون » . فهو وحده الحكم يوم يرجعون إليه . وهم لا يد راجعون .

\*\*\*

وبعد هذا التلقين يعرض حالهم المفزعة يوم يرجعون للحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون :  
« ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لاقتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحسبون . وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .

إنه الهول الملقوف في ثنايا التعبير الرهيب . فلو أن هؤلاء الظالمين - الظالمين بشركهم وهو الظلم العظيم - لو أن هؤلاء « مافي الأرض جميعا » . . مما يحرضون عليه وينأون عن الإسلام اعترازا به . « ومثله معه » . . تقدموه فدية مما يرون من سوء العذاب يوم القيامة . .

وهول آخر يتضمنه التعبير الملقوف : « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحسبون » . . ولا ينصح عما بدا لهم من الله ولم يكونوا يتوقعونه . لا ينصح عنه ولكنه هكذا هائل مذهل عجيب . . فهو الله . الله الذي يدومته هؤلاء الضعاف مالا يتوقعون ! هكذا بلا تعريف ولا تعديد!

## سورة الزمر

« وبدا لهم سيئات ما كسبوا ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » . .  
 وهذه كذلك تزيد الموقف سوءا . حين يتكشف لهم قبح ما فعلوا ؛ وحين يحيط بهم  
 ما كانوا به يستهزئون من الوعيد والندير . وهم في ذلك الموقف الأليم الرعيب . .

\*\*\*

وبعد هذا المشهد المعترض لبيان حالهم يوم يرجعون إلى الله الذي به يشركون ، والذي  
 تشمز قلوبهم حين يذكر وحده ، وتستبشر حينما تذكر آلهتهم المدعاة . بعد هذا يعود إلى  
 تصوير حالهم العجيب . فهم ينكرون وحدانية الله . فأما حين يعيبهم الضرفهم لا يتوجهون  
 إلا له وحده ضارعين منيبين . حتى إذا تفضل عليهم وأنعم راحوا يتبجحون وينكرون :  
 « فإذا مس الإنسان ضر دعانا . ثم إذا حولناه نعمة منا ، قال : إنما أوتيته على علم . بل  
 هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

والآية تصور نموذجا مكررا للإنسان ، مالم تهتد فطرته إلى الحق ، وترجع إلى ربها  
 الواحد ، وتعرف الطريق إليه ، فلا تضل عنه في السراء والضراء .

إن الضر يسقط عن الفطرة ركام الأهواء والشهوات ، ويعربها من العوامل المصطنعة التي  
 تحجب عنها الحق الكامن فيها وفي ضمير هذا الوجود . فعندئذ ترى الله وتعرفه وتتجه إليه  
 وحده . حتى إذا مرت الشدة وجاء الرخاء ، نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء ، وانحرفت  
 فطرته بتأثير الأهواء . وقال عن النعمة والرزق والفضل : « إنما أوتيته على علم » . .  
 قالها قارون ، وقالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان .  
 غافلا عن مصدر النعمة ، وواهب العلم والقدرة ، ومسبب الأسباب ، ومقدر الأرزاق .

« بل هي فتنة . ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

هي فتنة للاختبار والامتحان . ليتبين إن كان سيكفر أو سيكفر ؛ وإن كان سيصلح بها  
 أم سيفسد ؛ وإن كان سيرف الطريق أم ينجح إلى الضلال .

والقرآن - رحمة بالعباد - يكشف لهم عن السر ، وينبههم إلى الخطر ، ويحذرهم الفتنة .  
 فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان .

وهو يمس قلوبهم بعرض مصارع الغابرين قبلهم . مصارعهم بعثل هذه الكلمة الضالة التي يقولها قائلهم : « إنما أوتيته على علم » ..

« قد قالها الذين من قبلهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فأصابهم سيئات ما كسبوا . والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين » ..

هي ذاتها هذه الكلمة الضالة قالها الذين من قبلهم ، فاتتهت بهم إلى سوء والوبال . ولم يغن عنهم علمهم ولا ما لهم ولا قوتهم شيئا . وهؤلاء سيصيبهم ما أصاب الغابرين . فسنة الله لا تتبدل « وما هم بمعجزين » .. فالله لا يعجزه خلقه الضعاف المهازيل !

فأما ما أعطاهم الله من نعمة ، وما وهبهم من رزق ، فإنه يتبع إرادة الله وفق حكمته وتقديره في بسط الرزق وقبضه ، ليبلى عباده ، ولينفذ مشيئته كما يريد :

« أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » .. فلا يجعلوا آيات الله سببا في الكفر والضلال . وهي جاءت للهدى والإيمان ..

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ \* وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ \* أَن تَقُولَ نَفْسٌ : يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ، وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ \* أَوْ تَقُولَ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ \* أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ : لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ \* بَلَىٰ قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

« وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَنُومٌ لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ؟ \* وَيُنجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْهُ وَلَا تُمْ يَحْزَنُونَ » ﴿١٠١﴾

ولما صور الله الحال المفزعة التي يكون عليها الظالمون يوم القيامة في قوله : « ولو أن للذين ظلموا مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. عاد يفتح أبواب رحمة على مصارعها بالتوبة . ويطمع في رحمة ومغفرته أهل المعاصي مها يلونوا قد أسرفوا في المعصية . ويدعوهم إلى الأوبة إليه غير قانطين ولا يائسين . ومع الدعوة إلى الرحمة والمغفرة صورة ما ينتظرهم لو لم يتوبوا ويتوبوا ، ولو لم ينتهزوا هذه الفرصة المتاحة قبل إقفلها وفوات الأوان ..

\* \* \*

« قل : يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم » ..

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية . كائنة ما كانت . وإنها الدعوة للأوبة . دعوة العصاة المسرفين الشاردين البعدين في تيه الضلال . دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بنفو الله . إن الله رحيم بعباده . وهو يعلم ضعفهم وعجزهم . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانه ومن خارجه . ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد . ويأخذ عليهم كل طريق . ويجلب عليهم بحيله ورجله . وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث . ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه . وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده . وأن ماركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ؛ ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم .

يعلم الله - سبحانه - عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون ؛ ويوسع له في الرحمة ؛ ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيء له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقم خطاه على الصراط . وبعد أن يلج في المعصية ، ويسرف في الذنب ، وبحسب أنه قد طرد واتهى أمره ، ولم يمد يده يقبل ولا يستقبل . في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط ، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب

جميعا . إنه هو الغفور الرحيم » ..

وليس بينه - وقد أسرف في المعصية ، ولج في الذنب ، وأبق عن الحى ، وشرذ عن

## الجزء الرابع والعشرون

الطريق - ليس بينه وبين الرحمة الندية البرخية ، وظلالها السمحة المحيية . ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة . التوبة وحدها . الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع ، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان :

« وأنبؤوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون » ..  
الإجابة . والإسلام . والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام . . هذا هو كل شيء . بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء !

إنه حساب مباشر بين العبد والرب . وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق . من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب . ومن أراد الإجابة من الضالين ، فلينب . ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم . وليأت . . ليأت وليدخل فالباب مفتوح . والغيء والظل والندى والرحاء : كله وراء الباب لا حاجب دونه ولا حسيب !

وها . هيا قبل فوات الأوان . هيا « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتصرون » ..  
فما هنالك من نصير . هيا فالوقت غير مضمون . وقد يفصل في الأمر وتغلق الأبواب في أية لحظة من لحظات الليل والنهار . هيا . « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » .. وهو هذا القرآن بين أيديكم .. « من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون » ..  
هيا قبل أن تتحسروا على فوات الفرصة ، وعلى التفريط في حق الله ، وعلى السخرية بوعده الله :

« أن تقول نفس : يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله . وإن كنت لمن الساخرين » ..  
أوتقول إن الله كتب على الضلال ولو كتب على الهدى لاهتديت واتقيت : « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » ..

وهي علالة لأصل لها . فالفرصة هاهي ذى سانحة ، ووسائل الهدى ما تزال حاضرة . وباب التوبة هاهو ذامفتوح !

« أو تقول حين ترى العذاب : لو أن لي كرة فأكون من المحسنين » ..  
وهي أمنية لاتنال . فإذا انتهت هذه الحياة فلا كرة ولا رجوع . وهاتم أولاء في دار العمل . وهي فرصة واحدة إذا انقضت لا تعود . وستألون عنها مع التبيكيت والترذيل :

## سورة الزمر

« بلى . قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » ۱

\*\*\*

ثم يمضي السياق وقد وصل بالقلوب والشاعر إلى ساحة الآخرة .. يمضي في عرض مشهد الكذابين والمتقين ، في ذلك الموقف العظيم :

« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ؟ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » ..

وهذا هو المصير الأخير . فريق مسود الوجوه من الحزى ، ومن الكمد ، ومن لفح الجحيم . هو فريق المتكبرين في هذه الأرض ، الذين دعوا إلى الله ، وظلت الدعوة قائمة حتى بعد الإسراف في المعصية ، فلم يلبوا هاتف النجاة . فهم اليوم في خزي تسود له الوجوه . وفريق ناج فاز لا يمسسه السوء ولا يخالطه الحزن . هو فريق المتقين ، الذين عاشوا في حذر من الآخرة ، وفي طمع في رحمة الله . فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة : « لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » ..

ومن شاء بعد هذا فليلب النداء إلى الرحمة الندية الظليلة وراء الباب المفتوح . ومن شاء فليبق في إسرافه وفي شروره حتى يأخذهم العذاب وهم لا يشعرون ۱

« الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ۱۱ له مقاليد السموات والأرض ؛ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون .

« قل : أغير الله تأمروني ، عبداً أيها الجاهلون ؟ \* ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين \* بل الله فاعبدوا وكن من الشاكرين .

« وما قدرُوا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ۱ \* ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام

يَنْظُرُونَ \* وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ، وَوُضِعَ الْكِتَابُ ، وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \* وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ .

« وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ، يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ، وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ؟ قَالُوا : بَلَىٰ ، وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ \* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ \* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ، وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ \* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

« وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » ٧٥

هذا القطع الأخير في السورة ، يعرض حقيقة التوحيد من جانب وحدانية الخالق الذي خلق كل شيء ، المالك التصرف في كل شيء . فتبدو دعوة المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - إلى مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ! تبدو هذه الدعوة مستغربة ، والله هو خالق كل شيء ، وهو التصرف في ملكوت السماوات والأرض بلا شريك . فأنى يعبد معه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟

« وما قدرُوا الله حق قدره » وهم يشركون به وهو وحده المعبود القادر القاهر « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » . . . وبمناسبة تصور هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهدا فريدا من مشاهد القيامة ، ينتهي بموقف الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وينطق الوجود كله بحمده : « وقيل الحمد لله رب



## سورة الزمر

العالمين .. فتكون هذه هي كلمة الفصل في حقيقة التوحيد .

\* \* \*

« الله خالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض . والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون .. »  
 إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء . فما يملك أحد أن يدعى أنه خلق شيئاً . وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع . وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ؛ وليس أمر من أموره متروكاً لقي أو للمصادفة من الصغير إلى الكبير : « وهو على كل شيء وكيل .. »  
 وإني الله قياد السماوات والأرض . فهو يصرفها وفق ما يريد ؛ وهي تسير وفق نظامه الذي قدره ؛ وما تدخل إرادة غير إرادته في تصرفها ، على ما تشهد الفطرة ، وينطق الواقع ، ويقر العقل والضمير .

« والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون .. »

خسروا الإدراك الذي يجعل حياتهم في الأرض متسقة مع حياة الكون كله ؛ وخسروا راحة الهدى وجمال الإيمان وطمأنينة الاعتقاد وحلاوة اليقين . وخسروا في الآخرة أنفسهم وأهلهم . فهم الخاسرون الذين ينطبق عليهم لفظ « الخاسرون » !

\* \* \*

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي تنطق بها السماوات والأرض ، ويشهد بها كل شيء في الوجود ، يلحق الرسول - صلى الله عليه وسلم - استنكار ما يرضونه عليه من مشاركتهم عبادة آلهتهم في مقابل أن يعبدوا معه إلهه . كان الأمر أمر صفقة يساوم عليها في السوق !  
 « قل : أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ » ..

وهو الاستنكار الذي تصرخ به الفطرة في وجه هذا المرض السخيف الذي ينبت عن الجهل للطلق المطبق الطموس .

ويقتب عليه بتحذير من الشرك . يبدأ أول ما يبدأ بالأنبياء والمرسلين . وهم - صلوات الله عليهم - لا يتطرق إلى قلوبهم طائف الشرك أبداً . ولكن التحذير هنا ينبه سوامهم من أقوامهم إلى تفرد ذات الله سبحانه في مقام العبادة ، وتوحد البشر في مقام العبودية ، بما فهم الأنبياء والمرسلون :

« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك : لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين .. »

ويحتم هذا التحذير من الشرك بالأمر بالتوحيد . توحيد العبادة والشكر على الهدى واليقين ، وعلى آلاء الله التي تعمر عباده ، ويسجزون عن إحصائها ، وهم فيها مغمورون :

« بل الله فاعبد وكن من الشاكرين .. »

\*\*\*

« وماقدروا الله حق قدره .. »

نعم . ماقدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به بمض خلقه . وهم لا يعبدونه حق عبادته . وهم لا يدركون وحدانيته وعظمته . وهم لا يستشعرون جلاله وقوته .

ثم يكشف لهم عن جانب من عظمة الله وقوته . على طريقة التصوير القرآنية ، التي تقرب للبشر الحقائق الكلية في صورة جزئية ، يتصورها إدراكهم المحدود :

« والأرض جميعا قبضته يوم القيامة . والسموات مطويات بيمينه . سبحانه وتعالى عما يشركون .. »

وكل مايرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والشاهد إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه ، وفي صورة يتصورونها . ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة ، التي لا تقيد بشكل ، ولا تحجز في حيز ، ولا تحدد بمحدود (١) .

\*\*\*

ثم يأخذ في مشهد من مشاهد القيامة يبدأ بالنفخة الأولى ، وينتهي بانتهاء الموقف ، وسوق أهل النار إلى النار . وأهل الجنة إلى الجنة . وتفرد الله ذي الجلال . وتوجه الوجود لذاته . بالتسبيح والتحميد .

وهو مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركا ، ثم يسير وثيدا ، حتى تهدأ كل حركة ، وتسكن

(١) راجع جوسع نصل : التصوير الفني . وفصل : التخيل الحسي والتجسيم . في كتاب : التصوير الفني في القرآن .

## سورة الزمر

كل نامة، ويخيم على ساحة العرض جلال الصمت ، ورهبة الخشوع ، بين يدي الله الواحد القهار !  
 هاهي ذى الصيحة الأولى تنبث ، فيصق من يكون باقيا على ظهر الأرض من الأحياء ، ومن  
 في السماوات كذلك - إلا من شاء الله - ولا نعلم كم يمضي من الوقت حتى تنبث الصيحة الثانية :  
 « ونفخ في الصور فصق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . ثم نفخ فيه  
 أخرى فإذا هم قيام ينظرون » ..

ولا تذكر الصيحة الثالثة هنا . صيحة الحشر والتجميع . ولا تصور ضجة الحشر وعجيج  
 الزحام . لأن هذا المشهد يرسم هنا في هدوء ، ويتحرك في سكون .  
 « وأشرققت الأرض بنور ربها » ..

أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض . ونور ربها الذي لانور غيره في هذا المقام ..  
 « ووضع الكتاب » .. الحافظ لأعمال العباد ..

« وجيء بالنيين والشهداء » .. ليقولوا كلمة الحق التي يعلمون .. وطوى كل خصام  
 وجدال - في هذا المشهد - تنسيقا لجوه مع الجلال والخشوع الذي يسود الموقف العام :

« وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » .  
 فلا حاجة إلى كلمة تقال ، ولا إلى صوت واحد يرتفع . ومن ثم تجمل وتطوى عملية  
 الحساب والسؤال والجواب التي تعرض في مشاهد أخرى . لأن المقام هنا مقام روعة وجلال .

« وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » . « حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها » ..

واستقبلهم خزنتها يسجلون استحقاقهم لها ويذكرونهم بأسباب مجيئهم إليها :

« وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟

« قالوا : بلى . ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » ..

فالموقف موقف إذعان وتسليم . لاموقف مخاصمة ولا مجادلة . وهم مقرون مستسلمون !

« قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين » !

ذلك ركب جهنم ركب التكبرين . فكيف ركب الجنة ؟ ركب التقيين ؟

« وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا . حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها . وقال لهم

خزنتها : سلام عليكم . طيبتم . فادخلوها خالدين » ..

## الجزء الرابع والعشرون

فهو الاستقبال الطيب . والثناء المستحب . وبيان السبب . « طبتم » وتطهرتم . كنتم طيبين . وجتم طيبين . فما يكون فيها إلا الطيب . وما يدخلها إلا الطيبون . وهو الخلود في ذلك النعيم ..

هنا تهنيم أصوات أهل الجنة بالتسبيح والتحميد :

« وقالوا : الحمد لله . الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض ، نتبوا من الجنة حيث نشاء » . فهذه هي الأرض التي تستحق أن تورث . وهم يسكنون فيها حيث شاءوا ، وينالون منها الذي يريدون ..

« فنعم أجر العاملين » ..

ثم يختم المشهد بما يغمز النفس بالروعة والرهبة والجلال ، وما يتسق مع جو المشهد كله وظله ، وما يختم سورة التوحيد أنسب ختام ؛ والوجود كله يتجه إلى ربه بالحمد ؛ في خشوع واستسلام . وكلمة الحمد ينطق بها كل حي وكل موجود في استسلام :

« وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » ..



# سُورَةُ غَافِرٍ وآياتها ٨٥

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ \* غَافِرِ الذَّنْبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، إِلَهٌ الْمَصِيرُ .

« مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَا يَمُرُّكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ \* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ، وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ يَتَّخِذُوهُ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، فَأَخَذْتُهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ؟ \* وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \* وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ \* قَالُوا: رَبَّنَا أُمَتَّنَا أَمْتَيْنِ وَأَخَيَّتْنَا أَمْتَيْنِ فَاغْفِرْنَا بِذُنُوبِنَا،

فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ؟ \* ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا، فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ .

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ ، وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ، وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ \* فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ \* رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُبَلِّغُ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ \* يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ اللَّهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ \* الْيَوْمَ يُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . » وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْخَنَاجِرِ كَاطِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ \* يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ \* وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » ﴿٤٥﴾

هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل . قضية الإيمان والكفر . قضية الدعوة والتكذيب وأخيرا قضية العلو في الأرض والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبرين .. وفي ثانيا هذه القضية تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة الله لدعائهم ، وما ينتظرهم في الآخرة من نعم .

وجو السورة كله - من ثم - كأنه جو معركة . وهي المعركة بين الحق والباطل ، وبين الإيمان والظلم ، وبين التكبرين المتجبرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتكيل . تنسم خلال هذا الجو نسمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين !

ذلك الجو يتمثل في عرض مصارع الغابرين ، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة - وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتكرر بشكل ظاهر - وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة الخيفة متناسقة مع جو السورة كله ، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة . ولعله مما يتفق مع هذه السمة افتتاح السورة بإيقاعات ذات رنين خاص : « غافر الذنب .

## سورة غافر

وقابل التوب . شديد العقاب . ذى الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير . . . فكأنما هي مطارق منتظمة الجرس ثابتة الوقع ، مستقرة المقاطع ، ومعانيها كذلك مساندة لإيقاعها الموسيقي ! كذلك نجد كلمة الباس . وبأس الله . وبأسنا . . مكررة تتردد في مواضع متفرقة من السورة . وهناك غيرها من ألفاظ الشدة والعنف بلفظها أو بمعناها .

\*\*\*

وعلى العموم فإن السورة كلها تبدو وكأنها مقارع ومطارق تقع على القلب البشري وتؤثر فيه بعنف وهي تعرض مشاهد القيامة ومصارع الغابرين . وقد ترق أحيانا فتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس هذا القلب برفق ، وهي تعرض حملة العرش ومن حوله يدعون ربهم ليكرم على عباده المؤمنين ، أو وهي تعرض عليه الآيات الكونية والآيات الكامنة في النفس البشرية . ونضرب بعض الأمثال التي ترسم جو السورة وظلها من هذه وتلك . . .

من مصارع الغابرين : « كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » . . .

أولم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ؟ وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب » . . .

ومن مشاهد القيامة : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » . . . « الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون . . . »

ومن اللسات الندية مشهد حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ، ومن تبى السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم » . . .

ومن اللسات الموحية عرض آيات الله في الأنفس وفي الآفاق : « هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا .

## الجزء الرابع والعشرون

ومنكم من يتوفى من قبل ، وتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون . هو الذي يحيى ويميت .  
 فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .. « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار  
 مبصرا . إن الله لندو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق  
 كل شيء . لا إله إلا هو فأتى تؤفكون ؟ » .. « الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء  
 بناء وصوركم فأحسن صوركم . ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فبارك الله رب العالمين » .  
 وهذه وتلك تصور جو السورة وترسم ظلها ، وتتناسق مع موضوعها وطايعها .

\* \* \*

ويجري سياق النورة بموضوعاتها في أربعة أسواط متميزة .

يبدأ الشوط الأول منها بفتح السورة بالأحرف المقطعة : « حم . تنزيل الكتاب من  
 الله العزيز العليم » تلوها تلك الإيقاعات الرصينة الثابتة : « غافر الذنب . وقابل التوب .  
 شديد العقاب ذى الطول . لا إله إلا هو . إليه المصير » .. ثم تقرر أن الوجود كله مسلم  
 مستسلم لله . وأنه لا يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا  
 الجدل . ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهما تقلبوا  
 في الخير والتعاقب . فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ؛ وقد أخذهم  
 الله أخذا ، بعقاب يستحق العجب والإعجاب ومع الأخذ في الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم  
 هناك . . . ذلك بينا حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ،  
 ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنميم والفلاح .. وفي الوقت  
 ذاته يعرض مشهد الكافرين يوم القيامة وهم ينادون من أرجاء الوجود المؤمن المسلم المستسلم :  
 « لمت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » . وهم في موقف الذلة  
 والانكسار بعد الاستكبار ، يقرون بذنوبهم ، ويمترفون بربهم ، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ،  
 إنما يذكرون بما كان منهم من شرك واستكبار . . . ومن هذا الموقف بين يدي الله في الآخرة  
 يعود بالناس إلى الله في الدنيا .. « هو الذي يرزقكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا » ويذكركم  
 لينبؤا إلى ربهم ويوحبوه : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . ويشير  
 إلى الوحي والإنذار بذلك اليوم المصيب . ويستطرد إلى مشهدهم يوم القيامة : « يوم هم بارزون  
 لا يخفى على الله منهم شيء » وقد توارى الجبارون والتكبرون والمجادلون : « لمن الملك اليوم ؟



## سورة غافر

لله الواحد القهار» . . ويستمر في عرض صور من هذا اليوم الذي يتفرد الله جل جلاله فيه بالحكم والقضاء . ويتوارى فيه ويضجحل ما يعبدون من دونه ، كما يتوارى الطغاة والفجار . . ويبدأ الشوط الثاني بلفتة إلى مصارع الغابرين قبلهم . مقدمة لعرض جانب من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون . تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق . وتعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا في هذه السورة . وهي حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . يدفع عن موسى ما هموا بقتله ؛ ويصدع بكلمة الحق والإيمان في تल्प وحذر في أول الأمر ، ثم في صراحة ووضوح في النهاية . ويعرض في جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة ؛ ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهدته في أسلوب مؤثر ؛ ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف - عليه السلام - ورسالته . . ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة . فإذا هم هناك . وإذا هم يتحاجون في النار . وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا ، وحوار لهم جميعا مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص . ولات حين خلاص اوفى ظل هذا الشهيد بوجه الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر والثقة بوعد الله الحق ، والتوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار .

فأما الشوط الثالث فيبدأ بتقرير أن الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر في نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضال من هذا الكبر . ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذي خلقه الله ، وهو أكبر من الناس جميعا . لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ؛ وتفتح بصيرتهم فلا يكونون عميا : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسوء . قليلا ماتذكرون » . ويذكرهم بمجيء الساعة ، ويوجههم إلى دعوة الله الذي يستجيب للدعاء . فأما الذين يستكبرون فيسبخون جهنم أذلاء صاغرين . ويعرض في هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التي يمرون عليها غافلين . يعرض الليل سكنا والنهار مبصرا . والأرض قرارا والسماء بناء . ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم فأحسن صورهم . ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين . ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرا من عبادتهم ، ويعلن نهي ربه له عن آلتهم ، وأمره له بالإسلام . رب العالمين . ويلس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذي أنشأهم من تراب ثم من نطفة . . وهو

## الجزء الرابع والعشرون

الذي يحيى ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أمر الذين يجادلون في الله ؛ وينذرهم عذاب يوم القيامة في مشهد عنيف : « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون » .. وإذ يتخلى عنهم ما أشركوا وينسكرون هم أنهم كانوا يعبدون شيئاً ، ويقتضى بهم الأمر إلى جهنم يقال لهم : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » .. وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر مرة أخرى ، والثقة بأن وعد الله حق . سواء أبقاه حتى يشهد بعض ما يعدهم أو توفاه قبل أن يراه . فسيتم الوعد هناك ..

والشوط الأخير في السورة يتصل بالشوط الثالث . فبعد توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصبر والانتظار يذكر أن الله قد أرسل رسلاً قبله كثيرين . « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » .. على أن في الكون آيات قاعة ، وبين أيديهم آيات قريية ؛ ولكنهم يفتلون عن تدبرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم . من سخرها ؟ . وهذه الفلك التي تحملهم أليست آية يرونها ! ومصارع الغابرين ألا تشير في قلوبهم العظة والتقوى ؟ ومختم السورة بإيقاع قوى على مصراع من مصارع المكذبين ، وهم يرون بأس الله فيؤمنون ؛ « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون » .. هذا الختام الذي يصور نهاية التكبرين ، ويتفق مع جو السورة وظلها وطابمها الأصيل . فلنسر الآن مع سياق السورة بالتفصيل ..

\*\*\*

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير » ..

هذه السورة بدء سبع سور كلها تبدأ بالحرفين : « حا . ميم » . منها سورة واحدة يذكر فيها بعد هذين الحرفين ثلاثة حروف آخر : « عين . سين . قاف » . وقد سبق الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور . وأنها إشارة إلى صياغة هذا القرآن منها . وهو معجز لهم مع تيسير هذه الأحرف لهم ومعرفة بها ، وهي أحرف لغتهم التي يتحدثونها ويكتبونها . وتلها الإشارة إلى تنزيل الكتاب .. إحدى الحقائق التي يتكرر الحديث عنها في السور المكية بوجه خاص ، في معرض بناء العقيدة :

« تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » ..

## سورة غافر

وهي مجرد إشارة ينتقل السياق منها إلى التعريف ببعض صفات الله الذي نزل هذا الكتاب . وهي مجموعة من الصفات ذات علاقة موضوعية بمحتويات السورة كلها وقضاياها :  
« العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول . لا إله إلا هو ، إليه المصير » . . .

العزة . والعلم . وغفران الذنب . وقبول التوبة . وشدة العقاب . والفضل والإناعام .  
ووحداية الألوهية ، ووحداية المرجع والمصير . . .

وكل موضوعات السورة تتعلق بهذه المعاني ، التي جاءت في مطلع السورة . والتي سيقف في إيقاعات ثابتة الجرس ، قوية التركيب ، توحى بالاستقرار والثبات والرسوخ .

والله - سبحانه - يعرف نفسه لعباده بصفاته ، ذات الأثر في حياتهم ووجودهم ، ويلبس بها مشاعرهم وقلوبهم ؛ فيثير رجاءهم وطمعهم ، كما يثير خوفهم وخشيتهم ، ويشعرهم بأنهم في قبضته لامهرب لهم من تصريفه . ومنها هذه الصفات :

« العزيز » : القوي القادر الذي يغلب ولا يغلب ، والذي يصرف الأمر لا يقدر عليه أحد ، ولا يقب عليه أحد .

« العليم » .. الذي يصرف الوجود عن علم وعن خبرة ، فلا يخفى عليه شيء ، ولا يند عن علمه شيء .

« غافر الذنب » . الذي يمحو عن ذنوب العباد ، بما يعلمه - سبحانه - من استحقاقهم للغفران .

« وقابل التوب » .. الذي يتوب على العصاة ، ويتقبلهم في حماه ، ويفتح لهم بابه بلا حجاب .

« شديد العقاب » الذي يدمر على المستكبرين ويعاقب المعاندين ، الذين لا يتوبون ولا يستغفرون .

« ذي الطول » . الذي يتفضل بالإناعام ، ويضاعف الحسنات ، ويمطي بغير حساب .

« لا إله إلا هو » .. فله الألوهية وحده لا شريك له فيها ولا شبيه .

« إليه المصير » .. فلا مهرب من حسابيه ولا مفر من لقائه . وإليه الأوبة والمعاد .

وهكذا تتضح صلته بعباده وصلة عباده به . تتضح في مشاعرهم وتصوراتهم وإدراكهم ،

فيعرفون كيف يعاملونه في يقظة وفي حساسية ؛ وفي إدراك أسا ينضبه وما يرضيه .

وقد كان أصحاب العقائد الأسطورية يعيشون مع آلهتهم في حيرة ، لا يعرفون عنها شيئا

## الجزء الرابع والعشرون

مضبوطة؛ ولا يتبينون ماذا يسخطها وماذا يرضيها، ويصورونها متقلبة الأهواء، غامضة الاتجاهات، شديدة الانفعالات، ويميشون معها في قلق دائم يتحسون مواضع رضاها، بالرقى والتأمم والضحايا والذبايح، ولا يدرون سخطت أم رضيت إلا بالوهم والتخمين!

جاء الإسلام واضحاً ناصحاً، يصل الناس بإلههم الحق، ويعرفهم بصفاته، ويصبرهم بمشيئته ويعلمهم كيف يتقربون إليه، وكيف يرجون رحمته، ويخشون عذابه، على طريق واضح قاصد مستقيم.

\*\*\*

« ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا، فلا يغرك قلبهم في البلاد. كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذتهم، فكيف كان عقاب؟ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار... »

بعد تقرير تلك الصفات العلوية، وتقرير الوجدانية، يقرر أن هذه الحقائق مسلمة من كل من في الوجود، وكل مافي الوجود، فقطرة الوجود كله مرتبطة بهذه الحقائق، متصلة بها الاتصال المباشر، الذي لا يجادل فيه ولا تماحل. والوجود كله مقتنع بآيات الله الشاهدة بحقيقته ووجدانيته. ومامن أحد يجادل فيها إلا الذين كفروا وحدهم، شذوذاً عن كل مافي الوجود وكل من في الوجود:

« ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا... »

فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون؛ وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون. وهم - بالقياس إلى هذا الوجود - أضغف وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض. وهم حين يتفنون في صف يجادلون في آيات الله؛ ويقف الوجود الهائل كله في صف معترفاً بخالق الوجود مستنداً إلى قوة العزيز الجبار.. هم في هذا الموقف مقطوع بعصيرهم، مقضى في أمرهم؛ مهما تبلغ قوتهم؛ ومهما يتبأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان:

« فلا يغرك قلبهم في البلاد... »

فهما قلبوا، وتحركوا، وملكوا، واستمتعوا، فهم إلى اندحار وهلاك وبوار. ونهاية للمركة معروفة. إن كان تمت معركة يمكن أن تقوم بين قوة الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف للتاكين!

## سورة غافر

ولقد سبقهم أقوام وأحزاب على شاكاتهم ، توحى عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله :

« كذبت قلوبهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » ..

فهي قصة قديمة من عهد نوح . ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان . وهذه الآية تصور هذه القصة . قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور الآية في كل حال .

رسول يحىء . فيكذبه طغاة قومه . ولا يقفون عند مقارعة الحججة بالحجة ، إنعام يلجأون إلى مطلق الطغيان الغليظ ، فهمون أن يبطشوا بالرسول ، ويموهون على الجماهير بالباطل ابعثوا به الحق .. هنا تتدخل يد القدرة الباطشة ، فتأخذهم أخذاً يعجب ويدهش ، ويستحق التعجيب والاستعراض :

« فكيف كان عقاب ؟ » ..

ولقد كان عقاباً مدمراً قاصياً عنيفاً شديداً ، تشهد به مصارع القوم البالية آثارها ، وتنطق به الأحاديث والروايات .

ولم تنته المعركة . فهي ممتدة الآثار في الآخرة :

« وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار » ..

ومتى حقت كلمة الله على أحد فقد وقعت ، وقضى الأمر ، وبطل كل جدال .

وهكذا يصور القرآن الحقيقة الواقعة . حقيقة المعركة بين الإيمان والكفر ، وبين الحق والباطل ، وبين الدعوة إلى الله الواحد والطفة الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق . وهكذا تعلم أنها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية . وأن ميدانها أوسع من الأرض كلها ، لأن الوجود كله يقف مؤمناً بربه مسلماً مستسلماً ، ويشذ منه الذين كفروا يجادلون في آيات الله وخدم دون سائر هذا الكون الكبير . ونعم كذلك نهاية المعركة - غير المتكافئة - بين صف الحق الطويل الضخم الهائل وشرذمة الباطل القليلة الضئيلة الهزيلة ، مهما يكن قلبها في البلاد ، ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع !

## الجزء الرابع والعشرون

هذه الحقيقة - حقيقة المركة والقوى البارزة فيها ، وميدانها في الزمان والمكان - يصورها القرآن لتستقر في القلوب ؛ وليعرفها - على وجه خاص - أولئك الذين يحملون دعوة الحق والإيمان في كل زمان ومكان ؛ فلا تماظمهم قوة الباطل الظاهرة ، في فترة محدودة من الزمان ، ورقعة محدودة من المكان ؛ فهذه ليست الحقيقة . إنما الحقيقة هي التي يصورها لهم كتاب الله ، وتنطق بها كلمة الله . وهو أصدق القائلين . وهو العزيز العليم .

\*\*\*

ويتصل بتلك الحقيقة الأولى أن حملة العرش ومن حوله - وهم من بين القوى المؤمنة في هذا الوجود - يذكرون المؤمنين من البشر عند ربهم ، ويستغفرون لهم ، ويستنجزون وعد الله إياهم ؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا . ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ؛ إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات - ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته - وذلك هو الفوز العظيم » .

وعن لانعرف ماهو العرش ؟ ولانملك صورة له ، ولا نعرف كيف يحمله حملته ، ولا كيف يكون من حوله ، حوله ؛ ولا جدوى من الجري وراء صور ليس من طبيعة الإدراك البشرى أن يلم بها ، ولا من الجدل حول غيبات لم يطلع الله أحدا من المتجادلين عليها ؛ وكل مايتصل بالحقيقة التي يقررها سياق السورة أن عبادا مقربين من الله ، « يسبحون بحمد ربهم » . « ويؤمنون به » . . . وينص القرآن على إيمانهم - وهو مفهوم بداهة - ليشير إلى الصلة التي تربطهم بالمؤمنين من البشر . هؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير مايدعو به مؤمن لمؤمن .

وهم يبدأون دعاءهم بأدب يعلنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال . يقولون :

« ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما » ..

يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم - في طلب الرحمة للناس - إنما يستمدون من رحمة الله التي

## سورة غافر

وسمت كل شيء ، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء ؛ وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء ؛  
إنما هي رحمته وعلمه منهما يستمدون وإلهما يلجأون :

« فاعفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » .

وتلتقى هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة ، وبصفة الله هناك : « غافر الذنب  
وقابل التوب » . . كما تلتقى الإشارة إلى عذاب الجحيم ، بصفة الله : « شديد العقاب » . .

يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله  
به الصالحين :

« ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم .  
إنك أنت العزيز الحكيم » . .

ودخول الجنة نعم وفوز . يضاف إليه صحة من صلح من الآباء والأزواج والذريات . وهي  
نعم آخر مستقل . ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين . فعند عقدة الإيمان  
يلتقى الآباء والأبناء والأزواج ، ولولا هذه العقدة لتقطعت بينهم الأسباب :

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء : « إنك أنت العزيز الحكيم » يشير إلى القوة كما  
يشير إلى الحكمة . وبها يكون الحكم في أمر العباد .

« وقهم السيئات . ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم » . .

وهذه الدعوة - بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن - لفتة إلى الركيعة الأولى في الموقف العصيب .  
فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة ، وتورد لهم مورد التهلكة . فإذا وقى الله عباده  
المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها . وكانت هذه هي الرحمة في ذلك الموقف . وكانت كذلك  
أولى خطوات السعادة . « وذلك هو الفوز العظيم » . . فجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم !



وبينا أن حملة العرش ومن حوله يتجهون إلى ربهم بهذا الدعاء لإخوانهم المؤمنين . نجد  
الذين كفروا في الموقف الذي تتطلع كل نفس فيه إلى المين وقد عز المين . نجد الذين كفروا  
هؤلاء - وقد انبثت العلاقات بينهم وبين كل أحد وكل شيء في الوجود - وإذا هم ينادون من

## الجزء الرابع والعشرون

كل مكان بالترذيل والقت والتأنيب . وإذام في موقف الذلة بعد الاستكبار . وفي موقف الرجاء  
ولات حين رجاء :

« إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون  
قالوا : ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل ؟ ذلكم بأنه  
إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير » . .

والقت : أشد الكره . وهم ينادون من كل جانب . إن مقت الله لكم يوم كنتم تدعون  
إلى الإيمان فتكفرون ، أشد من مقتكم لأنفسكم وأنتم تظلمون اليوم على ما قادتكم إليه من شر  
ونكر ، بكفرها وإعراضها عن دعوة الإيمان ، قبل فوات الأوان .. وما أوجع هذا التذكير  
وهذا التأنيب في ذلك الموقف المرهوب العصيب !

والآن - وقد سقط عنهم غشاء الخداع والضلال - يرفون أن المنجى لله وحده فيتجهون :  
« قالوا : ربنا أمتنا اثنتان وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل إلى خروج من سبيل » ..  
وهي كلمة الدليل اليائس البائس . . « ربنا » . . وقد كانوا يكفرون وينكرون .  
أحييتنا أول مرة فنفتت الروح في الموات فإذا هو حياة ، وإذا نحن أحياء . ثم أحييتنا الأخرى  
بعد موتنا ، فجئنا إليك . وإنك تقادر على إخراجنا مما نحن فيه . وقد اعترفنا بذنوبنا . « فهل  
إلى خروج من سبيل ؟ » : بهذا التكبير الموحى باللهفة واليأس المرير .

هنا - في ظل هذا الموقف البائس - يجبههم بسبب هذا المصير :  
« ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم ، وإن يشرك به تؤمنوا ، فالحكم لله العلي الكبير » .  
فهذا هو الذي يقودكم إلى ذلك الموقف الدليل . إيمانكم بالشركاء ، وكفركم بالوحدانية .  
فالحكم لله العلي الكبير : وهما صفتان تاسبان موقف الحكم . الاستعلاء على كل شيء ، والكبر  
فوق كل شيء . في موقف الفصل الأخير .



وفي ظل هذا الشهد يستطرد إلى شيء من صفة الله تناسب موقف الاستعلاء ؛ ويوجه  
للؤمنين في هذا اللقمة إلى التوجه إليه بالدعاء ، موحدين ، مخلصين له الدين ؛ كما يشير إلى  
الوحي للإنداء يوم التلاق . الفصل والجزاء ، يوم يتفرد الله بالملك والقهر والاستعلاء :



## سورة غافر

« هو الذي يرىكم آياته ، وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ، ذو العرش ، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب » . . .

« هو الذي يرىكم آياته » .. وآيات الله ترى في كل شيء ، في هذا الوجود . في المجالي الكبيرة من شمس وكواكب ، وليل ونهار ، ومطر وبرق ورعد .. وفي الدقائق الصغيرة من الذرة والحلقة والورقة والزهرة .. وفي كل منها آية خارقة ، تتبدى عظمتها حين يحاول الإنسان أن يقلدها - بله أن ينشئها - وهيئات هيات التقليد الكامل الدقيق ، لأصغر وأبسط ما أبدعته يد الله في هذا الوجود.

« وينزل عليكم من السماء رزقا » .. عرف الناس منه المطر ، أصل الحياة في هذه الأرض . وسبب الطعام والشراب . وغير المطر كثير يكشفه الناس يوما بعد يوم . ومنه هذه الأشعة الحية التي لولاها ما كانت حياة على هذا الكوكب الأرضي . ولعل من هذا الرزق تلك الرسائل المنزلة ، التي قادت خطى البشرية منذ طفولتها ونقلت أقدامها في الطريق المستقيم ، وهدتها إلى مناهج الحياة الموصولة بالله ، وناموسه القويم .

« وما يتذكر إلا من ينيب » .. فالذي ينيب إلى ربه يتذكر نعمه ويتذكر فضله ويتذكر آياته التي بنسائها غلاظ القلوب .

وعلى ذكر الإنابة وما تثيره في القلب من تذكر وتدبر بوجه الله المؤمنين ليدعوا الله وحده . ويخلصوا له الدين ، غير عابئين بكره الكافرين :

« فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » :

ولن يرضى الكافرون من المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله ، وأن يدعوهم وحده دون سواه . ولا أمل في أن يرضوا عن هذا مهما لطفهم المؤمنون أو هادنوهم أو تلمسوا رضاهم بشق الأساليب . فليعض المؤمنون في وجهتهم ، يدعون ربهم وحده ، ويخلصون له عقيدتهم ، ويصفون له قلوبهم . ولا عليهم رضى الكافرون أم سخطوا . وما هم يوما براضين

## الجزء الرابع والعشرون

ثم يذكر من صفات الله في هذا المقام الذي يوجه المؤمنين فيه إلى عبادة الله وحده ولو كره الكافرون . يذكر من هذه الصفات أنه سبحانه :

« رفيع الدرجات ذو العرش ، يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » ..  
فهو سبحانه - وحده صاحب الرفعة والمقام العالی ، وهو صاحب العرش المسيطر المستعلى .  
وهو الذي يلقي أمره المحي للأرواح والقلوب على من يختاره من عباده . وهذا كناية  
عن الوحي بالرسالة . ولكن التعبير عنه في هذه الصيغة يبين أولا حقيقة هذا الوحي ، وأنه  
روح وحياة للبشرية ، وبين ثانيا أنه ينزل من علو على المختارين من العباد .. وكلها ظلال  
متناسقة مع صفة الله « العلى الكبير » ..

فأما الوظيفة البارزة لمن يختاره الله من عباده فيلقى عليه الروح من أمره ، فهي الإنذار :  
« لينذر يوم التلاق » ..

وفي هذا اليوم يتلاقى البشر جميعا . ويتلاقى الناس وأعمالهم التي قدموا في الحياة الدنيا  
ويتلاقى الناس والملائكة والجن وجميع الخلائق التي تشهد ذلك اليوم المشهود . وتلقى الخلائق  
كلها بربها في ساحة الحساب . فهو يوم التلقى بكل معاني التلاقى .

ثم هو اليوم الذي يبرزون فيه بلا ساتر ولا واق ولا تزيف ولا خداع :  
« يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » ..

والله لا يخفى عليه منهم شيء في كل وقت وفي كل حال . ولكنهم في غير هذا اليوم قد  
يحسبون أنهم مستورون ، وأن أعمالهم وحركاتهم خافية ، أما اليوم فيحسون أنهم مكشوفون ،  
ويعلمون أنهم مفضوحون ؛ ويقفون عارين من كل ساتر حتى ستار الأوهام !

ويومئذ يتضاءل المتكبرون ، ويذوي التجبرون ، ويقف الوجود كله خاشعا ، والعباد كلهم  
خضعا . ويتفرد مالك الملك الواحد القهار بالسلطان . وهو سبحانه متفرد به في كل آن . فأما  
في هذا اليوم فيكشف هذا للعيان ، بعد انكشافه للجان . ويعلم هذا كل منكر ويستشعره كل  
متكبر . وتصمت كل نائمة وتسكن كل حركة . وينطلق صوت جليل رهيب يسأل ويحجب ، فما في  
الوجود كاه يومئذ من سائل غيره ولا محجب :

« لمن الملك اليوم ؟ » .. « لله الواحد القهار » ..

## سورة غافر

« اليوم تحزى كل نفس بما كسبت . لا ظلم اليوم . إن الله سريع الحساب . »  
 اليوم يوم الجزاء الحق . اليوم يوم العدل . اليوم يوم القضاء الفصل . بلا إهمال ولا إبطاء .  
 ونعيم الجلال والصفاء ، وينعم الموقف رهبة وخشوع ، وتسمع الخلائق وتخشع ، ويقضى  
 الأمر ، وتطوى صحائف الحساب .  
 ويتسق هذا الظل مع قوله عن الذين يجادلون في آيات الله - في مطلع السورة - :  
 « فلا يفررك تقلبهم في البلاد » . . فهذه نهاية التقلب في الأرض ، والاستعلاء بغير الحق ،  
 والتجبر والتكبر والثراء والمتاع .

\*\*\*

ويستطرد السياق بوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إنذار القوم بذلك اليوم ،  
 في مشهد من مشاهد القيامة يتفرد فيه الله بالحكم والقضاء ؛ بعد ما عرضه عليهم في صورة حكاية  
 لم يوجه لهم فيها الخطاب :

« وأندركم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع  
 يطاع . يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه  
 لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير » . .

والآزفة . . القرية والعاجلة . . وهي القيامة . واللفظ يصورها كأنها مقربة زاحفة .  
 والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة ، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر ؛ وهم كاظمون  
 لأنفاسهم ولآلامهم ولخاوفهم ، والكظم يكربهم ، ويثقل على صدورهم ؛ وهم لا يجدون حيا  
 يعطف عليهم ولا شفيعا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف المصيب المكروب !

وهم بارزون في هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شيء ، حتى لفنة العين الخائنة ، وسر الصدر المستور :  
 « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » . .

والعين الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها . ولكنها لا تخفى على الله . والسر المستور تخفيه  
 الصدور ، ولكنه مكشوف لعلم الله .

والله وحده هو الذي يقضى في هذا اليوم قضاء الحق . وآلمتهم الدعاء لاشأن لها ولا حكم ولا قضاء :

« والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء » .

والله يقضى بالحق عن علم وعن خبرة ، وعن سمع وعن رؤية . فلا يظلم أحدا ولا ينسى شيئا :

إن الله هو السميع البصير » . .

« أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝ ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا ، فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا : سَاحِرٌ كَذَّابٌ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا : اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ، وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ \* وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ، أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ \* وَقَالَ مُوسَىٰ : إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ .

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ : رَبِّيَ اللَّهُ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ، إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ \* يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟ قَالَ فِرْعَوْنُ : مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ \* مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ \* وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ \* يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُذْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ، حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ \* الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ

مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ .  
 « وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ \* أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ  
 فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا . وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدَّ  
 عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ .

« وَقَالَ الَّذِي آمَنَ : يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ \* يَا قَوْمِ إِنَّمَا هُذِهِ  
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ \* مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى  
 إِلَّا مِثْلَهَا ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ  
 يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ؟ \*  
 تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ  
 الْغَفَّارِ \* لَا جْرَمَ أَنْ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ،  
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ \* فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ،  
 وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

« فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ \* النَّارُ  
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .  
 « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ  
 تَبَعًا ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ؟ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ،  
 إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ \* وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ : أَدْعُوا رَبَّكُمْ  
 يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ \* قَالُوا : أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا :  
 بَلَى . قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ \* يَوْمَ  
 لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ \* وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ،

وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ \* هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ \* فَأَضَلُّوا  
إِنَّا وَعَدَدَ اللَّهِ حَقًّا ، وَاسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ ، وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٦٥﴾»

سبق أن أجمنا موضوع هذا الشوط من السورة . وقبل الاستعراض التفصيلي له نلاحظ أن هذه الحلقة من القصة تجيء هنا متمشية بموضوعها مع موضوع السورة ، وتمشية بطريقة التعبير فيها - وأحيانا بعباراتها ذاتها - مع طريقة التعبير في السورة كذلك ، وتكرر بعض عباراتها . . وعلى لسان الرجل المؤمن من آل فرعون ترد معان وتعبيرات وردت من قبل في السورة . فهو يذكر فرعون وهامان وقارون بأنهم يتقلبون في البلاد ، ويحذرهم يوما مثل يوم الأحزاب ، كما يحذرهم يوم القيامة الذي عرضت مشاهدته في مطالع السورة كذلك . وتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله ومقت الله لهم ومقت المؤمنين كما جاء ذلك في الشوط الأول . ثم يمرض السياق مشهدم في النار ، أذلاء ضارعين يدعون فلا يستجاب لهم ، كما عرض مشهد أمثالهم من قبل في السورة .

وهكذا وهكذا كما يوحى بأن منطق الإيمان ومنطق المؤمنين واحد ، لأنه يستمد من الحق الواحد . وما ينسق جو السورة ، ويجعل لها « شخصية » موحدة الملامح . وهي الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن .

\*\*\*

« أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب » ..

هذا المبر بين قصة موسى - عليه السلام - وموضوع السورة قبلها يذكر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب ببرة التاريخ قبلهم ؛ ويوجههم إلى السير في الأرض ، ورؤية مصارع الغابرين ، الذين وقوا موقتهم . وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض . ولكم

## سورة غافر

– مع هذه القوة والمهارة – كانوا ضعافاً أمام بأس الله . وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الإيمان ومعها قوة الله العزيز القهار : « فأخذهم الله بذنوبهم . وما كان لهم من الله من واق » . . ولا واقى إلا الإيمان والعمل الصالح والوقوف في جبهة الإيمان والحق والصلاح . فأما التكذيب بالرسول وبالبيئات فنهايته إلى الدمار والنكال :  
« ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، فكفروا، فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب » . .

\*\*\*

وبعد هذه الإشارة الكلية المجملية يبدأ في عرض نموذج من نماذج الدين كانوا من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض . فأخذهم الله بذنوبهم . وهم فرعون وقارون وهامان . ومن معهم من المتجبرين الطغاة .

وتنقسم هذه الحلقة من قصة موسى – عليه السلام – إلى مواقف ومناظر ، تبدأ من موقف عرض الرسالة على فرعون وملكه . وتنتهي هنالك في الآخرة ، وهم يتحاجون في النار . وهي رحلة مديدة . ولكن السياق يختار « لقطات » معينة من هذه الرحلة ، هي التي تؤدي الغرض من هذه الحلقة في هذه السورة بالذات :

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وهامان وقارون ، قالوا : ساحر كذاب » . .

هذا هو موقف اللقاء الأول . موسى ومعه آيات الله ، ومعه الهبة المستمدة من الحق الذي بيده . وفرعون وهامان وقارون . ومهم باطلهم الزائف وقوتهم الظاهرة ومركزهم الذي يخافون عليهم من مواجهة الحق ذي السلطان . . عندئذ لجأوا إلى الجدل بالباطل ليحضوا به الحق : « قالوا : ساحر كذاب » . .

\*\*\*

ويجمل السياق تفصيل ما حدث بعد هذا الجدل ، ويطوى موقف المباراة مع السحرة ، وإيمانهم بالحق الذي غلب باطلهم ولقف ما يافكون . ويعرض الموقف الذي تلا هذه الأحداث :  
« فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا واستحيوا نساءهم » .  
ويتقب عليه قبل أن تكمل الآية :

## الجزء الرابع والعشرون

« وما كيد الكافرين إلا في ضلال » . . .

إنه منطق الطغيان الغليظ ، كلما أعوزته الحجة ، وخذله البرهان ، وخاف أن يستعلي الحق ، بما فيه من قوة وفصاحة ووضوح ، وهو يخاطب الفطرة فتصفي له وتستجيب . كما استجاب السحرة الذين جيء بهم ليغلبوا موسى وما معه ، فانتقلوا أول المؤمنين بالحق في مواجهة فرعون الجبار .

فأما فرعون وهامان وقارون فقالوا :

« اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم » . . .

ولقد كان فرعون - في أيام مولد موسى - قد أصدر مثل هذا الأمر . وهناك أحد احتمالين فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول . . الاحتمال الأول أن فرعون الذي أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولي عهده ، ولم يكن الأمر منفذا في العهد الجديد ، حتى جاء موسى وواجه الفرعون الجديد ، الذي كان يعرفه وهو ولي للعهد ، ويعرف تربيته في القصر ، ويعرف الأمر الأول بتذيح الذكور وترك الإناث من بني إسرائيل . فخاشيته تشير إلى هذا الأمر ، ونوحى بتخصيصه بمن آمنوا بموسى ، سواء كانوا من السحرة أو من بني إسرائيل القلائل الذين استجابوا له على خوف من فرعون وملكه . . والاحتمال الثاني : أنه كان فرعون الأول الذي تبنى موسى ، ما يزال على عرشه . وقد تراخى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة أو وقف العمل به بعد زوال حدته . فالخاشية تشير بتجديده ، وتخص به الذين آمنوا مع موسى وخدم للإرهاب والتخويف . فأما فرعون فكان له فيما يبدو رأى آخر ، أو اقتراح إضافي في أثناء التأمير . ذلك أن يتخلص من موسى نفسه . فيستريح !

« وقال فرعون : ذروني أقتل موسى ، وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد » . . .

ويبدو من قوله : « ذروني أقتل موسى » . . أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة - من ناحية الرأي - كأن يقال مثلا : إن قتل موسى لا ينهي الإشكال . فقد يوحى هذا للجاهير بتقديسه واعتباره شهيدا ، والحماسة الشمورية له وللدين الذي جاء به ، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع ، وإعلانهم سبب إيمانهم ، وهم الذين جيء بهم ليطلوا عمله ويناثووه . . وقد يكون بعض مستشاري الملك أحس في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ،



## سورة غافر

ويطش بهم . وليس هذا بعيد ، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ، ويتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتقدون عليه ! ويكون قول فرعون : « وليدع ربه » .. ردا على هذا التلويح ! وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون ، كانت تبيحها واستهتارا ، لقي جزاءه في نهاية المطاف كما سيحيى .

ولعله من الطريف أن تقف أمام حجة فرعون في قتل موسى :

« إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » ..

فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني ، عن موسى رسول الله - عليه السلام -

« إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » !!؟

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل ؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي ؟

إنه منطوق واحد ، يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر . والصلاح والظلمان على توالي الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين .

فأما موسى - عليه السلام - فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين ، ولاذ بالجناب

الذي يحمي اللائذين ، ويجير المستجيرين :

« وقال موسى : إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ..

قالها . واطمأن . وسلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر ، القاهر لكل متجبر ، القادر على حماية العائدين به من المتكبرين . وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد . كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب . فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب ، وهو يتصور موقفه يومئذ حاسرا خاشعا خاضعا ذليلا ، مجردا من كل قوة ، ماله من حميم ولا شفيع يطاع .

\*\*\*

هنا اتدب رجل من آل فرعون ، وقع الحق في قلبه ، ولكنه كتم إيمانه . اتدب يدفع عن موسى ، ويحتال لدفع القوم عنه ، ويسلك في خطابه لفرعون ومثله مسالك شتى ، ويتسلس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع :

## الجزء الرابع والعشرون

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ، فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أرىكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذي آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضل الله فماله من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قستم : لن يبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار .. »

إنها جولة ضخمة هذه التي جالها الرجل المؤمن مع المتأمرين من فرعون ومكه . وإنه منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك .

إنه يبدأ بتفطيع ما هم مقدمون عليه : « أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله » .. فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب ، واقتناع نفس ، تستحق القتل ، ويرد عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة الصبح والبشاعة .

ثم يخطو بهم خطوة أخرى . فالذي يقول هذه الكلمة البريئة : « ربي الله » .. يقولها ومعه حجة ، وفي يده برهانه : « وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .. يشير إلى تلك الآيات التي عرضها موسى - عليه السلام - ورأوها ، وهم - فيما بينهم وبعيدا عن الجماهير - يصعب أن يماروا فيها !

ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ؛ ويقف معهم موقف النصف أمام القضية ، تمشيا مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه : « وإن يك كاذبا فعليه كذبه » .. وهو يحمل تبعه عمله ، ويلقى جزاءه ، ويحتمل جريرته . وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال !

وهناك الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون صادقا . فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال ، وعدم التعرض لتأنيبه : « وإن يك صادقا يصبم بعض الذي يعدكم » .. وإصابتهم ببعض الذي يعدهم

## سورة غافر

هو كذلك أقل احتمال في القضية ، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه . وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإحكام .

ثم يهددهم من طرف خفي ، وهو يقول كلاما ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » .. فإذا كان موسى فإن الله لا يهديه ولا يوقه ، فدعوه له يلاقى منه جزاءه . واحذروا أن تكونوا أتم الذين تكذبون على موسى وربهم وتسرفون ، فيصيبيكم هذا المآل !

وحيث يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب ، يهجم عليهم مخوفا بعقاب الله ، محذر من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملك وسلطان ، مذكرا إياهم بهذه النعمة التي تستحق الشكران لا الكفران :

« يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض . فمن ينصرتنا من بأس الله إن جاءنا ؟ » . . . إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن ، من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض ؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه ، وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه ، وأن يبيتوا منه على وجل ، فهو يترصد بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . ومن ثم يذكرهم بما هم فيه من الملك والسلطان ، وهو يشير إلى هذا المعنى المستقر في حسه البصير . ثم يجعل نفسه فيهم وهو يذكرهم بيأس الله : « فمن ينصرتنا من بأس الله إن جاءنا ؟ » ليشعرهم أن أمرهم بهم ، فهو واحد منهم ، ينتظر مصيره معهم ؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم ، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام ، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص . وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه ، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف .

« هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة . تأخذه العزة بالإثم . ويرى في النصيح الخالص افتياتا على سلطانه ، وتقصا من نفوذه ، ومشاركة له في النفوذ والسلطان : « قال فرعون : ما أرى لكم إلا ما أرى وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد » ..

إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابا ، وأعتقد نافعا . وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك بولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب ؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون ؟ وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيا ؟ وإلا فلم كانوا طغاة ؟ ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا ؛ ويجد أن عليه واجبا أن يحذر وينصح

## الجزء الرابع والعشرون

ويدي من الرأي ما يراه . ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يمتدده كأننا ما كان رأى الطفافة . ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتشف وتلين . يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قلبهم . وهي شهادة يأس الله في أخذ المكذبين والطفافة : « وقال الذي آمن : يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . وما الله يريد ظلماً للعباد » ..

ولكل حزب كان يوم . ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد : « مثل يوم الأحزاب » فهو اليوم الذي يتجلى فيه بأس الله . وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب . « وما الله يريد ظلماً للعباد » إنما يأخذهم بذنوبهم ، ويصلح من حولهم ومن بعدهم بأخذهم بأيام الله .

ثم يطرق على قلوبهم طريقة أخرى ، وهو يذكرهم يوم آخر من أيام الله . يوم القيامة . يوم التنادى :

« ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم . ومن يضل الله فما من هاد » ..

وفي ذلك اليوم ينادى الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف . وينادى أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار . وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار ، وأصحاب النار أصحاب الجنة . فالتنادى واقع في صور شتى . وتسميته « يوم التناد » تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك ، وتصور يوم زحام وخصام . وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن : « يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم » .. وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم ، أو محاولتهم الفرار . ولا عاصم يومئذ ولا حين فرار . وصورة الفزع والفرار هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض ، أصحاب الجاه والسلطان !

« ومن يضل الله فما من هاد » .. ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون : « وما أهديك إلا سبيل الرشاد » .. وتلميحا بأن الهدى هدى الله . وأن من أضله الله فلا هادى له . والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال .

وأخيرا يذكرهم بموقفهم من يوسف ، ومن ذريته كان موسى - عليهما السلام - وكيف

## سورة غافر

وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات ، فلا يكرروا الموقف من موسى ، وهو يصدق ما جاءهم به يوسف ، فكانوا منه في شك وارتباب . ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولا ، وهاهو ذا موسى يحيى على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال : « ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم في شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قاتم : لن يبعث الله من بعده رسولا . كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب منكبر جبار » . .

وهذه هي المرة الوحيدة في القرآن التي يشار فيها إلى رسالة يوسف - عليه السلام - للقوم في مصر . وقد عرفنا من سورة يوسف ، أنه كان قد وصل إلى أن يكون على خزائن الأرض ، المتصرف فيها . وأنه أصبح « عزيز مصر » وهو لقب قد يكون لكبير وزراء مصر . وفي السورة كذلك ما قد يؤخذ منه أنه جلس على عرش مصر - وإن لم يكن ذلك مؤكدا - وذلك قوله :

« ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » . .

وقد يكون العرش الذي رفع عليه أبويه شيئا آخر غير عرش الملكة المصرية الفرعونية . وعلى أية حال فقد وصل يوسف إلى مكان الحكم والسلطان . ومن ثم نملك أن تصور الحالة التي يشير إليها الرجل المؤمن . حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل ، مع مصانعة يوسف صاحب السلطان وعدم الجهر بتكذيبه وهو في هذا المكان « حتى إذا هلك قاتم لن يبعث الله من بعده رسولا » . . وكأما استراحوا لموته ، فراحوا يظهرن ارتياحهم في هذه الصورة ، ورجبتهم عما جاءهم به من التوحيد الخالص ، الذي يبدو مما تكلم به في سجنه مع صاحبي السجن : « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » . . فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول ، لأن هذه كانت رغبته . وكثيرا ما يرغب المرء في شيء ثم يصدق تحفته ، لأن تحفته يلي هذه الرغبة ا

والرجل المؤمن يشتد هنا وهو يشير إلى هذا الارتباب والإسراف في التكذيب فيقول :

## الجزء الرابع والعشرون

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » . . .

فينذرهم بإضلال الله الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات ثم يشتد في مواجهتهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات الله بغير حجة ولا برهان . وهم يفعلون هذا في أبشع صورة . ويندد بالتكبر والتجبر ، وينذر بطمس الله لقلوب المتكبرين المتجبرين !

« الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا . كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار » . . .

والتعبير على لسان الرجل المؤمن يكاد يكون طبق الأصل من التعبير المباشر في مطالع السورة . المقت للمجادلين في آيات الله بغير برهان ، والإضلال للمتكبرين المتجبرين حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى ، ولا منفذ للإدراك .

\*\*\*

وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها ؛ فقد ظل فرعون في ضلاله ، مصرا على التكرار للحق . ولكنه تظاهر بأنه أخذ في التحقق من دعوى موسى . ويبدو أن منطق الرجل المؤمن وحجته كانت من شدة الوقع بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها . فآخذ فرعون لنفسه مهربا جديدا :

« وقال فرعون : يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى . وإني لأظنه كاذبا . وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب » . . .

يا هامان ابن لي بناء عاليا لعلى أبلغ به أسباب السماوات ، لأنظر وأبحث عن إله موسى هناك « وإني لأظنه كاذبا » . . . هكذا يموء فرعون الطاغية ويحاور ويداور ، كي لا يواجه الحق جبهة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه ، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه . وببعد عن الاحتمال أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه . وببعد أن يكون جادا في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج . وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حدا يبعد معه هذا التصور . إنما هو الاستهتار والسخرية من جهة . والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة

## سورة غافر

أخرى . وربما كانت هذه خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن في حديث الرجل المؤمن ! وكل هذه الفروض تدل على إصراره على ضلاله ، وتبجحه في جحوده : « وكذلك زين لفرعون سوء عمله ، وصد عن السبيل » . . وهو مستحق لأن يصد عن السبيل ، بهذا المرء الذي يميل عن الاستقامة وينحرف عن السبيل .

ويمتدح السياق على هذا المكر والكيد بأنه صائر إلى الحية والدمار :

« وما كيد فرعون إلا في تباب » ..

\* \* \*

وأمام هذه المراوغة ، وهذا الاستهتار ، وهذا الإصرار ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة ، بعد مادعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى الله ، وهو طريق الرشاد . وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة ؛ وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ؛ وحذرهم عذاب الآخرة ؛ وبين لهم مافي عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان :

« وقال الذي آمن : يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزي إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار . تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ماتدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله ، وأن السرفين هم أصحاب النار . فتذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله . إن الله بصير بالعباد » ..

إنها الحقائق التي تقررت من قبل في صدر السورة ، يعود الرجل المؤمن فيقررها في مواجهة فرعون وملكه . إنه يقول في مواجهة فرعون :

« يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد » ..

وقد كان فرعون منذ لحظات يقول : « وما أهديك إلا سبيل الرشاد » فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخفى فيها سلطان فرعون الجبار ، ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون . وزيرى فرعون فيما يقال .

## الجزء الرابع والعشرون

ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا : « إنما هذه الحياة الدنيا متاع .. متاع زائل لا ثبات له ولا دوام . » « وإن الآخرة هي دار القرار » .. فهي الأصل وإليها النظر والاعتبار .  
ويقرر لهم قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار :

« من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها . ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب » ..

قد اقتضى فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات ، رحمة من الله بعباده ، وتقديرا لضعفهم ، وللجوازب والموانع لهم في طريق الخير والاستقامة ، فضاعف لهم الحسنات ، وجعلها كفارة للسيئات . فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب ، رزقهم الله فيها بغير حساب .  
ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار ، فيهتف بهم في استنكار « يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ؟ » ..

وهم لم يدعوه إلى النار . إنما دعوه إلى الشرك . وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار ؟ إنها قريب من قريب . فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية :  
« تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار » ..  
وشتان بين دعوة ودعوة . إن دعوته لهم واضحة مستقيمة . إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار . يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته ، وتنطق بدائع صنعه بقدرته وتقديره . يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر ، الذي تفضل بالغفران : « العزيز الغفار » ..  
فإلى أي شيء يدعوونه ؟ يدعوونه للكفر بالله . عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز !

ويقرر من غير شك ولا ريب أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة ، وأن الرد لله وحده ، وأن المشرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار :

« لا جرم أن ماتدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة . وأن مردنا إلى الله . وأن المشرفين هم أصحاب النار » .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشاملا للحقائق الرئيسية في العقيدة ؟ وقد جهر بها



## سورة غافر

الرجل في مواجهة فرعون ومثله بلا تردد ولا تلميح ، بعد ما كان يكتم إيمانه ، فأعلن عنه هذا الإعلان ؟ لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله ، وقد قال كاحة وأراح ضميره ، مهيدا إياهم بأنهم سيدكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى . والأمر كله إلى الله :

« فستدكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد » .

وينتهي الجدل والحوار . وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان .

\*\*\*

ويجعل السياق حلقات القصة بعد هذا . وما كان بين موسى وفرعون وبنى إسرائيل . إلى موقف الغرق والنجاة : ويقف ليسجل « لقطات » بعدها الموقف الأخير . وبعد الحياة : « فوقاء الله سيئات مامكروا ، وحق آل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

« وإذ يتحاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد . وقال الذين في النار لحزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا : أو لم تكن تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى . قالوا : فادعوا ومدعاه الكافرين إلا في ضلال » . . .

لقد طويت الدنيا ، وعرضت أول صفحة بعدها . فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضى ، قد وقاء الله سيئات مكر فرعون ومثله ، فلم يصبه من آثارها شيء في الدنيا ، ولا فيها بعدها أيضا . بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب :

« النار يعرضون عليها غدوا وعشيا . ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » . والنص يلهم أن عرضهم على النار غدوا وعشيا ، هو في الفترة من بعد الموت إلى قيام الساعة . وقد يكون هذا هو عذاب القبر . إذ أنه يقول بعد هذا : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » . . فهو إذن عذاب قبل يوم القيامة . وهو عذاب سيء . عرض على النار في الصباح وفي المساء . إما للتمذيب برؤيتها وتوقع لدعها وحرها وهو عذاب شديد وإما لمزاوتها فعلا . فكثيرا ما يستعمل لفظ العرض للس والمزاولة . وهذه أدهى . . ثم إذا كان يوم القيامة أدخلوا أشد العذاب ا

## الجزء الرابع والعشرون

فأما في الآية التالية فقد كانت القيامة فعلا ، والسياق يلتقط لهم موقفا في النار ، وهم يتحاجون فيها :

« فيقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم تبعا . فهل أتم مغنون عنا نصيبا من النار؟ » .  
إن الضعفاء إذن في النار مع الذين استكبروا . لم يشفع لهم أنهم كانوا ذيو لا وإمعات ! ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنا تساق لا رأى لهم ولا إرادة ولا اختيار .

لقد منحهم الله الكرامة . كرامة الإنسانية . وكرامة التبعة الفردية . وكرامة الاختيار والحرية . ولكنهم هم تنازلوا عن هذا جميعا . تنازلوا وانساقوا وراء الكبراء والطغاة والملاّ والحاشية . لم يقولوا لهم : لا . بل لم يفكروا أن يقولوها . بل لم يفكروا أن يتدبروا ما يقولونه لهم وما يقودونهم إليه من ضلال .. « إنا كنا لكم تبعا » .. وما كان تنازلهم عما وهبهم الله واتباعهم الكبراء ليكون شفيعا لهم عند الله . فهم في النار . ساقهم إليها قادتهم كما كانوا يسوقونهم في الحياة . سوق الشياهم اثم هاهم أولاء يسألون كبراءهم : « فهل أتم مغنون عنا نصيبا من النار؟ » .. كما كانوا يوهمونهم في الأرض أنهم يقودونهم في طريق الرشاد ، وأنهم يحمونهم من الفساد ، وأنهم يمنعونهم من الشر والضرر وكيد الأعداء !

فأما الذين استكبروا فيضيقون صدرا بالذين استضعفوا ، ويجيبونهم في ضيق وبرم وملاة . وفي إقرار بعد الاستكبار :

« قال الذين استكبروا : إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » ..

« إنا كل فيها » .. إنا كل ضعاف لا نجد ناصرا ولا معينا . إنا كل في هذا الكرب والضيق سواء . فما سؤاكم لنا وأتم ترون الكبراء والضعاف سواء ؟

« إن الله قد حكم بين العباد » .. فلا مجال لمراجعة في الحكم ، ولا مجال لتغير فيه أو تعديل . وقد قضى الأمر ، وما من أحد من العباد يخفف شيئا من حكم الله .

وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، أتجه هؤلاء وهؤلاء لحزنة جهنم في ذلة تم الجميع ، وفي ضراعة تسوى هؤلاء بهؤلاء :

« وقال الذين في النار لحزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب » ..

إهم يستشفون حراس جهنم ، ليدعوا ربهم . في رجاء يكشف عن شدة البلاء : « ادعوا

## سورة غافر

ربكم يخفف عنا يوما من العذاب « .. يوما . يوما فقط . يوما يلقطون فيه أنفاسهم ويستريحون .  
فيوم واحد يستحق الشفاعة واللهفة والدعاء .

ولكن خزنة جهنم لا يستجيبون لهذه الضراعة البائسة الدليمة الملهوفة . فهم يعرفون  
الأصول . ويعرفون سنة الله ، ويعرفون أن الأوان قد فات . وهم لهذا يزيدون المذنبين عذابا  
بتأنيبهم وتذكيرهم بسبب هذا العذاب :

« قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ .. قالوا : بلى »

وفي السؤال وفي جوابه ما يغني عن كل حوار . وعندئذ تنفض الخزنة أيديهم منهم ، وأسلموهم  
إلى اليأس مع السخرية والاستهتار :

« قالوا : فادعوا » ..

إن كان الدعاء يغير من حالكم شيئا ، فتولوا أتم الدعاء :

وتعقب الآية قبل تمامها على هذا الدعاء :

« ومادعاء الكافرين إلا في ضلال » ..

لا يبلغ . ولا يصل . ولا ينتهي إلى جواب . إنما هو الإهمال والازدراء للكبراء والضعفاء سواء .

\* \* \*

عند هذا الموقف الحاسم يجيء التعقيب الأخير على الحلقة كلها ، وعلى ماتقدمها من الإشارة  
إلى الأحزاب التي تعرضت لبأس الله ، بعد التكذيب والاستكبار .

« إنا لننصر رسلكم والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين  
معدرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل  
الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب ، . فاصبر إن وعد الله حق . واستغفر لذنبك ، وسبح  
بمحمد ربك بالمشي والإبكار » ..

هذا التعقيب الجازم ، يناسب ذلك الموقف الحاسم . ولقد اطلعت منه البشرية على مثل من  
نهاية الحق والباطل . نهايتهما في هذه الأرض ونهايتهما كذلك في الآخرة . ورأت كيف كان  
مصير فرعون ومك في الحياة الدنيا ، كما رأوهم يتحاجون في النار ، ويتهون إلى إهمال وصغار .  
وذلك هو الشأن في كل قضية كما يقرر القرآن :

## الجزء الرابع والعشرون

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » ..

فأما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية . ولا يجد ما يدعوه إلى المجادلة . وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان .

إن وعد الله قاطع جازم : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا .. » .. بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يقتل ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبا مطرودا ، وأن المؤمنين فيهم من يسام العذاب ، وفيهم من يلقي في الأخدود ، وفيهم من يستشهد ، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد .. فأين وعد الله لهم بالنصر في الحياة الدنيا ؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل !

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور . وينفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير . إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان ، وحيز محدود من المكان . وهي مقاييس بشرية صغيرة . فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان ، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر ولا بين مكان ومكان . ولونظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيانها تنتصر من غير شك . وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها . فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها . وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها !

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم ، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى . وقد يتلبس بمصايب صور الهزيمة عند النظرة القصيرة . إبراهيم عليه السلام وهو يلقي في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها .. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة ؟ ما من شك - في منطق العقيدة - أنه كان في قمة النصر وهو يلقي في النار . كأنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة . وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة فهما قريب من قريب ! .. والحسين - رضوان الله عليه - وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب ، المفجعة من جانب ؟ أكانت هذه نصرا أم هزيمة ؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة . فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرا . فما من شيد في الأرض تهتز له الجوائح بالحب والعطف ، وتهفو له القلوب

## سورة غافر

٤

وتجيش بالغيرة والنفد، كالحسين رضوان الله عليه . يستوى في هذا التشيعون وغير المتشيعين .  
من المسلمين . وكثير من سائر المسلمين !

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام ، كما نصرها  
باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ، ويحفز الألوف إلى الأعمال  
الكبيرة ، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه ، فبقى حافظا محركا للأبناء والأحفاد .  
وربما كانت حافظا محركا لخطى التاريخ كله مدى أجيال ..

مالنصر ؟ وما الهزيمة ؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور .  
ومن القيم . قبل أن نسأل : أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا !

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة . ذلك حين تصل  
هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصر محمد - صلى الله عليه وسلم - في  
حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض . فهذه  
العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعا . من القلب المفرد  
إلى الدولة الحاكمة . فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته ، ليحقق هذه العقيدة  
في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهودة . ومن ثم  
اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة ، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة  
الحقيقية . وفق تقدير الله وترتيبه .

وهناك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك . إن وعد الله قائم لرسله وللذين آمنوا . ولا بد  
أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها . وحقيقة الإيمان كثيرا ما يتجاوز  
الناس فيها . وهي لا توجد إلا حين يغلو القلب من الشرك في كل صورته وأشكاله . وإن هنالك  
لأشكالا من الشرك خفية ؛ لا يخلص منها القلب إلا حين يتجه لله وحده ، ويتوكل عليه وحده ،  
ويطمئن إلى قضاء الله فيه ، وقدره عليه ، ويعس أن الله وحده هو الذي يصرفه فلا خيرة له  
إلا ما اختار الله . ويتلقى هذا بالطمأنينة والثقة والرضى والقبول . وحين يصل إلى هذه الدرجة  
فلن يقدم بين يدي الله ، ولن يقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير . فسيكل  
هذا كله لله . ويلتزم . ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير .. وذلك معنى من معاني النصر ..  
النصر على الذات والشهوات . وهو النصر الداخلي الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال  
من الأحوال .

« إنا لننصر رسنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار »

وقد رأينا في المشهد السابق كيف لا تنفع الظالمين معذرتهم . وكيف باءوا باللعنة وبسوء الدار .  
فأما صورة من صور النصر في قصة موسى فهو ذلك :

« ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى وذكرى لأولى الألباب .. »  
وكان هذا نموذجاً من نماذج نصر الله . إيتاء الكتاب والهدى . ووراثته الكتاب والهدى .  
وهذا النموذج الذي ضربه الله مثلاً في قصة موسى ، يكشف لنا رقعة فسيحة ، نرى فيها صورة خاصة من صور النصر تشير إلى الاتجاه .

وهنا يجيء الإيقاع الأخير في هذا المقطع ، توجيهها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
ومن كانوا معه من المؤمنين في مكة في موقف الشدة والمعاناة . ولكل من يأتي بعدهم من أمته ،  
ويواجهون مثل الموقف الذي كانوا فيه :

« فاصبر . إن وعد الله حق . واستغفر لذنوبك ، وسبح بحمد ربك ، بالعشي والإبكار .. »

الإيقاع الأخير .. الدعوة إلى الصبر .. الصبر على التكذيب . والصبر على الأذى . والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغبلة والسلطان في فترة من الزمان . والصبر على طبع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك . والصبر على النفس وميولها وقلقها وتظلمها ورغبتها في النصر القريب وما يتعلق به من رغائب وآمال . والصبر على أشياء كثيرة في الطريق قد تجيء من جانب الأصدقاء قبل أن تجيء من جانب الأعداء .

« فاصبر . إن وعد الله حق .. مهما يطل الأمد ، ومهما تمنقت الأمور ، ومهما تقلب الأسباب . إنه وعد من يملك التحقيق ، ومن وعد لأنه أراد .

وفي الطريق ، خذ زاد الطريق :

« واستغفر لذنوبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار .. »

هذا هو الزاد ، في طريق الصبر الطويل الشاق . استغفار للذنوب ، وتسبيح بحمد الرب .  
والاستغفار المصحوب بالتسبيح وشيك أن يجاب . وهو في ذاته تربية للنفس وإعداد . وتطهير

للقلب وزكاة . وهذه هي صورة النصر التي تتم في القلب ، فتعقبها الصورة الأخرى في واقع الحياة .  
واختيار العنى والإبكار . إما كناية عن الوقت كله - فهذان طرفاه - وإما لأنهما آتان  
يصفو فيهما القلب ، ويتسع المجال للتدبر والسياسة مع ذكر الله .  
هذا هو النهج الذي اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر وتهيئة الزاد . ولا بد لكل  
معركة من عدة ومن زاد ...

« إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ  
بِبَالِيغِهِ ، فَاستَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ نَخْلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ  
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ \* وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ،  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمَسِيءُ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ \* إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ  
لَا رَيْبَ فِيهَا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ \* وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ  
لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ  
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ \* ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ  
شَيْءٍ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُوْفِكُونَ ؟ \* كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ  
يَجْحَدُونَ .

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ  
صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ \*  
هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

« قُلْ : إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ  
مِنْ رَبِّي ، وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ

## الجزء الرابع والعشرون

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ، ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا ،  
وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ، وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى ، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* هُوَ الَّذِي  
يُنْحِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُضَرِّفُونَ ؟ \* الَّذِينَ كَذَّبُوا  
بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ \* إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ  
يُسْحَبُونَ \* فِي الْحَمِيمِ ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ \* ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ : أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ؟ \*  
مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالُوا : ضَلُّوا عَنَّا ، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا . كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ  
الْكَافِرِينَ \* ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَبِمَا كُنْتُمْ  
تَمْرَحُونَ \* أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ .

« فَاصْبِرْ إِنَّا وَعَدَدَ اللَّهِ حَقًّا . فَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّا

يُرْجَعُونَ » (۷۷)

هذا الشوط متصل تمام الاتصال بالشوط الذي قبله ، وهو استمرار للفقرة الأخيرة من  
الدرس الماضي . وتكلمة لتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصبر على التكذيب والإيذاء  
والصد عن الحق والتبجح بالباطل . فبعد هذا التوجيه يكشف عن علة المجادلة في آيات الله  
بغير حجة ولا برهان . إنه الكبر الذي يمنع أصحابه من التسليم بالحق وهم أصغر وأضال من  
هذا الكبر الذي يحك في الصدور .

ومن ثم يحىء التنبيه إلى عظمة هذا الكون الذي خلقه الله ، وصغر الناس جميعا بالقياس إلى  
السموات والأرض . ويمضى الدرس يعرض بعض الآيات الكونية . وفضل الله في تسخير  
بعضها للناس وهم أصغر منها وأضال . ويشير إلى فضل الله على الناس في ذوات أنفسهم . وهذه  
وتلك تشهد بوحدانية المبدع الذي يشركون به . ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى



الجهر بكلمة التوحيد والإعراض عما يعبدون من دون الله . وينتهي الشوط بمشهد عفيف من مشاهد القيامة يسألون فيه عما يشركون سؤال التبكيت والترذيل . ويختم كاختم الشوط للماضي . بتوجيه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر سواء أبقاه الله ليشهد بعض ما وعدهم ، أم توفاه إليه قبل مجيء وعد الله . فالأمر لله . وهم إليه راجعون على كل حال .

\*\*\*

« إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه . فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير . لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلا ما تذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » . إن هذا المخلوق الإنساني لينسى نفسه في أحيان كثيرة ، ينسى أنه كائن صغير ضعيف ، يستمد القوة لامن ذاته ، ولكن من اتصاله بمصدر القوة الأول . من الله . فيقطع اتصاله هذا ثم يروح يتنفخ ، ويورم ، ويتشامخ ، ويتعالى . يحيك في صدره الكبر . يستمد من الشيطان الذي هلك بهذا الكبر . ثم سلط على الإنسان فأتاه من قبله !

وإنه ليجادل في آيات الله ويكابر . وهي ظاهرة ناطقة معبرة للفطرة بلسان الفطرة . وهو يزعم لنفسه وللناس أنه إنما يناقش لأنه لم يقتنع ، ويجادل لأنه غير مستيقن . والله العليم بمبادئ السميع البصير المطلع على السرائر ، يقرر أنه الكبر . والكبر وحده . هو الذي يحيك في الصدر . وهو الذي يدعو صاحبه إلى الجدل فيما لا جدال فيه . الكبر والتطاول إلى ما هو أكبر من حقيقته . ومحاولة أخذ مكان ليس له ، ولا تؤهله له حقيقته . وليست له حجة يجادل بها ، ولا برهان يصدع به . إنما هو ذلك الكبر وحده :

« إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » .. ولو أدرك الإنسان حقيقته وحقيقة هذا الوجود . ولو عرف دوره فأثقفه ولم يحاول أن يتجاوز . ولو اطمأن إلى أنه كائن مما لا يحصى عدده من كائنات مسخرة بأمر خالق الوجود ، وفق تقديره الذي لا يطمئه إلا هو ، وأن دوره مقدر بحسب حقيقته في كيان هذا الوجود ..

## الجزء الرابع والعشرون

لو أدرك هذا كله لاطمأن واستراح ، ولتظامن كذلك وتواضع ، وعاش في سلام مع نفسه ومع الكون حوله . وفي استسلام لله وإسلام .

« فاستعد بالله إنه هو السميع البصير » ..

والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر توحى باستبشاعه واستفظاعه . فالإنسان إذا استعد بالله من الشيء الفظيع القبيح ، الذي يتوقع منه الشر والأذى .. وفي الكبر هذا كله . وهو يتعب صاحبه ويتعب الناس من حوله ؛ وهو يؤذى الصدر الذي يحيك فيه ويؤذى صدور الآخرين . فهو شر يستحق الاستعاذة بالله منه .. « إنه هو السميع البصير » .. الذي يسمع ويرى ، والكبر الذميمة يتمثل في حركة ترى وفي كلام يسمع . فهو بكل أمره إلى السميع البصير يتولاه بما يراه .

ثم يكشف للإنسان عن وضعه الحقيقي في هذا الكون الكبير . وعن ضآلته بالقياس إلى بعض خلق الله الذي يراه الناس ، ويدركون ضخامته بمجرد الرؤية ، ويزيدون شعورا به حين يعلمون حقيقته :

« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

والسماوات والأرض معروضتان للإنسان يراها ، ويستطيع أن يقيس نفسه إليهما . ولكنه حين « يعلم » حقيقة النسب والأبعاد وحقيقة الأحجام والقوى ، يظامن من كبريائه ، ويتصاغر ويتضاءل حتى ليكاد يذوب من الشعور بالضآلة . إلا أن يذكر العنصر العلوي الذي أودعه الله إياه ، والذي من أجله كرمه . فهو وحده الذي يمكك به أمام عظمة هذا الكون الهائل العظيم ..

ولمحة خاطفة عن السماوات والأرض تكفي لهذا الإدراك .

هذه الأرض التي نجما عليها تابع صغير من توابج الشمس تبلغ كتلتها ثلاثة من مليون من كتلة الشمس ، ويبلغ حجمها أقل من واحد من مليون من حجم الشمس .

وهذه الشمس واحدة من نحو مئة مليون من الشمس في المجرة القريبة منا ؛ والتي نحن منها . وقد كشف البشر - حتى اليوم - نحو مئة مليون من هذه المجرات المتناثرة في الفضاء الهائل من حولها تكاد تكون نأهة فيه !

## سورة غافر

والذي كشفه البشر جانب ضئيل صغير لا يكاد يذكر من بناء الكون ! وهو - على ضآلته - هائل شاسع يدير الرؤوس مجرد تصوره . فالمسافة بيننا وبين الشمس نحو من ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . ذلك أنها رأس أسرة كوكبنا الأرضي الصغير . بل هي - على الأرجح - أم هذه الأرض الصغيرة . ولم تبعد أرضنا عن أحضان أمها بأكثر من هذه المسافة : ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال !

أما المجرة التي تتبعها الشمس فقطرها نحو من مئة ألف مليون سنة . . . ضوئية . . . والسنة الضوئية تعني مسافة ست مئة مليون مليون ميل ! لأن سرعة الضوء هي ستة وثمانون ومئة ألف ميل في الثانية !

وأقرب المجرات الأخرى إلى مجرتنا تبعد عنا بنحو خمسين وسبعمئة ألف سنة ضوئية . . . ! ونذكر مرة أخرى أن هذه المسافات وهذه الأبعاد وهذه الأحجام هي التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها . وعلم البشر هذا يعترف أن ما كشفه قطاع صغير في هذا الكون العريض !

والله - سبحانه - يقول :

« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . . وليس على قدرة الله أكبر ولا أصغر . ولا أصعب ولا أيسر . فهو خالق كل شيء بكلمة . . . إنما هي الأشياء كما تبدو في طبيعتها ، وكما يعرفها الناس ويقدرونها . . . فأين الإنسان من هذا الكون الهائل ؟ وأين يبلغ به كبره من هذا الخلق الكبير ؟

« وما يستوى الأعمى والبصير » . . . « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء » . . . فالبصير يرى ويعلم ، ويعرف قدره وقيمته ، ولا يتطاول ، ولا ينتفخ ولا يتكبر لأنه يرى ويبصر . والأعمى لا يرى ولا يعرف مكانه ، ولا نسبته إلى ماحوله ، فيخطيء تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به ، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير . . . وكذلك لا يستوى الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء . إن أولئك أبصروا وعرفوا فهم يحسنون التقدير . وهذا عمى وجهل فهو يسىء . . . يسىء كل شيء . يسىء إلى نفسه ، ويسىء إلى الناس . ويسىء قبل كل شيء إدراك قيمته وقيمة ماحوله . ويخطيء في قياس نفسه إلى ماحوله . فهو أعمى . . . والعمى عمى القلوب !

« قليلاً ما تذكرون » . . .

ولو تذكرنا لعرفنا . فالأمر واضح قريب . لا يحتاج إلى أكثر من التذكر والتذكير ..  
 ثم لو تذكرنا الآخرة ، ووثقنا من مجيئها ، وتصورنا موقفا فيها ، واستحضرنا مشهدها بها :  
 « إن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » ..  
 ومن ثم فهم يجادلون ويستكبرون ، فلا يدعون للحق ، ولا يعرفون مكانهم الحق ، فلا يتجاوزوه .  
 والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه والتضرع إليه ، مما يشفي الصدور من الكبر الذي  
 تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان . والله - سبحانه - يفتح لنا  
 أبوابه لتوجه إليه وندعوه ، ويعلن لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ؛ وينذر  
 الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذلك وتكيس في النار :  
 « وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم . إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم  
 داخرين » ..

وللدعاء أدب لا بد أن يراعى . إنه إخلاص القلب لله . والثقة بالاستجابة مع عدم اقتراح  
 صورة معينة لها ، أو تخصيص وقت أو ظرف ، فهذا الاقتراح ليس من أدب السؤال . والاعتقاد  
 بأن التوجه للدعاء توفيق من الله ، والاستجابة فضل آخر . وقد كان عمر - رضى الله عنه -  
 يقول : « أنا لأحمل هم الإجابة إنما أحمل هم الدعاء . فإذا ألهمت الدعاء كانت الإجابة معه »  
 وهي كلمة القلب العارف ، الذي يدرك أن الله حين يقدر الاستجابة يقدر معها الدعاء . فهما -  
 حين يوفق الله - متوافقان متطابقان .

فأما الذين يستكبرون عن التوجه لله جزاؤهم الحق أن يوجهوا أذلاء صاغرين لجهنم !  
 وهذه نهاية الكبر الذي تنتفخ به قلوب وصدور في هذه الأرض الصغيرة ، وفي هذه  
 الحياة الرخيصة ، وتنسى ضخامة خلق الله . فضلا على نسيانها عظمة الله . ونسيانها للآخرة وهي  
 آتية لا ريب فيها . ونسيانها للموقف الدليل في الآخرة بعد النفخة والاستكبار .

\*\*\*

ولما ذكر الذين يستكبرون عن عبادة الله ، شرع يعرض بعض نعم الله على الناس ، تلك  
 النعم التي توحى بمظمنه تعالى والتي لا يشكرون الله عليها ، بل يستكبرون عن عبادته والتوجه إليه :  
 « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن الله لذو فضل على الناس ،  
 ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى

تؤفكون ؟ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمجدون . الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم . فتبارك الله رب العالمين . هو الحى ، لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ..

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك . وهى تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم ، ومع رزق الله لهم من الطيبات . . وتعرض كلها فى معرض نعم الله وفضله على الناس ، وفى معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله . فبدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والحلائق والمعانى ، وعلى وجود الصلة بينها ، ووجوب تدبرها فى محيطها الواسع ، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق .

إن بناء الكون على القاعدة التى بناه الله عليها ، ثم سيره وفق الناموس الذى قدره الله له ، هو الذى سمح بوجود الحياة فى هذه الأرض ونموها وارتقاؤها ، كما أنه هو الذى سمح بوجود الحياة الإنسانية فى شكلها الذى نعهده ، ووافق حاجات هذا الإنسان التى يتطلبها تكوينه وفطرته . وهو الذى جعل الليل مسكنا له وراحة واستجماما ، والنهار مبصرا معينا على الرؤية والحركة ، والأرض قرارا صالحا للحياة والنشاط ، والسماء بناء مئاسكا لا يتداعى ولا ينهار ، ولا تختل نسيبه وأبعاده—ولو اختلت لتعذر وجود الإنسان على هذه الأرض وربما وجود الحياة! وهو الذى سمح بأن تكون هناك طيبات من الرزق تنشأ من الأرض وتهبط من السماء فيستمتع بها هذا الإنسان ، الذى صوره الله فأحسن صورته ، وأودعه الخصائص والاستعدادات المتسقة مع هذا الكون ، الصالحة للظروف التى يعيش فيها مرتبطا بهذا الوجود الكبير . .

فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة كما ترى ؛ ومن ثم يذكرها القرآن فى مكان واحد ، بهذا الترابط . ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق . ويوجهه فى ظلها القلب البشرى إلى دعوة الله وحده ، مخلصا له الدين ، هاتفا : الحمد لله رب العالمين . ويقرر أن الذى يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذى يليق أن يكون إلها . وهو الله . رب العالمين . فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح البين ؟

ونذكر هنا لمحات خاطفة تشير إلى بعض نواحي الارتباط فى تصميم هذا الكون وعلاقته بحياة الإنسان . مجرد لمحات تشير مع اتجاه هذه الإشارة الجملة فى كتاب الله . .

« لو كانت الأرض لاتدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ما تعاقب الليل والنهار .

« لو دارت الأرض حول نفسها أسرع مما تدور لتنازلت المنازل ، وتفككت الأرض ، وتنازلت هي الأخرى في الفضاء . . . »

« لو دارت الأرض حول نفسها أبطأ مما تدور لهلك الناس من حر ومن برد . وسرعة دوران الأرض حول نفسها ، هذه السرعة القائمة الكائنة اليوم ، هي سرعة توافق ما على الأرض من حياة حيوانية نباتية بأوسع معانيها . »

« لولا دوران الأرض حول نفسها لفرغت البحار والمحيطات من مائها . »

« ماذا يحدث لو استقام محور الأرض ، وجرت الأرض في مدارها حول الشمس في دائرة ، الشمس مركزها ؟ إذن لاخفت الفصول ، ولم يدر الناس ما صيف وما شتاء ، وما ربيع وما خريف (١) »

« لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي بمقدار بضعة أقدام ، لامتص ثاني أكسيد الكربون الأوكسجين . ولما أمكن وجود حياة النبات . »

« ولو كان الهواء أرفع كثيرا مما هو فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجى كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية ، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلا في الثانية . وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق . ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ، ولكانت العاقبة مروعة . أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إربا من مجرد حرارة مروره . »

« لو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠ في المئة مثلا أو أكثر في الهواء بدلا من ٢١ في المئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال . لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر . ولو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠ في المئة أو أقل فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور . ولكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان - كالنار مثلا - تتوافر له (٢) »

(١) عن كتاب « مع الله . في السماء » للدكتور أحمد زكي .

(٢) من كتاب « العلم يدعو للإيمان » ترجمة محمود صالح الفلكي .

## سورة غافر

وهناك آلاف المواقفات في تصميم هذا الكون لو اختلف واحد منها أدنى اختلاف ما كانت الحياة في صورتها هذه التي نعرفها ، مواقفة هكذا لحياة الإنسان .

فأما الإنسان ذاته فمن حسن صورته هذه الهيئة المنفردة بين سائر الأحياء؛ وهذا الا كتمال من ناحية الأجهزة لأداء وظائفه جميعها في يسر ودقة ؛ وهذا التوافق بين تكوينه والظروف الكونية العامة التي تسمح له بالوجود والحركة في هذا الوسط الكوني كما هو كائن. وذلك كله فوق خاصيته الكبرى التي جعلت منه خليفة في الأرض ، مجهزة بأداة الخلافة الأولى : العقل والاتصال الروحي بما وراء الأشكال والأعراض .

ولو رحنا نبحث دقة التكوين الإنساني وتناسق أجزائه ووظائفه - بوصفها داخلية في قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » - لوقفنا أمام كل عضو صغير ، بل أمام كل خلية مفردة ، في هذا الكيان الدقيق العجيب .

ونضرب مثلاً لهذه الدقة العجيبة فك الإنسان ووضع الأسنان فيه من الناحية الآلية البحتة . إن هذا الفك من الدقة بحيث إن بروز واحد على عشرة من المليمتر في اللثة أو في اللسان ، يزحم اللثة واللسان ؛ وبروز مثل هذا الحجم في ضرس أو سن يجعله يصطك بما يقابله ويحتك ! ووجود ورقة كورقة السجارة بين الفكين العلوي والسفلي يجعلها تتأثر بضغط الفكين عليها فتظهر فيها علامات الضغط لأنها من الدقة بحيث يلتقيان تماماً ليضع الفك ويطحن ما هو في سمك ورقة السجارة !

ثم . . . إن هذا الإنسان بتكوينه هذا مجهزة ليمش في هذا الكون . . . عينه هذه مقيسة على الذبذبات الضوئية التي تقتضى وظيفته في الأرض أن يراها . وأذنه تلك مقيسة على الذبذبات الصوتية التي تقتضى وظيفته في الأرض أن يسمها . وكل حاسة فيه أو جراحة مصممة وفق الوسط المهيأ لحياته ، ومجهزة كذلك بالمقدرة على التكيف المحدود عند تغير بعض الظروف . إنه مخلوق لهذا الوسط . يعيش فيه ، ويتأثر به ، ويؤثر فيه . وهناك ارتباط وثيق بين تصميم هذا الوسط وتكوين هذا الإنسان . وتصوير الإنسان على هذه الصورة ذو علاقة بوسطه . أى بالأرض والسماء . ومن ثم يذكر القرآن صورته في نفس الآية التي يذكر فيها الأرض والسماء . إلا إنه الإعجاز في هذا القرآن . . .

## الجزء الرابع والعشرون

وتكفي هذه الإشارات بهذا الاختصار إلى دقة صنع الله وتناسقه بين الكون والإنسان .  
وتقف وقفات سريعة أمام النصوص القرآنية :

« الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا » . . .

إن السكون بالليل ضرورة لكل حي . ولا بد من فترة من الظلام تسكن فيه الخلايا الحية وتستكن لتراول نشاطها في النور . ولا يكفي مجرد النوم لتوفير هذا السكون . بل لا بد من ليل . لا بد من ظلام . فالخلية الحية التي تتعرض لضوء مستمر تصل إلى حد من الإجهاد تلف معه أنسجتها لأنها لم تتح بقسط ضروري لها من السكون .

« والنهار مبصرا » . . . والتعبير على هذا النحو تعبير مصور مشخص . وكأنما النهار حي يبصر ويرى . وإنما الناس هم الذين يبصرون فيه . لأن هذه هي الصفة الغالبة . . .

وتقلب الليل والنهار على هذا النحو نعمة في طيها نعم . ولو كان أحدهما سرمدا . بل لو كان أطول مما هو مرات معدودة لانعدمت الحياة . فلا عجب أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر الفضل الذي لا يشكره أكثر الناس :

« إن الله لندو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون » . . .

ويعقب على هاتين الظاهرتين الكونيتين ، بأن الذي خلقهما هو الذي يكون إلهما يستحق هذا الاسم العظيم :

« ذكركم الله ربكم خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ؟ » . . .

وإنه لعجيب يستحق التعجب أن يرى الناس يد الله في كل شيء ، ويعلموا أنه الخالق لكل شيء . معرفة حتمية مفروضة على العقل فرضا بحكم وجود الأشياء ، واستحالة ادعاء أحد أنها من خلقه ، وعدم اتقاة القول بأنها وجدت من غير موجد . عجيب يستحق التعجب أن يكون هذا كاه ، ثم يهرف الناس عن الإيمان والإقرار . . . « فأنى تؤفكون ؟ » . . .

ولكنه هكذا يصرف ناس عن هذا الحق الواضح . هكذا كما يقع من المخاطبين الأولين بالقرآن . كذلك كان في كل زمان ؛ بلا سبب ولا حجة ولا برهان :

« كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يمجحون » . . .

وينتقل من ظاهرتي الليل والنهار، إلى تصميم الأرض لتكون قرارا، والسما تكون بناء:  
« الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسما بناء » . . .



## سورة غافر

والأرض قرار صالح لحياة الإنسان بتلك المواقفات الكثيرة التي أشرنا إلى بعضها إجمالاً .  
والسما بناء ثابت النسب والأبعاد والحركات والدورات ومن ثم تضمن الاستقرار والثبات لحياة  
هذا الإنسان ، المحسوب حسابها في تصميم هذا الوجود، القدرة في بنائه تقديراً . . .  
ويربط بتكوين السماء والأرض تكوين الإنسان ورزقه من الطيات على النحو الذي  
أشرنا إلى بعض أسرارها :

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيات » . . .

ويعقب على هذه الآيات والمهبات كما عقب على الأولى :

« ذلكم الله ربكم . فبارك الله رب العالمين » . . .

ذلكم الذي يخلق ويقدر ويدبر ، ويراعىكم ويقدر لكم مكاناً في ملكه . . . ذلكم الله ربكم .  
« فبارك الله » . . . وعظمت بركته وتضاعفت . « رب العالمين » . . . أجمعين .

« هو الحى » . . .

أجل . هو وحده الحى . الحى حياة ذاتية غير مكسوبة ولا مخلوقة . وغير مبتدئة ولا منتهية .  
وعير حائلة ولا زائلة . وعير متقلبة ولا متغيرة . وما من شيء له هذه الصفة من الحياة .  
سبحانه هو المتفرد بالحياة .

وهو المتفرد بالألوهية . بما أنه المتفرد بالحياة . فالحى الواحد هو الله :

« لا إله إلا هو »

ومن ثم . . . « فادعوه مخلصين له الدين » . . . واحمدوه في الدعاء : « الحمد لله  
رب العالمين » . . .

\*\*\*

وأمام هذه الآيات والمهبات ، وماتلاها من تقييات ، وفي أشد اللحظات امتلاء بحقيقة  
الوحدانية ، وحقيقة الألوهية . وحقيقة الربوبية . يحىء التلقين لرسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - ليعلن للقوم أنه منى عن عبادة ما يدعون من دون الله ، بأمور بالإسلام لله رب العالمين :  
« قل : إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لما جاءني اليينات من ربي ، وأمرت  
أن أسلم لرب العالمين » . . .

## الجزء الرابع والعشرون

أعلن لهؤلاء الذين يصرفون عن آيات الله ويحسدون هباته ، أنك نهيت عن عبادة ما يدعون من دون الله . وقل لهم : إنني نهيت وانتهيت « لما جاءني البينات من ربي » فعندى بينة ، وأنا بها مؤمن ، ومن حق هذه البينة أن أقنع بها وأصدق ، ثم أعلن كلمة الحق . . . ومع الانتهاء عن عبادة غير الله - وهو سلب - الإسلام لرب العالمين - وهو إيجاب - ومن الشقين تكامل العقيدة .

ثم يستعرض آية من آيات الله في أنفسهم بعد ما استعرض آياته في الآفاق . هي آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة ؛ وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدي الله :

« هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعلمون . هو الذي يحيي ويميت ، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن . فيكون » . . .

وهذه النشأة الإنسانية فيها ما لم يدركه علم الإنسان ، لأنه كان قبل وجود الإنسان . وفيها ما يشاهده ويراقبه . ولكن هذا إنما تم حديثا بعد نزول هذا القرآن بقرون ا

تخلق الإنسان من تراب حقيقة سابقة على وجود الإنسان . والتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض . ومنها الحياة الإنسانية . ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الحارقة ، ولا كيف تم هذا الحادث الضخم في تاريخ الأرض وتاريخ الحياة . وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق الزواج فيتم عن طريق التقاء خلية الذكر وهي النطفة بالبويضة ، واتحادهما ، واستقرارهما في الرحم في صورة علقة . . . وفي نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى في طبيعة الخلية الأولى ، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من الأطوار التي يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهي أجله ، والتي يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة : مرحلة الطفولة . ثم بلوغ الأشد حوالي الثلاثين . ثم الشيخوخة . وهي المراحل التي تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف . « ومنكم من يتوفى من قبل » أن يبلغ هذه المراحل جميعا أو بعضها . « ولتبلغوا أجلا مسمى » مقدر معلوما لا تتأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون . « ولعلكم تعلمون » . . . فتابعة رحلة الجنين . ورحلة الوليد . وتدبر ما تشيران إليه من حسن الخلق والتقدير ، مما للعقل فيه دور كبير . . .

## تمسرة غافر

ورحلة الجنين رحلة عجيبة ممتعة حقا . وقد عرفنا الكثير عنها بعد تقدم الطب وعلم الأجنة بشكل خاص . ولكن إشارة القرآن إليها بهذه الدقة منذ حوالي أربعة عشر قرنا أمر يستوقف النظر . ولا يمكن أن يمر عليه عاقل دون أن يقف أمامه يتدبره ويفكر فيه .

ورحلة الجنين ورحلة الطفل ككتاهما توقع على الحس البشرى وتلمس القلب الإنساني في أي بيئة وفي أي مرحلة من مراحل الرشد العقلي . وكل جيل يحس لهذه اللمسة وقمها على طريقته وحسب معلوماته . فيخاطب القرآن بها جميع أجيال البشر . . . فيحسون . . . ثم يستجيبون أو لا يستجيبون !

وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة . وحقيقة الخلق والإنشاء جميعا :

« هو الذي يحي ويميت . فإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن : فيكون » . .

وتكثر الإشارة في القرآن إلى آيتي الحياة والموت . لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق . ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل مايقع عليه حسن الإنسان . وللإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول مرة . فالحياة ألوان . والموت ألوان . وإن رؤية الأرض الميتة . ثم رؤيتها تنبض بالحياة . ورؤية الشجرة الجافة الأوراق والأغصان في موسم ، ثم رؤيتها والحياة تنبثق منها في كل موضع ، وتحضر وتورق وتزهر ، كما لو كانت الحياة تفجر منها وتفيض . ورؤية البيضة . . ثم الفرخ . ورؤية البذرة ثم النبتة . . وعكس هذه الرحلة . . من الحياة إلى الموت ، كالرحلة من الموت إلى الحياة . . كلها تلمس القلب وتستجيشه إلى قدر من التأثير والتدبر يختلف باختلاف النفوس والحالات .

ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع . وإن هي إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق . خلق أي شيء . في كلمة « كن » . . فإذا الوجود ينبثق على إثرها « فيكون » فتبارك الله أحسن الخالقين . .

\* \* \*

وأمام نشأة الحياة البشرية . وفي ظل مشهد الحياة والموت . وحقيقة الإنشاء والإبداع . . يبدو الجدل في آيات الله مستغربا مستكرا ؛ ويبدو التكذيب بالرسل عجيبا نكبرا . ومن ثم يواجهه بالتهديد الخيف في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة :

« ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ؟ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون . إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في اللحم ثم في النار يسجرون . ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا . كذلك يضل الله الكافرين . ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفرحون . ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها . فبئس مثوى المتكبرين .. »  
إنه التعجب من أمر الذين يجادلون في آيات الله ، في ظل استعراض هذه الآيات . مقدمة لبيان ما ينتظرهم هناك !

« ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ؟ .. »

« الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا .. »

وهم كذبوا كتابا واحدا . ورسولا واحدا . ولكنهم إنما يكذبون بهذا كل ما جاء به الرسل . فهي عقيدة واحدة ، تتمثل في أكمل صورها في الرسالة الأخيرة . ومن ثم فهم كذبوا بكل رسالة وبكل رسول . كل مكذب في القديم والحديث صنع هذا حين كذب رسوله الذي جاءه بالحق الواحد وبعقيدة التوحيد .

« فسوف يعلمون .. »

ثم يعرض ماذا سوف يعلمون ..

إنها الإهانة والتحقير في العذاب . لا مجرد العذاب . « إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون .. » بهذه المهانة كما تسحب الأنعام والوحوش ! وعلام التكريم ؟ وقد خلعوا عن أنفسهم شارة التكريم !

وبعد السحب والجر في هذا العذاب وفي هذه المهانة، ينتهي بهم المطاف إلى ماء حار وإلى نار : « في اللحم ثم في النار يسجرون .. »

أى يربطون ويحبسون ، على طريقة سجر الكلاب . أى يعلأ لهم المكان ماء حارا ونارا موقاة . وإلى هذا ينتهون .

وبيناهم في هذا العذاب المهين يوجه إليهم التبكيت والترذيل والإحراج والإغناء :

« ثم قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ .. »

فيجيئون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته، وهو يأس حسير .

« قالوا : ضلوا عنا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئا » . .

غابوا عنا فلم نعد نعرف لهم طريقا ، وما عادوا يعرفون لنا طريقا . بل لم نكن ندعو من قبل شيئا . فقد كانت كلها أوهاما وأضاليل !

وعلى إثر الجواب البأس يجي ، التعقيب العام :

« كذلك يضل الله الكافرين » . .

ثم يوجه إليهم التأنيب الأخير :

« ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون . ادخلوا أبواب

جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » . .

بيث ! وأين إذن كان السحب في السلاسل والأغلال ، وكان الماء الحار والنار ؟ يبدو أنها

كانت ، مدمة للدخول في جهنم للخلود . . « فبئس مثوى المتكبرين » . . فمن الكبر نشأت

هذه المهانة . وجزاء على الكبر كان هذا التحقير !

\*\*\*

وأمام هذا المشهد . مشهد الذل والمهانة والعذاب الرعب . وعاقبة الجدل في آيات الله ،

والكبر النافخ في الصدور . . أمام هذا المشهد وهذه العاقبة يتجه السياق إلى رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر ومن جدال ، والثقة بوعد الله الحق على كل

حال . سواء أراه الله بعض الذي يعدم في حياته ، أو قبضه إليه وتولى الأمر عنه . فالقضية

كلها راجعة إلى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، وهم إليه راجعون :

« فاصبر إن وعد الله حق . فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون » . .

وهنا نقف أمام لفظة تستحق التدبر العميق . إن هذا الرسول الذي يلاقى ما يلاقى من

الأذى والتكذيب والكبر والكنود ، يقال له مامفهومه : أد واجبك وقف عنده . فأما النتائج

فليست من أمرك . حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين

ليس له أن يعلق به قلبه ، إنه يعمل وكفى . يؤدي واجبه ويعضى . فالأمر ليس أمره . والقضية

ليست قضيته . إن الأمر كله لله . والله يفعل به ما يريد .

يا الله ! يا المرتقى العالى . وباللأدب الكامل . الذى يأخذ الله به أصحاب هذه الدعوة . فى

شخص رسوله الكريم .

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية . أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشري العنيفة .  
أله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر في هذا الموضع من السورة . فلم يكن هذا تكراراً  
للأمر الذي سبق فيها . إنما كان توجيهاً إلى صبر من لون جديد . ربما كان أشق من الصبر على  
الإيذاء والكبر والتكذيب ؟ !

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة في أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته ،  
بينما يقع عليها العدا والخصومة من أولئك الأعداء ، أمر شديد على النفس صعب . ولكنه الأدب  
الإلهي العالی ، والإعداد الإلهي لأصفيائه المختارين ، وتخليص النفس المختارة من كل شيء لها  
فيه أرب ، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين !

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغي أن توجه قلوب الدعاة إلى الله في كل حين . فهذا هو حزام  
النجاة في خضم الرغائب ، التي تبدو بريئة في أول الأمر ، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك  
وبعوم !

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ  
عَلَيْكَ . وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ ،  
وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ »

« اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا  
مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ، وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ \* وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ  
فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ؟ »

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا  
أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* فَلَمَّا  
جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ  
يَسْتَكْبِرُونَ »

يَسْتَهْزِئُونَ \* فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهٗ ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ \*  
فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا - سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ - وَخَسِرَ  
هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٥٠﴾

هذا الشوط استكمال للتعقيب في آخر الدرس الماضي . استكمال لتوجيه الرسول - صلى  
الله عليه وسلم - والمؤمنين إلى الصبر ، حتى يأذن الله ، ويتحقق وعده ووعدته ، سواء تحقق  
هذا في حياته - صلى الله عليه وسلم - أم استأخر بعد وفاته . فالأمر ليس أمره ، إنما هو أمر  
هذه العقيدة والمؤمنين بها والمجادلين فيها ، المستكبرين عنها . والحكم في هذا الأمر هو الله .  
وهو الذي يقود حركتها وبوجه خطواتها كما يشاء .

فأما هذا الشوط الجديد - الذي تختم به السورة - فيستطرد في عرص جوانب أخرى من  
هذه الحقيقة . . .

إن قصة هذا الأمر قصة طويلة وقديعة ، ولم تبدأ برسالة الإسلام ورسوله - عليه الصلاة  
والسلام - قبله كانت رسل . قص الله بعضهم عليه وبمضهم لم يقصصهم عليه . وكلهم ووجهوا  
بالتكذيب والاستكبار . وكلهم طولب بالآيات والحواري . وكلهم نعى لو يأتي الله بخارقة  
يدعن لها المكذبون . ولكن ما من آية إلا يأذن الله ، في الوقت الذي يريد الله . فهي دعوته ،  
وهو يصرها كيف يشاء .

على أن آيات الله مبثوثة في الكون ، معروضة للأُنظار في كل زمان ومكان . يتحدث منها  
هنا عن الأنعام ، والفلك ، ويشير إشارة عامة إلى سائرها الذي لا يملك إنكاره أحد .

ويختم السورة بلمسة قوية عن مصارع الغابرين ، الذين وقفوا موقف المكذبين ، وغرهم ما كانوا  
فيه من القوة والعمارة والعلم . ثم أدركتهم سنة الله : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ،  
سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون » .

وبهذا الإيقاع تختم السورة التي دارت كلها على المعركة بين الحق والباطل ، والإيمان  
والكفر ، والصلاح والطغيان حتى ختمت هذا الختام الأخير . . .

\*\*\*

## الجزء الرابع والعشرون

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ، ومنهم من لم نقصص عليك : وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، فإذا جاء أمر الله قضي بالحق ، وخسر هنالك المبطلون » ..  
 إن لهذا الأمر سوابق كثيرة ، قص الله على رسوله بعضها في هذا الكتاب ، وبعضها لم يقصه . وفيما قصه من أمر الرسل ما يشير إلى الطريق الطويل الواصل الواضح المعالم ؛ وما يقرر السنة الماضية الجارية التي لا تتخلف ؛ وما يوضح حقيقة الرسالة ووظيفة الرسل وحدودها أدق إيضاح .

وتؤكد الآية حقيقة تحتاج إلى توكيدها في النفس ؛ وتسكى عليها تقررها تقريرا شديدا :  
 « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » ..

فالنفس البشرية - ولو كانت نفس رسول - تمنى وترغب أن تستعلى الدعوة وأن يدعن لها المكابرون سريعا . فتطلع إلى ظهور الآية الحارقة التي تقهر كل مكابرة . ولكن الله يريد أن يلوذ عباده المختارون بالصبر المطلق ؛ ويروضوا أنفسهم عليه ؛ فيبين لهم أن ليس لهم من الأمر شيء ، وأن وظيفتهم تنتهي عند حد البلاغ ، وأن مجيء الآية هو الذي يتولاه حينما يريد لتطمئن قلوبهم وتهدأ وتستقر ؛ ويرضوا بكل ما يتم على أيديهم ويدعوا الأمر كله بعد ذلك لله . ويريد كذلك أن يدرك الناس طبيعة الألوهية وطبيعة النبوة ، ويعرفوا أن الرسل بشر منهم ، اختارهم الله ، وحدد لهم وظيفتهم ، ومأمم بقادرين ولا محاولين أن يتجاوزا حدود هذه الوظيفة .

كذلك يعلم الناس أن تأخير الآيات رحمة بهم ؛ فقد قضى في تقديره بأن يدمر على المكذابين بعد ظهور الآيات . وإذن فهي مهلة ، وهي من الله رحمة :

« فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون » ..

ولم يعد هناك مجال لعمل ولا لتوبة ولا لرجعة بعد قضاء الله الأخير

\*\*\*

ثم يوجه طلاب الخوارق إلى آيات الله الحاضرة التي ينسون وجودها بطول الألفة . وهي لو تدبروها بعض هذه الخوارق التي يطلبون ؛ وهي شاهدة كذلك بالألوهية ؛ لبطان أي ادعاء بأن أحدا غير الله خلقها ، وأي ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مرید :



« الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ، وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون . ويرىكم آياته ، فأى آيات الله تكفرون ؟ » . . .

وخلق هذه الأنعام ابتداء آية خارقة كخلق الإنسان . فبث الحياة فيها وتركيبها وتصويرها كلها خوارق ، لا يتناول الإنسان إلى ادعائها ! وتذليل هذه الأنعام وتسخيرها للإنسان ، وفيها ما هو أضخم منه جباً وأشد منه قوة ، وهو جعلها : « الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . . . » . وهذه لا يستحق الاحترام أن يقول قائل : إنها هكذا وجدت والسلام ! وإنما ليست خارقة معجزة بالقياس إلى الإنسان ! وإنما لا تدل على الخالق الذي أنشأها وسخرها بما أودعها من خصائص وأودع الإنسان ! ومنطق الفطرة يقر بغير هذا الجدل والمراء :

ويذكرهم بما في هذه الآيات الخوارق من نعم كبار :

« لتركبوا منها ، ومنها تأكلون . وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم . وعليها وعلى الفلك تحملون » . . .

والحاجات التي كانت في الصدور والتي كانوا يبلغونها على الأنعام هي حاجات ضخمة في ذلك الزمان . قبل نشوء كل وسائل النقل والسفر والاتصال إلا على هذه الأنعام . وما زال هناك حاجات تبلغ على هذه الأنعام حتى اليوم وغد . وهناك حتى اللحظة أسفار في بعض الجبال لا تبلغها إلا الأنعام مع وجود القطار والسيارة والطيارة ، لأنها مجازات ضيقة لا تتسع لغير أقدام الأنعام !

« وعليها وعلى الفلك تحملون » . . .

وهذه كذلك آية من آيات الله . ونعمة من نعمه على الإنسان . وسير الفلك على الماء قائم على نواميس ومواقفات في تصميم هذا الكون : سمائه وأرضه . يابس ومائه . وفي طبيعة أشيائه وعناصره . لا بد أن توجد حتى يمكن أن يسير الفلك على الماء . سواء سار بالشراع أم بالبخار أم بالذرة ، أم بغيرها من القوى التي أودعها الله هذا الكون ، ويسر استخدامها للإنسان . . . ومن ثم تذكر في معرض آيات الله ، وفي معرض نعمه على السواء .

وكم هنالك من آيات من هذا النوع الحاضر المتناثر في الكون ، لا يملك إنسان أن ينكره

وهو جاد :

## الجزء الرابع والعشرون

« ويريكم آياته . فأى آيات الله تكفرون ؟ »

نعم إن هنالك من ينكر . وهنالك من يجادل في آيات الله . وهنالك من يجادل بالباطل ليدحض به الحق . ولكن أحدا من هؤلاء لا يجادل إلا عن التواء ، أو غرض ، أو كبر ، أو مغالطة ، لغاية أخرى غير الحقيقة .

هنالك من يجادل لأنه طاغية كفرعون وأمثاله ، يخشى على ملكه ، ويخشى على عرشه ، لأن هذا العرش يقوم على أساطير يذهب بها الحق ، الذي يثبت بثبوت حقيقة الألوهية الواحدة ! وهنالك من يجادل لأنه صاحب مذهب في الحكم كالشيعية يتحطم إذا ثبتت حقيقة العقيدة السماوية في نفوس البشر . لأنه يريد أن يلصق الناس بالأرض ؛ وأن يعلق قلوبهم بمعداتهم وشهوات أجسادهم ؛ وأن يفرغها من عبادة الله لتعبد المذهب أو تعبد الزعيم !

وهنالك من يجادل لأنه ابتلى بسيطرة رجال الدين - كما وقع في تاريخ الكنيسة في العصور الوسطى - ومن ثم فهو يريد الخلاص من هذه السيطرة . فيشتط فيرد على الكنيسة إلهيا ، الذي تستعبد باسمه الناس !

وهنالك أسباب وأسباب . . غير أن منطق الفطرة ينفر من هذا الجدل ، ويقر بالحقيقة الثابتة في ضمير الوجود ؛ والتي تنطق بها آيات الله بعد كل جدال !

\* \* \*

وفي الختام يحىء ذلك الإيقاع القوي الأخير :

« أفلم يسيروا في الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا . سنة الله التي قد خلت في عباده . وخسر هنالك الكافرون . . »

ومصارع الغابرين كثيرة في تاريخ البشرية ؛ وبعضها مازال له آثار تحكي قصته ؛ وبعضها حفظته الروايات على الألسنة ، أو حفظته الأوراق والكتب . والقرآن كثيرا ما يوجه القلوب إليها ، لما فيها من دلالة على حقائق ثابتة في خط سير البشرية ؛ ولما لها كذلك من أثر في النفس

## سورة غافر

الإنسانية عميق عنيف . والقرآن يخاطب الفطرة بما يعلمه منزل هذا القرآن من حقيقة الفطرة،  
ومسارها ومداخلها ، وأبوابها التي تطرق ففتح ، بعضها بعد نقرة خفيفة وبعضها بعد طرقات  
كثيرة إن كان قد ران عليها الركام !

وهنا يسألهم وينشطهم للسير في الأرض ، بعين مفتوحة ، وحس متوفز ، وقلب بصير .  
لينظروا ويتدبروا ما كان في الأرض قبلهم ؛ وما يتعرضون هم لجريانه عليهم :

« أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ » . . .

وقبل أن يذكر كيف كان هذه العاقبة ، يصف حال الذين من قبلهم ، ويقرن إليها حالهم  
هم لثم الموازنة ، وتم العبرة :

« كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة وآثارا في الأرض » . . .

توافرت لهم الكثرة والقوة وال عمران . ومن هؤلاء أجيال وأم كانت قبل العرب ، قص  
الله على رسوله بعضها ، ولم يقصص عليه بعضها . ومنهم من كان العرب يعرفون قصته ويمرون  
بآثاره . . .

« فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون » . . .

ولم تعصمهم قوة ولا كثرة ولا عمارة ، مما كانوا يعتزون به ويعتزون . بل كان هذا هو أصل  
شقايتهم ، وسبب هلاكهم :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » . . .

والعلم - بغير إيمان - فتنة . فتنة تعنى وتطفى . ذلك أن هذا اللون من العلم الظاهري  
يوحى بالغرور ، إذ يحسب صاحبه أنه يتحكم بعلمه هذا في قوى ضخمة ، ويملك مقدرات عظيمة،  
فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها ، وينسى الآماد الهائلة التي يجهلها . وهي موجودة في هذا الكون؛  
ولاسلطان له عليها . بل لإحاطة له بها . بل لا معرفة له بغير أطرافها القريبة . وبذلك ينتفخ  
فيأخذ أكثر من حقيقته . ويستخفه علمه وينسى جهله . ولوقاس ما يعلم إلى ما يجهل . وما يقدر  
عليه في هذا الكون إلى ما يجز حق عن إدراك سره لطامن من كبريائه ، وخفف من فرحه  
الذي يستخفه .

وهؤلاء فرحوا بما عندهم من العلم . واستهزأوا بمن يذكرهم بما وراءه :

« وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » . . .

فلما عاينوا بأس الله ، سقط عنهم القناع ، وأدركوا مدى الغرور ، واعترفوا بما كانوا ينكرون ، وأقروا بوحداية الله ، وكفروا بشركائهم من دونه . ولكن الأوان كان قد فات :  
« فلما رأوا بأسنا قالوا : آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » . .

ذلك أن سنة الله قد جرت على أن لا تقبل التوبة بعد ظهور بأس الله : فهي توبة الفزع  
لاتوبة الإيمان :

« سنة الله التي قد خلت في عباده » . .

وسنة الله ثابتة لا تضطرب ولا تختلف ولا تحيد عن الطريق .

« وخسر هنالك الكافرون » .

\*\*\*

وعلى هذا الشهد العنيف . مشهد بأس الله يأخذ المكذبين . ومشهدهم يستغيثون ويفزعون ،  
ويعلمون كلمة الإذعان والتسليم . تختم السورة . فيتناسق هذا الحتام مع جوها وظلها  
وموضوعها الأصيل .

ولقد مررنا في ثنايا السورة بقضايا العقيدة التي تعالجها السور المكية : قضية التوحيد ،  
وقضية البعث ، وقضية البوحى . . ولكنها لم تكن هي موضوع السورة البارز . إنما كانت  
المركبة بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والظلم ، هي البارزة ، وكانت  
ملامح المركبة هي التي ترسم « شخصية السورة » . . وصماتها المميزة لها بين سور القرآن . . .

## سُورَةٌ فَضَّلَتْ وَأَيَّاسُهَا ٥٤

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حَمَّ ١ ) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* كِتَابٌ فَضَّلْتَ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ \* بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ \* وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ، فَأَعْمَلْنَا عَامِلُونَ \* قُلْ : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ، فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ \* الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

« قُلْ : أَإِنكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيُنسَأَ لِيَوْمَئِذٍ شَاءَ \* ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ : أُنْبِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ \* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ، وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ \* إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، قَالُوا : لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ

مَلَائِكَةً ، فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ \* فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَقَالُوا : مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ؟ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ \* وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ، فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ \* وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ \* وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ \* فَإِنْ يَصْهَرُوا فَالنَّارُ مَنُورَىٰ لَهُمْ ، وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ .

« وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُمْ فَرَيْنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ \* فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ \* ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْآخِلَةِ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُم تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ .

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا . وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ \* نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ \* نَزَّلَا  
مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ : إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ \*  
وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أُدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ  
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ \* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ  
عَظِيمٍ \* وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » ٢١٦ .

قضية العقيدة بحقائقها الأساسية هي التي تعالجها هذه السورة . الألوهية الواحدة . والحياة  
الآخرة . والوحي بالرسالة . يضاف إليها طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما في السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها . وعرض آيات الله في الأنفس  
والآفاق ، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع الكذابين في الأجيال السابقة ، وعرض  
لمشاهد الكذابين يوم القيامة . ويبان أن الكذابين من الجن والإنس هم وخدمهم الذين لا يسلّمون  
بهذه الحقائق ولا يستسلمون لله وحده ؛ بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم  
يسجدون لله ويخشعون ويسلمون ويستسلمون .

فمن حقيقة الألوهية الواحدة يرد في مطلع السورة : « قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحي إلي  
إنما إليكم الإله الواحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين » .. و : « قل إنكم لتكفرون .  
بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك رب العالمين » .. ويعكس عن عاد وثمود  
أن رسلهم قالت لهم هذه الحقيقة ذاتها : « ألا تعبدوا إلا الله » .. وفي وسطها يرد : « لا تسجدوا  
للشمس وللأرض ، واسجدوا لله الذي خلقهن » .. وفي نهايتها يرد عن الحقيقة ذاتها : « ويوم  
يناديهم ابن شركائهم ؟ قالوا : آذنك ما منا من شهيد » ..

وعن قضية الآخرة يرد تهديد للذين لا يؤمنون بالآخرة : « وويل للمشركين الذين لا يؤمنون  
بالزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » .. وتختتم بقوله : « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل  
شيء محيط » .. كما يرد ذكر هذه القضية في مشاهد القيامة وهي عرض لما يقع فيها يقوم على  
على تأكيد وقوعها طبعا . بل إن هذا الطريق أشد توكيدا لهذه القضية وتشخيصا .

وعن قضية الوحي يرد كلام كثير يكاد يجعل هذا الموضوع هو موضوع السورة الرئيسي .  
فهي تفتح به في تفصيل : « حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم  
يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أو كثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا  
إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل : إنما أنا بشر  
مثلكم يوحي إلي ... » . . . وفي وسطها يحىء عن استقبال المشركين لهذا القرآن : « وقال  
الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . . . ثم يرد تفصيل كثير لهذا  
الاستقبال والرد على أقوالهم فيه : « إن الذين كفروا بالذکر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ،  
لا يأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه ، تنزيل من حکیم حمید . ما یقال لك : إلا ما قد قیل  
للرسل من قبلك . إن ربك ل ذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولوجعلناه قرآنا أعجمیا لقالوا : لولا  
فصلت آياته ؟ أأعجمی وعربی ؟ قل : هو للذین آمنوا هدی وشفاء ، والذین لا یؤمنون فی  
آذانهم وقر ، وهو علیهم عمی . أولئك ینادون من مکان بعید ... » . . .

وأما عن طريقة الدعوة وخلق الداعية فيرد قوله : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل  
صالحا ، وقال : إني من المسلمين . ولا تتوى الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا  
الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم .  
وإما ينزغك من الشيطان نزع فاستمذ بالله ، إنه هو السميع العليم » . . .

\*\*\*

هذه القضايا تعرض في حشد من المؤثرات الشمورية العميقة . تعرض في المجال الكوني  
الحافل بالآيات العظام . وتعرض في عالم النفس البشرية العجيبة التكوين . وتعرض في مجال  
بشرى من مصارع الغابرين . وأخيرا تعرض في جو من مشاهد القيامة وتأثيرها العميق ؛ وبعض  
هذه المشاهد فريد في صورته ومواقفه يثير الدهش الشديد .

ومن بين المشاهد الكونية في هذه السورة مشهد الخلق الأول للأرض والسماء بكثير من  
التفصيل الثير : « قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ؟ ذلك  
رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء  
للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا  
طائعين . قضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا



## سورة فصلت

بمصاييح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » .. ومن بينها كذلك آيات الليل والنهار والشمس والقمر وعبادة الملائكة وخشوع الأرض بالعبادة ونبضها بالحياة : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ؛ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحيها لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » .. أما النفس البشرية فيكشف عن حقيقتها في هذه السورة ، وتعرض على أصحابها عارية من كل ستار : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن : هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ..

ومن مصارع الغابرين يصور مصرع عاد ومصرع ثمود : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد مناقوة؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمجدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » ..

ومن مشاهد القيامة المؤثرة في هذه السورة : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون » .. ومنها كذلك مشهد الحنق الواضح من المخدوعين على الخادعين : « وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين ا » ..

وهكذا تعرض حقائق العقيدة - في السورة - في هذا الحشد من المؤثرات العميقة . ولعل هذا الحشد النوع من تلك المؤثرات يصف جو السورة ، ويصور طابعها ، ويرسم ظلالها . . . والواقع أن القلب يجد أنه منذ مطلع السورة إلى ختامها أمام مؤثرات وإقاعات تجول به

## الجزء الرابع والعشرون

في ملكوت السموات والأرض ، وفي أغوار النفس ، وفي مصارع البشر ، وفي عالم القيامة ، وتوقع على أوتاره إيقاعات شتى كلها مؤثر عميق . . .

\*\*\*

ويجري سياق السورة بموضوعاتها ومؤثراتها في شوطين اثنين ، متماسكي الحلقات . . . الشوط الأول يبدأ بالآيات التي تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته وموقف الشركيين منه . وتليها قصة خلق السماء والأرض . قصة عاد وثمود . فمشهدهم في الآخرة تشهد عليهم الأسماع والأبصار والجلود . ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم في الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيص لهم قرناء سوء من الجن والإنس . يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . ومن آثار هذا قولهم : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ثم موقفهم يوم القيامة حائقين على هؤلاء الذين خدعهم من قرناء الجن والإنس ! وعلى الضفة الأخرى الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا . وهؤلاء تنزل عليهم الملائكة - لقرناء سوء - يطمثونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم في الدنيا والآخرة . وبلى هذا ماجاء عن الدعوة والداعية . . . وبذلك ينتهي هذا الشوط .

• ويليه الشوط الثاني يتحدث عن آيات الله من الليل والنهار والشمس والقمر والملائكة العابدة ، والأرض الحاشعة ، والحياة التي تهز فيها وتربو بعد الموات . وبلى هذا الحديث عن الذين يلحدون في آيات الله وفي كتابه ، وهنا يجيء ذلك الحديث عن هذا الكتاب . ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه . ويوكل أمرهم إلى الله بعد الأجل المضروب . وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها . وعلمه بما تكنه الأكام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال . ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء . بلى هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها . ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته في الأنفس والآفاق حتى يتبينوا ويتقوا : « منزيهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شيء محيط » . . .

وتختم السورة بهذا الإيقاع الأخير . . .

## سورة فصلت

والآن نبدأ في التفصيل . . .

\*\*\*

« حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب . فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلي أنما ألهم إله واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه ؛ وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم كافرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » . . .

سبق الحديث عن الافتتاح بالأحرف المقطعة في سور شتى . وتكرار هذا الافتتاح : « حا . ميم » . . . يتمشى مع طريقه القرآن في تكرار الإشارة إلى الحقائق التي يلمس بها القلب البشري ، لأن فطرة هذا القلب تحتاج إلى تكرار التنبية ؛ فهو ينسى إذا طال عليه الأمد ؛ وهو يحتاج ابتداء إلى التكرار بطرق شتى لتثبيت أية حقيقة شعورية فيه . والقرآن يأخذ هذا القلب بما أودع في فطرته من خصائص واستعدادات ، وفق ما يعلم خالق هذا القلب ومصرفه بما يشاء .

« تنزيل من الرحمن الرحيم » . . . وكان « حا . ميم » اسم للسورة . أو لجنس القرآن . إذ أنها من جنس الأحرف التي صيغ منها لفظ هذا القرآن . وهي تقع مبتدأ . . . و « تنزيل من الرحمن الرحيم » خبر المبتدأ .

وذكر الرحمان الرحيم عند ذكر تنزيل الكتاب ؛ يشير إلى الصفة الغالبة في هذا التنزيل . صفة الرحمة . وما من شك أن تنزيل هذا الكتاب جاء رحمة للعالمين . رحمة لمن آمنوا به واتبعوه . ورحمة كذلك لغيرهم . لأمم الناس وحدهم ، ولكن للأحياء جميعا . قد سن منها ما ورسم خطة تقوم على الخير للجميع . يثر في حياة البشرية ، وتصوراتها ، ومدركاتها ، وخط سيرها ؛ ولم يقتصر في هذا على المؤمنين به إنما كان تأثيره عالميا ومطردا منذ أن جاء إلى العالمين . والذين يتبعون التاريخ البشري بإنصاف ودقة ؛ ويتبعونه في معناه الإنساني العام ، الشامل لجميع أوجه النشاط الإنساني ، يدركون هذه الحقيقة ، ويطمثون إليها . وكثيرون منهم قد سجلوا هذا واعترفوا به في وضوح .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » . . .

## الجزء الرابع والعشرون

والتفصيل المحكم ، وفق الأغراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والمعقول . ووفق البيئات والمصور ، ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة .. التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في هذا الكتاب . وقد فصلت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارات . فصلت قرآنا عربيا « لقوم يعلمون » .. لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة والتميز .

وقام هذا القرآن يؤدي وظيفته :

« بشيرا ونذيرا » ..

يُبشر المؤمنين العاملين ، وينذر الكافرين المسيئين ، ويبين أسباب البشري وأسباب الإنذار . بأسلوبه العربي البين . لقوم لغتهم العربية . ولكن أكثرهم مع هذا لم يقبل ويستجيب :

« فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون »

وقد كانوا يعرضون فلا يسمعون فعلا ، ويتحامون أن يعرضوا قلوبهم لتأثير هذا القرآن القاهر . وكانوا يحضون الجماهير على عدم السماع كما سيجيء قولهم : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » ..

وأحيانا كانوا يسمعون ، وكأنهم لا يسمعون ، لأنهم يقاومون أثر هذا القرآن في نفوسهم ؛ فكانهم صم لا يسمعون !

« وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إنا عاملون » ..

قالوا هذا إيماننا في العناد ، وتبئيسا للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليكف عن دعوتهم ، لما كانوا يجدونه في قلوبهم من وقع كلماته ، على حين يريدون عامدين ألا يكونوا مؤمنين ! قالوا : قلوبنا في أغطية فلا تصل إليها كلماتك . وفي آذاننا صمم فلا تسمع دعوتك . ومن بيننا وبينك حجاب ، فلا اتصال بيننا وبينك . فدعنا واعمل لنفسك فإننا عاملون لأنفسنا . أو أنهم قالوا غير مباليين : نحن لانبالي قولك وفعلك ، وإنذارك ووعيدك . فإذا شئت فامض في طريقك فإننا ماضون في طريقنا . لانسمع لك وافعل ما أنت فاعل . وهات ووعيدك الذي تهددنا به فإننا غير مباليين .

هذا نموذج مما كان يلقاه صاحب الدعوة الأول - صلى الله عليه وسلم - ثم يعرض في طريقه يدعو ويدعو ، لا يكف عن الدعوة ، ولا يئأس من التبئيس ، ولا يستبطن ، وعد الله له ولا وعيده

## سورة فصلت

للكذابين . كان يعنى مأمورا أن يعلن لهم أن تحقق وعيد الله ليس بيده ؛ فما هو إلا بشر يتلقى الوحي ، فيبلغ به ، ويدعو الناس إلى الله الواحد . وإلى الاستقامة على الطريق ، وينذر المشركين كما أمر أن يفعل . والأمر بعد ذلك لله لا يملك منه شيئا ، فهو ليس إلا بشرا مأمورا : « قل : إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ؛ فاستقيموا إليه ، واستغفروا ، وويل للمشركين » . . .

بالمظمة الصبر والاحتمال والإيمان والتسليم ! إنه لا يدرك ما فى الصبر على هذه الحال ، والتبرؤ من كل حول وقوة فى مثل هذا الموقف ، واحتمال الإعراض والتكذيب فى تبجح واستهتار ، دون استعجال الآية التى تردع المعرضين المكذابين المستهترين . . . إنه لا يدرك ما فى الصبر على هذا الحال من مشقة ، ومن عظمة فى احتمال هذه المشقة ، إلا من يكابد طرفا من هذا الموقف فى واقع الحياة . ثم يعنى فى الطريق !

ومن أجل هذا الموقف وأمثاله كان التوجيه إلى الصبر كثير الورود للأنبياء والرسل . فطريق الدعوة هو طريق الصبر . الصبر الطويل . وأول ما يستوجب الصبر تلك الرغبة الملحة فى انتصار الدعوة ، ثم إبطاء النصر . بل إبطاء أماراته . ثم ضرورة التسليم لهذا والرضى به والقبول ا

إن أقصى ما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤمر به فى مقابلة التبجح والاستهتار أن يقول :

« وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . . .

وتخصيص الزكاة فى هذا الموضع لا بد كانت له مناسبة حاضرة ، لم تقف عليها ، فهذه الآية مكية . والزكاة لم تفرض إلا فى السنة الثانية من الهجرة فى المدينة . وإن كان أصل الزكاة كان معروفًا فى مكة . والذي جد فى المدينة هو بيان أنصبتها فى المال ، وتحصيلها كفريضة معينة . أما فى مكة فقد كانت أمرا عاما يتطوع به المتطوعون ، غير محدود ، وأداؤه موكول إلى الضمير . أما الكفر بالآخرة فهو عين الكفر الذى يستحق الويل والثبور .

وقد ذكر بعضهم أن المقصود بالزكاة هنا الإيمان والطهارة من الشرك . وهو محتمل كذلك

فى مثل هذه الظروف .

\*\*\*

## الجزء الرابع والعشرون

ثم يمضي الداعية يكشف لهم عن شناعة الجرم الذي يرتكبه بالشرك والكفر . يمضي بهم في المجال الكوني العريض . مجال السماوات والأرض ، والكون الذي هم بالقياس إليه شيء ضئيل هزيل . يمضي بهم في هذا المجال ليكشف لهم عن سلطان الله الذي يكفرون به في فطرة هذا الكون الذي هم جزء منه . ثم ليخرجهم من الزاوية الضيقة الصغيرة التي ينظرون منها إلى هذه الدعوة ، حيث يرون أنفسهم وذواتهم كبيرة كبيرة ؛ ويشغلهم النظر إليها وإلى اختيار محمد صلى الله عليه وسلم - من دونهم . والحرص على مكاتبتهم ومصالحهم .. إلى آخر هذه الاعترافات الصغيرة .. يشغلهم هذا عن النظر إلى الحقيقة الضخمة التي جاءهم بها محمد ، وفصلها هذا القرآن . الحقيقة التي تتصل بالسماوات والأرض ؛ وتتصل بالبشرية كلها في جميع أقطارها ؛ وتتصل بالحق الكبير الذي يتجاوز زمانهم ومكانهم وشخصيتهم ؛ وتتصل بالكون كله في التسم :

« قل : إنكم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا ؛ ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض : اتينا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بتصاييح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » ..

قل لهم : إنكم إذ تكفرون . إذ تلقون بهذه الكلمة الكبيرة في استهتار . إنما تأتون أمرا عظيما ، مستكرا قبيحا ، إنكم تكفرون بالذي خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها . وبارك فيها . وقدر فيها أقواتها . والذي خلق السماوات ونظم أمرها . وزين السماء الدنيا بتصاييح وحفظا . والذي أسلمت له السماء والأرض قيادتها طائعتين مستسلمتين .. وأنتم .. أنتم بعض سكان هذه الأرض تتأبون وتستكبرون !

ولكن النسق القرآني يعرض هذه الحقائق بطريقة القرآن التي تبلغ أعماق القلوب وتهزها هذا . فلنحاول أن نسير مع هذا النسق بالترتيب والتفصيل :

« قل : إنكم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أندادا . ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » ..

## سورة فصلت

إنه يذكر حقيقة خلق الأرض في يومين . ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض . يعقب على الحلقة الأولى من قصة الأرض . « ذلك رب العالمين » . وأتم تكفرون به وتجعلون له أندادا . وهو خلق هذه الأرض التي أتم عليها . فأى تبجح وأى استهتار وأى فعل قبيح !؟

وما هذه الأيام : الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض . والاثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات ، وأحل فيهما البركة . فبعت بهما الأيام الأربعة ؟

إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها . وليست من أيام هذه الأرض . فأيام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض . وكما للأرض أيام ، هي مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس ، فللكواكب الأخرى أيام ، وللنجوم أيام . وهي غير أيام الأرض . بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول .

والأيام التي خلقت فيها الأرض أولا ، ثم تكونت فيها الجبال ، وقدرت فيها الأقوات ، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر ، لانعله ، ولكنا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة .

وأقرب ما نستطيع تصويره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طورا بعد طور ، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها . وهذه قد استغرقت - فيما تقول النظريات التي بين أيدينا - نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا !

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها . ونحن في دراسة القرآن لاندلجاً إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية . فهي في أصلها ليست كذلك . وإن هي إلا نظريات قابلة للتعديل . فنحن لانحمل القرآن عليها ؛ إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقاربا ، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بغير تحمل . فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني .

والراجع الآن في أقوال العلم أن الأرض كانت كرة ملتهبة في حالة غازية كالشمس الآن - والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره - وأنها استغرقت

## الجزء الرابع والعشرون

أزمانا طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت . وأن جوفها لا يزال في حالة انصهار لشدة الحرارة حيث تنصهر أقى الصخور .

ولما بردت القشرة الأرضية جمدت وصلبت . وكانت في أول الأمر صخرية صلبة . طبقات من الصخر بعضها فوق بعض .

وفي وقت مبكر جدا تكونت البحار من اتحاد الإيدروجين بنسبة ٢ والأكسجين بنسبة ١ ومن اتحادهما ينشأ الماء .

« والهواء والماء على أرضنا هذه قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته ، وحمله وترسيبه ، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع . وتعاونا على نحر الجبال والنجاد ، وملء الوهاد ، فلانكاد نجد في شيء كان على الأرض أو هو كائن إلا أثر الهدم وأثر البناء » (١).

« إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة ، وفي تغير دائم ، يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها ، ويتبخر ماء البحر . تبخره الشمس ، فيصعد إلى السماء فيكون سحبا تمطر الماء عذبا ، فيزل على الأرض متدفقا ، فتكون السيول ، وتكون الأنهار ، تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها . تؤثر في صخره فتحله فتبدل فيه من صخر صخرا . ( أي تحوله إلى نوع آخر من الصخور ) وهي من بعد ذلك تحمله وتنقله . ويتبدل وجه الأرض على القرون ، ومئات القرون وآلافها . وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض مايفعله الماء السائل . وتعمل الرياح بوجه الأرض مايفعل الماء . وتعمل الشمس بوجه الأرض مايفعله الماء والرياح ، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور . والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك . ويغير فيها ماينشق فيها من جوف الأرض من براكين .

« وتساءل عالم الأرض - العالم الجيولوجي ، عن صخور هذه القشرة فيعدد لك من صخورها الشيء الكثير ، ويأخذ يحدثك عن أنواعها الثلاثة الكبرى .

« يحدثك عن الصخور النارية . تلك التي خرجت من جوف الأرض إلى ظهرها صخرا منصهرا . ثم برد . ويضرب لك منها مثلا بالجرانيت والبازلت . ويأتيك بعينة منها يشير لك فيها إلى مااحتوته من بلورات . بيضاء وحمراء أوسوداء ، ويقول لك : إن كل بلورة من هذه تدل على مركب كيمائى ، له كيان بذاته . فهذه الصخور أخلاط . ويلفت فكرك إلى أنه من هذه الصخور النارية ومن أشباهها تكونت قشرة هذه الأرض عندما تمت الأرض تكونا

(١) عن كتاب « مع الله في السماء » للدكتور أحمد زكي .



## سورة فصلت

في القديم الأقدم من الزمان . ثم قام يفعل فيها الماء ، هابطا من السماء أوجاريا في الأرض ، أوجامدا في الثلج ، وقام يفعل الهواء ويفعل الريح . . وقامت تفعل الشمس . قامت جميعها تغير من هذه الصخور . من طبيعتها ومن كيميائها . فولدت منها صخورا غير تلك الصخور حتى ما يكاد يجمعها في منظر أو مخبر شيء .

« وينتقل بك الجيولوجي إلى الصنف الأكبر الثاني من الصخور . إلى الصخور التي أسموها بالترسبة أو الراسبة ، وهي تلك الصخور التي اشتقت ، بفعل الماء والريح والشمس ، أو بفعل الأحياء من صخور أكثر في الأرض أصالة وأعقد . وأسموها راسبة لأنها لا توجد في مواضعها الأولى . إنها حملت من بعد اشتقاق من صخورها الأولى ، أو وهي في سبيل اشتقاق . حملها الماء أو حملتها الريح ، ثم هبطت ورسبت واستقرت حيث هي من الأرض .

« ويضرب لك الجيولوجي مثلا للصخور الراسبة بالحجر الجيري الذي يتألف منه جبل كجبل المقطم ، ومن حجره تبنى القاهرة بيوتها . ويقول لك : إنه مركب كبريتي يعرف بكاربونات الكالسيوم ، وإنه اشتق في الأرض من عمل الأحياء أو عمل الكيمياء . ويضرب لك مثلا ، بالرمل ، ويقول لك : إن أكثره أكسيد السيليوم ، وإنه مشتق كذلك ، ومثلا آخر بالطفل والصلصال ، وكلها من أصول سابقة .

« وتساءل عن هذه الأصول السابقة التي منها اشتقت تلك الصخور الراسبة ، على اختلافها ، فتعلم أنها الصخور النارية . بدأت الأرض عندما انجمد سطحها من بعد انصهار ، في قديم الأزل ، ولا شيء على هذا السطح المنجمد غير الصخر الناري . ثم جاء الماء ، وجاءت البحار ، وتفاعل الصخر الناري والماء . وشركها الهواء . شركها غازات متفاعلة ، وشركها رياحا عاصفة ، وشركتها الشمس ناراً ونورا . وتفاعلت كل هذه العوامل جميعا . وقفا لما أودع فيها من طبائع . فغيرت من صخر ناري صلب غير نافع ، إلى صخر نافع . صخر ينفع في بناء المساكن ، وصخر ينفع في استخراج المعادن . وأهم من هذا ، وأخطر من هذا ، أنها استخرجت من هذا الصخر الناري الصلب ، الذي لا ينفع لحياة تقوم عليه ، استخرجت تربة ، رسبت على سطح الأرض ، مهدت لقدوم الأحياء والحلائق .

« إن البرانيت لا ينفع لحث أو زرع أو سقيا ، ولكن تنفع تربة هشة لينة خرجت منه

## الجزء الرابع والعشرون

ومن أشباه له . وبظهور هذه التربة ظهر النبات ، وبظهور النبات ظهر الحيوان . وتمهدت الأرض لقيام رأس الخلائق على هذه الأرض . ذلك الإنسان . . . » (١) .

هذه الرحلة الطويلة كما يقدرها العلم الحديث ، قد تساعدنا على فهم معنى الأيام في خلق الأرض وجعل الرواسي فوقها ، والباركة فيها ، وتقدير أوقاتها في أربعة أيام .. من أيام الله .. التي لا نعرف ماهي ؟ ما طولها ؟ ولكننا نعرف أنها غير أيام هذه الأرض حتما ..

ونقف لحظة أمام كل فقرة من النص القرآني قبل أن نغادر الأرض إلى السماء !

« وجعل فيها رواسي من فوقها » . . . وكثيرا ما يرد تسمية الجبال « رواسي » وفي بعض المواضع يعلل وجود هذه الرواسي « أن تميد بكم » أي إنها هي راسية ، وهي ترسي الأرض ، وتحفظ توازنها فلا تميد . . . ولقد غير زمان كان الناس يحسبون أن أرضهم هذه ثابتة راسخة على قواعد متينة ! ثم جاء زمان يقال لهم فيه الآن : إن أرضكم هذه إن هي إلا كرة صغيرة سابحة في فضاء مطلق ، لاتستند إلى شيء . . . ولعلمهم يفزعون حين يقال لهم هذا الكلام أول مرة أو لعل منهم من ينظر بوجل عن يمينه وعن شماله خيفة أن تتأرجح به هذه الأرض أو تسقط في أعماق الفضاء ! فليطمئن ! فإن يد الله تمسكها أن تزول هي والسماء . ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ! وليطمئن فإن التواميس التي تحكم هذا الكون متينة من صنع الهوى العزيز !

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن يقول إنها « رواسي » وأنها كذلك ترسي الأرض فلا تميد . ولعلمها - كما قلنا في موضع آخر من هذه الظلال - تحفظ التناسق بين الصيغان في المحيطات والمرتفعات في الأرض فتوازن فلا تميد .

وهذا عالم يقول :

« إن كل حدث يحدث في الأرض ، في سطحها أو فيما دون سطحها ، يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر في سرعة دورانها . فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك . ( أي في ببطء سرعة الأرض كما قال قبل هذه الفقرة ) حتى ما تنقله الأنهار من مائها من ناحية في الأرض إلى ناحية يؤثر في سرعة الدوران . وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران . وسقوط في قاع البحار ، أو بروز في سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر في سرعة

(١) كتاب « مد الله في السماء » . . .

## سورة فصلت

الدوران . . . ومما يؤثر في سرعة هذا الدوران أن تمدد الأرض أو تكسب بسبب ما . ولو انكشأ أو تعددا طفيفا لأزيد في قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام» (١)

فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد ، لا عجب أن تكون الجبال الرواسي حافظة لتوازنها ومانة : « أن تميد بكم » كما جاء في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا .

« وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .. وقد كانت هذه الفقرة تنقل إلى أذهان أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض وبعض ماخبأه الله في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها . . فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن أقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة ، فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف في أذهاننا . . .

وقد رأينا كيف تعاونت عناصر الهواء فكونت الماء . وكيف تعاون الماء والهواء والشمس والرياح فكونت التربة الصالحة للزرع . وكيف تعاون الماء والشمس والرياح فكونت الأمطار أصل الماء العذب كله من أنهار ظاهرة وأنهار باطنة تظهر في شكل ينابيع وعيون وآبار . . وهذه كلها من أسس البركة ومن أسس الأقوات .

وهناك الهواء . ومن الهواء أنفاسنا وأجسامنا ...

« إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر . وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء . وتلف الصخر والماء جميعا طبقة من هواء . وهي طبقة من غاز سميكة . كالبحر ، لها أعماق . ونحن - بنى الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، نعيش في هذه الأعماق ، هائنين بالندى فيها .

« فمن الهواء نستمد أنفاسنا ، من أكسجينه . ومن الهواء يبني النبات جسمه ، من كربونه ، بل من أكسيد كربونه ، ذلك الذي يسميه الكيمائيون ثاني أكسيد الكربون . يبني النبات جسمه من أكسيد الفحم هذا . ونحن نأكل كل النبات . ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات . ومن كليهما نبني أجسامنا . بقي من غازات الهواء التروجين ، أى الأزوت ، فهذا لتخفيف الأكسجين حتى لا يحترق بأنفاسنا . وبقي بخار الماء وهذا لترطيب الهواء . وبقيت طائفة من غازات أخرى ، توجد فيه بمقادير قليلة هي - في غير ترتيب - الأرجون ، والهليوم ،

(١) المرجع السابق

## الجزء الرابع والعشرون

والنيون ، وغيرها . ثم الإيدروجين . وهذه تخلفت - على الأكثر - في الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى « (١) .

والمواد التي نأكلها والتي نتفع بها في حياتنا - والأقوات أوسع مما يؤكل في البطون - كلها مركبات من العناصر الأصلية التي تحتويها الأرض في جوفها أو في جوها سواء . وعلى سبيل المثال هذا السكر ماهو ؟ إنه مركب من الكربون والاييدروجين والاكسيجين . والماء علمنا تركيبه من الايدروجين والاكسيجين .. وهكذا كل ما نستخدمه من طعام أو شراب أو لباس أو أداة .. إن هو إلا مركب من بين عناصر هذه الأرض المودعة فيها ..

فهذا كله يشير إلى شيء من البركة وشيء من تقدير الأقوات .. في أربعة أيام .. فقد تم هذا في مراحل زمنية متطاولة .. هي أيام الله ، التي لا يعلم مقدارها إلا الله .

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان . فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا أتينا طائمين . فقضاهن سبع سماوات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا . ذلك تقدير العزيز العليم » .

والاستواء هنا القصد . والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة . و«ثم» قد لا تكون للترتيب الزمني ، ولكن للارتقاء المعنوي . والسماء في الحس أرفع وأرقى .

« ثم استوى إلى السماء وهي دخان » .. إن هناك اعتقادا أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم . وهذا السديم غاز .. دخان

« والسدم - من نيرة ومعممة - ليس الذي بها من غاز وغبار إلا ما تبقى من خلق النجوم . إن نظرية الخلق تقول : إن المجرة كانت من غاز وغبار . ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم . وبقيت لها بقية . ومن هذه البقية كانت السدم . ولا يزال من هذه البقية منتشرا في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار ، يساوي ما تكونت منه النجوم . ولا تزال النجوم تجم من الجاذبية إليها . فهي تكس السماء منه كئسا . ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد كئسه من مساحات أكبر وأشد هولاً » (٢)

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

## سورة فصلت

وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية: « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » . . . وإلى أن خلق السماوات ثم في زمن طويل . في يومين من أيام الله .

ثم نقف أمام الحقيقة الهائلة :

« فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين » . . .

إنها إيماء عجيبة إلى انقياد هذا الكون للناموس ، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بحالته بالاطاعة والاستسلام لكاملته ومشيتته . فليس هناك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرها في أغلب الأحيان . إنه خاضع حتما لهذا الناموس ، لا يملك أن يخرج عنه ، وهو تروس صغير جدا في عجلة الكون الهائلة ؛ والقوانين الكونية الكلية تسرى عليه رضى أم كره . ولكنه هو وحده الذى لا ينقاد طائعا طاعة الأرض والسماء . إنما يحاول أن يتغلب ، وينحرف عن المجرى الهين اللين؛ فيصطدم بالنواميس التى لا بد أن تغلبه - وقد تحطمه وتسحقه - فيستسلم خاضعا غير طائع . إلا عباد الله الذين تصطلع قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم براداتهم ورغباتهم وأتجاهاتهم . . . تصطلع كلها مع النواميس الكلية ، فتأتى طائعة ، وتسير هية لية ، مع عجلة الكون الهائلة ، متجهه إلى ربها مع الموكب ، متصلة بكل ما فيه من قوى ، . . . وحينئذ تصنع الأعاجيب ، وتأتى بالحوارق ، لأنها مصطلحة مع الناموس ، مستمدة من قوته الهائلة ، وهى منه وهو مشتمل عليها فى الطريق إلى الله « طائعين » . . .

إننا نخضع كرها . فليتنا نخضع طوعا . ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء . فى رضى وفى فرح

باللقاء مع روح الوجود الخاضعة للطبيعة اللبية المستسلمة لله رب العالمين .

إننا نأتى أحيانا حركات مضحكة . . . عجلة القدر تدور بطريقتها . وبسرعتها . ولوجهتها .

وتدير الكون كله معها . وفق سنن ثابتة . . . ونأتى نحن فتريد أن نسرع . أو أن نبطئ . نحن

من بين هذا الموكب الضخم الهائل . نحن بما يطرؤ على نفوسنا - حين تفك عن العجلة وتحرف

عن خط السير - من قلق واستعجال وأنانية وطمع ورغبة ورهبة . . . ونظل نشرد هنا وهناك

والموكب ماض . ونحتك بهذا الترس وذاك وتأتلم . ونصطدم هنا وهناك ونتحطم . والمجلة

ماضية فى سرعتها وبطريقتها إلى وجهتها . وتذهب قوانا وجهودنا كلها سدى . فأما حين تؤمن

قلوبنا حقا ، وتستسلم لله حقا ، وتصل بروح الوجود حقا . فإننا - حينئذ - نعرف دورنا على

## الجزء الرابع والعشرون

حقيقته ؛ وننسق بين خطانا وخطوات القدر ؛ وتتحرك في اللحظة المناسبة بالسرعة المناسبة ، في  
الذي للناسب . تتحرك بقوة الوجود كله مستمدة من خالق الوجود . ونصنع أعمالا عظيمة  
فلا . دون أن يدركنا العرور . لأننا نعرف مصدر القوة التي صنعنا بها هذه الأعمال العظيمة .  
ونوقن أنها ليست قوتنا الذاتية . إنما هي كانت هكذا لأنها متصلة بالقوة العظمى .

وبالرضى . وبالسعادة . وبالراحة . وبالطمأنينة التي تغمر قلوبنا يومئذ في رحلتنا  
العصيرة ، على هذا الكوكب الطائع الملبى ، السائر معنا في رحلته الكبرى إلى ربه في نهاية  
المطاف . . .

وبالسلام الذي يفيض في أرواحنا ونحن نعيش في كون صديق . كله مستسلم لربه ، ونحن  
معه مستلمون . لا تشذ خطانا عن خطاه ، ولا يعادينا ولا نعاديه . لأننا منه . ولأننا معه  
في الاتجاه :

« قالتا : أتينا طائمين » . . « قضاهن سبع سموات في يومين » . . « وأوحى في كل  
سما أمرها » . .

واليومان قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجوم من السدم . أو تم فيهما التكوين  
كما يعلمه الله . والوحى بالأمر في كل سماه يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها ، على هدى من  
الله وتوجيه ؛ أما ماهى السماء المقصودة فلا نملك تحديدا . فقد تكون درجة البعد سماه . وقد  
تكون الهجرة الواحدة سماه . وقد تكون المجرات التي على أبعاد متفاوتة سموات . . وقد  
يكون غير ذلك . مما تختمله لفظة سماه وهو كثير .

« وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا » . .

والسماه الدنيا هي كذلك ليس لها مدلول واحد محدد . فقد تكون هي أقرب المجرات  
إلينا وهي المعروفة بسكة التبان والتي يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئية ، وقد يكون غيرها  
كما ينطبق عليه لفظ سماه . وفيه النجوم والكواكب النيرة لنا كالمصابيح .

« وحفظا » . . من الشياطين . . كما يدل على هذا ماورد في المواضع الأخرى من القرآن . .  
ولا نملك أن نقول عن الشياطين شيئا مفصلا . أكثر من الإشارات السريعة في القرآن .  
فحبنا هذا . . .

## سورة فصلت

« ذلك تقدير العزيز العليم » . .

هل يقدر هذا كله؟ ويمسك الوجود كله، ويدبر الوجود كله . . إلا العزيز القوي القادر؟ وإلا العليم الخبير بالموارد والصادر؟

\*\*\*

فكيف - بعد هذه الجولة الكونية الهائلة - يكون موقف الذين يكفرون بالله ويحملون له أندادا؟ كيف . والسماء والأرض تقولان لربهما: « أتينا طائعين » وهذا النمل الصغير العاجز من البشر الذي يدب على الأرض يكفر بالله في تبجح واستهتار؟ وما يكون جزاء هذا التبجح وهذا الاستهتار؟

« فإن أعرضوا فقل: أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله . قالوا: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإننا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ، وقالوا: من أشد منا قوة؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة؟ وكانوا بآياتنا يمجدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

وهذا الإنذار المرهوب الخيف: « ققل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » يناسب شناعة الجرم وقبح الذنب ، وتبجح المشركين الذي حُكي في مطلع السورة ، وشذوذ كفر البشر من موكب الوجود الكبير الذي مُعرض قبل هذا الإنذار .

وقد روى ابن اسحاق قصة عن هذا الإنذار قال: حدثني يزيد ابن زياد ، عن محمد ابن كعب القرظي ، قال: حدثت أن عتبة ابن ربيعة ، وكان سيدا ، قال يوما وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس في المسجد وحده: يامشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ - وذلك حين أسلم حمزة - رضی الله عنه - ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيدون ويكثرون - فقالوا: بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا ابن أخي . إنك منا حيث علمت من البسطة في المشيرة

## الجزء الرابع والعشرون

والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباؤهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل يا أبا الوليد أسمع » . قال : يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؛ وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا نراه لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وبدلنا فيها أموالنا حتى نبثك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .. أو كما قال .. حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عريبا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يستمع منه حتى انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يأمشر قريش أطيعوني واجعلوها لي .. خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعزلوه ، قوا الله ليكون لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا . سحرك والله يا أبا الوليد بلبانته ! قال : هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم .

وقد روى البغوي في تفسيره حديثا بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح - وهو ابن عبد الله الكندي الكوفي ( قال ابن كثير : وقد ضعف بعض الشيء ) عن الزيال ابن حرمة عن جابر ابن عبد الله - رضي الله عنه - إلى قوله : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك عتبة على فيه . وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، واحتبس عنهم ... الخ ..



## سورة فصلت

ثم لما حدثوه في هذا قال: « فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف . وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب . فخشيت أن ينزل بكم العذاب . . . »

فهذه صورة من وقع هذا الإنذار من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قلب رجل لم يؤمن ! ولا تترك هذه الرواية قبل أن نقف وقفة قصيرة أمام صورة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأدب النفس الكبيرة وطمأنينة القلب المؤمن . وهو يستمع من عتبة إلى هذه الخواطر الصغيرة التي يعرضها عليه ، وقلبه مشغول بما هو أعظم ، حتى لتبدو هذه الخواطر مقززة تثير الاشمئزاز : ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلقاها حلماً ، ويستمع كريماً ، وهو مطمئن هادئ ، ودود . لا يعجل عتبة عن استكمال هذه الخواطر الصغيرة . حتى إذا انتهى قال في هدوء وثبات وسماحة : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » . فيقول : نعم . فيقول : - صلى الله عليه وسلم - « فاستمع مني » ولا يفاجئه بالقول حتى يقول : أفعل . وعندئذ يتلو - صلى الله عليه وسلم - في ثقة وفي طمأنينة وفي امتلاء روح قول ربه لا قوله : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . . . » . . .

إنها صورة تلتقي في القلب المهابة . والثقة . والوادة . والاطمئنان . . . ومن ثم كان يملك قلوب سامعيه . . . الذين قد يقصدون إليه أول الأمر ساخرين أو حاققين !

صلى الله عليه وسلم . . . وصدق الله العظيم : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » . . . ونعود بعد هذه الوقفة القصيرة إلى النص القرآني الكريم :

« فإن أعرضوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . . . » . . .

إنها جولة في مصارع الغابرين ، بعد تلك الجولة في ملكوت السموات والأرض . جولة تهز القلوب المتكبرة برؤية مصارع المتكبرين :

« إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله » . . .

الكلمة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعين . وقام عليها بنيان كل دين .

« قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . فإنا بما أرسلتم به كافرون » . . .

وهي كذلك الشبهة المتكررة التي ووجه بها كل رسول . وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلا من البشر . يعرفهم ويسرفونهم . ويمجدون فيه قدوة واقية ، ويماني هو ما يمانونهم . ولكن عاداً وثموداً أعلنوا كفرهم برسولهم ، لأنهم بشر لا ملائكة كما كانوا يقترحون !

## الجزء الرابع والعشرون

وإلى هنا أجمل مصير عادوثمود . وهو واحد . إذ انتهى هؤلاء وهؤلاء إلى الأخذ بالصاعقة .  
ثم فصل قصة كل منهما بعض التفصيل :

« فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق . وقالوا : من أشد منا قوة ؟ » . .

إن الحق أن يخضع للعباد لله ، وألا يستكبروا في الأرض ، وهم من هم بالقياس إلى عظمة خلق الله . فكل استكبار في الأرض فهو بغير الحق . استكبروا واغتروا « وقالوا : من أشد منا قوة ؟ » . .

وهو الشعور الكاذب الذي يحسه الطغاة . الشعور بأنه لم تعد هناك قوة تقف إلى قوتهم . وينسون :

« أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ » . .

إنها بديهية أولية . . إن الذي خلقهم من الأصل أشد منهم قوة . لأنه هو الذي مكن لهم في هذا القدر المحدود من القوة . ولكن الطغاة لا يذكرون :

« وكانوا بآياتنا يمجدون » . .

وبيناهم في هذا الشهد يعرضون عضلاتهم ، ويتباهون بقوتهم . إذا المشهد التالي في الآية التالية هو المصراع المناسب لهذا العجب الرذول :

« فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات . لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا » . .  
إنها العاصفة الهوجاء المجتاحة الباردة في أيام نحس عليهم . وإنه الخزي في الحياة الدنيا . الخزي اللائق بالمستكبرين المتباهين المتتالين على العباد . .

ذلك في الدنيا . . وليسوا يمتروكين في الآخرة :

« ولعذاب الآخرة أخزى . وهم لا ينصرون » . .

« وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى » . .

ويظهر أن هذه إشارة إلى اهتدائهم بعد آية الناقة ، ثم ردتهم وكفرهم بعد ذلك . وإشارتهم العمى على الهدى . والضلال بعد الهدى عمى أشد العمى ا

« فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » . .

## سورة فصلت

والهوان أنسب عذبة . فإيس هو العذاب فحسب ، وليس هو الهلاك فحسب . ولكنه كذلك  
الهوان جزاء على العمى بعد الإيمان .

« ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » . . .

وتنتهى الجولة على متصرع تاد وعود . والإنذار بهذا المصراع الخيف المرهوب . ويتكشف  
لهم سلطان الله الذى لا ترده قوة ولا يعصم منه حصن ، ولا يبقى على مستكبر مرید .

\*\*\*

والآن وقد كشف لهم عن سلطان الله فى فطرة الكون ؛ وسلطان الله فى تاريخ البشر ،  
يطلعهم على سلطان الله فى ذوات أنفسهم ، التى لا يملكون منها شيئا ، ولا يعصمون منها شيئا  
من سلطان الله . حتى سمعهم وأبصارهم وجلودهم تطيع الله وتعصمهم فى الموقف الشهود ، وتكون  
عليهم بعض الشهود :

« ويوم يحسر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم  
وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ قالوا : أنطقنا الله  
الذى أنطق كل شئ ، وهو خلقكم أول مرة ، وإليه ترجعون . وما كنتم تسترون أن يشهد  
عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . فذلكم  
ظنكم الذى ظننتم ربكم أرداكم ، فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم . وإن  
يستعبوا فمأثم من المعتبين » . . .

إنها المفاجأة المائلة فى الموقف العصيب . وسلطان الله الذى تطيعه جوارحهم وتستجيب .  
وهم يوصمون بأنهم أعداء الله . فما مصير أعداء الله ؟ إنهم يحشرون ويجمع أولهم على آخرهم  
وآخرهم على أولهم كالتطبيع ! إلى أين ؟ إلى النار ! حتى إذا كانوا حيالها وقام الحساب ، إذا  
شهود عليهم لم يكونوا لهم فى حساب . إن ألسنتهم معقودة لاتنطق ، وقد كانت تكذب وتفترى  
وتستهزئ . وإن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم تخرج عليهم ، لتستجيب لربها طائفة مستسلمة ،  
تروى عنهم ما حسبوه سرا . فقد يسترون من الله . ويظنون أنه لا يراهم وهم يتخفون بنواياهم ،  
ويتخفون بجرائعهم . ولم يكونوا ليستخفوا من أبصارهم وأسماعهم وجلودهم . وكيف وهى معهم ؟  
بل كيف وهى أبعاضهم ؟ ! وهامى ذى تفضح ما حسبوه مستورا عن الخلق أجمعين . وعن الله  
رب العالمين !

## الجزء الرابع والعشرون

بالمفاجأة بسطان الله الخفي ، يغلبهم على أبعاضهم فقلبي وتستجيب !

« وقالوا لجلودهم : لم شهدتم علينا ؟ » ..

فإذا هي تجبههم بالحقيقة التي خفيت عليهم في غير موارد ولاجمالة :

« قالوا : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » ؟

أليس هو الذي جعل الألسنة هي الناطقة ؟ وإنه لقادر على أن يجعل سواها . وقد أنطق

كل شيء فهو اليوم يتحدث وينطق ويبين .

« وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » ..

فإليه للنشأ وإليه المصير ، ولأمفر من قبضته في الأول وفي الأخير .

وهذا ما أنكروه بالعقول . وهذا ما تقررهم للجلود !

وقد تكون بقية التعليق من حكاية أقوال أبعاضهم لهم . وقد تكون تعقيا على الموقف

العجيب :

« وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » ..

فما كان يخطر ببالكم أنها ستخرج عليكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستروا منها لو أردتم !

« ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » ..

وخذعكم هذا الظن الجاهل الأثيم وقادكم إلى الجحيم :

« فذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » ..

ثم يحىء التعقيب الأخير :

« فإن يصبروا فالنار مثوى لهم » ..

بالسخرية ! فالصبر الآن صبر على النار ؛ وليس الصبر الذي يعقبه الفرج وحسن الجزاء .

إنه الصبر الذي جزاؤه النار قرارا ومشوى يسوء فيه الثواء !

« وإن يستعبدوا فمهم من المعتبين » ..

فماعد هناك عتاب ، وما عاد هناك متاب . وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب

## سورة فصلت

من وراءه الصفح والرضى بعد إزالة أسباب الجفاء . فالיום يفتح الباب في وجه العتاب .  
لا الصفح والرضى الذي يعقب العتاب !

\*\*\*

ثم يكشف لهم كذلك عن سلطان الله في قلوبهم ، وهم بعد في الأرض ، يستكبرون عن  
الإيمان بالله . قاله قد قبيض لهم - بما اطلع على فساد قلوبهم - قرناً سوء من الجن ومن الأنس ،  
يزينون لهم السوء ، وينتهون بهم إلى مواكب الدين كتب عليهم الحشران ، وحقت عليهم كلمة  
العذاب :

« وقبضنا لهم قرناً فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وحق عليهم القول في أم قد خلت  
من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » . . .  
فليظنوا كيف هم في قبضة الله الذي يستكبرون عن عبادته . وكيف أن قلوبهم التي بين  
جنوبهم تقودهم إلى العذاب والحسار . وقد قبض الله وأحضر قرناً يوسوسون لهم ، ويزينون  
لهم كل ما حولهم من السوء ، ويحسنون لهم أعمالهم فلا يشعرون بما فيها من قبح . وأشد ما يصيب  
الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وانحرافه ، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً ومن فعله!  
فهذه هي المهلكة وهذا هو المنحدر الذي ينتهي دائماً بالبوار . وإذا هم في قطيع السوء . في  
الأمم التي حق عليها وعد الله من قبلهم من الجن والإنس . قطيع الخاسرين « إنهم كانوا  
خاسرين » . . .

وكان من تزيين القرناء لهم دفعهم إلى محاربة هذا القرآن ، حين أحسوا بما فيه من سلطان:  
« وقال الذين كفروا : لا نسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . . .  
كلمة كان يوصى بها الكبراء من قريش أنفسهم ويفرون بها الجماهير ؛ وقد عجزوا عن مغالبة  
أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير .

« لا تسمعوا لهذا القرآن » . . . فهو كما كانوا يدعون يسحرم ، وينظب عقولهم ، ويخد  
حياتهم . ويفرق بين الوالد وولده ، والزوج وزوجه . ولقد كان القرآن يفرق نم ولكن  
بفرقان الله بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال . كان يستخلص القلوب له ، فلا تحفل  
بوشيجة غير وشيجته . . فكان هو الفرقان . . .

« والغوا فيه لعلكم تغلبون » . . .

## الجزء الرابع والعشرون

وهي مهارة لا تليق . ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان ، ينتهي إلى المهارة ، عند من يستكبر على الإيمان .

ولقد كانوا يلغون قصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك ابن النضر ليصرف الناس عن القرآن . ويلغون بالصياح والهرج . ويلغون بالسجع والرجز . ولكن هذا كله ذهب ادراج الرياح وغلب القرآن ، لأنه يحمل سر العلب ، . إنه الحق . والحق غالب مهما جهد المبطلون ! وردا على قولهم المنكرة بحجى التهديد للناس :

« فلندينن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » ..

وسرعان ما نجدهم في النار . وسرعان ما شهد حنق المخذوعين ، الذين زين لهم قرناؤهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وأغروهم بهذه المهلكة التي انتهى إليها مطافهم :

« وقال الذين كفروا : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس ، نجعلهما تحت أقدامنا ، ليكونا من الأسفلين » ..

إنه الحق العنيف ، والتحرق على الانتقام : « نجعلهما تحت أقدامنا » .. « ليكونا من الأسفلين » .. وذلك بعد الموادة والمخادنة والوسوسة والزين ا

\*\*\*

هذه صلة . صلة الوسوسة والإغراء . وهناك صلة . صلة النصح والولاء . إنهم المؤمنون . الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا على الطريق إليه بالإيمان والعمل الصالح . إن الله لا يفيض لهؤلاء قرناء سوء من الجن والإنس ؛ إنما يكلف بهم ملائكة فيضون على قلوبهم الأمن والطمأنينة . ويشرونهم بالجنة ، ويتولونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة :

« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . تنزل عليهم الملائكة : الاتخافوا ولا تعجزوا ، وأبصروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم » ..

والاستقامة على قولة : « ربنا الله » .. الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها . الاستقامة عليها شعورا في الضمير ، وسلوكا في الحياة . الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها .. أمر ولا شك كبير .

## سورة فصلت

وعير . ومن ثم يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير .. صحبة الملائكة ، وولاهم ، ومودتهم .  
 هذه التي تبدو فيما حكاها الله عنهم . وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين : لا تخافوا . لا تحزنوا . أبشروا  
 بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ثم يصورون لهم الجنة  
 التي يوعدون تصور الصديق لصديقه ما يعلم أنه يسره علمه ورؤيته من حظه المرتقب : لكم فيها  
 ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . ويزيدونها لهم جمالا وكرامة : نزلا من غفور رحيم . فهي  
 من عند الله أنزلكم إياها بغفرته ورحمته .. فأى نعيم بعد هذا النعيم ؟

\*\*\*

ويختتم هذا الشوط برسم صورة الداعية إلى الله ، ووصف روحه ولفظه ، وحديثه وأدبه .  
 ويوجه إليها رسوله - صلى الله عليه وسلم - وكل داعية من أمته . وكان قد بدأ السورة بوصف  
 جفوة المدعويين وسوء أدبهم ، وتبجحهم النكير . ليقول للداعية : هذا هو منهجك مها كانت  
 الأمور :

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا . وقال : إنني من المسلمين » ولا تستوى  
 الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم .  
 وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم . وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعد  
 بالله ، إنه هو السميع العليم » ..

إن النهوض بواجب الدعوة إلى الله ، في مواجهة التواءات النفس البشرية ، وجهلها ،  
 واعتزازها بما ألفت ، واستكبارها أن يقال : إنها كانت على ضلالة ، وحرصها على شهواتها وعلى  
 مصالحها ، وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة إلى إله واحد ، كل البشر أمامه سواء ..

إن النهوض بواجب الدعوة في مواجهة هذه الظروف أمر شاق . ولكنه شأن عظيم :  
 « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحا ، وقال : إنني من المسلمين » ..  
 إن كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض ، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى  
 السماء . ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة ؛ ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه  
 الذات . فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ .

ولاعطى الداعية بعد ذلك أن يتلقى كلمته بالإعراض ، أو بسوء الأدب ، أو بالتبجح في الإنكار .  
 فهو إنما يتقدم بالحسنة . فهو في اللقمة الرفيع ؛ وغيره يتقدم بالسيئة . فهو في المكان الدون :  
 « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » ..

وليس له أن يرد بالسيئة ، فإن الحسنة لا يستوى أثرها - كما لا تستوى قيمتها - مع السيئة

## الجزء الرابع والعشرون

والصبر والتسامح ، والاستملاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن الجحاح إلى اللين :

« ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ..

وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات . ويتقلب الهياج إلى وداعة . والغضب إلى سكونة . والتبجح إلى حياء ؛ على كلمة طيبة ، ونبرة هادئة ، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام !

ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا ومرودا . وخلع حياءه نهائيا ، وأفلت زمامه ، وأخذته العزة بالإثم .

غير أن تلك السباحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد . وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السباحة أثرها . حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا . ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا .

وهذه السباحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية . لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها . فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها . أو الصبر حتى يتقضى الله أمرا كان مفعولا .

وهذه الدرجة، درجة دفع السيئة بالحسنة، والسباحة التي تستلج على دفعات الغيظ والغضب ، والتوازن الذي يعرف متى تكون السباحة ومتى يكون الدفع بالحسنى . . درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان . فهي في حاجة إلى الصبر . وهي كذلك حظ موهوب يتفضل به الله على عباده الذين يحاولون فيستحقون :

« وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ..

إنها درجة عالية إلى حد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي لم يغضب لنفسه قط ؛ وإذا غضب لله لم يتم غضبه أحد . قيل له - وقيل لكل داعية في شخصه - :

« وإما ينزغك من الشيطان نزع فاستعد بالله ، إنه هو السميع العليم » ..

فالنضب قد ينزغ . وقد يلقي في الروح قلة الصبر على الإساءة . أو ضيق الصدر عن السباحة . فلاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية ، تدفع محاولات ، لاستغلال الغضب ، والنفاذ من ثمرته .

إن خالق هذا القلب البشري ، الذي يعرف مداخله ومساربه ، ويعرف طاقته واستعداده ، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه ، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب . أو نزغات الشيطان . مما يلقاه في طريقه مما يشير غضب الحليم .



## سورة فصلت

إنه طريق شاق . طريق السير في مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها ، حتى يبلغ  
الداعية منها موضع التوجيه ؛ ونقطة القيادة !!!

« وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ ،  
وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ، إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ  
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ .  
« وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً ، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ،  
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .  
« إِنْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا . أَفَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ  
يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .  
« إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ \* لَا يَأْتِيهِ  
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ \* مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا  
مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ \* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا  
أَعْجَبًا لَقَالُوا : لَوْ لَا فَصَّلَتْ آيَاتُهُ ؟ أَعْجَبِي وَعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ : هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى  
وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ  
مَكَانٍ بَعِيدٍ .

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ  
لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ \* إِلَيْهِ يُرَدُّ  
عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا ، وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا  
بِعِلْمِهِ ، وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ : أَيْنَ شُرَكَائِي ؟ قَالُوا : آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ \* وَضَلَّ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ، وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَجِيسٍ .

« لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقْ قَنُوطٌ \* وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّهُ ، لَيَقُولُنَّ : هَذَا لِي ، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى . فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ \* وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ! مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ

فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ؟ \* أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ » ﴿٥١﴾

هذا شوط جديد مع القلب البشري في مجال الدعوة . يبدأ بجولة مع آيات الله الكونية : الليل والنهار والشمس والقمر ، وفي الشركين من كان يسجد للشمس والقمر مع الله . وهما من خلق الله . ويعقب على عرض هذه الآيات بأنهم إن استكبروا عن عبادة الله فهناك من هم أقرب منهم إلى الله يعبدونه . ثم هناك الأرض كلها في مقام العبادة وهي تلتقي من ربها الحياة ، كما تلقوها فلم يتحركوا بها إلى الله . إغماهم يلحدون في آيات الله الكونية ، ويجادلون في آياته القرآنية ؛ وهو قرآن عربي غير مشوب بأعجمية . وينتقل بهم إلى مشهد من مشاهد القيامة . ثم يمرض عليهم أنفسهم عارية بكل ما فيها من ضعف وتقلب ونسيان ، وبكل ما فيها من حرص على الخير وجزع من الضر . ثم هم لا يقون أنفسهم من شر ما يصيبها عند الله . وتنتهي السورة بوعد الله سبحانه أن يكشف للناس عن آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، ويذهب ما في قلوبهم من ريب وشك . .

\*\*\*

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا

لله الذي خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون . . .

## سورة فصلت

وهذه الآيات معروضة للأُنظار ، يراها العالم والجاهل . ولها في القلب البشري روعة مباشرة . ولو لم يعلم الإنسان شيئا عن حقيقتها العلمية . فينبأ وبين الكائن البشري صلة أعمق من المعرفة العلمية . بينها وبينه هذا الاتصال في النشأة ، وفي الفطرة ، وفي التكوين . فهومنها وهي منه . تكوينه تكوينها ، ومادته مادتها ، وفطرته فطرتها ، وناموسه ناموسها ، وإلهه إلهها . . فهو من ثم يستقبلها بحسه العميق في هزة وإدراك مباشر لمنطقها العريق ا

لهذا يكفي القرآن غالبا بتوجيه القلب إليها ، وإيقاظه من غفلته عنها ، هذه الغفلة التي ترد عليه من طول الألفة تارة ، ومن تراكم الحواجز والموانع عليه تارة . فيجلوها القرآن عنه ، لينتفض جديدا حيا يقظا يعاطف هذا الكون الصديق ، ويتجاوب معه بالمعرفة القديمة العميقة الجذور .

وصورة من صور الانحراف تلك التي تشير إليها الآية هنا . فقد كان قوم يبالغون في الشعور بالشمس والقمر شعورا منحرفا ضالا فيمبدونهما باسم التقرب إلى الله بعبادة أبي خلاته ! فجاء القرآن ليردهم عن هذا الانحراف ؛ ويزيل الغيبس عن عقيدتهم للدخولة . ويقول لهم : إن كنتم تعبدون الله حقا فلا تسجدوا للشمس والقمر .. « واسجدوا لله الذي خلقهن » فالخالق هو وحده الذي يتوجه إليه المخلوقون أجمعين . والشمس والقمر مثلكم يتوجهون إلى خالقهما فتوجهوا معهم إلى الخالق الواحد الذي يستحق أن تعبدوه . ويميد الضمير عليهما مؤثنا مجموعا: « خلقهن » باعتبار جنسهما وأخواتهما من الكواكب والنجوم ؛ ويتحدث عنهن بضمير المؤنث العاقل ليخلع عليهن الحياة والعقل ، ويصورهن شخصا ذات أعيان ا

فإن استكبروا بعد عرض هذه الآيات ، وبعد هذا البيان ، فلن يقدم هذا أويؤخر ؛ ولن يزيد هذا أوينقص . فغيرهم يعبد غير مستكبر :

« فإن استكبروا فالدين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون » .. وأقرب ما يرد على القلب عند ذكر « الدين عند ربك » الملائكة . ولكن قد يكون هنالك غير الملائكة من عباد الله المقربين ؛ وهل نعلم نحن شيئا إلا اليسير الضئيل ؟ هؤلاء . الذين عند ربك . وهم أرفع وأعلى . وهم أكرم وأمثل . لا يستكبرون كما يستكبر أولئك المنحرفون الضالون في الأرض . ولا يفترون بقرب مكانهم من الله . ولا يفترون عن تسيحه ليلا ونهارا « وهم لا يسأمون » .. فإذا يساوى أن يتخلف من أهل الأرض من يتخلف في حقيقة العبودية لله من الجميع ؟

وهنالك الأرض - أمم التي تقوتهم - الأرض التي عنها خرجوا وإليها يعودون . الأرض

## الجزء الرابع والعشرون

التي هم على سطحها نعال تدب ولا طعام لها ولا شراب إلا ما تستمده منها .. هذه الأرض تقف خاشعة لله ، وهي تلتقي من يديه الحياة :

« ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » . . .

وتقف لحظة أمام دقة التعبير القرآني في كل موضع . نخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء عليها . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . وكأنما هي حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة . ذلك أن السياق الذي وردت فيه هذه الآية سياق خشوع وعبادة وتسبيح ، فجاء بالأرض في هذا المشهد ، شخصا من شخوص المشهد ، تشارك فيه بالشعور المناسب وبالحركة المناسبة . . .

ونستعير هنا صفحة من كتاب « التصوير الفني في القرآن » عن التناسق الفني في مثل هذا التعبير (١) :

« عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر . وقبل تفتحها بالنبات ، مرة بأنها « هامة » ، ومرة بأنها « خاشعة » . وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

« لقد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو :

« وردت « هامة » في هذا السياق : « يأيتها الناس إن كنتم في ريب من البعث ، فإننا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة . لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ؛ ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ؛ ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكي لا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج » (٢) . . .

ووردت « خاشعة » في هذا السياق : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ، إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ، وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » .

« وعند التأمل السريع في هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق في « هامة » و « خاشعة » . إن الجوف في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فما يتسق معه تصوير الأرض « هامة »

(١) ص ٩٨-١٠٠ من الطبعة الرابعة

(٢) سورة الحج [٥] .

ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج . وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود ، يتسق معه تصوير الأرض « خاشعة » فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت . « ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنبات والإخراج ، كما زاد هناك ، لأنه لا محل لها في جو العبادة والسجود . ولم تجيء « اهتزت وربت » هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك . إنهما تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها . وهذه الحركة هي المقصودة هنا ، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكناً ، وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة التخيلية يسمو على كل تقدير « الخ . الخ .

ونعود إلى النص القرآني فنجد أن التعقيب في نهاية الآية يشير إلى إحياء الموتى ، ويتخذ من إحياء الأرض نموذجاً ودليلاً :

« إن الذي أحيانا لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير » ..

ويتكرر في القرآن عرض مثل هذا المشهد واتخاذ نموذجاً للإحياء في الآخرة ، ودليلاً كذلك على القدرة . ومشهد الحياة في الأرض قريب من كل قلب ، لأنه يلمس القلوب قبل أن يلمس العقول ، والحياة حين تنبض من بين الموات ، توحى بالقدرة المنشئة إجماع خفياً ينبض في أعماق الشعور . والقرآن يخاطب الفطرة بلغتها من أقرب طريق .

\* \* \*

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذات الأثر الشعوري العميق يجيء التنديد والتهديد لمن يلحدون في هذه الآيات الظاهرة الباهرة ؛ فيكفرون بها ، أو يغالطون فيها :

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خيراً ؟ أم من يأتي آمن يوم القيامة . اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » .

ويبدأ التهديد ملفوفاً ولكنه عجيف : « لا يخفون علينا » .. فهم مكشوفون لعلم الله . وهم مأخوذون بما يلحدون ، مها غلطوا واثبوا ، وحسبوا أنهم مفلتون من يد الله كما قد يفلتون بالمغالطة من حساب الناس .

ثم يصرح بالتهديد : « أفمن يلقى في النار خيراً أم من يأتي آمن يوم القيامة ؟ » .. وهو تعريض بهم ، وبما ينتظرهم من الإلقاء في النار والخوف والفرع ، بالمقابلة إلى مجيء المؤمنين آمنين .

## الجزء الرابع والعشرون

وتنتهي الآية بتهديد آخر ملفوف : « اعملوا ما شئتم . إنه بما تعملون بصير » . . . ويخوف من يترك ليكمل فيلحد في آيات الله . والله بما يعمل بصير .

\*\*\*

ويستطرد إلى الذين يكفرون بآيات الله القرآنية ، والقرآن كتاب عزيز قوى منيع الجانب ، لا يدخل عليه الباطل من قريب ولا من بعيد :

« إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم . ولوجعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ! أأعجمي وعربي : قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء . والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد » .

والنص يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ؛ ولا يذكر ماذا هم ولا ماذا سيقع لهم . فلا يذكر الخبر : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم . . . » كأنما يقال : إن فعلتهم لا يوجد وصف ينطبق عليها ويكافئها لشدة بشاعتها !

لذلك يترك النص خبر « إن » لآياتي به ويعضى في وصف الذكر الذي كفروا به لتفطيع القصة وتبشيمها :

« وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . تنزيل من حكيم حميد » . . . وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب . وهو صادر من الله الحق . يصدع بالحق . ويتصل بالحق الذي تقوم عليه السموات والأرض ؟

وأنى يأتيه الباطل وهو عزيز . محفوظ بأمر الله الذي تكفل بحفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

والتدبر لهذا القرآن يجد فيه ذلك الحق الذي نزل به ، والذي نزل ليقره . يجده في روحه ويجده في نضه . يجده في بساطة ويسر . حقا مطمئنا فطريا ، يخاطب أعماق الفطرة ، ويطبعها ويؤثر فيها التأثير العجيب .

وهو « تنزيل من حكيم حميد » . . . والحكمة ظاهرة في بنائه ، وفي توجيهه ، وفي طريقة نزوله ، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق . والله الذي نزله خليق بالحمد . وفي القرآن ما يستجيش القلب لحمد الكثير .

ثم يربط السياق بين القرآن وسائر الوحي قبله ؛ وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

## سورة فصلت

وسائر الرسل قبله . ويجمع أسرة النبوة كلها في ندوة واحدة تلتق من ربها حديثا واحدا ، ترتبط به أرواحها وقلوبها ، وتتصل به طريقها ودعوتها ؛ ويحس المسلم الأخير أنه فرع من شجرة وارفة عميقة الجذور ، وعضو من أسرة عريقة قديمة التاريخ :

« ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » . .

إنه وحى واحد ، ورسالة واحدة ، وعقيدة واحدة . وإنه كذلك استقبال واحد من البشرية ، وتكذيب واحد ، واعتراضات واحدة . . ثم هي بعد ذلك وشيخة واحدة ، وشجرة واحدة وأسرة واحدة ، وآلام واحدة ، وتجارب واحدة ، وهدف في نهاية الأمر واحد ، طريق واصل ممدود .

أى شعور بالأنس ، والقوة ، والصبر ، والتصميم . توحيه هذه الحقيقة لأصحاب الدعوة ، السالكين في طريق سار فيها من قبل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم جميعا . صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؟

وأى شعور بالكرامة والاعتزاز والاستعلاء على مصاعب الطريق وعثرتها وأشواكها وعقباتها ، وصاحب الدعوة يعضى وهو يشعر أن أسلافه في هذا الطريق هم تلك المصبة المختارة من بني البشر أجمعين ؟

إنها حقيقة : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » . . ولكن أى آثار هائلة عميقة ينشأ استقرار هذه الحقيقة في نفوس المؤمنين ؟

وهذا ما يصنعه هذا القرآن ، وهو يقرر مثل هذه الحقيقة الضخمة ويزرعها في القلوب . ومما قيل للربيل وقيل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل :

« إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » . .

ذلك كي تستقيم نفس المؤمن وتوازن . فيطمع في رحمة الله ومغفرته فلا ييأس منها أبدا . ويحذر عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبدا .

إنه التوازن طابع الإسلام الأصيل .

ثم يذكركم بنعمة الله عليهم أن جعل هذا القرآن عربيا بلسانهم ؛ كما يشير إلى طريقهم في العنت والإلحاد والجدل والتحريف :

« ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ؟ » . .

فهم لا يصغون إليه عربيا ، وهم يخافون منه لأنه عربى يخاطب فطرة العرب بلسانهم . فيقولون : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . ولو جعله الله قرآنا أعجميا لاعترضوا

## الجزء الرابع والعشرون

عليه أيضا ، وقالوا لولا جاء عربيا فصيحا مفصلا دقيقا ! ولو جعل بعضه أعجميا وبعضه عربيا لاعترضوا كذلك وقالوا الأعجمي وعربي ؟ ! فهو المراء والجدل والإلحاد .

والحقيقة التي تخلص من وراء هذا الجدل حول الشكل ، هي أن هذا الكتاب هدى للمؤمنين وشفاء ، قلوب المؤمنين هي التي تدرك طبيعته وحقيقته ، فهتدى به وتشتفى . فأما الذين لا يؤمنون قلوبهم مطموسة لا تخالطها بشاشة هذا الكتاب ، فهو وقر في آذانهم ، وعمى في قلوبهم . وهم لا يتبينون شيئا . لأنهم بعيدون جداً عن طبيعة هذا الكتاب وهواته :

« قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد .. »

ويجد الإنسان مصداق هذا القول في كل زمان وفي كل بيئة . فناس يفعل هذا القرآن في نفوسهم فينشأ إنشاء ، ويحييها إحياء ؛ ويصنع بها ومنها العظام في ذاتها وفيما حولها . وناس يشغل هذا القرآن على آذانهم وعلى قلوبهم ، ولا يزيدهم إلا صمماً وعمى . وماتغير القرآن . ولكن تغيرت القلوب . وصدق الله العظيم .

\*\*\*

ويشير إلى موسى وكتابه واختلاف قومه في هذا الكتاب . يشير إليه نموذجاً للرسول الذين ورد ذكرهم من قبل إجمالاً . وقد أجل الله حكمه في اختلافهم ، وسبقت كلمته أن يكون الفصل في هذا كله في يوم الفصل العظيم :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لغضى بينهم ، وإنهم لفي شك منه مريب .. »

وكذلك سبقت كلمة ربك أن يدع الفصل في قضية الرسالة الأخيرة إلى ذلك اليوم للوعود . وأن يدع الناس يعملون ، ثم يجازون على ما يعملون :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .. »

لقد جاءت هذه الرسالة تعلن رشد البشرية ، وتضع على كاهلها عبء الاختيار ؛ وتعلن مبدأ التبعة الفردية . ولمن شاء أن يختار « وما ربك بظلام للعبيد » (١) ..

\*\*\*

وبمناسبة الإشارة إلى الأجل المسمى ، وتقرير عدل الله فيه ، يقرر أن أمر الساعة وعلمها إلى الله وحده ، ويصور علم الله في بعض مجالاته صورة موحية تمس أعماق القلوب . وذلك في الطريق إلى عرض مشهد من مشاهد القيامة يسأل فيه الشركون ويحجبون :

(١) إلى هنا ينتهي الجزء الرابع والعشرون . ولكتنا آثرنا أن تابع السورة إلى ختامها القريب .



## سورة فصلت

« إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . ويوم يناديهم : أين شركائي ؟ قالوا : آذناك ما منا من شهيد . وصل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص » . . .

والساعة غيب غائر في ضمير المجهول . والثمرات في أكمامها سر غير منظور ، والحمل في الأرحام غيب كذلك مستور . وكلها في علم الله ، وعلم الله بها محيط . وينهب القلب يتبع الثمرات في أكمامها ، والأجنة في أرحامها . ينهب في جنبات الأرض كلها يرقب الأكام التي لا تحصى ؛ ويتصور الأجنة التي لا يحصرها خيال ! وترتسم في الضمير صورة لعلم الله بقدر ما يطبق الضمير البشري أن يتصور من الحقيقة التي ليس لها حدود .

ويتصور القطيع الضال من البشر ، واقفا أمام هذا العلم الذي لا يند عنه خاف ولا مستور : « ويوم يناديهم : أين شركائي ؟ » . . .

هنا في هذا اليوم الذي لا يجدي فيه جدال ، ولا تحريف للكلم ولا محال . فماذا هم قائلون ؟ « قالوا : آذناك ما منا من شهيد ؟ » . . .

أعلمناك ، أن ليس منا اليوم من يشهد أنك لك شريك !

« وصل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ، وظنوا ما لهم من محيص » . . .

فما عادوا يعرفون شيئا عن دعواهم السابقة . ووقع في نفوسهم أن ليس لهم مخرج مما هم فيه . وتلك أمانة الكرب المذهل ، الذي ينسى الإنسان ماضيه كاه ؛ فلا يذكر إلا ما هو فيه .

\*\*\*

ذلك هو اليوم الذي لا يحتاطون له ، ولا يحترسون منه ، مع شدة حرص الإنسان على الحبر ، وجزعه من الضر . . . وهنا يصور لهم نفوسهم عارية من كل رداء ، مكشوفة من كل ستار ، عاطلة من كل تمويه :

« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن : هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى . فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ . وإذا أنمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » . . .

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية ، التي لا تهتدي بهدى الله ، فتستقيم على طريق . . . رسم يصور قلبها ، وضعفها ، ومراءها ، وحبها للخير ، وجحودها للنعمة . واعتزازها بالسراء ، وجزعها من الضراء . . . رسم دقيق عجيب . . .

## الجزء الرابع والعشرون

هذا الإنسان لا يأس من دعاء الخير . فهو ملج فيه ، مكرر له ، يطلب الخير لنفسه ولا يعمل طلبه . وإن مسه الشر . مجرد مس . فقد الأمل والرجاء ؛ وظن أن لا يخرج له ولا فرج ، وتقطعت به الأسباب ؛ وضاق صدره وكبر همه ؛ ويشس من رحمة الله وقنط من رعايته . ذلك أن ثقته بربه قليلة ، ورباطه به ضعيف !

وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر ، استخفته النعمة فنى الشكر ؛ واستطاره الرخاء ففعل عن مصدره . وقال : هذا لى . نلته باستحقاقى وهو دائم على ! ونسى الآخرة واستبعد أن تكون : « وما أظن الساعة قائمة » . . وانتفخ في عين نفسه فراح يتألى على الله ، ويحسب لنفسه مقاما عنده ليس له ، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله . ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده ! « ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى » ! وهو غرور . . عندئذ يجيء التهديد في موضعه لهذا الغرور :

« فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ » . .

وهذا الإنسان إذا أنعم الله عليه : استعظم وطغى . وأعرض ونأى بجانبه . فأما إذامسه الشر فيتخاذل ويتهاوى ، ويصغر ويتضائل ، ويتضرع ولا يعمل الضراعة . فهو ذو دعاء عريض ! آية دقة ، وأى تسجيل للصغيرة في نفس الإنسان والكبيرة ! إنه خالق الذى يصفه . خالقه الذى يعرف دروب نفسه . ويعرف أنها تظل تدور في هذه الدروب المنحنية ، إلا أن تهتدى إلى الطريق السقيم . . فتستقيم . .

وأمام هذه النفس العارية من كل رداء ، المكشوفة من كل ستار ، يسألهم : فإذا أتمم إذن صانعون إن كان هذا الذى تكذبون به ، من عند الله ، وكان هذا الوعيد حقا ؛ وكنتم تعرضون أنفسكم لمقابلة التكذيب والشقاق :

« قل : أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ؟ » . . إنه احتمال يستحق الاحتياط . فإذا أخذوا لأنفسهم من وسائل الاحتياط ؟

\*\*\*

ويدعهم بعدئذ يفكرون ويحسبون . ويتجه إلى الكون العريض . يكشف عن بعض ما قدر فيه - وفي ذوات أنفسهم - من مقادير :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم . ألا إنه بكل شىء محيط » . . إنه الإيقاع الأخير . وإنه لإيقاع كبير . . .

إنه وعد الله لعباده - بني الإنسان - أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون ، ومن خفايا أنفسهم على السواء . وعدم أن يريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . هذا الدين . وهذا الكتاب . وهذا المنهج . وهذا القول الذي يقوله لهم . ومن أصدق من الله حديثا ؟

ولقد صدقهم الله وعده ؛ فكشف لهم عن آياته في الآفاق في خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد؛ وكشف لهم عن آياته في أنفسهم . وما يزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد . وينظر الإنسان قيرى البشر قد كشفوا كثيرا جدا منذ ذلك الحين . فقد تفتحت لهم الآفاق . وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذي شاءه الله .

لقد عرفوا أشياء كثيرة . لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير . عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التي كانوا يظنونها مركز الكون .. إن هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس . وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين . وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم - وربما طبيعة كونهم ، إن صح ما عرفوه !

وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذي يعيشون فيه . إن صح أن هناك مادة . عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة . وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع . وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع . . في صور شتى : هي التي تجمل منه هذه الأشكال والأحجام ! وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضي الصغير . عرفوا أنه كرة أو كالكرة . وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس . وعرفوا قاراته وعيطاته وأنهاره . وكشفوا عن شيء من باطنه . وعرفوا الكثير من الخبوء في جوف هذا الكوكب من الأقوات . والنشور في جوف من هذه الأقوات أيضا !

وعرفوا رحمة النواميس التي تربط كوكبهم بالكون الكبير ، وتصرف هذا الكون الكبير . ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس . ومنهم من انحرف فوقف عن ظاهر العلم لا يتعمده . ولكن البشرية بعد الضلال والشروء من جراء العلم ، قد أخذت عن طريق العلم ثوب ، وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق .

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في اغوار النفس بأقل منها في جسم الكون . فقد عرفوا عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير . عرفوا عن تكوينه وتركيبه ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته ، ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله .

## الجزء الرابع والعشرون

وعرفوا عن النفس البشرية شيئاً .. إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجيم . لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه . ولكن أشياء قد عرفت تشير إلى فتوح متجىء ..

وما يزال الإنسان في الطريق !

ووعده الله ما يزال قائماً : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .. والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائمه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ . فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى . وعن طريق العلم المادى وحده يفد كثيرون ! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد . ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضى . ولكن هذه الموجة تنحسر الآن . تنحسر - على الرغم من جميع الظواهر المخالفة - وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذى نحن فيه ، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله . وحتى يحق وعد الله الذى لا بد أن يكون :

« أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ » ..

وهو الذى أعطى وعده عن علم وعن شهود .

« ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم » ..

ومن ثم يقع ما يقع منهم ، بسبب هذا الشك فى اللقاء . وهو أكيد .

« ألا إنه بكل شيء محيط » ..

فأين يذهبون عن لقاءه وهو بكل شيء محيط ؟

تم الجزء الرابع والعشرون . ويليه الجزء  
الخامس والعشرون مبدوءاً بسورة الشورى

# فی ظلال القرآن

الجزء الخامس والعشرون

بم  
سید قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة الشورى والزخرف والدخان والجنانية

## سُورَةُ الشُّورَىٰ مَكِّيَّةٌ وآياتها ۵۳

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حم \* عسق ﴿۵﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ \*  
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ \* تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ  
فَوْقِهِنَّ ، وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ، إِلَّا إِنْ  
اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ، وَمَا أَنْتَ  
عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .

« وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَنُنذِرَ  
يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَبَ فِيهِ ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ \* وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً  
وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ، وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ \*  
أِمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ؟ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ، وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ .

« وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ، ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ،  
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ \* فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ  
الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ، يَذُرُّوكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ \*  
لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ \* وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْ لَا كَلِمَةُ سَبَقَتْ مِنَ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ \* فَذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ \* وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

« اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ \* يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ، إِلَّا إِنْ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

« اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ \* مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

« أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ؟ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ، وَهُوَ وَقَعٌ بِهِمْ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ \* ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا



وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . قُلْ : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ، وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَسِّمِ عَلَىٰ قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ، وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » ﴿٢٥﴾

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السور المكية ؛ ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال : إنها هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ؛ وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوجدانية، وتعرضها من جوانب متعددة؛ كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ؛ ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها . وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها . كما تلم بقضية الرزق : بسطه وقبضه ؛ وصفة الإنسان في السراء والضراء .

ولكن حقيقة الوحي والرسالة ، وما يتصل بها ، تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها . وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة . فهي تعرض من جوانب متعددة . يفترق بعضها عن بعض بوضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق . أو وحدانية الرازق . أو وحدانية المتصرف في القلوب . أو وحدانية المتصرف في الصير . . ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الوحي - سبحانه - ووحدة الوحي . ووحدة العقيدة . ووحدة المنهج والطرق وأخيرا وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرسم في النفس خط الوجدانية بارزا واضحا ، بشق معانيه وشق ظلاله وشق إيماءاته ، من وراء موضوعات السورة جميعا . . وانضرب بعض الأمثلة من السورة إجمالا ، قبل أن نأخذ في التفصيل :

## سورة الشورى

تبدأ بالأحرف المقطعة : « حاء . ميم . عين . سين . قاف » . . . يلها : « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . . . مقررا وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين : « إليك وإلى الذين من قبلك » . . .

ثم يستطرد السياق في صفة الله العزيز الحكيم : « له ما في السموات وما في الأرض وهو العلى العظيم » . . . مقررا وحدانية المالك لما في السموات والأرض واستعلاءه وعظمته على وجه الانفراد .

ثم يستطرد استطرادا آخر في وصف حال الكون تجاه قضية الإيمان بالمالك الواحد، وتجاه الشرك الذى يشذ به بعض الناس : « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . . . فإذا الكون كله مشغول بقضية الإيمان والشرك حتى أن السموات ليكدن يتفطرن من شذوذ بعض أهل الأرض، بينما الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض جميعا من هذه الفعلة الشعاء التى جاء بها بعض المنحرفين !

وبعد هذه الجولة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى : « وكذلك أوحينا إليك ، قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق فى الجنة وفريق فى السعير» . . . ثم يستطرد مع « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . . . فيقرر أن لو شاء الله لجمعهم أمة واحدة . ولكن مشيئته اقتضت بعاله من علم وحكمة أن يدخل من يشاء فى رحمته « والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير » . . . ويقرر أن الله وحده هو الولى « وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير » . . .

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، حقيقة الوحي والرسالة ، فيقرر أن الحكم فيما يختلف فيه البشر من شيء هو الله الذى أنزل هذا القرآن ليرجع إليه الناس فى كل اختلاف : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . . . ويستطرد مع الربوبية إلى وحدانية الخالق ، وتفرد ذاته . ووحدانية التصرف فى مقادير السموات والأرض ، وفى بسط الرزق وقبضه . وفى علمه بكل شيء : « فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، ومن الأنعام أزواجا ، يذروكم فيه ، ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم » . . .

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا

إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى: أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه. كبر على المشركين ما تدعوهم إليه. الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب. وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم، وإن الدين أورتوا الكتاب من قبلهم لفي شك منه مريب. فلذلك فادع واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب... الخ ..

وعلى مثل هذا النسق تمضي السورة في عرض هذه الحقيقة؛ محوطة بمثل هذا الجو، وهذه الاستطرادات المتعلقة بقضايا العقيدة الأخرى، المثبتة في الوقت ذاته للحقيقة الأولى التي تبدو كأنها موضوع السورة الرئيسي.

وهذا النسق واضح وضوحا كاملا في هذا الدرس الأول من السورة. فالتقاربي، يلتقي بعد كل بضع آيات بحقيقة الوحي والرسالة في جانب من جوانبها.

فأما الدرس الثاني ويؤلف بقية السورة، فيبدأ باستعراض بعض آيات الله في بسط الرزق وقبضه؛ وفي تنزيل الغيث برحمته؛ وفي خلق السماوات والأرض وما بينهما من دابة؛ وفي الفلك الجوارى في البحر كالأعلام. ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التي تفردهم وتميز جماعتهم. فإلى مشهد من مشاهد القيامة يعرض صورة الظالمين لما رأوا العذاب: « يقولون هل إلى مرد من سبيل، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » .. واستعلاء المؤمنين يومئذ ووقوفهم موقف المقرر لحال الظالمين:

« وقال الذين آمنوا: إن الحاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » .. وفي ظل هذا المشهد يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان: « استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله، ما لكم من ملجأ يومئذ، وما لكم من نكير » ..

ومن ثم يعود إلى الحقيقة الأولى في السورة. حقيقة الوحي والرسالة. في جانب من جوانبها: « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ... » .

ويعضى سياق السورة حتى ختامها يدور حول هذا المحور مباشرة أو غير مباشرة، مع طابع الاستطراد بين كل إشارة وإشارة إلى تلك الحقيقة، حتى يكون ختام السورة هذا البيان في شأن الوحي والرسالة: « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه على حكيم. وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري

## سورة الشورى

ما الكتاب ولا الإيمان ؛ ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ..

\*\*\*

وبعد فن وراء التركيز على حقيقة الوحي والرسالة فى سياق السورة كله يبرز هدف خاص لعرضها على هذا النحو وفى هذا التابع .

هذا الهدف هو تعيين القيادة الجديدة للبشرين ممثلة فى الرسالة الأخيرة ، ورسولها ، والأمة المسلمة التى تتبع نهجه الإلهى الثابت القويم .

وتبدأ أول إشارة مع مطلع السورة « كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مطرد من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » . لتقرر مركز القيادة الجديدة التى سترد الإشارة إليها فيما بعد .

وفى الإشارة الثالثة يقرر وحدة الرسالة بعد ما قرر فى الإشارة الأولى وحدة المصدر : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ..

وتستطرد هذه الإشارة إلى تقرير أن التفرق قد وقع ، مخالفا لهذه التوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم . وقع بغيا وظلما وحسدا : « وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » ..

ثم تستطرد كذلك إلى بيان حال الذين جاءوا من بعد أولئك الذين اختلفوا : « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ..

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتباب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم .. فرسالة السماء التى تقود البشرية قد آلت إلى اختلاف بين أتباعها . والذين جاءوا من بعدهم تلقوها فى ريب وفى شك لاتستقيم معها قيادة راشدة .

ومن ثم يعلن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها - صلى الله عليه وسلم - لهذه القيادة : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم . وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعطيكم بينكم . الله ربنا وربكم ... الخ » .. ومن ثم نبه صفة الجماعة المؤمنة المميزة لها طبيعية فى سياق هذه السورة - فى الدرس الثانى - بوصفها الجماعة التى ستقوم على قيادة هذه البشرية على ذلك النهج الثابت القويم .

وعلى ضوء هذه الحقيقة يصبح سياق السورة وموضوعها الرئيسي والموضوعات الأخرى فيه واضحة القصد والاتجاه . وتتبع هذا السياق بالتفصيل يزيد هذا الأمر وضوحاً . .

\*\*\*

« حم . عسق . كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وهو العلى العظيم . تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن فى الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم . والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » ..

سبق الحديث عن الأحرف المقطعة فى أوائل السور بما فى الكفاية . وهى تذكر هنا فى مطلع السورة ، ويلها قوله تعالى :

« كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » ..

أى مثل ذلك ، وعلى هذا النسق ، وبهذه الطريقة يكون الوحي إليك وإلى الذين من قبلك . فهو كلمات وألفاظ وعبارات مصوغة من الأحرف التى يعرفها الناس ويفهمونها ويدركون معانيها ؛ ولكنهم لا يملكون أن يصوغوا مثلها بما بين أيديهم من أحرف يعرفونها .

ومن الناحية الأخرى تتقرر وحدة الوحي . وحده مصدره فالوحي هو الله العزيز الحكيم . والوحي إليهم هم الرسل على مدار الزمان . والوحي واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمان : « إليك وإلى الذين من قبلك » ..

إنها قصة بعيدة البداية ، ضاربة فى أطوار الزمان ، وسلسلة كثيرة الحلقات ، متشابهة الحلقات . ومنهج ثابت الأصول على تعدد الفروع .

وهذه الحقيقة - على هذا النحو - حين تستقر فى ضمائر المؤمنين تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته ، ووحدة مصدره وطريقه . وتشدهم إلى مصدر هذا الوحي : « الله العزيز الحكيم » .. كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين أتباع الوحي فى كل زمان ومكان ، فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ ، وتمتد جذورها فى شباب الزمن ؛ وتصل كلها بالله فى النهاية . فيلتقون فيه جميعاً . وهو « العزيز » القوى القادر « الحكيم » الذى يوحي لمن يشاء بما يشاء وفق حكمة وتديير . فأنى يصرفون عن هذا المنهج الإلهى الواحد الثابت إلى السبل المتفرقة التى لا تؤدى إلى الله ؟ ولا يعرف لها مصدر ، ولا تستقيم على اتجاه قاصد قويم ؟

## سورة الشورى

ويستطرد في صفة الله الذي يوحى وحده إلى الرسل جميعا ؛ فيقرر أنه المالك الوحيد لما في  
السموات وما في الأرض ، وأنه وحده العلي العظيم :

« له ما في السموات وما في الأرض ، وهو العلي العظيم » . .

وكثيرا ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون شيئا ، لمجرد أنهم يجدون أشياء في أيديهم ،  
مسخرة لهم ، ينتفعون بها ، ويستخدمونها . فيما يشاءون . ولكن هذا ليس ملكا حقيقيا .  
إنما الملك الحقيقي لله ؛ الذي يوجد ويعدم ، ويحيي ويميت ؛ ويعلمك أن يعطي البشر ما يشاء ،  
ويحرمهم ما يشاء ؛ وأن يذهب بما في أيديهم من شيء ، وأن يضع في أيديهم بدلا مما أذهب . .  
الملك الحقيقي لله الذي يحكم طبائع الأشياء ، ويصرفها وفق الناموس المختار ، فتلي وتطيع  
وتتصرف وفق ذلك الناموس . وكل ما في السموات وما في الأرض من شيء « الله » بهذا الاعتبار  
الذي لا يشاركه فيه أحد سواه . . « وهو العلي العظيم » . . فليس هو الملك خصب ، ولكنه  
ملك العلو والعظمة على وجه التفرد كذلك . العلو الذي كل شيء بالقياس إليه سفول ؛ والعظمة  
التي كل شيء بالقياس إليها ضالة ا

ومتى استقرت هذه الحقيقة استقرارا صادقا في الضمائر ، عرف الناس إلى أين يتجهون فيما  
يطلبون لأنفسهم من خير ومن رزق ومن كسب . فكل ما في السموات وما في الأرض لله .  
والمالك هو الذي بيده العطاء . ثم إنه هو « العلي العظيم » الذي لا يصغر ولا يسفل من  
عديده إليه بالسؤال ؛ كما لو مدها للمخاليق ، وهم ليسوا بأعالياء ولا عطاء ا  
ثم يعرض مظهرها الخالص الملكية لله في الكون ، والعلو والعظمة كذلك . يتمثل في حركة  
السموات تكاد تفتقر من روعة العظمة التي تستشعرها لربها ، ومن زيغ بعض من في الأرض  
عنها . كما يتمثل في حركة الملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لأهل الأرض من  
انحرافهم وتطاولهم :

« تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، ويستغفرون لمن  
في الأرض . ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . .

والسموات هي هذه الخلائق الضخمة الهائلة التي نراها تملونا حينما كنا على ظهر هذه الأرض ،  
والتي لانعلم إلا أشياء قليلة عن جانب منها صغير . وقد عرفنا حتى اليوم أن بعض ما في السموات  
نحو من مئة ألف مليون مجموعة من الشمس . في كل منها نحو مئة ألف مليون شمس كشمسنا هذه ،  
التي مبالغ حجمها أكثر من مليون ضعف من حجم أرضنا الصغيرة ا وهذه المجموعات من  
الشمس التي أمكن لنا - نحن البشر - أن نرصدها بمرآصدها الصغيرة ، متناثرة في فضاء السماء

مبشرة، وبينها مسافات شاسعة تحسب بمئات الألوف والملايين من السنوات الضوئية. أى المحرابة  
بسرعة الضوء ، التى تبلغ ١٦٨,٠٠٠ ميل فى الثانية !

هذه السماوات التى عرفنا منها هذا الجانب الصغير المحدود يكمن يتفطرن من فوقهن . . .  
من خشية الله وعظمته وعلوه ، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض ونسيانهم لهذه العظمة  
التى يحسبها ضمير الكون ، فيرتعش ، وينتفض ، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه !

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض » . . .

والملائكة أهل طاعة مطلقة ، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة. ولكنهم دائبون فى تسييح  
ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته ، ولما يخشون من التقصير فى حمده وطاعته . ذلك بيننا أهل  
الأرض القصور الضعاف ينكرون وينحرفون ؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ؛ ويروحون  
يستغفرون لأهل الأرض مما يقع فى الأرض من معصية وتقصير . ويجوز أن يكون المقصود هو  
استغفار الملائكة للذين آمنوا ، كالذى جاء فى سورة غافر : « الذين يحملون العرش ومن حوله  
يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا » . . . وفى هذه الحالة يبدو : كم  
يشفق الملائكة من أية معصية تقع فى الأرض ، حتى من الذين آمنوا ، وهم يرتاعون لها ،  
فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته ؛ واستهواً لأية معصية تقع فى  
ملكه ؛ واستدرااراً لمغفرته ورحمته ؛ وطمعاً فيهما :

« ألا إن الله هو الغفور الرحيم » . . .

فيجمع إلى العزة والحكمة ، العلو والعظمة ، ثم المغفرة والرحمة . . . ويعرف العباد ربهم  
بشئ صفاته .

وفى نهاية الفقرة - بعد تقرير تلك الصفات وأثرها فى الكون كله - يعرض للذين يتخذون  
من دون الله أولياء . وقد بدا أن ليس فى الكون غيره من ولى . ليعنى رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - من أمرهم ، فما هو عليهم بوكيل ، والله هو الحفيظ عليهم ، وهو بهم كفيل :

« والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل » . . .

وتبدو للضمير صورة هؤلاء الناكيد التمساء ؛ وهم يتخذون من دون الله أولياء ؛ وأيديهم  
كما أمسكت خاوية ، وليس هنالك إلا الهباء ! تبدو للضمير صورتهم - فى ضآلتهم وضآلة  
أوليائهم من دون الله . والله حفيظ عليهم . وهم فى قبضته ضعاف صفار . فأما النبي - صلى الله  
عليه وسلم - والمؤمنون معه ، فهم مضمون من التفكير فى شأنهم ، والاحتفال بأمرهم ، فقد كفاهم  
الله هذا الاهتمام .

## سورة الشورى

ولا بد أن تستقر هذه الحقيقة في ضمائر المؤمنين لتهدأ وتطمئن من هذا الجانب في جميع الأحوال. سواء كان أولئك الذين يتخذون من دون الله أولياء أصحاب سلطان ظاهر في الأرض، أم كانوا من غير ذوى السلطان. تطمئن في الحالة الأولى لهوان شأن أصحاب السلطان الظاهر - مها تجبروا - ما داموا لا يستمدون سلطانهم هذا من الله؛ والله حفيظ عليهم؛ وهو من ورأهم محيظ؛ والسكون كله مؤمن بربه من حولهم، وهم وخدم المنحرفون كالنغمة النشاز في اللحن المتناسق، وتطمئن في الحالة الثانية من ناحية أن ليس على المؤمنين من وزر في تولى هؤلاء غير الله؛ فهم ليسوا بوكلاء على من ينحرفون من الخلق؛ وليس عليهم إلا النصح والبلاغ. والله هو الحفيظ على قلوب العباد.

ومن ثم يسير المؤمنون في طريقهم. مطمئين إلى أنه الطريق الموصول بوحى الله. وأن ليس عليهم من ضير في انحراف المنحرفين عن الطريق. كائنا ما يكون هذا الانحراف ..

\*\*\*

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى:

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها، وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه، فريق في الجنة وفريق في السعير. ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء في رحمته، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير. أم اتخذوا من دونه أولياء؟ قاله هو الولى. وهو يحيى الموتى. وهو على كل شيء قدير» ..

«وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا ...» ..

يعطف هذا الطرف من حقيقة الوحي على ذلك الطرف الذى بدأ به السورة. والمناسبة هنا بين تلك الأحرف المقطعة، وعربية القرآن، مناسبة ظاهرة. فهذه أحرفهم العربية، وهذا قرآنهم العربى. نزل الله به وحيه في هذه الصورة العربية، ليؤدى به الغاية المرسومة:

«لتنذر أم القرى ومن حولها» ..

وأم القرى مكة المكرمة. المكرم بيت الله العتيق فيها. وقد اختار الله أن تكون هي - وما حولها من القرى - موضع هذه الرسالة الأخيرة؛ وأنزل القرآن بلغتها العربية لأمر يعلمه ويريده. و«الله أعلم حيث يجعل رسالته».

وحين نظر اليوم من وراء الحواش واستقرأها، ومن وراء الظروف ومقتضياتها، وبعد ما سارت هذه الدعوة في الخط الذى سارت فيه، وأنتجت فيه نتاجها .. حين نظر اليوم هذه النظرة ندرك طرفا من حكمة الله في اختيار هذه البقعة من الأرض، في ذلك الوقت من الزمان،



لتكون مقر الرسالة الأخيرة، التي جاءت للبشرية جميعا. والتي توضح عالميتها منذ أيامها الأولى . كانت الأرض المعمورة - عند مولد هذه الرسالة الأخيرة - تكاد تقسمها امبراطوريات أربعة : الامبراطورية الرومانية في أوروبا وطرف من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الفارسية وتمتد سلطانها على قسم كبير من آسيا وإفريقية . والامبراطورية الهندية . ثم الامبراطورية الصينية . وتكاد ان تكونان مغلقتين على أنفسهما ومعزولتين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية وغيرها وهذه العزلة كانت تجعل الامبراطوريتين الأوليين هما ذواتنا الأثر الحقيقى فى الحياة البشرية وتطوراتها .

وكانت الديانتان السماويتان قبل الاسلام - اليهودية والنصرانية - قد انتهتا إلى أن تقعا - فى صورة من الصور - تحت نفوذ هاتين الامبراطوريتين ، حيث تسيطر عليهما الدولة فى الحقيقة . ولا تسيطران على الدولة ؛ فضلا على ما أصابهما من انحراف وفساد .

ولقد وقعت اليهودية فريسة لاضطهاد الرومان تارة ، ولاضطهاد الفرس تارة ، ولم تعد تسيطر فى هذه الأرض على شىء يذكر على كل حال ؛ وانتهت - بسبب عوامل شتى - إلى أن تكون ديانة مغلقة على بنى إسرائيل ، لامطمع لها ولا رغبة فى أن تضم تحت جناحها شعوبا أخرى .

وأما المسيحية فقد ولدت فى ظل الدولة الرومانية . التى كانت تسيطر حين الميلاد على فلسطين وسورية ومصر وبقية المناطق التى انتشرت فيها المسيحية سرا ؛ وهى تتخفى من مطاردة الامبراطورية الرومانية التى اضطهدت العقيدة الجديدة اضطهادا فظيما ، تخللته مذابح شملت عشرات الألوف فى قسوة ظاهرة . فلما انقضى عهد الاضطهاد الرومانى ، ودخل الامبراطور الرومانى فى المسيحية ، دخلت معه أساطير الرومان الوثنية ، ومباحث الفلسفة الإغريقية الوثنية كذلك ؛ وطبعت المسيحية بطابع غريب عليها ؛ فلم تعد هى المسيحية السماوية الأولى . كما أن الدولة ظلت فى طبيعتها لاتأثر كثيرا بالديانة ؛ وظلت هى المهيمنة ، ولم تهيمن العقيدة عليها أصلا . وذلك كله فضلا على ما انتهت إليه المذاهب المسيحية المتعددة من تطاحن شامل - فيما بينها - مزق الكنيسة ، وكاد يمزق الدولة كلها تمزيقا . وأوقع فى الاضطهاد البشع المخالفين للمذهب الرسمى للدولة . وهؤلاء . وهؤلاء . كانوا فى الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء .

وفى هذا الوقت جاء الإسلام . جاء لينقذ البشرية كلها مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد وجاهلية عمياء فى كل مكان معمور . وجاء ليهيمن على حياة البشرية ويقودها فى الطريق إلى الله على هدى وعلى نور . ولم يكن هنالك بد من أن يسيطر الإسلام لتحقيق هذه النقلة

## سورة الشورى

الضخمة في حياة البشر . ثم يكن هنالك بد من أن يبدأ رحلته من أرض حرة لا سلطان فيها لامبراطورية من تلك الامبراطوريات ؛ وأن ينشأ قبل ذلك نشأة حرة لا تسيطر عليه فيها قوة خارجة على طبيعته ؛ بل يكون فيها هو المسيطر على نفسه وعلى من حوله . وكانت الجزيرة العربية ، وأم القرى وما حولها بالذات، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى .

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة . تفق للعقيدة الجديدة . بسلطانها المنظم ، وتخضع لها الجماهير خضوعاً دقيقاً ، كما هو الحال في الامبراطوريات الأربعة .

ولم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة ؛ فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة ، ومعتقداتها وعباداتها شتى . وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام . ومع أنه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة ، فإنه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد . ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ماوقفوا هذه الوقفة في وجه الإسلام . فقد كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب .

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، متحرراً من كل سلطان عليه في نشأته ، خارج عن طبيعته .

وفي وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة . كان النظام القبلي هو السائد . وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام . فلما قام محمد - صلى الله عليه وسلم - بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له ؛ ووجد من التوازن القبلي فرصة ، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم بسبب حمايتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم - وهم على غير دينه . بل إنها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من العوائل الذين أسلموا في أول الدعوة ، وتدع تأديبه - أو تعذيبه - لأهله أنفسهم . واللوالى الذين عذبوا لإسلامهم عذبهم ساداتهم . ومن ثم كان أبو بكر - رضى الله عنه - يشتري هؤلاء اللوالى ويعتقهم ، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتتهم عن دينهم . . ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد .

ثم كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة . وهي استعدادات ضرورية لحل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها .

وقد كانت الجزيرة في ذلك الزمان تزخر بحضارة عميقة لبذور نهضة؛ وكانت تجيش بكفايات واستعدادات وشخصيات تهباً لهذه النهضة المذخورة لها في ضمير الغيب؛ وكانت قد حفلت بتجارب إنسانية معينة من رحلاتها إلى أطراف امبراطوريتي كسرى وقصر. وأشهرها رحلة الشتاء إلى الجنوب ورحلة الصيف إلى الشمال. المذكورتان في القرآن في قوله تعالى: «إيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف. فليعبدوا رب هذا البيت، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف». . . وتضافرت أسباب كثيرة لحشد رصيد ضخم من التجارب مع التفتح والتأهب لاستقبال المهمة الضخمة التي اختيرت لها الجزيرة. فلما جاءها الإسلام استفل هذا الرصيد كله، ووجه هذه الطاقة المخترنة، التي كانت تهباً كنوزها للتفتح؛ ففتحها الله بفتح الإسلام. وجعلها رصيده وذخرا. وامل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمثال: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وحزمة والعباس وأبي عبيدة. وسعد ابن أبي وقاص وخالد ابن الوليد وسعد ابن معاذ، وأبي أيوب الأنصاري وغيرهم وغيرهم من تلك العصابة التي تلقت الإسلام؛ ففتحت له، وحملته، وكبرت به من غير شك وصلحت؛ ولكنها كانت تحمل البذرة الصالحة للنمو والتنام.

وليس هنا مكان التفصيل في وصف استعداد الجزيرة لحمل الرسالة الجديدة، وصيانة نشأتها، وتمكينها من الهيمنة على ذاتها وعلى من حولها، مما يشير إلى بعض أسباب اختيارها لتكون مهد العقيدة الجديدة، التي جاءت للبشرية جميعها. وإلى اختيار هذا البيت بالذات ليكون منه حامل هذه الرسالة - صلى الله عليه وسلم - فذلك أمر يطول. ومكانه رسالة خاصة مستقلة. وحسبنا هذه الإشارة إلى حكمة الله المكنونة، التي يظهر التدبر والتفكير بعض أطرافها كما اتسمت تجارب البشر وإدراكهم لسنن الحياة.

وهكذا جاء هذا القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها. فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام، وخلصت كلها للإسلام، حملت الراية وشرقت بها وغربت؛ وقدمت الرسالة الجديدة والنظام الإنساني الذي قام على أساسها، للبشرية جميعها - كما هي طبيعة هذه الرسالة - وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ونقلها؛ وقد خرجوا بها من أصلح مكان في الأرض لميلادها ونشأتها.

وليس من المصادفات أن يعيش الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام؛ ويتمحض هذا المهد للعقيدة التي اختير لها على علم. كما اختير لها اللسان الذي يصلح لحملها إلى أقطار الأرض جميعاً. فقد كانت اللغة العربية بلغت نضجها، وأصبحت صالحة لحمل هذه

## سورة الشورى

الدعوة والسير بها في أقطار الأرض . ولو كانت لغة ميتة أو ناقصة التكوين الطبيعي ماصلحت  
لحمل هذه الدعوة أولا ، وماصلحت بالذات لنقلها إلى خارج الجزيرة العربية ثانيا .. وقد كانت  
اللغة ، كأصحابها ، كبيتها ، أصلح ما تكون لهذا الحدث الكوني العظيم .

وهكذا تبدو سلسلة طويلة من المواقف المختارة لهذه الرسالة ، حيث وجه الباحث نظره  
إلى تدبر حكمة الله واختياره ومصداق قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..  
« لتندر أم القرى ومن حولها ، وتندر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في

السعير » ..

وقد كان الإنذار الأكبر والأشد والأكثر تكرارا في القرآن هو الإنذار يوم الجمع . يوم  
الحشر . يوم يجمع الله ماتفرق من الخلائق على مدار الأزمنة واختلاف الأمكنة ، ليفرقهم من  
جديد : « فريق في الجنة وفريق في السعير » . بحسب عملهم في دار العمل ، في هذه الأرض ،  
في فترة الحياة الدنيا .

« ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة . ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من

ولى ولا نصير » ..

فلو شاء الله لخلق البشر خلقة أخرى توحد سلوكهم ، فتوحد مصيرهم ، إما إلى جنة وإما إلى  
نار . ولكنه - سبحانه - خلق هذا الإنسان لوظيفة . خلقه للخلافة في هذه الأرض . وجعل  
من مقتضيات هذه الخلافة ، على النحو الذى أرادها ، أن تكون للإنسان استعدادات خاصة  
بجنسه ، تفرقه عن الملائكة وعن الشياطين ، وعن غيرها من خلق الله ذوى الطبيعة المفردة  
الموحدة الاتجاه . استعدادات يجنح بها ومعها فريق إلى الهدى والنور والعمل الصالح ؛ ويجنح  
بها ومعها فريق إلى الضلال والظلام والعمل السيئ . كل منها يسلك وفق أحد الاحتمالات الممكنة  
في طبيعة تكوين هذا المخلوق البشرى ؛ وينتهى إلى النهاية المقررة لهذا السلوك : « فريق في  
الجنة وفريق في السعير » .. وهكذا : « يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولى  
ولا نصير » .. وفق ما يعلمه الله من حال هذا الفريق وذلك ، واستحقاقه للرحمة بالهداية واستحقاقه  
للعذاب بالضلال .

ولقد سبق أن بعضهم يتخذ من دون الله أولياء . فهو يقرر هنا أن الظالمين : « ما لهم من  
ولى ولا نصير » .. فأولياؤهم الذين يتخذونهم لاحقيقة لهم إذن ولا وجود .

ثم يعود فيسأل في استنكار :

« أم اتخذوا من دونه أولياء ؟ » ..

ليقرر بعد هذا الاستنكار أن الله وحده هو الولي، وأنه هو القادر تجلي قدرته في إحياء الموتى . العمل الذي تظهر فيه القدرة المفردة بأجلى مظاهرها :

« فالله هو الولي ، وهو يحيي الموتى » . .

ثم يعمم مجال القدرة ويبرز حقيقتها الشاملة لكل شيء والتي لا تنحصر في حدود :

« وهو على كل شيء قدير » . .

\*\*\*

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى ، لبيان الجهة التي يرجع إليها عند كل اختلاف . وهي هذا الوحي الذي جاء من عند الله يتضمن حكم الله كي لا يكون للهوى المتقلب أثر في الحياة بعد ذلك المنهج الإلهي القويم :

« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله . ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب . فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا ، يذروكم فيه ، ليس كمثل شيء ، وهو السميع البصير . له مقاليد السماوات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم » . .

وطريقة إيراد هذه الحقائق وتسلسلها وتجمعها في هذه الفقرة طريقة عجيبة ، تستحق التدبر . فالترابط الخفي والظاهر بين أجزائها ترابط لطيف دقيق .

إنه يرد كل اختلاف يقع بين الناس إلى الله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » . . والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن ؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة ؛ وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية ، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياساتهم ، وأخلاقهم وسلوكهم . وبين لهم هذا كله بيانا شافيا . وجعل هذا القرآن دستورا شاملا لحياة البشر ، أوسع من دساتير الحكم وأشملى . فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - لتقوم الحياة على أساسه . وعقب تقرير هذه الحقيقة بحكى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتقوم الحياة على أساسه .

الله ، منيبا إلى ربه بكليته :

« ذلكم الله ربى عليه توكلت ، وإليه أنيب » . .

فتجىء هذه الإنابة ، وذلك التوكل ، وذلك الإقرار بلسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في موضعها النفسى المناسب للتعقيب على تلك الحقيقة . . فهاهو ذا رسول الله ونبيه يشهد أن الله هو ربه ، وأنه يتوكل عليه وحده ، وأنه ينيب إليه دون سواه . فكيف يتحاكم الناس إذن

## سورة الشورى

إلى غيره عند اختلافهم في شيء من الأمر ، والنبي المهدي لا يتحاكم إلا إليه ، وهو أولى من يتحاكم الناس إلى قوله الفصل ، لا يتلفتون عنه لحظة هنا أو هناك؟ وكيف يتجهون في أمر من أمورهم وجهة أخرى ، والنبي المهدي يتوكل على الله وحده ، وينيب إليه وحده ، بما أنه هوربه ومتولى أمره وكافله وموجهه إلى حيث يختار؟

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن ينير له الطريق ويحدد معاملة، فلا يتلفت هنا أو هناك. ويسكب فيه الطمأنينة إلى طريقه ، والثقة بمواقع خطواته ، فلا يتشكك ولا يتردد ولا يختار . ويشعره أن الله راعيه وحاميه ومسدد خطاه في هذا الاتجاه . والنبي المهدي سالك هذا الطريق إلى الله .

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير المؤمن يرفع من شعوره بمنهجه وطريقه ، فلا يجد أن هناك منهجا آخر أو طريقا يصح أن يتلفت إليه ؛ ولا يجد أن هنالك حكما غير قول الله وحكمه يرجع عند الاختلاف إليه . والنبي المهدي ينيب إلى ربه الذي شرع هذا المنهج وحكم هذا الحكم .

ثم يعقب مرة أخرى بما يزيد هذه الحقيقة استقرارا وتمكينا :

« فاطر السماوات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا . يذروكم فيه . ليس كمثل شيء . وهو السميع البصير » . . .

فإنه منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون فيه من شيء . . . هو « فاطر السماوات والأرض » . . . وهو مدبر السماوات والأرض . والناموس الذي يحكم السماء والأرض هو حكمه الفصل في كل ما يختص بهما من أمر . وشؤون الحياة والعباد إن هي إلا طرف من أمر السماوات والأرض ؛ فحكمه فيها هو الحكم الذي ينسق بين حياة العباد وحياة هذا الكون العريض ، ليعيشوا في سلام مع الكون الذي يحيط بهم ، والذي يحكم الله في أمره بلا شريك .

والله الذي يجب أن يرجعوا إلى حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو خالقهم الذي سوى نفوسهم ، وركبها : « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » . . . فنظم لكم حياتكم من أساسها ، وهو أعلم بما يصلح لها وما تصلح به وتستقيم . وهو الذي أجرى حياتكم وفق قاعدة الخلق التي اختارها للأحياء جميعا : « ومن الأنعام أزواجا » . . . فهناك وحدة في التكوين تشهد بوحدانية الأسلوب والمشيئة وتقديرها المقصود . . . إنه هو الذي جعلكم - أتم والأنعام - تكاثرون وفق هذا المنهج وهذا الأسلوب . ثم تفرد هو دون خلقه جميعا ، فليس هنالك من شيء ، مماثله - سبحانه وتعالى - : « ليس كمثل شيء » . . . والقطرة تؤمن بهذا بداهة . خالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه . . . ومن ثم فإنها ترجع كلها إلى حكمه عندما تختلف

## الجزء الخامس والعشرون

فما بينها على أمر ، ولا ترجع معه إلى أحد غيره ؛ لأنه ليس هناك أحد مثله ، حتى يكون هناك أكثر من مرجع واحد عند الاختلاف .

ومع أنه - سبحانه - « ليس كمثل شيء » . . فإن الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل . فهو يسمع ويصر : « وهو السميع البصير » . . ثم يحكم حكم السميع البصير .

ثم إنه إذ يجعل حكمه فيما يختلفون فيه من شيء هو الحكم الواحد الفصل . يقيم هذا على حقيقة أن مقاليد السماوات والأرض كلها إليه بعد ما فطرها أول مرة ، وشرع لها ناموسها الذي يدبرها : « له مقاليد السماوات والأرض » . . وهم بعض ما في السماوات والأرض ، فقائدهم إليه . ثم إنه هو الذي يتولى أمر رزقهم قبضا وبسطا - فيما يتولى من مقاليد السماوات والأرض - : « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » . . فهو رازقهم وكافلهم ومطعمهم وساقمهم . فلمن غيره يتجهون إذن ليحكم بينهم فيما يختلفون فيه ؟ وإنما يتجه الناس إلى الرازق الكافل المتصرف في الأرزاق . الذي يدبر هذا كله بعلم وتقدير : « إنه بكل شيء عليم » . . والذي يعلم كل شيء هو الذي يحكم وحكمه العدل ، وحكمه الفصل . .

وهكذا تتساقق المعاني وتتناسق بهذه الدقة الخفية اللطيفة العجيبة ؛ لتوقع على القلب البشري دقة بعد دقة ، حتى يتكامل فيها لحن متناسق عميق !

\*\*\*

ثم يعود إلى الحقيقة الأولى :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه . كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم - بغيا بينهم - ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب ؛ وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير . والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد » . .

لقد جاء في مطلع السورة: «كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم».. فكانت هذه إشارة إجمالية إلى وحدة المصدر ، ووحدة المنهج ، ووحدة الاتجاه . فالآن يفصل هذه الإشارة ؛ ويقرر أن ما شرعه الله للمسلمين هو - في عمومته - ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . وهو أن يقيموا دين الله الواحد ، ولا يتفرقوا فيه . ويرتب عليها نتائجها من وجوب الثبات على المنهج الإلهي القديم ، دون التفتت إلى أهواء المختلفين . ومن هيمنة هذا الدين الواضح المستقيم، ودحض حجة الذى يحاجون فى الله، وإندازهم بالنضب والعذاب الشديد. ويبدو من التماسك والتناسق فى هذه الفقرة كالذى بدأ فى سابقها بشكل ملحوظ :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . . .

وبذلك يقرر الحقيقة التى فصلناها فى مطلع السورة . حقيقة الأصل الواحد ، والنشأة الضاربة فى أصول الزمان . ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع فى حس المؤمن . وهو ينظر إلى سلفه فى الطريق الممتدة من بعيد . فإذا هم على التابع هؤلاء الكرام . . . نوح . إبراهيم . موسى . عيسى ، محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ويستشعر أنه امتداد هؤلاء الكرام وأنه على درجهم يسير . إنه سيستروح السير فى الطريق ، مها يجد فيه من شوك ونصب ، وحرمان من أعراض كثيرة . وهو برقعة هذا الموكب الكريم على الله . الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ .

ثم إنه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد ، السائرين على شرعه الثابت ؛ وانتفاء الخلاف والشقاق ؛ والشعور بالقربى الوثيقة ، التى تدعو إلى التعاون والتفاهم ، ووصل الحاضر بالماضى ، والماضى بالحاضر ، والسير جملة فى الطريق .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى . فقيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى ؟ وقيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى ؟ وقيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد ؟ وقيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من الشركين مع المسلمين ؟ ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التى يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ؟ فقيموا الدين ، ويقوموا بتكاليفه ، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتواوا به ؛ ويقفوا تحت



رايته صفا ، وهى راية واحدة ، رفعها على التوالى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى - صلوات الله عليهم - حتى انتهت إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فى العهد الأخير .

ولكن المشركين فى أم القرى ومن حولها - وهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم - كانوا يقفون من الدعوة القديمة الجديدة موقفا آخر :

« كبر على المشركين ماتدعوهم إليه » . .

كبر عليهم أن ينزل الوحي على محمد من بينهم ؛ وكانوا يريدون أن ينزل « على رجل من القرينين عظيم » أى صاحب سلطان من كبرائهم . ولم تكن صفات محمد الذاتية وهو بإقرارهم الصادق الأمين ، ولا كان نسبه وهو من أوسط بيت فى قريش . ما كان هذا كله يعدل فى نظرهم أن يكون سيد قبيلة ذا سلطان !

وكبر عليهم أن ينتهى سلطانهم الدينى باتهاء عهد الوثنية والأصنام والأساطير التى يقوم عليها هذا السلطان ؛ وتعتمد عليها مصالحهم الاقتصادية والشخصية . فتشبثوا بالشرك وكبر عليهم التوحيد الخالص الواضح الذى دعاهم إليه الرسول الكريم .

وكبر عليهم أن يقال : إن آباءهم الذين ماتوا على الشرك ماتوا على ضلالة وعلى جاهلية ؛ فتشبثوا بالحماقة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، واختاروا أن يلقوا بأنفسهم إلى الجحيم ، على أن يوصم آباؤهم بأنهم ماتوا ضالين !

والقرآن يعقب على موقفهم هذا بأن الله هو الذى يصطفى ويختار من يشاء ؛ وأنه كذلك يهدى إليه من يرغب فى كنفه ، ويتوب إلى ظله من الشاردين :

« الله يجتبي إليه من يشاء ويهدى إليه من يئيب » . .

وقد اجتبي محمدا - صلى الله عليه وسلم - للرسالة . وهو يفتح الطريق لمن يئيب إليه ويشوب . ثم يعود إلى موقف أتباع الرسل ، الذين جاءوا قومهم بدين واحد ، ففرق أتباعهم شيئا وأحزابا :

« وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم - بغيا بينهم - ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم ، وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » . .

فهم لم تفرقوا عن جهل ؛ ولم تفرقوا لأنهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ، ربط رسالتهم ومعتقداتهم . إنما تفرقوا بعد ما جاءهم العلم . تفرقوا بغيا بينهم وحسدا وظلما

## سورة الشورى

للحقيقة ولأنه ساء . تفرقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة ، والشهوات الباغية . تفرقوا غير مستدين إلى سبب من العقيدة الصحيحة والمنهج القويم . ولو أخلصوا لعقيدتهم ، واتبعوا منهجهم ما تفرقوا .

ولقد كانوا يستحقون أن يأخذهم الله أخذا عاجلا ، جزاء بغيهم وظلمهم في هذا التفرق والتفريق . ولكن كلمة سبقت من الله لحكمة أرادها ، يأمرهم إلى أجل مسمى « ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم » . . فحق الحق وبطل الباطل ؛ واتهى الأمر في هذه الحياة الدنيا . ولكنهم مؤجلون إلى يوم الوقت المعلوم .

فأما الأجيال التي ورثت الكتاب من بعد أولئك الذين تفرقوا وفرقوا من أتباع كل نبي ، فقد تلقوا عقيدتهم وكتابهم بغير يقين جازم ؛ إذ كانت الخلافات السابقة ماثرا لعدم الجزم بشيء ، وللشك والعموض والحيرة بين شتى المذاهب والاختلافات :

« وإن الدين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » . .

وما هكذا تكون العقيدة . فالعقيدة هي الصخرة الصلبة التي يقف عليها المؤمن ، فتמיד الأرض من حوله وهو ثابت راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التي لا تميد . والعقيدة هي النجم الهادي الثابت على الأفق يتجه إليه المؤمن وسط الأنواء والزوابع ، فلا يضل ولا يحيد . فأما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة ، فلا ثبات لشيء ولا لأمر في نفس صاحبها ، ولا قرار له على وجهه ، ولا اطمئنان إلى طريق .

ولقد جاءت العقيدة ليعرف أصحابها طريقهم ووجهتهم إلى الله ؛ ويقودوا من وراءهم من البشر في غير ما تلجلج ولا تردد ولا ضلال . فإذا هم استرابوا وشكوا فهم غير صالحين لقيادة أحد ، وهم أنفسهم حارون .

وكذلك كان حال أتباع الرسل يوم جاء هذا الدين الجديد .

يقول الأستاذ الهندي أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين » :

« أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والناقضين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة الحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، شغلت نفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست في منوياتها ، ونضب معين

حياتها ، لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوي ، ولا نظاما ثابتا من الحكم البشري » (١)  
 ويقول الكاتب الأوربي « ج . هـ . دنيسون » في كتابه «المواطن كأساس للحضارة» (٢) :  
 « ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن  
 العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ؛ ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم  
 مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدينة الكبرى ، التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف  
 سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه  
 من المهجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقها المسيحية  
 فكانت تعمل على الفرقة والانهايار ، بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدينة كشجرة ضخمة  
 متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله . واقفة تترنح وقد تسرب إليها المطب حتى اللباب . . وبين  
 مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه » . . . يعني محمدا - صلى الله  
 عليه وسلم . . .

ولأن أتباع الرسل تفرقوا - من بعد ما جاءهم العلم - ولأن الذين أورثوا الكتاب من  
 بعدهم كانوا في شك منه مريب . . لهذا وذلك ، ولحل مركز القيادة البشرية من قائد ثبت  
 مستيقن يعرف طريقه إلى الله . . أرسل الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - ووجه إليه الأمر  
 أن يدعو وأن يستقيم على دعوته ، وألا يلتفت إلى الأهواء المصطرعة حوله وحول دعوته  
 الواضحة المستقيمة ؛ وأن يعلن تجديد الإيمان بالدعوة الواحدة التي شرعها الله للنبيين أجمعين :  
 « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب .  
 وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . لاجبة بيننا وبينكم . الله  
 يجمع بيننا ، وإليه المصير » . . .

إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء . القيادة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج واضح ويقين  
 ثابت . تدعو إلى الله على بصيرة . وتستقيم على أمر الله دون انحراف . وتتأذى عن الأهواء  
 المضطربة المتناوحة من هنا وهناك . القيادة التي تعلن وحدة الرسالة ووحدة الكتاب ووحدة  
 النهج والطريق . والتي ترد الإيمان إلى أصله الثابت الواحد ، وترد البشرية كلها إلى ذلك

(١) صفحة ٢٢ الطبعة الثانية

(٢) ترجمة ' Emotion as the Basis of Civilisation '

## سورة الشورى

الأصل الواحد : « وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب » . . ثم هو الاستعلاء والهيمنة بالحق والعدل . « وأمرت لأعدل بينكم » . . فهي قيادة ذات سلطان ، تعلن العدل في الأرض بين الجميع . ( هذا والدعوة بعد في مكة محصورة بين شعابها مضطهدة هي وأصحابها . ولكن طبيعتها المهيمنة الشاملة تبدو واضحة ) . وتعلن الربوبية الواحدة : « الله ربنا وربكم » . . وتعلن فردية التبعة : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » . . وتعلن إنهاء الجدل بالقول الفصل : « لاحجة بيننا وبينكم » . . وتكل الأمر كله إلى الله صاحب الأمر الأخير : « الله يجمع بيننا وإليه المصير » . .

وتكشف هذه الآية الواحدة عن طبيعة هذه الرسالة الأخيرة ، في مقاطعها القصيرة الفاصلة على هذا النحو الجامع الحازم الدقيق . فهي رسالة جاءت لتمضي في طريقها لاتأثر بأهواء البشر . وجاءت لتهيمن فتحقق العدالة في الأرض . وجاءت لتحدد الطريق إلى الله كما هو في حقيقته موحد على مدى الرسالات . .

وبعد وضوح القضية على هذا النحو ، واستجابة العصبية المؤمنة لله هذه الاستجابة ، يبدو جدل المجادلين في الله مستنكرا لا يستحق الالتفات ، وتبدو حججهم باطلة فاشلة ليس لها وزن ولا حساب . فنتهى هذه الفقرة بالفصل في أمرهم ، وتركهم لوعيد الله الشديد :

« والذين يحاجون في الله . من بعد ما استجيب له . حججهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد » . .

ومن تكون حجته باطلة مغلوطة عند ربه فلا حجة له ولا سلطان . ووراء الهزيمة والبطلان في الأرض ، الغضب والمذاب الشديد في الآخرة . وهو الجزاء المناسب على اللجاج بالباطل بعد استجابة القلوب الخالصة ؛ والجدل المفروض بعد وضوح الحق الصريح .

\*\*\*

ثم يبدأ جولة جديدة مع الحقيقة الأولى :

« الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان . وما يدريك لعل الساعة قريب . يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد . الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز . من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله في الآخرة من نصيب » . .

فإنه أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل ؛ وجعله حكماً فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة ، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم ؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم . العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم ، وتوزن به الحقوق ، وتوزن به الأعمال والتصرفات . وينتقل من هذه الحقيقة . حقيقة الكتاب المنزل بالحق والعدل . إلى ذكر الساعة . والمناسبة بين هذا وهذه حاضرة ، فالساعة هي موعد الحكم العدل والقول الفصل . والساعة غيب . فمن ذا يدري إن كانت على وشك :

« وما يدريك لبل الساعة قريب ؟ » . .

والناس عنها غافلون ، وهي منهم قريب ، وعندها يكون الحساب القائم على الحق والعدل ، الذي لا يهمل فيه شيء ولا يضيع . .

ويصور موقف المؤمنين من الساعة وموقف غير المؤمنين :

« يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق » . .  
والذين لا يؤمنون بها لا تحس قلوبهم هولها ، ولا تقدر ما ينتظرهم فيها ؛ فلا عجب يستعجلون بها مستهترين . لأنهم محجوبون لا يدركون . وأما الذين آمنوا فهم مستيقنون منها ، ومن ثم يشفقون ويخافون ، وينتظرونها بوجل وخشية ، وهم يعرفون ما هي حين تكون .

وإنها لحق . وإنهم يعلمون أنها الحق . وبينهم وبين الحق صلة فهم يعرفون .

« ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » .

قد أوغلوا في الضلال وأبعدوا ، فسير أن يعودوا بعد الضلال البعيد . .

وينتقل من الحديث عن الآخرة والإشفاق منها أو الاستهتار بها ، إلى الحديث عن الرزق الذي يتفضل الله به على عباده :

« الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز » . .

وتبدو المناسبة بيّنة في ظاهر الأمر بين هذه الحقيقة وتلك . ولكن الصلة تبدو وثيقة عند قراءة الآية التالية :

« من كان يريد حرث الآخرة زد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وماله في الآخرة من نصيب » . .

فإنه لطيف بعباده يرزق من يشاء . يرزق الصالح والطالح ، والمؤمن والكافر . فهؤلاء

## سورة الشورى

البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئا ؛ وقد وهبهم الله الحياة ، وكفل لهم أسبابها الأولية ؛ ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والظالم ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولما اتوا جوعا وعريا وعطشا ، وعجزا عن أسباب الحياة الأولى ، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم . ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح ، والإيمان والكفر ، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة . وجعله فتنه وابتلاء . يجزى عليهما الناس يوم الجزاء .

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما ما يشاء . فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه ، وزاد له الله في حرثه ، وأعاناه عليه بنيته ، وبارك له فيه بعمله . وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئا . بل إن هذا الرزق الذى يعطاه في الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه ، حين يرجو وجه الله في شميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه . . . ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئا . ولكن لم يكن له في الآخرة نصيب . فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئا ينتظر عليه ذلك النصيب !

ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة ، تكشف عن الحماقة في إرادة حرث الدنيا ؛ فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء . فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له في علم الله . ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أرادته وعمل فيه ؛ ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء ؛ بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة . وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء . ففي هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين في قضية الرزق . إنما يظهر الاختلاف والامتياز هناك ؛ فمن هو الأحمق الذى يترك حرث الآخرة . وتركه لا يغير من أمره شيئا في هذه الحياة ؛ والأمر في النهاية مرتبط بالحق والميزان الذى نزل به الكتاب من عند الله . فالحق والعدل ظاهران في تقدير الرزق لجميع الأحياء . وفي زيادة حرث الآخرة لمن يشاء . وفي حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء . . .

\*\*\*

ومن ثم يبدأ جولة أخرى حول الحقيقة الأولى :

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ ولولا كلمة الفصل لفضى بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم . ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ؟ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور . . . »

في فقرة سابقة قرر أن مآشرعه الله للأمة المسلمة هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو ما أوحى به إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي هذه الفقرة يسأل في استنكار عما هم فيه وما هم عليه ، من ذا شرعه لهم مادام الله لم يشرعه ؟ وهو مخالف لما شرعه منذ أن كان هناك رسالات وتشريعات ؟

« أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ . . . »

وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير مآشرعه الله وأذن به كائناً من كان ؛ فله وحده هو الذي يشرع لمباده . بما أنه - سبحانه - هو مبدع هذا الكون كله ، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له . والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير ، فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس ؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس . وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال . فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور .

ومع وضوح هذه الحقيقة إلى حد البدهة ؛ فإن الكثيرين يجادلون فيها ، أولاً يقتنعون بها ، وهم يجراءون على استمداد التشريع من غير مآشرع الله ، زاعمين أنهم يختارون الخبر لشعوبهم ، ويوآتمون بين ظروفهم والتشريع الذي ينشونه من عند أنفسهم . كأنما هم أعلم من الله وأحكم من الله ، أو كأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم ما لم يأذن به الله ؛ وليس أخيب من ذلك ولا أجراً على الله ؛

لقد شرع الله للبشرية ما يعلم سبحانه ، أنه يتناسق مع طبيعتها وفطرتها وطبيعة الكون الذي تعيش فيه وفطرته . ومن ثم يحقق لهذه البشرية أقصى درجات التعاون فيما بينها ، والتعاون كذلك مع القوى الكونية الكبرى . شرع في هذا كله أصولاً ، وترك للبشر فقط استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجات الحياة المتجددة ، في حدود النهج الكلي والتشريعات

## سورة الشورى

العامّة . فإذا ما اختلف البشر في شيء من هذا ردوه إلى الله ؛ ورجعوا به إلى تلك الأصول الكلية التي شرعها للناس ، لتبقى ميزانا يزن به البشر كل تشريع جزئي وكل تطبيق .  
بذلك يتوحد مصدر التشريع ، ويكون الحكم لله وحده . وهو خير الحاكمين . وما عدا هذا النهج فهو خروج على شريعة الله ، وعلى دين الله ، وعلى ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا عليهم الصلاة والسلام .

« ولولا كلمة الفصل لفضى بينهم » . . .

قد قال الله كلمة الفصل بإمهم إلى يوم القول الفصل . ولولاها لفضى الله بينهم ، فأخذ المخالفين لما شرعه الله ، المتبعين لشرع من عداه . لأخذهم بالجزاء العاجل . ولكنه أمهم ليوم الجزاء .

« وإن الظالمين لهم عذاب أليم » . . .

فهذا هو الذي ينتظرهم جزاء الظلم . وهل أظلم من المخالفة عن شرع الله إلى شرع من عداه؟ ومن ثم يمرض هؤلاء الظالمين في مشهد من مشاهد القيامة . يعرضهم مشفقين خائفين من العذاب وكانوا من قبل لا يشفقون ، بل يستعجلون ويستهترون :

« ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » . . .

والتعبير العجيب يجعل إشفاقهم « مما كسبوا » فكأنما هو غول مفزع ؛ وهو هو الذي كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين ، ولكنهم اليوم يشفقون منه ويفزعون « وهو واقع بهم » . . . وكأنه هو بذاته انقلب عذابا لا يخلص منه ، وهو واقع بهم !

وفي الصفحة الأخرى نجد المؤمنين الذين كانوا يشفقون من هذا اليوم ويخافون . نجدهم في أمن وعافية ورخاء :

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات ، لهم ما يشاءون عند ربهم . ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . . .

والتعبير كله رخاء يرسم ظلال الرخاء : « في روضات الجنات » . . . « لهم ما يشاءون عند ربهم » بلا حدود ولا قيود . « ذلك هو الفضل الكبير » . . . « ذلك الذي يبشر الله عباده » فهو بشرى حاضرة ، مصداقا للبشرى السالفة . وظل البشرى هنا هو أنسب الظلال .

وهي مشهد هذا النعم الرخاء الجميل الظليل يقنع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقول



لهم : إنه لا يطلب منهم أجرا على الهدى الذى يتسبى بهم إلى هذا النعيم ، وينأى بهم عن ذلك العذاب الأليم . إنما هى مودته لهم لقرابتهم منه ، وحسبه ذلك أجرا :

« قل : لأسألکم عليه أجرا . إلا المودة فى القربى . ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا . إن الله غفور شكور » ..

والمنى الذى أشرت إليه ، وهو أنه لا يطلب منهم أجرا ، إنما تدفعه المودة للقربى - وقد كانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرابة بكل بطن من بطون قريش - ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى ! هذا المنى هو الذى اتضح فى نفسى وأنا أقرأ هذا التعبير القرآنى فى مواضعه التى جاء فيها . وهناك تفسير مروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أثبتته هنا لوروده فى صحيح البخارى :

قال البخارى حدثنا محمد ابن بشار ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن عبد الملك ابن ميسرة ، قال : سمعت طاووسا يحدث عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه سأل عن قوله تعالى : « إلا المودة فى القربى » فقال سعيد بن جبیر : « قربى آل محمد . فقال ابن عباس : عجبت . إن النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة » .

ويكون المنى على هذا : إلا أن تكفوا إذاكم مراعاة للقرابة . وتسمعوا وتلينوا لما أهدىكم إليه . فيكون هذا هو الأجر الذى أطلبه منكم لا سواه .

وتأويل ابن عباس - رضى الله عنهما - أقرب من تأويل سعيد ابن جبیر - رضى الله عنه - ولكننى ما أزال أحس أن ذلك المنى أقرب وأندى . . والله أعلم بمراده منا .

وعلى أية حال فهو يذ كرم - أمام مشهد الروضات والبساتين - أنه لا يسألهم على شىء من هذا أجرا . ودون هذا بمراحل يطلب عليه الأدلاء أجرا ضخما ، ولكنه فضل الله الذى لا يحاسب العباد حساب التجارة ، ولا حساب العدل ، ولكن حساب الساحة وحساب الفضل : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » ..

فليس هو مجرد عدم تناول الأجر . بل إنها الزيادة والفضل . . ثم هى بعد هذا كله للفضرة والشكر :

## سورة الشورى

« إن الله غفور شكور » . . .

الله يغفر . ثم . . . الله يشكر . . . ويشكر من ؟ يشكر لعباده . وهو وهبهم التوفيق على الإحسان . ثم هو يزيد لهم في الحسنات ، ويغفر لهم السيئات . ويشكر لهم بعد هذا وذاك . . . فياللفيض الذي يعجز الإنسان عن متابعته . فضلا على شكره وتوفيقه !

\* \* \*

ثم يعود إلى الحديث عن تلك الحقيقة الأولى :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويمحق الحق بكلماته ، إنه علم بذات الصدور » .

هنا يأتي على الشبهة الأخيرة ، التي قد يمللون بها موقفهم من ذلك الوحي ، الذي تحدث عن مصدره وعن طبيعته وعن غايته في الجولات الماضية :

« أم يقولون : افترى على الله كذبا ؟ » . . .

فهم من ثم لا يصدقونه ، لأنهم يزعمون أنه لم يوح إليه ، ولم يأت به شيء من الله ؟ ولكن هذا قول مردود . فما كان الله ليدع أحدا يدعى أن الله أوحى إليه ، وهو لم يوح إليه شيئا ، وهو قادر على أن يختم على قلبه ، فلا ينطق بقرآن كهذا . وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه . وأن يظهر الحق من ورائه ويثبتته :

« فإن يشأ الله يختم على قلبك ، ويمح الله الباطل ، ويمحق الحق بكلماته »

وما كان ليخفي عليه ما يدور في خلد محمد - صلى الله عليه وسلم - حتى قبل أن يقوله :

« إنه علم بذات الصدور » . . .

فهي شبهة لا قوام لها . وزعم لا يقوم على أساس . ودعوى تخالف المهود عن علم الله بالسرائر ، وعن قدرته على ما يريد ، وعن سنته في إقرار الحق وإزهاق الباطل . . . وإذن فهذا الوحي حق ، وقول محمد صدق ؛ وليس القول عليه إلا الباطل والظلم والضلال . . . وبذلك ينتهي القول - مؤقتا - في الوحي . ويأخذ بهم في جولة أخرى وراء هذا القرار .

« وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ، وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾  
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ

عَذَابٌ شَدِيدٌ \* وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ  
مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

« وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ، وَ يُنْشِئُ رَحْمَتَهُ ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ  
« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ؛ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ  
- إِذَا يَشَاءُ - قَدِيرٌ \* وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو عَنْ  
كَثِيرٍ \* وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .  
« وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ \* إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ  
رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ \* أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا  
كُتِبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ \* وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ .

« فَمَا أَوْتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ  
يَغْفِرُونَ \* وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا  
رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ \* وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ  
مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ  
ظُلْمِهِ ، فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ \* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ، وَيَبْغُونَ  
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ  
عَزْمِ الْأُمُورِ .

« وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ، وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ  
يَقُولُونَ : هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ \* وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ  
يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ؛ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا : إِنَّ الْخَالِمِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقيمٍ \* وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ  
يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .

« أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ ، مَا لَكُمْ مِنْ  
مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ \* فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ، إِنْ  
عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا  
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ .

« اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاءًا ، وَيَهَبُ  
لِمَنْ يَشَاءُ الْدُّكُورَ \* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاءًا ، وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ، إِنَّهُ  
عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

« وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ  
رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذَنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ \* وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ  
أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ  
نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي  
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » ﴿٢٧﴾

هذا القسم الثاني من السورة يعضى فى الحديث عن دلائل الإيمان فى الأنفس والآفاق، وعن  
آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق مباشرة بحياتهم ومعاشهم ، وفى صفة المؤمنين التى  
تميز جماعتهم .. وذلك بعد الحديث فى القسم الأول عن الوحي والرسالة من جوانبها المتعددة ..  
ثم يعود فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته . وبين القسمين اتصاله  
ظاهر ، فهما طريقان إلى القلب البشرى ، يصلانه بالوحي والإيمان .

\*\*\*

## الجزء الخامس والعشرون

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تعملون . ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد . ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض . ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، إنه بعباده خير بصير » . . .

تجىء هذه المسئلة بعد ماسبق من مشهد الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم، ومشهد الذين آمنوا في روضات الجنات . ونفى كل شبهة عن صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغهم به عن الله . وتقرير علم الله بذوات الصدور .

تجىء لترغيب من يريد التوبة والرجوع عما هو فيه من ضلالة ، قبل أن يقضى في الأمر القضاء الأخير . ويفتح لهم الباب على مصراعيه : فالله يقبل عنهم التوبة ، ويعفو عن السيئات ؛ فلا داعي للحنوط واللجاج في المعصية ، والخوف مما أسلفوا من ذنوب . والله يعلم ما يفعلون . فهو يعلم التوبة الصادقة ويقبلها . كما يعلم ما أسلفوا من السيئات ويعفوها .

وفي ثنايا هذه المسئلة يعود إلى جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين . فالذين آمنوا و عملوا الصالحات يستجيبون لدعوة ربهم، وهو يزيدهم من فضله . «والكافرون لهم عذاب شديد» . . .

وباب التوبة مفتوح للنجاة من العذاب الشديد ، وتلقى فضل الله لمن يستجيب .

وفضل الله في الآخرة بلا حساب ، وبلا حدود ولا قيود . فأما رزقه لعباده في الأرض فهو مقيد محدود ؛ لما يعله - سبحانه - من أن هؤلاء البشر لا يطيقون - في الأرض - أن يفتح عليهم فيض الله غير المحدود :

« ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء . إنه بعباده خير بصير » . . .

وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق - مهما كثرت - بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير . فالله يعلم أن عباده . هؤلاء البشر . لا يطيقون الغنى إلا بقدر ، وأنه لو بسط لهم في الرزق - من نوع ما ييسر في الآخرة - لبغوا وطمعوا . إنهم صغار لا يملكون التوازن . ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد . والله بعباده خير بصير . ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدرًا محدودًا ، بقدر ما يطيقون . واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض ، ويجتازون امتحانها ، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام . ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود .

\*\*\*

## سورة الشورى

« وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » ..  
 وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده فى الأرض . وقد غاب  
 عنهم الغيث ، وانقطع عنهم المطر ، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول .. الماء ..  
 وأدركهم اليأس والقنوط . ثم ينزل الله الغيث ، ويسعفهم بالمطر ، وينشر رحمته ، فتحيا  
 الأرض ، ويخضر اليابس ، وينبت البذر ، وترعرع النبات ، ويلطف الجو ، وتطلق الحياة ،  
 ويدب النشاط ، وتفرج الأسارى ، وتفتح القلوب ، وينبض الأمل ، ويفيض الرجاء ..  
 وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات . تفتح فيها أبواب الرحمة ، فتفتح أبواب السماء بالماء ..  
 « وهو الولى الحميد » .. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات ..

واللفظ القرآنى المختار للمطر فى هذه المناسبة .. « الغيث » .. يلقى ظل الغوث والنجدة ،  
 وتلبية المضطر فى الضيق والكربة . كما أن تعبيره عن آثار الغيث .. « وينشر رحمته » .. يلقى  
 ظلال الندوة والحضرة والرجاء والفرح ، التى تنشأ فعلا عن تفتح النبات فى الأرض وارتقاب  
 التمار . وما من مشهد يريح الحس والأعصاب ، ويندى القلب والمشاعر ، كمشهد الغيث بعد  
 الجفاف . وما من مشهد يفيض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض تفتح بالنبت بعد الغيث ،  
 وتنتشى بالحضرة بعد الموات .

\* \* \*

« ومن آياته خلق السماوات والأرض ، وما بث فيها من دابة . وهو على جمهم إذا يشاء  
 قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويمنوا عن كثير وما أنتم بمعجزين فى  
 الأرض ، وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير » ..

وهذه الآية الكونية معروضة على الأنظار ، قائمة تشهد بذاتها على ماجاء الوحي ليشهد به ،  
 فارتابوا فيه واختلفوا فى تأويله . وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبه . فهى قاطعة  
 فى دلالتها ، تخاطب الفطرة بلغتها ، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد . إنها تشهد بأن الذى أنشأها  
 ودبرها ليس هو الإنسان ، ولا غيره من خلق الله . ولا من من الاعتراف بمنشىء مدبر . فإن  
 سخامتها الهائلة ، وتناسقها الدقيق ، ونظامها الدائب ، ووحدة نواحيها الثابتة .. كل أولئك  
 لا يمكن تفسيره عقلا إلا على أساس أن هناك إلها أنشأها ويدبرها . أما الفطرة فهى تلقى منطق  
 هذا الكون تلقيا مباشرا ، وتدركه وتطمئن إليه ، قبل أن تسمع عنه كلمة واحدة من خارجها!

## الجزء الخامس والعشرون

وتنطوي آية السماوات والأرض على آية أخرى في ثناياها : « وما بث فيها من دابة » . . .  
والحياة في هذه الأرض وحدها - ودع عنك ما في السماوات من حيوات أخرى لا ندركها - آية  
أخرى . وهي سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد ، فضلا على التطلع إلى إنشائه . سر غامض لا يدري أحد  
من أين جاء ، ولا كيف جاء ، ولا كيف يتلبس بالأحياء ! وكل المحاولات التي بذلت للبحث  
عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستور والأبواب ؛ وانحصرت البحوث كلها في تطور الأحياء -  
بعد وجود الحياة - وتنوعها ووظائفها ؛ وفي هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء  
والنظريات . فأما ما وراء الستر فبقى سرا خافيا لا تعتمد إليه عين ، ولا يصل إليه إدراك . . . إنه  
من أمر الله . الذي لا يدركه سواه .

هذه الأحياء المبتوثة في كل مكان . فوق سطح الأرض وفي ثناياها . وفي أعماق البحر وفي  
أجواز الفضاء - ودع عنك تصور الأحياء الأخرى في السماء - هذه الأحياء المبتوثة التي لا يعلم  
الإنسان منها إلا النزر اليسير ، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور . هذه الأحياء  
التي تدب في السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء ، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب !  
وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سرها من الطير الأليف يفتت من أقطابهم ، أو سرها  
من النحل يطير من خلية لهم !

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله . وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصها  
إلا الله . وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله . وأسراب من الأسماك  
وحیوان البحر لا يطلع عليها إلا الله . وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان ،  
وقطعان من البشر مبتوثة في الأرض في كل مكان . . . ومعها خلائق أربى عددا وأخفى مكانا  
في السماوات من خلق الله . . . كلها . . . كلها . . . يجمعها الله حين يشاء . . .

وليس بين ثنايا السماوات والأرض وجمعها إلا كلمة تصدر . والتعبير يقابل بين مشهد البث  
ومشهد الجمع في لمحة على طريقة القرآن ؛ فيشهد القلب هذين الشهدين الهائلين قبل أن ينتهي  
اللسان من آية واحدة قصيرة من القرآن !

وفي ظل هذين الشهدين يحدثهم عما يصيهم في هذه الحياة بما كسبت أيديهم . لا كله . فإن  
الله لا يؤاخذهم بكل ما يكسبون . ولكن يفو منه عن كثير . ويصور لهم عجزهم ويذكركم به ،  
وهم قطاع صغير في عالم الأحياء الكبير :

## سورة الشورى

« وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويفعو عن كثير . وما أتم بمعجزين في الأرض  
ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . »

وفي الآية الأولى يتجلى عدل الله ، وتجلي رحمته بهذا الإنسان الضيف . فكل مصيبة  
تصيبه لها سبب مما كسبت يدها ؛ ولكن الله لا يؤاخذ به بكل ما يقترف ؛ وهو يعلم ضعفه وما ركب  
في فطرته من دوافع تغلبه في أكثر الأحيان ، فيعفو عن كثير ، رحمة منه وسماحة .

وفي الآية الثانية يتجلى ضعف هذا الإنسان ، فما هو بمعجز في الأرض ، وماله من دون الله  
من ولى ولا نصير . فأين يذهب إلا أن يلتجئ إلى الولى والنصير ؟

\*\*\*

« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره .  
إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو يوبقهن بما كسبوا ويفع عن كثير . ويعلم الذين  
يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص . »

والسفن الجوارى في البحر كالجبال آية أخرى من آيات الله . آية حاضرة مشهودة . آية  
تقوم على آيات كلها من صنع الله دون جدال . هذا البحر من أنشاء ؟ من من البشر أو غيرهم  
يدعى هذا الادعاء ؟ ومن أودعه خصائصه من كثافة وعمق وسعة حتى يحمل السفن الضخام ؟  
وهذه السفن من أنشاء مادتها وأودعها خصائصها فجعلها تطفو على وجه الماء ؟ وهذه الريح التي  
تدفع ذلك النوع من السفن التي كانت معلومة وقتها للمخاطبين ( وغير الريح من القوى التي  
سخرت للإنسان في هذا الزمان من بخار أوزرة أو ما يشاء الله بعد الآن ) من جعلها قوة في  
هذا الكون تحرك الجوارى في البحر كالأعلام ؟

« إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . »

وإنها لتركد أحيانا فتهد هذه الجوارى وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة !

« إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

في إجرائهن وفي ركودهن على السواء آيات لكل صبار شكور . والصبر والشكر كثيرا  
ما يقرنان في القرآن . الصبر على الابتلاء والشكر على النعماء ؛ وهما قوام النفس المؤمنة في  
الضراء والسراء .

« أو يوبقهن بما كسبوا . »



فيحطمهن أو يفرقهن بما كسب الناس من ذنب ومعصية ومخالفة عن الإيمان الذي تدين به الخلائق كلها ، فيما عدا بعض بني الإنسان !  
« ويعف عن كثير » . . .

فلا يؤاخذ الناس بكل ما يصدر منهم من آثام ، بل يسمع ويعفو ويتجاوز منها عن كثير .  
« ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » . . .  
لو شاء الله أن يفهمهم أمام بأسه ، ويوبق سفائهم ، وهم لا يملكون منها نجاة !  
وهكذا يشعروا بأن ما يملكون من أعراض هذه الحياة الدنيا ، عرضة كله للذهاب . فلا ثبات ولا استقرار لشيء إلا الصلة الوثيقة بالله .

\*\*\*

ثم يخطوبهم خطوة أخرى ، وهو يلفتهم إلى أن كل ما أوتوه في هذه الأرض متاع موقوت في هذه الحياة الدنيا . وأن القيمة الباقية هي التي يدخرها الله في الآخرة للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . ويستطرد فيحدد صفة المؤمنين هؤلاء ، بما يميزهم ، ويفردهم أمة وخدم ذات خصائص وسمات !

« فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، وما رزقناهم ينفقون . والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغفون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . . .

لقد سبق في السورة أن صور القرآن حالة البشرية ؛ وهو يشير إلى أن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ؛ وكان تفرقهم بغيابهم لاجهلا بما نزل الله لهم من الكتاب ، وبما سن لهم من نهج ثابت مطرد من عهد نوح إلى عهد إبراهيم إلى عهد موسى إلى عهد عيسى - عليهم صلوات الله - وهو يشير كذلك إلى أن الذين أوتوا الكتاب بعد أولئك المختلفين ، ليسوا على ثقة منه ، بل هم في شك منه مرعب .

## سورة الشورى

وإذا كان هذا حال أهل الأديان المنزلة ، وأتباع الرسل - صلوات الله عليهم - فحال أولئك

الذين لا يتبعون رسولا ولا يؤمنون بكتاب أضل وأعمى .

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة ، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها . وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى ؛ وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا .

ونزل الله الكتاب على عبده محمد - صلى الله عليه وسلم - قرآنا عربيا ، لينذر أم القرى ومن حولها ؛ وشرع فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى ، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها ؛ ويقم بها الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود ؛ وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله ، وفي الصورة التي يرتضيها .

وهنا في هذه الآيات تصور خصائص هذه الجماعة التي تطبعها وتميزها . ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة : « وأمرهم شورى بينهم » .. مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظاما سياسيا للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرادا طبيعيا للجماعة . كذلك نجد من صفة هذه الجماعة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .. مع أن الأمر الذي كان صادرا للمسلمين في مكة هو أن يصبروا ولا يردوا العدوان بالعدوان ؛ إلى أن صدر لهم أمر آخر بعد الهجرة وأذن لهم في القتال . وقيل لهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . وذكر هذه الصفة هنا في آيات مكية بصدد تصوير طابع الجماعة المسلمة يوحى بأن صفة الانتصار من البغي صفة أساسية ثابتة ؛ وأن الأمر الأول بالكف والصبر كان أمرا استثنائيا نظروف معينة . وأنه لما كان القام هنا مقام عرض الصفات الأساسية للجماعة المسلمة ذكر منها هذه الصفة الأساسية الثابتة ، ولو أن الآيات مكية ، ولم يكن قد أذن لهم بعد في الانتصار من العدوان .

وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام . ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل . فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولا ، وأن تتحقق في الجماعة لكي

تصبح بها صالحة للقيادة العملية . ومن ثم ينبغي أن تدبرها طويلاً .. ماهي ؟ ما حقيقتها ؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعاً ؟

إنها الإيمان . والتوكل . واجتباب كبار الإثم والفواحش . والغفرة عند الغضب . والاستجابة لله . وإقامة الصلاة . والشورى الشاملة . والإنفاق بما رزق الله . والانتصار من البغي . والغفو . والإصلاح . والصبر .

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها ؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني .

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم . القيم الزائلة والقيم الباقية ؛ كي لا يختلط الأمر في نفوسهم ، فيختل كل شيء في تقديرهم . ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة :

« وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى » ..

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً ، وهناك أرزاق وأولاد وشهوات ولدائد وجاء وسلطان ؛ وهناك نعم آتاه الله لعباده في الأرض تلتطفاً منه وهبة خالصة ، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا . وإن كان يبارك للطائع - ولو في القليل - ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير .

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية . إنما هو متاع . متاع محدود الأجل . لا يرفع ولا يخفض ، ولا يند بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة ؛ ولا يعتبر بذاته علامة رضى من الله أو غضب . إنما هو متاع . « وما عند الله خير وأبقى » .. خير في ذاته . وأبقى في مدته . فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله ، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المناسب . ومتاع الحياة الدنيا معدود الأيام . أقصى أمده للفرد عمر الفرد ، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية ؛ وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أوتكاد !

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم ما هو خير وأبقى .. ويبدأ بصفة الإيمان : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا » .. وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها . فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود ، وأنه من صنع الله ؛ وبعد

## سورة الشورى

إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته كما يعرف قوانينه التي تحكمه . ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير ، ولا ينحرف عن النواميس الكلية ، فيسعد بهذا التناسق ، ويمضى مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام . وهذه الصفة لازمة لكل إنسان ، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود .

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية ، والثقة بالطريق ، وعدم الحيرة أو التردد ، أو الخوف أو اليأس . وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب ؛ ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق ، ويقود البشرية في هذا الطريق .

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والعرض والصالح الشخصي وتحقيق الغايم . إذ يصبح القلب متعلقا بهدف أبعد من ذاته ؛ ويحس أن ليس له من الأمر شيء ، إنما هي دعوة الله ، وهو فيها أجير عند الله . وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد أو أودى في الدعوة ؛ ولا يفتر إذا ما استجابت له الجماهير ، أو دانت له الرقاب . فإنما هو أجير !

ولقد آمنت العصابة الأولى من المسلمين إيمانا كاملا أثر في نفوسهم وأخلاقهم وسلوكهم تأثيرا عجيبا . وكانت صورة الإيمان في نفس البشرية قد بهتت وغمضت حتى فقدت تأثيرها في أخلاق الناس وسلوكهم ، فلما أن جاء الإسلام أنشأ صورة للإيمان حية مؤثرة فاعلة تصلح بها هذه العصابة للقيادة التي وضعت على عاتقها .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » . عن هذا الإيمان :

« انحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقدة كلها ؛ وجاهدتم الرسول جهاده الأول ، فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى ؛ واتصر الإسلام على الجاهلية في المركة الأولى ، فكان النصر حليفه في كل معركة ؛ وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى ، ولا يكون لهم الحيرة من بعد ما أمر أو نهى . . . » (١)

(١) ص ٧٣ الطبعة الثانية .

«حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم - بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم - وأنصبتوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة ، وفي اليوم رجال العدم ، لا تجزئهم مصيبة ، ولا تبطرحهم نعمة ، ولا يشغلهم فقر ، ولا يطعمهم غنى ، ولا تلهيهم نجارة ، ولا تستخفهم قوة ، ولا يبريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم ، قوامين بالقسط شهداء لله على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . . . وطأ لهم أكناف الأرض ، وأصبحوا عصمة للبشرية ، ووقاية للعالم . وداعية إلى دين الله . . .» (١)

ويقول عن تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول :

«كان الناس عربا ومعجما يعيشون حياة جاهلية ، يسجدون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ، ولا يعذب العاصي بعقوبة ، ولا يأمر ولا ينهى ؛ فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم . ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم . كانوا يؤمنون بالله كصانع أمم عمله واعزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية ؛ فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وتولوا إدارة المملكة وتدير شؤونها وتوزع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة . فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله ، وإحالتهم خلق السماوات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ ، يقال له : من بي هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكا من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ؛ فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله ودعاؤه . وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم ، فكانت معرفتهم مهمة غامضة ، قاصرة مجمة . لانبت في نفوسهم هيبة ولا محبة . . .»

«... انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العلية الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاحتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها . آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى . آمنوا برب العالمين ، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباري ، الصور ، العزيز ، الحكيم ، الغفور ، الودود ، الرؤوف ، الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده ملكوت كل شيء ، يجير ولا يحار

(١) ص ٧٤ الطبعة الثانية .

## سورة الشورى

عليه . . . إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه . يثيب بالجنة ويمدب بالنار ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الحجب في السماوات والأرض ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه . فانتقلت نفسيهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلابا عجيبا . فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انتقلت حياته ظهرا لبطن . تغفلت الإيمان في أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم ، واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه ، وجعل منه رجلا غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ، ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليقه بشيء غير الإيمان الكامل العميق»<sup>(١)</sup>

«وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملئ على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة وإرادة وقوة نفس ، ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ؛ حتى إذا جمحت السورة الهيمية في حين من الأحيان ، وسقط الإنسان سقطة وكان ذلك حيث لا تراقبه عين ، ولا تتناوله يد القانون ، تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة ، ووخزا لا ذعا للضمير ، وخيالامروعا ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ، ويتحملها مطمئنا مرتاحا ، تفاديا من سخط الله وعقوبة الآخرة»<sup>(٢)</sup> . . .

« . . . وكان هذا الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، يملك نفسه الزرع أمام المطامع والشهوات الجارفة ؛ وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراه أحد ، وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحدا . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامي من قضايا العفاف عند المنعم ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والإخلاص لله ، ما يسجز التاريخ البشري عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ، ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان»<sup>(٣)</sup>

« وكانوا قبل هذا الإيمان في فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ، ولا يقرون بنظام ، ولا ينخرطون في سلك ،

(٢) ص ٧٦ .

(١) ص ٧٥-٧٦ الطبعة الثانية .

(٣) ص ٧٧ .

يسرون على الأهواء ، ويركبون العمياء ، ويخطون خطب عشواء . فأصبحوا الآن في حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان ، والأمر والنهي ، ولأنفسهم بالرعية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا من أنفسهم القادة ، واستسلموا للحكم الإلهي استسلاما كاملا ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيدا لا يملكون مالا ولا نفسا ولا تصرفا في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصلحون إلا بإذن الله ، ولا يرضون ولا يسخطون ، ولا يعطون ولا يمنعون ، ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره» (١)

وهذا هو الإيمان الذي تشير إليه الآية وهي تصف الجماعة التي اختيرت لقيادة البشرية بهذه العقيدة . ومن مقضيات هذا الإيمان التوكل على الله . ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها :

« وعلى ربهم يتوكلون » . .

وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على ربهم دون سواه . والإيمان بالله الواحد يقتضى التوكل عليه دون سواه . فهذا هو التوحيد في أول صورة من صورته . إن المؤمن يؤمن بالله وصفاته ، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئا إلا بمشيئته ، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه . ومن ثم يقصر توكله عليه ، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه .

وهذا الشعور ضروري لكل أحد ، كي يقف رافع الرأس لا يحنى رأسه إلا لله . مطمئن القلب لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله . ثابت الجأش في الضراء ؛ قرير النفس في السراء ، لا تستطيره نساء ولا بأساء . . . ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد ، الذي يحتمل تبعه ارتياد الطريق .

« والذين يجتنبون كبار الإثم والفواحش » . .

وطهارة القلب ، ونظافة السلوك من كبار الإثم ومن الفواحش ، أثر من آثار الإيمان الصحيح . وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة . وما يبقى قلب على صفاء الإيمان وتقاوته

## سورة الشورى

وهو يقدم على كائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنّبها . وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره .

ولقد ارتفع الإيمان بالحساسية المرهفة في قلوب العصابة المؤمنة ، حتى بلغت تلك الدرجة التي أشارت إليها المقنطفات السابقة (ص ٧٧) وأهلت الجماعة الأولى لقيادة البشرية قيادة غير مسبوقة ولا ملحوظة . ولكنها كالسهم يشير إلى النجم ليهدى به من يشاء في معترك الشهوات ! والله يعلم ضعف هذا المخلوق البشري ، فيجعل الحد الذي يصلح به للقيادة ، والذي ينال معه ما عند الله ، هو اجتناب كائر الإثم والفواحش . لاصغائر الإثم والذنب . وتسعه رحمته بما يقع منه من هذه الصغائر ، لأنه أعلم بطاقته . وهذا فضل من الله وسماحة ورحمة بهذا الإنسان ؛ توجب الحياء من الله ، فالسماحة تحجل والعفو يشير في القلب الكريم معنى الحياء .

« وإذا ما غضبوا هم يغفرون » ..

وبأني هذه الصفة بعد الإشارة الحفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه ، فتجيب في السماحة والمغفرة بين العباد . وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون . وتتجلى سماحة الإسلام مرة أخرى مع النفس البشرية ؛ فهو لا يكلف الإنسان فوق طاقته . والله يعلم أن الغضب انفعال بشري ينبع من فطرته . وهو ليس شرا كله . فالغضب لله ولدينه وللحق والعدل غضب مطلوب وفيه الخير . ومن ثم لا يحرم الغضب في ذاته ولا يجعله خطيئة . بل يعترف بوجوده في الفطرة والطبيعة ، فيعفى الإنسان من الحيرة والتعزق بين فطرته وأمر دينه . ولكنه في الوقت ذاته يفوده إلى أن يعلب غضبه ، وأن يغفر ويعفو ، ويحب له هذا صفة مثلى من صفات الإيمان المحيية . هذا مع أنه عرف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يغضب لنفسه قط ، إنما كان يغضب لله ، فإذا غضب لله لم يقم لغضبه شيء . ولكن هذه درجة تلك النفس المحمدية العظيمة ؛ لا يكلف الله نفوس المؤمنين إياها . وإن كان يحبهم فيها . إنما يكتفي منهم بالمغفرة عند الغضب ، والعفو عند القدرة ، والاستعلاء على شعور الانتقام ، مادام الأمر في حدود الدائرة الشخصية المتعلقة بالأفراد .

« والذين استجابوا لربهم » ..

فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم . أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول . وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها . عوائق من شهواتها وزواتها .



بوائق من وجودها هي وتشبها بذاتها . فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحا وموصولا . وحينئذ تستجيب بلا عائق . تستجيب بكلياتها . ولا تقف أمام كل تكليف ببائق من هوى يمنها .. وهذه هي الاستجابة في عمومها .. ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة :

« وأقاموا الصلاة » ..

وللصلاة في هذا الدين مكانة عظيمة ، فهي النالية للقاعدة الأولى فيه . قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وهي صورة الاستجابة الأولى لله . وهي الصلة بين العبد وربّه . وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعا سجدا ، لا يرتفع رأس على رأس ، ولا تقدم رجل على رجل !

ولعله من هذا الجانب أتت إقامة الصلاة بصفة الشورى - قبل أن يذكر الزكاة :

« وأمرهم شورى بينهم »

والتعبير يجعل أمرهم كله شورى ، ليصبح الحياة كلها بهذه الصيغة . وهو كما قلنا نص مكى . كان قبل قيام الدولة الإسلامية . فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين . إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد . والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إقرار طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية . والجماعة تتضمن الدولة وتنهض وإياها بتحقيق النهج الإسلامي وهيته على الحياة الفردية والجماعية .

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرا ؛ وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها . إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية ، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية . وهي من أزم صفات القيادة .

أما الشكل الذي تم به الشورى فليس مصبوبا في قالب حديدي ؛ فهو متروك للصورة وللأمة لكل بيئة وزمان ، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية . والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ، وليست نصوصا حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء .. وليس هذا كلاما

## سورة الشورى

عائماً غير مضبوط كما قد يبدو لأول وهلة لمن لا يعرف حقيقة الإيمان بالمقيدة الإسلامية . فهذه العقيدة - في أصولها الاعتقادية البحتة ، وقبل أى التفات إلى الأنظمة فيها - تحوى حقائق نفسية وعقلية هي في ذاتها شئ له وجود وفاعلية وأثر في الكيان البشرى ، يبيء لإفراز أشكال معينة من النظم وأوضاع معينة في الحياة البشرية ؛ ثم تجيء الصوض بعد ذلك مشيرة إلى هذه الأشكال والأوضاع ، لمجرد تنظيمها لالحلقها وإنشائها . ولكى يقوم أى شكل من أشكال النظم الإسلامية ، لا بد قبلها من وجود مسلمين ، ومن وجود إيمان ذى فاعلية وأثر . وإلا فكل الأشكال التنظيمية لاتفى بالحاجة ، ولا تحقق نظاما يصح وصفه بأنه إسلامى ..

ومتى وجد المسلمون حقا ، ووجد الإيمان في قلوبهم بحقيقته ، نشأ النظام الإسلامى نشأة ذاتية ، وقامت صورة منه تناسب هؤلاء المسلمين وبيئتهم وأحوالهم كلها ؛ وتحقق المبادئ الإسلامية الكلية خير تحقيق .

« وما رزقناهم ينفقون » ..

وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التى حدثت في السنة الثانية من الهجرة . ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيهها مبكرا في حياة الجماعة الإسلامية . بل إنه ولد مع مولدها .

ولا بد للدعوة من الإنفاق . لا بد منه تطهيرا للقلب من الشح ، واستعلاء على حب الملك ، وثقة بما عند الله . وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان . ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة . فالدعوة كفاح . ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرأه وآثاره . وأحيانا يكون هذا التكافل كاملا بحيث لا يبقى لأحد مال متميز . كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة ، وبزولهم على إخوانهم في المدينة . حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة .

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه صفة سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات ..

« والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » .

وذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة كما سلف . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة . صفة الانتصار من البغي ، وعدم الخضوع للظلم . وهذا طبعى بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خيرا أمة . لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتهيمن على حياة البشرية

بالحق والعدل ؛ وهي عزيزة بالله . « والله العزة ورسوله وللمؤمنين » .. فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان . وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة ، ولتقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة ، أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصلية .

ولقد كانت هنالك أسباب خاصة لاختيار أسلوب المسالمة والصبر في العهد المكي :

منها أن إيذاء المسلمين الأوائل وقتهم عن دينهم لم تكن تصدر من هيئة مهيمنة على الجماعة . فالوضع السياسي والاجتماعي في الجزيرة كان وضعا قريبا مغلخا . ومن ثم كان الذين يتولون إيذاء الفرد المسلم هم خاصة أهله إن كان ذا نسب ، ولم يكن أحد غير خاصة أهله يجرؤ على إيذائه - ولم يقع إلا في الندرة أن وقع اعتداء جماعي على فرد مسلم أو على المسلمين كجماعة - كما كان السادة يؤذون مواليهم إلى أن يشترهم المسلمون ويعتقوهم فلا يجرؤ أحد على إيذائهم غالبا . ولم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يحب أن تقع معركة في كل بيت بين الفرد المسلم من هذا البيت والذين لم يسلموا بعد . والمسالمة كانت أقرب إلى إلانة القلوب من المخاشنة .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة نخوة نشور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى . واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقبتهم ، كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين . وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشعب وحصر بني هاشم فيه . فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار ، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة ، ونقضت هذا العهد الجائر .

ومنها أن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومصارعة إلى السيف ، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام . والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضى كبح جماح هذا التوفز الدائم ، وإضعافها لهدف ، وتمويدها بالصبر وضبط الأعصاب . مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وعلى كل مغنم . ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية ، وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق .

فهذه الاعتبارات وأمثالها قد اقتضت سياسة المسالمة والصبر في مكة . مع تقرير الطابع الأساسي الدائم للجماعة المسلمة : « والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » ..

ويؤكد هذه القاعدة بوصفها قاعدة عامة في الحياة :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها » ..

فهذا هو الأصل في الجزاء . مقابلة السيئة بالسيئة ، كي لا يتبجح الشر ويطغى ، حين لا يجد رادعا يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضى وهو آمن مطمئن !

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد . وهو استثناء من تلك القاعدة . والعفو لا يكون إلا مع القدرة على جزاء السيئة بالسيئة . فهنا يكون للعفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدى والمسامح سواء . فالمعتدى حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجهىء ضعفاً ينجل ويستحيى ، ويحس بأن خصمه الذى عفا هو الأظلم . والقوى الذى يعفو تصفو نفسه وتملأ . فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا . ولا كذلك عند الضعف والعجز . وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز . فليس له ثمة وجود . وهو شر يطمع المعتدى وينزل المعتدى عليه ، وينشر في الأرض الفساد !

« إنه لا يجب الظالمين » ..

وهذا توكيد للقاعدة الأولى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » من ناحية . وإيحاء بالوقوف عند رد المساءة أو العفو عنها . وعدم تجاوز الحد في الاعتداء ، من ناحية أخرى . وتوكيد آخر أكثر تفصيلاً :

« ولئن انتصر بعد ظلمه ، فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويغفون في الأرض بغير الحق . أولئك لهم عذاب أليم » ..

فالذى ينتصر بعد ظلمه ، ويجزى السيئة بالسيئة ، ولا يعتدى ، ليس عليه من جناح . وهو يزاول حقه المشروع . فما لأحد عليه من سلطان . ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد . إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس ، ويغفون في الأرض بغير الحق . فإن الأرض لاتصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه ؛ وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه . والله يتوعد الظالم الباغى بالعذاب الأليم . ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق .

ثم يعود إلى التوازن والاعتدال وضبط النفس والصبر والسماحة في الحالات الفردية ، وعند القدرة على الدفع كما هو مفهوم ؛ وحين يكون الصبر والسماحة استعلاء لاستخذاء ؛ وتجملاً لا ذلاً :

« ولئن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » ..

. ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين ؛ وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ ، ومن الضعف والذل ، ومن الجور والبغى . وتعلقها بالله ورضاء في كل حال . وتجمل الصبر زاد الرحلة الأصيل .

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعا مميزا للجاعة التي تعود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ..

\*\*\*

وبعد تقرير صفة المؤمنين الذين يدخر الله لهم عنده ما هو خير وأبقى ، يعرض في الصفحة المتعاقبة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران :

« ومن يضل الله فثاله من ولي من بعده ؛ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي ، وقال الذين آمنوا : إن الحاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؛ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ، وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضل الله فثاله من سبيل» .. إن قضاء الله لا يرد ، ومشيته لا معقب عليها « ومن يضل الله فثاله من ولي من بعده» .. فإذا علم الله من حقيقة العبد أنه مستحق للضلال ، خفت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال ، لم يكن له بعد ذلك من ولي يهديه من ضلاله ، أو ينصره من جزاء الضلال الذي قدره الله . . . والذي يعرض منه مشهدا في بقية الآية :

« وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون : هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ، ينظرون من طرف خفي » ..

والظالمون كانوا طغاة بغاة ، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء . إنهم يرون العذاب ، فتهاوى كبرياؤهم . ويتساءلون في انكسار : « هل إلى مرد من سبيل ؟ » في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة ، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص أو هم يعرضون على النار « خاشعين » لامن التنوى ولامن الحياء ، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار ، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار : « ينظرون من طرف خفي » .. وهي صورة شاخصة ذليلة .

وفي هذا الوقت يبدو أن الذين آمنوا هم سادة الموقف ؛ فهم ينطقون ويقررون : « وقال

## سورة الشورى

الذين آمنوا : إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة « . . وهم هؤلاء الذين خسروا كل شيء ، والذين يقفون خاشعين من الذل يقولون : هل إلى مرد من سبيل ؟ ويجيء التعليق العام على المشهد بيانا لمآل هؤلاء المعروضين على النار :

« ألا إن الظالمين في عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله . ومن يضل الله فما له من سبيل « . .

فقد عدم النصير ، وقد أغلق السبيل .

\*\*\*

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ، ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدوا لهم ملجأ يقيمهم ، ولا نصيراً ينكر مصيرهم الأليم ، ويوجه الرسول صلى الله عليه وسلم - إلى التخلي عنهم إذا هم أعرضوا فلم يستجيبوا لهذا النذير ؛ فما عليه إلا البلاغ ، وما هو مكلف بهم ولا كفيل :

« استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ « . .

ثم يكشف عن طبيعة هذا الإنسان الذى يعارض ويعاند ، ويعرض نفسه للأذى والعذاب ، وهو لا يحتمل في نفسه الأذى ؛ وهو رقيق الاحتمال ، يستطار بالنعمة ، ويجزع من الشدة ، ويتجاوز حده فيكفر من الضيق !

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن نصيبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور « . .

ويعقب على هذا بأن نصيب هذا الإنسان من السراء والضراء ومن العطاء والحرمان كله بيد الله . فقال هذا الإنسان المحب للخير الجزوع من الشر ، يبعد عن الله المالك لأمره في جميع الأحوال :

« لله ملك السماوات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير « . .

والندرية مظهر من مظاهر المنع والنع والعطاء والحرمان ؛ وهى قرينة من نفس الإنسان؛

والنفس شديدة الحساسية بها . فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق . وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه . فهذه تكملة في الرزق بالذرية . وهي رزق من عند الله كمال والتقديم بأن الله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل حزية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام . وكذلك ذكر : « يخلق ما يشاء » . فهي تؤكد للإيجاء النفسى المطلوب في هذا الموضع . ورد الإنسان ، المحب للخير ، إلى الله الذى يخلق ما يشاء بما يسر وما يسوء ومن عطاء أو حرمان .

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان : فهو يهب لمن يشاء إن شاء . وهم كانوا يكرهون الإيات ( ويهب لمن يشاء الذكور . ويهب لمن يشاء أزواجا من هؤلاء وهؤلاء . ويحرم من يشاء فيجعلها عقبا ( والعقم يكرهه كل الناس ) . . . وكل هذه الأحوال حاضمة لمشيئة الله . لا يتدخل فيها أحد سواه . وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته : « إنه عليم قدير » . . .

\*\*\*

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى التى تدور عليها السورة . حقيقة الوحي والرسالة . يعود إلى هذه الحقيقة ليكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ، وفي آية صورة يكون . ويؤكد أنه قد وقع فعلا إلى الرسول الأخير - صلى الله عليه وسلم - لغاية يريدنا الله سبحانه . ليهدي من يشاء إلى صراط مستقيم :

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » . .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهة . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : « من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » (١) إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث : « وحيا » يلقى فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله ، « أو من وراء حجاب » . . كما كلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل « وخر موسى صعقا فلما أفاق قال : سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » . .

(١) متفق عليه

## سورة الشورى

« أو يرسل رسولا » وهو الملك « فيوحى بإذنه ما يشاء » بالطرق التي وردت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه كما قال - صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » .. والثانية : أنه كان - صلى الله عليه وسلم - يتمثل له الملك رجلا ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول . والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها . والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحى . وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم (١) .

هذه صور الوحي وطرق الاتصال .. « إنه على حكيم » .. يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار ..

وبعد فإنه مامن مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي أوحديث ، لأتأمل هذا الاتصال إلا أحسست له رجفة في أوصالي .. كيف ؟ كيف يكون هذا الاتصال بين الذات الأزلية الأبدية التي ليس لها حيز في المكان ولا حيز في الزمان ، المحيطة بكل شيء ، والتي ليس كمثلها شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين هذه الذات العلية وذات إنسان متحيزة في المكان والزمان ، محدودة بمحدود المخلوقات ، من أبناء الفناء ؟ ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات ؟ وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأزلى الأبدى الذي لا حيز له ولا حدود ؟ ولا شكل له ممهود ؟

وكيف ؟ وكيف ؟ ..

ولكني أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟ لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة . وصار لها وجود هو الذي تملك أن تدركه من وجود .

ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزول ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة

(١) عن « زاد المعاد » للإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية .



التلقى هذه لعظمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية . . أخى الذى تقرا هذه الكلمات ، أنت معى فى هذا التصور ؟ ، أنت معى تحاول أن تصور ؟ ، هذا الوحى الصادر من هناك . أقول : هناك ؟ ، كلا . إنه ليس هناك « هناك » ! الصادر من غير مكان ولا زمان ، ولا حيز ولاحد ولا جهة ولا ظرف . الصادر من المطلق النهائى ، الأزلى الأبدى ، الصادر من الله ذى الجلال . إلى إنسان .. إنسان مها يكن نبيا رسولا ، فإنه هو هذا الإنسان ذو الحدود والقيود . . هذا الوحى . هذا الاتصال العجيب . المعجز . الذى لا يملك إلا الله أن يجعله واقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .. أخى الذى تقرا هذه الكلمات . هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله ؟ إننى لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة وأنا أحاول أن أتصور ذلك الحدث العظيم العجيب الخارق فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات . وأحس بحدوثه نام رأوا مظاهره رأى العين ، على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم . وهذه عائشة رضى الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية فتروى عن واحدة منها تقول : « قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة . هذا جبريل يقرئك السلام » قلت : وعليه السلام ورحمة الله . قالت : وهو يرى ما لا يرى (١) » . وهذا زيد ابن ثابت - رضى الله عنه - يشهد مثل هذه اللحظة ونفذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على نغذه ، وقد جاءه الوحى فتقلت حتى كادت ترض نغذه . وهؤلاء هم الصحابة - رضوان الله عليهم - فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه فى وجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيدعون له للوحى حتى يسرى عنه ، فيمجد إليهم ويمجدون إليه . . .

ثم .. أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال الملوى الكريم ؟ أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى ، ويختلط بذلك العنصر ، ويتسق مع طبيعته وخواءه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ، إنها حقيقة : ولكنها تراءى هناك بعيدا على أفق عال ومرتقى صاعد ، لا تكاد المدارك تملأه .

روح هذا النبي - صلى الله عليه وسلم - روح هذا الإنسان . كيف ياترى كانت تحس بهنه

(١) أخرجه البخارى .

## سورة الشورى

الصلة وهذا التلقى ؟ كيف كانت تفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجرد الوجود في هذه اللحظات المعجبة التي يتجلى فيها الله على الوجود ؛ والتي تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟

ثم .. أية رعاية؟ وأية رحمة؟ وأية مكرمة؟.. والله العلى الكبير يتلطف فيعني بهذه الخليفة الضئيلة المسماة بالإنسان . فيوحى إليها لإصلاح أمرها ، وإنارة طريقها ، ورد شاردتها .. وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟ !  
إنها حقيقة . ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا تطلعا إلى الأفق السامق الوضىء :

« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان . ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور » .

« وكذلك » . يمثل هذه الطريقة ، ويمثل هذا الاتصال . « أوحينا إليك » .. فالوحي تم بالطريقة المعهودة ، ولم يكن أمرك بدعا . أوحينا إليك « روحا من أمرنا » .. فيه حياة ، يبت الحياة ويدفعها ويحركها وينمها في القلوب وفي الواقع العملى المشهود . « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » .. هكذا يصور نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو أعلم بها ، قبل أن تتلقى هذا الوحي . وقد سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الكتاب وسمع عن الإيمان ، وكان معروفا في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم ، وأن لهم عقيدة ، فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو اشتغال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير . وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد - عليه صلوات الله .

« ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء » .. وهذه طبيعته الخالصة . طبيعة هذا الوحي . هذا الروح . هذا الكتاب . إنه نور . نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها .

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » . . . وهناك توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى ، بمشيئة الله سبحانه ، وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لا يعرفه سواه ؛ والرسول - صلى الله عليه وسلم - واسطة لتحقيق

## الجزء الخامس والعشرون

مشيئة الله ، فهو لا ينشئ الهدى في القلوب ؛ ولكن يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله .

« وإنك تهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض .. »  
فهي الهداية إلى طريق الله ، الذي تلتقى عنده المسالك . لأنه الطريق إلى الملك ، الذي له ما في  
السماوات وما في الأرض ؛ فالذي يهتدي إلى طريقه يهتدي إلى ناموس السماوات والأرض ،  
وقوى السماوات والأرض ، ورزق السماوات والأرض ، وأتجاه السماوات والأرض إلى مالِكها  
العظيم . الذي إليه تتجه ، والذي إليه تصير :

« ألا إلى الله تصير الأمور » . .

فكلها تنتهي إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره .

وهذا النور يهدي إلى طريقه الذي اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه في النهاية  
مهتدين طائعين .

\*\*\*

وهكذا تنتهي انسورة التي بدأت بالحديث عن الوحي . وكان الوحي محورها الرئيسي .  
وقد عالجت قصة الوحي منذ النبوات الأولى . لتقرر وحدة الدين ، ووحدة المنهج ، ووحدة  
الطريق . وتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة في رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي العصبة  
المؤمنة بهذه الرسالة . وتكفل إلى هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم . صراط الله  
الذي له ما في السماوات وما في الأرض . وتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز ، الذي تصلح  
به للقيادة ، وتحمل به هذه الأمانة . الأمانة التي تنزلت من السماء إلى الأرض عن ذلك الطريق  
العجيب العظيم . .

## سُورَةُ الزَّخْرَفِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ٨٩

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ \* وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ \* أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ »

« وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ \* وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ، وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ . »

« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ : خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ \* الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ، كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ \* وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ \* لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ، وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ \* وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . »

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ \* أَمْ اتَّخَذَ إِمَّا يَخْلُقُ بِنَاتٍ وَأَصْفًا كُمْ بِالْبَنِينَ ؟ \* وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا »

وَهُوَ كَبِيمٌ \* أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْخَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ؟ \* وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاءً . أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ؟ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .  
 « وَقَالُوا : لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاكُمْ . مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ \*  
 أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ؟ \* بَلْ قَالُوا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ  
 أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ \* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا  
 قَالَ مُتْرَفُوهَا : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ \* قَالَ : أُولَئِكَ  
 جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ؟ قَالُوا : إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ \*  
 فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ، فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ » ﴿٤٥﴾

تعرض هذه السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقه من مصاعب وعقبات ؛ ومن جدال واعتراضات . وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها في النفوس ؛ وكيف يقرر في ثنايا علاجها حقائقه وقيمه في مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلية الزائفة ، التي كانت قائمة في النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائماً في النفوس في كل زمان ومكان .

كانت الوثنية الجاهلية تقول : إن في هذه الأنعام التي سخرها الله للعباد ، نصيباً لله ، ونصيباً لآلهتهم المدعاة . « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم » . . . وكانت لهم في الأنعام أساطير شتى وخرافات أخرى كلها : أشياء من انحرافات العقيدة . فكانت هناك أنواع من الأنعام محرمة ظهورها على الركوب - وأنواع محرمة لحومها على الأكل :  
 « وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها اقترأ على الله » . . .

وفي هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ؛ ورد النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى . فالأنعام من خلق الله ، وهي طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً . وقد خلقها الله وسخرها للبشر لذكروا نعمة ربهم عليهم ويشكروها ؛

## سورة الزخرف

لا يجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم في الأنعام ما لم يأمر به الله ؛ بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق البدع ؛ ثم هم ينحرفون عن مقتضى هذه الحقيقة التي يقرون بها ، ويمزلوننا عن حياتهم الواقعة ، ويتبعون خرافات وأساطير : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن : خلقهن العزيز العليم ، الذي جعل لكم الأرض مهديا ، وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ، والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون ، والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . . .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ؛ ومع أنهم هم بكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ! ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إنا نعبدكم بمشيئة الله ولو شاء ما عبدناهم ! وكانت مجرد أسطورة ناشئة من انحراف العقيدة .

وفي هذه السورة يواجههم بمنطقهم هم ؛ ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق : « وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ متكذب شهادتهم ويسألون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ! ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون . أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ! » . . . ولما قيل لهم : إنكم تعبدون أصناما وأشجارا وإنكم وما تعبدون من دون الله حسب جهنم ، وقيل لهم : إن كل معبود من دون الله هو وعابده في النار . حرفوا الكلام الواضح البين ، واتخذوا منه مادة للجدل . وقالوا : فما بال عيسى وقد عبده قومه ؟ أهو في النار ؟ ثم قالوا : إن الأصنام تماثيل الملائكة والملائكة بنات الله . فنحن في عبادتنا لهم خير من عبادة النصارى لعيسى وهو بشر له طبيعة الناس !

وفي هذه السورة يكشف عن التوأهم في هذا الجدل ؛ ويرى عيسى - عليه السلام - مما ارتكبه أتباعه من عبادة وهو منه برىء : « ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون .

وقالوا: أألقتنا خير أم هو؟ ما ضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد  
أنعمنا عليه وجنناه مثلا لبني إسرائيل ... » ..

وقد كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وأنهم بذلك أهدى من أهل الكتاب وأفضل  
عقيدة . وهم في هذه الجاهلية الوثنية يخبطون !

فبين لهم في هذه السورة حقيقة ملة إبراهيم ، وأنها ملة التوحيد الخالص ، وأن كلمة  
التوحيد باقية في عقبه ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد جاءهم بها ، ولكنهم استقبلوها  
واستقبلوه بغير ما كان ينبغي من ذرية إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما  
تعبدون ، إلا الذي فطرنى فإنه سيدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . بل تمت  
هؤلاء وآبائهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به  
كافرون ... » ..

ولم يدركوا حكمة اختيار الله - سبحانه - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ووقفت في  
:جوههم القيم الأرضية الزائفة الزهيدة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال .

وفي هذه السورة يحكى تصوراتهم وأقوالهم في هذا الصدد؛ ويرد عليها بيان القيم الحقيقية،  
يزهادة القيم التي يعتبرونها هم ويرفمونها : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من  
تفريتين عظيم : أم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفنا  
بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا  
أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان ليوثهم مقفا من فضة ومعارض عليها  
يظنون ، وليوئهم أباوبا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا . وإن كل ذلك لما منع الحياة الدنيا ،  
والآخرة عند ربك للمتقين » ..

ثم جاء بحلقة من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ، يبدو فيها اعتراز فرعون بعث  
تلك القيم الزائفة، وهوانها على الله ، وهوان فرعون الذي اعترز بها ، ونهايته التي تنتظر المعترزين  
بعث ما اعترز به: « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون ومكه ، فقال : إني رسول رب العالمين .  
فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون . وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم  
بالمذاب لعلهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إنا لمهتدون . فلما  
كفنا عنهم المذاب إذا هم ينكتون . ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم أليس لي ملك مصر ،

## سورة الزخرف

وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ؛ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين ؛ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » . . .

\*\*\*

حول تلك الأساطير الوثنية والانحرافات الاعتقادية ، وحول تلك القيم الصحيحة والزائفة ، تدور السورة ، وتعالجها على النحو الذي تقدم . في أشواط ثلاثة تقدم أولها - قبل هذا - وأشرنا إلى بعض مادة الأشواط الأخرى في بعض المقطعات من آيات السورة . فلنأخذ في التفصيل :

« حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعل حكيم . أفنضرب عنكم الله ذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ وكم أرسلنا من نبي في الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . . .

تبدأ السورة بالحرفين : « حا . ميم » ثم يعطف عليهما قوله : « والكتاب المبين » . . .

ويقسم الله - سبحانه - بحاميم كما يقسم بالكتاب المبين . وحاميم من جنس الكتاب المبين ، أو الكتاب المبين من جنس حا ميم . فهذا الكتاب المبين في صورته اللفظية من جنس هذين الحرفين . وهذان الحرفان - كبقية الأحرف في لسان البشر - آية من آيات الخالق ، الذي صنع البشر هذا الصنع ، وجعل لهم هذه الأصوات . فهناك أكثر من معنى وأكثر من دلالة في ذكر هذه الأحرف عند الحديث عن القرآن .

يقسم الله - سبحانه - بحاميم والكتاب المبين ، على الغاية من جعل هذا القرآن في صورته هذه التي جاء بها للعرب :

« إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . . .

فالغاية هي أن يعقلوه حين يجدونه بلغتهم وبلسانهم الذي يعرفون . والقرآن وحى الله - سبحانه وتعالى - جعله في صورته هذه اللفظية عربيا ، حين اختار العرب لجل هذه الرسالة ، للحكمة التي أشرنا إلى طرف منها في سورة الشورى ؛ ولما يعلمه من صلاحية هذه الأمة وهذا اللسان لجل هذه الرسالة ونقلها . والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم يبين منزلة هذا القرآن عنده وقيمته في تقديره الأزلي الباقي :



« وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » . . .

ولا ندخل في البحث عن المدلول الحرفي لأم الكتاب ما هي : أهي اللوح المحفوظ ، أم هي علم الله الأزلى . فهذا كهذا ليس له مدلول حرفي محدد في إدراكنا . ولكننا ندرك منه مفهوما يساعد على تصورنا لحقيقة كلية . وحين نقرأ هذه الآية : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » . . . فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن في علم الله وتقديره . وهذا حسنا . فهذا القرآن « على » . . . « حكيم » . . . وهما صفتان تخلمان عليه ظل الحياة العاقلة . وإنه كذلك ! وكأنما فيه روح . روح ذات سمات وخصائص ، تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها . وهو في علوه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه . وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان : على . حكيم .

وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي وهبها الله إياهم ، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم ؛ ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها ؛ ومدى استحقاقهم هم للإهمال والإعراض ؛ ومن ثم يعرض بهم وإسرافهم ، ويهدم بالترك والإهمال جزاء هذا الإسراف :

« أفنضرب عنكم الله كرا صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟ » . . .

ولقد كان عجيبا - وما يزال - أن يعنى الله سبحانه - في عظمته وفي علوه وفي غناه - بهذا الطريق من البشر ، فيزل لهم كتابا بلسانهم ، يحدثهم بما في نفوسهم ، ويكشف لهم عن دخائل حياتهم ، ويبين لهم طريق الهدى ، ويقص عليهم قصص الأولين ، ويذكرهم بسنة الله في الغابرين . . . ثم هم بعد ذلك يهملون ويعرضون !

وإنه تهديد مخيف أن يلوح لهم بعد ذلك بالإهمال من حاسبه ورعايته ، جزاء إسرافهم القبيح ! وإلى جانب هذا التهديد يذكرهم بسنة الله في المكذبين ، بعد إرسال النبيين :

« وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ، ومضى مثل الأولين » . . .

فماذا ينتظرون هم وقد أهلك الله من هم أشد منهم بطشا ، حينما وقفوا يستهزئون بالرسول كما يستهزئون ؟

\*\*\*

## سورة الزخرف

والمجيب كان- في أمر القوم أنهم كانوا يعترفون بوجود الله ، وخلقها للسموات والأرض .  
ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائج الطبيعية من توحيد الله ، وإخلاص التوجه إليه . فكانوا  
يجعلون له شركاء ، يخصوصونهم ببعض ما خلق من الأنعام ؛ كما كانوا يزعمون أن الملائكة بناته ،  
ويعبدونهم من دونه في صورة أصنام !

والقرآن يعرض اعترافهم ، ويرتب عليه نتائج ، ويوجههم إلى منطق الفطرة الذي بجانبونه ،  
وإلى السلوك الواجب تجاه نعمته عليهم فيما خلق لهم من الفلك والأنعام . ثم يناقشهم بمنطقهم في  
دعواهم عن الملائكة :

« ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذي  
جعل لكم الأرض مهدياً ، وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماء بقدره ،  
فأنشأنا به بلدة ميتة ، كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك  
والأنعام ما تركبون . لتستروا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا :  
سبحان الذي سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ؛ وإنا إلى ربنا لمنقلبون » . .

لقد كانت للعرب عقيدة - نظن أنها بقايا من الحنيفية الأولى ملة إبراهيم عليه السلام ،  
ولكنها بهتت وانحرفت ودخلت فيها الأساطير - وقد بقي منها ما لا تملك الفطرة إنكاره من  
وجود خالق لهذا الكون ، وأنه هو الله ، فما يمكن - في منطق الفطرة وبداهتها - أن يكون  
هذا الكون قد نشأ هكذا من غير خالق ؛ وما يمكن أن يخلق هذا الكون إلا الله . ولكنهم  
كانوا يقفون بهذه الحقيقة التي تنطق بها بداهة الفطرة عند شكلها الظاهر ، ولا يعترفون بما  
وراءها من مقتضيات طبيعة لها :

« ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز العليم ... » . .  
وواضح أن هاتين الصفتين : « العزيز العليم » ليستا من قولهم . فهم كانوا يعترفون بأن  
الذي خلقهن هو « الله » . . ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التي جاء بها الإسلام . هذه  
الصفات الإيجابية التي تجعل لذات الله في نفوسهم أثراً فعالاً في حياتهم وحياة هذا الكون . كانوا  
يعرفون الله خالقاً لهذا الكون ، وخازناً لهم كذلك . ولكنهم كانوا يتخذون من دونه شركاء .  
لأنهم لم يعرفوه بصفاته التي تنفي فكرة الشرك ، وتجعلها تبدو متهافة سخيفة .

والقرآن هنا يلمهم أن الله ، الذي يعترفون بأنه خالق السموات والأرض ، هو « العزيز

«العليم» .. فهو القوى القادر، وهو العليم العارف. فيبدأ بهم من اعترافهم، ونخطو بهم الخطوات التالية لهذا الاعتراف .

ثم يمضي بهم خطوة أخرى في تعريف الله سبحانه بصفاته ؛ وفي بيان فضله عليهم بعد الخلق والإنشاء :

« الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وجعل لكم فيها سبلاً ، لعلكم تهتدون » . .

وحقيقة جعل هذه الأرض مهدياً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير ، وأمامهم ممهدة للزرع ، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء . ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق ، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب - لوصحت نظريتنا في هذا وتقديراتنا - والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة ما لم ندرك نحن ؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق ، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم ، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان .

ونحن اليوم ندرك من حقيقة جعل الأرض مهدياً لهذا الجنس مجدّ فيها سبلاً للحياة أن هذا الكوكب مر في أطوار بعد أطوار ، حتى صار مهدياً لبي الإنسان . وفي خلال هذه الأطوار تغير سطحه من صخر يابس صلب إلى تربة صالحة للزرع ؛ وتكون على سطحه الماء من اتحاد الأيدروجين والأكسجين ؛ واتأد في دورانه حول نفسه فصار يومه بحيث يسمح باعتدال حرارته وصلاحيته للحياة ؛ وصارت سرعته بحيث يسمح باستقرار الأشياء والأحياء على سطحه، وعدم تآثرها وتطايرها في الفضاء !

ونعرف من هذه الحقيقة كذلك أن الله أودع هذا الكوكب من الخصائص خاصة الجاذبية، فاحتفظ عن طريقها بطبقة من الهواء تسمح بالحياة ؛ ولو أفلت الهواء المحيط بهذا الكوكب من جاذبيته ما أمكن أن تقوم الحياة على سطحه ، كما لم تقم على سطح الكواكب الأخرى التي تضاءلت جاذبيتها ، فأفلت هواؤها كالقمر مثلاً . وهذه الجاذبية ذاتها قد جعلها الخالق متعادلة مع عوامل الدفع الناشء من حركة الأرض ؛ فأمكن أن تحفظ الأشياء والأحياء من التطاير والتأثر؛ وفي الوقت ذاته تسمح بحركة الإنسان والأحياء على سطح الأرض ؛ ولو زادت الجاذبية

## سورة الزخرف

عن القدر المناسب للصقت الأشياء والأحياء بالأرض وتعذرت حركتها أو تعسرت من ناحية ،  
ولزاد ضغط الهواء عليها من ناحية أخرى فألصقها بالأرض إصاقا ، أو سحقها كما نسحق نحن  
الذباب والبعوض أحيانا بضربة تركز الضغط عليها دون أن تمسها أيدينا ! ولو خف هذا الضغط  
عما هو عليه لانفجر الصدر والشرايين انفجارا !

ونعرف كذلك من حقيقة جعل الأرض مهذا وتذليل السبل فيها للحياة ، أن الخالق العزيز  
العليم قدر فيها موافقات شتى تسمح مجتمعة بوجود هذا الإنسان وتيسير الحياة له ؛ ولو اختلفت  
إحدى هذه الموافقات لتعذرت هذه الحياة أو تعسرت . فمنها هذه الموافقات التي ذكرنا ، ومنها  
أنه جعل كتلة الماء الضخمة التي تكونت على سطح الأرض من المحيطات والبحار كافية لامتناس  
الغازات السامة التي تنشأ من التفاعلات الكثيرة التي تتم على سطحها ، والاحتفاظ بجوها دائما  
في حالة تسمح للأحياء بالحياة . ومنها أنه جعل من النبات أداة للموازنة بين الأكسجين الذي  
يستنتقه الأحياء ليعيشوا به ، والأكسجين الذي يزفره النبات في أثناء عمليات التمثيل التي يقوم  
بها ؛ ولولا هذه الموازنة لاختنق الأحياء بعد فترة من الزمان !

وهكذا . وهكذا . من المدلولات الكثيرة لحقيقة : « جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم  
فيها سبلا » تكشف لنا في كل يوم ؛ وتضاف إلى المدلولات التي كان يدركها المخاطبون بهذا  
القرآن أول مرة . وكلها تشهد بالقدرة كما تشهد بالعلم لخالق السماوات والأرض العزيز العليم .  
وكلها تشمر القلب البشري باليد القادرة المدبرة ، في حين امتد بصره ، وتلفت خاطره ؛ وأنه  
غير مخلوق سدى ، وغير متروك لقي ؛ وأن هذه اليد تمسك به ، وتنقل خطاه ، وتتولى أمره  
في كل خطوة من خطواته في الحياة ، وقبل الحياة ، وبعد الحياة !

« لعلكم تهتدون » .. فإن تدبر هذا الكون ، وما فيه من نواميس متناسقة كفيل بهداية  
القلب إلى خالق هذا الكون ، ومودعه ذلك التنظيم الدقيق العجيب . .  
ثم يخطو بهم خطوة أخرى في طريق نشأة الحياة والأحياء ، بعد تمهيد الأرض للإنسان  
وتذليل السبل فيها للحياة :

« والذي نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا ، كذلك تخرجون » ..  
والماء الذي ينزل من السماء يرفه كل إنسان ويراها كل إنسان ؛ ولكن أكثر الناس يمرون  
على هذه الحادثة العجيب دون يقظة ودون اهتزاز ، لطول الألفة والتكرار . فأما محمد رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - فكان يتلقى قطراته في حب وفي ترحيب وفي حفاوة وفي استبشار؛ لأنها قادمة إليه من عند الله . ذلك أن قلبه الحى كان يدرك صنع الله الحى في هذه القطرات ، ويرى يده الصانع ! وهكذا ينبغي أن يتلقاها القلب الموصول بالله ونواميسه في هذا الوجود .  
 فهي وليدة هذه النواميس التى تعمل في هذا الكون وعين الله عليها ويد الله فيها فى كل مرة وفى كل قطرة . ولا يبرد من حرارة هذه الحقيقة ، ولا ينقص من وقعها أن هذا الماء أصله البخار المتصاعد من الأرض، المتكاثف فى أجواز الفضاء . فمن أنشأ هذه الأرض ؟ ومن جعل فيها الماء؟ ومن سلط عليها الحرارة ؟ ومن جعل من طبيعة الماء أن يتبخر بالحرارة ؟ ومن أودع البخار خاصية الارتفاع ؟ وخاصية التكثف فى أجواز الفضاء ؟ ومن أودع الكون خصائصه الأخرى التى تجعل ذلك البخار المتكثف مشحوناً بالكهرباء التى تتلاقى وتفرغ فيسقط الماء؟ وما الكهرباء؟ وما هذا وماذا من الخصائص والأسرار التى تنتهى كلها إلى نزول الماء ؟ إننا نلقى من العلم على حسنا أتمالاً تحجب عنا إيقاع هذا الكون العجيب ، بدلاً من أن نتخذ من العلم معرفة ترهف المشاعر وترقق القلوب !

« والذى نزل من السماء ماء بقدر .. »

فهو مقدر موزون لا يزيد فيفرق ؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة : ونحن نرى هذه المواقفة العجيبة ، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله .  
 « فأشرنا به بلدة ميتاً .. »

والإنشاء الإحياء . والحياة تتبع الماء . ومن الماء كل شئ حى .

« وكذلك تخرجون .. »

فالذى أنشأ الحياة أول مرة كذلك يعيدها ؛ والذى أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة ، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة . فالإعادة من البدء ؛ وليس فيها عزيز على الله . ثم هذه الأنعام التى يحملون منها جزءاً لله وجزءاً لغير الله ، وما لهذا خلقها الله ؛ إنما خلقها لتكون من نعم الله على الناس ، يركبونها كما يركبون الفلك ، ويشكرون الله على تسخيرها ، ويقابلون نعمته بما تستحقها :

« والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استوتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون .. »

## لمسورة الزخرف

والزوجية هي قاعدة الحياة كما تشير إليها هذه الآية . فكل الأحياء أزواج ، وحتى الخلية الواحدة الأولى تحمل خصائص الذكر والتأنيث معها . بل ربما كانت الزوجية هي قاعدة الكون كله لا قاعدة الحياة وحدها ، إذا اعتبرنا أن قاعدة الكون هي الذرة المولفة من الكبريتون سالب وبروتون موجب ، كما تشير البحوث الطبيعية حتى الآن .

وعلى أية حال فالزوجية في الحياة ظاهرة ؛ والله هو الذي خلق الأزواج كلها من الإنسان وغير الإنسان :

« وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » . . .

يذكر الناس بهذه الإشارة بنعمة الله عليهم في اصطفاؤهم بخلافة هذه الأرض ، وبما سخر لهم فيها من قوى وطاقات . ثم يوجههم إلى الأدب الواجب في شكر هذه النعمة وشكر هذا الاصطفاء ؛ وتذكر النعم كلما عرضت النعمة، لتبقى القلوب موصولة بالله عند كل حركة في الحياة:

« لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . . . فما نحن بقادرين على مقابلة نعمته بنعمة مثلها ، وما نملك إلا الشكر نقابل به هذا الإنعام .

ثم ليتذكروا أنهم عائدون بعد الخلافة في الأرض إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا في هذه الخلافة التي زودهم فيها بأنعمه . وسخر لهم فيها ما سخر من القوى والطاقات :

« وإنا إلى ربنا لمقلبون » . . .

هذا هو الأدب الواجب في حق النعم ، يوجهنا الله إليه، لندكره كلما استمتنا بنعمة من نعمه التي نعمرنا ، والتي تنقلب بين أعطافها . . . ثم ننسأه . . . !

والأدب الإسلامي في هذا وثيق الصلة بتربية القلب وإحياء الضمير . فليس هو مجرد طقوس تراول عند الاستواء على ظهور الفلك والأنعام ، ولا مجرد عبارات يتلوها اللسان إنما هو استحياء للمشاعر لتحس بحقيقة الله ، وحقيقة الصلة بينه وبين عباده ؛ وتشعر يده في كل ما يحيط بالناس ، وكل ما يستمتعون به مما سخره الله لهم ، وهو محض الفضل والإنعام ، بلا مقابل منهم ، ففهم بقادرين على شيء يقابلون به فضل الله . ثم لتبقى قلوبهم على وجل من لقائه في النهاية لتقديم الحساب . . . وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب البشري في حالة يقظة شاعرة حساسة لا تغفل عن مراقبة الله . ولا تجمد ولا تسبد بالركود والغفلة والنسيان .

\*\*\*

بعد ذلك يبالغ أسطورة الملائكة واتخاذهم آلهة بزعم أنهم بنات الله ، وهم عباد الله :  
 « وجعلوا له من عباده جزءا . إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم  
 بالبنين ؟ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم . أو من ينشأ في  
 الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ؟  
 مستكبرين . ويألمون . وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا  
 بخرصون . أم آتيناكم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا  
 على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا  
 آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أولو جحكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا :  
 إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » ..

إن هذا القرآن يحاصر هذه الأسطورة ويواجهها في نفوسهم من كل جانب ، ولا يبق ثغرة  
 مفتوحة حتى يأخذها عليهم، ويواجههم في هذا كله بمنطقهم ومسلاتهم وواقع حياتهم، كما يواجههم  
 بعصير الدين وقفوا مثل وقتهم ، وقالوا مثل قولتهم من الغابرين .

ويبدأ بتصوير سخف هذه الأسطورة ونهاقتها ، ومقدار ما في القول بها من كفر صريح :  
 « وجعلوا له من عباده جزءا ، إن الإنسان لكفور مبين » ..

فالملائكة عباد الله ، ونسبة بنوتهم له منهاها عزلم من صفة العبودية ، وتخصيصهم بقراءة  
 خاصة بالله ؛ وهم عباد كسائر العباد ، لا مقتضى لتخصيصهم بصفة غير صفة العبودية في علاقتهم  
 بربهم وخالقهم . وكل خلق الله عباد له خالص العبودية . وادعاء الإنسان هذا الادعاء يدمغه  
 بالكفر الذي لا شبهة فيه : « إن الإنسان لكفور مبين » .

ثم يحاجهم بمنطقهم وعرفهم ، ويسخر من سخف دعواهم أن الملائكة إناث ثم نسبتهم  
 إلى الله :

« . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟ » ..

فإذا كان الله - سبحانه - متخذاً أبناء ، فهالé يتخذ البنات ويصفهم هم بالبنين ؟ وهل يليق  
 أن يزعموا هذا الزعم بينما هم يستنكفون من ولادة البنات لم ويستاءون :

« وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمان مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » ..

أفما كان من اللياقة والأدب ألا ينسبوا إلى الله من يستاءون هم إذا بشروا به ، حتى ليسود

وجه أحدهم من سوء الذي يبلغ حدا يجعل عن التصريح به ، فيكظمه ويكتمه وهو يكاد يتميز من سوء ؟ ! أفما كان من اللياقة والأدب ألا يخلصوا الله عن ينشأ في الحلية والدعة والنعومة ، فلا يقدر على جدال ولا قتال ؟ بينما هم - في بيتهم - يحتفلون بالفرسان والمقاويل من الرجال ؟ ! إنه يأخذهم في هذا بمنطقهم، ويخجلهم من انتقاء ما يكرهون ونسبته إلى الله . فهلا اختاروا ما يتحسنونه وما يسرون له فتسبوه إلى ربهم ، إن كانوا لا بد فاعلين ؟ ! ثم يحاصرهم هم وأسطورتهم من ناحية أخرى . فهم يدعون أن الملائكة إناث . فعلام يقيمون هذا الادعاء ؟

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا . أشهدوا خلقهم ؟ متكذب شهادتهم ويسألون » . . .

أشهدوا خلقهم ؟ فعلموا أنهم إناث؟ فالرؤية حجة ودليل يليق بصاحب الدعوى أن يرتكن إليه . وما يملكون أن يزعموا أنهم شهدوا خلقهم . ولكنهم يشهدون بهذا ويدعون ، فليحتملوا تبعه هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه : « متكذب شهادتهم ويسألون » . . .

ثم يتابع الفرية وما يصوغونه حولها من جدل واعتذار :

« وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم . إن هم إلا بخرصون » . . . إنهم يحاولون التهرب حين تحاصرهم الحجج ، وتهاقت بين أيديهم الأسطورة . فيحيلون على مشيئة الله ، يزعمون أن الله راض عن عبادتهم للملائكة ؟ ولو لم يكن راضيا ما مكنتهم من عبادتهم ، ولنمهم من ذلك منعا !

وهذا القول احتيال على الحقيقة . فإن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع وفق مشيئة الله . هذا حق . ولكن من مشيئة الله أن جعل للإنسان قدرة على اختيار الهدى أو اختيار الضلال . وكلفه اختيار الهدى ورضيه له ، ولم يرض له الكفر والضلال . وإن كانت مشيئته أن يخلق قابلا للهدى أو الضلال .

وهم حين يحيلون على مشيئة الله إنما يخبطون خطا ؛ فهم لا يوقنون أن الله أراد لهم أن يعبدوا الملائكة - ومن أين يأتيهم اليقين ؟ - « ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون » . . . ويتبعون الأوهام والظنون .

« أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ؟ » .



يستندون إليه في دعوائهم ، ويستندون إليه في عبادتهم ، ويستمسكون بما فيه من حقائق ، ويرتكنون إلى ما عندهم فيه من دليل ! !

وهكذا يأخذ عليهم الطريق من هذه الناحية ؛ ويوحى إليهم كذلك أن العقائد لا يخبط فيها خبط عشواء ، ولا يرتكن فيها إلى ظن أو وهم . إنما تستقي من كتاب من عند الله يستمسك به من يؤتاه .

وعند هذا الحد يكشف عن سندهم الوحيد في اعتقاد هذه الأسطورة المتهافة التي لا تقوم على رؤية ، ومزاولة هذه العبادة الباطلة التي لا تستند إلى كتاب :

« بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » . .

وهي قولة تدعو إلى السخرية ، فوق أنها متهافة لا تستند إلى قوة . إنها مجرد المحاكاة ومحض التقليد ، بلا تدبر ولا تفكير ولا حجة ولا دليل . وهي صورة مزرية تشبه صورة القطيع يعضى حيث هو منساق ؛ ولا يسأل : إلى أين نعضى ؟ ولا يعرف معالم الطريق !

والإسلام رسالة التحرر الفكري والانطلاق الشعوري لا تفر هذا التقليد المزري ، ولا تفر محاكاة الآباء والأجداد اعترازا بالإثم والهوى . فلا بد من سند ، ولا بد من حجة ، ولا بد من تدبر وتفكير ، ثم اختيار مبنى على الإدراك واليقين .

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم مصائر الذين قالوا قولتهم تلك واتبعوا طريقهم في المحاكاة والتقليد، وفي الإعراض والتكذيب، بعد الإصرار على ما هم فيه على الرغم من الإغذار والبيان . « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال : أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم : فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » . .

وهكذا يتجلى أن طبيعة المرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم كذلك مكرورة : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » أو « مقتدون » . . ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة ، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد . ولو كان أهدي . ولو كان أجدى . ولو كان يصدع بالدليل . وتم لا يكون إلا التدمير والتكيل لهذه الجبلية التي لا تريد أن تفتح عينها لترى ، أو تفتح قلبها لتحس ، أو تفتح عقلها لتستبين . .

وهذا هو مطير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلمهم يتبينون عاقبة الطريق الذي يسلكون !

سورة الزخرف

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ : إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ \* وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

« بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ \* وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا : هَذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ \* وَقَالُوا : لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَتَيْنِ عَظِيمٍ ؟ \* أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ \* وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ \* وَلِيُؤْتِيَهُمْ آبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكِنُونَ \* وَرُخْرُفًا ، وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

« وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نَقِصٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ \* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ \* حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ : يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ، فَبِئْسَ الْقَرِينُ \* وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

« أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الْكُفْرَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* فَأِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ \* أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ \* فَاسْتَمِيعْكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ \* وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ، فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ \* وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ

أُخْتِيَا، وَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* وَقَالُوا : يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَمِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ \* فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ \* وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ : قَالَ : يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ \* أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ؟ \* فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ \* فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ ، إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ \* فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ \* فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

لقد كانت قريش تقول : إنها من ذرية إبراهيم - وهذا حق - وإنها على ملة إبراهيم - وهذا ما ليس بحق - فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ؛ ومن أجلها هجر أباه وقومه بعدما تعرض للقتل والتحريق ؛ وعليها قامت شريعته ، وبها أوصى ذريته . فلم يكن للشرك فيها ظل ولا خيط رفيع !

وفي هذا الشوط من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعواهم التي يدعون . . . ثم يحكي اعتراضهم على رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - وقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . . . ويناقش قولتهم هذه ، وما تتطوى عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التي تحايل لهم وتصددهم عن الحق والهدى . . . وعقب تقرير الحقيقة في هذه القضية يظلمهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله بعد أن يظلمهم على علة هذا العمى وهو من وسوسة الشيطان . . . ويلتفت في نهاية هذا الدرس إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسليه ويؤسبه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادي العمى أو مسمع الصم ؟ وسيلقون جزاءهم سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم . ويوجهه إلى الاستمسك بما أوحى إليه فإنه الحق ، الذي جاء به الرسل أجمعون . فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجمعنا من دون الرحمان آلهة يعبدون ؟ » . . .

## سورة الزخرف

ثم يعرض من قصة موسى - عليه السلام - حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم .  
وكأنما هي نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التي يعترضونها ، وتحكى اعزاز فرعون وملكه  
بذات القيم التي يعتز بها المشركون ..

\*\*\*

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين .  
وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » ..  
إن دعوة التوحيد التي يتكرونها لها هي دعوة أبيهم إبراهيم . الدعوة التي واجه بها أباه  
وقومه مخالفاً بها عقيدتهم الباطلة ، غير منساق وراء عبادتهم الموروثة ، ولا مستمسك بها لمجرد  
أنه وجد أباه وقومه عليها ؛ بل لم يجاملهم في إعلان تبرئه المطلق منها في لفظ واضح صريح ،  
يحكيه القرآن الكريم بقوله :

« إني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرني فإنه سيهدين » ..

ويبدو من حديث إبراهيم - عليه السلام - وتبرئه مما يعبدون إلا الذي فطره أنهم لم يكونوا  
يكفرون ويبحدون وجود الله أصلاً ؛ إنما كانوا يشركون به ويعبدون معه سواء ، فترا من كل  
ما يعبدون ، واستثنى الله ؛ ووصفه بصفته التي تستحق العبادة ابتداءً ، وهو أنه فطره وأنشأه ،  
فهو الحقيق بالعبادة بحكم أنه الموجد . وقرر يقينه بهداية ربه له ، بحكم أنه هو الذي فطره ؛  
فقد فطره لهديه ؛ وهو أعلم كيف يهديه .

قال إبراهيم هذه الكلمة التي تقوم بها الحياة . كلمة التوحيد التي يشهد بها الوجود . قالها  
« وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون » ..

ولقد كان لإبراهيم - عليه السلام - أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض ، وإبلاغها  
إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه . ولقد قام بها من بينه رسل ، كان منهم ثلاثة  
من أولى العزم : موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - واليوم بعد  
عشرات القرون يقوم في الأرض أكثر من ألف مليون ، من أتباع الديانات الكبرى يدينون  
بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم ، الذي جعل هذه الكلمة باقية في عقبه ، يضل منهم عنها من  
يضل ، ولكنها هي باقية لاتضيع ، ثابتة لاتزعزع ، واضحة لايتلبس بها الباطل « لعلهم  
يرجعون » .. يرجعون إلى الذي فطرهم فيعرفوه ويعبدوه . ويرجعون إلى الحق الواحد  
فيدركوه ويلزموه .

ولقد عرفت البشرية كلمة التوحيد قبل إبراهيم . ولكن هذه الكلمة لم تستقر في الأرض إلا من بعد إبراهيم . عرفتها على لسان نوح وهود وصالح وربيما إدريس ، وغيره من الرسل الذين لم يتصل لهم عقب يقوم على هذه الكلمة ، ويعيش بها ، ولها . فلما عرفتها على لسان إبراهيم ظلت متصلة في أعقابه ؛ وقام عليها من بعده رسل متصلون لا ينقطعون ، حتى كان ابنه الأخير من نسل إسماعيل ، وأشبهه أبناؤه به (١) : محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الرسل ، وقائل كلمة التوحيد في صورتها الأخيرة الكاملة الشاملة، التي تجعل الحياة كلها تدور حول هذه الكلمة، وتجعل لها أثرا في كل نشاط للإنسان وكل تصور .

فهذه هي قصة التوحيد منذ أبيهم إبراهيم الذي ينتسبون إليه ؛ وهذه هي كلمة التوحيد التي جعلها إبراهيم باقية في عقبه . هذه هي تأتي إلى هذا الجيل على لسان واحد من عقب إبراهيم . فكيف يتقبلها من ينتسبون إلى إبراهيم ، وملة إبراهيم ؟

لقد بعدتهم العهد ؛ وتمعنهم الله جيلا بعد جيل، حتى طال عليهم العمر ، ونسوا ملة إبراهيم ، وأصبحت كلمة التوحيد فيهم غريبة منكرة ، واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال وقاسوا الرسالة السماوية بالقاييس الأرضية ، فاختلف في أيديهم كل ميزان :

« بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنا به كافرون . وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! أم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون . ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم مقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون، وليبوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا ، وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا، والآخرة عند ربك للمتقين .. »

يُضْرِبُ السِّيَاقُ عَنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ ، وَيَلْتَفِتُ إِلَى الْقَوْمِ الْحَاضِرِينَ :

« بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » . . .

وكانه بهذا الإضراب يقول : لنضع حديث إبراهيم ، فالحلم به صلة ولا مناسبة ؛ ولننظر في

(١) عن جابر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « عرض على الأنبياء ، فإذا موسى عليه السلام رجل ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة ، فرأيت عيسى ابن مريم عليه السلام ، فإذا أقرب من رأيت به شبيهاً عروة ابن مسعود . ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا أقرب من رأيت به شبيهاً صاحبكم . . . »

## سورة الزخرف

شأن هؤلاء وهو لا يتصل بشأن إبراهيم . . . إن هؤلاء وآباءهم من قبلهم ، قد هيات لهم المتاع ومددت لهم في الأجل ، حتى جاءهم الحق في هذا القرآن ، وجاءهم رسول مبين ، يعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين :

« ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وإنا به كافرون » . . .

ولا يختلط الحق بالسحر . فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى ، كانوا هم أول من يعرف بطلانها . فما كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ؛ ولكنهم كانوا يمدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون : إنه سحر ، ويمتنون كفرهم به على سبيل التوكيد ، يقولون : « وإنا به كافرون » ليقوا في روع الجماهير أنهم واثقون بما يقولون ؛ فيتبعوهم عن طريق الإيحاء والانتقاد . شأن الملائم من كل قوم ، في التفرير بالجماهير ، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم ، ويهتدوا إلى كلمة التوحيد ، التي يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا الله العلي الكبير !

ثم يحكى القرآن تخليطهم في القيم والموازن ؛ وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ليحمل إليهم الحق والنور :

« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ا » . . .

يقصدون بالقريتين مكة والطائف . ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذؤابة قريش ، ثم من ذؤابة بنى هاشم . وهم في العلية من العرب . كما كان شخصه - صلى الله عليه وسلم - معروفاً بسمو الخلق في بيته قبل بعثته . ولكنه لم يكن زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، في بيته تميز بمثل هذه القيم القبلية . وهذا ما قصد إليه المعارضون بقولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . ولقد اختار لها من يعلم أنها لها أهل . ولعله - سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندا من خارج طبيعتها ، ولا قوة من خارج حقيقتها ؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى . . الخلق . . وهو من طبيعة هذه الدعوة . . وسمته البارزة . . التجرد . . وهو من حقيقة هذه الدعوة . . ولم يختره زعيم قبيلة ، ولا رئيس عشيرة ، ولا صاحب جاه ، ولا صاحب ثراء . كي لا تلبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء . ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء . ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة . ولكي لا يدخلها طامع ولا يتزهد عنها متعفف .

ولكن القوم الذي غلب عليهم المتاع ، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء ، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض .

« لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

فرد عليهم القرآن مستنكرا هذا الاعتراض على رحمة الله ، التي يختار لها من عباده من يشاء ؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء ؛ مينا لهم عن حقيقة القيم التي يعززون بها ، ووزنها الصحيح في ميزان الله :

« أم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

أهم يقسمون رحمة ربك ؟ يا عجبا ! وما لهم هم ورحمة ربك ؟ وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا ، ولا يحققون لأنفسهم رزقا حتى رزق هذه الأرض الزهيد نحن أعطيناهم إياه ؛ وقسمناه بينهم وفق حكمتنا وتقديرنا ل عمران هذه الأرض ونمو هذه الحياة .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » ..

ورزق الماش في الحياة الدنيا يتبع مواهب الأفراد ، وظروف الحياة ، وعلاقات المجتمع . وتختلف نسب التوزيع بين الأفراد والجماعات وفق تلك العوامل كلها . تختلف من بيئة لبيئة ، ومن عصر لعصر ، ومن مجتمع لمجتمع ، وفق نظمه وارتباطاته وظروفه العامة كلها . ولكن السمة الباقية فيه ، والتي لم تتخلف أبدا - حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة للإنتاج والتوزيع - أنه متفاوت بين الأفراد .

وتختلف أسباب التفاوت ماختلف بين أنواع المجتمعات واللوان النظم ولكن سمة التفاوت في مقادير الرزق لا تتخلف أبدا . ولم يقع يوما - حتى في المجتمعات المصطنعة المحكومة بمذاهب موجهة - أن تساوى جميع الأفراد في هذا الرزق أبدا : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ..

والحكمة في هذا التفاوت الملحوظ في جميع العصور ، وجميع البيئات ، وجميع المجتمعات .. هي :

« ليتخذ بعضكم بعضا سخريا » ..

ليسخر بعضكم بعضا .. ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتما .

## سورة الزخرف

وليس التسخير هو الاستعلاء . . استعلاء طبقة على طبقة ، أو استعلاء فرد على فرد . . كلا ! إن هذا معي قريب ساذج . لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد . كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية ؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يحى . . . إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض . ودولاب الحياة يدور بالجميع ، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف . المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق . والعكس كذلك صحيح . فهذا مسخر ليجمع المال ، فيأكل منه ويرتزق ذاك . وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء . والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذلك ، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة . . العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل . والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل . وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء . . وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات ، والتفاوت في الأعمال والأرزاق . . وأحسب أن كثيرين من دعاة المذاهب الموجهة يتخذون من هذه الآية موضع هجوم على الإسلام ونظمه الاجتماعية والاقتصادية . وأحسب أن بعض المسلمين يقفون بمجمعون أمام هذا النص ، كأنما يدفعون عن الإسلام تهمة تقرير الفوارق في الرزق بين الناس ، وتهمة تقرير أن الناس يتفاوتون في الرزق ليتخذ بعضهم بعضا سخريا !

وأحسب أنه قد آن لأهل الإسلام أن يقفوا بإسلامهم مواجهة وصراحة موقف الاستعلاء المطلق ، لا موقف الدفاع أمام اتهام تافه ! إن الإسلام يقرر الحقائق الخالدة الركوزة في فطرة هذا الوجود ؛ الثابتة ثبات السماوات والأرض ونواميسها التي لا تتخل ولا تززع .

وطبيعة هذه الحياة البشرية قائمة على أساس التفاوت في مواهب الأفراد والتفاوت فيما يمكن أن يؤديه كل فرد من عمل ؛ والتفاوت في مدى اتقان هذا العمل . وهذا التفاوت ضروري لتنوع الأدوار المطلوبة للخلافة في هذا الأرض . ولو كان جميع الناس نسخا مكرورة ما أمكن أن تقوم الحياة في هذه الأرض بهذه الصورة . ولبقيت أعمال كثيرة جدا لا تجد لها مقابلا من الكفايات ، ولا تجد من يقوم بها - والذي خلق الحياة وأراد لها البقاء والنمو ، خلق الكفايات والاستعدادات متفاوتة تفاوت الأدوار المطلوب أداؤها . وعن هذا التفاوت في الأدوار يتفاوت الرزق . . هذه هي القاعدة . . أما نسبة التفاوت في الرزق فقد تختلف من مجتمع إلى مجتمع ، ومن نظام إلى نظام . ولكنها لا تنفي القاعدة الفطرية المتناسقة مع طبيعة الحياة الضرورية



لنمو الحياة . ومن ثم لم يستطع أصحاب المذاهب المصطنعة المتكلفة أن يساووا بين أجر العامل وأجر المهندس ، ولا بين أجر الجندي وأجر القائد . على شدة ما حاولوا أن يحققوا مذهبهم . وهزموا أمام الناموس الإلهي الذي تقرره هذه الآية من كلام الله . وهي تكشف عن سنة ثابتة من سنن الحياة .

ذلك شأن الرزق والمعاش في هذه الحياة الدنيا . ووراء ذلك رحمة الله :

« ورحمة ربك خير مما يجمعون » ..

والله يختار لها من يشاء ، ممن يعلم أنهم لها أهل . ولا علاقة بينها وبين عرض الحياة الدنيا ؛ ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا . فهذه القيم عند الله زهيدة زهيدة . ومن ثم يشترك فيها الأبرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون . بينما يختص برحمته المختارين .

وإن قيم هذه الأرض لمن الزهادة والرخص بحيث - لو شاء الله - لأغدقها إغداقا على الكافرين به . ذلك إلا أن تكون فتنة للناس ، تصدهم عن الإيمان بالله :

« ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجمنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . وليوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين » ..

ف هكذا - لولا أن يفتن الناس . والله أعلم بضعفهم وتأثير عرض الدنيا في قلوبهم - لجعل لمن يكفر بالرحمان - صاحب الرحمة الكبيرة المميقة - بيوتا سقفا من فضة ، وسلالها من ذهب . بيوتا ذات أبواب كثيرة . قصورا . فيها سرر للاتكاء ، وفيها زخرف للزينة . . رمزا لهوان هذه الفضة والذهب والزخرف والمتاع ؛ بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمان !

« وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » ..

متاع زائل ، لا يتجاوز حدود هذه الدنيا . ومتاع زهيد يليق بالحياة الدنيا .

« والآخرة عند ربك للمتقين » ..

وهؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم ؛ فهو يدخر لهم ما هو أكرم وأبقى ؛ ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى . ويميزهم على من يكفر بالرحمان ، ممن يبذل لهم من ذلك المتاع الرخيص ما يبذله للحيوان !

وإن عرض الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع ليفتن

## سورة الزخرف

الكثيرين . وأشد الفتنة حين يروونه في أيدي الفجار ، ويرون أيادي الأبرار منه خالية ؛ أو يرون هؤلاء في عسر أو مشقة أو ابتلاء ، وأولئك في قوة وثروة وسطوة واستعلاء . والله يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس . ولكنه يكشف لهم عن زهادة هذه القيم وهوانها عليه ؛ ويكشف لهم كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الأتقياء عنده . والقلب المؤمن يطمئن لاختيار الله للأبرار وللفجار .

وأولئك الذين كانوا يعترضون على اختيار الله لرجل لم يؤت شيئاً من عرض هذه الحياة الدنيا ؛ ويقيسون الرجال بما يملكون من رياسة ، أو بما يملكون من مال . يرون من هذه الآيات هوان هذه الأعراض وزهادتها عند الله . وأنها مبدولة لشر خلق الله وأبغضهم عند الله . فهي لا تدل على قربى منه ولا تنبيء عن رضى ، ولا تنبئ باختيار !

وهكذا يضع القرآن الأمور في نصابها ؛ ويكشف عن سنن الله في توزيع الأرزاق في الدنيا والآخرة ؛ ويقرر حقيقة القيم كما هي عند الله ثابتة . وذلك في صدد الرد على المعارضين على رسالة محمد ؛ واختياره . واطراح العظماء المتسلطين !

وهكذا يرسى القواعد الأساسية والحقائق الكلية التي لا تضطرب ولا تتغير ؛ ولا تؤثر فيها تطورات الحياة ، واختلاف النظم ، وتعدد المذاهب ، وتنوع البيئات . فهناك سنن للحياة ثابتة ، تتحرك الحياة في مجالها ؛ ولكنها لا تخرج عن إطارها . والدين تشغلهم الظواهر المتغيرة عن تدبير الحقائق الثابتة ، لا يفطنون لهذا القانون الإلهي ، الذي يجمع بين الثبات والتغير ، في صلب الحياة وفي أطوار الحياة ؛ ويحسبون أن التطور والتغير ، يتناول حقائق الأشياء كما يتناول أشكالها . ويزعمون أن التطور المستمر يمتنع معه أن تكون هناك قواعد ثابتة لأمر من الأمور ؛ وينكرون أن يكون هناك قانون ثابت غير قانون التطور المستمر . فهذا هو القانون الوحيد الذي يؤمنون بثباته ؛ فأما نحن - أصحاب العقيدة الإسلامية - ففرى في واقع الحياة مصداق ما يقرره الله من وجود الثبات والتغير متلازمين في كل زاوية من زوايا الكون ، وفي كل جانب من جوانب الحياة . وأقرب ما بين أيدينا من هذا التلازم ثبات التفاوت في الرزق بين الناس ، وتغير نسب التفاوت وأسبابه في النظم والمجتمعات .. وهذا التلازم مطرد في غير هذا المثال (١) .

\*\*\*

(١) فكرة الإسلام من الكون والحياة والإنسان .. بحث لم يتم للمؤلف ..

ولما بين زهادة أعراض الحياة الدنيا وهوانها على الله ؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله ، ولا يشير إلى فلاح ؛ وأن الآخرة عند ربك للمتقين . استطرده بين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض ، وهم عمى عن ذكر الله ، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين :

« ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال : يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » . .

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالبا ما يكون عند مواجهة الضوء الساطع الذي لا تملك العين أن تحدق فيه ؛ أو عند دخول الظلام و كلال العين الضعيفة عن التبين خلاله . وقد يكون ذلك لمرض خاص . والمقصود هنا هو الحماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير .

« ومن يعيش عن ذكر الرحمن تقيض له شيطاناً فهو له قرين » . .

وقد قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان ذلك . واقتضت أنه حين يفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء يوسوس له ، ويزين له سوء . وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الفكرية الثابتة ، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ، كما قضاء الله في علمه .

ووظيفة قرناء سوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ، بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون : .

« وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » . .

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين . أن يصد عن السبيل الواحدة القاصدة ؛ ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ؛ إنما يوجهه أنه سائر في الطريق القاصد القويم حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتميز بالفعل المضارع : « ليصدونهم » . . « ويحسبون » . . تصور العملية قائمة مستمرة معروضة للأنتظار ؛ يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

« حتى إذا جاء ما قال : ياليت بيني وبينك بعد المشرقين . فبئس القرين ! »

وهكذا تنتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة . ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى ( الذين يعشون عن ذكر الرحمن ) إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار . هنا يفتقون كما يفتق الخمر ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ؛ وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذي زين له الضلال ، وأوهمه أنه الهدى ! وقاده في طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ! ينظر إليه في حق يقول : « ياليت بيني وبينك بعد المشرقين ! ياليت لم يكن بيننا لقاء . على هذا البعد الحقيق ! »

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله : « فبئس القرين ! »

وسمع كلمة التيسر الساحقة لهذا وذلك عند إسدال الستار على الجميع :

« ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ! »

فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فهون !

\*\*\*

عندئذ ينصرف عن هؤلاء ، في مشهدهم البائس الكئيب ؛ ويدعهم يتلاومون ويتشائمون . ويتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسليه عن هذا المصير البائس الذي انتهى إليه فريق من البشر ؛ ويعزيه عن إعراضهم عنه وكفرهم بما جاء به ؛ ويثبته على الحق الذي أوحى إليه ؛ وهو الحق الثابت المطرد من قديم ، في رسالة كل رسول :

« أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين ؟ فإمانذهين بك فإننا منهم

منتقمون . أو نرنيك الذي وعدناهم فإننا عليهم مقتدرون . فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك

على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك ، وسوف تسألون . وأسأل من أرسلنا من قبلك

من رسلنا : أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ » ..

وهذا المعنى يتكرر في القرآن تسلياً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبياناً لطبيعة الهدى

والضلال ، ورجعها إلى مشيئة الله وتقديره وحده ؛ وإخراجها من نطاق وظيفة الرسل -

عليهم الصلاة والسلام - ووضع حدود فاصلة بين مجال القدرة الإنسانية المحدودة في أعلى درجاتها

عند مرتقى النبوة ، ومجال القدرة الإلهية المطلقة ؛ وثبتت معنى التوحيد في صورة من أدق

صوره ، وفي موضع من أطف موضعها :

« أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين » ..

وهم ليسوا صما ولا عميا ، ولكنهم كالصم والعمى في الضلال ، وعدم الانتفاع بالدعاء إلى الهدى ، والإشارة إلى دلائله . ووظيفة الرسول أن يُسمع من يسمع ، وأن يهدي من يبصر . فإذا هم عطلوا جوارحهم ، وطمسوا منافذ قلوبهم وأرواحهم ، فما للرسول إلى هدايتهم من سبيل ؛ ولا عليه من ضلالهم ، فقد قام بواجبه الذي يطيق .

والله يتولى الأمر بعد أداء الرسول لواجبه المحدود :

« فإما نذهب بك فإننا منهم متقمون . أونرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون » ..

والأمر لا يخرج عن هذين الحالين . فإذا ذهب الله بنبيه فسيتولى هو الانتقام من مكذبيه . وإذا قدر له الحياة حتى يتحقق ما أنذرهم به ، فالله قادر على تحقيق النذير ، وهم ليسوا له بمعجزين . ومرد الأمر إلى مشيئة الله وقدرته في الحالين ، وهو صاحب الدعوة . وما الرسول إلا رسول .

« فاستمسك بالذي أوحى إليك . إنك على صراط مستقيم » ..

واثبت على ما أنت فيه ، وسر في طريقك لا تحفل ما كان منهم وما يكون . سر في طريقك مطمئن القلب . « إنك على صراط مستقيم » .. لا يلتوى بك ولا ينحرف ولا يحيد .

وهذه العقيدة متصلة بحقيقة الكون الكبرى ، متناسقة مع الناموس الكلى الذي يقوم عليه هذا الوجود . فهي مستقيمة معه لا تنفرج عنه ولا تنفصل . وهي مؤدية بصاحبها إلى خالق هذا الوجود ، على استقامة تؤمن معها الرحلة في ذلك الطريق !

والله - سبحانه - يثبت رسوله - صلى الله عليه وسلم - بتوكيد هذه الحقيقة . وفيها تثبيت كذلك للدعاة من بعده ، مها لاقوا من عنت الشاردين عن الطريق !

« وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » ..

ونص هذه الآية هنا يحتمل أحد مدلولين :

أن هذا القرآن تذكير لك ولقومك تسألون عنه يوم القيامة ، فلا حجة بعد التذكير .

أو أن هذا القرآن يرفع ذكرك وذكور قومك . وهذا ما حدث فعلا ..

فأما الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن مئآت الملايين من الشفاء تصلى وتسلم عليه ، وتذكره ذكر الحب المشتاق آناء الليل وأطراف النهار منذ قرابة ألف وأربع مئة عام . ومئآت الملايين من القلوب تخفق بذكره وجهه منذ ذلك التاريخ البعيد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

## سورة الزخرف

وأما قومه فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة. وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية. وهو الذي واجهوا به الدنيا ففرقتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها به. فلما أن تخلوا عنه أنكروا الأرض، واستصغروا الدنيا؛ وقدفت بهم في ذيل القافلة هناك، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين!

وإنها لتبعة ضخمة تسأل عنها الأمة التي اختارها الله لدينه، واختارها لقيادة القافلة البشرية الشاردة، إذا هي تخلت عن الأمانة: «وسوف تسألون» .. وهذا المدلول الأخير أوسع وأشمل. وأنا إليه أميل.

« واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: أ جعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون؟ » .. والتوحيد هو أساس دين الله الواحد منذ أقدم رسول. فعلام يرتكن هؤلاء الدين يعملون من دون الرحمان آلهة يعبدون؟

والقرآن يقرر هذه الحقيقة هنا في هذه الصورة الفريدة.. صورة الرسول - صلى الله عليه وسلم - يسأل الرسل قبله عن هذه القضية: « أ جعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون؟ » وحول هذا السؤال ظلال الجواب القاطع من كل رسول. وهي صورة طريفة حقا. وهو أسلوب موح شديد التأثير في القلوب.

وهناك أبعاد الزمان والمكان بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرسل قبله. وهناك أبعاد الموت والحياة وهي أكبر من أبعاد الزمان والمكان.. ولكن هذه الأبعاد كلها تتلاشى هنا أمام الحقيقة الثابتة المطردة. حقيقة وحدة الرسالة المرتكزة كلها على التوحيد. وهي كفيلة أن تبرز وتثبت حيث يتلاشى الزمان والمكان والموت والحياة وسائر الظواهر المتغيرة؛ ويتلاقى عليها الأحياء والأموات على مدار الزمان متفاهمين متعارفين.. وهذه هي ظلال التمييز القرآني اللطيف العجيب..

على أنه بالقياس إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وإخوانه من الرسل مع ربهم لا يبقى شيء بعيد وآخر قريب. فهناك دائما تلك اللحظة اللدنية التي تزال فيها الحواجز وترتفع فيها السدود، وتتجلى الحقيقة الكلية عارية من كل ستار. حقيقة النفس وحقيقة الوجود كله وأهل هذا الوجود. تتجلى وحدة متصلة، وقد سقط عنها حاجز الزمان وحاجز المكان وحاجز الشكل والسورة. وهنا يسأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويجاب، بلا حاجز ولا حجاب. كما وقع في ليلة الإسراء والمعراج.

وإنه ليحسن في مثل هذه المواطن ألا نعتد كثيرا بالمألوف في حياتنا. فهذا المألوف ليس هو القانون الكلى. ونحن لا ندرك من هذا الوجود إلا بعض ظواهره وبعض آثاره، حين نهتدى إلى طرف من قانونه. وهناك حجب من تكويننا ذاته ومن حواسنا وما نرتبه عليها من مألوفات. فأما اللحظة التي تجرد فيها النفس من هذه العوائق والحجب فيكون لقاء الحقيقة المجردة للإنسان بالحقيقة المجردة لأي شيء آخر أمرا أيسر من لمس الأجسام للأجسام!

\*\*\*

وفي سياق تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره؛ واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض هذه الحياة الدنيا. تجيء حلقة من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملكه، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعز به من يقولون: «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وتباهيه بماله من ملك ومن سلطان، وتساؤله في غر وخيلاء: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟».. وانتفاخه على موسى - عبد الله ورسوله - وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي: «أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟».. واقتراحه الذي يشبه ما يقترحون: «فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين»..

وكأنما هي نسخة تكرر، أو أسطوانة تعاد!

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة؛ على الرغم من الحوارق التي عرضها عليهم موسى - عليه السلام - وعلى الرغم مما أصابهم من ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعوا ربه فيكشف عنهم البلاء.

ثم كيف كانت العاقبة بعد ما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ: «فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين»..

وهام أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون!

ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسالة، ووحدة النهج، ووحدة الطريق. كما تتبدى طبيعة الكبرياء والطفأة في استقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتأفة الزهيد من عرض هذه الأرض؛ وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبرياء والطفأة على مدار القرون!

\*\*\*

## سورة الزخرف

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون ومكته ، فقال : إني رسول رب العالمين . فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » . . .

هنا يعرض حلقة اللقاء الأول بين موسى وفرعون ، في إشارة مقتضية تمهيدا لاستعراض النقطه الرئيسية المقصوده من القصة في هذا الموضع - وهي تشابه اعتراضات فرعون وقيمه مع اعتراضات مشركي العرب وقيمهم - ويلخص حقيقة رسالة موسى : « فقال : إني رسول رب العالمين » . . . وهي ذات الحقيقة التي جاء بها كل رسول : أنه « رسول » وأن الذي أرسله هو « رب العالمين » .

ويشير كذلك إشارة سريعة إلى الآيات التي عرضها موسى ، وينهى هذه الإشارة بطريقة استقبال القوم لها : « إذا هم منها يضحكون » . . . شأن الجهال المتعالين !

يلي ذلك إشارة إلى ما أخذ الله به فرعون وملائه من الابتلاءات المفصلة في سور أخرى : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ، وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون . وقالوا : يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . . .

وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى - عليه السلام - مدعاة إيمان ، وهي تأخذهم متابعة . كل آية أكبر من أختها . مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة ، وغواه أن الخوارق لا تهدي قلبا لم يتأهل للهدى ؛ وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدي العمى !

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون ومكته قولهم : « يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » . . . فهم أمام البلاء ، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء . ومع ذلك يقولون له : « يا أيها الساحر » ويقولون كذلك : « ادع لنا ربك بما عهد عندك » وهو يقول لهم : إنه رسول « رب العالمين » لاربه هو وحده على جهة الاختصاص ! ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم ، ولا خالطها بشاشة الإيمان ، على الرغم من قولهم : « إننا لمهتدون » :

« فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » . . .

ولكن الجماهير قد تؤخذ بالخوارق المعجزة ، وقد يجد الحق سبيلا إلى قلوبها المخدوعة . وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه ، وفي زخرفه وزينته ، يخلب عقول الجماهير الساذجة .



بمنطق سطحي، ولكنه يروج بين الجماهير المستعبدة في عهد الطغيان، المخدوعة بالأبهة والبريق: «ونادى فرعون في قومه: قال: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟ أفلا تبصرون؟ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين، ولا يكاد يبين؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين؟» .

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمر قريب مشهود للجماهير، يبرها وتستخفها الإشارة إليه. فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما - ومصر لا تساوي هباءة فيه فهو أمر يحتاج إلى قلوب مؤمنة تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد! والجماهير المستعبدة المستغفلة يغيرها البريق الخادع القريب من عيونها؛ ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد!

ومن ثم عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب! «أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين؟» .

وهو يعني بالمهانة أن موسى ليس ملكا ولا أميرا ولا صاحب سطوة ومال مشهود. أم لعله يشير بهذا إلى أنه من ذلك الشعب المستعبد المهين. شعب إسرائيل. أما قوله: «ولا يكاد يبين» فهو استغلال لما كان معروفا عن موسى قبل خروجه من مصر من حبسة اللسان. وإلا فقد استجاب الله سؤاله حين دعاه: «رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي» . . . وحلت عقدة لسانه فعلا، وعاد يبين.

وعند الجماهير الساذجة الغافلة لا بد أن يكون فرعون الذي له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، خيرا من موسى - عليه السلام - ومعه كلمة الحق ومقام النبوة ودعوة النجاة من العذاب الأليم!

«فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب؟» ..

هكذا. من ذلك العرض النافذ الرخيص! أسورة من ذهب تصدق رسالة رسول! أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم! أم لعله كان يقصد من إلقاء أسورة الذهب تويجه بالملك، إذ كانت هذه عادتهم، فيكون الرسول ذا ملك وذا سلطان؟

«أوجاء معه الملائكة مقترنين» ..

## سورة الزخرف

وهو اعتراض آخر له بريق خادع كذلك من جانب آخر ، تؤخذ به الجماهير ، وترى أنه اعتراض وجيه ! وهو اعتراض مكرور ، ووجه به أكثر من رسول !

« فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة ، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ، ولا يعمدوا يبحثون عنها ؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة . ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك ، ويلين قيادهم ، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين !

ولاعلاك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق ، ولا يمكن بحبل الله ، ولا يزنون بعيزان الإيمان . فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللمب بهم كالربشة في مهب الريح . ومن هنا يعال القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول :

« فاستخف قومه فأطاعوه . إنهم كانوا قوما فاسقين » ..

ثم انتهت مرحلة الابتلاء والإنذار والتبصير ؛ وعلم الله أن القوم لا يؤمنون ؛ وعمت الفتنة فأطاعت الجماهير فرعون الطاغية المتباهى في خيلاء ، وعشت عن الآيات البينات والنور ؛ فحقت كلمة الله وتحقق النذير :

« فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين » ..

يتحدث الله سبحانه عن نفسه في مقام الانتقام والتدمير ؛ إظهارا لغضبه ولجبروته في هذا المقام . فيقول : « فلما آسفونا » .. أي أغضبونا أشد الغضب .. « انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين » .. يعني فرعون وملائه وجنده . وهم الذين غرقوا على إثر موسى وقومه وجعلهم الله سلفا يتبعه كل خلف ظالم ؛ « ومثلا للآخرين » الذين يجيئون بعدهم ، ويعرفون قصتهم ، فيعتبرون .

\*\*\*

وهكذا تلتقى هذه الحلقة من قصة موسى - عليه السلام - بالحلقة المشابهة لها من قصة العرب في مواجهة رسولهم الكريم . فتثبت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين معه ؛ وتحذر المشركين المعترضين ، وتذرهم مصيرا كصير الأولين ..

وتلتقى الحقيقة في عرض القصة ، بالتناسق بين الحلقة المروضة والحال القائمة والغاية من إيرادها في هذه الحال القائمة . وتصبح القصة بهذا أداة للتربية في النهج الإلهي الحكيم .

\*\*\*

ثم ينتقل السياق من هذه الحلقة في قصة موسى ، إلى حلقة من قصة عيسى ، بمناسبة جدل القوم حول عبادتهم للملائكة وعبادة بعض أهل الكتاب للمسيح . . وذلك في الدرس الأخير .

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا : أَلِهْتُمْنَا خَيْرًا أَمْ هُوَ؟ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ \* إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ \* وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخَلْفُونَ \* وَإِنَّهُ لَعَلِيمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرَنَّ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

« وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ، وَلِأَبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

« هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؟ \* الْأَخِيَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ .

« بِاعْبَادٍ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ \* أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ \* يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ \* وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ \*

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ \* وَنَادَوْا : يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ :  
إِنَّكُمْ مَا كِتُوبُونَ .

« لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ ، وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ \* أَمْ أُبْرِمُوا أَمْرًا  
فَإِنَّا مُبْرِمُونَ \* أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى ، وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ  
يَكْتُمُونَ .

« قُلْ : إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ \* سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ \* فَذَرَهُمْ يَخْوَضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ  
الَّذِي يُوعَدُونَ \* وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \*  
وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَإِلَيْهِ  
تُرْجَعُونَ \* وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .  
« وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لَيَقُولُنَّ : اللَّهُ . فَأَنْتَ يُؤْفَكُونَ ؟ \* وَقِيلَ : يَا رَبِّ  
إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

« فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ، وَقُلْ : سَلَامٌ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ﴿١٩﴾

في هذا الدرس الأخير من السورة يستطرد السياق إلى حكاية أساطيرهم حول عبادة  
الملائكة ؛ ويحكي حدثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه ، وهم يدافعون عن عقائدهم  
الواهية ، لا بقصد الوصول إلى الحق ، ولكن وراء ومحالا !

فلما قيل لهم : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . وكان القصد هو أصنامهم التي  
جعلوها تماثيل للملائكة ثم عبدوها بذاتها . وقيل لهم : إن كل عابد وما يعبد من دون الله  
في النار . لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم - وقد عبده المنحرفون من  
قومه - أهو في النار ؟ وكان هذا مجرد جدل ومجرد وراء . ثم قالوا . إذا كان أهل الكتاب

يعبدون عيسى وهو بشر فحن أهدى إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله ! وكان هذا باطلا يقوم على باطل .

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفا من قصة عيسى ابن مريم ، يكشف عن حقيقته وحقائقه دعوته ، واختلاف قومه من قبله ومن بعده .

ثم يهدد المنحرفين عن سواء العقيدة جميعا بمجيء الساعة بغتة . وهنا يعرض منهدا مطولا من مشاهد القيامة ، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين ، و صفحة من العذاب الأليم للمجرمين . وينفي أساطيرهم عن الملائكة ، وينزه الله سبحانه عما يصفون ، ويعرفه لعباده ببعض صفاته ؛ وملكيته المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة وإليه يرجعون .

ويختم السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصفح عنهم والإعراض وبتدعهم ليعلموا ما سيعلمون ! وهو تهديد ملفوف يليق بالمجادلين المرائين بعد هذا الإيضاح والتبيين .

\*\*\*

« ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا: آآلهتنا خير أم هو؟ ما ضربوه لك إلا جدلا . بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها وانبعون ، هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » . .

« ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . .

ذكر ابن إسحاق في السيرة قال : جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني مع الوليد بن المغيرة في المسجد ، فجاء النضر ابن الحارث حتى جلس معهم ، وفي المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعرض له النضر ابن الحارث ، فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أغمه . ثم تلا عليه وعليهم « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون » . . الآيات .. ثم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقبل عبد الله ابن الزبير التيمي حتى جلس . فقال الوليد ابن المغيرة له : والله ما قام النضر ابن الحارث لابن عبد المطلب وما قعدا وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم .

## سورة الزخرف

مال عبد الله ابن الزبيري : أما والله لو وجدته لخصمته . سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح ابن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله ابن الزبيري ورأوا أنه قد احتج وخاصم . فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده . فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأزل الله عز وجل : « إن الدين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » .. أي عيسى وعزير ومن عبد معها من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل ، فأخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأنه يعبد من دون الله ، وعجب الوليد ومن حضر من حجة وخصومته : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون » .. أي يصدون عن أمرك بذلك ...

وذكر صاحب الكشاف في تفسيره : لما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على قريش : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » امتعضوا من ذلك امتعاضاً شديداً . فقال عبد الله ابن الزبيري : يا محمد . أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال عليه السلام : « هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم » فقال : خصمتك ورب الكعبة ! ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي ، وثنى عليه خيراً وعلى أمه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ؟ وعزير يعبد ؟ والملائكة يعبدون ؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ! ففرحوا وضحكوا . وسكت النبي - صلى الله عليه وسلم - فأزل الله تعالى : « إن الدين سبقت لهم منا الحسنى » ونزلت هذه الآية . والمعنى : ولما ضرب عبد الله ابن الزبيري عيسى ابن مريم مثلاً ، وجادل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعبادة النصارى إياه « إذا قومك » - قريش - من هذا المثل « يصدون » ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحوا وجدلاً وضحكاً بما سمعوا من إسكات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجده ، كما يرتفع لفظ القوم ولجهم إذا تبوأ بحجة ثم فتحت عليهم . وأما من قرأ « يصدون » بالضم فمن الصدود . أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه . وقيل : من الصديد وهو الجبة . وأنها لغتان نحو يعكف ويعكف ونظائرهما . « وقالوا آلهتنا خير أم هو ؟ » يعنون أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ؟ وإذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينا !

ولم يذكر صاحب الكشاف من أين استقى روايته هذه . وهي تتفق في عمومها مع رواية ابن إسحاق .

ومن كليهما يتضح الالتواء في الجدل ، والمراء في المناقشة . ويتضح ما يقرره القرآن عن طبيعة القوم وهو يقول : « بل هم قوم خصمون » . . ذوو لدد في الخصومة ومهارة . فهم يدركون من أول الأمر ما يقصد إليه القرآن الكريم وما يقصد إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيلونه عن استقامته ، ويتلمسون شبهة في عموم اللفظ فيدخلون منها بهذه المباحكات الجدلية ، التي يفرم بمثلها كل من عدم الإخلاص ، وقد الاستقامة ؛ يكابر في الحق ، ويعمد إلى شبهة في لفظ أو عبارة أو منفذ خلفي للحقيقة ؛ ومن ثم كان نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتشديده عن المراء ، الذي لا يقصد به وجه الحق ، إنما يراد به الغلبة من أى طريق .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أحمد ابن عبد الرحمان ، عن عبادة ابن عبادة ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن . فغضب غضبا شديدا ، حتى كأنما صب على وجهه الخلل . ثم قال - صلى الله عليه وسلم : « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض . فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » . ثم تلا - صلى الله عليه وسلم - « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » . .

وهناك احتمال في تفسير قوله تعالى : « وقالوا : آلهتنا خير أم هو ؟ » يرشح له سياق الآيات في صدد أسطورتهم عن الملائكة . وهو أنهم عنوا أن عبادتهم للملائكة خير من عبادة النصارى لعيسى ابن مريم . بما أن الملائكة أقرب في طبيعتهم وأقرب نسا - حسب أسطورتهم - من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . ويكون التعقيب بقوله تعالى : « ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » . . يعنى الرد على ابن الزبيرى كما سبق . كما يعنى أن ضربهم المثل بعبادة النصارى للمسيح باطل . فعلم النصارى ليس حجة لأنه انحراف عن التوحيد . كما انحرافهم هم . فلا مجال للمفاضلة بين انحراف وانحراف . فكله ضلال . وقد أشار إلى هذا الوجه بعض المفسرين أيضا . وهو قريب .

ومن ثم جاء التعقيب بعد هذا :

« إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجطاناه مثلا لبني إسرائيل » . .

## سورة الزخرف

فليس إلهما يعبد كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه . إنما هو عبد أنعم الله عليه . ولا  
حريرة له في عبادتهم إياه . فإنما أنعم الله عليه ليكون مثلاً لبني إسرائيل ينظرون إليه ويتأسون  
به . ففسوا المثل ، وضلوا السبيل !

واستطرد إلى أسطورتهم حول الملائكة ، بين لهم أن الملائكة خلق من خلق الله مثلهم .  
ولو شاء الله لجعل الملائكة يخلفونهم في هذه الأرض ، أو لحول بعض الناس إلى ملائكة  
يخلفونهم في الأرض :

« ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » . . .

فرد الأمر إلى مشيئة الله في الخلق . وما يشاءه من الخلق يكون . وليس أحد من خلقه  
يمت إليه بنسب ، ولا يتصل به - سبحانه - إلا صلة المخلوق بالخالق ، والعبد بالرب ، والعابد  
بالمعبود .

ثم يعود إلى تقرير شيء عن عيسى عليه السلام . يذكرهم بأمر الساعة التي يكذبون بها  
أو يشكون فيها :

« وإنه لعلم للساعة . فلا تترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان

إنه لكم عدو مبين » . . .

وقد وردت أحاديث شتى عن نزول عيسى - عليه السلام - إلى الأرض قبيل الساعة وهو  
ماتشير إليه الآية : « وإنه لعلم للساعة » بمعنى أنه يُعلم بقرب مجيئها ، والقراءة الثانية « وإنه لعلم  
للساعة » بمعنى أمانة وعلامة . وكلاهما قريب من قريب .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والذي  
نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ،  
ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا  
وما فيها » (١)

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تزال طائفة  
من أمتي يقفون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة . فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم :  
تعال : صل لنا . فيقول : لا . ان بعضكم على بعض أمراء تكرمه الله تعالى لهذه الأمة » (٢) .

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود . (٢) أخرجه مسلم .



وهو غيب من الغيب الذي حدثنا عنه الصادق الأمين وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول فيه لبشر إلا ما جاء من هذين المصدرين الثابتين إلى يوم الدين .

« فلا تترن بها . واتبعون . هذا صراط مستقيم » . . .

وكانوا يشكون في الساعة ، فالقرآن يدعوهم إلى اليقين . وكانوا يشرذون عن الهدى ، والقرآن يدعوهم على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى اتباعه فإنه يسير بهم في الطريق المستقيم ، القاصد الواصل الذي لا يضل سالكوه .

ويبين لهم أن انحرافهم وشرودهم أثر من اتباع الشيطان . والرسول أولى أن يتبعوه :

« ولا يصدنكم الشيطان . إنه لكم عدو مبين » . . .

والقرآن لا يفتأ يذكر البشر بالمعركة الحالدة بينهم وبين الشيطان منذ أبهم آدم ، ومنذ المعركة الأولى في الجنة . وأغفل الغافلين من يعلم أن له عدوا يقف له بالمرصاد ، عن عمد وقصد ، وسابق إنذار وإصرار ؛ ثم لا يأخذ حذره ؛ ثم يزيد فيصبح تابعا لهذا العدو الصريح . وقد أقام الإسلام الإنسان في هذه المعركة الدائمة بينه وبين الشيطان طوال حياته على هذه الأرض ؛ ورصد له من الغنيمة إذا هو انتصر مالا يخطر على قلب بشر ، ورصد له من الخسران إذا هو اندحر مالا يخطر كذلك على قلب بشر . وبذلك حول طاقة القتال فيه إلى هذه المعركة الدائمة ؛ التي تجعل من الإنسان إنسانا ، وتجعل له طابعه الخاص بين أنواع الخلائق المتنوعة الطباع والطباع ؛ والتي تجعل أكبر هدف للإنسان على الأرض أن ينتصر على عدوه الشيطان ؛ فينتصر على الشر والخبث والرجس ؛ ويثبت في الأرض قوائم الخير والنصح والطهر .

وبعد هذه اللفتة يعود إلى بيان حقيقة عيسى - عليه السلام - وحقيقة ما جاء به ؛ وكيف اختلف قومه من قبله ثم اختلفوا كذلك من بعده :

« ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فولد للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » . . .

فيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه ، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه : « قد جتكم بالحكمة » . ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، وأمن الزل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛ واطمأن إلى

## سورة الزخرف

خطواته في الطريق على آذان وعلى نور. وجاء ليبن لهم بعض الذي يختلفون فيه. وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى - عليه السلام - واتقسموا فرقا وشيعا. ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لامواربة فيها ولا لبس ولا غموض: « إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه » .. ولم يقل: إنه إله، ولم يقل: إنه ابن الله. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع. وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا تتواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال. ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزابا كما كان الذين من قبله مختلفين أحزابا. اختلفوا ظالمين لاحجة لهم ولا شبهة: « فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ..

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الدل تحت حكم الرومان؛ وقد طال انتظارهم له، فلما جاءهم نكروه وشاقوه وهموا أن يصلبوه!

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيئا ونحلا كثيرة، أهمها أربع فرق أو طوائف. طائفة الصدوقين نسبة إلى « صدوق » وإليه وإلى أسرته ولأية الكهانة من عهد داود وسليمان. وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون. أخى موسى. فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل. وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها، ينكرون « البدع » في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة؛ ولا يعترفون بأن هناك قيامة!

وطائفة الفريسيين، وكانوا على شقاق مع الصدوقين. ينكرون عليهم تشدهم في الطموس والشكليات، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والدفرة. وكان المسيح - عليه السلام - ينكر عليهم هذه الخيلاء وشققة اللسان!

وطائفة السامريين، وكانوا خليطا من اليهود والأشوريين، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية، وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهد التأخر، مما يعتقد غيرهم بقداسته.

وطائفة الآسين أو الآسينيين. وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية، وكانوا يعيشون في

عزلة عن بقية طوائف اليهود، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتشف، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية، وببيلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المتذلين للكبوتين، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح - عليه السلام - بالتوحيد الذي أعلنه : « إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه » . وجاء معه بشريعة التسامح والتهديب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس ، حاربه المخترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

ومما يؤثر عنه - عليه السلام - في هذا قوله عن هؤلاء : « إنهم يحزمون الأوقار ، ويسومون الناس أن يحملوها على عواتقهم ، ولا يمدون إليها أصبعا يزحزحونها ، وإنما يعملون عملهم كله لينظر الناس إليهم ايعرضون عصائبهم ، ويطيئون أهداب ثيابهم ، ويستأثرون بالتكلم الأول في الولائم ، والمجالس الأولى في المجمع ، ويتغنون التحيات في الأسواق ، وأن يقال لهم : سيدي . سيدي . حيث يذهبون ! » ..

أو يخاطب هؤلاء فيقول : « أيها القادة العميان الذين يحاسبون على البعوضة ويتعلمون الجمل .. إنكم تتفون ظاهر الكأس والصفحة ، وهما في الباطن مترعان بالرجس والدعارة .. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون . إنكم كالتبور البيضاء . خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة » (١) ..

وإن الإنسان - وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح - عليه السلام - وغيرها في بابها - ليكاد يتصور رجال الدين المخترفين في زماننا هذا . فهو طابع واحد مكرر . هؤلاء الرصيين المخترفين من رجال الدين ، الذين يراهم الناس في كل حين ا

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه ، فاختلف أتباعه من بعده . اختلفوا شيئا وأحزابا . بعضها يؤلمه . وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته . وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح

(١) النصوص منقولة عن كتاب : عبقرية المسيح للأستاذ الطراد . والكلام عن طوائف اليهود . مستعان به فيه .

## سورة الزخرف

ابن مريم . وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام . وضاعت دعوته الناس ليلتحأوا إلى ربهم ويمبدوه مخلصين له الدين (١) .

« فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم .. »

ثم جاء مشركو العرب يحاجون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في عيسى - عليه السلام - بما فعلته الأحزاب المختلفة من بعده ، وما أحدثته حوله من أساطير !

\*\*\*

و حين يصل السياق إلى الحديث عن الظالمين ، يدمج المختلفين من الأحزاب بعد عيسى - عليه السلام - مع المحاجين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفعل هذه الأحزاب ؛ ويصور حالهم يوم القيامة في مشهد رائع طويل ، يحتوي كذلك صفحة المتقين المكرمين في جنات النعيم : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين .

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشبه الأنفس وتلد الأعين ، وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون .

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتقر عنهم وهم فيه ملبسون . وهم - - - - - لهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك . قال : إنكم ماكثون » ..

يبدأ المشهد بوقوع الساعة فجأة وهم غافلون عنها ، لا يشعرون بمقدمها :

« هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » !

هذه المفاجأة تحدث حدثا غريبا ، يقلب كل ما كانوا يألفونه في الحياة الدنيا :

« الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ..

وإن عداء الأخلاء لينبع من معين ودادهم .. لقد كانوا في الحياة الدنيا يجتمعون على الشر ، ويميل بعضهم لبعض في الضلال . فالיום يتلاومون . واليوم يلقي بعضهم على بعض نعمة الضلال وعاقبة الشر . واليوم ينقلبون إلى خصوم يتلاحون ، من حيث كانوا أخلاء يتناجون ! « إلا

(١) يراجع هذا الخلاف بيني من التفصيل في ص ٢٢ من الجزء العشرين من هذه الظلال في تفجير قوله تعالى : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه مختلفون » ..

المتقين .. فهؤلاء مودتهم باقية فقد كان اجتماعهم على الهدى ، وتناصحهم على الخير ، وعاقبتهم إلى النجاة ..

وبينا الأخلاء يتلاحون ويختصمون ، يتجاوب الوجود كله بالداء العلوي الكريم للمتقين :  
« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » ..

أى تسرون سرورا يشيع في أعطافكم وقمباتكم فيدو عليكم الجبور .  
ثم نشهد - بين الخيال - فإذا سخاف من ذهب وأكواب يطف بها عليهم . وإذا لهم في الجنة ماتشبهه الأنفس . وفوق شهوة النفوس التذاذ الميون ، كالأوجمالات في التكريم :  
« يطف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ماتشبهه الأنفس ، وتلد الأعين » ..  
ومع هذا النعيم . ماهو أكرم منه وأفضل . التكريم بالخطاب من العلي الكريم :  
« وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة ومنها تأكلون » ..

فما بال المجرمين الذين تركناهم منذ هنية يتلاحون ويختصمون ؟

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون » ..

وهو عذاب دائم ، وفي درجة شديدة عنيفة . لا يتر لحظة ، ولا يرد هبة . ولا تلوح لهم فيه بارقة من أمل في الخلاص ، ولا كوة من رجاء بعيد . فهم فيه يأسون قانطون :  
« لا يفر عنهم وهم فيه مبلسون » ..

كذلك فعلوا بأنفسهم ، وأوردوها هذا المورد الموبق ، ظالمين غير مظلومين :

« وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » ..

ثم تناوح في الجو صيحة من بعيد . صيحة تحمل كل معاني اليأس والكرب والضيق :

« ونادوا : يا مالك . ليقض علينا ربك » ..

إنها صيحة متناوحة من بعد سحيق . من هناك من وراء الأبواب الموصدة في الجحيم . إنها صيحة أولئك المجرمين الظالمين . إنهم لا يصبحون في طلب النجاة ولا في طلب القوت . فهم مبلسون يأسون . إنما يصبحون في طلب الهلاك . الهلاك السريع الذي يريح . . . وحسب النبايا أن يكن أمانيا . . . وإن هذا النداء ليلقى ظلا كثيفا للكرب والضيق . وإنا لنكاد

## سورة الزخرف

رى من وراء صرخة الاستغاثة نفوسا أطار صوابها العذاب ، وأجساما تجاوز الألم بها حد الطاقة ، فانبعث منها تلك الصيحة المريرة : « يامالك . ليقض علينا ربك ! »

ولكن الجواب يحىء في تئيس وتخذيل ، وبلا رعاية ولا اهتمام :

« قال : إنكم ما كثون ! »

فلا خلاص ولا رجاء ولا موت ولا قضاء . . . إنكم ما كثون !

\*\*\*

وفي ظل هذا المشهد الكامد المكروب يخاطب هؤلاء الكارهين للحق ، المرضين عن الهدى ، الصائرين إلى هذا المصير ؛ ويمجّب من أمرهم على رؤوس الأشهاد ، في أنسب جو للتحذير والتعجيب .

« لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون . أم أبرموا أمرا ؟ فإننا مبرمون . أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون . . . »  
وكراهة الحق هي التي كانت تحول بينهم وبين اتباعه ، لا عدم إدراك أنه الحق ، ولا الشك في صدق الرسول الكريم ؛ فاعهدوا عليه كذبا قط على الناس ، فكيف يكذب على الله ويدعى عليه ما يدعيه ؟

والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق ، ولكنهم يكرهونه ، لأنهم يصادم أهواءهم ، ويقف في طريق شهواتهم ، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم ؛ ولكنهم أجرا على الحق وعلى دعاته ؛ فمن ضعفهم تجاه الأهواء والشهوات يستمدون القوة على الحق والاجترار على الدعاة .

لهذا يهددهم صاحب القوة والجبروت ، العليم بما يسرون وما يمحرون :  
« أم أبرموا أمرا ؟ فإننا مبرمون . أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون . . . »

فإصرارهم على الباطل في وجه الحق يقابله أمر الله الجازم وإرادته بتمكن هذا الحق وتثبيتته . وتديريهم ومكرهم في الظلام يقابله علم الله بالسر والنجوى . والمعاقبة معروفة حين يتم الخلق الضائف القاصرون ، أمام الخالق العزيز العليم .

\*\*\*

ويتركهم بعد هذا التهديد المرهوب ، ويوجه رسوله الكريم ، إلى قول يقوله لهم . ثم يدعهم من بعده لمصيرهم الذي شهدوا صورته منذ قليل :

« قل : إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين . سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش عما يصفون . فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » . . .

لقد كانوا يعبدون الملائكة بزعم أنهم بنات الله . ولو كان لله ولد لكان أحق أحد بعبادته ، وبعرفة ذلك ، نبي الله ورسوله ، فهو منه قريب ، وهو أسرع إلى طاعة الله وعبادته ، وتوقيره ولده إن كان له ولد كما يزعمون ! ولكنه لا يعبد إلا الله . فهذا في ذاته دليل على أن ما يزعمونه من بنوة أحد لله لا أصل له ، ولا سند ولا دليل ! تنزه الله وتعالى عن ذلك الزعم الغريب !

« سبحان رب السماوات والأرض . رب العرش . عما يصفون » . . .

وحين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ، ونظامها ، وتناسقها ، ومدى ما يمكن وراء هذا النظام من عظمة وعلو . ومن سيطرة واستلاء . يشير إلى هذا كله قوله : « رب العرش » . . . يصغر في نفسه كل وهم وكل زعم من ذلك القبيل . ويدرك بفطرته أن صانع هذا كله لا يستقيم في الفطرة أن يكون له شبه - أي شبه - بالخلق . الذين يلدون وينسلون ! ومن ثم يبدو مثل ذلك القول لهوا ولعبا ؛ وخوضا وتفحما ، لا يستحق شيء منه المناقشة والجدل ؛ إنما يستحق الإهمال أو التحذير :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » .  
والذي شهدوا صورة منه يوم يكون !

\*\*\*

ثم يعرض - بعد الإعراض عنهم وإهمالهم - في تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته للسماوات والأرض والعرش العظيم :

« وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، وهو الحكيم العليم . وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وعنده علم الساعة ، وإليه ترجعون . ولا يعلمك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » . . .

وهو تقرير للألوهية الواحدة في السماء وفي الأرض ، والتفرد بهذه الصفة لا يشاركه فيها مشارك . مع الحكمة فيما يفعل . والعلم المطلق بهذا الملك العرشي .

## سورة الزخرف

ثم نعبد الله وتعظيم في لفظ « تبارك » أى تعظم الله وتسامى عما يزعمون ويتصورون .  
وهو « رب السماوات والأرض وما بينهما » . وهو الذى يعلم وحده علم الساعة وإليه المرجع والمآب .  
ويومذاك لأحد ممن يدعوهم أولاداً أو شركاء ، يملك أن يشفع لأحد منهم - كما كانوا يزعمون  
أهم ينحدونهم شفعاء عند الله . فإنه لا شفاعة إلا لمن شهد بالحق ، وآمن به . ومن يشهد بالحق  
لا يشفع فى من جحدته وعاداه !

\*\*\*

ثم يواحبهم بمنطق فطرته ، وبما لا يجادلون فيه ولا يشكون ، وهو أن الله خالقهم . فكيف  
حيث يشركون معه أحداً فى عبادته ، أو يتوقعون من أحد شفاعة عنده لمن أشرك به :  
« ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله . فأنى يؤفكون ؟ »  
وكيف يصرفون عن الحق الذى تشهد به فطرتهم ويحيدون عن مقتضاه المنطق المحتوم ؟

\*\*\*

وفى ختام السورة يعظم من أمر آجاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - لربه ، يشكو إليه  
كفرهم وعدم إيمانهم . فيرزقه ويقسم به :  
« وقيله . يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .. »  
وهو تعبير خاص ذو دلالة وإيحاء ، عمق هذا القول ، ومدى الاستماع له ، والعناية به ،  
والرعاية من الله سبحانه والاحتفال .  
ويجيب عليه - فى رعاية - بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصفح والإعراض ،  
وعدم الاحتفال والبلاة . والشعور بالطمأنينة . ومواجهة الأمر بالسلام فى القلب واللسان  
والرضاء . وذلك مع التحذير الملقوف للمعرضين المعاندين ، مما ينتظرهم يوم ينكشف الستور :  
« فاصفح عنهم ، وقل سلام . فسوف يعلمون .. »



## سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ٥٩

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ \* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ \*  
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ \* أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ \* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ  
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ \* لَا إِلَهَ  
إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .

« بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ \* فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ \* يَغْشَى  
الْإِنْسَانَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* رَبَّنَا آكُفِّ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ \* أَلَيْسَ لَهُمْ  
الَّذِي كَرَّمُوا وَجَاهَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ \* ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ \* إِنَّا كَاشِفُو  
الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ \* يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ، إِنَّا مُنتَقِمُونَ .

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ \* أَنْ أَدَّوْا إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ  
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ \* وَالَّذِينَ تَدْعُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* وَإِنِّي عُدْتُ  
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُونَ \* وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاغْتَرِبُوا \* فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لِأَنَّ قَوْمَ  
مُجْرِمُونَ \* فَأَمْرٌ بِمِيَادِي لَيْلٍ إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ \* وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ  
مُغْرَقُونَ \* كَمْ تَرَ كُوفًا مِنْ جَنَاتٍ وَعُيُونٍ \* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ \* وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا

فَاكِين \* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ \* فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ \*  
وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ \* وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ \* مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ  
كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ \* وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ \* وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ  
مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ .

« إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ \* إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ \* فَأْتُوا  
بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعِّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ  
كَانُوا مُجْرِمِينَ .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ \* مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* إِنْ يَوْمَ الْفَضْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ \* يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ  
عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

« إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ \* طَعَامُ الْأَثِيمِ \* كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ \* كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ \*  
خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ \* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ \* ذُقْ إِنَّكَ  
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ \* إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ \* فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ  
مُتَقَابِلِينَ \* كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ \* يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ \*  
لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ - إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ - وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ \* فَضلاً مِنْ رَبِّكَ ،  
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« فَإِنَّمَا يَسْتَرْئَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ » ﴿٥٩﴾

يشبه إيقاع هذه السورة للمكية ، بفواصلها القصيرة ، وقافيتها المتقاربة ، وصورها النيفة ،  
وظلالها الموحية .. يشبه أن يكون إيقاعها مطارق على أوتار القلب البشري المشدودة .

ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ، ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعا . سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والشهد الكوني ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة . فكلها وسائل ومؤثرات لإيقاظ القلب البشري واستجابته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يشها هذا القرآن في القلوب .

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتزيله في ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وإنذارا لهم وتحذيرا . ثم تعريف للناس بربهم : رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات لوحديته وهو المحيي المميت رب الأولين والآخريين .

ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : « بل هم في شك يلعبون » ! ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » .. ودعاهم بكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتي لا يكشف . وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فليتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا إلى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » ..

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ؛ ينتقل بهم إلى مصرع ذرعون وملكه يوم جاءهم رسول كريم ، وناداهم : « أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . والأتملوا على الله » .. فأبوا أن يسمعوا حتى يثس منهم الرسول . ثم كان مصرعهم في هوان بعد الاستلاء والاستكبار : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » ..

وفي غمرة هذا الشهد الوحي يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، وقولهم : « إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » ليدكرهم بمصرع قوم تبع ، ومأمم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثل مصيرهم الأليم .

ويربط بين البعث ، وحكمة الله في خلق السماوات والأرض ، « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناها إلا بالحق . ولكن أكثرهم لا يعلمون » .. ثم يحدثهم عن يوم الفصل : « ميقاتهم أجمعين » . وهنا يعرض مشهدا عنيقا للعذاب بشجرة الزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخذة إلى سواء الجحيم ، يصب من فوق رأسه الحميم . مع التبكيت والترذيل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

## سورة الدخان

وإلى جواره مشهد النعم عميقا في المتعة عمق مشهد العذاب في الشدة . تمثيا مع ظلال  
السورة العميقة وإيقاعها الشديد .

وتختم السورة بالإشارة إلى القرآن كما بدأت : « فإنا يسرناه بلسانك لهم يتذكرون » ..  
وبالتهديد الملفوف العنيف : « فارتقب إهم مرتقبون » .

\*\*\*

إنما سورة تهجم على القلب البشري من مطلعها إلى ختامها ، في إيقاع سريع متواصل .  
تهجم عليه بإيقاعها كما تهجم عليه بصورها وظلالها المتنوعة المتحددة في سمة العنف والتابع .  
وتطوف به في عوالم شتى بين السماء والأرض ، والدنيا والآخرة ، والجحيم والجنة ، والماضي  
والحاضر ، والغيب والشهادة ، والموت والحياة ، وسنن الخلق ونواميس الوجود ... فهي - على  
فصرها سبيا - رحلة ضخمة في عالم الغيب وعالم الشهود ..

\*\*\*

« حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر  
حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم . رب السماوات  
والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » ..  
تبدأ السورة بالحرفين حا . ميم . على سبيل القسم بها وبالكتاب المبين المؤلف من جنسها .  
وقد تكرر الحديث عن الأحرف المقطعة في أوائل السور ؛ فأما عن القسم بهذه الأحرف  
كالقسم بالكتاب ، فإن كل حرف معجزة حقيقية أو آية من آيات الله في تركيب الإنسان ،  
وإقداره على النطق ، وترتيب مخارج حروفه ، والرمز بين اسم الحرف وصوته ، ومقدرة الإنسان  
على تحصيل المعرفة من ورائه .. وكلها حقائق عظيمة تكبر في القلب كلما تدبرها مجردا من وقع  
الألفة والعادة الذي يذهب بكل جديد ا

فأما القسم عليه فهو تنزيل هذا الكتاب في ليلة مباركة :

« إنا أنزلناه في ليلة مباركة . إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا  
إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..  
والليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن هي - والله أعلم - الليلة التي بدأ فيها نزوله ؛ وهي إحدى  
ليالي رمضان ، الذي قيل فيه : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » .. والقرآن لم ينزل كله

## الجزء الخامس والعشرون

في تلك الليلة ؛ كما أنه لم ينزل كله في رمضان ؛ ولكنه بدأ ينزل بهذه الأرض ؛ وكانت هذه الليلة موعد هذا الاتصال المبارك . وهذا يكفي في تفسير إنزاله في الليلة المباركة .

وإنها مباركة حقا تلك الليلة التي يفتح فيها ذلك الفتح على البشرية ، والتي يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهي في حياة البشر ؛ والتي يتصل فيها الناس بالنواميس الكونية الكبرى مرحمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة ، تستجيب لها الفطرة وتلبها في هواده ؛ وتنضم على أساسها عالما إنسانيا مستقرا على قواعد الفطرة واستجاباتها ، متاسقا مع الكون الذي يعيش فيه ، ظاهرا نظيفا كريعا بلا تعمل ولا تكلف ؛ يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولا بالسماء في كل حين . ولقد عاش الذين أنزل القرآن لهم أول مرة فترة عجيبة في كنف السماء ، موصولين مباشرة بالله ؛ يطلعهم أولا بأول على ما في نفوسهم ؛ ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم . وخبون هم حساب هذه الرقابة ، وحساب هذه الرعاية ، في كل حركة وكل هاجسة محط في صغارهم . ويلجأون إليه أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .

ومضى ذلك الجيل وبقى بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشري ، يصنع به حين يتفتح له ما لا يصنعه السحر ؛ ويحول مشاعره بصورة تحسب أحيانا في الأساطير ؛ وبقى هذا القرآن منهجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بدئة وفي كل زمان . حياة إنسانية تعيش في بيتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف . وهذه سمة المنهج الإلهي وحده . وهي سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

إن البشر يصنعون ما يعني مثلهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولطرف خاص من الحياة . فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل طرف وفي كل حين ؛ جامعة بين ثبات الحقيقة وتشكل الصورة في اتساق عجيب .

أنزل الله هذا القرآن في هذه الليلة المباركة .. أولا للإندار والتحذير : « إنا كنا منذرين » . فأنه يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإندار والتنبه .

وهذه الليلة المباركة بزول هذا القرآن كانت فصلا وفارقا بهذا النزول :

« فيها يفرق كل أمر حكيم » ..

وقد فرق فيها بهذا القرآن في كل أمر ، وفصل فيها كل شأن ، وتميز الحق الخالد والباطل

## سورة الدخان

الزاهق ، ووضعت الحدود ، وأقيمت المعالم لرحلة البشرية كلها بعد تلك الليلة إلى يوم الدين ؟ فلم يبق هناك أصل من الأصول التي تقوم عليها الحياة غير واضح ولا مرسوم في دنيا الناس ، كما هو واضح ومرسوم في الناموس الكلى القديم .

وكان ذلك كله بإرادة الله وأمره ، ومشيئته في إرسال الرسل للفصل والتبيين :

« أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين » ..

وكان ذلك كله رحمة من الله بالبشر إلى يوم الدين :

« رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » ..

وما تتجلى رحمة الله بالبشر كما تتجلى في تنزيل هذا القرآن ، بهذا اليسر ، الذي يجعله سريع اللصوق بالقلب ، ويجعل الاستجابة له تتم كما تتم دورة الدم في العروق . وتحول الكائن البشري إلى إنسان كريم ؛ والمجتمع البشري إلى حلم جميل ، لولا أنه واقع تراه العيون ! إن هذه العقيدة - التي جاء بها القرآن - في تكاملها وتناسقها - جميلة في ذاتها جمالا يحب ويمشق ؛ وتتعلق به القلوب ! فليس الأمر فيها أمر الكمال والدقة وأمر الخير والصلاح . فإن هذه السمات فيها تظل ترتفع وترتفع حتى يبلغ الكمال فيها مرتبة الجمال الحبيب الطليق . الجمال الذي يتناول الجزئيات كلها بأدق تفصيلاتها ، ثم يجمعها ، وينسقها ، ويربطها كلها بالأصل الكبير . « رحمة من ربك » نزل بها هذا القرآن في الليلة المباركة . . . « إنه هو السميع العليم » يسمع ويعلم ، وينزل ما ينزل للناس على علم وعلى معرفة بما يقولون وما يعملون ، وما يصلح لهم ويصلحون به من السنن والشرائع والتوجيه السليم .

وهو المشرف على هذا الكون الحافظ لمن فيه وما فيه :

« رب السماوات والأرض وما بينهما . إن كنتم موقنين » ..

فما ينزله للناس يربهم به ، هو طرف من ربوبيته للكون كله ، وطرف من نواميه التي تصرف الكون .. والتلويح لهم باليقين في هذا إشارة إلى عقيدتهم المضطربة المزعزعة المهوشة ، إذ كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض ، ثم يتخذون من دونه أربابا ، مما يثنى بضموض هذه الحقيقة في نفوسهم وسطحتها وبمدها عن الثبات واليقين .

وهو الإله الواحد الذي يملك الموت والحياة ؛ وهو رب الأولين والآخرين :

« لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين » ..

والإحياء والإماتة أمران مشهودان للجميع ، وأمرها خارج عن طاقة كل مخلوق . يبدو هذا بأيسر نظر وأقرب تأمل . ومشهد الموت كشهد الحياة في كل صورة وفي كل شكل يلمس القلب البشري ويهزه ؛ ويستجيشه ويعده للتأثر والانفعال وبهيشه للتقبل والاستجابة . ومن ثم يكثر ذكره في القرآن وتوجيه الشاعر إليه ولسن القلوب به بين الحين والحين .

\*\*\*

وعند ما يبلغ الموقف هذا الحد من الاستارة والاستجاشة يضرب السياق عنه ، ويلتفت بالحديث إلى حكاية حالهم تجاهه ؛ وهو حال مناقض لما ينبغي أن يكونوا عليه تجاه حقيقة الموقف الجاد الذي لا مجال لللب فيه :

« بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس ، هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون . يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . .

يقول : إنهم يلعبون إزاء ذلك الجد ، ويشكون في تلك الآيات الثابتة . فدعهم إلى يوم هائل عصيب :

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس . هذا عذاب أليم » . . . وقد اختلف السلف في تفسير آية الدخان . فقال بعضهم : إنه دخان يوم القيامة ، وإن التهديد بارتقابه كالتهديد التكرار في القرآن . وإنه آت يتربونه ويترقبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم . وقال بعضهم : بل هو قد وقع فعلا ، كما توعدهم به . ثم كشف عن الشركين بدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - فنذكر هنا ملخص القولين وأسانيدهما . ثم نقب عما فتح الله به ، ونحبه صوابا إن شاء الله .

قال سليمان ابن مهران الأعمش ، عن أبي الضحى مسلم ابن صبيح ، عن مسروق . قال : دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة . فإذا رجل يقص على أصحابه : « يوم تأتي السماء بدخان مبين » . . . تدرون ماذا الدخان ؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة ، فيأخذ بأسماع الناقلين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام . قال : فأتينا ابن مسعود - رضي الله عنه - فذكرنا ذلك له ، وكان مضطجعا فزع قعد ، وقال : إن الله عز وجل قال لبيكم - صلى الله عليه

## سورة الدخان

وسلم : « قل : ما سألكم عليه من أجر وما أنا من المتكافين » . إن من العلم أن يقول الرجل لملا يعلم : الله أعلم . أحدثكم عن ذلك . إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستصت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا عليهم بسنين كسني يوسف . فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ؛ وجملوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية : عمل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد - قال الله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » . . . فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقيل له : يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت . فاستسقى - صلى الله عليه وسلم - لهم فسقوا . فزلت . « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . . قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة ؟ . . . فلما أصابهم الرقاهية عادوا إلى حالهم ، فأرسل الله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . . قال : يعني يوم بدر . قال ابن مسعود - رضي الله عنه - فقد مضى خمسة : الدخان ، والروم ، والقمر ، والبطشة ، والذرام » . . . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين . ورواه الإمام أحمد في مسنده . وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما . وعند ابن جرير ، وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به . وقد وافق ابن مسعود - رضي الله عنه - على تفسير الآية بهذا ، وأن الدخان مضى ، جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي . وهو اختيار ابن جرير .

وقال آخرون : لم يمض الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما ورد في حديث أبي سريجة حذيفة ابن أسيد الغفاري - رضي الله عنه - قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عرفة ونحن نتذكر الساعة ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وحروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف ، خسف بالشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر - الناس - تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » . . . تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه .

وقال ابن جرير : حدثني محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن اسماعيل ابن عياش حدثني أبي ، حدثني ضحيم ابن زرعة ، عن شريح ابن عبيد ، عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه -



قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن ربكم أنذركم ثلاثا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، ويأخذ الكافر وينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة ، والثالثة الدحال . ورواه الطبراني عن هاشم ابن يزيد ، عن محمد ابن إسماعيل ابن عياش بهذا النص ( وقال ابن كثير في التفسير : وهذا إسناد جيد ) .

وقال ابن جرير كذلك : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علي ، عن ابن جريح ، عن عبد الله ابن أبي ملكية . قال : غدوت على ابن عباس - رضي الله عنهما - ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت . . وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن سفيان ، عن عبد الله ابن أبي يزيد ، عن عبد الله ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - فذكره .

قال ابن كثير في التفسير : ( وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - خبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا قول من واقفه من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم أجمعين - مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها ، مما فيه مقتنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن . قال الله تبارك وتعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » . . أي بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسر به ابن مسعود - رضي الله عنه - إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله تعالى : « يغشى الناس » . . أي يتغشاهم وبمسهم . ولو كان أمرا خياليا يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : « يغشى الناس » . . وقوله تعالى : « هذا عذاب ألم » . . أي يقال لهم ذلك ، تقريرا وتوبيخا . كقوله تعالى : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون » . أو يقول بعضهم لبعض ذلك . وقوله - سبحانه وتعالى - : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . أي يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله جلت عظمته : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا رد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . . وكذا قوله جل وعلا : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبعب الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ » . . وهكذا قال جل وعلا ها هنا : « أي

## سورة الدخان

لهم الذكري . وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا : معلم مجنون . . . يقول : كيف لهم التذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة ، ومع هذا تولوا عنه ، وما واقموا بل كذبوه ، وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله جلت عظمته : « يومئذ يتذكر الإسان وأنى له الذكري » . . . الآية . وقوله عز وجل : « ولو ترى إذ فزعوا ، فلا فوت ، وأحدوا من مكان قريب . وقالوا : آمانا به . وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ؟ » إلى آخر السورة . . . وقوله تعالى : « إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون » . . . يحتمل معنيين : أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب . كقوله تعالى : « ولو رحمتناهم وكشفنا ما بهم من ضر لاجوا في طغيانهم يعمهون » . . . وكقوله جلت عظمته : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » . . . والثاني : أن يكون المراد : إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه ، ووصوله إليكم ، وأنتم مستمررون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال . ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم . كقوله تعالى : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » . . . ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم ، بل كان قد انعقد سببه عليهم . . . وقال قتادة : إنكم عائدون إلى عذاب الله . . . وقوله عز وجل : « يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون » . . . فسر ذلك ابن مسعود - رضى الله عنه - يوم بدر . وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود . رضى الله عنه ، وجماعة عنه على تفسير الدخان بما تقدم وروى أيضا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - من رواية العوفي عنه وأبي ابن كعب - رضى الله عنه - وهو محتمل : والظاهر أن ذلك يوم القيامة . وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضا . قال ابن جرير : حدثني يعقوب . حدثنا ابن علية . حدثنا خالد الحذاء . عن عكرمة قال : قال ابن عباس - رضى الله عنها - قال ابن مسعود - رضى الله عنه - البطشة الكبرى يوم بدر . وأنا أقول : هي يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح عنه . وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة في أصح الروايتين عنه ، والله أعلم ) . . . انتهى كلام ابن كثير

ونحن نختار قول ابن عباس - رضى الله عنها - في تفسير الدخان بأنه عند يوم القيامة ، وقول ابن كثير في تفسيره . فهو تهديد له نظائره الكثيرة في القرآن الكريم ، في مثل هذه المناسبة . ومضاه : إتهم يشكون ويلعبون . فدعهم وار تعب ذلك اليوم المرهوب . يوم تأتي السماء

بدخان مبین یغشی الناس . ووصف هذا بأنه عذاب أليم . وصور استغاثتهم : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » . . . ورده عليهم باستحالة الاستجابة ، فقد مضى وقتها : « أي لهم الذكري وقد جاءهم رسول مبین . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » . . . يعلمه ذلك العلم الأعجمي ! وهو - كما زعموا - مجنون . . .

وفي ظل هذا الشهد الذي يرجون فيه كشف العذاب فلا يجابون يقول لهم : إن أممكم فرصة بعد لم تضع ، فهذا العذاب مؤخر عنكم قليلا وأتم الآن في الدنيا . وهو مكشوف عنكم الآن فآمنوا كما تعدون أن تؤمنوا في الآخرة فلا تجابون . وأتم الآن في عافية لن تدوم . وإيكم عائدون إلينا « يوم نبطش البطشة الكبرى » . . . يوم يكون ذلك الدخان الذي شهد به منهدده في تصوير القرآن له . « إنا منتقمون » من هذا اللب الذي تلعبون ، وذلك الهبت الذي تهتتون به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ تقولون عنه : « معلم مجنون » . . . وهو الصادق الأمين . . .

بهذا يستقيم تفسير هذه الآيات ، كما يبدو لنا ، والله أعلم بما يريد .

\*\*\*

بعد ذلك يأخذ بهم في جولة أخرى مع قصة موسى عليه السلام . فيعرضها في احصار ينتهي ببطشة كبرى في هذه الأرض . بعد إذ أراهم بطشته الكبرى يوم تأتي السماء بدخان مبین : « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم : أن أدوا إلى عبد الله ، إني لكم رسول أمين . وألا تعلموا على الله إني آتاكم سلطان مبین . وإني عدت بربى وربكم أن أرجون ، وإن لم تؤمنوا لي فاعزلون .

« فدعا ربه أن هولاء قوم مجرمون . . . فأسر بعبادي ليل إنكم متبعون . واترك البحر زهوا ، إنهم جند مفرقون .

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من السرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبین » . . .

هذه الجولة تبدأ بلمسة قوية لإيقاظ قلوبهم إلى أن إرسال الرسول لقومه قد يكون فتنه وابتلاء . والإملاء للمكذبين فترة من الزمان ، وهم يستكبرون على الله ، ويؤذون رسول الله والمؤمنين معه قد يكون كذلك فتنه وابتلاء . وأن إغضب الرسول واستنفاد حمله على أذاهم ورجائه في هدايتهم قد يكون وراءه الأخذ الأليم والبطش الشديد :

« ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون » ..

وابتليناهم بالنعمة والسلطان ، والتمكين في الأرض ، والإملاء في الرخاء ، وأسباب الثراء والاستعلاء .

« وجاءهم رسول كريم »

وكان هذا طرفاً من الابتلاء ، ينكشف به نوع استجابتهم للرسول الكريم ، الذي لا يطلب منهم شيئاً لنفسه ؛ إنما يدعوهم إلى الله ، ويطلب إليهم أن يؤدوا كل شيء لله ، وألا يستبقوا شيئاً لا يؤدونه من ذوات أنفسهم يضمنون به على الله :

« أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . وألتعلوا على الله إني آتيكم بسطان مبین

وإني عدت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » ..

إنها كلمات قصيرة تلك التي جاءهم بها رسولهم الكريم - موسى عليه السلام :

إنه يطلب إليهم الاستجابة الكلية . والأداء الكامل . والاستسلام المطلق (١) . الاستسلام

المطلق لله . الذي هم عباده . وما ينبغي للعباد أن يعلوا على الله . فهي دعوة الله بحملها إليهم الرسول ،

ومعه البرهان على أنه رسول الله إليهم . البرهان القوي والسلطان المبین ، الذي تدعنه القلوب .

وهو يتحصن بربه ويموذ به أن يسطوا عليه وأن يرحموا . فإن استصوا على الإيمان فهو يفاصلهم

ويعزلهم ويطلب إليهم أن يفاصلوه ويعزلوه . وذلك منتهى النصفة والمدل والمسألة .

ولكن الطغيان قلما يقبل النصفة ، فهو يخشى الحق أن يظل طليقاً ، يحاول أن يصل إلى

الناس في سلام وهدوء . ومن ثم يحارب الحق بالبطش . ولا يسأله أبداً . فمعنى المسألة أن يزحف

الحق ويستولى في كل يوم على النفوس والقلوب . ومن ثم يبطش الباطل ويرجم ولا يعزل الحق

ولا يدعه يسلم أو يستريح !

ويختصر السياق هنا حلقات كثيرة من القصة ، ليصل إلى قرب النهاية . حين وصلت التجربة

(١) هناك تفسير آخر لقوله تعالى : « أن أدوا إلى عباد الله » . أي أعطوني بني إسرائيل عباد الله .

وأدوم إلى ولا تعجزوهم للسخرية والعذاب . وذلك كقوله : « أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا نمنبهم » .

إلى نهايتها؛ وأحس موسى أن القوم لن يؤمنوا له ولن يستجيبوا لدعوته؛ ولن يسالموه أو يحترلوه .  
وبدا له إجرامهم أصيلاً عميقاً لا أمل في تخليصهم عنه . عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه الأخير :  
« فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » . . .

وماذا يملك الرسول إلا أن يعود إلى ربه بالحصيصة التي جنتها يدها؟ وإلا أن يعرض أمره  
بين يديه ، ويدع له التصرف بما يريد ؟

وتلقى موسى الإجابة إقراراً من ربه لما دمع به القوم . . . حقا إنهم مجرمون . . .  
« فأمر بعبادى ليلا إنكم متبعون . وأترك البحر رهوا إنهم جند مفرقون » . . .  
والسرى لا يكون إلا ليلا ، فالنص عليه يعيد تصوير الشهيد ، مشهد السرى بعباد الله  
- وهم بنو إسرائيل . ثم للإيجاء بجو الخفية ، لأن سراً كان خفية عن عيون فرعون ومن  
وراء عله . والرهو : الساكن . وقد أمر الله موسى - عليه السلام - أن يمر هو وقومه وأن  
يدع البحر وراءه ساكناً على هيئته التي مر هو وقومه فيها ، لإعراء فرعون وجنده باتباعهم .  
إتم قدر الله بهم كما أرادهم : « إنهم جند مفرقون » . . . فهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب  
الظاهرة . والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم .

ويختصر السياق حكاية مشهد الفرق أو عرضه ، اكتفاء بالكلمة النافذة التي لا بد أن  
تكون : « إنهم جند مفرقون » . . . ويعضى من هذا للشهد للضرر إلى التعقيب عليه ؛ تعقياً  
بشيء بهوان فرعون الطاغية المتعالي ومكته للمالء له على الظلم والظفان . هوانه وهوانهم على  
الله ، وعلى هذا الوجود الذي كان يشمخ فيه بأفقه ، فيطأطىء له للملأ المفتونون به ؛ وهو  
أضال وأزهد من أن يحس به الوجود ، وهو يسلب النعمة فلا يمنعها من الروال ، ولا يرى  
له أحد على سوء المال :

« كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك  
وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » . . .

ويبدأ للشهد بصور النعم التي كانوا فيه يرفلون . . جنات . وعيون . وزروع . ومكان  
مرموق ، ينالون فيه الاحترام والتكريم . ونعمة يلتذونها ويطمعونها ويعيشون فيها  
مسرورين مجبورين .

ثم ينزع هذا كله منهم أو ينزعون منه . ويرثه قوم آخرون - وفي موضع آخر قال :

## سورة الدخان

« كذلك وأورثناها بني إسرائيل » - وبنو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات . ولكمهم ورثوا ملكا مثله في الأرض الأخرى . فالتقصود إذن هو نوع الملك والنعمة . الذي زال عن فرعون وملكه ، وورثه بنو إسرائيل ا

ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض : ذهبوا فلم يأس على ذهابهم أحد ، ولم تشعر بهم سماء ولا أرض ؛ ولم ينظروا أو يؤجلوا عند ما حل اليعاد :

« فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » ..

وهو تعبير يلقي ظلال الهوان ، كما يلقي ظلال الجفاء .. فهؤلاء الطغاة المتعالمون لم يشعر بهم أحد في أرض ولا سماء . ولم يأسف عليهم أحد في أرض ولا سماء . وذهبوا ذهاب التال ، وهم كانوا جبارين في الأرض يطأون الناس بالعال ! وذهبوا غير مأسوف عليهم فهذا الكون بمقتهم لانفصالهم عنه ، وهو مؤمن بربه ، وهم به كافرون ! وهم أرواح خبيثة شريرة منبوذة من هذا الوجود وهي تعيش فيه !

ولو أحس الجبارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاء لأدركوا هوانهم على الله وعلى هذا الوجود كله . ولأدركوا أنهم يعيشون في الكون منبوذين منه ، مقطوعين عنه ، لا تربطهم به آصرة ، وقد قطعت آصرة الإيمان .

وفي الصفحة المتقابلة مشهد النجاة والتكريم والاختيار :

« ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه كان عاليا من السرفين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » ..

ويذكر هنا نجاة بني إسرائيل من العذاب « المهين » في مقابل الهوان الذي انتهى إليه المتجبرون المتعالمون السرفون في التجبر والتعالي : « من فرعون إنه كان عاليا من السرفين » ..

ثم يذكر اختيار الله لبني إسرائيل - على علم - بحقيقتهم كلها ، خيرا وشرها . اختيارهم على العالمين في زمانهم بطبيعة الحال ، لما يعلمه الله من أنهم أفضل أهل زمانهم وأحقهم بالاختيار والاستخلاف ؛ على كل ما قصه عنهم بعد ذلك من تلكؤ ومن انحراف والتواء . مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره قد يكون لأفضل أهل زمانهم ؛ ولولم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالی ؛ إذا كانت فيهم قيادة تنجيه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة .

« وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » ..

فعرضوا للاختبار بهذه الآيات، التي آتاهم الله إياها للابتلاء . حتى إذا تم امتحانهم، وانقضت فترة استخلافهم ، أخذهم الله بانحرافهم والتوأهم ، وبنتيجة اختبارهم وابتلائهم ، فضربهم بنيرانهم في الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بقوا في الأرض إلى يوم الدين ..

\*\*\*

وبعد هذه الجولة في مصرع فرعون وملئه ، ونجاة موسى وقومه ، وابتلائهم بالآيات بعد فتنة فرعون وأخذة . . بعد هذه الجولة يعود إلى موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وشكهم فيها ، وإنكارهم لها . يعود ليربط بين قضية البعث وتصميم الوجود كله وبنائه على الحق والجد ، الذي يقتضى هذا البعث والنشور :

« إن هؤلاء ليقولون : إن هي إلا موتنا الأولى وما نحن بمتشرين . فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . أم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين . وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » ..

إن هؤلاء المشركين من العرب ليقولون : ما هي إلا الموتة التي نعوثها ، ثم لا حياة بعدها ولا نشور . ويسمونها « الأولى » بمعنى السابقة المتقدمة على الموعد الذي يوعدونه للبعث والنشور . ويستدلون على أنه ليس هناك إلا هذه الموتة وينتهي الأمر . يستدلون بأن آباءهم الذين ماتوا هذه الموتة ومضوا لم يعد منهم أحد ، ولم ينشر منهم أحد ؛ ويطلبون الإتيان بهم إن كان النشور حقا وصدقا .

وهم في هذا الطلب يفتلون عن حكمة البعث والنشور ؛ ولا يدركون أنها حلقة من حلقات النشأة البشرية ، ذات حكمة خاصة وهدف معين ، للجزاء على ما كان في الحلقة الأولى ، والوصول بالطائعين إلى النهاية الكريمة التي تؤهلهم لها خطواتهم المستقيمة في رحلة الحياة الدنيا ؛ والوصول بالمعصاة إلى النهاية الحقيرة التي تؤهلهم لها خطواتهم المتكسرة المرتكبة في الحياة المستندرة . . وتلك الحكمة تقتضى مجيء البعث والنشور بعد انقضاء مرحلة الأرض

كلها ؛ و منع أن يكون البعث لعبة تم حسب رغبة أو نزوة بشرية لفرد أو جماعة محدودة من البشر كي يصدقوا بالبعث والنشور ! وعم لا يكمل إيمانهم إلا أن يشهدوا بالغيب على هذه القصة ، التي يحرم بها الرسل ؛ ويقتصبا التدبر في طبيعة هذه الحياة ، وفي حكمة الله في خلقها على هذا الأساس . وهذا التدبر وحده يكفي للإيمان بالآخرة ، والتصديق بالنشور .

وقل أن يوجههم هنا إلى هذا التدبر في تصميم الكون ذاته ، يلمس قلوبهم لمسة عذبة بمصرع قوم تبع والتابعة من ملوك حمير في الجزيرة العربية . ولا بد أن القصة التي يشير إليها كانت معروفة للسامعين ، ومن ثم يشير إليها إشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ، وتحذيرها مصيرا كهذا المصير :

« أهم خير أم قوم تبع والدين من قبلهم أهلكتهم إنهم كانوا مجرمين » . .

وفي ظل هذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من صورها ، يقودهم إلى النظر في تصميم السماوات والأرض ، وتنسيق هذا الكون ؛ وما يبدو وراء هذا التنسيق من قصد وصدق وتديرة : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم » .

واللفتة لطيفة ، والمناسبة بين خلق السماوات والأرض وما بينهما وبين قضية البعث والنشور مناسبة دقيقة . ولكن الفطرة البشرية تدركها في سر حين توجه إليها مثل هذا التوجيه . والواقع أن تدبر ما في خلق السماوات والأرض من دقة وحكمة وقصد ظاهر وتنسيق ملحوظ ، وخلق كل شيء بمقدار لا يزيد ولا ينقص عن تحقيق الغاية من خلقه ، وتحقيق تناسقه مع كل شيء وحوله ، وظهور القصد في خلق كل شيء بالمقدر والشكل الذي خلق به ، وانتفاء المصادفة والبعث في أي جانب صغر أو كبر في تصميم هذه الخلائق الماثلة وما فيها من خلائق دقيقة لطيفة .

الواقع أن تدبر هذا كله يوقع في النفس أن لهذا الخلق غاية فلا عبث فيه ؛ وأنه قائم على الحق فلا باطل فيه . وأن له نهاية لم تأت بعد ، ولا تجيء بالموت ، بعد هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب . وأن أمر الآخرة ، وأمر الجزاء فيها حتم لا بد منه من الناحية المنطقية البحتة لهذا التصميم المقصود في بناء هذه الحياة وهذا الوجود . حتم تتحقق به النهاية الطبيعية للصالح



والفساد في هذه الحياة الدنيا. هذا الصلاح وهذا الفساد اللذان ركب الإنسان على أساس الاستعداد لهما؛ وظهور جهده هو وإرادته في اختيار أحدهما، وتلقى جراء هذا الاختيار في نهاية المطاف . وإن خلق الإنسان بهذا الاستعداد المزدوج ، ونفى العبث عن فعل الله سبحانه ، ليقضيان أن يكون لهذا الإنسان مصير معين ، ينتهي إليه بعد انتهاء رحلته الأرضية. وهذا هو صميم قضية الآخرة . ومن ثم يجيء بعد توجيه النظر إلى الحكمة والقصد في خلق السماوات والأرض . يجيء قوله تعالى :

« إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا ينفي مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم » ..

يجيء هذا القول طبيعيا ومرتبطا بما قبله كل الارتباط . فالحكمة تقتضى أن يكون هناك يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويحكم فيه بين الهدى والضلال ، ويكرم فيه الخير ويهان فيه الشر ، ويتجرد الناس من كل سند لهم في الأرض، ومن كل قربي وآصرة، ويعودون إلى خالقهم فرادى كما خلقهم ، يتلقون جزاء ما عملت أيديهم ، لا ينصرم أحد ، ولا يرحمهم أحد ، إلا من ينال رحمة ربه العزيز القادر الرحيم المطوف . الذي خرجوا من يده - سبحانه - ليصنعوا ؛ وعادوا إلى يده - سبحانه - ليتسلموا منه الجزاء . وما بين خروجهم ورجوعهم إنما هو فرصة للملوع مجال للابتلاء .

هكذا تختص الحكمة الظاهرة في تصميم هذا الكون، وفي خلق السماوات والأرض وما بينها بالحق ، وفي التقدير الواضح والقصد الناطق في كل شيء، في هذا الوجود ..



وبعد تحرير هذا اللبدا يمرض عليهم مشهدا من مشاهد يوم الفصل ؛ وما ينتهي إليه العصاة والطائون من عذاب ومن نعيم . مشهدا عنيقا يتناسق مع ظلال السورة وجوها الضيف :

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل ينزل في البطون كغلي الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم : ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون .

« إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا للموتة الأولى ووقام عذاب الجحيم . فضلا من ربك . ذلك هو الفوز العظيم » ..

ويبدأ المشهد بعرض لشجرة الزقوم، بهاء، تقرير أنها طعام الأثيم. عرض مفزع مرعب مخيف ..  
إن هذا الطعام مثل دردى الزيت المغلى - وهو المهل - يغلى في البطون كغلى اللحم. وهناك هذا  
الأثيم . هذا المتعالى على ربه وعلى الرسول الأمين . وهذا هو الأمر العالى يصدر إلى الزبانية  
ليأخذوه فى عنف يليق بمقامه « الكريم ا » :

« خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم » ..  
خذوه أخذا واعتلوه عتلا ، وشدوه فى إهانة وجفوة فلا كرامة ولا هوادة . وهناك صبوا  
فوق رأسه من ذلك اللحم المغلى الذى يشوى ويكوى. ومع الشد والجذب والدفع والعتل والسكى  
والسكى .. التأنيب والترذيل :

« ذق . إنك أنت العزيز الكريم » .

وهذا جزاء العزيز الكريم فى غير ما عزة ولا كرامة، فقد كان ذلك على الله وعلى المرسلين!  
« إن هذا ما كنتم به تمترون » ..

فقد كنتم تشكون فى هذا اليوم كما كنتم تسخرون وتستهزئون !

وبينما الأخذ والعتل ، والصب والسكى، والتأنيب والحزى .. فى جانب من جوانب الساحة ..  
يمتد البصر - بعين الحيال - إلى الجانب الآخر . فإذا « المتقون » الذين كانوا يخشون هذا اليوم  
ومخافون . إذا هم : « فى مقام أمين » .. لا خوف فيه ولا فزع ، ولا شد فيه ولا جذب، ولا عتل  
فيه ولا صب ! بل هم منعمون راقلون « فى جنات وعيون » .. يلبسون من سندس - وهو الحرير  
الرقيق - ومن إستبرق - وهو الحرير السميك - ويجلسون متقابلين فى مجالسهم يسكرون . كل  
ذلك ومثله تزويجهم بحور عين ، يتم بهن النعيم . وهم فى الجنة أصحاب الدار ، يطلبون ما يشاءون  
و « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » .. لا يتوقعون نهاية لهذا النعيم ، فلاموت هنالك وقد ذاقوا  
الموتة الأولى ، وغيرها لا يذوقون .. ( وذلك فى مقابل ما كان المشركون يقولون : « إن هى  
إلاموتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » .. فنعلم إنها الموتة الأولى ولكن وراءها الجحيم والنعيم ) .  
« ووقاهم عذاب الجحيم » .. تفضلا منه سبحانه . فالنجاة من المذاب لا تكون إلا بفضله  
ورحمته : « فضلا من ربك . ذلك هو الفوز العظيم » .. وأى فوز عظيم ؟ !

\*\*\*

وفي ظل هذا الشهد النيف العميق المؤثر بجانبه تختم السورة بالتذكير بعمدة الرساله  
والتخويف من عاقبة التكذيب :

« فإما يسرناه بلسانك لهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون » ..

وهو ختام يلخص جو السورة وظلها . ويتناسق مع بدئها وخط سيرها . فقد بدأت بذكر  
الكتاب وتزييله للإندار والتذكير ، وورد في سياقها ما ينتظر المكذابين . « يوم نبطس البطشه  
الكبرى إنا منتقمون » .. فجاء هذا الختام يذكرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن على لسان  
الرسول العربي الذي يفهمونه ويدركون معانيه . ويخوفهم العاقبة والمصير ، في أمير ما قوف .  
ولكنه مخيف : « فارتقب إنهم مرتقبون » ..

**سُورَةُ الْجَاثِيَةِ مَكِّيَّةٌ**  
وآياتها ٣٧

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

« لَمْ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ \* وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ \* وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ؟ \* وَبِئْسَ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ \* يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يُصِرُّ مُنْكَرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا حُزُونًا ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ \* مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ \* هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ .

« اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ \* مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .  
 « وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ،  
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ \* وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ تَعَدٍّ  
 مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ، بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ  
 يَخْتَلِفُونَ \* ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ  
 لَا يَعْلَمُونَ \* إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ،  
 وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ \* هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .  
 « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ؟ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ! \* وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ؛  
 وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .  
 « أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ، وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ،  
 وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً : فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » (١٤)

هذه السورة المكية تصور جانبا من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم في  
 مواجهة حججها وآياتها ، وتمتمهم في مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعا كاملا في  
 غير ما تخرج من حق واضح أو برهان ذي سلطان . كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم  
 الجامحة الشاردة مع الهوى ، المنفلقة دون الهدى؛ وهو يهتد بها بآيات الله القاطعة العميقة التأثير  
 والدلالة ، ويذكركم عذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية  
 في هذا الوجود .

ومن خلال آيات السورة وتصورها للقوم الذين واجهوا الدعوة في مكة ، نرى فريقا من  
 الناس مصرا على الضلالة ، مكابرا في الحق ، شديد العناد ، سيء الأدب في حق الله وحق كلامه ،  
 ترصمه هذه الآيات ؛ وتواجهه بما يستحقه من الرذيل والتحذير والتهديد بمذاب الله المهين  
 الأليم العظيم :

## سورة الجاثية

« وين لكل أفلاك أثيم . يسمع آيات الله تلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين . من وراءهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء . ولهم عذاب عظيم » ..  
 ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب سيئ التصور والتقدير ؛ لا يقيمون وزنا لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات . والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقا أصيلا في ميزان الله بين الفريقين ، ويقرر سوء حكمهم وسوء تصورهم للأمر ؛ وقيام الأمر في ميزان الله على المدل الأصيل في صلب الوجود كله منذ بدء الخلق والتكوين :

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء بحيام ومخاتمهم ؟ ساء ما يحكمون ! وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولنجزى كل نفس بما كسبت ، وهم لا يظلمون » ..

ونرى فريقا من الناس لا يعرف حكما يرجع إليه إلا هو ، فهو إله الذي يتعبده ، ويطيع كل ما يراه . نرى هذا الفريق من الناس مصورا تصويرا فذا في هذه الآية ؛ وهو يعجب من أمره ويشهر بفقلته وعماه :

« أفرايت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

ونرى هذا الفريق من الناس ينكر أمر الآخرة ، ويشك كل الشك في قضية البعث والحساب ، ويتعنت في الإنكار وفي طلب البرهان بما لا سبيل إليه في هذه الأرض . والقرآن يوجه هذا الفريق إلى الدلائل القاطعة الحاضرة على صدق هذه القضية ، وهم عنها معرضون :

« وقالوا : ما هي إلهياتنا الدنيا نوت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر . وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجهم إلا أن قالوا : اتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ومجوز أن يكون هؤلاء جميعا فريقا واحدا من الناس يصدر منه هذا وذلك ، ويصفه القرآن في السورة هنا وهناك . كما يجوز أن يكونوا فرقا متعددة ممن واجهوا الدعوة في مكة . بما في

ذلك بعض أهل الكتاب ، وقليل منهم كان في مكة. ويجوز أن تكون هذه إشارة عن هذا التزيق ليعتبر بها أهل مكة دون أن يقتضى هذا وجوده في مكة بالذات في ذلك الحين .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم في هذه السورة ذلك الحديث .. كذلك واجههم بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ، وحدثهم حساب يوم القيامة ، وبصرهم بما جرى لمن قبلهم عن انحرفوا عن دين الله القويم .

واجههم بآيات الله في هذا الأسلوب البسيط المؤثر العميق :

« إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق . فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟ » ..

وواجههم بها مرة أخرى في صورة نعم من أنعم الله عليهم يغفلون عن تذكورها وتدبرها :

« الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

كذلك واجههم بحالهم يوم القيامة الذي ينكرونه أو يمارون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ ينخر البطلون . ونرى كل أمة جانبية كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فدخلهم ربهم في رحمته . ذلك هو الفوز المبين . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم : ماندرى ما الساعة ، إن نظن إلاظنا ، وما نحن بمستيقنين . وبدا لهم سيئات ما عملوا ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . وقيل : اليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين : ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون » ..

كذلك لم يدع أى لبس أو شك في عدالة الجزاء وفردية التبعة ؛ وبين أن هذا الأصل عميق في تكوين الوجود كله ، وعليه يقوم هذا الوجود . ذلك حين يقول :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فلها ، ثم إلى ربكم ترجعون » ..

وحين يرد على من يحسبون وهم يجترحون السيئات أنهم عند الله كالمؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فيقول :

## سورة الجاثية

« وخلق الله السماوات والأرض بالحق ، ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون... »

\*\*\*

والسورة كلها وحدة في علاج موضوعها ؛ ولكننا قسمناها إلى درسين اثنين لتيسير عرضها وتفصيلها .

وهي تبدأ بالأحرف المقطعة : « حا . ميم » . والإشارة إلى القرآن الكريم : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .. وتختتم بحمد الله وربوبيته المطلقة ، وتمجيده وتمظيمه ، إزاء أولئك الذين يفتلون عن آياته ويستهزئون بها ويستكبرون عنها : « فله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .. ويسير سياق السورة في عرض موضوعها في يسر وهوادة وإيضاح هادىء ، وبيان دقيق عميق . على غير ما يسير سياق سورة الدخان قبلها في إيقاع عنيف كأنه مطارق تفرع القلوب . والله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالفرع والطرق . وتارة باللس الناعم الرقيق ، وتارة بالبيان الهادىء الرقيق . حسب تنوعها هي واختلافها . وحسب تنوع حالاتها ومواقفها في ذاتها . وهو اللطيف الخبير . وهو العزيز الحكيم ..  
والآن نأخذ في التفصيل ..

\*\*\*

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » ..  
يذكر الحرفين : « حا . ميم » ويذكر بعدهما تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . وفيها دلالة على مصدر الكتاب ، كما أسلفنا الحديث عن الأحرف للقطعة في أوائل السور . من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف ، وهم لا يقدرّون على شيء منه ، فهذه دلالة قائمة على أن تنزيل هذا الكتاب من الله . « العزيز » القادر الذي لا يسجزه شيء . « الحكيم » الذي يخلق كل شيء بقدر ، ويمضى كل أمر بحكمة . وهو تعقيب يناسب جو السورة وما تعرض له من ألوان النفوس .

وقبل أن يمرض للقوم وموقفهم من هذا الكتاب ، يشير إلى آيات الله للبشوة في الكون



من حولهم . وقد كانت وحدها كفيلاً بتوجيههم إلى الإيمان . ويوجه قلوبهم إليها لعلها توقظها وتفتح مغالقتها ، وتستجيش فيها الحساسية بالله منزل هذا الكتاب ، وخالق هذا الكون العظيم :  
« إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين » ..

والآيات البتوة في السماوات والأرض لا تقتصر على شيء دون شيء ، ولا حال دون حال .  
فحينما مد الإنسان بصره وجد آيات الله تطالعه في هذا الكون العجيب . .  
وأى شيء ليس آية ؟

هذه السماوات بأجرامها الضخمة ، وأفلاكها الهائلة ، وهي - على ضخامتها - مبعثرة كالنثر الصغير في الفضاء .. الفضاء الهائل الرهيب .. الجميل .. !  
ودورة هذه الأجرام في أفلاكها في دقة واطراد وتناسق .. تناسق جميل لا تشع العين من النظر إليه ، ولا يشبع القلب من تليه !

وهذه الأرض الواسعة العريضة بالقياس إلى البشر . وهي ذرة . أو هباءة بالقياس إلى النجوم الكبيرة . ثم بالقياس إلى هذا الفضاء الذي تتوه فيه .. تتوه لولا القدرة التي عمك بها وتنظمها في المقادير الكونية الذي لا يتوه شيء فيه !

وما أودعه الله طبيعة هذه الأرض في موقعها الكوني الخاص من صلاحية لنشوء الحياة فوقها ، ومن خصائص دقيقة مقصودة متراكبة متجمعة متناسقة . لو اختلفت خصيصة واحدة منها أو تخلفت ما أمكن أن تقوم فيها الحياة أو ندوم (١) .

وكل شيء في هذه الأرض وكل حي .. آية .. وكل جزء من كل شيء ومن كل حي في هذه الأرض .. آية .. والصغير الدقيق كالضخم الكبير .. آية .. هذه الورقة الصغيرة في هذه الشجرة الضخمة أو النبتة الهزيلة .. آية .. آية في شكلها وحجمها ، آية في لونها وملسها . آية في وظيفتها وتركيبها . وهذه الشجرة في جسم الحيوان أو الإنسان .. آية .. آية في خصائصها ولونها وحجمها . وهذه الريشة في جناح الطائر .. آية .. آية في مادتها وتنسيقها ووظيفتها . وحينما مد الإنسان بصره في الأرض أو في السماء تراحم الآيات وتراكبت ، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره .

ولكن لمن ؟ لمن تظن هذه الآيات عن نفسها ؟ من الذي يراها ويستشعرها ؟  
« قوم يؤمنون » ..

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » ص ١٢ - ١٥ جزء ١٩ من الظلال .

## سورة الجاثية

فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقى الأصداء والأضواء والأنداء؛ والإحساس بما فيها من آيات الله الماثورة في الأرض والسماء. والإيمان هو الذي تخالط القلوب بشاشته فتتحيا وترق وتلطف؛ وتلتقط ما يندخر به الكون من إحياءات خفية وظاهرة، تشير كلها إلى اليد الصانعة، وطابعها المبر في كل ما تصوغه وتبدعه من أشياء ومن أحياء. وكل ما خرج من هذه اليد فهو خارق معجز لا يقدر على إبداعه أحد من خلق الله.

ثم ينتقل بهم السياق من آفاق الكون إلى ذوات أنفسهم؛ وهي أقرب إليهم، وهم بها أكثر حساسية:

« وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون » ..

وخلق هذا الإنسان بهذا التكوين العجيب، وبهذه الخصائص الفريدة، وبهذه الوظائف اللطيفة الدقيقة المتنوعة الكثيرة. خارقة. خارقة نسيانها لطول تكرارها، ولقربها منا! ولكن التركيب العضوي لجارحة واحدة من جوارح هذا الإنسان مسألة تدير الرأس عجا ودهشة واستهوا لا لهذا التركيب العجيب!

إن الحياة في أبسط صورها معجزة. في الإميا ذات الحلية الواحدة. وفيها هو أصغر من الإميا! فكيف بها في هذا الإنسان الشديد التركيب والتعقيد؟ وهو في تركيبه النفسى أشد تركبا وتمقدا من تركيبه العضوى!

وحوله تلك الخلائق التي تدب على الأرض أنواعا وأجناسا، وأشكالا وأحجاما، لا يحصيها إلا الله. وأصغرها كأكبرها معجز في خلقه. معجز في تصريفه. معجز في تناسب حيواته على هذه الأرض، بحيث لا يزيد جنس عن حدود معينة، تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفناء. واليد المسكة بزمام الأنواع والأجناس تزيد فيها وتنقص بحكمة وتقدير؛ وتركب في كل منها من الخصائص والقوى والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعا ..

النور جارحة ضارية وعمرها مديد. ولكنها في معابل هذا نزره قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى المصافير والزرارير .. ولنا ن تصور كيف كان الأمر يكون لو كان للنور نسل المصافير؟ وكيف كانت تقضى على جميع الطيور! والأسود كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضارية. فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاء؟

إنها ما كانت تبقى على لحم في الغابة ولا غذاء . . . ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب ، وتكثر من ذوات اللحوم من الطباء والشاء وما إليها لسبب معلوم . . . والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة مئات الألوف . . . وفي مقابل هذا لا تعيش إلا حوالي أسبوعين اثنين . فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابة الواحدة أشهراً أو سنين ؟ لكان الذباب يغطي الأجسام ويأكل العيون ! ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير دقيق محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف .

وهكذا وهكذا . في الخلق ذاته . وفي خصائصه . وفي تدبيره وتقديره . في عالم الناس ، وعالم الدواب . . . في هذا كله آيات . آيات ناطقة . ولكن لمن ؟ من الذي يراها ويتدبرها ويدركها ؟ « لعمري يوقنون » . . .

واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كي تحس ، وكي تتأثر ، وكي تنيب . . . اليقين الذي يدع القلوب تفر وتثبت وتطمئن ؛ وتتلقى حقائق الكون في هدوء ، ويسر وثقة ، وفي راحة من القلق والحيرة والزعزعة . فتصوغ من أقل ما تحصل ، أكبر النتائج وأعظم الآثار في هذا الوجود ثم ينتقل بهم من ذوات أنفسهم وحركة الأحياء حولهم ، إلى الظواهر الكونية ، وما ينشأ عنها من أسباب الحياة لهم وللأحياء جميعاً :

« واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح ، آيات لقوم يعقلون » . . .

واختلاف الليل والنهار ظاهرتان قد يُخلق جدتهما في نفوس البشر التكرار ! ولكن أية عجيبة تطالع الحس البشري وهو يواجه الليل أول مرة أو يواجه النهار ؟ إن القلب الشاعر التفتح يرى هذه العجيبة دائماً ، وينتفض لها دائماً ؛ ويرى يد الله التي تدير الكون كله كلما رأى الليل والنهار .

وتنمو معارف البشر ، ويتسع علمهم عن بعض الظواهر الكونية ، ويعرفون أن الليل والنهار ظاهرتان تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة في كل أربع وعشرين ساعة . ولكن العجيبة لا تنقص شيئاً بهذه المعرفة . فإن دورة الأرض هذه عجيبة أخرى . دورة هذا الجرم حول نفسه بهذه السرعة المنتظمة ، وهو عائم في الهواء ، ساجح في الفضاء ، غير مستند إلى شيء إلا إلى القدرة التي تمسك به وتديره كما شاءت بهذا النظام الذي لا يتخلف ، وبهذا القدر الذي يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب الساجح السارح الدائر في الفضاء !

## سورة الجاثية

ويتوسع البشر في علمهم فيدركون أهمية هاتين الظاهرتين على سطح الأرض بالقياس إلى الحياة والأحياء ؛ ويعرفون أن تقسيم الأوقات بين الليل والنهار بهذه النسبة على سطح هذا الكوكب عامل رئيسي لوجود الحياة وبقاء الأحياء ؛ وأنه لو لم توجد هاتان الظاهرتان بهذا القدر وعلى هذا النظام لتغير كل شيء على هذه الأرض . وبخاصة تلك الحياة الإنسانية التي تخص المخاطبين . من الأحياء ! ومن ثم رداد هاتان الظاهرتان أهمية في الحس البشري ولا نقصان !

« وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » . .

والرزق قد يكون المقصود به هو الماء النازل من السماء . كما فهم منه القدماء . ولكن رزق السماء أوسع . فهذه الأشعة التي تنزل من السماء ليست أقل أثرا في إحياء الأرض من الماء . بل إنها هي التي يدشأ عنها الماء بإذن الله . فحرارة الشمس هي التي تبخر الماء من البحار ، فتسكثف وتنزل أمطارا ، وتجري عيوننا وأنهارا ؛ وتحيا بها الأرض بعد موتها . تحيا بالماء وتحيا بالحرارة والضياء سواء !

« وتصريف الرياح » . .

وهي تغطي شمالا وجنوبا ، وشرقا وغربا ، منحرفة ومبتغية ، دافئة وباردة ، وفق النظام الدقيق المنسوق المقصود في نسجم هذا الكون العجيب ؛ وحساب كل شيء فيه حسابا دقيقا لا يترك شيئا للمصادفة العمياء . . وتصريف الرياح علاقة معروفة بدورة الأرض ، وبظاهرتي الليل والنهار ، وبالرزق الذي ينزل من السماء . وكما يتعارن في تحقيق مشيئة الله في خلق هذا الكون ، وتصريفه كما أراد . وفيها « آيات » معروضة في الكون . ولكن لن ؟

« لقوم يعقلون » . .

فللعمق هنا عمل ، وله في هذا الميدان مجال .

\*\*\*

هذه بعض آيات الله الكونية ، يشير إليها هذه الإشارات الموحية للمؤمنين . الذين يوقنون والذين يعقلون . يشير إليها بآيات الله القرآنية ، فتلس القلوب ، وتوقظ العقول ، وتخطب الفطر بلغتها المباشرة ، بما بينها وبين هذا الكون من صلة عميقة باطنة ، لا يحتاج إيقاظها إلا إلى كلمات موحية كآيات هذا القرآن . فمن لم يؤمن بهذه الآيات فلا رجاء في أن يؤمن بسواها ؛ ومن لم توقظه هذه الإشارات الموحية فلن توقظه الصرخات من غير هذا الصوت المستجاب :

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن . وإن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون . وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين . « فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ » . .

وهنا لا يلبق بمن لا يؤمن إلا التهديد والتكليم :

« ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها . فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مبین . من وراءهم جهنم ، ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولأما اتخذوا من دون الله أولياء . ولهم عذاب عظيم » ..

وتصور هذه الآيات - كما أسلفنا في تقديم السورة - جانباً من استقبال الشركين لهذه الدعوة في مكة ، وإصرارهم على باطلهم ، واستكبارهم عن سماع كلمة الحق اليبين ، ومكابرتهم في هذا الحق كأنه لم يطرق أذهانهم ، وسوء أدبهم مع الله وكلامه .. ومقابلة القرآن لهذا كله بالترذيل والتقيح والتهديد والوعيد ، والتلويح بالعذاب الأليم المهين العظيم .

« ويل لكل أفاك أثيم » ..

والويل الهلاك . والأفاك الكذاب المارد على الكذب . والأثيم الكثير المقارفة للأثم . والتهديد شامل لكل من هذه صفته . وهو تهديد صادر من الله القوي القاهر الجبار ، القادر على الهلاك والدمار . الصادق الوعد والوعيد والإنذار . فهو تهديد رعب مفرع مرهوب .

هذا الأفاك الأثيم . آية إفك وعلامة إثم ، أنه يصر على الباطل ويستكبر على الحق ويتعالى عن الخضوع لآيات الله ، ولا يتأدب بالأدب اللائق مع الله :

« يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها » ..

وهذه الصورة البغيضة ولو أنها صورة فريق من المشركين في مكة ، إلا أنها تكرر في كل جاهلية ، وتكرر اليوم وغدا . فكف في الأرض ، وبين من يقال إنهم مسلمون ، من يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ؛ لأنها لا توافق هواه ، ولا تسير مع مألوفه ، ولا تعاونه على باطله ، ولا تقره على شره ، ولا تمشى له مع اتجاه !

« فبشره بعذاب أليم » ..

والبشارة للخير . فهي هنا للسخرية . فإذا كان لا يسمع النذير ، فليأته الويل المنظور ، في صوت البشير ! زيادة في السخرية والتحقير !

« وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا » ..

بعد أن يعلمها ويعرف مصدرها . وهذه أشد وأنكى . وهي صورة كذلك مكرورة في الجاهليات الأولى والأخيرة . وكف من الناس . وبين من يقال إنهم مسلمون . من يستهزئ بآيات الله التي يعلمها ، ويتخذها مادة للسخرية منها ومن يؤمنون بها ؛ ومن يريدون أن يرجعوا أمر الناس والحياة إليها .

« أولئك لهم عذاب مهين .. »

المهانة هي الجزاء المناسب لمن يستهزئ بآيات الله وهو يعلمها .

وهو عذاب حاضر قريب ؛ وإن كان مواعده آتيا بعد حين . ولكنه في حقيقته قائم موجود :

« من ورأهم جهنم .. »

ولفظ « من ورأهم » متصودة نللاله فوق معناه . وظلاله .. أنهم لا يرونه لأنه من ورأهم

ولا يتقونه لأنهم في غفلة عنه ؛ ولا يفوتهم فهم سيقعون فيه !

« ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء .. »

فليس شيء مما عملوا أو ملكوا بنافعهم شيئا ، فعملهم - ولو صلح - هباء لا يقدر على

شيء منه ، وهو قائم على غير أساس من إيمان . وملكهم زائل لا يصاحبهم منه شيء فيه غناء .

وأولياؤهم من دون الله - آلهة أو أعوانا وجندا أو خلانا - لا يملكون لهم نصرا ولا شفاعة .

« ولهم عذاب عظيم .. »

فوق أنه مهين . لجرمهم في الاستهزاء بآيات الله قبيح يقتضى المهانة ، جسم يقتضى

جسامة التعذيب ..

ويتهى هذا المقطع ، الذى ورد فيه ذكر الاستهزاء بآيات الله ، والصد عنها والاستكبار ،

بكلمة عن حقيقة هذه الآيات ؛ وجزاء من يكفر بهذه الحقيقة فى إجمال :

« هذا هدى . والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم .. »

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى . هدى خالص مصفى . هدى محض لا يشوبه ضلال .

فالذى يكفر بعد ذلك بالآيات ، وهذه حقيقتها ، يستحق ألم العذاب . الذى يمثله توكيد معنى

الشدة والإيلام . فالرجز هو العذاب الشديد . والعذاب الذى يهددون به هو عذاب من رجز

أليم .. تكرار بعد تكرار . وتوكيد بعد توكيد . يلىق بمن يكفر بالهدى الخالص المحض الصريح .

\*\*\*

وبعد التهديد الخفيف ، والوعيد الرعب ، يعود فىلس قلوبهم لسا رقيقا ، بالتذكير بأنعم

الله التى سخرها لهم فى هذا الكون العريض :

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

وسخر لكم مافى السماوات ومافى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يفكرون .. »

إن هذا المخلوق الصغير .. الإنسان .. يحظى من رعاية الله - سبحانه - بالقسط الوافر ،

الذى يتبع له أن يسخر الخلائق الكونية الهائلة ، وينتفع بها على شق الوجوه . وذلك بالاهتداء

## الجزء الخامس والعشرون

إلى طرف من سر الناموس الإلهي الذي يحكمها ، والذي تسير وفقه ولا تعصاه . ولولا هذا الاهتداء إلى طرف السر ما استطاع الإنسان بقوته الهزيلة المحدودة أن ينتفع بشيء ، من قوى الكون الهائلة ؛ بل ما استطاع أن يعيش معها ؛ وهو هذا القزم الصغير ، وهي هذه المردة الجيابة من القوى والطاقات والأحجام والأجرام .

والبحر أحد هذه الجيابة الضخام التي سخرها الله للإنسان ، فهداه إلى شيء من سر تكوينها وخصائصها ؛ عرف منه هذه الفلك التي تمخر هذا الخلق الهائل ، وهي تطفو على ثبج أمواجه الجيابة ولا تخشاها ؛ « لتجرى الفلك فيه بأمره » . . فهو - سبحانه - الذي خلق البحر بهذه الخصائص ، وخلق مادة الفلك بهذه الخصائص ، وجعل خصائص الضغط الجوي ، وسرعة الرياح وجاذبية الأرض . . . وسائر الخصائص الكونية الأخرى مساعدة على أن تجرى الفلك في البحر . وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به ، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواح أخرى : « ولتبتغوا من فضله » كالصيد للطعام وللزينة ، وكذلك التجارة والمعرفة والتجربة والرياضة والترهة ؛ وسائر ما يبتغيه الحي من فضل الله في البحار .

سخر الله للإنسان البحر والفلك ، ليبتغى من فضل الله ؛ وليتجه إليه بالشكر على التفضل والإنعام ، وعلى التسخير والاهتداء : « ولعلكم تشكرون » . . وهو يوجه قلبه بهذا القرآن إلى الوفاء بهذا الحق ، وإلى الارتباط بذلك الأفق ، وإلى إدراك ما بينه وبين الكون من وحدة في المصدر ووحدة في الاتجاه . . إلى الله . .

ومن تخصيص البحر بالذكر إلى التعميم والشمول . فلقد سخر الله لهذا الإنسان مافي السماوات ومافي الأرض ، من قوى وطاقات ونعم وخيرات - مما يصلح له ويدخل في دائرة خلافة - :

« وسخر لكم مافي السماوات ومافي الأرض جميعا منه » . .

فكل شيء في هذا الوجود منه وإليه ؛ وهو منشئه ومدبره ؛ وهو مسخره أو مسلطة . وهذا المخلوق الصغير . . الإنسان . . مزود من الله بالاستعداد لمعرفة طرف من النواميس الكونية . يسخر به قوى في هذا الكون وطاقات تفوق قوته وطاقته بما لا يقاس ؛ وكل ذلك من فضل الله عليه . وفي كل ذلك آيات لمن يفكر ويتدبر ، ويتبع بقلبه وعقله لمسات اليد الصائفة المدبرة المصرفة لهذه القوى والطاقات :

« إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون » . .

والفكر لا يكون صحيحا وعميقا وشاملا ، إلا حين يتجاوز القوى والطاقات التي يكشف

## سورة الجاثية

سرهما . إلى مصدر هذه القوى والطاقات ؛ وإلى النواميس التي تحكمها ؛ وإلى الصلة بين هذه النواميس وفضرة الإنسان . هذه العلة التي تيسر للإنسان الاتصال بها وإدراكها . ولولاها ما اتصل ولا أدرك . ولا عرف ولا تمكن ، ولا سخر ولا انتفع بشيء من هذه القوى والطاقات . . .

\*\*\*

وحيث يبلغ سياق السورة إلى هذا المقطع القوى الذي يصل قلب المؤمن بقلب هذا الوجود . ويشعره بمصدر القوة الحقيقي وهو الامتداد إلى أسرار هذا الوجود . . . عند هذا يدعو المؤمنين إلى الترفع والاستعلاء وسعة الأفق ورحابة الصدر في مواجهة الضعاف العاجزين الذين لا تصل قلوبهم بذلك المصدر التري الفنى . كما يدعوهم إلى شيء من العطف على هؤلاء الساكنين المحجوبين عن الحقائق الميرة القوية العظيمة ؛ من الذين لا يتطلعون إلى أيام الله ، التي يظهر فيها عظمتهم وأسراهم ونواميسه :

« قل للذين آمنوا يَغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوما بما كانوا يكسبون . من عمل صالحا فلنفسه . ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . . .

فهو توجيه كريم للذين آمنوا ليتسامحوا مع الذين لا يرجون أيام الله . تسامح المغفرة والعمو . وتسامح القوة والاستعلاء . وتسامح الكبر والارتفاع . والواقع أن الذين لا يرجون أيام الله مساكن يتحققون العطف أحيانا بحرمانهم من ذلك النبع الفياض ، الذي يزخر بالنداوة والرحمة والقوة والثراء . نبع الإيمان بالله ، والطمأنينة إليه ، والاحتفاء بركنه ، واللجوء إليه في ساعات الكربة والضيق . وحرمانهم كذلك من المعرفة الحقيقية المتصلة بصميم النواميس الكونية وماوراءها من القوى والثروات . والمؤمنون الذين يملكون كنز الإيمان وذخره ، ويتمتعون برحمته وفيضه أولى بالمغفرة لما يبدو من أولئك المحرومين من نزوات وحماقات .

هذا من جانب . ومن الجانب الآخر ، لترك هؤلاء المؤمنون الأمر كله لله يتولى جزاء المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته . ويحسب لهم العفو والمغفرة عن المساءة في سجل الحسنات . ذلك فيما لا يظهر الفساد في الأرض ، ويعتدى على حدود الله وجرماته بطبيعة الحال :

« ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » . . .

ويعقب على هذا بفرديّة التبعة ، وعدالة الجزاء ، وتوكيد الرجوع إلى الله وحده في نهاية

المطاف :

« من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » . . .



بذلك يتسع صدر المؤمن ، ويرتفع شعوره ؛ ويحتمل المساءات الفردية والزوات الخقاء من المحجوبين المطموسين ، في غير ضعف . وفي غير ضيق . فهو أكبر وأفسح وأقوى . وهو حامل مشعل الهدى للمحرومين من النور ، وحامل بلسم الشفاء للمحرومين من التبع . وهو مجزى بعمله ، لا يصيبه من وزر الميء شيء . والأمر لله في النهاية ، وإليه المرجع والمآب .

\*\*\*

بعد ذلك يتحدث عن القيادة المؤمنة للبشرية، وترتكز هذه القيادة أخيراً في الرسالة الإسلامية؛ فيشير إلى اختلاف بني إسرائيل في كتابهم ، بعد ما آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة . وانتهت زاية القيادة والحكم إلى صاحب الدعوة الأخيرة . هذا وهو بعد في مكة . والدعوة بعد مطاردة محاصرة . ولكن طبيعتها هي منذ نشأتها ، ومهمها هي مهمتها :

« ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » . .

كانت القيادة - قبل الإسلام - لبني إسرائيل . كانوا هم أصحاب عقيدة السماء التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ . ولا بد للبشر من قيادة مستمدة من السماء . فالأرض قيادتها هوى أوجهل أو قصور . والله خالق البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلمهم عباده ، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

« ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » . .

فكان فيهم التوراة شريعة الله . وكان فيهم الحكم لإقامة الشريعة . وكان فيهم النبوة بعد رسالة موسى وكتابه للقيام على الشريعة والكتاب . وكثر فيهم الأنبياء وتابعتهم فترة طويلة نسيا في التاريخ .

« ورزقناهم من الطيبات » . .

فكانت مملكتهم ونبواتهم في الأرض المقدسة، الطيبة، الكثيرة الخيرات بين النيل والفرات .

« وفضلناهم على العالمين » . .

وكان تفضيلهم على أهل زمانهم بطبيعة الحال ؛ وكان مظهر هذا التفضيل الأول اختيارهم للقيادة بشريعة الله ؛ وإيتاءهم الكتاب والحكم والنبوة :

« وآسأهم بينات من الأمر » . . .

وكان ما أوردوه من الشريعة بيانا حاسما فاصلا . لا غموض فيه ولا لبس ولا عوج ولا انحراف؛ فلم يكن هناك ما يدعو إلى الاختلاف في هذا السرع البين كما وقع منهم؛ وما كان هذا عن غموض في الأمر، ولا كان عن جهل منهم بالصحيح من الحكم:

« فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » . . .

إنما كان ذلك عن نحاسد بينهم، ونزاع وظلم، مع معرفة الحق والصواب:

« بغيا بينهم » . . .

وذلك انتهت قيادتهم في الأرض، وبطل استخلافهم، وأمرهم بعد ذلك إلى الله يوم القيامة:

« إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . .

ثم كتب الله الخلافة في الأرض لرسالة جديدة ورسول جديد، يرد إلى شريعة الله استقامتها، وإلى قيادة السماء نصاعتها؛ ويحكم شريعة الله لا أهواء البشر في هذه القيادة:

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر، فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » . . .

وهكذا يتمحض الأمر، فإما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون. وليس هناك من قرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة؛ وما يترك أحد شريعة الله إلا ليحكم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!

والله - سبحانه - يحذر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتبع أهواء الذين لا يعلمون، فهم لا يغنون عنه من الله شيئا. وهم يتولون بعضهم بعضا. وهم لا يملكون أن يضروه شيئا حين يتولى بعضهم بعضا، لأن الله هو مولاه:

« إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض. والله ولي المتقين » . . .

وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعين سبيل صاحب الدعوة وتحدده، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل:

« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون. إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين » . . .

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء. فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغفوا عنه من الله صاحب الشريعة. وهم إلب عليه فبعضهم ولي لبعض. وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة فلا

يحوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحاً عن الهوى الذى يربط بينهم بربهم . ولكنهم أضعف من أن يؤذوه . والله ولى المتقين . وأين ولاية من ولاية ؟ وأين ضعف حبال مهازيل يتولى بعضها امضا ؟ من صاحب شريعة يتولاه الله . ولى المتقين ؟

وتعقياً على هذا البيان الحاسم الجازم ، يتحدث عن اليقين . وعمما في هذا القول وأمثاله في القرآن من تبصرة وهدى ورحمة لأهل اليقين :

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » ..

ووصف القرآن بأنه بصائر للناس يعمق معنى الهداية فيه والإنارة . فهو بذاته بصائر كاشفة كما أن البصائر تكشف لأصحابها عن الأمور . وهو بذاته هدى . وهو بذاته رحمة .. ولكن هذا كله يتوقف على اليقين . يتوقف على الثقة التى لا تخامرها شك ، ولا مخالطها قلق . ولا تنسرب إليهارية . وحين يستيقن القلب ويستوثق يعرف طريقه ، فلا يتلجج ولا يتلعم ولا يخيد . وعندئذ يبدو له الطريق واضحاً ، والأفق منيراً . والغاية محددة ، والنهج مستقيماً . وعندئذ يصبح هذا القرآن له نورا وهدى ورحمة بهذا اليقين ..

\*\*\*

ويعقب على الحديث عن ولاية الظالمين بعضهم لبعض وولاية الله المتقين : وعن طبيعة هذا القرآن بالقياس إلى المتقين . وأنه بصائر وهدى ورحمة لأهل اليقين . يعقب على هذا الحديث بالفرقة الحاسمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات وهم مؤمنون . ويستنكر أن يسوى بينهم في الحكم ، وهم مختلفون في ميزان الله . والله قد أقام السماوات والأرض على أساس الحق والعدل ؛ والحق أصيل في تصميم هذا الكون .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات . سواء بحياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون . وخلق الله السماوات والأرض بالحق . ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » ..

ويحوز أن يكون الحديث هنا عن أهل الكتاب ، الذين انحرفوا عن كتابهم ، واجترحوا السيئات ، وظلوا يحسبون أنفسهم في صفوف المؤمنين ، ويجعلون أنفسهم أكفاء للمسلمين الذين يعملون الصالحات ، أنداداً لهم في تقدير الله سواء في الحياة أو بعد المات . أى عند الحساب والجزاء .. كما يحوز أن يكون حديثاً عاماً بقصد بيان قيم العباد في ميزان الله . ورجحان كفة المؤمنين أصحاب العمل الصالح ؛ واستنكار التسوية بين مجترحي السيئات وفاعلي الحسنات ، سواء في الحياة أو في المات . ومخالفة هذا للقاعدة الثابتة الأصلية في بناء الوجود كله . قاعدة الحق .

## سورة الجاثية

الذي يتمثل في بناء الكون ، كما يتمثل في شريعة الله . والذي يقوم به الكون كما تقوم به حياة الناس . والذي يتحقق في التفرقة بين السيئين والمصلحين في جميع الأحوال ؛ وفي مجازاة كل نفس بما كسبت من هدى أو ضلال ؛ وفي تحقيق العدل للناس أجمعين : « وهم لا يظلمون » .. ومعنى أصالة الحق في بناء الكون ، وارتباطه بشريعة الله للبشر، وحكمه عليهم يوم الحساب والجزاء . معنى يتكرر في القرآن الكريم ، لأنه أصل من أصول هذه العقيدة ، تجتمع عليه مسائلها التفرقة ، وترجع إليه في الأنفس والآفاق ، وفي ناموس الكون وشريعة البشر . وهو أساس « فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان »<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وإلى جوار هذا الأصل الثابت يشير إلى الهوى المتقلب . الهوى الذي يجعل منه بعضهم إلهًا يتعبده . فيضل ضلالًا لا اهتداء بعده ، والعياذ بالله :

« أفرايت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ؟ فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟ » ..

والتعبير القرآني المبدع يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب ؛ وحين تعبد هواها ، وتخضع له ، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها . وتقيمه إلهًا قاهرًا لها ، مستوليًا عليها ، تلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول . يرسم هذه الصورة ويمجد منها في استنكار شديد :

« أفرايت من اتخذ إلهه هواه ؟ » ..

أفرايته ؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجب ! وهو يستحق من الله أن يضله ، فلا يتداركه برحمة الهدى . فما أبقى في قلبه مكانًا للهدى وهو يتعبد هواه المريض !

« وأضله الله على علم » ..

على علم من الله باستحقاقه للضلالة . أو على علم منه بالحق ، لا يقوم لهواه ولا يصد عنه اتخاذها بطاع . وهذا يقتضى إضلال الله له والإملاء له في عماء :

« وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة » ..

فانطمت فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور ؛ وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى . وتمطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته المباداة والتسليم .

(١) بحث يرجو المؤلف أن يقدمه إن شاء الله .

« فمن يهديه من بعد الله : » . . .

والهدى هدى الله . وما من أحد يملك لأحد هدى أو ضلالة . فذلك من شأن الله ، الذى لا يشاركه فيه أحد . حتى رسله المختارون .

« أفلا تذكرون ؟ » . . .

ومن تذكرك صحا وتنبه ، وتخلص من ربة الهوى ، وعاد إلى النهج الثابت الواضح . الذى لا يضل سالكوه . . .

« وَقَالُوا : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ، وَمَا يُبَدِّلُكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ، وَمَا نَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَنْتُمْ بِآيَاتِنَا إِفْكُكُمْ صَادِقِينَ \* قُلْ : اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَبِاللَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَبِیَوْمِ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ \* وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ \* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَقَلَّمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ؟ \* وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ، قُلْتُمْ : مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ \* وَبَدَّ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ \* وَقِيلَ : الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ \* ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ، وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ، وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

« فَتَنَّا الْحَمْدُ ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ ، وَرَبُّ الْأَرْضِ ، رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَلَهُ الْكِبَرِيَّاتُ  
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » ﴿١٧﴾

هذا المقطع الأخير من السورة يعرض مقولة المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب .  
ويرد عليها من واقع نشأتهم الذي لا مجال لإنكاره ، وهو واقع قريب منهم . ثم يعرض مشهدا  
من مشاهد القيامة ، يروونه واقعا بهم - وإن كان لم يحن بعد مواعده - لأن التصوير القرآني  
يعرضه حيا شاحصا كأنهم يروونه رأى العين من خلال الكلمات .  
ثم يختم السورة بالحمد لله ، الواحد الربوبية في السموات وفي الأرض ولجميع العالمين في  
السموات والأرض . وتمجيد عظمته وكبريائه المنفردة في السموات والأرض ، لا ترتفع أمامها  
هامة ، ولا يتناول إليها متناول .. وهو العزيز الحكيم ..

\*\*\*

« وقالوا : ما هي إلهياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من  
علم ، إن هم إلا يظنون . وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا : اتوا بآياتنا  
إن كنتم صادقين . قل : الله يحكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . ولكن  
أكثر الناس لا يعلمون » .

هكذا كانوا ينظرون تلك النظرة القصيرة . الحياة في نظرهم هي هذا الشوط الذي يروونه  
في الدنيا رأى العين . جيل يموت وجيل يحيا ؛ وفي ظاهر الأمر لا تمتد إليهم يد بالموت ، إنما هي  
الأيام تضي ، والدهر ينطوي ، فإذا هم أموات ؛ فالدهر إذن هو الذي ينهي آجالهم ، ويلحق  
بأجسامهم الموت فيموتون !

وهي نظرة سطحية لا تتجاوز المظاهر ، ولا تبحث عما وراءها من أسرار . وإلا فمن أين  
جاءت إليهم الحياة ؛ وإذا جاءت فمن ذا يذهب بها عنهم ؟ والموت لا ينال الأجسام وفق نظام  
محدد وعدد من الأيام معين ، حتى يظنوا أن مرور الأيام هو الذي يسلبهم الحياة . فالأطفال  
يموتون كالشيوخ والأصحاء يموتون كالمرضى . والأقوياء يموتون كالضعاف . ولا يصلح الدهر  
إذن تفسيرا للموت عند من ينظر إلى الأمر نظرة فاحصة ، ويحاول أن يعرف ، وأن يدرك  
حقيقة الأسباب .

لهذا يقول الله عنهم بحق :

« وما لهم بذلك من علم . إن هم إلا يظنون » :

يظنون ظنا غامضا واهيا ، لا يقوم على تدبر ، ولا يستند إلى علم ، ولا يدل على إدراك لحقائق الأمور . ولا ينظرون إلى ما وراء ظاهرتي الحياة والموت من سر يشهد بإرادة أخرى غير إرادة الإنسان ، وبسبب آخر غير مرور الأيام .

« وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ، ما كان حجتهم إلا أن قالوا : اثبتوا بآياتنا إن كنتم صادقين » . . .

وهذه كتلك تدل على نظرة سطحية لا تدرك نواميس الخلق ، وحكمة الله فيها ، وسر الحياة والموت الكامن وراءها ، المتعلق بتلك الحكمة الإلهية العميقة . فالناس يحيون في هذه الأرض ليعطوا فرصة للعمل وليتسلمهم الله فيما مكنهم فيه . ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي أحياه الله ، فيحاسبوا على ما عملوا ، وتبين نتيجة الابتلاء في فترة الحياة . ومن ثم فهم لا يعودون إذا ماتوا . فليست هنالك حكمة تقتضي عودتهم قبل اليوم المعلوم . وهم لا يعودون لأن فريقا من البشر يقترحون هذا . فاقترحات البشر لا تتغير من أجلها النواميس الكبرى التي قام على أساسها الوجود ! ومن ثم فلابد لهذا الاقتراح الساذج الذي كانوا يواجهون به الآيات البينات : « اثبتوا بآياتنا إن كنتم صادقين » !

ولماذا يأتي الله بآياتهم قبل الموعد الذي قدره وفق حكمته العليا ؟ ألكي يقتنعوا بقدرة الله على إحياء الموتى ؟ يا عجباً ! أليس الله ينشئ الحياة أمام أعينهم إنشاء في كل لحظة ، وفق سنة إنشاء الحياة ؟

« قل الله يحكم ، ثم يحكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » . . .

هذه هي المعجزة التي يريدون أن يشهدوها في آياتهم . هاهي ذي تقع أمام أعينهم . بعينها وبذاتها . والله هو الذي يحيى . ثم هو الذي يميت . فلا عجب إذن في أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، ولا سبب يدعو إلى الريب في هذا الأمر ، الذي يشهدون نظائره فيما بين أيديهم : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

ويعقب على هذه الحقيقة الماثلة بالأصل الكلي الذي رجع إليه :

« والله ملك السماوات والأرض » . . .

فهو المهيمن على كل مافي الملك . وهو صانع كل شيء فيه . وهو القادر على الإنشاء والإعادة لكل مافيه وكل من فيه .

\*\*\*

## سورة الجاثية

ثم يعرض عليهم مشهداً من هذا اليوم الذي يشكون فيه :

« ويوم تقوم الساعة يومئذ ينخر المبتلون . وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها . اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . . .

إنه يجعل لهم في الآية الأولى عاقبة المبتلين . فهم الخاسرون في هذا اليوم الذي يشكون فيه . ثم ينظر من خلال الكلمات فإذا ساحة العرض الهائلة ، وقد تجمعت فيها الأجيال الحاشدة التي عمرت هذا الكوكب في عمره الطويل الفصير ! وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة . في ارتقاب الحساب المرهوب . . . وهو مشهد مرهوب بزحامه الهائل يوم تتجمع الأجيال كلها في صعيد واحد . ومرهوب بهيئته والكل جاثون على الركب . ومرهوب بما وراءه من حساب . ومرهوب قبل كل شيء . بالوقوف أمام الجبار القاهر ، والمنعم المتفضل ، الذي لم تشكر أنعمه ولم تعرف أفضاله من أكثر هؤلاء الواقفين !

ثم يقال للجموع الجاثية المتطلعة إلى كل لحظة بريق جاف ونفس مخنوق . يقال لها :

« اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق . إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » . . . فيعلمون أن لا شيء سينسى أو يضيع أو كيف وكل شيء مكتوب . وعلم الله لا يند عنه شيء ، ولا يغيب !

« ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة ، على مدى الأجيال واختلاف الأجناس فريقين اثنين . فريقين اثنين يجمعان كل هذه الحشود : الذين آمنوا . والذين كفروا . فهاتان هما الرابتان الوحيدتان عند الله وهذان هما الحزبان : حزب الله . وحزب الشيطان . وما عدا هذا من الملل والنحل والأجناس والأمم فإليهما يعود :

«فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فيدخلهم ربهم في رحمته . ذلك هو الفوز المبين» . . .

وقد استراحوا من طول الارتقاب ، ومن القلق والاضطراب . . . والنص ينهى أمرهم في سرعة وفي بساطة ، ليلقى هذا الظل المستطاب .

ثم نلقى بأبصارنا - من خلال الكلمات - إلى الفريق الآخر . فإذا نحن واجدون ؟ إنه التائب الطويل ، والتشهير المخجل ، وانذير بشر الأقوال والأعمال :

« وأما الذين كفروا . أفلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فاستكبرتم ، وكنتم قوما مجرمين ؟ وإذا قيل : إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها . قلتم : ما ندرى ما الساعة ! إن نظن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين » ا



## الجزء الخامس والعشرون

فالآن كيف ترون الحال ؟ ! وكيف تذوقون اليقين ؟ !  
ويتركهم السياق لحظة ليعلمن على الملأ شيئاً مما يقع لمؤلاء المنكوبين :  
« وبدا لهم سيئات ما عملوا ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون .. »  
ثم يعود إليهم بالترذيل والتأيب وإعلان الإهانة والتحقير ؛ والمصير الأليم :  
« وقيل : اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا . ومأواكم النار . وعالمكم من ناصرين  
ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ، وغررتم الحياة الدنيا .. »  
ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير . وهم متروكون في جهنم لا يخرجون ولا يطلب  
إليهم اعتذار ولا عتاب :

« فالיום لا يخرجون منها ، ولا هم يستعتبون .. »

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهي توعد بإعادتها الأخير ! وقد  
انتهى الشهد ، فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحوير !

\*\*\*

هنا ينطلق صوت التمجيد لله والتعجب والانطلاقة الأخيرة في السورة بعد هذا الشهد  
المؤثر العميق :

« فله الحمد . رب السماوات . ورب الأرض . رب العالمين . وله الكبرياء في السماوات  
والأرض وهو العزيز الحكيم .. »

ينطلق صوت التمجيد . يعلن وحدة الربوبية في هذا الوجود . سمائه وأرضه . وإنسه وجهه .  
وطيره ووحشه . وسائر ما فيه ومن فيه . فكلهم في رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد  
على الرعاية والتدبير .

وينطلق صوت التمجيد . يعلن الكبرياء المطلقة لله في هذا الوجود . حيث يتصغر كل  
كبير . وينحني كل جبار . ويستسلم كل متمرد . للكبرياء المطلقة في هذا الوجود .  
ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة .. « وهو العزيز الحكيم » ..  
والحمد لله رب العالمين .

انتهى الجزء الخامس والعشرون .  
وبدأ الجزء السادس والعشرون  
ببداية سورة الأحقاف

# فی ظلال القرآن

الجزء السادس والعشرون

بم

سید قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة الأحقاف ومحمد والفتح والحجرات وق

## سُورَةُ الْأَخْفَافِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٣٥

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ \* مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ .

« قُلْ : أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ؟ أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ؟ \* وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ، وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ؟ .

« وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ : هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ \* أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ؟ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* قُلْ : مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ، وَمَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرَتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ، فَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ؟ إِنْ اللَّهُ

## سورة الاحقاف

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا  
 إِلَيْهِ . وَإِذْ لَمْ يَبْتَدُوا بِهِ فَيَحْتَوِنَ : هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ \* وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا  
 وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا ، لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرَى الْمُحْسِنِينَ .  
 « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبَّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \*  
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ①

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة .. قضية الإيمان بوحداية الله وربوبيته المطلقة لهذا  
 الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رسول  
 سبغته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب . والإيمان بالبعث وما وراءه  
 من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .  
 هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجها القرآن في كل سورة  
 المكية علاجا أساسيا ، وذلك يتكفى ، عليها كذلك في سورة المدنية كما هم بتوجيه أو تشريع للحياة  
 بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية . ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحداية  
 الله سبحانه ، وبعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء .. هي المحور  
 الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ؛ فتبقى حية حارة تنبعث  
 من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ؛ وتوقع فيها على كل وتر ؛ وتعرضها  
 في مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعل قضية الوجود كله -  
 لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفا من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني  
 إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهدا كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهدا . سواء  
 بسواء .

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض ، وفي مشاهد القيامة في الآخرة .  
 كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة . وتجعل من السماوات والأرض  
 كتابا ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

\*\*\*

ويعنى سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة ، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .  
يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها .  
لها الإشارة إلى كتاب القرآن والوحى به من عند الله : « تنزيل الكتاب من الله العزيز  
الحكيم » . . . وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ، وعلى التقدير  
والتدبير : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » . . . فيتوافق كتاب  
القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير : « والذين كفروا عما أنذروا معرضون »  
وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئا بإنكار ما كان عليه  
القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ،  
ولامأثور من العلم : « قل : أرايتم ماتدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟  
أم لهم شرك في السماوات ؟ اتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . .  
ويندد بظلال من يدعو من دون الله من لا يسمع لعابده ولا يستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة  
ويبرأ من عبادته في اليوم العصيب ا

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
وقولهم له : « هذا سحر مبين » . . . وترقيهم في الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراء . ويلقن رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة ، التابع من مخافة الله وتقواه ،  
وتفويض الأمر كله إليه في الدنيا والآخرة : « قل : إن اقتريته فلا عملكون لى من الله شيئا .  
هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيدا بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعا  
من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين » . .  
ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بنى إسرائيل حينما رأى في القرآن مصداق ما يعرف  
من كتاب موسى - عليه السلام - : « فأمن واستكبرتم » . . . ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب  
بعد شهادة أهل الكتاب العارفين : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . . .

ويستطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار ، وهم يقولون عن  
المؤمنين : « لو كان خيرا ما سبقونا إليه » . . . ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر : « وإذ لم  
يهتدوا به فيقولون : هذا إفك قديم ا » .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهمته :  
« لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . . .

## سورة الاحقاف

ويختم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرية لمن صدق بالله واستقام على الطريق : « إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

ويمرض الشوط الثاني نموذجين للفطرة البشرية : المستقيمة والمنحرفة ، في مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معها من النشأة الأولى ، وهما في أحضان والديهم . ويتابع تصرفها عند بلوغ الرشد والتبعية والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه ، راغب في الوفاء بواجب الشكر ، تائب ضارع مستسلم منيب : « أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا ووتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .. وأما الآخر فعاق لوالديه كما هو عاق لربه ، وهو جاحد منكر للآخرة ، وهما به ضيقان متعبان : « أولئك الذين حق عليهم القول في أم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

ويختم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد ، عند ما كذبوا بالذير . ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم ، التي توقعوا فيها الري والحياة ؛ فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار ، والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه : « فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » .. ويلس قلوبهم بهذا المصراع ، وهو يذكركم بأن عادا كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. ويذكركم في نهاية الشوط مصارع ما حوّلهم من القرى ، وعجز آلهتهم المدعاة عن نصرتهم ، وظهور إفسكهم واقترانهم . لعلمهم يتأثرون ويرجعون ..

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن ، حين صرفهم الله لاستماعه ، فلم يملكوا أنفسهم من التأثر والاستجابة ، والشهادة له بأنه الحق : « صدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » .. وعادوا يندرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان :

« يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به ، يفر لكم من ذنوبكم ، ويحرمكم من عذاب اليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » ..  
وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدره الله على البدء والإعادة : « أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير » ..

وهنا يلعب قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار، فيقرون بما كانوا ينكرون ، ولكن حيث لا مجال لإقرار أو يقين ا

وتختم السورة بتوجيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب ، فإنما هو أجل قصير يمهلون ، ثم يأتيهم العذاب والهلاك : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بل هل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ » ..

والآن نأخذ في تفصيل هذه الأشواط . . .

\*\*\*

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أُنذروا معرضون » ..

هذا هو الإيقاع الأول في مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التي يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذي تراه العيون ، وتقرؤه القلوب .

وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير . فتزيل الكتاب « من الله العزيز الحكيم » فهو مظهر للقدره وموضع للحكمة . وخلق السماوات والأرض وما بينهما متلبس بالحق : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .. وبالتقدير الدقيق : « وأجل مسمى » تحقق فيه حكمة الله من خلقه ، ويتم فيه ما قدره له من غاية .

وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدره الله ، ويشهد بحكمته ،



## سورة الاحقاف

ويبنى بتدييره وتقديره ، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من إنذار وتبشير .. « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .. وهذا هو العجب المستنكر في ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور !

والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يعمد ، وأنه رب كل شيء ، بما أنه خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، ومقدر كل شيء . وكتاب الكون الحى ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحداية الصانع المقدر المدبر ، الذى يصنع على علم ، ويبدع على معرفة ، وطابع الصنعة واحد فى كل ما يصنع وما يبدع . فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا ؟ وهذا هو الكون قائما معروض على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه ؟ وأى قسم من أقسامه أنشأوه ؟

« قل : أرايتم ماتدعون من دون الله ؟ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ ائتمنى بكتاب من قبل هذا ، أو آثاره من علم ، إن كنتم صادقين » .. وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب الذى لا يقبل الجدل والمغالطة - إلا مرأى ومحالا - والذى يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها .

« أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ » ..

ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك العبودات - سواء كانت حجرا أم شجرا أم جنا أم ملائكة أم غيرها - قد خلقت من الأرض شيئا ، أو خلقت فى الأرض شيئا . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح فى وجه أى ادعاء من هذا القبيل .

« أم لهم شرك فى السموات ؟ » ..

ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك العبودات شركة فى خلق السموات أو فى ملكيتها . ونظرة إلى السموات توقع فى القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحدايته ؛ وتنفض عنه الانحرافات والترهات . والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر فى الكون على قلوب البشر ؛ ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إقاعاته المباشرة فى القلوب .

ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا

الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذلك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها بالحجة والدليل ؛ ويعلمها في الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ؛ ويأخذها بالمنهج السليم في النظر والحكم والتقدير :

« اثبتوني بكتاب من قبل هذا ، أو إثارة من علم ، إن كنتم صادقين » ..

فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحداية الخالق المبدع المدبر القدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها في الأرض خلقا أو في السماوات شركا ؛ وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت .

وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهي شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . في آية واحدة قليلة الكلمات ، واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، منددا بضلالهم في اتخاذها ، وهي لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا ؛ ثم هي تخصمهم يوم القيامة ، وتكر دعواهم في عبادتها :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » ..

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان . . . وكلها لا تستجيب لداعيا أصلا . أو لا تستجيب له استجابة نافعة . فالأحجار والأشجار لا تستجيب . والملائكة لا يستجيبون للمشركين . والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرا هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين . حتى الشيطان كما جاء في سورة أخرى :

« وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلانتموموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » ..

وهكذا يفهم القرآن وجهها لوجه أمام حقيقة دعواهم وما لها في الدنيا والآخرة . بعدما وقفهم

## سورة الاحقاف

أمام الحقيقة الكونية التي تنكر هذه الدعوى وترفضها . وفي كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثابتة . حقيقة الوحدانية التي ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة الشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم في الدنيا والآخرة .

وإذا كان القرآن يندد بضلالات من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ؟ وكان هذا يعني المعبودات التاريخية التي عرقها الجماعات البشرية عند زول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد - كائناً من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعو ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعال لما يريد . . إن الشرك ليس مقصوداً على صورة الساذجة التي عرفها المشركون القدامى . فكم من شركين بشركون مع الله ذوى سلطان ، أودوى جاه ، أودوى مال ؛ ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك . والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفي زاوله الكثيرون ، وهم لا يشعرون .

\*\*\*

ثم يمضي السياق . يتحدث عن موقفهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما جاءهم به من الحق . بعد ما تحدث عن واقمهم وتهافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد :

« وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين . أم يقولون : افتراء ؟ قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين . قل : أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لسانا عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

يبدأ الحديث عن قضية الوحي بتزليل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات

« بينات » لا لبس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريب . ثم إنه « الحق » الذي لا مزية فيه . وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق « هذا سحر مبین » .. وشتان بين الحق والسحر . وهما لا يختطان ولا يشتهان .

وهكذا يبدأ المهجوم منذ البدء على تقوّلهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل .

ثم يرتقى في إنكار مقولتهم الأخرى .. « افتراء » .. فلا يسوقها في صيغة الخبر بل في صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال :  
« أم يقولون افتراء ؟ » ..

فيلغ بهم التطاول أن يقولوا هذه المقولة التي لا تخطر على بال ؟ !

ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذي يتم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم في هذا الوجود كله :

« قل : إن اقتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً

بينى وبينكم . وهو الغفور الرحيم » ..

قل لهم : كيف اقترية ؟ ولحساب من اقترية ؟ ولأى هدف اقترية ؟ أاقترية لتؤمنوا بي وتبعوني ؟ ولكن : « إن اقتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » .. وهو آخذنى بما اقتريت .

فماذا يجدينى أن تكونوا معي وأن تتبعونى . وأتم أعجز من أن تحموني من الله حين يأخذنى باقترائى ، وأضف من أن تصرونى ؟ !

وهو الرد اللائق بنبي ، يتلقى من ربه ، ولا يرى في الوجود غيره ، ولا يعرف قوة غير قوته ، وهو رد كذلك منطقي يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به ، ثم يترك أمرهم لله :

« هو أعلم بما تفيضون فيه » .. من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم . « كفى به شهيداً بينى وبينكم » .. يشهد ويقضى ، وفي شهادته الكفاية وفي قضائه . « وهو الغفور

الرحيم » .. وقد يراف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويفرلكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان ..

رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب ماله ، ويلمس أوتاره . ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم المازلة ، وادعائهم العابثة . وأنه في ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون .

## سورة الاحقاف

ويعضى معهم في مناقشة القضية - قضية الوحي - من زاوية أخرى واقعية مشهودة . فماذا ينكرون من أمر الوحي والرسالة؟ ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الافتراء؟ وليس في الأمر غريب ولا عجيب :

« قل : ما كنت بدعا من الرسل . وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . وما أنا إلا نذير مبين » ..

إنه - صلى الله عليه وسلم - ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم . وما كان بدعا من الرسل . بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحى إليه ، فيصدع بما يؤمر . هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها .. والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلا ، ولا يطلب لنفسه اختصاصا . إنما يعضى في سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسب ما أوحى بها إليه : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلي » .. فهو لا يعضى في رسالته لأنه يعلم النيب ؛ أولاً أنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يبشر بها . إنما هو يعضى وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقا بربه ، مستسلما لإرادته ، مطيعا لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والنيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن . ولأن أدبه مع ربه ينهيه عن التطلع لغير ما فتح له . فهو واقف أبدا عند حدوده وحدود وظيفته : « وما أنا إلا نذير مبين » .

وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيحضون في دعوتهم لله . لأنهم يعرفون مآلها ، أو يعلمون مستقبلها . أو يملكون فيها قليلا أو كثيرا . ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . وما يطلبون من ربهم برهانا فبرهانهم في قلوبهم . وما يطلبون لأنفسهم خصوصية خصوصيتهم أنه اختارهم . وما يتجاوزون الخط الدقيق الذي خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق .

ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب ، الذين يعرفون طبيعة التنزيل :

« قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..  
وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل ، عرف أن

طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزلة من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فأمن . وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله ابن سلام إنما أسلم في المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية تو كيدا لنزولها في شأن عبد الله - رضى الله عنه - . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه .

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي . وكان لإيمانهم ، وهم أهل كتاب ، قيمته وحجته في وسط المشركين الأمين . ومن ثم نوه به القرآن في مواضع متعددة ، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا الأسلوب في الجدل : « قل : أرأيتم إن كان من عند الله . . . الخ » يراد به زعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف في نفوسهم والتخرج من المضى في التكذيب . مادام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقا كما يقول محمد . وفي هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن محتاطوا لهذا الفرض ، الذي قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يترشوا في التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر في حرص وفي حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحدا أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التدوق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون . . وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق النعمة من الله وإحباط الأعمال : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . .

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ، ليواجه شكوك القلب البشري وانحرافات وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وفي أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة إلى هذا الدين . . ومع اليقين الجازم بأن هذا القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم للفرض الذي أسلفنا . وهو واحد من أساليب الإقناع في بعض الأحوال . .

وبعد ذلك يمضى في استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكي اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالي على المؤمنين :

## سورة الاحقاف

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فيقولون :

هذا إفك قديم » . . .

ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر . فكان هذا مغمزا في نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيرا ما كان هؤلاء أعرف منابه ، ولا أسبق منا إليه . فحنن في مكاتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء !

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه . والخير الذي يحتويه . إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد - كما كانوا يقولون - وقندان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاضم أهل الكبر أن يذعنوا للحق، وأن يستمعوا لصوت الفطرة، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذي يعلو عليهم العناد والإعراض ، واختلاق للماذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لا يسلمون أبدا أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محورا للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة :

« وإذ لم يهتدوا به فيقولون : هذا إفك قديم » . . .

طبعاً فلا بد من عيب في الحق ماداموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لا بد من عيب في الحق لأنهم هم لا يجوز أن يخطئوا . وهم في نظر أنفسهم ، أو فيما يريدون أن يوحوا به للجاهير ، مقدسون معصومون لا يخطئون !

ويختم هذه الجولة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا القرآن له - كما سبقت الإشارة في شهادة الشاهد من بني إسرائيل :

« ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة . وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا ، لينذر الذين

ظلموا وبشرى للمحسنين » . . .

وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكلمة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة في التوراة . ومن ثم سمي

كتاب موسى « إماما » ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض ، بكل معاني الرحمة في الدنيا وفي الآخرة .. « وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا » .. مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها ؛ وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها ؛ وللإنجاء الأصيل الذي توجه البشرية إليه ، لتصل بربها الواحد الكريم .

والإشارة إلى عروبه للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم ، وحنانيته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتضمن هذا القرآن العظيم . ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها :

« لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » ..

\*\*\*

وفي نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشري التي يحملها إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته :

« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدون فيها ، جزاء بما كانوا يعملون » ..  
وقوله : « ربنا الله » .. ليست كلمة تقال . بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير . إنما هي منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقوم ميزانا للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود .

« ربنا الله » فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الحشية وعليه الاعتماد .  
« ربنا الله » فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه ، ولا خوف ولا تطمع لمن عداه .  
« ربنا الله » فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه ، منظور فيه إلى رضاه .  
« ربنا الله » فلا احتكام إلا إليه ، ولا سلطان إلا لشريعته ، ولا اهتداء إلا بهداه .  
« ربنا الله » فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقي به في ملتنا بالله .



## سورة الاحقاف

« ربنا الله » . . . منهج كامل على هذا النحو ، لا كلمة تلفظها الشفاء ، ولا عقيدة سليمة بعيدة عن واقعات الحياة .

« ثم استقاموا » .. وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج . استقامة النفس وطمانينة القلب . استقامة المشاعر والحواليج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهي عنيقة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك !

« ربنا الله » .. منهج .. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره . والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة . وهؤلاء « لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » .. وفيهم الخوف وفيهم الحزن .. والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول ؟

« أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .. وتوضح كلمة « يعملون » معنى « ربنا الله » ، ومعنى الاستقامة على هذا المنهج في الحياة . فهي تشير إلى أن هناك عمالاً كان الخلود في الجنة جزاءه . عملاً منبعثاً من ذلك المنهج : « ربنا الله » ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات .

ومن ثم ندرك أن الكلمات الاعتقادية في هذا الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان . فشهادة أن لا إله إلا الله ليست عبارة ولكنها منهج . فإذا ظلت مجرد عبارة فليست هي « ركن » الإسلام المطلوب الممدود في أركان الإسلام !

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقية لمثل هذه الشهادة التي ينطق بها اليوم ملايين ؛ ولكنها لا تعدى شفاهم ، ولا يترتب عليها أثر في حياتهم . وهم يحيون على منهج جاهلي شبه وثني ، بينما شفاهم تنطق بمثل هذه العبارة : شفاهم الجوفاء !

إن « لا إله إلا الله » .. أو « ربنا الله » .. منهج حياة . هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاق ، كما تبحث عن المنهج الباطن الذي تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه ..

« وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَوَالِدِيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي،  
إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا،  
وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ.

« وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ : أَفِ لَكُمْ أَلْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ  
قَبْلِي، وَهُمَا يَسْتَفِيتَانِ اللَّهَ. وَيَلِكَ آمِنٌ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا. فَيَقُولُ : مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ  
الْأَوَّلِينَ » أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ  
وَإِنْسٍ، إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ.

« وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.  
« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ. أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا،  
وَسَمَّيْتُمْ بِهَا. فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ  
الْحَقِّ، وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » ﴿٥٦﴾

هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها، وفيما تنهى إليه حين تسفير  
وما تنهى إليه حين تنحرف. ويبدأ بالوصية بالوالدين. وكثيرا ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام  
عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث. ذلك أن وشيخة الأبوة والبنوة هي أول وشيخة  
بعد وشيخة الإيمان في القوة والأهمية، وأولها بالرعاية والتشريف. وفي هذا الاقتران دلالتان:  
أولها هي هذه. والثانية أن آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدمة. ثم تليها آصرة الدم في  
أوثق صورها.

وفي هذا الشوط نموذجان من الفطرة: في النموذج الأول تلتقي آصرة الإيمان وآصرة  
الوالدين في طريقهما المستقيم المهدي الواصل إلى الله. وفي الثاني تفرق آصرة النسب عن آصرة  
الإيمان، فلالتقيان. والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشري. والنموذج الثاني مصيره  
النار ونصيبه استحقاق العذاب. وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب في مشهد من مشاهد  
القيامة، بصور عاقبة الفسوق والاستكبار.

\*\*\*

« ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا » . . .

فهي وصية لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى. وراء كونه إنساناً. وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك. وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً. فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس. فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان. وتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - الوصية بالإحسان إلى الوالدين. ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة. ذلك أن الفطرة وحدها تكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفة بذاتها لا تحتاج إلى مشير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيرًا ما تصل إلى حد الموت - فضلاً على الألم بدون تردد، وودون انتظار عوض، وودون من ولا رغبة حتى في الشكران! أما الجيل الناشئ، قلما يتلفت إلى الخلف. قلما يتلفت إلى الجيل المضحي الواهب الغاني. لأنه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحى له بدوره ويرعاه وهكذا تمضي الحياة!

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه؛ والمخض الذي تدرج فيه الفراخ المخضر وتكبر؛ وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء. والطفل الذي يحرم من محض الأسرة ينشأ شاذاً غير طبيعي في كثير من جوانب حياته - مهرباتوافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة - وأول ما يفقده في أي محض آخر غير محض الأسرة، هو شعور الحب. فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته. ولا يطبق أن يشاركه فيها أحد. وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا. إذ تقوم الحاضنة بحضنة عدة أطفال، يتحاقدون فيما بينهم، على الأم الصناعية المشتركة، وتبذر في قلوبهم بذرة الخلد فلا تنمو بذرة الحب أبداً. كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تعرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية. وهذا ما لا يتيسر إلا في محض الأسرة الطبيعي. فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال. فتنشأ شخصياتهم مخلخلة، ويحرمون ثبات الشخصية. والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم

عن حكمة أصيلة في جمل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم، الذي يستهدف الإسلام إنشائه على أساس الفطرة السليم .

ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة ، والتي لا يجزيها أبدا إحسان من الأولاد منها أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين :

« حملته أمه كرها ، ووضعت كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهرا .. »

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : « حملته أمه كرها . ووضعت كرها » .. لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بمعبء ويتنفس بمجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه ! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبيلها في صورة حسية مؤثرة ..

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالحلية المنوية تسمى للالتصاق بجدار الرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دأما في بركة من دم الأم الغني بكل مافي جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحياءه وتنمو . وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة . والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص ، لتصب هذا كله دماتيا غنيا لهذه البويضة الشريفة النهمة الأكل ! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تغطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير ! ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لاتقف في وجه الفطرة ولاتنسى الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد .. بينا هي تذوى وتموت !

ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية . وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لآعل أبدا ولاتكره تعب هذا الوليد . وأكبر ماتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو . فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد ! فأنى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مها يفعل وهو لايفعل إلا القليل الزهيد ؟

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها ، فسأله - صلى الله عليه وسلم - : هل أدبتُ حنفا ؟ فأجابته : « لا ، ولا بزفرة واحدة » (١) .

\*\*\*

(١) رواه الحافظ أبو بكر البرار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه .

## سورة الاحقاف

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضأر بصورة التضحية النبيلة  
محنة في الأم ، إلى مرحلة النضج والرشد ، مع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب :  
« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي  
وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبت إليك ، وإني من  
المسلمين » . . .

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون هي غاية النضج والرشد ، وفيها  
تتكمّل جميع القوى والطاقات ، وينتهي الإنسان للتدبر والتفكير في الكمال وهدوء . وفي هذه  
السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة . وتدبر المصير والمآل .  
وبصور القرآن هنا خواجه النفس المستقيمة . وهي في مفرق الطريق ، بين شطر من العمر  
ولى . وشطر يكاد آخره يتبدى . وهي تتوجه إلى الله :

« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي » . . .

دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه ، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله  
فهي قديمة العهد به ، المستقل المستصغر لجهده في شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله :  
« أوزعني » . . لينهض بواجب الشكر ؛ فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا  
الواجب الضخم الكبير .

« وأن أعمل صالحاً ترضاه » . . .

وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح ، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه  
ربه . فرضى ربه هو الغاية التي يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه .

« وأصلح لي في ذريتي » . . .

وهذه ثالثة . وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته . وأن يؤنس قلبه  
شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل المبد الصالح . وهي آثر  
عنده من الكنوز والدخائر . وأرواح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يتمنن الوالدين إلى  
الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله .

وشفاعته إلى ربه . شفاعته التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء الخالص لله ، هي التوبة

والإسلام :

« إني تبت إليك وإني من المسلمين » .

ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه ، فقد أنصح عنه هذا القرآن :

« أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا ، وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » ..

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوز عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء . ذلك وفاء بوعدهم الذي وعدوه في الدنيا . ولن يخلف الله وعده . . . وهو جزاء الفيض والوفى والإنعام .

\*\*\*

فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال :

« والذي قال لوالديه : أف لكما ! أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ » .. قال والدان مؤمنان . والولد العاق يبعد برهما أول ما يبعد ؛ فيخاطبها بالتأفف الجارح الحشن الوقح : « أف لكما ! » .. ثم يبعد الآخرة بالحجة الواهية : « أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ » .. أي ذهبوا ولم يمد منهم أحد .. والساعة مقدره إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي . فليست لعبة وليست عبثا . إنما هو الحساب الختامي للرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما : ويرتمش حسبا لهذا النهجم والتناول ؛ ويهتفان به : « وهما يستغيثان الله . ويملك آمن . إن وعد الله حق » .. ويبدو في حكاية قولها الفرع من هول ما يسمعان . بينما هو يصر على كفره ، ويلج في جحوده : « فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين » ..

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم :

« أولئك الذين حق عليهم القول في أم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

والقول الذي حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذي ينال الجاحدين الكاذبين . وهم كثير . خلت بهم القرون . من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذي لا يخلف ولا يتخلف .

## سورة الاحقاف

« إنهم كانوا خاسرين » .. وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا. ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة . ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

\*\*\*

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة :

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » ..

فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، في حدود ذلك الإجمال في جزاء كل فريق .

وبعد ، فهذان النموذجان عامان في الناس ، ولكن مجيئها في هذا الأسلوب ، الذي يكاد يحدد شخصين بذواتها أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع .

ولقد وردت روايات أن كلا منها يعني إنساناً بعينه. ولكن لم يصح شيء من هذه الروايات.

والأولى اعتبارها واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل

نموذج . فالتعقيب على الأول : « أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم

في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .. والتعقيب على الثاني : « أولئك الذين

حق عليهم القول في أم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » .. ثم

التعقيب العام : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » .. وكلها توحى

بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء .

\*\*\*

ثم يفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يمحذون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها .

فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والشاهد سريع حاسم ، ولكنه يتضمن لفته شبيهة عريضة . إنه مشهد العرض على النار .

وفي مواجهتها وقيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها : « أذهبتم

طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » .. فقد كانوا يملكون الطيات إذن ، ولكنهم

استفدوها في الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئاً ؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها

للآخرة حساباً ؛ استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها

للاخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللمحة الحافظة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله !

« فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفقون » . . .

وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق . فالكبرياء لله وحده . وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل . وعذاب الهون هو الجزاء المدل على الاستكبار في الأرض . فجزاء الاستكبار الهوان . وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضا . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وهكذا ينتهي هذا الشوط من السورة بعرض ذنك النموذجين ومصيرهما في النهاية ؛ وبهذا الشاهد المؤثر للكافرين بالآخرة ، الفاسقين عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته . وهي لمسة للقلب البشري تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتداد الطريق الواصل المأمون .

« وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ، وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالُوا : أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ؟ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ \* قَالَ : إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَبْلُغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

« فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا : هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ : رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ \* تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَمْجَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .



«وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى، وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ \* فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ! بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ إِيَّاكُمْ وَمَا كَانُوا بِفَتْرُونَ » ﴿٤٨﴾

وهذا الشوط جولة في مجال آخر ، نخدم القضية التي تعالجها السورة، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشيطان الأولان . . . جولة في مصرع عاد ومصرع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهم هود - عليه السلام - موقف الشركين من رسولهم وأخيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - واعتراضوا اعتراضاتهم ، وأجابهم نبينهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر، حين لم يسمعوا النذير . فلم تغن عنهم قوتهم - وكانوا أقوى - ولم يغن عنهم ثراؤهم - وكانوا أغنى - ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفتدتهم - وكانوا أذكاء - ولم تغن عنهم آلتهم التي اتخذوها تقرباً - بزعمهم - إلى الله .

وكذلك يقف الشركين في مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذي لا يتغير . وخط السنة الإلهية التي لا تتحول ولا تبدل . وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور، ممتدة الفروع ضاربة في أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

\*\*\*

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف - وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه -

الانصدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

وأخو عاد هو هود - عليه السلام - يذكره القرآن هنا بصفته . صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التي كانت كفيلاً بأن تمطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهي ذات الصلة بين محمد - صلى الله عليه وسلم - وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة .

والأحقاف جمع حقف . وهو الكتيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المنفرقة في جنوب الجزيرة - يقال في حضرموت

والله - سبحانه - يوجه نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر أبا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقي من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر الشركين في مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم ..

وقد أندر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم ..  
« وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » ..

قريبا منه وبمبدأ عنه في الزمان وفي المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة .  
والأمر ليس بدعا ولا غربيا . فهو معهود مألوف .

أنذرهم - ما أنذر به كل رسول قومه - : « ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .. وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة ، أوفيهما على السواء . والإشارة إلى اليوم « عذاب يوم عظيم » .. تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .

فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟

« قالوا : أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! » ..

سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدى للنذير ، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز !

فأما هود النبي فيتلقى هذا كله في أدب النبي ، وفي تجرده من كل ادعاء ، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه :

« قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكني أراكم قوما تجهلون » ..

إنما أنذركم بالعذاب كما كلفت أن أنذركم . ولست أعلم متى يحين موعده ، ولا كيف يكون

شكاه . فلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعى علما ولا قدرة مع الله .. « ولكني

أراكم قوما تجهلون » وتعمقون . وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح

والأخ القريب بمثل هذا التحدى والتكذيب ؟

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضي إلى النهاية المقصودة

أصلا في هذا المقام ؛ ردا على التحدى والاستعجال .

## سورة الاحقاف

« فلما راوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به :  
ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك  
نجزي القوم المجرمين » . .

وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم  
من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم محابة ، ففرحوا بها فرحا شديدا ، وخرجوا يستقبلونها  
في الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : « قالوا هذا عارض ممطرنا » . .

وجاءهم الرد بلسان الواقع : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء  
بأمر ربها » . . وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى . كما جاء في صفها :  
« ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

والنص القرآني يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : « تدمر كل شيء بأمر ربها » .  
وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حي . وكل قوة  
من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه  
القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعي عن القوى  
الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن يتجاوب معه ، تتجاوب الأحياء المدركة ، بغير  
الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك . ففي كل شيء روح وحياة ، ولكننا  
لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من  
حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .

وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » . .  
أما هم وأما أنعامهم وأما أشيائهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هي المساكن قائمة  
خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافع نار . . « كذلك نجزي القوم المجرمين » . . سنة جارية  
وقدر مطرد في المجرمين .

\*\*\*

وطى مشهد الدمار والحراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يمس قلوبهم بما ترتعش منه

القلوب :

« ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم

## الجزء السادس والعشرون

ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحق بهم ما كانوا به يستهزئون . . .

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكنام فيما لم تمكنكم فيه . . إجمالا . . من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعا وأبصارا وأفئدة - والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » . . والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . « وحق بهم ما كانوا به يستهزئون » . . من العذاب والبلاء . . والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بطمعه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتتركهم « لا يرى إلا مساكنهم » حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المحرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكوني الذي قدره الله ، وهو يسلمها حين يسلمها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني ، تعمل وفق الناموس المرسوم . فلاحاجة لحرق النواميس الكونية - كما يعترض المعارضون واهمين - فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم . وكل حادث وكل حركة . وكل اتجاه . وكل شخص . وكل شيء . محسوب حسابه ، داخل في تصميم الناموس .

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريد الله بها . المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيرها . وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود ، ليتم ما أراد الله بهم وفق ما يريد وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي يتسنى إلى التناسق الكوني العام . وكل شيء مقدر تقديرا لا يناله نقض ولا اضطراب .

\*\*\*

ويحتم هذا التسوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد :  
« ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفكرون » . .

وقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلاً في الجزيرة . كما د بالاحقاف في جنوب الجزيرة .  
وتمود بالحجر في شمالها . وسبأ وكانوا باليمن . ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام . وكذلك  
قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها في رحلة الصيف إلى الشمال .

ولقد نوع الله في آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويشوبون . ولكنهم مضوا في  
غلاتهم ، فأخذهم العذاب الأليم ، ألوانا وأنواعا ، تحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها  
الحلف من ورأهم . وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين راضحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة . فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم  
آلهتهم التي كانوا يتخذونها من دون الله ، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه . سبحانه . وهي تستزل  
غضبه ونقمته : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ! »

إنهم لم ينصروهم « بل ضلوا عنهم » . . وتركوهم وخدم لا يعرفون طريقا إليهم أصلا ، فضلا  
على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله .  
« وذلك إفكهم وما كانوا يفترون » . .

فهو إفك . وهو افتراء . وذلك ماله . وتلك حقيقته . . الهلاك والتدمير . . فماذا ينتظر  
المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقربهم من الله زلفى ؟ وهذه هي العاقبة  
وهذا هو المصير ؟

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا :  
أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا : يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن  
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا  
دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُجِزِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ  
دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾  
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِمَخْلُقِينَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخْزِيَ  
الْمَوْتَىٰ ؟ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . »

« وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا: بَلَىٰ وَرَبِّنَا، قَالَ: فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. »

« فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ، بَلَاغٌ، فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ؟ » ﴿٢٥﴾

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التي تعالجها السورة؛ فسياقة قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن، فتادوا بالإنصات، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة، ويحذرونهم الإعراض والضلال. سياقة الخبر في هذا المجال، بهذه الصورة، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يمثل في قولهم: « أنصتوا » عندما طرق أسماعهم، كما يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه، وفيما دعوم إليه. كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر، الذين جاء القرآن لهم في الأصل. وهو إيقاع مؤثر ولاشك، يلفت هذه القلوب لفتة عنيقة عميقة. وفي الوقت ذاته تجيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويفعل عنها البشر. ولا يخفى مافي هذه اللفتة من إحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة.

كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خالق السماوات والأرض، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث. وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون.

وبمناسبة البعث يعرض مشهدا من مشاهد القيامة « يوم يعرض الذين كفروا على النار ».. وفي الختام تجيء اللوصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم. وتركهم للأجل للرسوم. وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار.. للبلاغ.. قبل الهلاك!

\*\*\*

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا: أنصتوا. فلما

## سورة الاحقاف

قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين . أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعى مخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير . . .

ومقالة النفر من الجن - مع خشوعهم عند سماع القرآن - تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحي . ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن . والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه . والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال . والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد . والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى . . . وهي الأسس التي تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التي تعالجها في سائر أشواطها . . . كلها جاءت على لسان النفر من الجن . من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ويحسن قبل ان نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة . . . إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - صلى الله عليه وسلم - وحكاية ما قالوا وما فعلوا . . . هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث . ولتقرير أن الجن هؤلاء ، يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان والكفران ، مستعدون للهدى والضلال . . . وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة ؛ فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله - سبحانه - ثبوتاً .

ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني . إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والحلائق المجهولة لنا كنها وصفة وأثرا . ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار . نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، وتعرف إلى بعض هذه الحلائق - تارة بذواتها . وتارة بصفاتهما . وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا . ونحن ما زال في أول الطريق . لطريق المعرفة لهذا الكون ، الذي نعيش نحن وآباؤنا وأجدادنا ونعيش آباؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة . . . هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر في حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم - ونحن في أول الطريق - يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن . ولوقال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي تتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أولظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية ، المدة للخلافة في هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفي دائرة ما سخره الله لنا ليكشف لنا عن أسرارها ، وليكون لنا ذلولا ، كما تقوم بواجب الخلافة في الأرض .. ولا تتعدى معرفتنا وكشوفتنا في طبيعتها وفي مداها - مها امتد بنا الأجل - أي بالبشرية - ومها سخر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسرارها - لا تتعدى تلك الدائرة . دائرة ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيرا ، وسنعرف كثيرا ، وستفتح لنا عجاب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة . وفي حدود قول الله سبحانه - « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .. قليلا بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيومه . وفي حدود تمثيله لعله غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » ..

فليس لنا - والحالة هذه - أن نجزم بوجود شيء أوتيه . وبتصوره أو عدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا للشهودة . ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلا على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !

وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلية في برنامج ما يكشف لنا عنه أصلا . وأسرار ليست داخلية في برنامج ما يكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض .

فإذا كشف الله لنا عن القدر للتسوم لنا من هذه الأسرار والقوى . عن طريق كلامه - لاعن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا للوهوبة لنا من لدنه أيضا - فسيكونا في هذه



## سورة الاحقاف

الحالة أن تلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم. تلقاها كما هي فلا تزيد عليها ولا تنقص منها. لأن المصدر الوحيد الذي تلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة. وليس هنالك مصدر آخر تلقى عنه مثل هذه الأسرار!

ومن هذا النص القرآني. ومن نصوص سورة الجن. والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه. ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن. ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث. نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن.. ولا زيادة..

هذه الحقائق تلخص في أن هنالك خلقا اسمه الجن. مخلوق من النار. لقول إبليس في الحديث عن آدم: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين».. وإبليس من الجن لقول الله تعالى: «إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه».. فأصله من أصل الجن.

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر. منها خلقته من نار، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس، لقوله تعالى عن إبليس - وهو من الجن -: «إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم»..

وأن له تجمعات معتمة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس. للقول السابق: «إنه يراكم هو وقيله...».

وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لاندري أين - لقوله تعالى: لآدم وإبليس معا: «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين»..

والجن الذين سخروا لسلبان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضى أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها.

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن: «وأنا لمننا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهبا رصدا»..

وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم - غير عباد الله - للنصوص السابقة، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين: «قال: فبمرتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين».. وغير هذا من النصوص الماثلة. ولكننا لانعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة.

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لفته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .

وأنه قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا نفر في سورة الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحمروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا » .. وبديل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعوهم إلى الإيمان ، بعد ما وجدوه في نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن ، وهو حسناً ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل . فأما الحادث الذي تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة ثبت أصحابها :

أخرج البخاري - بإسناده - عن مسدد ، ومسلم عن شيان ابن فروخ عن أبي عوانة . وروى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن طي ابن أحمد ابن عبدان ، أخبرنا أحمد ابن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : « ما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها ، يتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهناك حين رجوا إلى قومهم : وقالوا : « يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجيباً يهدي إلى الرشدها فآمننا به ، ولن نشارك ربنا أحداً » .. وأزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحى إليه قول الجن .

## سورة الاحقاف

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي بإسناده - عن علقمة ، قال : قلت لابن مسعود - رضي الله عنه - هل صحب النبي - صلى الله عليه وسلم - منكم أحد ليلة الجن ؟ قال . ما صحبه أحد منا ولكننا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب . فقلنا : استطير ، أو اغتيل . فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء . فقلنا : يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة أوروثة علف لدوابكم » . فقال - صلى الله عليه وسلم - « فلا تستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم » ..

وقال : ساق ابن إسحاق - فيما رواه ابن هشام في السيرة - خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثيف ، بعد موت عمه أبي طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين في مكة . ورد ثيف له ردا قبيحا ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني؟ إلى بيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك . لك العتي حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، حين يئس من خير ثيف . حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي ، فر به النفر من الجن الذين ذكروهم الله تبارك وتعالى . وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن نصيين . فاستمعوا له . فلما فرغ من سلاته ولوا إلى قومهم منذرين . قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . قصص الله خبرهم عليهم - صلى الله عليه وسلم - قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله تعالى : « ويجرم من عذاب أليم » .. وقال تعالى : « قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة :

ويتق ابن كثير في التفسير على رواية ابن إسحاق بقوله : « وهذا صحيح . ولكن قوله :

## الجزء السادس والعشرون

إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء ، كإدله عليه حديث ابن عباس - رضي الله عنها - المذكور ، وخروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم .

وهناك روايات أخرى كثيرة . ونحن نتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس - رضي الله عنها - لأنها هي التي تتفق تماماً مع النصوص القرآنية : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » . . . وهي قاطعة في أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما علم بالحادث عن طريق الوحي ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم . ثم إن هذه الرواية هي الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج . وتتفق معها في هذه النقطة رواية ابن إسحاق . كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » . . . وفي هذا غناء في تحقيق الحادث .

\*\*\*

« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . . .

لقد كان إذن تدبيراً من الله أن يصرف هؤلاء النفرا من الجن إلى استماع القرآن ، لامصادفة عابرة . وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجوا من النار للمدة لشياطين الجن كما هي مدة لشياطين الإنس . ويرسم النص مشهد هذا النفرا - وهم ما بين ثلاثة وعشر قوماً يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع في حسم منه ، من الروعة والتأثر والرهبنة والحشوع . « فلما حضروه قالوا : أنصتوا » . . . وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

« فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » . . .

وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن . فقد استمعوا صامتين متبهن حة ، النهاية . فلما اتهد ، التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق الكوت عليه ، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به . وهي حالة من امتلا حسه بئوه جديد ، وحملت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعا إلى الحركة به والاحتفال بشأه ، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام :

## سورة الاحقاف

« قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى ، مصدقا لما بين يديه ، يهدي إلى الحق

وإلى طريق مستقيم » ..

ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتابا جديدا أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى في أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تضى بأنها من ذلك التبع الذي ينبع منه كتاب موسى . وشهادة هؤلاء الجن البعيدين-نسبياً-عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

« يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ووقع الحق والهدى في هذا القرآن هائل ضخم ، لا يقف له قلب غير مطموس ؛ ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا متشدودة بالهوى الجامح اللثيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هي تنطق بهذه الشهادة ، وتعبّر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المندفع ، الذي يحس أن عليه واجبا في النذارة لا بد أن يؤديه :

« يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به ، ينفركم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم » ..

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ؛ واعتبروا محمدا -صلى الله عليه وسلم- داعيا لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثنتين له : فنادوا قومهم : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به » ..

وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأندروا بهذا الذي عرفوه .

ويروى ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية . ولكن السياق يوحي بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضا . ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية :

« ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك في

حلال مبین » ..

فهي تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوم إلى الاستجابة والإيمان ، فالاحتمال قوى

وراجح أن بينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذي لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء . ويذيقه العذاب الأليم ؛ فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالا بينا عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التي بعدها يحتمل كثيرا أن تكون من كلامهم ، تعجيبا من أولئك الذين لا يستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء :

« أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى؟ بلى . إنه على كل شيء قدير » ..

وهي لفظة إلى كتاب الكون المنظور، الذي ورد ذكره في أول السورة. وكثيرا ما يتضمن السياق القرآني مثل هذا التناقض بين قول مباشر في السورة ، وقول مثله يحىء في قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة .

وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السماوات والأرض . ويوحى للحس البشري بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو القصور . وصياغة القضية في أسلوب الاستفهام والجواب أقوى وآكد في تقرير هذه الحقيقة . ثم يحىء التعقيب الشامل : « إنه على كل شيء قدير » . فتضم الإحياء وغيره في نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شيء كان أو يكون .

\*\*\*

وعند ذكر الإحياء يرتسم مشهد الحساب كأنه شاخص للميون :  
« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال :  
فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

يبدأ المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » ..  
وبينا السامع في انتظار وصف ماسيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم في  
المشهد المروض :

« أليس هذا بالحق ؟ » ..

وباله من سؤال؟ بل يالها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم  
تلوى أعناقهم على الحق الذي كانوا ينكرون :

## سورة الاحقاف

والجواب في خزي وفي مذلة وفي ارتياح .

« بلى . وربنا » ..

هكذا هم يقسمون: « وربنا » .. ربهم الذي كانوا لا يستجيون لداعيه ، ولا يسمعون لنيه،

ولا يعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذي أنكروه !

عندئذ يبلغ السؤال غاية من التذليل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهي الحوار :

« قال : فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

« كلمة ورد غطاها » .. كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجاني معترف . فإلى الجحيم !

وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولا مجال لأخذ ولا رد . لقد كانوا ينكرون .

فالآن يعترفون . والآن يذوقون !

\*\*\*

وعلى هذا المشهد الحاسم في مصير الذين كفروا . وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفي

ختم السورة التي عرضت مقولات الكافرين عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن

الكريم .. يجيء الإيقاع الأخير . توجيهها للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر عليهم ،

ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم ، وهو منهم قريب :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا

إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ..

وكل كلمة في الآية ذات رصيد ضخم؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعاني

والإيحاءات ، والقضايا والقيم .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل لهم » ..

توجيه يقال لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى .

وهو الذي نشأ بينهما ، وجرّد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحدا بعد واحد . الأب .

والأم والجد . والم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجردا من كل شاغل . كما هو

مجرد من كل سند أو ظهير . وهو الذي لقي من أقاربه من الشركين أشد مما لاقى من الأبعدين .

وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلانصرة . وفي بعض

المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماء الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه

إلى ربه بذلك الابتهاج الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » . . .

ألا إنه لطريق شاق . طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد - صلى الله عليه وسلم - في تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفاتها وشفافيتها .  
تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .  
نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المحتوم .

« فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » . . .

تشجيع وتيسير وتأسيه وتسلية .. ثم تطمين :

« كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » ..

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التي عكثونها قيل الآخرة . وإنها تافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تترك ساعة من نهار .. ثم يلاقون البصير المحتوم . ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والمذاب الأليم :

« بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » . . .

لا . وما الله يريد ظلماً للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقاه . فما هي إلا ساعة من نهار .  
ثم يكون ما يكون . . .



## سُورَةُ الْحَمْدِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٣٨

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ - وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ - كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .

« فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ ، حَتَّى إِذَا أَتَّخَذْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ ، وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ \* سَيَهْدِيهِمْ ، وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ \* وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ ، وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ \* أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا \* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ \* إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ \* وَكَأَيِّ مَين قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيْبَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ \*  
 مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ  
 طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ  
 الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ  
 أَمْعَاءَهُمْ ؟ » ﴿١٥﴾

هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال  
 هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال في  
 جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الدين كفروا وحقيقة الدين آمنوا في صيغة  
 هجوم أدبي على الدين كفروا ، وتعجيد كذلك للذين آمنوا ، مع إيجاء بأن الله عدو للأولين وولي  
 للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه  
 وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة : «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين  
 آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم  
 وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .  
 كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الدين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض  
 الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأري بعد الإنحياز في المعركة والتفصيل  
 الضيف : « فإذا لقيتم الذين كفروا فخربوهم الرقاب ، حتى إذا اختموهم فشدوا الوثاق ، فإما  
 منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » . .

ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه ، وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله  
 بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصاراً لله : وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم :  
 « ذلك ولو يشاء الله لا تنصر منهم ، ولكن ليلو بعضهم بعضاً ، والذين قتلوا في سبيل الله  
 فلن يضل أعمالهم . سيديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن

تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتصالمهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياح الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » . . كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول صلى الله عليه وسلم : « وكأى من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » . .

ثم تمضى السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ؛ وتمتع الكافرين بلذائد الأرض كالحيوان : « إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » . . كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشق الأشربة الشبيهة من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، في وفر وفيض . . في صورة أنهار جارئة . . ذلك مع شق الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال : أهؤلاء « كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ؟ » . .

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها في السورة جولة مع المناققين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطرا على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر الشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل في تلك الفترة ، التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وماتلاها من خضد شوكة اليهود ، وضعف مركز المناققين ( كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب ) .

والحديث عن المناققين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلام الهجوم والقتال . منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم وإهتامهم في مجلسه ؛ ويقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى ، : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » . .

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر: « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟ » ..  
ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهاقتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون بالإيمان - والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغنى عليه من الموت ! » .

ويحثمهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم ، ويعلمن عليهم الحرب والطردهم واللعن : « فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ..

ويفضحهم في توليهم للشيطان ، وفي تأمرهم مع اليهود ، ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فردا فردا في المجتمع الإسلامي ، الذي يدمجون أنفسهم فيه ، وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم أسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ؟ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأرينا لهم فلمرقتهم بسياهم ، ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ..

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم » ..

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعداءهم : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، قلن يغفر الله لهم » ..

وتخصيص لهم على الثبات عند القتال : « فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأتمم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » ..

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذي يسره الله ، ولم يجعله استئصالا للمال كله ، رأفة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال :

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحضكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » . .

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إنهم بخلوا بإنفاق المال ، وبالبذل في القتال :  
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، فممن من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأتم الفقراء ، وإن تولوا يبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » . .

\*\*\*

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظلمها جو القتال ، وتسم بطابعه في كل فقراتها .

وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة : « أعمالهم . بأهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم ... » . وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء : « أوزارها . أمثالها . أقفالها ... » .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها .. فالقتال أو القتل يقول عنه :  
« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . . والقتيل والأسر يصوره بشدة : « حتى إذا أختتموهم فشدوا الوثاق » . . والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس : « فتعالمهم وأضل أعمالهم » . . وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلا ولفظا : « دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » . . وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد : « وسقوا ماء حيا قطع أمعاءهم » . . وحالة الجبن والفرع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف : « ينظرون إليك نظر الغنى عليه من الموت » . . حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم : « وإن تولوا يبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . .

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال . .

\*\*\*

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا

بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ؛ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ..  
افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم - يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال ، فإذا هي الهلاك والضبايع . وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال ، فكأنما هي شخوص حية أضلت وأهلكت . وتعمق المعنى وتلقى ظلاله . ظلال معركة تشرذم فيها الأعمال عن القوم ، والقوم عن الأعمال . حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك !

وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورأها الخير . والتي يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . وقد يكون الباعث طيبا . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير ، متصل بخط سير الحياة العريض ، ولا بناموس الوجود الأصيل . فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها ، وتتأثر به في كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس ؛ ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة وأثرا في كيان هذا الوجود ، وفي قيامه بدوره ، وانتهائه إلى غايته .

وفي الجانب الآخر : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم » .. والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته : « وهو الحق من ربهم » ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن في الضمير ، العمل الظاهر في الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعثاته . وهؤلاء : « كفر عنهم سيئاتهم » .. في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات في شكلها وظاهرها . وبينما يطل العمل ولو كان صالحا من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفي حقيقة الحياة ..  
« وأصلح بالهم » .. وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر

والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام. ومتى صلح البال، استقام الشغور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستتمت بالأمن والسلام. . وماذا بعد هذا من نعمة أومتاع؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرقاف. .  
 ولم كان هذا وكان ذلك؟ إنها ليست المحاباة. وليست المصادفة. وليس الجزاف. إنما هو أمر له أصله الثابت، المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق، وجعل الحق هو الأساس:

« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ..

والباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك؛ وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك. ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم، ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء.

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض، وتضرب جذوره في أعماق هذا الكون. ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه. ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم.

فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة، ويرجع إلى أسبابه الأصلية. وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف!

« كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ». وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم؛ فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه. ولا يختارون في الوزن والقياس!

\*\*\*

ذلك الأصل الذي قرره الآيات الأولى في السورة، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين. فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض، ويستعلى ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه. والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة:

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب. حتى إذا اخنتموهم فشدوا الوثاق. فإما منابذ وإما فداء. حتى تضع الحرب أوزارها » ..

واللقاء المقصود في الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء. حتى نزول هذه السورة

## الجزء السادس والعشرون

كان الشركون في الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد؛ ولم تكن بعد نزلت سورة « براءة » التي تنهى عهود الشركين المحددة الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمراً بقتل الشركين بعد ذلك أنى وجدوا في أنحاء الجزيرة - قاعدة الإسلام - أو يسلموا . كي تخلص لقاعدة للإسلام (١) .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعاً . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التي تمثلها ، تمشياً مع جو السورة وظلالها .

« فإذا أختتموم فشدوا الوثاق » ..

والإثخان شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ - لاقبله - يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والمدو ما يزال قويا فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وهي هذا لا يكون هناك اختلاف - كما رأى معظم المفسرين بين مدلول هذه الآية ، ومدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر . والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسك فيما أفضم فيه عذاب عظيم » (٢) . فالإثخان أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته ؛ وبعد ذلك يكون الأسر . والحكمة ظاهرة ، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العدوية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للشركين . وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك . والحكم ما يزال سارياً في عمومته في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو ، وتمجيذه عن الهجوم والدفاع . فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك ، فتحده هذه الآية . وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى :

« فإما منا بعد وإما فداء » ..

أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .

(١) هنا الحكم لا يسرى على المعركين خارج الجزيرة . فهؤلاء تقبل منهم الجزية إذا اختاروها .

(٢) تراجع في الظلال في سورة الأنفال جزء ١٠ ص ٢٤ - ٢٦ .



وليس في الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .  
ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والحلفاء من بعده استرقوا  
بعض الأسرى - وهو الغالب - وقتلوا بعضهم في حالات معينة .  
ونحن ننقل هنا ماورد حول هذه الآية في كتاب ( أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفى )  
ونعلق على ما ترى التعليق عليه في ثنياه . قبل أن نقرر الحكم الذي نراه :  
\* قال الله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره  
وجوب القتل لا غير إلا بعد الإيذان . وهو نظير قوله تعالى : « ما كان لبي أن يكون له أسرى  
حتى يثخن في الأرض » .. ( وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف ) .  
\* حدثنا محمد ابن جعفر ابن محمد ابن الحكم قال : حدثنا جعفر ابن محمد ابن اليمان . قال :  
حدثنا أبو عبيد . قال : حدثنا عبد الله ابن صالح ، عن معاوية ابن صالح ، عن علي ابن أبي طلحة ،  
عن ابن عباس في قوله تعالى : « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . قال :  
ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا في  
الأسارى : « فإذا منا بعد وإما فداء » .. فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار . إن شاءوا  
قتلهم ، وإن شاءوا استعبدهم ، وإن شاءوا فادوم . شك أبو عبيد في .. وإن شاءوا استعبدهم ..  
( والاستعباد مشكوك في صدور القول به عن ابن عباس فتركه . وأما جواز القتل فلانرى له  
سندا في الآية وإنما نصها للن أو الفداء ) .

\* وحدثنا جعفر ابن محمد قال : حدثنا أبو عبيد ، قال : حدثنا أبو مهدي وحجاج ، كلاما  
عن سفيان . قال : سمعت السدي يقول في قوله : « فإذا منا بعد وإما فداء » .. قال : هي منسوخة ،  
نسخها قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتمهم » : قال أبو بكر : أما قوله : « فإذا لقيتم  
الذين كفروا فضرب الرقاب » .. ودوله : « ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في  
الأرض » .. وقوله : « فإذا ثقفتهم في الحرب فسردهم من خلفهم » .. فإنه جائز أن يكون  
حكما ثابتا غير منسوخ . وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالإيذان في القتل  
وحظر عليه الأسر - إلا بعد إذلال المشركين وقتلهم - وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة  
عدد عدوهم من المشركين ، فثقل المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء . فالواجب  
أن يكون هذا حكما ثابتا إذا وجد مثل الحال التي كان عليها للمسلمون في أول الإسلام . ( وهو قول :

إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة . بينما النص في سورة محمد عام . فمحق الإغنان في الأرض جاز أخذ الأسارى . وهذا ماجرى عليه الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال ، ولم يقتلوا إلا في حالات معينة سيأتي بيانها ..

\* وأما قوله: « فإما منا بعد وإما فداء » .. ظاهره يقتضى أحد شيئين: من أوفداه . وذلك ينفي جواز القتل . وقد اختلف السلف في ذلك . حدثنا حجاج عن مبارك ابن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : من عليه أوفاده . وحدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : أخبرنا هشيم قال : أخبرنا أشعث قال : سألت عطاء عن قتل الأسير فقال : من عليه أوفاده . قال : وسألت الحسن . قال : يصنع به ما صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأسارى بدر ، بمن عليه أوفادى به . وروى عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قوله : « فإما منا بعد وإما فداء » . . وروى أيضا عن مجاهد ومحمد ابن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روينا عن السدى أن قوله: « فإما منا بعد وإما فداء » منسوخ بقوله: « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . وروى مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال: هي منسوخة . وقال : قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقبه ابن أبي معيط يوم بدر صبرا ، قال أبو بكر: اتفق قهها الأمصار على جواز قتل الأسير لانعلم بينهم خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قتله الأسير ، منها قتله عقبه ابن أبي معيط ، والنضر ابن الحارث بعد الأسر يوم بدر . وقتل يوم أحد أباعزة الشاعر بعد ما أسر . وقتل بنى قريظة بعد نزولهم على حكم سعد ابن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي القرية . ومن على الزبير ابن باطا من بينهم ، وفتح خير بعضها صلحا وببعضها عنوة ، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيافته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال ابن خطل ، ومقيس ابن حبابة ، وعبد الله ابن أبي سرح ، وآخرين ، وقال : « اقلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » . ومن على أهل مكة ولم يضم أموالهم . وروى عن صالح ابن كيسان عن محمد ابن عبد الرحمان عن أبيه عبد الرحمان ابن عوف ، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول: « وددت أنى يوم أتيت بالنجاة لم أكن أحرقتة ، وكنت قتله سرعا ، أو أطلتته نجيحا » . وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعد ما أعطاه الأمان

على قوم سماهم ونسى نفسه فلم يدخلها في الأمان قتلته . فهذه آثار متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك . (وجواز القتل لا يؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعض الصحابة . وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطى أنها حالات خاصة ، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر ابن الحارث وعقبة ابن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيذاء دعوته . وكذلك أبو عزة الشاعر ، ولبنى قريظة كذلك موقف خاص بارتضائهم حكم سعد ابن معاذ سلفا . وهكذا نجد في جميع الحالات أسبابا معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية : « فإما منا بعد وإما فداء » . . .

\* وإنما اختلفوا في فدائه ، فقال أصحابنا جميعا (يعني الحنفية) : لا يفادي الأسير بالمال ، ولا يباع السبي من أهل الحرب فيردوا حربا . وقال أبو حنيفة : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا ، ولا يردون حربا أبدا . وقال أبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يفادي أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثوري والأوزاعي ، وقال الأوزاعي : لا بأس ببيع السبي من أهل الحرب ، ولا يباع الرجال إلا أن يفادي بهم المسلمون . وقال المزني عن الشافعي : للإمام أن يمن على الرجال الذين ظهر عليهم أو يفادي بهم ، فأما المجزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله : « فإما منا بعد وإما فداء » وظاهره يقتضي جوازه بالمال وبالمسلمين ؛ وبأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي المهلب ، عن عمران ابن حصين . قال : أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأسر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلا من بني عامر ابن صعصعة ؛ فمر به النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو موثق ، فناداه ، فأقبل إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : علام أحبس ؟ قال : « بجريرة حلفائك » . فقال الأسير : إني مسلم ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لو قتلها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح » . ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فناداه أيضا ، فأقبل ، فقال : إني جائع فأطعمني . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هذه حاجتك » . ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - فداء بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما . . . (وحجة القائلين بالفداء أرجح في تقديرنا

من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الاختلاف في الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين .  
 \* وقد ختم الإمام الجصاص القول في المسألة بترجيح رأى أصحابه الحنفية قال: وأما ما في الآية من ذكر المن أو الفداء ، وماروى في أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة نفلوا سيلهم » . . وقد روينا ذلك عن السدى وابن جريج . وقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله: « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فتضمنت الآيات وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره يناق ذلك . ولم يختلف أهل التفسير ونقله الآثار أن سورة «براءة» بعد سورة «محمد» - صلى الله عليه وسلم - فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخا للفداء المذكور في غيرها . . ( وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين - أو الإسلام - مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لا ينفى أن يقع الأسرى في أيدي المسلمين قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم؟ نقول : إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة ، أو الفداء بهم بالمال أو بالمطعمين ، إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية . فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منه بطبيعته وهذه حالة أخرى ، فحكم الأسرى يظل ساريا في الحالة التي لم تنته بالجزية ) .

والخلاصة التي ننتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى . وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر . وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وما وقع بالفعل خارجا عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون لها دائما نظائر ؛ وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيرا فيحاكم على الجاسوسية لاطل أنه أسير . وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق . وقد سبق لنا في مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليد في الحرب عامة . ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام : « فأما منا بعد وإما فداء » . . في الوقت الذي يسترى أعداء الإسلام من بأسروهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بعض الحالات فأطلق بعض

الأسارى منا . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قاعمة لاتعالج بغير هذا الإجراء .  
 فإذا حدث أن اتفقت العسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى، فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهى : « فإما منا بعد وإما فداء » لاتقضاء الأوضاع التى كانت تقضى بالاسترقاق. فليس الاسترقاق حتميا، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى فى الإسلام . وهذا هو الرأى الذى نستوحيه من النص القرآنى الحاسم . ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث .. والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوما أنى أجنح إلى هذا الرأى لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده، لالأنه يهجس فى خاطرى أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرئ الإسلام منها . إن مثل هذا الخاطر لايهجس فى نفسى أبدا، فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ، لأنه مامن إنسان يعرف شيئا من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيرا مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأى بإعحاء النص واتجاهه .  
 وذلك . . . - أى القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة فى الأسرى - « حتى تضع الحرب أوزارها » . . . أى حتى تنتهى الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له .  
 فهى القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » كما يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تكون كلمة الله هى العليا (١) .

\*\*\*

والله لا يكلف الدين آمنوا هذا الأمر ، ولا يفرض عليهم هذا الجهاد ، لأنه يستعين بهم - حاشاء - على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضى عليهم قضاء مباشرا، وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ؛ الابتلاء الذى تقدر به منازلهم :  
 « ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضهم ببعض . والذين قتلوا فى سبيل الله قتلن يضل أعمالهم . سيديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .  
 إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وأمثالهم فى الأرض كلها فى كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين، الذين يظهرون فى ثوب البطش والاستكبار، ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعا حنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهبادة

(١) من حديث أخرجه أبو داود - بإسناده - عن أنس رضى الله عنه .

## الجزء السادس والعشرون

الصغيرة المسماة بالأرض ، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا الله في هذا الفضاء الذي تبدو فيه هذه المجرات والعوالم تقطاً متناثرة ، تكاد تكون ضائعة ، لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينفقها إلا الله .

فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع . بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها . أن يكونوا عملاً صغيرة . لابل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباءً تقاذفه النسائم . لابل إنهم لا يبلغون شيئاً أصلاً حين يقفون أمام قوة الله .

إنما يتخذ الله المؤمنين - حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إغنائهم - إنما يتخدم سبحانه ستاراً لقدرته . ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح المقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها . ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يتلهم ، ويربهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

يريد ليتلهم . وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات وأتجاهات . فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به ، حتى تجاهد في سبيله ، فتقتل وتقتل ، ولاتسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه ، ولاتستطيع الحياة بدونها ، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله .

ويريد ليربهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض القانية بما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوى في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص ، وينفي كل زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتطلع إلى وجه الله ورضاه . فترجع هذه وتشيل تلك . ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاخترت ، وأنها تربت فمرت ، وأنها لاتدفع بلا وهي ، ولكنها تقدر وتختار . ويريد ليصلحهم . ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتعرض للموت في كل جولة ، ما يهود للنفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف ، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازيرهم وقيمهم ليتقوه . وهو حين حين عند من يمتاد ملاقاته . سواء سلم منه أو لاقاه . والتوجه به الله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام ، وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء وبقاء وصلاح .



وأخيرا يحقق لهم ما وعدهم :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » ..

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا زيد ابن نمر الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير ابن مرة ، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » .. تفرد به أحمد . وقد روى حديثا آخر قريبا من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله . وهذه هي نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحهم هناك عند الله .

\*\*\*

وفي ظل هذه الكرامة للذين قتلوا في سبيل الله . وفي ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية ، وبلوغ ذلك المقام . يحرص الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرته تهججه في الحياة ؛ ويمدحهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه :

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتصامهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ إن الله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبق فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها ومسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلقاتها .. فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة .



وتقف لحظة أمام قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله » . . وقوله : « إن تصروا الله » . .

وفي كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصر . يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله . وهي لفظة بديهية ، ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عندما تتحرف العقيدة في بعض الأجيال . وعندما تتمن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتتحرف عن معناها الوحيد القويم . إنه لاجهاد ، ولاشهادة ، ولاجنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة .

لاجهاد ولاشهادة ولاجنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا . وأن تهيمن شريعته ومنهجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبي موسى - رضى الله عنه - قال : مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أى ذلك في سبيل الله ! فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (١) » .

وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد دون من يستشهد ، فيحق له وعد الله بالجنة . إلاتك الراية وإلا هذا الهدف . من كل ما يروج الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفظة البديهية ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة .

لاجهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام . وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف .

(١) أخرجه البيهقي وأبو داود والترمذي والنسائي .

وإذ اعز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الدين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وثبوت الأقدام . وعد الله لا يخلفه . فإذا تخلف فترة؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والثبوت (١) . ذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله .

ثم تقف لحظة أمام لفظة خاصة في التعبير : « ينصركم . ويثبت أقدامكم » ..

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت . معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية الحركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة . للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر . وفي عدم التراخي بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء . ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .

« والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » ..

وذلك عكس النصر وثبوت الأقدام . فالدعاء بالتعسا قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والحية والحذلان . وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

« ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وهو تصوير لما يستل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج وأتجاه . وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والحصومة والملاحاة . وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهي نفوس يلتقي بها الإنسان كثيرا في كل زمان وفي كل مكان . ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لدغتها العقارب وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيها

(١) تراجع الضلال في سورة الحج عند قوله تعالى : « ان الله ينافع من الدين آمنوا » من س ٩٦ لكس ٩٩ من الجزء ١٤ .

تسمع حولها من حديث! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة! وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله، أن أحبط الله أعمالهم. وإحباط الأعمال تعبير تصويرى على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير. فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام. ينتهى بها إلى الموت والهلاك. وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت. ثم انتهت إلى الهلاك والضياع! إنها صورة وحركة، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام. المتفخخة كبطون الأنعام، حين ترعى من ذلك النبت السام!

\*\*\*

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم في شدة وعنف :  
« أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ دمر الله عليهم. وللكافرين أمثالها... »

وهي لفظة عيفة مروعة، فيها سحجة وفرقة. وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم، وكل ما لهم، فإذا هو أنقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة. وذلك المشهد الذى يرسمه التميمير مقصود بصورته هذه وحركته، والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقته في انقضاؤه ومخطمه!

وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم، يلوح للحاضرين من الكافرين، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد، بأنها فى انتظارهم. هذه الواقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شيء وتدقهم بين الأنقاض: « وللكافرين أمثالها! »

وتفسير هذا الأمر المائل المروع الذى يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصلية الدائمة:

« ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم » ..

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه، وفيه الكفاية والغناء؛ وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير، لا تخليا من الله عن ولايته له، ولا تخلفا لوعده الله بنصر من يتولاهم من عباده. ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولوا اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء. فهو فى النهاية مضيع عاجز؛ ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس!

\*\*\*

## الجزء السادس والعشرون

ثم يوازن بين نصيب الدين آمنوا ونصيب الدين كفروا من المتاع بعد ما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع :  
« إن الله يدخل الدين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . .  
والذين آمنوا و عملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحيانا من أطيب المتاع ؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين - وهو نصيبهم في الجنة - والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار . فالله هو الذي يدخلهم . وهو إذن نصيب كريم علوى رفيع . وهم يتألمونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصالح ، متناسقا في رفعة وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصالح .  
ونصيب الدين كفروا متاع وأكل « كما تأكل الأنعام » . . وهو تصوير زري ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعاله ؛ ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره ، والمتاع الحيوانى الغليظ . بلاتذوق ، وبلا تعفف عن جميل أوقيع . . إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة ، ولا من اختيار ، ولا حارس عليه من تقوى ، ولا رادع عنه من ضمير .

والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل ، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم ، وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع ، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته ، والذي له قيم خاصة للحياة ؛ فهو يختار الطيب عند الله . عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة ، ولا يضعفها هتاف اللذة . ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام ، وفرصة متاع ؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيها يباح وما لا يباح . إن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة ، المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله .

\*\*\*

وتعرض سلسلة الموازنات بين الدين آمنوا والذين كفروا لفتة إلى القرية التي أخرجت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموازنة بينها وبين القرى المهالكة وكانت أشد قوة منها :

« وكأى من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم .. »  
وهي آية يروى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في أثناء رحلة الخروج والهجرة ،  
تسوية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسرية عنه؛ وتهوينا من شأن الشركين الجبارين الذين  
وقفوا في وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا  
بمقيدتهم .

\*\*\*

ثم يعرض في الموازنة بين حال الفريقين؛ ويطل لم كان الله ولى المؤمنين يدخلهم جنات تجري  
من تحتها الأنهار في الآخرة ، بعد النصر والكرامة في الدنيا ؛ ولم كان الذين كفروا لامولى  
لهم معرضين للهلاك في الدنيا - بعد حياة حيوانية هابطة - وللعذاب في الآخرة والثوى في النار  
والإقامة :

« أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبوا أهواءهم ؟ .. »  
فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان ، وفي المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا  
« على بينة من ربهم » .. رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا  
عنه ، وهم على يقين مما يتلقون . غير مخدوعين ولا مضللين . والذين كفروا زين لهم سوء عملهم ،  
فأوه حسنا وهو سيئ ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، « واتبوا أهواءهم » .. بلا ضابط يرجعون  
إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .  
أهؤلاء كهؤلاء ؛ إنهم يختلفون حالا ومنهجا واتجاها . فلا يمكن أن يتفقوا ميزانا ولاجزاء  
ولامصيرا |

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء في المصير:

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،  
وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة  
من ربهم . كمن هو خالد في النار ، وسقوا ماء حميا قطع أمعاءهم ؟ .. »  
إن هذه الصور الحسية من النعيم والعذاب ترد في مواضع من القرآن . وقد تجيء معها صور  
معنوية أو تجيء مجردة . كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجيء في مواضع أخرى .  
والله الذي خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، وما يصلح لتربيتهم .

ثم ما يصلح لنعيمهم ولعذابهم . والبشر صنوف ، والنفوس ألوان ، والطبائع شتى . تلتقى كلها في فطرة الإنسان ، ثم تختلف وتتوسع بحسب كل إنسان . ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب ، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه المطلق بالعباد . .

هنالك ناس يصلح تربيتهم ولاستجاشة همهم للعمل كما يصلح لجزائهم ويرضى نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من عدس مصفى ، وأنهار من خمر لذة للشاربين . أو صنوف من كل الثمرات . مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات . . فلهؤلاء ما يصلح لتربيتهم ، وما يليق لجزائهم .

وهناك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التي لا يحصونها . أولأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب . أولأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لا يحبها . ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق ، وهؤلاء يصلح لهم تربية ويصلح لهم جزاء أن يقول الله لهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » . . أو أن يعلموا أنهم سيكونون : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . .

ولقد روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يصلى حتى تنفر رجلاه . فقالت له عائشة - رضى الله عنها - يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) . .

وتقول رابعة العدوية : « أولو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ، ولم يخشه أحد ؟ » . وتجب سفيان الثوري وقد سألها : ما حقيقة إيمانك ؟ تقول : ما عبدته خوفا من ناره ، ولا جبالته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته شوقا إليه . .

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والشاعر والطباع . . وكلها تجد - فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء - ما يصلح للتربية في الأرض ؛ وما يناسب للجزاء عند الله . والملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون في مراقب التربية والتهديب على مدى نزول القرآن . وحسب أنواع المخاطبين ، واحالات المتنوعة التي كانت تخاطب بالآيات . وهي حالات ونماذج تتكرر في البشرية في جميع الأعصار .

وهنا نوعان من الجزاء : هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله . والنوع الآخرة : « كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميا قطع أمعاءهم » . .

(١) أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبادة ابن وهب .

وهي صورة حسية عنيفة من العذاب ، تناسب جو سورة القتال ، وتناسب مع غلظ طبيعة القوم . وهم يتمتعون وبأكلهم كما تأكل الأنعام . فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ . والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأعضاء ، التي كانت تحس وتلتهم الأكل كالأنعام ! ولن يكون هؤلاء كهؤلاء في الجزاء ، كما أنهم في الحال والنهج ليسوا سواء ..

\*\*\*

بهذا يحتم الجولة الأولى التي بدأت بالهجوم عند افتتاح السورة ، واستمرت في معركة متصلة ، عنيفة ، حتى الختام ..

« وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : مَاذَا قَالَ آيَاتًا ؟ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى ، وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ \* فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَتَدْجَأَ أَسْرَاطُهَا ، فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ \* فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ! فَإِذَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ ، فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ \* طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ \* فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ \* أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ \* أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالًا ؟

« إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُوا عَلَىٰ أذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ \* فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ \*  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ ، وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ .

« أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ؟ \* وَلَوْ نَشَاءُ  
لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَعَاتِهِمْ بِسِيَاهِهِمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ \*  
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » ﴿٣١﴾

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله . وأخيرا موقفهم من اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود في مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها . فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد ، الذي لا يحتاج أحد أن يناقشه ، فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة ، وانتشاره في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، اضطرناس ممن كرهوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وللإسلام أن يعز ويستعلى ، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة ، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره . وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر . وعلى رأسهم عبد الله ابن أبي سلول رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية في أول العهد المدني . وكرهيتهم كذلك لظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ودينه وأتباعه . كان وجود اليهود على هذا الوضع مشجعا للمنافقين . وسرعان ما جتمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات ودرس الدسائس في كل مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بمداهم وجهروا بينضائهم ؛ وإذا كانوا في رخاء ظلت الدسائس سرية والمكايد في الظلام ، وكانوا إلى منتصف العهد المدني يؤلفون خطرا حقيقيا على الإسلام والمسلمين .

وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور



المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكه . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين ، والإشارة كذلك إلى اليهود .

\*\*\*

« ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم .. »

ولفظة : « ومنهم » تحمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة . باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم ، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس .

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم ، وكأيديل السياق في هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذلك بعد استماعهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستماع معناه السماع باهتمام - يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهرا بأنهم يلقون سمعهم وبالحلم للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللثيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يفنى شيئا يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لا يجدون له غوى ولا يمسون منه شيء . كذلك قد يظنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه - كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم - فهم يسألونهم أن يمدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية .. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والحبث والانطاس والهوى الدفين :

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم .. »

ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض .

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم .. »

وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر . فالذين اهدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل : « وآتاهم تقواهم » . . والتقوى حالة في القلب تجعله أبدا واجفا من هبة الله ، شاعرا براقبته ، خائفا من غضبه ، متطلعا إلى رضاه ، منخرجا من أن يراه الله على هيئة أوفى حالة لا يرضاها . . هذه الحساسية المرهفة هي التقوى . . وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون في الوصول إلى رضى الله . والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطاس والغفلة في الآية السابقة . ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المناققين المطموسين الغافلين ، الذين يخرجون من مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يعوا بما قال شيئا ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكرهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ »

وهي جيزة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلابيب شحور وهزرتة هذا !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويخرجون منها ، غير واعين ، ولا حافظين ، ولا متذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ » . . فتنبأهم وهم سادرون غارون غافلون ! هل ينظرون إلا الساعة ؟ « فقد جاء أشراطها » . ووجدت علاماتها . والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهي إيدان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعه السبابة والتي تليها . (١) وإذا كان الزمن يلوح ممتدا من هذه الرسالة الأخيرة ؟ فإن أيام الله غير أيامنا . ولكننا في حساب الله قد جاءت الأشرط الأولى ؟ وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذ الساعة بغتة حيث لا يملك محوا ولا ذكرا :

« فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ » .

لأنها الهزة القوية العنيفة التي تخرج الغافلين من غفلتهم ؟ والتي تنفق كذلك مع طابع السورة العنيف .

(١) أخرجه الشيخان عن سهل ابن سعد رضى الله عنه .

## سورة محمد

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المهتدين المتقين المتعلمين؛  
ليأخذوا طريقاً آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه  
الشامل المحيط ؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون :  
« فاعلم أنه لا إله إلا الله ؛ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ؛ والله يعلم متقلبكم  
ومثواكم » ..

وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي - صلى الله عليه وسلم -  
ومن معه :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله » .

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى :

« واستغفر لذنبك » ..

وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس  
الذي يشعر أبداً بتقصيره مهاجهد ؛ ويشعر - وقد غفر له - أن الاستغفار ذكر وشكر على  
الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ممن يعرفون منزلته  
عند ربه ؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين والمؤمنات ، وهو المستجاب  
الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو  
يوجه لأن يستغفر لهم ، ليغفر لهم !

واللمسة الأخيرة في هذا التوجيه :

« والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما  
تقلب أو ثوى . والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع  
على سره ونجواه ..

إنها الترية . الترية باليقظة الدائمة والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر والانتظار ..

\*\*\*

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المناقنين من الجهاد ، وما يتمل في نفوسهم من جبن  
وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم في هذا الأمر ، كما يكشف

لهم ما ينتظرم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيوا ويصدقوا الله عند ما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد :

« ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشى عليه من الموت ، فأولى لهم طاعة وقبول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » . . .

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه ، ويجدون في كل سورة منه زادا جديدا حيبيا . وإما أن يكون تطلعا إلى سورة تبين أمرا من أمور الجهاد ، وتفصل في قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون : « لولا نزلت سورة ا » .

« فإذا أنزلت سورة محكمة » . . . فاصلة بينة لا تحتمل تأويلا « وذكر فيها القتال » . . . أى الأمر به ، أو بيان حكم للتخلفين عنه ، أو أى شأن من شؤونه ، إذا بأولئك « الذين في قلوبهم مرض » . . . وهو وصف من أوصاف الناقصين . . . يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون في حالة تزرى بالرجال ، يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنتظار :

« رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشى عليه من الموت » . . . وهو تعبير لا يمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أى عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع ، والضعف إلى حد الرعدة . والتخاذل إلى حد النشبة ا ويبقى بعد ذلك متفردا حافلا بالظلال والحركة التي تشغف الخيال ا وهي صورة خالدة لكل نفس خواراة لا تتصم بلعان ، ولا بظرة صادقة ، ولا بثبابة تجمل به أمام الخطر . وهي هي طيبة للرض والنفاقا وبيناهم في هذا التخاذل والتهافت والانهار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوى العزائم ويرشد القوائم لو تناولوه في إخلاص :

« فأولى لهم طاعة وقبول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم » . . .

نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة . ومن هذا الخور . ومن هذا الملح . ومن هذا النفاق ..  
 أولى لهم « طاعة وقول معروف » .. طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن  
 ثقة . وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب ، وطهارة الضمير . وأولى لهم إذا عزم  
 الأمر ، وجد الجهد ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة ، ويصدقوه شعورا .  
 فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ، ويثبت أقدامهم ، وييسر الشقة عليهم ، ويهون الخطر  
 الذي يتشاونونهولا تغرر فإها لتتهمهم ! ويكتب لهم إحدى الحسنين : النجاة والنصر ، أو الاستشهاد  
 والجنة .. هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوى العزائم ويشد القوائم ،  
 ويذهب بالفرع ، ويجعل عمله الثبات والاطمئنان .

وبينا هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرنا مهيدا بسوء الماقبة لو قادم حالهم  
 هذا إلى النكسة والتولى إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام :

« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ » ..

وهذا التعبير .. « هل عسيتم » .. يفيد ما هو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم  
 بالندير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التي كنتم فيها . تفسدون  
 في الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وبعد هذه اللفظة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لواتهوا إلى هذا الذي  
 حذرهم إياه :

« أولئك الذين لنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب

أقفالها ؟ » .

أولئك الذين يظنون في مرضهم ونفاقهم حق يتولوا عن هذا الأمر الذي دخلوا فيه بظاهرم  
 ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه . « أولئك الذين لنهم الله » .. وطردهم وحجبهم عن الهدى ،  
 « فأصمهم وأعمى أبصارهم » .. وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا  
 السمع وعطلوا البصر ، أوعطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يمد لهذه الحواس  
 وظيفة لأنها لم تمد تؤدي هذه الوظيفة .

ويتساءل في استنكار : « أفلا يتدبرون القرآن » .. وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح

فهد ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر . ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشئ

حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، « أم على قلوب أقفالها؟ » فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور؟ فإن استغلق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمع بالهواء والنور!

\*\*\*

ويعضى في تصوير حال المناققين، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه، فيتبين أنه تأمرهم مع اليهود، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون:

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم - من بعد ما تبين لهم الهدى - الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله: سنطيعكم في بعض الأمر. والله يعلم أسرارهم.. والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم، في صورة حركة حسية. حركة الارتداد على الأدبار. ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه. فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان! وهم المناقون الذين يتخفون ويتسترون! ثم يذكر السبب الذي جعل للشيطان عليهم هذا السلطان، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه:

« ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر » ..

واليهود في المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم، وأن يكون خاتم الرسل منهم؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبي الذي يقودهم ويمكن لهم في الأرض، ويسترجع ملكهم وسلطانهم. فلما اختار الله آخر رسوله من نسل إبراهيم، من غير يهود، كرهوا رسالته. حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته، التي هدت ما بقي لهم من مركز هناك. ومن ثم كانوا إلبا عليه منذ أول يوم، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد، حينما عجزوا عن مناصبته المراء جهرة في ميادين القتال؛ وانضم إليهم كل حائق، وكل منافق، وظلت الحرب سجالا بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أجلاهم في آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام. وهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم قالوا لليهود: « سنطيعكم في بعض الأمر » .. والأرجح أن ذلك كان في الدس والكيد والتأمر على الإسلام ورسول الإسلام.

« والله يعلم أسرارهم » .

وهو تعقيب كله تهديد. فأين يذهب تأمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر؟ وهو مكشوف لعلم الله؟ معرض لقوة الله؟

ثم التهديد السافر بجند الله ، والتأمرون في نهاية الحياة :

« فكيف إذا توقمهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » !

وهو مشهد مفرع مهين . وهم محتضرون . ولا حول لهم ولا قوة . وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفي مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التي تفتح بضرب الوجوه والأدبار . في لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والخافة . الأدبار التي ارتدوا عليها من بعد ماتين هم الهدى ! فيالها من مأساة !

« ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم » ..

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويفضبه .. « فأحبط أعمالهم » .. التي كانوا يحبون بها ويتعجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون . فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتتفخ . ثم تهلك وتضيع !

\*\*\*

وفي نهاية الشوط يتهدم بكشف أمرهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم؟ ولونشاء لأريناكم ، فلعرقتهم بسياهم ، ولعرقتهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ..

ولقد كان المناقون يتمدون على إفتانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافيا ، ويهدمهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم أحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : « ولونشاء لأريناكم فلعرقتهم بسياهم » .. أي لونشاء لكشفنا لك عنهم بدواتهم وأشخاصهم ، حتى ترى أحدهم فعرقه من ملاحظه ( وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم ) ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوتهم ، وإيمانهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقتهم في خطابك سيدك على نفاقهم :

« ولعرقتهم في لحن القول » ..

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : « والله يعلم أعمالكم » .. فلا تخفى عليه منها خافية ..

ثم وعد من الله بالابتلاء . ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال لخصفاء أمر الناقلين ولا أمر الضعاف والجزعين :

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » ..

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها، ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم ما يكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلا . فما هذا الابتلاء ؟ وإن يكون العلم من وراءه بما يتكشف عنه ؟ إن الله - جلت حكمته - يأخذ البشر بما هو في طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم . وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه . فلا بد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ، ثم ينتفعوا بها .

والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعاء والبأساء ، وبالسعة والضيق ، وبالفرج والكرب ... كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها .. أما المراد بعلم الله لما تكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها .

ورؤية الناس لها في صورتها التي تدركها مداركهم هو الذي يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم ، ويوجه حياتهم ، بوسائلهم الداخلة في طوقهم . وهكذا تتم حكمة الله في الابتلاء .

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه . ويتطلع إلى عاقبته ورحمته . فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ؛ واستسلم لمشيئة الله واثقا من حكمته ، متطلما إلى رحمته وعاقبته بعد الابتلاء .

وقد روى عن الفضيل العابد الصوفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا . فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أstarنا ، وعذبتنا ..

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَشَاقُوا الرَّسُولَ - مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى - لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيُخِيطُ أَعْمَالَهُمْ » ٤٦٧



« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .  
 « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .  
 « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ، وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ ، وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ  
 غَمًّاكُمْ \* إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ ،  
 وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ \* إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي حَرْبٍ فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَضْغَانَكُمْ \*  
 هَآأَنْتُمْ هُوَآءُ ، تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا  
 يَبْخَلُ عَنِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ . وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ  
 لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » ﴿٦٨﴾

الحديث في الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن « الذين كفروا وصدوا  
 عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما نبين لهم الهدى » .. وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم  
 المشركين الذين كان الحديث عنهم في أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح في  
 الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذي يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول - صلى  
 الله عليه وسلم - وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاما لكل من يقف هذا  
 الموقف ؛ يشمل اليهود في المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا  
 مثل هذا الموقف جهرة أوسرا . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

أما الحديث في الشطر الثاني والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم  
 إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أودعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم ، تحت  
 أى مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذى لا يكلفهم الله أن  
 ينفقوا منه إلا في حدود استطاعة ، مراعى الشح الفطرى في النفوس ! وإن لا يهضوا بتكاليف  
 هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قوما غيرهم يهضون  
 بتكاليفها ، ويسرفون قدرها . وهو تهديد عنيف يخيف يناسب جو السورة ، كما يضى بأنه  
 كان علاجا لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك من غير المنافقين - وذلك إلى جانب

حالات التفانى والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات. فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء. وكان القرآن يعالج ويربى لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالى الكريم ..

\*\*\*

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئا ، وسيجذب أعمالهم » ..  
 إنه قرار من الله مؤكد ، ووعد منه واقع : أن الذين كفروا ، ووقفوا في وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ؛ وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حياته بإعلان الحرب عليه ، والمخالفة عن طريقه ، والوقوف في غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته . وذلك « من بعد ما تبين لهم الهدى » .. وعرفوا أنه الحق ؛ ولكنهم اتبعوا الهوى ، وجمع بهم العناد ، وأعماهم الغرض ، وقادتهم المصلحة العاجلة ..

قرار من الله مؤكد ، ووعد من الله واقع أن هؤلاء « لن يضروا الله شيئا » .. وهم أضال وأضعف من أن يذكروا في مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى . فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته . ولن يحدثوا حدثا في نواحيه وسنته . مما بلغ من قوتهم ، ومما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريد بها ؛ وليست ضرا حقيقيا لناموس الله وسنته ونظامه ومنهجه وعباده القائمين على نظامه ومنهجه . والعاقبة مقررة : « وسيجذب أعمالهم » .. فتنتهى إلى الحية والدمار ، كما تنتهى للماشية التي ترعى ذلك النبات السام .

وفي ظل هذا اللصير الخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .. يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا اللصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :  
 « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم » ..

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ؛ أو من تحمل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات ، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تنف للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ؛ والتي تربطها بالمسلمين مصالح **وعلايق** قرين يصعب فصمها والتخل عنها نهائيا كما تقتضى العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيفا عميقا في نفوس المسلمين الصادقين ؛ فارتعشت له قلوبهم ، وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم ..

قال الإمام أحمد ابن نصر الروزي في كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع ابن أنس ، عن أبي العالية ، قال : كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرون أنه لا يضر مع لاله إلا الله ذنب ، كما لا يضر مع الشرك عمل ، فزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .. فخافوا أن يبطل الذنب العمل . وروى من طريق عبد الله ابن المبارك ، أخبرني بكر ابن معروف ، عن مقاتل ابن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : « كنا معشر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول ، حتى نزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .. فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ قلنا : الكبائر الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. فلما نزلت كففنا من القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن : كيف تهز لها وتضطرب ، وكيف ترتجف منها وتخاف ، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها ، وكيف تتحري أن تكون وقعها ، وإن تطابق أنفسها عليها .. وبهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز !

ثم بين الله لهم في الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ، ويذهبون من هذه الأرض كافرين :

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » ..

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا ؛ وباب التوبة يظل مفتوحا للكافر والمعاصي حتى

يفرغ . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهي نذارة لهم ليتداركوا

أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهي تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب

التي تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

ندرك هذا من ترتيب النبي عن الوهن والدعوة إلى السلم في الآية التالية على ماورد في الآية السابقة من بيان اصير الكافرين المشاقين :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأتمم الأعلون والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » ..  
فهذا هو الذي يحذر المؤمنين إياه، ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول، ليحذروا  
شبهه من بعيد !

وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل  
ومشقة الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه؛ ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب.  
وربما كان بعضهم ذوى قرابة في الشركين ورحم ، أو ذوى مصالح وأموال ؛ وكان هذا ينجح  
بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هي ؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه  
الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحا خارقا . ولكن هذا لاينفي أن تكون هناك  
رواسب في بعض النفوس ، وبخاصة في ذلك الوقت المبكر من العهد المدني . وهذه الآية بعض  
العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن في حاجة إلى تحرى  
خطوات القرآن في التربية . والنفوس هي النفوس :

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . وأتمم الأعلون والله معكم . ولن يتركم أعمالكم » ..  
أتمم الأعلون . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم . أتمم الأعلون اعتقادا وتصورا للحياة . وأتمم  
الأعلون ارتباطا وصلة بالعلی الأعلى . وأتمم الأعلون منهجا وهدفا وغاية . وأتمم الأعلون شعورا  
وخلقا وسلوكا . . ثم . . أتمم الأعلون قوة ومكانا ونصرة . فمعكم القوة الكبرى : « والله  
معكم » . . فلنستم وحدكم . إنكم في صحبة العلی الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر  
معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبذلون ، وكل ما تفعلون ،  
وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شيء عليكم : « ولن يتركم أعمالكم » ..  
ولن يقطع منها شيئا لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله - سبحانه - له أنه الأعلى . وأنه  
معه . وأنه لن يفقد شيئا من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هي اللسة الأولى . واللسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التي قد يصيبهم  
بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إبهاطهم ببذل المال مقابل  
هذه الأجور !

«إنما الحياة الدنيا لعب ولهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم .  
والحياة الدنيا لعب ولهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها  
متطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة  
فيها هو الذي يستحق وراثته الدار الباقية . وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية :  
« وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم » . . فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها  
عن أن تكون لعباً ولهواً ؛ ويبطعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني ، إلى  
مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض  
هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً ؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى ، في الدار الأبقى . . ومع هذا  
فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه ، لعله سبحانه  
يشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهو أرحم بهم من أن يكلفهم  
بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضعافهم :

« إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ، ويخرج أضعافكم » . .

وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن  
التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل  
استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام رباني إنساني . نظام رباني  
من ناحية أن الله هو الذي يقيم منهجه وقواعده ؛ وإنساني من ناحية أن الله يراعى في تكاليفه  
طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وفي النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله ؛ ويمالج شح النفوس  
بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها في ذات النفس عند الجهاد :

« هاتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فمنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن

نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تولوا يبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . .

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى  
البذل في كل بيئة . فهي تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء .  
وقد كان هذا واقعا ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن في مواضع أخرى .  
وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تنسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضو

## الجزء السادس والعشرون

وعن فرح بالبذل والمطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . وامل الجود بالنفس أرخص عند امضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية :

« ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى الرصيد . يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون . فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور فإذا بخلوا بالبذل ، فإنما يبخلون على أنفسهم ؛ وإنما يقللون من رصيدهم ؛ وإنما يستحشرون المال في ذواتهم وأشخاصهم ؛ وإنما يحرمونها بأيديهم !

أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل ، إلا وهو يريد لهم الخير ، ويريد لهم الوفرة ، ويريد لهم الكثرة والتخثر . وما يناله شيء مما يبذلون ، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون :

« والله الغني وأتم الفقراء » ..

فهو الذي أعطاكم أموالكم ، وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا ، الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة . وأتم الفقراء في الدارين وفي الحالين . أتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا ، فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأتم الفقراء إلى أجره في الآخرة ، فهو الذي يتفضل به عليكم ، وما أتم بموفين شيئا مما عليكم ، فضلا على أن يفضل لكم شيء في الآخرة ، إلا أن يتفضل عليكم .

فقيم البخل إذن وقيم الشح ؟ وكل ما في أيديكم ، وكل ما ينالكم من أجر عني ما تنفقون هو من عند الله ، ومن فضل الله ؟

ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب ..

إن اختيار الله لكم لجل دعوته تكريم ومنّ وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلا لهذا الفضل . وإذا لم تنهضوا بتكاليف هذه المسكينة . وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهن عليكم كل ماعداه .. فإن الله يسترد ما وهب ، ويختار غيركم لهذه المنّة ممن يقدر فضل الله :

« وإن تولوا يتبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

وإنها لندارة رهيفة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وبعقابه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم ، ويعيش في الأرض بسلطان الله في قلبه ، ونور الله في كيانه ؛ ويذهب ويهي ، وعليه شارة مولاه ..

وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويطرد من الكنف ، وتوصد دونه الأبواب . لا بل إن الحياة لتغدو جحماً لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .

إن الإيمان هبة ضخمة ، لا يمدأها في هذا الوجود شيء ؛ والحياة رخيصة رخيصة ، والمال رهيد رهيد ، حين يوضع الإيمان في كفة ، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه .  
ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن ، وهو يتلقاه من الله ..

**سُورَةُ الْفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ**  
وآياتها ٢٩

**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا \* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ، وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ۝ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا \* لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا \* وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ، الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا \* وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا .

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا \* لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا \* إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

« سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ: شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا، يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ: فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ



سورة الفتح

بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا؟ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا \* بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ  
الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ، وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا ،  
وَكَنتُمْ قَوْمًا بُورًا .

« وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا \* وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ، يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .  
« سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ - إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِنَاخِذُوهَا - ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ،  
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ، قُلْ : لَنْ تَتَّبِعُونَا . كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ،  
فَسَيَقُولُونَ : بَلْ تَحْسُدُونَنَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا \* قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ  
الْأَعْرَابِ : سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ، فَإِنْ تُطِيعُوا  
يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا ، كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ، يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .  
« لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ،  
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ بِعَدُوِّهِ  
عَذَابًا أَلِيمًا » ١٧

هذه السورة مدنية ، نزلت في السنة السادسة من الهجرة ، عقب صلح الحديبية؛ وهي تناول  
هذا الحادث الخطير وملابساته؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها في إبانها؛ فبين وقت نزولها  
ووقت نزول سورة « محمد » التي تليها في ترتيب المصحف ، نحو من ثلاث سنوات ، تمت  
فيها تغيرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة . تغيرات في موقفها وموقف المناوئين  
لها ، وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفها الإيمانية ، واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك  
ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالاتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذي نزلت  
بصدده ، لنميش في الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وهم يتلقون هذا التنزيل الكريم :

لقد أرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقين رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة ، حتى في الأشهر الحرم التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية ، ويضعون السلاح فيها ؛ ويستعظمون القتال في أيامها ، والصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمه ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفاً ، ولا يصد عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن ؛ وصدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذي أرى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في صورتها . وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم . قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة شهر رمضان وشوالاً ( بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك ) وخرج في ذى القعدة معتمراً لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ؛ وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدى ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

قال : وكان جابر ابن عبد الله - فيما بلغني - يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة . قال الزهري : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان بعسفان (١) لقيه بشر بن سفيان الكعبي . فقال : يا رسول الله ا هذ قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل (٢) ، قد لبسوا - تلود النمر - وقد نزلوا بذي طوى ، يماهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد ابن الوليد في خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم (٣) . قال : فقال

(١) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .

(٢) العوذ التي لم تلد ، والمطافيل ذوات الأظفار . وهذا يقتضى أن يكون النس العوذ والمطافيل

(٣) كراع الغميم دار أمام عسفان بناية أميال .

## سورة الفتح

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا ببني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرقتين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لأزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة (١) . ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ » .

قال ابن اسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر ، أن رجلا من أسلم قال : أنا يارسول الله . قال : فسلك بهم طريقا وعرا أجرل (٢) بين شعاب . فلما خرجوا منه - وقد شق ذلك على المسلمين - وأفضوا إلى أرض سهابة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للناس : « قولوا نستغفر الله وتوب إليه » . فقالوا ذلك . فقال : « والله إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها » (٣) .

قال ابن شهاب الزهري : فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين » بين ظهري الحمض (٤) في طريق على ثنية المرار ، مهبط الحديدية (٥) من أسفل مكة ؛ قال : فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قفرة (٦) الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم . رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقال الناس : خلأت الناقة (٧) . فقال : « ما خلأت به وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها - ( وفي رواية البخاري : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله تعالى إلا أعطيتهم إياها ) . ثم قال للناس : « انزلوا » قيل له : يارسول الله ، ما بالوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهبا من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه . فزل في قلب (٨) من تلك القلب ، ففرزه في جوفه ، فحاش بالرواء . . .

(١) السالفة صفة العنق ، يعنى : أو أقتل . فإنها لا تنفرد إلا بالقتل .

(٢) أجرل : كثر الحجارة .

(٣) يشير - صلى الله عليه وسلم - إلى ما جاء في القرآن الكريم : « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم .. »

(٤) الحمض : ماملح من النبات وهو هنا اسم موضع .

(٥) قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة .

(٦) قفرة الجيش : غباره .

(٧) خلأت : كما تقول للدابة حرنت . ولا يقال خلأت إلا للناقة .

(٨) القلب : منخفض يحفظ به ماء المطر حين ينزل .

فلما اطمأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي ، في رجال من خزاعة ، فكلموه ، وسألوه ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ، ومعظما لحرمة . ثم قال لهم نحووا مما قال لبشر ابن سفيان ؛ فرجموا إلى قريش فقالوا : يامشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد . إن محمدا لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت . فاتهموم وجهوم ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالا . فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا . ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح (١) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشرکہا ، لا يخفون عنه شيئا كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز ابن حفص ابن الأخيف أخا بني عامر ابن لؤي . فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلا قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلمه ، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحووا مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم بعثوا إليه الحليس ابن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش (٢) ، وهو أحد بني الحارث ابن عبد مناة ابن كنانة . فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن هذا من قوم يتألهون - يعني يعبدون - فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه » . فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظاما لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك ا

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله ابن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال : يامشر قريش ، والله ما لي هذا حالناكم ، ولا لي هذا عاقدناكم . أصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال : فقالوا له : مه . كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

قال الزهري : ثم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عروة ابن مسعود الثقفي فقال : يامشر قريش ، إنني قد رأيت ما يلقى منكم من بسموه إلى محمد إذا جاءكم ، من التضييف

(١) أي وعاء نصح . والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما سيذكر .

(٢) الأحابيش جمع حبيبي بضم الحاء وسكون الباء نسبة إلى مكان في البادية .

## سورة الفتح

وسوء اللفظ . وقد عرقتم أنكم والد وأنى ولد ( وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس ) وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس بين يديه . ثم قال : يا محمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم (١) ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا . قال : وأبو بكر خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد . فزجره (٢) وقال : أئمن نكشف عنه؟ قال : من هذا يا محمد؟ قال : « هذا ابن أبي خافة » . قال . أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكافأتك بها . ولكن هذه بها . قال : ثم جعل يتناول حية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يكلمه . قال : والمغيرة ابن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديد . قال : فجعل يقرع يده إذا تناول حية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن لاتصل إليك ! قال : فيقول عروة : وبحك ! ما أفظك وأغلظك ! قال : فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له عروة : من هنا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة » . قال : أي غدر (٣) . وهل غسلت سواتك إلا بالأمس ؟

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من ثقيف ، فتهابج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط القتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة القتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

قال ابن إسحاق : قال الزهري : فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنحو ما كلم أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا . فقام من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا ييصق بصاقا إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني جئت كمرى

(١) بيضة الرجل : أهله ووليكه . وتفضها أي تكسرها . وهي كناية عن تحطيمهم .

(٢) في الرواية جلة استبد صدورهما على لسان أبي بكر رضي الله عنه في أدبه وحنه لسانه .

(٣) أي : باقادر

في ملكه . وقصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ؛ وإني والله ما رأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ؛ ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا خراش ابن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له : الثعلب . ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرادوا قتله . فنعتة الأحابيش ، نخلوا سبيله حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس (عن ابن عباس) أن قريشا كانوا بمشوا أربعين رجلا منهم ، أو خمسين رجلا ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا . فأخذوا أخذا ، فأتى بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعفا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة والنبل .

ثم دعا عمر ابن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي ، وليس بمكة من بني عدى ابن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني . عثمان ابن عفان . فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عثمان ابن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمة .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان ابن سعيد ابن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظما قريش ، فبلغهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم : إن عشت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين أن عثمان ابن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله ابن أبي بكر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - حين بلغه أن عثمان قد قتل - : « لا تبرح حتى تناجز القوم » . فدعا رسول الله - صلى

## سورة الفتح

الله عليه وسلم - الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الموت . وكان جابر ابن عبد الله يقول : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر . فبايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجذ ابن قيس أخو بني سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد ضباً إليها (١) ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل .

قال ابن هشام : وحدثني من أثق به ، عن حدثه بإسناده ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عمر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى . قال ابن إسحاق : قال الزهري : ثم بعثت قريش سهيل ابن عمرو أخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له : إيت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا . فأتاه سهيل ابن عمرو ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلا قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . فلما انتهى سهيل ابن عمرو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينها الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر ابن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه (١) ، فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » . قال : فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حين رجوت أن يكون خيرا !

(١) ضباً إليها : لصق بها واستتر .

(١) الزم غرزه : أي التزم طريقه . وأصله وضع القدم في الركاب موضع قدمه .

قال : ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي ابن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال : « اكتب باسم الله الرحمن الرحيم » قال : فقال سهيل : لأعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اكتب باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو » . قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله . سهيل ابن عمرو . اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشا بمن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيتنا عيبة مكفوفة (١) . وأنه لا إسلا ولا إغلال (٢) ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - فتوالت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتوالت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم - وأنتك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل ابن عمرو ، إذ جاء أبو جندل ابن سهيل ابن عمرو يرسف في الحديد ، قد انقلت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلييه ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت (٣) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فجعل يتره بتلييه ويجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا مضر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتونني في ديني؟ فزاد الناس إلى ما بهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولبن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا

(١) أي تكف عنا ونكف عنك . والأصل أن بيتنا وعاء متفلا فاستعاره لهذا المعنى .

(٢) الإسلا : السرقة الخفية ، والإغلال : الحياثة :

(٣) لجت القضية : العقدت وانتهى أمرها .



## سورة الفتح

وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله . وإنما لا تغدر بهم » . قال : فوثب  
عمر ابن الخطاب مع أبي جندل يمشى إلى جنبه ، ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ،  
وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدنى قائم السيف منه . قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ  
السيف فيضرب أباه . قال : فضع الرجل بآية ، ونفذت القضية (١)

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من الشركين : أبو  
بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله ابن سهيل ابن عمرو ،  
وسعد ابن أبي وقاص ، ومحمود ابن مسلمة ، ومكرز ابن حفص ( وهو يومئذ مشرك ) وعلى  
ابن أبي طالب ، وكتب ، وكان هو كاتب الصحيفة .

قال الزهري : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه :  
« قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال - صلى الله عليه وسلم -  
ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد دخل - صلى الله عليه وآله وسلم - على أم سلمة - رضی  
الله عنها - فذكر لها ما لقي من الناس . قالت ( أم سلمة ) - رضی الله عنها - : يانبي الله ،  
أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك ، وتدعو حالقك فيحلقك :  
فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك ، نحر يده ، ودعا  
حالفه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل  
بعضا غما .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . قال :  
حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يرحم الله المحلقين » .  
قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول  
الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يارسول الله ؟ قال : « والمقصرين » .  
قالوا : يارسول الله ، فلم ظهرت الترجيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » .  
قال الزهري في حديثه : ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجهه ذلك  
قافلا . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح .

(١) روى عن أبي جندل أن الذي منعه حرصه على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا الضن بآية ا

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن مجمع ابن حارثة الأنصاري - رضى الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباغر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فخرجنا مع الناس نوجف . فإذا رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » .. قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : أى رسول الله أوفتح هو ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « إى والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » ..

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سفر . قال : فسألته عن شىء ثلاث مرات فلم يرد على . قال : فقلت ثكلتك أمك يا ابن الخطاب . ألححت . كررت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات ، فلم يرد عليك ! قال : فركبت راحلتي ، فحركت بعيرى ، فتقدمت ، مخافة أن يكون نزل فى شىء . قال : فإذا أنا بعناد يا عمر . قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل فى شىء . قال : فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « نزل طىّ البارحة سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها : إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر » .. ورواه البخارى والترمذى والنسائى من طرق عن مالك رحمه الله ..

\*\*\*

هذا هو الجو الذى نزلت فيه السورة . الجو الذى اطمانت فيه نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إلهام ربه ، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحىه هذا الإلهام الملقى الصادق ؛ ومضى يستلهم هذا الإلهام فى كل خطوة وفى كل حركة ، لا يستفزّه عنه مستفز ، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم فى أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة فى قلوبهم ، فقاءوا إلى الرضى واليقين . والقبول الخالص العميق ؛ كماخوانهم الذين كانوا طى هذه الحال منذ أول الأمر ، شأن الصديق أبى بكر الذى لم تفقد روحه لحظة واحدة صلّتها الداخلية الباشرة بروح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم بقيت طى اطمانها دائما ، ولم تفارقها الطمأنينة أبدا .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرح لها قلبه الكبير

## سورة الفتح

فرحا عميقا : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا » .

كما جاء في الافتتاح، الامتتان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين لزدادوا إيمانا - مع إيمانهم - والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليا حكما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . . ذلك مع ما أعد له لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والشركين والشركيات من غضب وعذاب : « ويمدب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيرا » . . ثم التنويه ببيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واعتبارها بيعة لله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحى الباقي الذى لا يموت : « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الدين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

وإنما البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه . ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل . وذلك في أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضمف المخلفين ، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحا قريبة يسيل لها لعاب المخلفين التباطئين :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفرنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئا ، إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا ؟ بل كان الله بما تعملون خيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعدنا للكافرين سعيرا . والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله

غفوراً رحيمًا . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها : ذرونا تتبعكم ، يريدون أن يدلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحذونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : استدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيموا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تولوا كاتوليتهم من قبل يمدبكم عذابا ألما . »

وفي هذا الصدد بين المذورين إذا تخلفوا ، والمغنين من الجهاد لمجزم عنه ، وهو العذر الوحيد : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول يمدبه عذابا ألما . . »

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوارج نفوسهم ؛ حديثا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثا يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وثيابه . ويلبغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه : « تحت الشجرة » وأنه اطلع على مافي نفوسهم . وأنه رضىهم ورضى عنهم ، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فلم مافي قلوبهم ، فأزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا . ومغنم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما . وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها ، فمجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا . ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأعداء ثم لا يجردون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن نجد لسنة الله تبديلا . . »

ويعني عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدى أن يبلغ محله ، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكته في كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله في ترضيتهم بما كان ، وإزال سكنته في قلوبهم ، الأمر يراه ، وهو أعظم مما يرون ، وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتديره : « وهو

## سورة الفتح

الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوبا أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطؤوهم فتصيكم منهم معرفة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لوتزيلوا لعدبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ؛ وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليما . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا . فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا . . .

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر، وتفردتها بسمتها الخاصة، وتوهم بها في الكتب السابقة : التوراة والإنجيل . وبوعده الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيأثم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعند الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . . .

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة، تعيش في جوها الذي نزلت فيه، وتصوره أقوى تصوير ، بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ؛ ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ؛ ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص بالأصل الكوني العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

\*\*\*

ومن سياق السورة وجوها، وبالموازنة بينها وبين إحياءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة ، في مدى السنوات الثلاث ، التي نرجح أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سمعت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن ، وفي رعاية النبوة . فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل .

واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجاوت مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين؛ ولم تعد محتاجة إلى حوار عيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها، وينهه حدتها، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء والمهادنة بعض الوقت، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة.

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى: «فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم»... ولا بمثل قوله تعالى: «ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء، وإن تولوا يبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم».

ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة؛ ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد، إذ يقول الله تعالى: «ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم».

إنما صار الحديث عن السكينة التي أزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أزلها عليهم، والمقصود بها تهدئة فورتهم، وتخفيض حميتهم، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله - صلى الله عليه وسلم - في المهادنة والملاينة، وعن رضی الله على المبايعين تحت الشجرة. وكانت هذه الصورة الوضیئة في نهاية السورة للرسول ومن معه.

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما»... فالإيحاء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة. والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين، وكذلك الإشارة إلى المناقنين والمناقعات فهي إشارة عابرة، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها. وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئا مما شغله الحديث عن المناقنين في سورة محمد، حيث كان للمناققين شأنهم وحلفاؤهم اليهود. وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يسير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل.

## سورة الفتح

وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة الشركين في جو السورة كلها وفي آيات بعضها؛ والإشارات إلى الفتح المقبلة، وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله.. كلها تثنى بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين.

ففي حقيقة النفوس، وفي حال الجماعة، وفي الظروف المحيطة بها، حدث تطور واضح، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية. ولهذا التطور قبعته كما أن له دلالة على أثر النهج القرآني والتربية المحمدية. لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ. ثم إن لهذا التطور إجماعاً للقائمين على الجماعات البشرية. فلاتضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته، وآثار البيئة والوسط، وجواذب الأرض، وثقله اللحم والدم.. وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة. ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج، تأخذ في التحسن والتطور. والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور، حين تتخذ فرصة للتربية والتوجيه. وشيئا فشيئا تخف ثقله الطين، وتشف كثافة اللحم والدم، وتتوارى آثار البيئة، وتصفو رواسب الماضي، وتستشرف القلوب آفاقاً أعلى فأعلى، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضوء البعيد. ولنا في رسول الله أسوة حسنة، ولنا في النهج القرآني صراط مستقيم.

\*\*\*

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك، ويهديك صراطاً مستقيماً، وينصرك الله نصراً عزيزاً »..

تفتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله - صلى الله عليه وسلم - : فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة . ونصر عزيز .. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضى لإيمانه وإشارته . والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية . والثقة العميقة بالرعاية الحانية .. يرى الرؤيا فيتحرك بوحياً . وتبرك الناقة، ويتصايح الناس : خلأت القصواء . فيقول . « ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لاتدعوني قریش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .. ويسأله عمر ابن الخطاب في حية : فلم تعطى الدنيا في ديننا ؟ فيجيبه : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » .. ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول - صلى الله عليه وسلم - : « لا تبرح حتى تناجز القوم » .. ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا.

وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة :

كان فتحا في الدعوة . يقول الزهري : فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين ( بين صلح الحديبية وفتح مكة ) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر . قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله . ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

وكان ممن أسلم خالد ابن الوليد وعمرو ابن العاص .

وكان فتحا في الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تخلص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي - بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة - وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خير القوية التي تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة ، جعلها الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيمن حضر الحديبية دون سواهم .

وكان فتحا في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه : « سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم » :

« ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية ، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتها وكيانها ، واعتبرت النبي والمسلمين أندادا لها ، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن ، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبمجرد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأقتهم ، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقتلهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب ،



## سورة الفتح

الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الججودي كل التأثير وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدررون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد ذلك .

« ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه . إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتا وشأنهم ضآلة ، وإذا صار العرب يقدون على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أنحاء قاصية ، وإذا تمكن من خضد شوكة اليهود في خير وغيرها من قراهم المسيرة على طريق الشام ، وإذا صار يستطيع أن يبعث سراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذا استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها . وكان في ذلك النهاية الحاسمة ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا (١) . »

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك - إلى جانب هذا كله - فتح آخر . فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التي رضى عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوءه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة : « محمد رسول الله . والذين معه ... الخ » . فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حساب ، وله دلالة ، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

ولقد فرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه السورة فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال - في رواية - : « نزل على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها » . وفي رواية : « لقد أنزلت على الليلة سورة هي أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » .. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . وفاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة ، تقول عنها عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه ، فقالت له عائشة - رضى الله عنها - يا رسول الله

(١) ص ٢٩٢ - ٢٩٣ من الجزء الثاني .

أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - :  
« يا عائشة ، أفلا أكون عبدا شكورا ؟ » (١) ..

\*\*\*

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة ؛ ثم مضى السياق ليصف نعمة  
الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم في الآخرة من غفران  
وفوز ونعيم :

« هو الذي أزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، والله جنود السماوات  
والأرض ، وكان الله عليا حكما . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ،  
خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » ..

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب ، تكون طمأنينة  
وراحة ، ويقينا وثقة ، ووقارا وثباتا ، واستسلاما ورضى .

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة .  
كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدخول المسجد  
الحرام ؛ ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرجوع عن  
البيت في هذا العام ، بعد الإجماع ، وبعد إشعار الهدى وتقليده . وكان هذا أمرا شاقا على  
نفوسهم ما في ذلك زيب . وقد روى عن عمر - رضي الله عنه - أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ،  
فكان مما قال له - غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث - : أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي  
البيت ونطوف به ؟ قال أبو بكر - الموصول القلب بقلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بلى . أفأخبرك أنك تأتيه  
العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر - رضي الله عنه - إلى النبي -  
صلى الله عليه وسلم - فقال له فيما قال : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟  
قال - صلى الله عليه وسلم - : « بلى . أفأخبرتك أنا تأتيه العام ؟ » قال : لا . قال رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - : « فإنك آتية ومطوف به » . فهذه صورة مما كان يجيش  
في القلوب .

(١) أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله ابن وهب .

## سورة الفتح

وكان المؤمنون ضيق الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتي محمداً  
بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمان الرحيم . وفي رد صفة رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - وقد روى أن علياً - رضى الله عنه - أبى أن يحو هذه الصفة كما حنّب  
سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فمحاها رسول الله بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أنى  
رسولك » . .

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية ؛  
ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هينا على نفوسهم أن تنهى الأمور  
إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق . حتى قالها رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - ثلاثاً . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامثالاً . كالذى حكاه عنهم لقريش  
عروة ابن مسعود الثقفى . ولم ينحروا ويحلّقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل  
بكذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذى كان في  
دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالا ، ولم يستعدوا له نفسياً  
ولا عملياً . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لهمان ، وإرسال نفر الدين  
رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على  
الناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم . ولكن هذا لا ينبئ موقف المفاجأة على غير  
ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات .  
وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون . .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة  
في قلوب المؤمنين » . . ويدوق طم اللفظ وطم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه  
مع هذه النصوص ، ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان ،  
والحمية الإيمانية لأنفسهم ، ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة : « ليزدادوا  
إيماناً مع إيمانهم » والطمانينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التى لا تقلق ، وفيها الرضى  
المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوّح بأن النصر والغلب لم يكن عسيرا ولا بعيدا ، بل كان هينا يسيرا على الله لو اقتضت حكته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن لله جنودا لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء : « والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليا حكما » . . . فهي حكته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد .

وعن العلم والحكمة : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم » .  
ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم :

« ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » . . .

وإذا كان هذا في حساب الله فوزا عظيما ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم في حقيقته ، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدرًا بتقديره ، موزونا بميزانه . . . ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعد ما سمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكته فيما قدر في هذا الحادث ؛ وهو مجازاة الناققين والناققات والمشركين والشركيات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف :

« ويعذب الناققين والناققات والمشركين والشركيات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا . والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكما » . . .

وقد جمع النص بين الناققين والناققات والمشركين والشركيات في صفة ظن السوء بالله ؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفي أنهم جميعا « عليهم دائرة السوء » فهم محصورون فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم . وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعد لهم من سوء المصير . . . ذلك أن النفاق صفة مردولة لا تقل عن الشرك سوءا ، بل إنها أخط ؛ ولأن أذى الناققين والناققات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والشركيات ، وإن اختلف هذا الأذى وذلك في مظهره ونوعه .

## سورة الفتح

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله .  
فالتقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائما . يتوقع منه الخير في السراء والضراء .  
ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين . وسر ذلك أن قلبه موصول بالله . وفيض الخير من  
الله لا يقطع أبدا . فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها إحساس مباشرة  
وتدوق . فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله . ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة  
ولا يحدونها ، فيسوء ظنهم بالله ؛ وتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويبنون عليها أحكامهم .  
ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ؛ على غير  
نعمة بقدر الله وقدرته ، وتدييره الخفي اللطيف .

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده ،  
وما أعد لهم في النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :  
« والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزا حكما » . . .  
فلا يعيبه من أمرهم شيء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء ، وله جنود السماوات والأرض ،  
وهو العزيز الحكيم .

\*\*\*

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منوها بوظيفته ، مبينا للغاية منها ،  
موجها للمؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة ،  
وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويتعاقدون  
معه . وفي ذلك تشریف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد :  
« إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتمزروه وتوقروه ،  
وتسبحوه بكرة وأصيلا . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث  
فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . . .  
فالرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها  
ما أمر به ، وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها  
المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر  
بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المتقلب والنضب واللغة  
والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين . . .

هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد . طرفي النهار في البكور والأصيل ، وهي كناية عن اليوم كله ، لأن طرفي النهار يضمان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن . فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهدا ومبشرا ونذيرا .

وقد جاء - صلى الله عليه وسلم - ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لاتقطع ببيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم . فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعا ، فإنما يبايع عن الله : « إن الدين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم » . . وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده ، أن يد الله فوق أيديهم . فالله حاضر البيعة . والله صاحبها . والله أخذها . ويده فوق أيدي المتبايعين . . ومن ؟ الله ! يا للهول ! وباللوعة ! وبالجلال !

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة - مها غاب شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالله حاضر لا يغيب . والله آخذ في هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب .

« فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » . .

فهو الخاسر في كل جانب . هو الخاسر في الرجوع عن الصفقة الراجعة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الراجح من فضل الله ، والله هو الغنى عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقتة ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء .

« ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » . .

هكذا على إطلاقه : « أجرا عظيما » . . لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم . عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقى إلى تصوره أبناء الأرض القلون المحدودون القانون !

\*\*\*

## سورة الفتح

وعند ما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى الخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضرر للمؤمنين الخارجين ، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها ، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين .. يلتفت إليهم لينبئ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالما هو ومن معه ، وقد هادته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مها كانت شروطها - التراجع من قريش ، واعتبار محمد - صلى الله عليه وسلم - ندا لها تهادنه وتتي خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمام المؤمنين . كما ينبئهم بما فيه البشري له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغنم قريية ميسورة ، وأن الخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب اليسور الذي سيقصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديدية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجه آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولى بأس شديد . فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

« سيقول لك الخلفون من الأعراب : شغلنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نعمة ؟ بل كان الله بما تعملون خيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعدنا للكافرين مصيرا . والله ملك السماوات والأرض يفرض لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما . سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها : ذرونا تبعمكم . يريدون أن يدلوا كلام الله . قل : لن تبعمونا . كذلك قال الله من قبل . فيقولون : بل تحسدونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا . قل للمخلفين من الأعراب : استدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا ، وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما .. »

والقرآن لا يكتب بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة نرسنة لمعالج أمراض النفوس ، وهو اجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والاعرف لكشفها عميدا لمعالجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب- وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة - سيقولون اعتذارا عن تخلفهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر . فلناس دائما أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها مانهض أحد قط بها .. وسيقولون « فاستغفر لنا » .. وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبىء الله رسوله - صلى الله عليه وسلم : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » .. هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يدفعه مخلف ، ولا يغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس وتصرف فى أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وقته :

« قل : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا؟ بل كان الله بما تعملون خيرا » ..

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تكؤ . قالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا ، ولا يؤخر نفعا . واتحال الماير لا يخفى على علم الله . ولا يؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبه على طريقة القرآن . « بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا ، وزين ذلك فى قلوبكم ، وظنتم ظن السوء ، وكنتم قوما بورا » ..

وهكذا يفهم عرايا مكشوفين ، وجها لوجه أمام ما أضروا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهلهم بالمدينة؟ وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه فى عقري داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! - يشيرون إلى أحد والأحزاب- ولم يحسبوا حسابا لرعاية الله وحمايته للصادقين للتجربدين من عباده . كما أنهم - بطبيعة تصورهم للأمر ونحو قلوبهم من حرارة العقيدة- لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنه ما كانت ؛ وأن طاعة رسول الله-



## سورة الفتح

على الله غلبه وسلم - يجب أن تكون بدون نظر إلى الريح الظاهري والحساسة الشكلية ،  
فهي واجب مفروض يؤدي دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن في قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا في سواه .  
وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشئ من أن قلوبهم بور . وهو تعبير عجيب موح . فالأرض  
البور مينة جرداء . وكذلك قلوبهم . وكذلك هم بكل كيانهم بور . لاجية ولا خصب ولا  
إعمار . وما يكون القلب إذ يغلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟  
يكون بورا . ميتا مجرد نهايته إلى البوار والدمار .

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة . الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله .  
البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة . هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة  
الباطل هي الراجحة ، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ؛ وأن المؤمنين  
قلة في العدد ، أو قلة في العدة ، أو قلة في المكان والجاه والمال . هكذا يظن الأعراب وأشباههم  
في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهلهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المتفش بقوته الظاهرة .  
ومن ثم يتجنبون المؤمنين حبالا للسلامة ؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يتأصلوا وأن تنتهي دعوتهم  
فيأخذونهم بالأحوط ويعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ؛ ولكن الله يحجب ظن السوء  
هذا ؛ ويبدل المواقف والأحوال بعرفته هو ، وبتيديره هو ، وحسب ميزان القوى الحقيقية .  
الميزان الذي يمسه الله بيده القوية ، فيخفض به قوما ويرفع به آخرين ، من حيث لا يعلم الناقدون  
الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين !

إن الميزان هو ميزان الإيمان . ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ؛ ويقرر القاعدة العامة  
للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويح لهم برحمة الله القرية والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام  
الفرصة ، والتمتع بمغفرة الله ورحمته :

« ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فإننا أعدنا للكافرين سعيرا . والله ملك السماوات والأرض ،  
يعفر لمن يشاء ويمذب من يشاء ، وكان الله غفورا رحيما » . .

لقد كانوا يعذرون بأموالهم وأهلهم . فإذا تفحص أموالهم وأهلهم في هذه السيرة المدة  
لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين . فإن الله الذي  
يوعدهم هذا الإبعاد ، هو مالك السماوات والأرض وحده . فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ،  
وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء .

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئة مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو بقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله ، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين .

ثم يلوح بيمض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفا لظن المخلفين . بأسلوب يوحى بأنه قريب : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامر لتأخذوها : ذرونا تتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل . فيقولون : بل تحسدونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا » . .

أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يطل له إيحاءة ولو لم يكن نصا في خيبر . فهو يوحى بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير . وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ، فيقولون : « ذرونا تتبعكم » .

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . . إذ كانت في المحرم من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافر الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلوا عن الجزيرة من قبل .

وتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغامر خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد . ولم أجد في هذا نصا . ولعلمهم يأخذون هذا مما وقع فعلا . فقد جعلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحدا غيرهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الليرة القريبة . وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله . وأخبر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج : « بل تحسدونا » . . فتمنعونا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة . ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة قههم لحكمة الله وتقديره . فجزاء المتخلفين الظالمين أن يحرموا ، وجزاء الطائفين المتجردين أن يعطوا من فضل الله ، وأن يختصوا بالمغتم حين

## سورة الفتح

يقدره الله ، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد .  
ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام ،  
فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان  
الأخير :

« قل للتخلفين من الأعراب : استدعون إلى قوم أولى بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ،  
فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسبا ، وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما .. »  
وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولو البأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول  
الله - صلى الله عليه وسلم - أم على عهد خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة .  
والمهم أن نلاحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات  
القرآنية ، والابتلاءات الواقعية . وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفي توجيههم  
إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعداء  
الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد ، بلا حرج ولا عقاب :  
« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله  
ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذابا أليما .. »  
فالأعمى والأعرج معها عذر دائم هو المعجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد .  
والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ .

والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والمصيان . هو حالة نفسية لأوضاع شكلية . فمن يطع  
الله ورسوله فالجنة جزاؤه . ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات  
الجهاد وجزائه ، وبين راحة القعود وماوراءه . . ثم يختار !

« لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ،  
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ، وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٥٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ، وَكَانَ اللَّهُ

عَزِيزًا حَكِيمًا \* وَعَدَّ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ، فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ، وَكَفَّ  
 أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا \* وَأُخْرَى  
 لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا \* وَلَوْ قَاتَلَكُمُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَدْبَارُ ، ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا \* سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ  
 مِن قَبْلُ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا \* وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ  
 عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا \*  
 هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ؛  
 وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ  
 بَغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا  
 أَلِيمًا \* إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ  
 عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ، وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَكَانَ  
 اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

« لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -  
 آمِنِينَ مُخْلَقِينَ رُؤُوسِكُمْ وَمُقَصَّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِن  
 دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا \* هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا .

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ  
 رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .  
 ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ . وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزِيعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ ،  
 فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ، لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ . وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ⑤

## سورة الفتح

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة . والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فلم مافي قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » . . . وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : « أتم اليوم خير أهل الأرض (١) » . . .

حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى : يبشرها بما أعد لها من مغنم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبدا . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا . ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح والمهادنة في هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التي رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله في الأرض جميعا .

ويختم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصفتها في التوراة وصفتها في الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم . . .

\*\*\*

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فلم مافي قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغنم كثيرة بأخذونها ، وكان الله عزيزا حكما » . . .  
وإننى لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين . . . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود . . . وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من حال أولئك السعداء الذين يسمعون

(١) أخرجه البخارى فى ٦٤ / كتاب المغازى ، ٣٥ باب غزوة المدينة ، حديث ١٦٨٥ من جابر بن عبد الله

## الجزء السادس والعشرون

بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه ، والهيئة التى كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . يسمون هذا من نبهم الصادق المصدوق ، على لسان ربه العظيم الجليل . .

يا الله ! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي ؟ التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت . أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضى عنك . وأنت تباع . تحت الشجرة ! وعلم ما فى نفسك . فأزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقراً أو يسمع : « الله ولى الذين آمنوا » . . فيسعد . يقول فى نفسه : ألسنت أطعم أن أكون داخلاً فى هذا العموم ؟ ويقراً أو يسمع : « إن الله مع الصابرين » . فيطمئن . يقول فى نفسه : ألسنت أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمون ويبلغون . واحداً واحداً . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه : لقد رضى عنه ! وعلم ما فى نفسه . ورضى عما فى نفسه !

يا الله ! إنه أمر مهول !

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » . . « فعلم ما فى قلوبهم . فأزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . .

علم ما فى قلوبهم من حمية لدينهم لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طائعين مسلمين صابرين .

« فأنزل السكينة عليهم » . . بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هيئة وهدوء ووقار ، تضى على تلك القلوب الحارة للتحمة التأهبة المنفلة ، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً .

« وأثابهم فتحاً قريباً » . . هو هذا الصلح بطروفه التى جعلت منه فتحاً ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خير واحداً منها . وهو الفتح الذى يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين .

« ومغاثم كثيرة بأخفونها » . . إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خير . وإما تالياً له ، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .

« وكان الله عزيزاً حكماً » . . وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . ففى الرضى والفتح

## سورة الفتح

والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم .

\*\*\*

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم . الحديث عن هذا الصلح ، أو عن هذا الفتح ، الذي تلقوه صابرين مستسلمين : « وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها ، فمجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، وتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما . وأخرى لم تقدروا عليها فد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا » ..

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلّموا أن الله أعد لهم مغنم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه . وهذه قد تكون صلح الحديبية - كما روى عن ابن عباس - لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم . وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار . كما أنها قد تكون فتح خير - كما روى عن مجاهد - باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية . والأول أقرب وأرجح

ويعن الله عليهم بأنه كف أيدي الناس عنهم . وقد كف الله عنهم أيدي الشركين من قريش كما كف أيدي سواهم من أعدائهم الذين يربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة . ولكنهم وفوا بيمينهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدي الناس عنهم ، وأمنهم . « وتكون آية للمؤمنين » .. هذه الوقعة التي كرهوها في أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم . فالله ينبتهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما يثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم ، وخير جزيل ، ويلقى الكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين .

« ويهديكم صراطا مستقيما » . . . جزاء طاعتكم وامثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فتم لهم الخير من كل جانب . في الأمر الذي كرهوه واستمظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدرُوا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره :

« وأخرى لم تقدرُوا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديرا .. »  
وتختلف الروايات في هذه الأخرى . أهى فتح مكة ؟ أهى فتح حير؟ أهى فتوح مملكتي كسرى وقصر؟ أهى فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقعة جميعا ؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذي لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريبا . وهي التي استعصت عليهم من قبل ، وهاجمتهم في عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها ، وسلمها لهم بلا قتال - « وكان الله على كل شيء قديرا .. » فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع ، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيبا من غيب الله . أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبعناية هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التي قد أحاط الله بها ، وهم في انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف ، أو لأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريد بها . ولوقاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة :

« ولوقاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا . سنة الله التي قد خلقت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .. »

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنة الكونية الثابتة التي لا تتبدل . فأية سكونة ؛ وأية ثقة ؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنة الجارية في هذا الوجود ؟

وهي سنة دائمة لا تتبدل . ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم . أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره . أولغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولكن لسنة لا تتخلف . والله أصدق القائلين : « ولن تجد لسنة الله تبديلا .. »

كذلك يمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم



## سورة الفتح

على من هاجمهم . مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :  
« وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم بطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم .  
وكان الله بما تعملون بصيراً » . . .

وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تديره المباشر ؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهي تدبر لهم كل شيء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، بلا تردد ولا تلفت ، ويدخلوا بهذا في السلم كافة ، بكل مشاعرهم وخواطرهم ، واتجاههم ونشاطهم ؛ موقنين أن الأمر كله لله ، وأن الحيرة ما اختاره الله ، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون وفيما يرضون . وأنه يريد بهم الخير . فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافئهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصيرة . ولن يضعهم ، ولن يضع عليهم شيئاً يستحقونه : « وكان الله بما تعملون بصيراً » . . .

\*\*\*

ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم في ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصددهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين :  
« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدى معكوفاً أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم مرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً » . . .

هم في ميزان الله واعتباره ، الكافرون حقاً ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه : « هم الذين كفروا » . . . يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون في النسبة إليه ، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صددهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه عبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع :

« وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله » . . .

وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام . كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كريمة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين . . فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرمهم صغير . كلا ! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يُلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيكم منهم معرفة بغير علم » . . .

فلقد كان هنالك بعض المتضفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين . . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فرجما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين ! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون . . ثم هنالك حكمة أخرى وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول في رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تمز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

« ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » . . . وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكته المغية وراء تقديره وتديره .

ويعض في وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفاتهم وعملهم الظاهر :

« إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » . . .

حمية للعقيدة ولالمنهج . إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويعجبون الهدى الذي ساقوه ، أن يبلغ محله الذي ينحرف فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كي لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففي سبيل هذه النمرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريمة في كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على

## سورة الفتح

حساب قداسه ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلاما وهي الحمية التي بدت في تجبيهم لكل من أشار عليهم - أول الأمر - بخطوة مسالة ، وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل ابن عمرو لاسم الرحمان الرحيم ، ولصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أثناء الكتابة . وهي كلها تتبع من تلك الجاهلية التعجرفة المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما للؤمنون فحمام من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة ، والتقوى : « فأنزل الله سكنته على رسوله وعلى المؤمنين . وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها » . . .

والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة لكلاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة ، فلا يتطر ولا يطغى ؛ ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه . فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خضع وأطاع . في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها في ميزان الله . وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير : « وكان الله بكل شيء عليما » . . .

\*\*\*

ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد هالمم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فإله يؤكدهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه ، وأنها واقعة ولا بد . وأن وراها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضا :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - آمنين علقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فلم مالم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » . . .

فأما البشري الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخولهم المسجد الحرام آمين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون . . .  
فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها .

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان ؛ وهو يقول لهم : « لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - . . . فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدتها شيء ، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب ، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتكلم على هذا المعنى ، ويقرر هذه الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع ، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لا يخلف . ولكن تعلق المشيئة به أبدا طليق . إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين ، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور .

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد ؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع - أي العام التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية . فأحرم من ذي الخليفة ، وساق معه الهدى - كما أحرم وساق الهدى في العام قبله - وسار أصحابه يلبون . فلما كان - صلى الله عليه وسلم - قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا ، وظنوا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فزل عمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قرونها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز ابن حفص ، فقال : يا محمد ، ما عرفناك تنقض العهد . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « وما ذلك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى ياجج » فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء .  
وخرجت رؤوس الكفار من مكة لكلا ينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى أصحابه - رضوا الله عنهم - غيظا وحنقا . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان

## سورة الفتح

جاءوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فدخلها - صلى الله عليه وسلم - وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبا يوم الحديبية ، وعبد الله ابن رواحة الأنصاري أخذ بزمام الناقة يقودها .

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح في العام الذي يليه . وظهر دين الله في مكة . ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراء الأخيرة حيث يقول :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » .. فلقد ظهر دين الحق ، لاني الجزيرة وحدها ، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان . ظهر في امبراطورية كسرى كلها ، وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر ، وظهر في الهند وفي الصين ، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها ، وفي جزر الهند الشرقية ( أندونيسيا ) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي .

وما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله - حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها ، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الأبيض . وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان .

أجل ما يزال دين الحق ظاهرا على الدين كله ، من حيث هو دين . فهو الدين القوي بذاته ، القوي بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نوااميس الوجود الأصيلة؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات الضمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب وما من صاحب دين غير الإسلام ، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة .. « وكفى بالله شهيدا » ..

فوعده الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية . ووعده الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة ؛ وما يزال هذا الدين ظاهرا

## الجزء السادس والعشرون

على الدين كله في حقيقته . بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرا على العمل ، والقيادة ، في جميع الأحوال .

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم ! فغير أهله يدركونها ويحسونها ، ويحسبون لها في مياساتهم كل حساب !

\*\*\*

والآن نجىء إلى ختام السورة . ختامها بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضى الله عنها ، وبلغها رضاه فردا فردا :

« محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيأهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فأزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . .

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع . صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة . فلقطه تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ولقطه تصور هيئتهم في عبادتهم : « تراهم ركعا سجدا » . . ولقطه تصور قلوبهم وما يشغلها ويحيش بها : « يبتغون فضلا من الله ورضوانا » . . ولقطه تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في صمتهم وسخنتهم وسماتهم : « سيأهم في وجوههم من أثر السجود » . . « ذلك مثلهم في التوراة » . . وهذه صفتهم فيها . . ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل . . « كزرع أخرج شطأه » « فأزره » . . « فاستغلظ » « فاستوى على سوقه » . « يعجب الزراع » . . : « ليغيظ بهم الكفار » . .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - صفة التي أنكرها سبيل ابن عمرو ومن وراءه من المشركين : « محمد رسول الله » . . ثم ترسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى . ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم ، وتقطعات الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة . وتبرزها وتصوغ منها الخطوط المرئية في الصورة الوضيئة . .

## سورة الفتح

وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللفظتات، وثبتت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » . . . أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهي الشدة لله والرحمة لله . وهي الحية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء . وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها . يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفصال لغير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة : « تراهم ركعا سجدا » . . . والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حينما رآهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم ؛ فعبّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا .

واللقطة الثالثة مثلها . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : « يتفنون فضلا من الله ورضوانا » . . . فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تطلع إليه أشواقهم ، هو فضل الله ورضوانه . ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويستغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع الضمري ملاحظهم ، ونضحها على سماتهم : « سيامهم في وجوههم من أثر السجود » . . . سيامهم في وجوههم من الوضوء والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحى الوضوء اللطيف . وليست هذه السيامة هي النكته المروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : « من أثر السجود » . . . فالقصد بأثر السجود هو أثر العبادة . واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والبودية لله في أكل صورها . فهو أثر هذا الخشوع . أثره في ملامح الوجه ، حيث توارى الخيلاء والكبرياء والقراة . ويهل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضوء الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضوءه وصباحة ونبلا .

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ؛ ومن ثم فهي قديعة جاء ذكرها في التوراة: «ذلك مثلهم في التوراة» .. وصفهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

«ومثلهم في الإنجيل» .. وصفهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : « كزرع أخرج شطأه » . فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . « فأزره » . أو أن العود آزر فرخه فشده . « فاستغلظ » الزرع وضخمت ساقه وامتلات . « فاستوى على سوقه » لا معوجا ومحنيا . ولكن مستقيما قويا سويا . .

هذه صورته في ذاته . فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع ، العارفين بالنامي منه والذابل المثمر منه والباثر . فهو وقع البهجة والإعجاب : « يعجب الزراع » . وفي قراءة يعجب « الزارع » . . وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاحب هذا الزرع النامي القوي المنصب البيج . . وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكمد : « ليغيظ بهم الكفار » . . وتمعد إغاظة الكفار يوحى بأن هذه الزرعة هي زرعة الله . أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله !

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا ، فهو ثابت في صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .

وهكذا ثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فتثبت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يتسمع إليها من باري الوجود . وتبقى نموذجا للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات . وفوق هذا التكريم كله ، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفتهم ، التي تجملهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة .

مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود ، والمطاء الإلهي عطاء غير محدود .

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن استشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء



## سورة الفتح

وقلوبهم . وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يزرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وفي كتاب الله . وأنظر اليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم . وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي بحسبها هو في كيانه . وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوى الذى عاشوا فيه .. ولكن أنى

لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه . إلامن بعيد ؟ !

اللهم إلامن يكرمه الله إكرامهم : فيقرب له البعيد ؟ !

قاللهم إنك تعلم أننى أتطلع لهذا الزاد الفريد !!!

## سُورَةُ الْحَجَرَاتِ مَدَنِيَّةٌ

وآياتها ١٨

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ، أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ يَفُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ \* إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ، أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِبْحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ \* وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ ، وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ، أُولَئِكَ هُمُ الرَّاكِبُونَ \* فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا . فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَنبِي إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ،  
وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِهِمْ ، عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَنَابَرُوا  
بِالْأَلْقَابِ ، بئسَ الألقابُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ ! وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا  
وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا . أَيُّبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ؟ فَكَرِهْتُمُوهُ ،  
وَسُئُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ  
لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .  
« قَالَتِ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا . قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا . وَلَمَّا يَدْخُلِ  
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ \* إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا  
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ \* قُلْ : اتَّقُوا اللَّهَ بَدِينِكُمْ ؟  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ  
أَسْلَمُوا . قُلْ : لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ،  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ  
بِمَا تَعْمَلُونَ » ﴿١٨﴾

هذه السورة ، التي لا تتجاوز ثمانى عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة  
من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب والعقل  
آفاقا عالية وآمادا بميدة ؛ وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من  
مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهديب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز  
حجمها وعدد آياتها مئات المرات !

وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ؛ والتي تكفل قيامه أولا ، وصيافته أخيرا . . . عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله . . . عالم نقي القلب ، نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة . . . عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره . أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه . وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ، وله نظمه التي تكفل صيافته . وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتنسق معه ؛ فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ؛ وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله . . . ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيافته ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ؛ وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذي يبلغ عن الرب : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم » . . . فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأيا مع خالقه . . . تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدبا . . . وله أدب خاص في خطاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتوقيره : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين ينضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . . .

وهو عالم له منهجه في الثبوت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدره ، قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، في غير ما تقدم بين

## سورة الحجرات

يديه ، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ؛ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » ..

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلقل واندفاعات، تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه : « وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا ففصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تقى ، إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض ؛ وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ؛ ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ؛ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » ..

وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لا يؤخذ فيه أحد بظنة ، ولا يتبع فيه العورات ، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحرمتهم فيه لأدنى مساس : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . أئحِب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ! واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » ..

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ؛ وله ميزانه الواحد الذي يقوّم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ..

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تهدد معالم الإيمان ، الذي باسمه دُعى المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم .

وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل ، الحافز إلى التلبية والتسليم : « يا أيها الذين آمنوا » .. ذلك النداء الحبيب الذي يحجل من يدعى به من الله أن لا يجيب ؛ والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أفعالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ، والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض . والله بكل شيء عليم » ..

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء ، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا آمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إذ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ..

فأما الأمر الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت زول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد ، الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة ، التي تمثل ذلك العاظم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذي وجدت حقيقته يوما على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولا حلما طائرا ، يعيش في الخيال

هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ لم تثبت فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كما هي لحظة أو ومضة . بل نمت نموا طبيعيا بطيئا كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الرمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير ، في التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضيئة ؛ مع توجيه لبرة هذه التجارب والابتلاءات . . . وفي هذا كله كانت تمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة - على علم - لحل هذه الأمانة الكبرى ، وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض . وذلك

## سورة الحجرات

مع الفضائل السكّانة والاستعدادات المكنونة في ذلك الجليل ؛ وفي الظروف والأحوال المهيأة له على السواء . . . وبهذا كله أشرفت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التي تراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب ، أورؤيا مجنحة في خيال !

\* \* \*

« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم .  
يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . . .

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب . « يا أيها الذين آمنوا » . . . نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به ، وتشمرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختيارا لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم » . . .  
يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحا ، لافي خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أزل في كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعالى ذلك . وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتنوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء حتى يقضى الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمرا دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال على ابن طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

فهو أدب نفسى مع الله ورسوله . وهو منهج فى التلقى والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل فى الوقت ذاته . . وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم . . وكل ذلك فى آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة .

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم؛ فماعد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله؛ وماعد واحد منهم يدلى برأى لم يطلب منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدلى به؛ وماعد أحد منهم يقضى برأيه فى أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . .

روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه - بإسناده - عن معاذ - رضى الله عنه - حيث قال له النبي - صلى الله عليه وسلم - حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى . قال - صلى الله عليه وسلم - : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - صلى الله عليه وسلم - : « فإن لم تجد ؟ » قال - رضى الله عنه - : أجتهد رأيت . فضرب فى صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما رضى رسول الله .

وحق لكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألهم عن اليوم الذى هم فيه ، والمكان الذى هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيتخرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون فى قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله !

جاء فى حديث أبى بكره نفيح ابن الحارث الثقفى - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سأل فى حجة الوداع :

« أى شهر هذا ؟ » . . قلنا : الله ورسوله أعلم . . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال : « أى بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس البلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى . قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . . الخ .



## سورة الحجرات

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .  
والأدب الثاني هو أدبهم مع نبيهم في الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له في قلوبهم ، توقيرا ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم ؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذّرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ..

يا أيها الذين آمنوا . . ليوقروا النبي الذي دعاهم إلى الإيمان . . أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . . ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم ، وهم غير شاعرين ولا عاينين ، ليتقوه !

ولقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ، عمله العميق الشديد : قال البخاري : حدثنا بسر بن صفوان اللخمي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة . قال : كاد الحيران أن يهلكا . . أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . . رفعوا أصواتها عند النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بني تميم ( في السنة التاسعة من الهجرة ) فأشار أحدهما بالأقرع ابن حابس - رضي الله عنه - أخى بني مجاشع ( أي ليؤمره عليهم ) وأشار الآخر برجل آخر . قال نافع : لا أحفظ اسمه ( في رواية أخرى أن اسمه القعقاع ابن معبد ) فقال : أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافاك . فارتفعت أصواتها في ذلك . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . قال ابن الزبير - رضي الله عنه - : فما كان عمر - رضي الله عنه - يسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد هذه الآية حتى يستفهمه ! . . وروى عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قال لما نزلت هذه الآية : قلت : يا رسول الله ، والله لا أملك إلا أخى السرار ( يعني كاهن ) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - إلى قوله : وأنتم لا تشعرون » وكان ثابت ابن قيس ابن الشماس رفيع الصوت . فقال :

أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا من أهل النار . حبط عملي  
وجلس في أهله حزينا . فقده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق بعض القوم إليه ،  
فقالوا له : تفقدك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق  
صوت النبي - صلى الله عليه وسلم - وأجهر له بالقول . حبط عملي . أنا من أهل النار . فأتوا  
النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه بما قال . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا . بل  
هو من أهل الجنة » . قال أنس - رضي الله عنه - : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم  
أنه من أهل الجنة

فكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب ، وذلك التحذير الرعب ؛  
وهكذا تادبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون .  
ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم ! ولكن هذا المزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم ، فخافوه  
واتقوه !

ونوه الله بتقوهم ، وغضهم أصواتهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تعبير عجيب :  
« إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .  
لهم مغفرة وأجر عظيم » ..

فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختبار ، وبعد تخلص وتمحيص ،  
فلا يضمنها في قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها . والذين يفضون أصواتهم عند رسول الله  
قد اختبر الله قلوبهم وهياها لتلقى تلك الهبة . هبة التقوى . وقد كتب لهم معها وبها المغفرة  
والأجر العظيم .

إنه الترغيب العميق ، بعد التحذير الخفيف . بها يربي الله قلوب عباده المختارين ، ويمدها  
للأمر العظيم . الذي نهض به الصدر الأول على هدى من هذه الترية ونور .

وقد روى عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سمع صوت رجلين في  
مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - قد ارتفعت أصواتها ، فجاء فقال : أندريان أين أنتما ؟ ثم  
قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضربا  
وعرف علماء هذه الأمة وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره - صلى الله عليه وسلم -  
كما كان يكره في حياته - عليه الصلاة والسلام - احتراماً له في كل حال .

تم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العام التاسع . الذي سمي « عام الوفود » . لحجىء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم في الإسلام ، وكانوا أعرابا جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المظلة على المسجد النبوي الشريف : يا محمد . اخرج لنا . فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى :

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور رحيم » . . .  
فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكره إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص النبي - صلى الله عليه وسلم - وحرمة رسول الله القائد والمربي . وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم . وجب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبتهم في المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى كل أستاذ وعالم . لا يزعمونه حتى يخرج إليهم ؛ ولا يقتحمون عليه حتى يدعواهم . . .  
يحكى عن أبي عبيد - العالم الزاهد الراوية الثقة - أنه قال : « ما دقت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه » . . .

\*\*\*

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » . . .

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقى . وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة . فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون ، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها وطاعتها . ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأبناء وكيف يتصرفون بها ؛ ويقرر ضرورة الثبت من مصدرها :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ، أن تصيوا قوماً بجهالة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . .

وينحصر الفاسق لأنه مظنة الكذب. وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أبناء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها. فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقة، وأن تكون أبنائهم مصدقة مأخوذاً بها. فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره. وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أبناء. ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق. فتصيب قوماً بظلم عن جهالة وتسرع. فتقدم على ارتكابها ما يضب الله، ويجانب الحق والمدل في اندفاع.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صدقات بني المصطلق. وقال ابن كثير. قال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم فتلقاه بالصدقة، فرجع فقال: إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك ( زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام ) فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إليهم، وأمره أن يثبت ولا يسجل، فانطلق حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونهم، فلما جاءوا أخبروا خالدًا - رضي الله عنه - أنهم مستمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد - رضي الله عنه - فرأى الذي يسجبه، فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر، فأنزله الله تعالى هذه الآية الكريمة. قال قتادة: فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » (١). . وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى، ويزيد بن رومان، والضحاك، ومقاتل بن حبان. وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة. والله أعلم. . ( انتهى كلام ابن كثير في التفسير ) . .

ومدلول الآية عام، وهو يتضمن مبدأ التحييص والتثبت من خبر الفاسق؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء. والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة.

(١) هكذا أثبت ابن كثير في التفسير.

## سورة الحجرات

الإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصياتها لا لتعطيلها ابتداء . وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار .

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد ابن عقبة ، وإشارة على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعجل بعقابهم . وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضبا لمنع الزكاة . فجاءت الآية التالية تذكرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائما لوجودها :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . .

وهي حقيقة تصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت . ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لانكاد تصور ! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة؛ فتقول السماء للأرض ؛ وتخبّر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوّم خطاهم أولا بأول ، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم . ويفعل أحدهم القطعة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الحاجة ؛ فإذا السماء تطلع ، وإذا الله - جل جلاله - ينبيء رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع . . إنه لأمر . . وإنه لنباً عظيم . وإنها لحقيقة هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب :

« واعلموا أن فيكم رسول الله » . . اعلموا هذا وقدروه حق قدره ، فهو أمر عظيم .

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحاً وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يمن لهم أنه خير لعتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ، ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار :

« لو يطعكم في كثير من الأمر لمتنم » .

وفي هذا إيحاء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا في السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ، ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه .

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق أرواحهم به ؛ وكره إليهم الكفر والفسوق والعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفضله :

« ولكن الله حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم؛ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » ..  
 واختيار الله لفريق من عباده ، ليشرح صدورهم للإيمان ، ويحرك قلوبهم إليه ، وزينه لهم فتهفو إليه أرواحهم ، وتدرك مافيه من جمال وخير .. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة . دونها كل فضل وكل نعمة . حتى نعمة الوجود والحياة أصلا ، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى اوسياتى قوله تعالى : « بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » ففصل القول إن شاء الله في هذه المنة .

والذى يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذى أراد بهم هذا الخير ، وهو الذى خلص قلوبهم من ذلك الشر : الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذى جعلهم بهذا راشدين فضلا منه ونعمة . وأن ذلك كله كان عن علم منه وحكمة . . . وفى تقرير هذه الحقيقة إجماع لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدييره ، والاطمئنان إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنونه خيرا لهم ؛ قبل أن يختار لهم الله . فالله يختار لهم الخير ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير . وهذا هو التوجيه المقصود فى التعقيب .

وإن الإنسان ليمجل ، وهو لا يدري ما وراء خطوته . وإن الإنسان يقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف ما الخير وما الشر فيما يقترح . « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » . ولو استسلم لله ، ودخل فى السلم كافة ، ورضى اختيار الله له ، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود عليه بالخير . لاستراح وسكن . ولأمضى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب فى طمأنينة ورضى . . . ولكن هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء .

\*\*\*

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلتا حتى تبنى حتى تبنى إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المتقنين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . . .  
 وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تبنى تعقيا على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل الثبت والاستيقان .

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أو كان تشريعا  
لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك  
والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء  
رحمته بإقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه - أو هو يفترض - إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين .  
ويستبقي لكتا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتالهما ، ومع احتمال أن إحداها قد تكون  
باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاها باغية في جانب من الجانب .  
وهو يكلف الدين آمنوا - من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعا - أن يقوموا بالإصلاح بين  
المتقاتلين . فإن بنت إحداها فلم تقبل الرجوع إلى الحق - ومثله أن تبغيا معا برفض الصلح  
أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها - فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن  
يظلموا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول  
حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال . فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام  
المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلباً لرضاه .. « إن الله يحب المقسطين » ..  
ويمقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة  
الوثيقة بينهم ، والتي جمعهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح  
لهم برحمته التي تنال بتقواه :

« إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في  
الجماعة المسلمة . وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور  
وقوعه ؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى  
الصف ، وليرزقوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك .  
ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل  
أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن  
الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وصمهم إلى لواء الأخوة  
الإسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام علي - رضي الله عنه - بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم . وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر - رضي الله عنهم - إمالأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فنة . وإمالأنهم كما يقول الإمام الجصاص : « ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنيا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » . والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روى عن ابن عمر - رضي الله عنه - في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية . بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال .

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم و قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة ؛ وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والمدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور . . . . . ولكن البشرية البائسة تظلع وتمرج ، وتكبو وتمثر . وأمامها الطريق الواضح المهد المستقيم ا

\*\*\*

« يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ؛ ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تباذروا بالألقاب . بشئ الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . . .



## سورة الحجرات

إن المجتمع الفاضل الذي يتبعه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس . وهي من كرامة المجموع . ولزأى فرد هو لزم لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة .

والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : « يا أيها الذين آمنوا » .  
وينهاجم أن يسخر قوم بقوم ، أي رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله .

وفي التعبير إجماع خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراهم النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية ، التي يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير . والرجل القوي من الرجل الضيف ، والرجل السوي من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام . وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصية من اليتيم . . . . وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة . . . . ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين ! ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإجماع ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلمزها فقد لزمها : « ولا تلمزوا أنفسكم » . . . واللمز : العيب . ولكن اللفظة جرسا وظلا ؛ فكأنما هي وخزة حسية لاعية معنوية !

ومن السخرية واللمز التنازع بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويعسون فيها سخرية وعبا . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويذري به . ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها ، أحسن فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم ، بما يذري بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم . والآية بعد الإجماع بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شهور الأخوة ، بل شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنازع : « بسئ الاسم : الفسوق بعد الإيمان » . فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلما ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » . . . وبذلك تضع قواعد الأدب النفس لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

\*\*\*

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا . أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه . واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » . . .

فأما هذه الآية فتقيم سياجا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمان الأشخاص به وكراماتهم وحررياتهم ، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضائرهم ، في أسلوب مؤثر عجيب . . .

وتبدأ - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب : « يا أيها الذين آمنوا » . . ثم تأمرهم باجتنب كثيرا من الظن ، فلا يتركوها نفوسهم نهبا لكل ما يهيج فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : « إن بعض الظن إثم » . ومادام النهي منصبا على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إجماع هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيء أصلا . لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إنما !

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيء ، فيقع في الإثم ؛ ويدعه نقيًا بريئا من الهواجس والشكوك ، أيضا يكن لإخوانه المودة التي لا يخذلها ظن السوء ؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يكرها القلق والتوقع . ومأرواح الحياة في مجتمع برى من الظنون !

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عندها الأفق الكريم الوضي، في تربية الضائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، وسياجا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنة ، ولا يحاكمون بريبة ؛ ولا يصبح الظن أساسا لمحاكمتهم . بل لا يصح أن يكون أساسا للتحقيق معهم ، ولالتحقيق حولهم . قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إذا ظننت فلا تحتمق » (١) . . ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ، وحررياتهم ، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه . ولا يكفي الظن بهم لتعقيبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم !

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحررياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص ! وأين أقصى ما تعجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا

(١) أخرجه الطبراني بإسناده عن حارثة ابن النعمان .

## سورة الحجرات

المدى الذى هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامى فعلا ، وحققه فى واقع الحياة ، بعد أن حققه فى واقع الضمير ؟

ثم يستطرد فى صماتات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتنب الظنون :

« ولا تجسسوا » . . .

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات.

والاطلاع على السوءات .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنىء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مسا هذا الاتجاه

الليث لتتبع عورات الآخرين وكشف سواآتهم. وتمشيا مع أهدافه فى نظافة الأخلاق والقلوب.

ولكن الأمر أبعد من هذا أثرا. فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية فى نظامه

الاجتماعى ، وفى إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرمانهم وكراماتهم التى لا يجوز أن تنتهك فى صورة من الصور ،

ولا أن تمس بحال من الأحوال .

فى المجتمع الإسلامى الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على يوتهم ،

آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرزاً - مها يكن - لانتهاك حرمانات

الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحققها لا تصلح فى النظام

الإسلامى ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم .

وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو

يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون فى الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضطهم ! وكل ماله

عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التى ينص عليها

بالنسبة لكل جريمة .

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ،

عن زيد ابن وهب . قال : أنى ابن مسعود ، قيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا فقال

عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ما ستر الله .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيرانا

يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، يأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظمهم ونهدهم .  
قال : ففعل فلم يتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم يتهوا . وإني داع لهم الشرط  
فتأخذهم . فقال له عقبه : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استجيا موءودة من قبرها » (١)

وقال سفيان الثوري ، عن راشد ابن سعد ، عن معاوية ابن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي  
- صلى الله عليه وسلم يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » .  
فقال أبو الدرداء - رضى الله عنه - كلمة سمعها معاوية - رضى الله عنه - من رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - نفعه الله تعالى بها (٢) .

فكذا أخذ النص طريقه في النظام العلى للمجتمع الإسلامى ! ولم يعد مجرد تهذيب للتصوير  
وتنظيف للقلب ، بل صار سياجا حول حرمة الناس وحقوقهم وحررياتهم ، فلا تمس من قريب  
أوبعيد ، تحت أى ذريعة أوستار .

فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين ما يتعجب به أشد الأمم ديمقراطية  
وحرية وحفظا لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مئة عام ؟  
بعد ذلك يحى النهى عن الغيبة في تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعا :

« ولا يغتب بعضكم بعضا . أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه » .  
لا يغتب بعضكم بعضا . ثم يمرض مشهدا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية .  
مشهد الأخ يأكل لحم أخيه . . . ميتا . . . ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير  
للاشمزاز . وأنهم إذن كرهوا الاغتياب !  
ثم يعقب على كل ما نهى عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ،  
والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة :  
« واتقوا الله إن الله تواب رحيم » . .

ويسرى هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس ، وإلى  
أدب عميق في النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متمشيا مع  
الأسلوب القرآنى العجيب في إثارة الاشتمزاز والفرع من شبح الغيبة البغيض .

(١) رواه أبو داود والنسائي من حديث البث ابن سميد

(٢) رواه أبو داود منفردا به من حديث الثوري .

## سورة الحجرات

في حديث رواه أبو داود : حدثنا القعني ، حدثنا عبد العزيز ابن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . . . ورواه الترمذي وصححه .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني علي ابن الأقرع عن أبي حذيفة ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : حسبك من غيبة كذا وكذا ( قال عن مسدد تعني قصيرة ) فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » . قالت : وحكيت له إنسانا . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما أحب أني حكيت إنسانا وأن لي كذا وكذا » . . .

وروى أبو داود بإسناده عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » . . .

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إقرارها متطوعين وإلحاحها عليه في تطهيرها ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ! ثم سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى مر بجيفة حمار ، فقال : « ابن فلان وفلان ؟ انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يا رسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « فما نلتما من أخيكما أنفا أشد أكلامه . والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها » (١)

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع ، وانتهى إلى مآصار إليه : حلما يمشي على الأرض ، ومثلا يتحقق في واقع التاريخ .

\*\*\*

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا ؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضوء من الآداب النفسية والاجتماعية ؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم

(١) رواه ابن كثير في التفسير وقال : إسناده صحيح .

وحرمتهم وحرمتهم ، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم ، بالتطلع إلى الله وتقواه ..

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق ، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أحاسيسها وألوانها ، ليردها إلى أصل واحد ، وإلى ميزان واحد ، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المخمارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » ..

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا ، المتفرقون شعوبا وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم . من ذكر وأنثى . وهو يطلمكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل . إنها ليست التناحر والحصام . إنما هي التعارف والوثام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتتبع لا يقتضى النزاع والشقاق ، بل يقتضى التعاون للهوى بجميع التكليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. والكريم حقا هو الكريم عند الله . وهو يزكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازن : « إن الله عليم خبير » ..

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والحصومات في الأرض ؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للآفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصية للجنس ، والعصية للأرض ، والعصية للقبيلة ، والعصية للبيت . وكلها من الجاهلية وإلها ، تزيها بشق الأزياء ، وتسمى بشق الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام !

## سورة الحجرات

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله . . لاراية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس . فكلمها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب . ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » (١)

وقال - صلى الله عليه وسلم - عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة » (٢)

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . المجتمع الإنساني العالمي ، الذي تحاول البشرية في خيالها المخلق أن تحقق لونا من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجامعة . . راية الله . .

\*\*\*

وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمه ، في الرد على الأعراب الذين قالوا : « آمنا » وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين منوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم أسلموا وهم لا يقدرزون منة الله على عباده بالإيمان :

« قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيموا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم . يخنون عليك أن أسلموا . قل : لا آمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ..

قيل : إنها نزلت في أعراب بني أسد . قالوا : آمنا . أول ما دخلوا في الإسلام . ومنوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم تقاتلك .

(١) رواه أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر ابن عبد الله .

فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا في الإسلام استسلاماً ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر في قلوبهم . ولم تشربها أرواحهم : « قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » .

ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يحزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئاً . فهذا الإسلام الظاهر الذي لم يخالط القلب فيستحيل إيماناً واثقاً مطمئناً . هذا الإسلام يكفي لحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضيع كما تضيع أعمال الكفار . ولا ينقص من أجرها شيء . عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتمس من أعمالكم شيئاً » . ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة : « إن الله غفور رحيم » ..

ثم بين لهم حقيقة الإيمان :

« إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يزعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . في واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من ماجريات الأمور وواقع الحياة . ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصور الإيمان ، وواقعه العملي . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصور الإيمان الكامل الجليل المستقيم في سبيل واقعه العملي ناقص الشائن



## سورة الحجرات

الذخرف . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تثبت هذه الجاهلية إلى التصور  
الإيماني والحياة الإيمانية .

« أولئك هم الصادقون » . . الصادقون في عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم  
مؤمنون . فإذا لم تتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم تتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان  
لا يتحقق . والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون .

وتنف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعترض في الآية : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله  
ورسوله - ثم لم يرتابوا - » . . إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لس لتجربة شعورية واقعية .  
وعلاج لحالة تقوم في النفس . حتى بعد إيمانها . . « ثم لم يرتابوا » وشبهه بها الاحتراس في  
فوله تعالى . . « إن الذين قالوا ربنا الله . . ثم استقاموا . . » فعدم الارتباب . والاستقامة  
على قوله : ربنا الله . تشير إلى ما قد يعثور النفس المؤمنة - تحت تأثير التجارب القاسية ،  
والابتلاءات الشديدة - من ارتباب ومن اضطراب . وإن النفس المؤمنة لتضطرم في الحياة  
بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتي تثبت فلا تضطرب ، وثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة  
موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار الرحلة ، لتعزم  
أمرها ، ونحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلمهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها  
العواصف والرياح .

ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو من يجبرهم بما فيها  
ولا يتلقى منهم العلم عنها :

« قل : أتعدون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء

عليم » . .

والإنسان يدعى العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، وه يدرك  
حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه  
في أثناء عمله . وحين يراقب نفسه كيف عن عمله الطبيعي ، فلا يبقى هناك ما يراقبه . وحين  
يعمل عمله الطبيعي لا يملك أن يشغل في الوقت ذاته بالمراقبة . ومن ثم فهو عاجز عن معرفة  
خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله . وهو هو الأداة التي يتناول بها الإنسان .

« والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » . . . علما حقيقيا . لا بطوائفها وآثارها .  
ولكن بحقائقها وماهياتها . وعلما شاملا محيطا غير محدود ولا موقوف .  
« والله بكل شيء عليم » . . . بهذا الإجمال الشامل المحيط .

وبعد بيان حقيقة الإيمان التي لم يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب عن منهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب ، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح :  
« يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين » . . .

لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يتنوا بالإسلام . وأن المنة لله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان .  
ونحن نقف أمام هذا الرد ، الذي يتضمن حقيقة ضخمة ، يفصل عنها الكثيرون ، وقد يفصل عنها بعض المؤمنين . . .

إن الإيمان هو كبرى المن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض . إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والنتاع .

إنها المنة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة ؛ وتجعل له في نظام الكون دورا أصيلا عظيما . وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري ، حين تستقر حقيقته في قلبه ، هو سعة تصوره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ؛ وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله ، وأنه بكل ما في الوجود حوله ، وأنه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ؛ وشعوره بقيمته وكرامته ؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان ، الصغيرة الكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذخورة ، وأسرار مكنونة ؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود . في نهاية المطاف .

## سورة الحجرات

فهو ، بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية، ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب إنسانيته ابتداء من روح الله . من النفخة العلوية التي تصل هذا الكائن الطيني بالنور الإلهي .  
النور الطليق الذي لا يحصره سماء ولا أرض ولا بدء ولا انتهاء . فلا حده في المكان ، ولا حده في الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذي جعل من المخلوق البشري هذا الإنسان . . . . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ليرفعه في نظر نفسه ، وليكرمه في حسه ، وليشعره بالوضاءة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذي منحه هذا اللون من الحياة .

وهو ، بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة . الأمة الواحدة ، الممتدة في شعاب الزمن ، السائرة في موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . . . . . ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء في عمرها المديد . . . . . يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعماً آخر ؛ وليحس بالحياة إحساساً جديداً ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

ثم يتسع تصوره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمه وجنسه الإنساني ؛ ويرى هذا الوجود كله . الوجود الصادر عن الله ، الذي عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنساناً . ويعرفه إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حي ، مؤلف من كائنات حية . وأن لكل شيء فيه روحاً ، وأن لهذا الكون كله روحاً . وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى - كما تتوجه روحه هو - بالدعاء والتسبيح ؛ وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهي إليه بالإذعان والاستسلام . فإذا هوى في كيان هذا الكون ، جزء من كل ، لا ينفصل ولا ينزل . صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع في النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوره لضخامة هذا الوجود الهائل . وإذا هو مأنوس بكل ما حوله من أرواح . ومأنوس بعد ذلك كله بروح الله التي ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وأن يمتد طولاً وعرضاً فيه ؛ وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن ينشئ أحداثاً ضخمة ، وأن يؤثر بكل شيء ويتأثر . ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التي برأته وبرأت كل ما في الوجود من قوى وطاقات . القوة الكبرى التي لا تنحسر ولا تضعف ولا تنيب .

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقية للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقي في هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية في هذه الحياة . بوصفه قدرا من أقدار الله في الكون ، يوجهه ليحقق به ويحقق فيه ما يشاء . ويمضي في رحلته على هذا الكوكب ، ثابت الخطو ، مكشوف البصيرة ، مانوس الضمير . ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل ما يقع له مقدر لتام هذا الأمر . وعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأنه مجزى على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى ، ولن يمضي مفردا . . . ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ؛ وعدم رؤية المطوى من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته في ذلك الطريق .

يختفي شعور كشمور الحيام الذي يبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر وحررت فيه بين شتى الفكر

وسوف أنضو الثوب عنى ولم أدر لماذا جئت أين المقر ؟

فالمؤمن يعرف - بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة - أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذي يصرف الوجود كله تصرف الحكيم الخبير . وأن اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير . وأنه يلبس لأداء دور معين في هذا الكون ، يتأثر بكل ما فيه ، ويؤثر في كل ما فيه . وأن هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما أنه يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين . وقد يرتقى في المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار ، شاعرا بجمال الهبة وجلال العظمة . هبة العمر - أو الثوب - المنوح له من يد الكريم المنان ، الجليل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذي يؤديه - كائنا ما كان من المشقة - ليتى به إلى ربه في اعجاب حبيب !

## سورة الحجرات

ويحتج شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيأ في ظلال القرآن ، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم . ذلك الشعور الذي خلغته روحي التعب على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي ؟ ولماذا وكيف - لو شاء - يمضي ؟  
عبث ضائع وجهد غيب ومصير مقنع ليس يُرضى

فأنا أعرف اليوم - والله الحمد والمنة - أنه ليس هناك جهد غيب فكل جهد مجزي . وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مشمر . وأن المصير مرض وأنه بين يدي عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم - والله الحمد والمنة - أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً؛ فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة وفي رضى وفي تسليم!

وهذا كسب ضخمة في عالم الشعور وعالم التفكير، كما أنه كسب ضخمة في عالم الجسد والأعصاب، فوق ما هو كسب ضخمة في جمال العمل والنشاط والتأثير والتأثير .  
والإيمان - بعد - قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق . . .

« ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الحوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها . الحوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تنفي؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضمف »<sup>(١)</sup>

« تلك الحوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد

(١) مقتطفات من فصل : « العقيدة والحياة » في كتاب : « السلام العالى والإسلام » .

ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وثبتت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله . وهي تفسر للفرد علاقته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها في اتجاه ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستتيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة ، وفي يقين « (۱) »

ويضعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهره وخفيه . وأن كل مافي الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهها إيماناً ، فيلتقي بها المؤمن في طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق ا

وصدق الله العظيم : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا على إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . فهي المنة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم ، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم .

وصدق الله العظيم . فماذا فقد من وجد الأُنس بتلك الحقائق والمدرجات وتلك المعاني والمشاعر؟ وغاش بها ومعها ، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وجد من فقدتها ولو تقلب في أعطاف النعيم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان ؟ وتهتدي به إلى بارئها الكريم ؟

« إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ..

والذي يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس ، ومكنون الضمائر ، وحقائق الشعور . ويصير ما يعمل الناس ، فلا يعتمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ؛ ولكن من مشاعر تجيش في قلوبهم ، وأعمال تصدق ما يجيش في القلوب ..

\*\*\*

وبعد فهذه هي السورة الجليلة ، التي تكاد آياتها الثمانية عشرة تستقل برسم معالم عالم كريم نظيف رفيع سليم . بينما هي تكشف كبريات الحقائق ، وتقرر أصولها في أعماق الضمير ..

(۱) المجدد السابق

# سُورَةُ وَاسِعَةٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٤٥

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، فَقَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ \* إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ؟ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ \* قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ \* بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ \* أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ؟ \* وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ \* تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ \* وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ \* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ \* رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .

« كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ \* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ \* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ، كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ \* أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ ؛ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ، وَنَعَلْمُ مَا تُوسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ \* إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ \* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ \* وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ \*

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ \* وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ \* لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا ، فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ ، فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ \* وَقَالَ قَرِينُهُ : هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٌ \* أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ \* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ \* الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ \* قَالَ قَرِينُهُ : رَبَّنَا مَا أَطْفَيْنَاهُ ، وَلَكِنْ كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ \* قَالَ : لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ \* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ \* يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ : هَلْ امْتَلَأْتِ؟ وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ \* وَأَزَلَّتْ أَلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ \* هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ \* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَانََ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ \* ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ \* لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

«وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ \* فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ \* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ الشُّجُودِ \* وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ \* يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ \* إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَآلِئِنَّا الْمَصِيرُ \* يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ \* نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ » ﴿١٥﴾

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ؛ فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها ، في الجماعات الحافلة .. وإن لها لساناً ..

إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع بيناتها التعبيري ، وصورها



## سورة ق

رذالها وجرس قواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحرركاتها ، وتعقبها في سرها وجهرها، وفي باطنها وظاهرها . تعقبها برقابة الله، التي لاتدعها لحظة واحدة من المولد . إلى المات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبه . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقا كاملا شاملا . فهو في القبضة التي لاتغفل عنه أبدا ، ولاتغفل من أمره دقيقا ولاجيلا ، ولانفارقة كثيرا ولا قليلا . كل نفس معدود . وكل هاحسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبه مضروبة على وساوس القلب، كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولاحجاب ولاستار دون هذه الرقابة الفاقدة ، المطامعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة . في كل وقت وفي كل حال . وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبيدها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ؛ وتهز النفس هزا ، وترجها رجا ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر . وإلى إرهاب الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض ، وفي الماء والنبت ، وفي الثمر والطلع .. « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » .. وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال ، في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه ؛ وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال ، إشعاعا مباشرا للحس والضمير . فلنأخذ في استعراض السورة بذاتها .. والله المستعان ..

\*\*\*

« ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجب . إذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد . قد علمنا ماتنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكري لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به حنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج .

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعيينا بالخلق الأول ؛ بل هم في لبس من خلق جديد .. »

\* \* \*

هذا هو المقطع الأول في السورة . وهو يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبتهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلاً إلى الحق ، ويقوم ما فيها من عوج ؛ ويحاول قبل كل شيء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتفتح على الحقائق الكبيرة في صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم في جدل ذهني لإثبات البعث . وإنما يحیی قلوبهم لتفكر هي وتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق الباشرة من حوله فيستجيب . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب .

وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف : « قاف » وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه هو أول حرف في لفظ « قرآن » . . . ولا يذكر القسم عليه . فهو قسم في ابتداء الكلام ، يوحى بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جليل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف « بل » عن القسم عليه - بعد أن أحدث القسم أثره في الحس والقلب - ليبدأ حديثاً كأنه جديد عن عجبتهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم في القرآن المجيد من أمر البعث والخروج :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . إذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد .. »

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . وما في هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعي أن يختار الله من الناس واحداً منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم ، ويدرك دوافعهم وجواذبهم ، ويعرف طاقتهم واحتياهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكليف التي يفرضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكليف .



## الجزء السادس والعشرون

رويدا . ويصور أجسادهم وهي تتآكل باطراد وتبلى . ليقول : إن الله يعلم ماتاً كله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل في كتاب حفيظ ؛ فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي .

وهكذا تتوالى اللسعات التي تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوقفة جيدة الاستقبال . وذلك قبل البدء في الهجوم على القضية ذاتها !

ثم يكشف عن حقيقة حالهم التي تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ، فمادت الأرض من تحتهم ، ولم يعودوا يستقرون على شيء أبداً :  
« بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج » ..  
وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار . . .

إن الحق هو النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تززع قدماءه ، ولا تضطرب خطاه ، لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تنزل ولا تحسف ولا تنفوس . وكل ما حوله - عدا الحق الثابت - مضطرب مأجج مزعزع مريج ، لا ثبات له ولا استقرار ، ولا صلابة له ولا احتمال . فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماءه في ذلك المضطرب المريج ، وفقد الثبات والاستقرار ، والطمأنينة والقرار . فهو أبداً في أمر مريج لا يستقر على حال !

ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء ، وتتناوحه الهواجس ، وتتخاطفه الهوائف ، وتمزقه الحيرة ، وتقلقه الشكوك . ويضطرب سعيه هنا وهناك ، وتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال . وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين ، ولا يعلجأ أمين .. فهو في أمر مريج ..

إنه تعبیر عجيب ، يجسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تبعها العيون !

واستطرادا مع إيقاع الحق الثابت المستقر الراسي الشامخ - وفي الطريق إلى مناقشة اعتراضهم على حقيقة البعث - يعرض بعض مظاهر الحق في بناء الكون ؛ فيوجه أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض وإلى الرواسي ، وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات ، وإلى الجنات والنبات . في تعبیر يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسي . . . الجميل . . .

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج » ..

## سورة ق

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقه . أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ ونبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج . وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل المهيج :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » . .

فلا امتداد في الأرض والرواسي الثابتات والبهجة في النبات . . تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال ، التي وجه النظر إليها في السماء .

وعلى مشهد السماء البنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » . .

تبصرة تكشف الحجب ، وتير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب . . تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب .

وهذه هي الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل . هذه هي الوصلة التي تجعل للنظر في كتاب الكون ، والتعرف إليه أثرا في القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية . هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم . وهي التي تهملها مناهج البحث التي يسمونها « علمية » في هذا الزمان . فقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه . فالتاس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ؛ وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير . وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصية من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة - إذا كانت هناك عوالم جامدة أو شيء واحد جامد في هذا الوجود - كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء

والأحياء . وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . . . وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف ، أو بحث عقيم !

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الحيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن المائر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زادا من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . وهو قائم مفتوح في كل آن : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » . . . ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين . لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة « المنهج العلمي » . المنهج الذي يقطع ما بين الكون والحقائق التي تعيش فيه !

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئا من ثمار « المنهج العلمي » في إدراك الحقائق المفردة . ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ؛ لأمعلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تنضج لها شيء من سرها الجميل والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها بهذا الرباط الوثيق . . . وبعد هذه اللفتة يمضي في عرض صفحات الحق في كتاب الكون - في طريقه إلى قصة الإحياء والبحث :

« ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبثنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » . . .

والماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص في القلب لاشك فيه . وليس الأطفال وخدمهم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافا . قلوب الكبار الحاسين تستروخ هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريبى العهد بالفطرة !

ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله في يد الله سببا لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد -

## سورة قـ

وهو النبات المحصود - وما ينبته به النخل . ويصفها بالسموق والجمال : « والنخل باسقات لها  
طلع نضيد » .. وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد في النخل الباسق .  
وذلك تمشياً مع جو الحق وظلاله . الحق السامق الجميل .  
ويلبس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع : « رزقا للعباد »  
.. رزقا يسوق الله سببه ، ويتولى نبتة ، ويطلع ثمره . للعباد . وهو المولى . وهم لا يقدررون  
ولا يشكرون !

وهنا ينتهي بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير :

« وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » ..

فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم ؛ ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلاحظونها قبل  
الاعتراض والتعجب .. كذلك الخروج .. على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة .. الآن يقولها  
وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر  
الموحي لكل قلب منيب .. وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب ..

\*\*\*

ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشري بعد عرض تلك الصفحات من كتاب  
الكون، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يمارى هؤلاء المشركون في قضية البعث، وكذبوا  
كما يكذبون بالرسل ، فحق عليهم وعيد الله الذي لا مفر منه ولا محيد :  
« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب  
الأيكة ، وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفمينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من  
خلق جديد » ..

والرس : البئر : المطوية غير الآنية . والأيكة : الشجر الملتف الكثيف . وأصحاب الأيكة  
هم - في الغالب - قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا يبان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم  
تبع . وتبع لقب لملوك حمير باليمن . وبقتة الأقسام المشار إليهم هنا معروفون لقارىء القرآن .  
وواضح أن العرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقسام . ولكننا  
إتقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذي يلفت النظر هو النص على  
أن كلا منهم كذب الرسل : « كل كذب الرسل فحق وعيد » . وهي لفظة مقصودة لتقرير

## الجزء السادس والعشرون

وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسول أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعون . والرسل إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها ، وصورة منها . ومن يمس منها فرعاً فقد مس الأصل وسائر الفروع . . « فحق وعيد » ونالهم ما يعرف السامعون !

وفي ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التي بها يكذبون . قضية البعث من جديد . فيسأل: « أفمينا بالخلق الأول ؟ » . . والخلق شاهد حاضر فلاحاجة إلى جواب ! « بل هم في لبس من خلق جديد » . . غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فماذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ؟ !

\*\*\*

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى التلقين عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد . .

« ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدى عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقيا في العذاب الشديد . قال : قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » . .

\*\*\*

وهذا هو القطع الثاني في السورة : استطراد مع قضية البعث ، التي عاجلها الشوط الأول ؛ وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهية مخيفة . إنها تلك الرقابة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . ومشاهدتها التي تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت ومكراته . ثم مشهد



## سورة ق

الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاغرة فاها تلمظ كما ألقى فيها وقودها البشري تقول : « هل من مزيد ؟ » . وإلى جواره مشهد الجنة والنعيم والتكريم .  
إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتنتهي بالموت ، وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد ؛ وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يخلص ولا يتفلسف ، وتحت رقابته التي لا تفر ولا تغفل .  
وإنها لرحلة رهيبه تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام !  
إنه ايرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتبعه بجواسيسه وعيونه ، ويراقبه في حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتجى منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فيه ! أما قبضة الجبار فهي مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار . . فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟ !

\*\*\*

« ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . .  
إن ابتداء الآية : « ولقد خلقنا الإنسان » . . يشير إلى المقضى الضمني للعبارة . فصانع الآلة أدري بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بمخالقها لأنه لم ينشئ مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشئ الموجد الخالق ؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلاً؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره . .  
« ونعلم ما توسوس به نفسه » . . وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها سر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيدا ليوم الحساب الذي ينكره ويجحده .  
« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » . . الوريد الذي يجري فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكه ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب . ولو استحضرت القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في

حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة. ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة فإذا الإنسان يمش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها :

« إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . »  
 أي رقيب حاضر . لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمي الملكين رقيب ، وعتيد  
 ونحن لاندرى كيف يسجلان . ولاداعي للتخيلات التي لاتقوم على أساس . فوقنا بإزاء هذه الغيبات أن تلقاها كما هي ، ونؤمن بمدلولها دون البحث في كيفية ، التي لاتفيدنا معرفتها في شيء . فضلا على أنها غير داخلة في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية .

ولقد عرفنا نحن - في حدود علمنا البشري الظاهر - وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال . وهي تسجيل الحركة والنبرة كأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التلفزيون . وهذا كله في محيطنا نحن البشر . فلاداعي من باب أولى أن نقيد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة، البعيدة نهائيا عن ذلك العالم المجهول لنا، والذي لانعرف عنه إلا ما نخبرنا به الله . بلا زيادة !

وحسبنا أن نعيش في ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ؛ لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير .

حسبنا أن نعيش في ظل هذه الحقيقة الرهيبية . وهي حقيقة . ولولم ندرك نحن كيفية . وهي كائنة في صورة مامن الصور ، ولانمفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها . لالتفق الجهد عبثا في معرفة كيفية !

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وتوجهات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا ..

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث الزني - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ،

## سورة ق

يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يُلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » .. قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال ابن الحارث . ( ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث محمد ابن عمرو به وقال الترمذى : حسن صحيح )  
 وحكى عن الإمام أحمد أنه كان فى سكرات الموت يُئن . فسمع أن الأئمن يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه .

وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها فى يقين .

\*\*\*

تلك صفحة الحياة ، ووراءها فى كتاب الإنسان صفحة الاحتضار :

« وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد » ..

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشرى أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أنى له ذلك : والموت طالب لا يعمل الطلب ، ولا يبطئ الخطى ، ولا يخلف العباد ؛ وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب فى الأوصال ، وبينما الشهد مروض يسمع الإنسان : « ذلك ما كنت منه تحيد » . وإنه ليرجف لصداها وهو بمد فى عالم الحياة فكيف به حين تقال له وهو بمانى السكرات ! وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما تغشاه الموت جعل يمسح المرقع عن وجهه ويقول : « سبحان الله . إن للموت لسكرات » .. يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟

ويلفت النظر فى التعبير ذكر كلمة الحق : « وجاءت سكرة الموت بالحق » .. وهى توحى بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهى فى سكرات الموت . تراه بلا حجاب ، وتدرى منه ما كانت تجهل وما كانت تجهل ، ولكن بمد فوات الأوان ، حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدى إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان . وذلك الحق هو الذى كذبوا به فاتهموا إلى الأمر المريب . . . . . وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدى شيئا ولا يفيد !

\*\*\*

ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

« ونفخ في الصور . ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا مالدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر فآلقيا في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته واسكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد » . .

وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضى رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كيف أنعم . وصاحب القرن قد التعم القرن ، وحتى جهنمه ، وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل (١) . .

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » . . جاءت كل نفس . فالنفس هنا هي التي تحاسب ، وهي التي تلتقي الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا . وقد يكونان غيرها . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدي الجبار .

وفي هذا الموقف العصيب يقال له : « لقد كنت في غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . . قوى لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه ، وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقمها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد ا

هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته : « وقال قرينه هذا مالدي عتيد » . . حاضر مهياً معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد ا

ولا يذكر السياق شيئاً عن مراجعة هذا السجل تعجيلاً بتوقيع الحكم وتنفيذه . إنما يذكر مباشرة النطق العلوي الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلها آخر فآلقيا في العذاب الشديد » . .

(١) رواه الترمذى .

## سورة ق

وذكر هذه نعوت يزيد في حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار في الموقف العصيب الرهيب ؛ وهي نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر . وتنتهي بتوكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد : « فألقياه في العذاب الشديد » بيانا لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر بإلقائه فيها .

عندئذ يفرع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه . بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : « قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » . . . وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذي قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه ؛ ويقرر أنه وجد ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفي القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ - وهو برئ - ليبين أنه مع صحبته لهذا الشقي - فإنه لم تكن له يد في أي مما كان منه . وتبرؤ البريء أدل على الهول المزلزل والكرب الخفيف .

هنا يحىء القول الفصل ، فينهي كل قول : « قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد - ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد » . . . فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محمداً جزاء كل عمل . وكل شيء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل . ولا يظلم أحد ، فالمجازي هو الحكم العدل .

بهذا ينتهي مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته ؛ ولكن المشهد كله لا ينتهي . بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف :

« يوم نقول لجهنم : هل امتلأت : وتقول : هل من مزيد ؟ » .

إن المشهد كله مشهد حوار . فتمرض جهنم فيه في معرض الحوار . وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب . . . هذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . . . هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تباعاً ، وتتكدس ركاباً . ثم تنادي جهنم : « هل امتلأت ؟ » واكتفيت ! ولكنها تلمظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكل التهم : « هل من مزيد ؟ » . . .

فباللهول الرعب !

وهي الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر . وديع ألف ، رضى جيل . إنه مشهد

الجنة ، تقرب من التقيين ، حتى تراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم :

« وأزلقت الجنة للمتقين غير بعد . هذا ماتوعدون لكل أبواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد . »  
 والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة . فالجنة تقرب وتزلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هي التي تجيء : « غير بعيد » ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : « هذا ماتوعدون لكل أبواب حفيظ . من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .. فيوصفون هذه الصفة من الملائة الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوأبون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، منييون إلى ربهم طائعون .

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ماخروج : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » ..  
 ثم يؤذن في الملائة الأعلى ، تنويها بشأن القوم ، وإعلانا عالمهم عند ربهم من نصيب غير محدود :  
 « لهم ما يشاءون فيها ، ولدينا مزيد » .. فمهما اقترحوا فهم لا يبلغون ما أعد لهم . فالزيد من ربهم غير محدود ..

\*\*\*

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة ، كأنه الإيقاع الأخير في اللحن ، يعيد أقوى نعماته في لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين . وفيه لمسة البعث والحشر في مشهد جديد . ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى العميق للمشاعر والقلوب :  
 « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فنقبوا في البلاد هل من محيص ؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون ونبشبح محمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

\*\*\*

ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت في سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض في الحتام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركيز وبهذه السرعة . ويكون لها في الحس مذاق

آخر غير مذاقها وهي مبسوطه مفصلة من قبل في السورة . وهذه هي خصيصة القرآن العجيبة!  
قال من قبل : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان  
لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد » ..  
وقال هنا : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا ، فتبوا في البلاد . هل من  
محيص ؟ »

الحقيقة التي يشير إليها هي . ولكنها في صورتها الجديدة غيرها في صورتها الأولى .  
ثم يضيف إليها حركة القرون وهي تتقلب في البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهي مأخوذة  
في القبضة التي لايفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولا فكك : « فهل من محص ؟ » ..  
وعقب عليها بما يزيدها جدة وحيوية :

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » ..  
وفي مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فمن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي  
مات قلبه أو لم يرزق قلبا على الإطلاق الا بل إنه يكفي للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع  
يلقى إلى القصة بإنصات ووعي ، فتفعل القصة فعلها في النفوس .. وإنه للحق . فالنفس البشرية  
شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات  
والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة .

وعرض من قبل صفحات من كتاب الكون : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها  
وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج  
بصيج » ..

وقال هنا : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما منا من لغوب » ..  
فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمنة الأولى . حقيقة : « وما منا من لغوب » ..  
وهي توحى بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس  
إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟

وعقب عليها كذلك بإعطاء جديد وظل جديد :  
« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل  
فسبحه وأدبار السجود » ..

وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذي يعقب الغروب.. كلها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض. وهو يربط إليها التسييح والحمد والسجود. ويتحدث في ظلالها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبمث وجحود بقدره الله على الإحياء والإعادة. فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمة المكررة. جو الصبر والحمد والتسييح والسجود. موصولاً كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود، شور في الحس كلما نظر إلى السموات والأرض؛ وكما رأى مطلع الشمس، أو مقدم الليل؛ وكما سجد لله في شروق أو غروب...

ثم.. لمة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة.. اصبر وسبح واسجد. وأنت في حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل، المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار. لا يفعل عنه إلا الغافلون. الأمر الذي تدور عليه السورة كلها، وهو موضوعها الأصيل:

« واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب. يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج. إننا نحن نحي ونميت وإلينا المصير. يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً. ذلك حشر علينا يسير.. »  
 وإنه لمشهد جديد مثير، لذلك اليوم العسير. ولقد عبر عنه أول مرة في صورة أخرى ومشهد آخر في قوله: « ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد.. » الخ  
 فأما هنا فعبّر عن النفخة بالصيحة. وصور مشهد الخروج. ومشهد تشقق الأرض عنهم. هذه الخلائق التي غربت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة. تشقق القبور التي لا تحصى. والتي تعاقب فيها الموتى. كما يقول المعري:

رب قبر قد صار قبراً مراراً ضاحكاً من زاحم الأضداد  
 ودفين على بقايا دفين في طويل الآجال والآماد

كلها تشقق، وتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تأهية أوحائلة في مسارب الأرض، لا يعرف مقرها إلا الله.. وإنه لمشهد عجيب لا يأتي عليه الخيال

وفي ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التي فيها يجادلون وبها يجحدون: « إننا نحن نحي ونميت وإلينا المصير.. » « ذلك حشر علينا يسير.. » في أنسب وقت للتقرير..

وفي ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالثبوت للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه جدلهم وتكذيبهم في هذه الحقيقة الواضحة الشهودة بعين الضمير:



## سورة ق

« نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..  
« نحن أعلم بما يقولون » .. وهذا حسبك . فللعلم عواقبة عليهم .. وهو تهديد مخيف ملفوف .  
« وما أنت عليهم بجبار » .. فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر في هذا ليس إليك .  
إنما هو لنا نحن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون ..  
« فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .. والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعي  
ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب .  
وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوى الأعناق على الإيمان . ففيها  
من القوة والسلطان ما لا يمكنه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشري ما هو أشد  
من سياط الجبارين !  
وصدق الله العظيم ..

اتهي الجزء السادس والعشرون وبليه الجزء السابع  
والعشرون مبدؤا بسورة القدريات (١)

(١) سورة القدريات مشتركة بين الجزئين . وقد آثرنا عرضها بكاملها - بدون الله - في الجزء السابع

# فی ظلال القرآن

ابجزء السابع والعشرون

بقلم

سید قطب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من سورة الذاريات والطور والنجم والقمر والرحمن والواقعة والحديد

## سُورَةُ الذَّارِيَاتِ مَكِّيَّةٌ وآياتها ٦٠

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالذَّارِيَاتِ ذُرُورًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا \* فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا \* فَالْمَقَامَاتِ أَمْرًا \* إِنْ مَّا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ \* وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ .

« وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ \* إِنَّكُمْ لِنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ \* يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفِكَ .

« قَتِيلَ أَخْرَاصُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرِيَةٍ سَاهُونَ \* يَسْأَلُونَ : أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ؟ \*

يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ \* ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ، هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

مُحْسِنِينَ \* كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ \* وَبِالْأَشْجَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ \* وَفِي أَمْوَالِهِمْ

حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَخْرُومِ .

« وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ \* وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ \*

وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ \* فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ مِثْلَمَا أَنْتُمْ

تَنْطَلِقُونَ .

« هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ؟ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا : سَلَامًا

قَالَ : سَلَامٌ قَوْمٍ مُنْكَرُونَ \* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِمِجَلِّ سَمِينٍ \* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، قَالَ :

أَلَا تَأْتَاكُمْ كَلْبُونَ ؟ \* فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَخَفْ ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ \*

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَءٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ : عَجُوزٌ عَقِيمٌ \* قَالُوا : كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ \* قَالَ : فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ؟ ﴿٣٦﴾ قَالُوا : إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ \* لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ \* مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ .

« فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

« وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ \* فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

« وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ \* مَا تَدْرُونَ شَيْءًا آتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ

كَالرَّمِيمِ .

« وَفِي نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ : تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ \* فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ \* فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتْتَعِرِينَ .

« وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

« وَالسَّمَاءَ بَدَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ \* وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ \* وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ \* فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

« كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا : سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ \* أَتَوَاصَوْا بِهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُونَ \* فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ \* وَذَكَرْنَا قَائِنًا الَّذِي كَرَّمْنَا نَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ .

« وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ \* مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا \* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .

« فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ \* قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » ﴿٦﴾

هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. في لفظهم الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر : « والذاريات ذروا ، والحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقصبات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع » . . .

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقصبات .. مدلولاتها ليست متعارفة ، وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلتقي في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسما : « والسما ذات الحبك » .. يقسم بها الله تعالى . على أمر : « إنكم لفي قول مختلف » . . لا استقرار له ولا تناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون ، لا على العلم واليقين . . .

هذه السورة : بفتحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمرا واضحا في سياقها كله .. ربط القلب البشري بالسما ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله في السورة : « ففروا إلى الله » .. وتحقيقا لإرادته في عباده : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ..

ولما كان الانشغال بالرزق وما ينجبه القدر عنه هو أ كثر تلك العوائق وأشدّها فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسما في شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : « وفي السما رزقكم وما توعدون » . . « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . . وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » . . ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقرى ضيوفه

## سورة الذاريات

القائل - أومن حسبهم ضيوقه من الملائكة - بعجل سين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه ،  
 وبجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !  
 - فتخلص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إسار الرزق ، وتبليغه بالنساء ، ترف  
 أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها في علاه ، بلاعائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن  
 الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا  
 الافتتاح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها ، وكان القسم بعده بالنساء ، وكان تكرار الإشارة  
 إلى السماء أيضا ..

وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة: « إن المتقين في جنات وعيون .  
 آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم  
 يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .. فهي صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ،  
 والقيام في عبادته بالليل ، والتوجه إليه في الأسحار . مع إرخاص المال ، والتخلص من ضغطه ،  
 وحمل نصيب السائل والمحروم حقا فيه .

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في  
 شأن الرزق ، لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي  
 أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..  
 وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة ، وتمهيد للأرض في يسر ، وحلعه ما فيها  
 من أزواج ، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض  
 فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني  
 لكم منه نذير مبين » ..

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة ، عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس ،  
 ووظيفتها الرئيسية الأولى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما  
 أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..  
 فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نغمات متعددة ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق

ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشري إلى السماء !  
 وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ،

وقصة ثمود ، وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المال ؛ كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بعلام عليم ، ورزقه هو وامرأته به على غير ماتوقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة : « إن ماتوعدون لصادق » . والذي أشار إليه في ختامها إنذارا للمشركين : « فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » .. بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! » ..

فالتعصص في السورة - على هذا النحو - مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ، وتخليصه من جميع العوائق ، ووصله بالسما . بالإيمان أولا واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

\*\*\*

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقدمات أمرا .. إن ماتوعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » ..

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلتقي في الحس - كما تقدم - إجماع خاصا ، وتلقى ظلا معينا ، يملق القلب بأمر ذي بال ، وشأن يستحق الانتباه . وقد احتاج غير واحد في العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات ، والمقدمات ..

قال ابن كثير في التفسير : قال شعبة ابن الحجاج ، عن سماك ابن خالد ابن عرعره ، أنه سمع عليا - رضي الله عنه - وشعبة أيضا عن القاسم ابن أبي بزة ، عن أبي الطفيل ، أنه سمع عليا - رضي الله عنه - وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه سمع منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أنبأتكم بذلك . فقام ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا » ؟ قال علي - رضي الله عنه : الريح . قال : « فالحاملات وقرا » ؟ قال - رضي الله عنه - : السحاب . قال : « فالجاريات يسرا » ؟ قال - رضي الله عنه - : السفن . قال : « فالمقدمات أمرا » ؟ قال - رضي الله عنه - : الملائكة .



## سورة الذاريات

١

وجاء صبيغ ابن عميل التيمي إلى عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - فسأله عنها فأجابته  
بمثل ما روى عن علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - وقد أحس عمر - رضى الله عنه - أنه  
يسأل عنها تعنتا وعنادا فعاقبه ومنعه من مجالسة الناس حتى تاب وحلف بالأيمان المغلظة : ما يجد  
في نفسه مما كان يجد شيئا .. وهذه الرواية تشي كذلك بأن غموض مدلولات هذه التعميرات  
هو الذي جعل المتعنتين يستترون وراءها ويسألون عنها !

وهكذا فرها ابن عباس وابن عمر - رضى الله عنهم - ومجاهد وسعيد ابن جبير والحسن  
وقادة والسدي وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك ( كما قال ابن كثير ).

أقسم الله - سبحانه - بالرياح التي تذر ما تذر من غبار وجوب لقاح وسحب وغيرها  
مما يعلم الإنسان وما يجمل . وبالسحاب الحاملات وقرا من الماء يسوتها الله به إلى حيث يشاء .  
وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون  
كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقدمات أمرا ، تحمل أوامر الله  
ونوزعها وفق مشيئته ، فتفصل في الشؤون المختصة بها ، وتقسم الأمور في الكون بحسبها .

والريح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستارا  
لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله في كونه وفي عبادته وهو يقسم بها - سبحانه - للتعظيم  
من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، لتدبر ما وراءها من دلالة ؛ ولرؤية يدها وهي تنشأ وتصرفها  
وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة بوجه القلب إلى أسرارها  
المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الله كالموحى .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذي يعنى سياق هذه السورة  
بتحرير القلب من أوهامه ، وإعفائه من أثقاله . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق  
ووسائله وأسبابه . أما الملائكة ونسيمها للأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح  
الصلة بين هذا الافتتاح وبموضوع بارز تعالجه السورة في مواضع شتى .

يقسم الله - سبحانه - بهذه الخلائق الأربع على : « إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين  
لواقع » .. وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحسانا ، ومجازيهم بالسوء سوءا . وأنه  
إذا أمهلهم للحساب في الأرض ، فليس بمهل ، حسابهم في الآخرة فالحساب لا بد منه هناك !  
وإن الدين لواقع » .. فالوعد صادق حقا إمامنا وإمامناك . . وما وعدم كذلك الرزق

وكفائته لهم مبسوطا أو مقدرًا - وفق مشيئته - ووعدته حق في هذا كما هو حق في كل شأن .  
ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس في الصورة التي يريدونها ، وفي الوقت الذي يريدونه ،  
وما يحتاج الأمر إلى قسم منه - سبحانه - إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها - كما تقدم -  
وتدبر ما وراءها من إبداع وقدرة وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله - باريء ، هذه الخلائق  
بهذا النظام وهذا التقدير - لابد صادق ؛ وأن حسابه على الخير والشر والصلاح والفساد لابد  
واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثًا ولا مصادفة ولا جزافًا .. وهكذا  
تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيجابية قوية بفضل هذا القسم الذي يلفت القلب  
إليها لفتًا ، ويوجهه الحس إليها توجيهًا . فهي طريقة من طرق الإيحاء والتربية ، ومخاطبة الفطرة  
بلغتها الكون خطابًا مباشرًا !

\*\*\*

والقسم الثاني كذلك ..

« والسما ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك » ..

يقسم بالسما للنسقة المحكمة التركيب . كتسويق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات .. وقد  
تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد مجمدة تجعد الماء  
والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعًا دائمًا لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة  
المتناسقة .

يقسم بالسما للنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا  
تبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقی ، فلا استقرار عليه ولا توافق  
ولا تبات . بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال . وكذلك الباطل دائمًا أرض مرجرجة مهتزة ؛ وتبه  
لامعالم في ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا يبقء إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع  
عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بمد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق ..  
ويتضع اضطرابهم واختلافهم ومأمم فيه من الأمر المريج ؛ حين يمرض في ظل السماء ذات  
الجبك المنسقة التركيب :

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون فيها إلى  
حق أو يقين . فهم في قول مختلف في هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم في مشهد حى  
تملاه الميون :

« قتل الخراصون . الذين هم في غمرة ساهون . يسألون : أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فنتكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..

والحرص : الظن والتقدير الجزاف الذي لا يقوم على ميزان دقيق . والله - سبحانه - يدعو عليهم بالقتل . فياللهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! « قتل الخراصون » ويزيد أمرهم وضوحا : « الذين هم في غمرة ساهون » فهم مغمورون بالأضليل والأوهام لا يفقهون ولا يستيقظون . والتعبير يلقي ظلا خاصا ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مدهولون !

ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح ، الذي يراه ويوقن به كل واع غير مدهول ؛ فهم « يسألون : أيان يوم الدين » ؟ يسألون هكذا ، لاطلبا للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكديبا ، واستبعادا لمجيئه ، يعبر عنه لفظ « أيان » المقصود !

ومن ثم يعاجلهم بعشدهم في هذا اليوم الذي يتبعونه ويستكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتمييز حقيقته : « يوم هم على النار يفتنون » اومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب : « ذوقوا فنتكم . هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..

فهذه المعالجة هي الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف في المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التي يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل في أشد صورته وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

\*\*\*

وعلى الضفة الأخرى وفي الصفحة المقابلة يرسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لا يحرص ؛ تقى لا يتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضى العمر في غمرة وذهول :  
« إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » ..  
فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدي الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء « في جنات وعيون » .. « آخذين ما آتاهم ربهم » من فضله وإنعامه ، جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يرهم : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين »

ويصور إحسانهم صورة خاشعة . رفاة حساسة :

« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون » ..

فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام ، التوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطمعون الكرى إلا قليلا ، ولا يهجعون في ليهم إلا سيرا . يأأسون بربهم في جوف الليل ، فتجافي جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم النطع فلا يثقلهم المنام !

قال الحسن البصرى : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » .. كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأحنف ابن قيس : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » .. كانوا لا ينامون إلا قليلا . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصرى : كان الأحنف ابن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا ، إذ نحن قوم لا نبليغ أعمالهم . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم ، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله تعالى قوما فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » . ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم ! فقال له أبي - رضى الله عنه - : طوبى لمن رقد إذا نعى ، واتقى الله إذا استيقظ .

فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين - ذوى المكانة فى الإيمان واليقين - ويجدون أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووقفهم إلى القيام بحقها . وكتبهم بها عنده من المحسنين .

وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين :

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ..

فهم يحملون نصيب السائل الذى يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذى يسكت ويستحي فيحرم . يحملون نصيب هذا وهذا حقا مفروضا فى أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود .

## سورة الذاريات

وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالي في السورة ، في الوقت الذي تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين .

\*\*\*

« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون . ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » . . .

وهي لفظة إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء في شأن الرزق المكتوب والحظ المقدر . تختم بقسم عظيم . قسم الله - سبحانه - بذاته بوصفه : « رب السماء والأرض » اللتين ورد ذكرهما في هذا المقطع . على أن هذا القول الذي جاءهم من عنده حق يقين . . .

« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » . . .

هذا الكوكب الذي نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعته . معرض لم نستجلب منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائمه . ونحن نكشف في كل يوم جديداً منه ، ونطلع منه على جديد . . . ومثل هذا المعرض معرض آخر مكون فينا نحن . . النفس الإنسانية . . الخفية الأسرار ،

التي نطوى فيها أسرار هذا الوجود كله ، لأسرار الكوكب الأرضي وحده .

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيات تلك الإشارة المختصرة ، التي تفتح هذين المعرضين على مصاريعها لمن يريد أن يبصر ، ولمن يريد أن يستيقن ، ولمن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالصيد القيم من المعرفة الحقة ، التي ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال . قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك . كل بقدر ما يتقبل منها وما يطبق . وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس . . ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده ، وتوسع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن . . هذا الكتاب الذي « لا تنفذ عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبي الذي تلقاه واستوعب أسرارها ، وعاش بها . يقول: عن تجربة حية وجدتها في نفسه فعبّر عنها ذلك التعبير - صلوات الله وسلامه عليه -

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس ، نصيبهم ، وتسلوا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيبا يناسب مافتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب. ونجد نحن نصيبنا وفق مااتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب ، وماتكشف لنا من أسرار لا تنفذ في هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخرا لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس . ويبقى هذان المرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب المعد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريدا في المعروف لنا في محيط هذا الكون الهائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السيارة . التي يبلغ عدد المعروف منها فقط - والمعروف نسبة لا تكاد تذكر في حقيقة الكون - مئات الملايين من المجرات التي تحوى الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هي توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التي لا تحصى فإن الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانتها. ولو اختلفت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جدا لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها . . لو تغير حجمها صفرا أو كبرا لو تغير وضعها من الشمس قريبا أو بعيدا . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا . لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطأ . لو تغير حجم القمر - تابعها - أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصا . . . لو . . . إلى آلاف اللواقط المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانتها.

أليست هذه آية أو آيات معروضة في هذا المعرض الإلهي ؟

ثم . هذه الأقوات المذخورة في الأرض للأحياء التي تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح في أجوائها ، أو تخرج ماءها ، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها ، أو تختفي في مساربها وأجوائها . هذه الأقوات الجاهزة للركبة والبسيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع لتلبي حاجة هذه الأحياء التي لا تحصى ، ولا تحصى أنواع غذائها أيضا . . هذه الأقوات الكامنة في جوفها ، والسارية في مجاريها ، والسابحة في هوائها ، والنابتة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس

ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تدفق وفق تدبير الشيئة المدبرة التي خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، وجهازه بكل ما يلزم للأشكال الكثيرة التي لا تحصى . وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم . وعجائب هذه المشاهد التي لا تنفد : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات ، ووجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تناوله يد الإبداع والتغير الدائمة التي لا تنفد عن الإبداع والتغير . ويمر به الإنسان وهو محل فإذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فإذا هو مشهد آخر . ويراها وهو نبت خضر فإذا هو مشهد ، ويراها إبان الحصاد حين يهبج ويصفر فإذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعاً ولا ذراعاً في المكان !

والخلائق التي تعمر هذه الأرض من الأحياء . نباتاً وحيواناً . وطيراً وصمكاً ، وزواحف وحشرات .. بله الإنسان فالقرآن يفرد به نص خاص .. هذه الخلائق التي لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد - فضلا على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل - وكل خليفة منها أمة أو كل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة : لا بل كل جناح في ورقة ، وكل ورقة في زهرة ، وكل قصبة في ورقة ! في ذلك المرض الإلهي العجيب الذي لا تنقضي عجائبه .

ولومضى الإنسان - بل لومضى الأناسي جميعاً - يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى ما في الأرض من عجائب ، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لهم قول ولا إشارة . والنص القرآني ما يزيد على أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر ، واستجلاء العجائب في هذا المرض الهائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ والتمتع بما في هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لا يدرك هذه العجائب ، ولا يستمتع بالرحلة هذا المتاع ، إلا القلب العاقل باليقين . « وفي الأرض آيات للموقنين » . فلسفة اليقين هي التي تهيئ القلب فيرى ويدرك ؛ وتعي مشاهد الأرض فتتطرق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحديثه عما وراها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامهة جوفاء ؛ لا تتطرق للقلب بشيء ؛ ولا تتجاوب

## الجزء السابع والعشرون

معه شيء . وكثيرون يمرون بالمرض الإلهي المفتوح مغمضى العيون والقلوب . لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ؛ لأن لمسة اليقين لم تحي قلوبهم ، ولم تثبت الحياة فيها حولهم ! وقد يكون منهم علماء . « يملون ظاهرا من الحياة الدنيا » . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لا تفتح لحقيقة الوجود إلا بفتح الإيمان ، ولاتراها إلا بنور اليقين . . وصدق الله العظيم .

ثم العجبية الأخرى التي تدب على هذه الأرض :

« وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » ..

وهذا المخلوق الإنساني هو العجبية الكبرى في هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ،

وعن أسرارها الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد . عجيبة في تكوينه الروحي : في

أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون

وأسراره وخفاياه :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التي بأسرار تدهش وتبهر . تكوين أعضائه

وتوزيعها . وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس

والاحتراق . دورة الدم في القلب والعروق . الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم . الغدد

وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها، وتجاوبها

الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب . وفي كل عضو وكل جزء من عضو

خارقة تحير الألباب .

وأسرار روحه وطاقاتها للملومة والمجهولة .. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها

وتذكرها . هذه المعلومات والصور المخترنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد

كيف انطبقت ؟ وأين ؟ وكيف تستدعى فتجيب . .. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى .

فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل

على ما وراء الظاهر من الغيب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري

من الخصائص ؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريين . فأين تكمن هذه الخصائص



في تلك الحلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل ،  
وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟ !

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض ، وهو يفصل عن أمه ويعتمد  
على نفسه ، ويؤذن لقلبه وورثيه بالحركة لبدء الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه  
الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ،  
لا يقف له قلب ولا يتماسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع  
والكلمات ثم بالعبارات . بل أمام النطق ذاته . نطق هذا اللسان . وتصويت تلك الخنجرة . إنها  
عجيبة . عجيبة تفقد وقمها لأنها تمر بنا كثيرا . ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبر يحدد  
وقمها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله .

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تفقنا أمام خارقة من الخوارق ، لا ينقض منها العجب ؛ « وفي  
أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » ..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومراة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة  
خاصة لا تتكرر أبدا على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعا لاني شكله وملاحظه ،  
ولاني عقله ومداركه ، ولاني روحه ومشاعره . ولاني صورة الكون كما هي في حسه وتصوره .  
ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة  
فريدة لا تتكرر . يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر . كما لا توجد بصمة  
أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور !

وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر ، تراء العيون : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » :  
وماتراء العيون من عجائبه يشير إلى الغيب المكنون .

وهذه العجائب لا يعصرها كتاب . فالعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات ..  
والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم ، والقرآن لا يحصيها ولا يعصرها . ولكنه يمس القلب هذه  
اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المروض للأبصار والبصائر . وليقضى رحلته على هذا  
الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن في ذات  
نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتعة حقا تلك التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الخلق وسماتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بين العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بين يقضى عمره كله في هذا المتاع الرفيع ؟

إن القرآن يمثل هذه اللذة يخلق الإنسان خلقا جديدا ، بحس جديد ؛ ويمتعه بحياة جديدة ، ويهبه متاعا لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهب له هذا المتاع العلوي . وهو بعد في الأرض في عالم الطين ا وبعد قد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس . ثم تلتها في السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوي المطوي ، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..

وهي لفتة عجيبة . فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، وينتظر من وراءها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ؛ ويفهمها على وضعها ؛ ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها . إنما المقصود هو ألا يطلق نفسه بها ، وألا يتقل عن الله في عمارتها . ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء . وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه ، فرزقه مقدر في السماء ، وما وعده الله لا بد أن يكون . بذلك ينطلق قلبه من إسار الأسباب الظاهرة في الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السماوات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب ويميش موصولا قلبه بالسماء ، وقدماء ثابتان على الأرض . فهكذا يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبهه من الطين ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته . لأنه

## سورة الذاريات

يكون حينئذ في الحالة التي أنشأ الله لها . فطرة الله التي فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والانحراف ...

وبعد هذه المسات الثلاث في الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

« ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ..

وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لا يجادلون فيها ولا يمارون ، ولا يرتابون فيها ولا يغرصون . وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .

وقد روى الأصمعي نادرة ذكرها الزمخشري في الكشاف ، ونسوقها نحن لطرافتها -

في تحفظ من جانب الرواية ! - قال :

« أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابي على قعود له . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من

بني أصم . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمان . فقال : انل على .

فتلوت : « والذاريات » .. فلما بلغت قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال :

حسبك ! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقومه فكسرها

وولى ! فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت ،

فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر . فسلم على واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال :

قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ قرأت : « ف ورب السماء والأرض إنه

لحق » .. فصاح قال : يا سبحان الله . من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى

الجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه » ..

وهي نادرة تصح أولانصح . ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه . القسم

بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . بما يزيد الحقيقة القسم عليها جلالاتها . وهي حقيقة

بلا قسم ولا يمين .

\*\*\*

ذلك كان القطاع الأول في السورة . أما القطاع الثاني فيشمل تلك الإشارات إلى قصص

إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح .. وهو مرتبط

بما قبله ، ومرتب كذا بما بعده في سياق السورة .

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاما . قال : سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا نخف ، وبشروه بسلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

إنها آية أو آيات في تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التي أشار إليها في الأرض وفي الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التي أشار إلى تحققها في القطاع السابق . ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال: « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ » .. تنويها بهذا الحديث ، وتهيئة للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحا . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون: سلاما . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله - أي زوجته - مسارعا ليهيئ لهم الطعام . ويحییء به طعاما وفيرا يكفي عشرات : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال .. تكفيهم كنف من هذا العجل السمين !

« فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ » .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لاتصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

« فأوجس منهم خيفة » .. إما لأن الطارئ الذي لا يأكل طعام مضيفه ينبئ عن نية شر وخيانة . وإما لأنه لمع أن فيهم شيئا غريبا عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم ، أو طمأنوه وبشروه : « قالوا : لا نخف . وبشروه بسلام عليم » .. وهي البشارة بإسحاق من زوجة العقيم .

« فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم » .. وقد سمعت البشرية ، فبغتت وفوجئت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلت عادة النساء ضربت خديها بكفها . وقالت : عجوز عقيم . تنبئ عن دهشتها لهذه البشرية وهي عجوز . وقد كانت من الأصل عقيبا . وقد

أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبدا ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدتها شيء ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

« قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم » . .

وكل شيء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فإذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشرى ، وتحذان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشيئة المطلقة ماضية في طريقها لاتقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبديع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أرسلوا فيه : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ » . . « قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » . . هم قوم لوط . كما ورد في سور أخرى . « لزرل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للسرفين » . . وهذه الحجارة الطينية المعلقة أو المعلقة المجهزة عند الله للسرفين المتجاوزين الحق - وقوم لوط كانوا سرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين - لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحجم الطيني من جوف الأرض . فهي « عند ربك » بهذا الاعتبار مسلطة - وفق إرادته ونواميسه - على من يريد من السرفين . مقدره بزمانها ومكانها وفق علمه وتديره القديم . وأن يتولى إرسالها - في إطار إرادته ونواميسه - ملائكته . وهل ندرى نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندرى حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه وما فيه ؟ وهل ندرى حقيقة القوى الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تكشف لنا بين الحين والحين ؟ وما لنا نعرض على خبر الله لنا أنه سلب يعض هذه القوى في وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى في صورة ما ، على قوم ما ، في أرض ما ، ما لنا نعرض على خبر الله لنا ، ونحن ما زال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أما حقيقتها فهي عنا بعيد ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كنتك في يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » . . لإنجائهم وحياتهم . . « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم بيت النبي لوط . كما ورد في مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من الهالكين .

## الجزء السابع والعشرون

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » .. فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتقمون بها . أما الآخرون فمطموسون لا يرون آيات الله . لافي الأرض ولا في أنفسهم ولا في أحداث التاريخ !

\*\*\*

وآية أخرى في قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة في معرض الآيات في تاريخ المرسلين : « وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان ميين . فتولى بركنه وقال : ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فبنذناهم في اليم ، وهو مليم » .. والسلطان الميين الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية ، والبرهان القاطع ، وهو الهية الجليلة التي خلعها عليه . وهو معها يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبي الذي كشف له عن آيات الله الخوارق : « ساحر أو مجنون » .. مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلبا لم يتأهب للهدى ؛ ولا تقطع لسانا يصر على الباطل ويفترى .

ولا يطيل السياق هنا في عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضى إلى نهايتها التي تتجلى فيها الآية الباقية المذكورة في التاريخ : « فأخذناه وجنوده فبنذناهم في اليم وهو مليم » .. أي مستحقا للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب .

وواضح في التعبير فعل الله المباشر في أخذه هو وقومه ، وفي نبذهم في اليم . وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله في موسى . في معرض آياته في الأرض والأنفس وتاريخ الرسالات والمرسلين .

\*\*\*

وآية أخرى في عاد :

« وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما نذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالريم » .. وسميت الريح التي أرسلت على عاد عقبا لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وترك كل شيء تأتي عليه كاليت الذي رمّ وتحول إلى فئات . والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها - في أطار مشيخته وناموسه في صورة ما من صورها ، في الوقت المقدر ، على من يريد ، بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحي الساذج ،

## سورة الذاريات

بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني؛ وتهب هنا أو هناك تبعاً لموامل طبيعية. فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه الموامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتديره. وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره والموامل التي جعلها. ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض!

\*\*\*

وآية ثالثة في نمود:

« وفي نمود إذ قيل لهم: تمتعوا حتى حين. فتعوا عن أمر ربهم، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » ..  
والإشارة في قوله: « إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » .. قد تعنى إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة. وهو ماورد في الآية: « قيل: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام » .. وقد تعنى ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، فحق عليهم الهلاك.  
وما يقال في الحجارة التي أرسلت على قوم لوط، وفي الريح التي أرسلت على عاد، يقال في الصاعقة التي أرسلت على نمود. فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله، مسخرة بمشيئته وبنواميسه. يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس. فتؤدي دورها الذي يكلفها الله. كأى جند من جند الله.

\*\*\*

وآية رابعة في قوم نوح:

« وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين » ..  
وهي إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح. كأنما يقال: واذكر قوم نوح. وقد وردت « قوم » منصوبة وبدون لفظ « في » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها. وتلتها « والسماء بيناها .. » معطوفة عليها .. وهذه آية كونية، وتلك آية تاريخية. يربطها السياق مما، ويربط بها هذا القطع بالقطع الثالث في السورة ..

\*\*\*

« والسماء بيناها بأيد، وإنا لم نسمعون، والأرض فرشتها فتم للماهندون، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا إلى الله، إني لكم منه نذير مبين. ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر، إني لكم منه نذير مبين » ..

إنها عودة إلى المعرض الكونى الذى افتتحت به السورة ، فى صورة من صورهِ الكثرة التى يجلوها القرآن للقلوب . واستطراد فى الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين .

« والسماء بيناها بأيد وإنا لموسعون » . .

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبيء عنه بناء السماء الهائل التماسك المتناسق . بأى مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعنى مدارات النجوم والكواكب . أم تعنى مجموعة من المجموعات النجمية التى يطلق عليها اسم المجرة وتحوى مئات الملايين من النجوم . أم تعنى طبقة من طبقات هذا الفضاء الذى تتناثر فيه النجوم والكواكب . . أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء . والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة التى تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة فى هذا الفضاء الرحيب .

ولعل فى الإشارة إلى السعة إغناء آخر إلى مخازن الأرزاق التى قال من قبل : إنها فى السماء . ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآنى يلقى ظلالة معينة ، يبدو أنها مقصودة فى التعبير ، لخطاب الشاعر البشرية خطاباً موجياً .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض الممهودة المفروشة :

« والأرض فرشناها . فنعم الماهدون » . .

قد أعد الله هذه الأرض لتكون مهذا للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحى باليسر والراحة والناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضاً مسيراً ممهداً ، كل شئ فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : « فنعم الماهدون » . .

« ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » . .

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض - وربما فى هذا الكون . إذ أن التمييز لا يخص الأرض - قاعدة الزوجية فى الخلق . وهى ظاهرة فى الأحياء . ولكن كلمة « شئ » تشمل غير الأحياء أيضاً . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية . وحين تذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً . وأن فكرة عموم الزوجية - حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك . فضلاً على عموم الزوجية فى كل شئ . . حين تذكر



## سورة الداريات

هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم . . وهو يطلنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التكبير !

كأن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة. وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة. وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء: موجب وسالب! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب..

وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : في أجواز السماء ، وفي آماذ الأرض ، وفي أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يشغل أرواحهم ويقيدها ؛ موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

« ففروا إلى الله ، إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر ، إني لكم منه نذير مبين » . .

والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحى بالأتقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وثقلها عن الانطلاق ، وتغاصرها وتأسرها وتدعها في عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجيء المهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر : إني لكم منه نذير مبين » . . وتكرار هذا التنبيه في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبيه والتحذير !

\*\*\*

وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليفة استطرادا مع آيات الرسائل والرسول . فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التي سلفت في السياق :

« كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون . فتول عنهم فما أنت بعلوم . وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » . .

فهي جيلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ؛ وهو استقبال واحد للحق وللرسول يستقبلهم به المنحرفون : « كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون » . . كما يقول هؤلاء المشركون : كأنما تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع بين الغابرين واللاحقين !

والنتيجة الطبيعية التي ترتب على هذا الموقف المكرور ، الذي كأنما توأصى به الطاعون على مدار القرون ، ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكذيب المشركين . فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولا مقصر في هدايتهم : « فتول عنهم فما أنت بملوم » . . إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضي في التذكير ، معها أعرض المعرضون وكذب الكذوبون : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » . . ولا تنفع غيرهم من الجاحدين . والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيها إلى الله وحده . الذي خلق الناس لأمر يريده . .

\*\*\*

هناجيء الإيقاع الأخير في السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهام والأثقال ، لأداء الوظيفة التي خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

وإن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم لحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والرامي ، تدرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والانس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المينة التي تربط الجن والانس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي المبودية لله . . أن يكون هناك عبد ورب . عبد يعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

## سورة الذاريات

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألوانا أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » . . . فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألوانا من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكوناتها ، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أوالتي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعا . وأن حقيقة العبادة تمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى المبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبدا وربما . عبدا يعبد ، وربما يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلرب واحد والكل له عيد . والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التبعده .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله . . . كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعرا أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لأرب له هو فيها ، ولا غاية له من ورأها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذي يجده في نفسه من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده في الآخرة تكريما ونعما وفضلا عظيما .

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقا . يكون قد فر من أوهاق هذه الأرض وجواذيبها المعوقة ومغرياتها الملقنة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأوهاق والأثقال . وخلص لله ، واستقر في الوضع الكوني الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فمن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذيبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها .

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها . فلتكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها . .

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلية في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشيبته . وهو وجهه ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشيبته .

ومتى نفى الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكاليف والحصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفذ يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته

والقرآن يغذي هذا الإحساس ، ويقويه ، بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهم الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه - سبحانه - أو يرزقوه . حين يكلفهم إتفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه :

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . .

## سورة الذاريات

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقاً بتحقيق معنى العبادة في الجهد ، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد . . . وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تذوقها ، فذلك لأنها لم تعش - كما عاش جيل المسلمين الأول - في ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق العبودية . ويستقر عليه ، فإن نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسية لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هي نصر

دعوة الله وجعل كلمته هي العليا . فالوسيلة الخسية من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعنى نفسه ببلوغ الغايات ، إنما يعنى نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقاً

لمعنى العبادة في الأداء . أما الغايات فهو كولة لله ، يأتي بها وفق قدره الذي يريد . ولا داعي

لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلة في سبب المؤمن العابد لله . ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، في جميع الأحوال .

سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله ،

وضمن جزاءه ، عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته . . .

وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم

يعد يتفحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضى الله عنه ،

ورضى هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التي تقررها آية واحدة قصيرة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . . وهي حقيقة كفيلة بأن تغير وجه الحياة كلها عند

ما استقر حقا في الضمير . . .

\*\*\*

وفي ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الدين ظلموا فلم يؤمنوا ؛ واستمجلوا وعد الله ،

وكذبوا . وتغتم السورة بهذا الإنذار الأخير :

« فإن للذين ظلموا ذنوباً (١) مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستمجلون . فويل للذين كفروا

من يومهم الذي يوعدون » . . .

(١) الذنوب : الدلو . وهو كناية عن أن لهم مثل ما أصاب من قبلهم من الظالمين . . .

## سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٤٩

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالطُّورِ \* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٥﴾ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ \* وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ \* وَالسَّفْرِ  
الْمَرْفُوعِ \* وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ \* إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ \* مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ \* يَوْمَ  
تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا \* وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا \* فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ  
يَلْعَبُونَ \* يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً \* هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ \*  
أَفَسِحْرٌ هَذَا؟ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ؟ \* أَضَلُّوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ  
إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ \* فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ  
الْجَحِيمِ \* كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْنُوفَةٍ  
وَزَوْجَانَهُمْ يُحُورِينَ \* وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ  
وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ \* وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِمَا كِهَيَّة  
وَلَعْنَمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ \* يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأَمَّا لَالُفُوفٍ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ \* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ  
غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤُ مَاكُونٌ \* وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ \* قَالُوا : إِنَّا  
كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ \* فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ \* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ  
نَدْعُوهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .

« فَذَكَرْنَاكَ يَا نَذِيرٌ \* قُلْ إِنِّي لَمِنَ الْمُذْمُومِينَ \* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ؟ \* قُلْ: تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ \* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا؟ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ؟ \* أَمْ يَقُولُونَ: تَقْوَاهُ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* فليأتوا بحديثٍ مثله إن كانوا صادقين \* أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟ \* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ \* أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسِيرُونَ؟ \* أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ \* أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ؟ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ؟ \* أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ؟ \* أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ \* أَمْ لَهُمْ إِلَهٌُ غَيْرُ اللَّهِ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ! \* وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا: سَحَابٌ مَرْكُومٌ \* فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ \* يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ \* وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ \* وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ \* وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ » (١٩)

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتدس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذة للحنيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان . . حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهي تلاحقه حتى تلجته إلى الإذعان والاستسلام !  
وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، وللمنى والمدلول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كالو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كالو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كالو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

## الجزء السابع والعشرون

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم .  
وبعضها مغيب مجهول : « والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور .  
والسقف المرفوع » ..

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج قلب رجا ، ويرعب الحس رعبا . في تعبير يناسب  
لفظه مدلوله الرهيب ؛ وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب : « إن عذاب ربك لواقع ، ماله  
من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..  
وفي وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب ، من ويل وهول ، وتقريع وتفزع :  
« فويل يومئذ للكافرين ، الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار  
التي كنتم بها تكذبون . أفسح هذا ؟ أم أتم لاتبصرون ؟ اصلوها فاصبروا اولاتصبروا ،  
سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطماع القلوب التي  
رأت ذلك الهول المرعب - إطماعها في الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من  
تكريم . وما هي لهم من نعيم رخي رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتعدد ألوانه .  
فما يستجيش الحس إلى روح النعيم ويرده ؛ بعد كرب العذاب وهوله : « إن المتقين في جنات  
ونعيم فاكين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون .  
متكئين على سرر مصفوفة وزوجانهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم  
ذريتهم ، وما آلتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم  
ما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغوف فيها ولا ثائم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون .  
وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا  
عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » ..

والآن وقد أحس القلب البشري سياط العذاب في الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعيم في  
الشوط الثاني . . الآن يجي الشوط الثالث ، يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات  
والأضاليل ؛ ويدحض الحجج والماذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث  
بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل ، مستقيم لا يحتمل اللبس والدوران . يلوئ الأعناق ليا ويلجئها إلى  
الإذعان والتسليم . . ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -



## سورة الطور

لنمضي في تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أدبهم معه ؛ وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوي المستقيم : « فذكر فمأنت بنعمة ربك بكاهن ولاجنون . أم يقولون : شاعر تربص به رب المنون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم نسأهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون » ..

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نفاً ، وتخرج المكابر والمعاند ، وتخرس كل لسان يزيع عن الحق أو يجادل فيه . . عقب هذا تصور تعنتهم وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مراكوم » . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليمدوا عن الحق الواضح .

هنا يليق عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعب ، بملاقة ذلك الشهد المرهوب ، الذي عرض عليهم في مطلع السورة : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » .. كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

ثم تختم السورة بإيقاع رضى رضى .. إنه موجه إلى الرسول الكريم الذي يقولون عنه : « شاعر تربص به رب المنون » .. ويقولون : كاهن أوجنون . موجه إليه من ربه يسليه وبمزبه في إعزاز وتكريم . في تعبير لانظير له في القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبي أو رسول : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ، وصبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » ..

إنه الإيقاع الذي يسمع على المنت والمثقة اللذين يلقاهما الرسول الكريم ، من أولئك المتعنتين المعاندين ، الذين اقتضت مواجهتهم تلك الحملة العنيفة من الطاردة والمهجوم . .

\*\*\*

## الجزء السابع والعشرون

١

« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع .  
والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسبر  
الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم  
دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسح هذا ؟ أم أتم لا تبصرون ؟ اصلوها فاصبروا  
أولانصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنعمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها .  
وهي تبدأ كلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئا فشيئا حتى تبلغ في نهاية القطع  
اثنى عشرة كلمة . مع المحافظة الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن ،  
المذكور في قصة موسى - عليه السلام - والذي نزلت فوقه الألواح . فالجو جو مقدسات يقسم  
بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي سيحيى .

والكتاب المسطور في رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له  
في الألواح . للمناسبة بينه وبين الطور . وقيل . هو اللوح المحفوظ . تمشيا مع ما بعده : البيت  
المعمور ، والسقف المرفوع . ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور : قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة  
في السماء لما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو  
يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » .. يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما  
يطوف أهل الأرض بكعبتهم !

والسقف المرفوع : السماء . قاله سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك ابن خالد  
ابن عرعة عن علي - كرم الله وجهه - قال سفيان : ثم تلا : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم  
عن آياتها معرضون » ..

والبحر المسجور : الملوء . وهو أنسب شيء يذكر مع السماء في مشهد . في انفساحه  
وامتلائه وامتداده . وهو آية فيها رهبة ولها روعة . تؤهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها  
على الأمر العظيم . وقد يكون معنى المسجور : المتقد . كما قال في سورة أخرى : « وإذا البحار  
سجرت » أي توقدت نيرانا . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر كالبيت المرفوع يطمه الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الحلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتبأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك الأمر العظيم :

« إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » ..

فهو واقع حتما ، لا يملك دفعه أحد أبدا . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقى في الحس أنه أمر داهم قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلاعائق فإنه يهزه ويضعضه ويفعل به الأفاعيل .. قال الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا : حدثنا أبي . حدثنا موسى ابن داود ، عن صالح المري ، عن جعفر ابن زيد العبدي . قال : خرج عمر يمس بالمدينة ذات ليلة ، فمر بدار رجل من المسلمين ، فواقفه قائما يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرا : « والطور ... حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع » .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فنزل عن حمارة . واستند إلى حائط ، فمكث مليا ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهرا يموده الناس لا يدرون ما مرضه . رضى الله عنه .

وعمر - رضى الله عنه - سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلبا مكشوفنا ، وحسا مفتوحا ، فنذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت . حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتخللها وتمتمتها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلتقي فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر - رضى الله عنه - حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ..

ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

« يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا » ..

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الوجود في البحر من هنا إلى هناك بلاقوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لا يثبت لها ولا استقرار . أمر مذهل مززل . يدل ضمنا على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال . فكيف بالخلق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل الخيف ؟

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء ؛ وفي ظل هذا الرعب المززل لكل شيء ،

## الجزء السابع والعشرون

يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :

« فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم في خوض يلعبون » . .

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لا محالة واقع ، ماله من دافع . وهو كأن حتما ، يوم تمور السماء مورا و تسير الجبال سيرا . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصب كله على المكذبين . . « الذين هم في خوض يلعبون » . .

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك الشركين ومعتقداتهم المتهافة ، وتصوراتهم الملهمة ؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التي وصفها القرآن وحكاها في مواضع كثيرة . وهي لب لا جد فيه . لب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب في الماء ، غير قاصد إلى شاطئ . أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامي . . وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة - سواء في معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم - في ظل التصور الإسلامي للوجود الإنساني ثم للوجود كله . . إن سائر التصورات - حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني - تبدو محاولات أطفال يخطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التي تعرض في التصور الإسلامي - وبخاصة في القرآن - عرضا هادئا ناصعا قويا بسيطا عميقا . يلتقي مع الفطرة التقاء مباشرا دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالعها بالحقيقة الأصلية العميقة فيها . ويفسر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالقه تفسيرا يضيء ما استقر فيها ويواقعه . وطالما عجزت وأنا أطلع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه ، وهم يحاولون تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة . . وأمامي التصور القرآني واضحا ناصعا سهلا هينا ميسرا طبيعيا ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا التواء . وهذا طبيعي ، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته . . أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والمأقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث . وخط . وخوض . . حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة ، بالمطابقة ، التي يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات التخبطية الناقصة . المستحيلة  
الاكتمال والنضوج !

## سورة الطور

وإن الأمور لتظل مضطربة في حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة . . ثم يسمع آيات من القرآن في الموضوع الذي يساوره . فإذا النور الهادي . . والميزان الثابت . وإذا هو يجد كل شيء في موضعه ، وكل أمر في مكانه ، وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن بالله هدأ ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغبش والقلق واستقرت الأمور .

كذلك يبدو أن الناس في خوض يلعبون من ناحية اهتمامهم في الحياة . حين تقاس بالاهتمامات التي يثيرها الإسلام في النفس ، ويلتصق بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها ، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانغماسهم فيها ، وتمظيمهم لها ، وحدثهم عنها كأنها أمور كونية عظمى وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة ، يحسونها شخوصا ؛ ويقضون أوقاتهم في مناغاتها واللعب معها وبها !!!

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر بقدر ما يرفع من تصورهم للوجود الإنساني وللوجود كله ؛ ويقدر ما يكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؛ ويقدر ما يجيب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التي تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟ وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني وللوجود كله . فإن الإنسان ليس بدعا من الخلائق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها . ويذهب إلى حيث تقتضي حكمة خالق الوجود كله أن يذهب . فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيرا كاملا للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية في الحياة ؛ ويرفعها إلى مستواه . ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون ، عن تلك الصغائر والتفاهات التي يخوض فيها اللاعبون .

إن حياة المسلم حياة كبيرة - لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير ، وذات أثر في حياة هذا الوجود الكبير . وهي أعز وأنفس من أن يقضيها في عبث ولهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس في الأرض يبدو عبثا ولهوا وخوضا ولعا حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة من تصورهم لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود (١)

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان ( بحث للدؤف يرجو أن يوفق إلى إخراجه ) .

وويل لأولئك الخائضين اللاعبين : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا » .. وهو مشهد عنيف .  
فالدع : الدفع في الظهور . وهي حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعبين ، الذين لا يجدون ،  
ولا ينتهون إلى ما يجري حولهم من الأمور . فيساقون سوقا ويدفعون في ظهورهم دفعا .  
حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : « هذه النار التي كنتم  
بها تكذبون ! » ..

وبيناهم في هذا الكرب . بين الدع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم . يجيهم  
الترذيل والتأنيب ، والتلويح إلى ماسبق منهم من التكذيب : « أفسح هذا ؟ أم أتم لا تبصرون ؟ » .  
فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟ أم إنه  
الحق الهائل الرعب ؟ أم إنهم لا يبصرون هذه النار كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟ !  
وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس . « اصلوها . فاصبروا  
أولا تبصروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

وليس أفسى على منكوب بهذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب  
واقع ، ماله من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقروء سواء صبر عليه  
أم هلع .. والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغير فيه ولا تبديل !  
وبذلك ينتهي هذا المشهد الرعب ؛ كما ينتهي الشوط الأول بإيقاعه العنيف .

\*\*\*

أما الشوط الثاني فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لا يقاوم ،  
وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

« إن التقين في جنات ونعيم . فاكفين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كانوا  
واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا  
واتبعهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما آتاهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب  
رهين . وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغوف فيها ولا تأثيم . ويطوف  
عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في  
أهلنا مشفقين ؛ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو  
البر الرحيم » ..

## سورة الطور

والشهد أقرب إلى مشاهد النعيم الحسى ، الذى يحاطب الشاعر فى أول العهد ، والذى يجتذب النفوس بلذائذ الحس فى صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ الذى تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك :

« إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » ..  
ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذى عرضت مشاهدته فى هذه السورة فضل ونعمة .  
فكيف ومعه « جنات ونعيم » ؟ وهم يلتذون بما آتاهم ربهم ويتفككون ؟

ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون » ..

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوى ، ويطن استحقاقهم لما هم فيه :

« متكئين على سرر مصفوفة » .. منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم فى هذا النعيم :

« وزوجناهم بحور عين » .. وهذه تمثل أمتع ما يجول فى خواطر البشر من متاع جميل .

ويعضى التكريم خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم فى هذا النعيم ، زيادة فى الرعاية

والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، مادامت هذه الذرية مؤمنة .

وذلك دون أن ينقص شىء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفرديّة التبعة وحساب كل

بعمله الذى كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع :

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما آلتناهم من عملهم من شىء ..

كل امرئ بما كسب رهين » ..

يستطرد الشهيد عرض ألوان الناعم واللذائذ فى ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون .

وإذا هم يتعاطون فيها كأسا ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاء والألسنة ، وتشيع

الإثم والمعصية فى الحس والجوارح . إنما هى مصفاة مبرأة : « لالتوفىها ولاتأثم » .. وهم يتجاذبون

بينهم ويتعاطونها مجتمعين . زيادة فى الإيناس واللذة والنعيم . فى حين يقوم على خدمتهم ويطوف

بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة : « كأنهم لؤلؤ

مكنون » مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف فى الجوارح والقلوب .

واستكمالاً لجو للشهد الأنوس يعرض صبرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم

فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا اللذات ، ويشير

إلى الطريق المؤدى إلى هذا النعيم :

## الجزء السابع والعشرون

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » ..

السر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا في خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حسابهم . عاشوا كذلك وهم في أهلهم ، حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا . وحيث المشغلة اللبية . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ من الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذي يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلا ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله .

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : « إنا كنا من قبل ندعوه » .. وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبده : « إنه هو البر الرحيم » .. وكذلك ينكشف سر الوصول في تاجي هؤلاء الناجين المكرومين في دار النعيم .

\*\*\*

والآن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف في الشوط الأول ؛ وتلقى هتاف النعيم الرغيد في الشوط الثاني ؛ وتوفرت بهذا وذلك حساسيته لتلقى الحقائق . . فإن السياق يعاجله بحملة سرية الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصاعدة ، ويتعقب وساوسه في مسارب نفسه في صورة استفهامات استنكارية، وتحديات قوية ، لا يثبت لها الكيان البشري حين تصل إليه من أي طريق :

« فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر تربص به رب للنون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من التربين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ ابل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم للسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيدا ؟ فاتقوا كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا : ضباب مزكوم » ..



## سورة الطور

« فذكر » . . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليظل في تذكيره لا يثنيه سوء أدبهم معه ، وسوء انهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعا بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف أوداك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مبهمين أمام القرآن الكريم المعجز الذي بيدهم يعلم يمهّدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون - لعله في نفوسهم - أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالوا : إنه من إحاء الجن أو بمساعدتهم . فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رؤى من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فظيعة شذيفة . فآله - سبحانه - يسلي رسوله عنها ، ويصفر من شأنها في نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التي لا تكون معها كهانة ولا جنون : « فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » . . ثم يستكر قولهم : إنه شاعر : « أم يقولون شاعر تربص به ريب النون ؟ » . . وقد قالوها . وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت الريح . ومن ثم يلتن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم في تهديد ملفوف : « قل : تربصوا . إني معكم من التربصين » . . وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قريش يلقبون بنذوى الحلوم . أو ذوى الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصريف الأمور . فهو يتهمهم وبأحلامهم تجاه الإسلام ، وموقفهم منه ينافي الحكمة والعقل ، فيسأل في تهمة : أهذه الأوصاف التي يصفون بها محمدا - صلى الله عليه وسلم - وتلك المواقف التي يقفونها من رسالته كانت من وحي أحلامهم ؟ أم إنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما عليه الأحلام والعقول :

« أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون » !

وفي السؤال الأول تهكم لاذع . وفي السؤال الثاني اتهام مزرر . وواحد منهما لا بد لاحق  
بهم في موقفهم المريب ا

ولقد تطاولت ألسنتهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاتهموه باقتراء ما يقول . فهو  
هنا يسأل في استنكار : إن كانوا يقولون : تقوله : كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو  
يسأل عنها في استنكار : «أم يقولون تقوله ؟» .. ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : « بل  
لا يؤمنون » . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذي ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن  
يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا  
يحملة إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتجدهم إذن يرهان الواقع الذي  
لا يقبل المراء : « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .  
وقد تكرر هذا التحدى في القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه  
صائرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

إن في هذا القرآن سرا خاصا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث  
عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك  
شيئا ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصرا ما ينسكب في الحس  
بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحا ويدركه بعض الناس غامضا ، ولكنه  
على كل حال موجود . هذا العنصر الذى ينسكب في الحس ، يصب تحديد مصدره : أهو العبارة  
ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التى تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص  
التميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هى  
وشىء آخر وراءها غير محدود ؟

ذلك سر مودع في كل نص قرآنى ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء..  
ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

في التصور الكامل الصحيح الذى ينشئ في الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود  
الإنسانى ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التى تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه .  
وفي الطريقة التى يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشرى .

## سورة الطور

وهو يخاطب الفطرة ، خطابا خاصا ، غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقرب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الحبير بكل زاوية وكل سر فيه .  
وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها .  
نما لا يعهد إطلاقا في أعمال البشر ، التي لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذي لا تعارض فيه ولا تصادم سواء في ذلك الأصول والفروع .

فهذه الظواهر المدركة . . . وأمثالها . . . مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره . . .  
نما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور . وهي مسألة لا يمارى فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ، ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة وعمق ووضوح ، حينما واجه هذا القرآن بقلب سليم . . . « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » . . .  
والاستفهام التالي عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لامفر لهم من مواجهتها ، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقا أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

« أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ » . . .

ووجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن . وهي أنهم جميعا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء ؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة . . . وهو منطق واضح بسيط .

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

« أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون » . . .

وهم . . . ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة . لا يقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها ، أو خلقت من غير خالق . وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها . . . وهي قائمة حيالهم سؤالها يتطلب جوابا على وجوده ، وقد كانوا إذا سألوا عن خلق السماوات والأرض قالوا الله . . . ولكن

## الجزء السابع والعشرون

هذه الحقيقة لم تكن تضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي ينشئ آثاره في القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق .. « بل لا يوقنون » ..

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أولسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

« أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟ » ..

وإذا لم يكونوا كذلك، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور ؟ القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدبر المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدير . بعد انتهاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المصيطرين على تصريف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التزليل :

« أم لهم سلم يسمعون فيه ؟ فليات مستمعهم بسلطان مبین » .

إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن ينزل عليه من الملائكة الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يسمعون فيه ، فيعلموا أن محمدا لا يوحى إليه ، وأن الحق غير ما يقول ؟ : « فليات مستمعهم بسلطان مبین » . أى يرهان قوى محمل في ذاته سلطانا على النفوس يلجأها إلى التصديق . وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون !

ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافة عن الله سبحانه . تلك التي ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم إناثا ؛ موجها الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة في التخجيل والترذيل :

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهم كانوا يعتبرون البنات في درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين يبشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ، ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو في ذاته متهافت لا يستقيم !

وهم كانوا يستقلون دعوة النبي لم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالصا بريئا ، لا يطلب عليه أجرا ، ولا يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البريء أن يستقبل صاحبه

## سورة الطور

بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويمرضه عليهم . وهو هنا يستنكر مسلكهم الذى لا داعى له يقول :

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ » . .

أى مثقلون من الغرم الذى تكلفهم إياه فى صورة الأجر على ما تقول ! فإذا كان الواقع أن لا أجر ولا غرامة . فكم يبدو عملهم مستردلا قبيحا ، ينجلون منه حين يواجهون به ؟ ويمود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم فى هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود . مكشوف لهم من هذا الوجود بقدر . محجوب عنهم ما وراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود . فهناك غيب من اختصاص الله يقف دونه العبيد ، لا علم لهم به ، لأنهم عبيد :

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » . .

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم لا يكتبون فى سجل الغيب شيئا ، إنما يكتب الله فيه ما يريد ، مما يقدره للعبيد . والذى يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذى يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فما لهم وهم عن الغيب محجوبون ، وفى سجله لا يكتبون يكيدون لك ويدبرون ، ومحسوبون أنهم قادرون على شيء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر ترهبس به ريب المنون ؟ !

« أم يريدون كيدا ؟ فالذين كفروا هم المكيدون » !

وهم الذين يحيق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيد ومكره . والله خير الماكرين .

« أم لهم إله غير الله ؟ » . . يقيم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله . . « سبحان الله عما

يشركون » وتنزه - سبحانه - عن تصورهم الباطل السقيم !

وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة للتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون فى الحق الواضح ، متمسكين بأذى شبهة من بعيد :

« وإن يروا كفا من السماء ساقطا يقولوا : سحب مركوم » . .

أى إنه إذا أرسل عليهم العذاب فى صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا

## الجزء السابع والعشرون

وهم يرونها تسقط : « سحب مركوم » . . فيه الماء والحياة ! عنادا منهم أن يسلموا بالحق ، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة للموت والدمار : « عارض مطرنا » . . حيث كان الرد : « بل هو ما استعجلتم به : ریح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » . .

\* \* \*

وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم في الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذي ورد ذكره ووصفه في أول السورة . وللعذاب الذي ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذي يعزه ويرعاه ويكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه في الصباح حين يقوم ، ومن الليل ، وعند إدبار النجوم .

« قدرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » . .

وهو شوط جديد في الحملة يبدأ بالتهديد ، بذلك اليوم الرعب ، يوم ينفخ في الصور فيصعقون . - قيل البعث والنشور - يوم لا ينفعهم تدير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم في ذلك اليوم لا يغني عنهم كيد ولا تدير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذابا - يتركه مجهولا ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردتهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة ، لينتهي بهم إلى موقف المهديد الذي ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب . . يفرغ منه يلتفت إلى النبي الكريم الذي تطاول عليه المتطاولون ، وتقول عليه المتقولون ، يلتفت إليه - صلى الله عليه وسلم - يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب ، وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركا الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء : « واصبر لحكم ربك » . .

ومع التوجيه إلى الصبر إيدان بالإعزاز الرباني ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذي يمسح على مشقات الطريق مسحا ، ويجعل الصبر عليها أمرا عيبا ، وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم :

## سورة الطور

« واصر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ..

وياله من تعبير ! وياله من تصوير ! وياله من تقدير !  
إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله .  
حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .. وقيل له : « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني » .. وقيل له : « واصطنعتك لنفسى » ..  
وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : « فإنك بأعيننا » وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقي ظلا فريدا أرق وأشف من كل ظل .. ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به : « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .. فعلى مدار اليوم . عند اليقظة من النوم . وفي ثنايا الليل . وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟؟

## سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ وآياتها ٦٢

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ \* مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ \* وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ \* عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ \* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ \* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ \* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ \* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ \* فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ \* مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ \* أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ \* وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ \* عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ \* عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ \* إِذْ يَبْعَثُ السِّدْرَةَ مَا يَفْثَىٰ \* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ \* لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .

« أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ \* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ \* أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِنْسَانُ؟ \* تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ \* إِنْ هِيَ إِلَّا أُنْمَالٌ سَمِيَتْهُمُهَا أَنْتُمْ \* وَأَبَاؤُكُمْ \* مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ \* أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ؟ \* فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ \* وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ \* إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنْسِي \* وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ اتِّخَافِ شَيْئًا .



« فَأَعْرِضْ عَنْ تَوَلَّيَ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا \* ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِعَنِ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى \* وَنَحْنُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، لَيَجْزِي الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى \* الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ - إِلَّا اللَّعْمَ - إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى \* وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ؟ \* أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ؟ \* أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى \* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى \* أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزِرًا أُخْرَى \* وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى \* وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى \* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ؟ \* وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ؟ \* وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ؟ \* وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ؟ \* وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى \* مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ؟ \* وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ؟ \* وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ؟ \* وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشَّرَى ؟ \* وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى \* وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى \* وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى \* وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى \* فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ؟ \* فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَارَى ؟ \* هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَى \* أَرِيفَتِ الْأَرْفَةَ \* لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ \* أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ؟ \* وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَتْبَكُونَ \* وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ؟ \* فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا . » (١٥)

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منغمة ، يسرى التنعيم في بنائها اللفظي كما يسرى في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنعيم في السورة بصفة عامة ؛

ويبدو القصد فيه واضحاً في بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لنضمن سلامة التنعيم ودقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني - مثل ذلك قوله : « أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال : ومناة الثالثة فقط يعطل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها في معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة « إذن » في وزن الآيتين بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! » فكلمة « إذن » ضرورية للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدي غرضاً فنياً في العبارة .. وهكذا .

ذلك الإيقاع ذولون موسيقى خاص . لون يلحظ فيه التمجج والانسياب . وبخاصة في المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفقة في المقطع الأول . ومع المعاني واللمسات العلوية في المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منها في الجو والموضوع .

والصور والظلال في المقطع الأول، تشع من المجال العلوى الذى تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التى يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم . . . والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحى المصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيرى وتمتجج به ، وتتناسق معه ، وتترادى فيه ، فى توافق منغم عجيب . ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله ، ويترك آثاره فى مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موج شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة فى الكيان البشرى وترف معه وتستجيب .

\*\*\*

وموضوع السورة الذى تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق : العقيدة ، موضوعاتها الرئيسية : الوحى والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة توجه إلى بيان صدق الوحى بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك ونهافت أساسها الوهمى الموهون ، والمقطع الأول فى السورة يستهدف بيان حقيقة الوحى وطبيعته ، ويصف مشهدين من مشاهد ، وبثبت صحته وواقعيته فى ظل هذين المشهدين ؛ ويؤكد تلقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - تلقى رؤية وتمكن ودقة ، وإطلاعه على آيات ربه الكبرى .

## سورة النجمه

ويتحدث المقطع الثاني عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة .  
 وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يفنى من الحق شيئاً . بينا  
 الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى مادعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .  
 والمقطع الثالث يلقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل  
 نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئاً . ويشير إلى الآخرة وما فيها من  
 جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة  
 في بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم المستيقن - لا الظن والوهم -  
 يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم في نهاية المطاف  
 والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة - كما هي منذ أقدم الرسالات - من فردية  
 التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف في أمرهم كله  
 تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير :  
 « هذا نذير من النذر الأول . أذقت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث  
 تعجبون وتضحكون ، ولا تبكون ، وأتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » . . . حيث يلتقي  
 المطلع والختام في الإيماء والصور والظلال والإيقاع العام .

\*\*\*

« والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي  
 يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب  
 قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفترارونه على ما يرى ؟  
 ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ ينشى السدرة ما ينشى .  
 مازاع البصر وماطفي . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . . .  
 في هذا المطلع نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضئ الطليق المرفرف الذي عاش فيه قلب محمد  
 - صلوات الله وسلامه عليه - ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملا الأعلى ؛ ونستمع إلى  
 الإيقاع الرخى المنساب ، في جرس العبارة وفي ظلالها وإيحائها على السواء . .  
 نعيش لحظات مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه  
 الأستار : يتلقى من الملا الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ما وصى . وهي لحظات خص بها ذلك  
 القلب المصنئ ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفا موجيا مؤثرا ، ينقل

## الجزء السابع والعشرون

أصداءها وظلالها وإيحائها إلى قلوبهم . يسميهم رحمة هذا القلب المصق ، في رحاب الملا الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهدا مشهدا ، وحالة حالة ، حتى لكانهم كانوا شاهديها . ويبدأ الوصف الموحى بقسم من الله سبحانه : « والنجم إذا هوى » . وحركة تلاقح النجم ثم هويته وذنوبه . أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه : « وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » . وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

« والنجم إذا هوى » . وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود في هذا القسم . وأقرب ما يرد على الذهن أنها إشارة إلى الشعرى ، التي كان بعضهم يعبدها . والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله : « وأنه هو رب الشعرى » . وقد كان للشعرى من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ونما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعرى بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوى النجم مقصودا للتناسق الذي أشرنا إليه . ولعنى آخر هو الإيحاء بأن الحزم منها يكن عظيما هائلًا فإنه يهوى ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون معبودا . فالمعبود الثبات والارتفاع والدوام . ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الوحي الذي يحدثهم عنه :

« ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى »

فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو : مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحي يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقًا أمينًا .

هذا الوحي معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى العين والقلب ، فلم يكن واهما ولا مخدوعا :

« علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب

قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفبارونه على ما يرى ؟ » .

والشديد القوى ذو المرة « أي القوة » ، هو جبريل - عليه السلام - وهو الذي علم صاحبكم ما بلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هي الرحلة ، مشهودة بدقائقها : استوى وهو

## سورة النجمه

فالأفق الأعلى . حيث رآه محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان ذلك في مبدأ الوحي . حين رآه  
إلى سوره التي خلقه الله عليها ، بعد الأفق بخلقه الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلا مقربا إليه .  
وكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى - وهو تعبير عن منتهى القرب -  
فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والنفخيم والتهويل .

وهي رؤية عن قرب بعد التراءى عن بعد . وهو وحى وتعليم ومشاهدة وتيقن .  
وهي حال لا يتأتى معها كذب في الرؤية ، ولا تحمل مخرابة أو مجادلة : « ما كذب الفؤاد  
بشيء . أظنارونه على ما يرى ؟ » . . . ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفي خداع النظر .  
فبعد رأى مثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحي ، رسول ربه إليه ، أعلمه ويكافئه  
بما يعلم . وانتهى المرء والجدال ، فما عاد لها مكان بعد تثبيت القلب ويقين الفؤاد .  
وايست هذه هي المرة الوحيدة التي رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى :  
« ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عنده جنة المأوى . إذ يفتشى السدرة ما  
يعنى . مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج - على الراجح من الروايات - فقد دنا منه - وهو على  
هيئة التي خلقه الله بها مرة أخرى « عند سدرة المنتهى » . . . والسدرة كما رف من اللفظ  
شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد يعني هذا أنها التي ينتهى إليها المطاف . حنة المأوى عندها .  
أو التي انتهت إليها رحلة المعراج . أو التي انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
حيث وقف هو وصعد محمد - صلى الله عليه وسلم - درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى . .  
وكاه عيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد إلينا عنه إلا هذا . وكاه أمر فوق  
طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق الملائكة ، العليم  
بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة . . .

ويذكر ما لا يس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى زيادة في التوكيد واليقين : « إذ  
يفتشى السدرة ما يفتشى » . . . مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد .  
وكان ذلك كاه حقا يقينا : « مازاغ البصر وما طغى » . . . فلم يكن زغلة عين ، ولا تجاوز  
رؤية . إنما هي المشاهدة الواضحة المحققة ، التي لا تحمل شكاً ولا ظناً . وقد عاين فيها من آيات  
ربه الكبرى ، واتصل قلبه بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن - أمر الوحي - أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . ويقين جازم . واتصال

## الجزء السابع والعشرون

مباشر . ومعرفة مؤكدة . وصحبة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعتها . . . وعلى هذا اليقين تقوم دعوة «صاحبكم» الذي تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه . وهو صاحبكم الذي عرفتموه وخرعتموه . وما هو بغريب عنكم فتجهلوه . وربنا يمدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفي أي الظروف . وعلى يد من وكيف لاقاه . وأين رآه !

\*\*\*

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذي يدعوهم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأما هم فعلام يستندون في عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون في عبادتهم لللات والعزى ومساء؟ وفي ادعائهم الغامض أنهم ملائكة ، وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن لهم شفاعاة تترجى عند الله ؟ إلى أي بيعة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أي سلطان يرتكبون في هذه الأوهام ؟ هذا ما يماجله المنقطع الثاني في السورة :

« أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان مأمى ؟ فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ..

وكانت « اللات » صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم تقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عدهم الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها « اللات » مؤنث لفظ الجلالة « الله » . سبحانه وتعالى .

وكانت « العزى » شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - وهي بين مكة والطائف - وكانت قريش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولاعزى لكم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : الله مولانا ولأمولى لكم » . ويظن أن اسمها « العزى » مؤنث « العزى » ..

## سورة النجمه

وكانت « مناة » بالمثل عند قديد بين مكة والمدينة. وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها .

والمضون أن هذه المعبودات كانت رموزا للملائكة يعتبرهن العرب إناثا ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذي يقع غالبا أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولا تبقى إلا قلة متنورة هي التي تذكر أصل الأسطورة ! فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجبا منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه :

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ..

والتعجب والتشهير واضح في افتتاح السؤال : « أفرأيتم ؟ » وفي الحديث عن مناة . . .

الثالثة الأخرى . . .

لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن الله الإناث وأن لهم الذكور :

« ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قصة ضيزى » ..

كما يوحى بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ما ذكرناه عنها . وقد كانوا يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثا - وهم لا يعلمون عنهم شيئا يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله - سبحانه - يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » .. إنها إذن قصة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! « تلك إذن قصة ضيزى ! » ..

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل :

« إن هي إلا أسماء سميتموها أتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا

الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى » ا

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة .. وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية

الملائكة إناثا . وتسمية الإناث بنات الله . . . كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها .

## الجزء السابع والعشرون

ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لا حقيقة له . وللحقيقة نقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهي خفيفة لا وزن لها . ضئيلة لا قوة لها . مهينة لا سلطان فيها .

وفي منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » . فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض . وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . فانقطع العذر وبطل التعلل !

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يجدى هدى ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هي الهوى الجامع الذي يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ، وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل ! ومن ثم يسأل في استنكار :

« أم للإنسان ما تمنى ؟ » ..

فكل ما يتمنى يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى ينقلب إلى واقع ، والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان في الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بئناه . وهو أضعف من أن يغير أو يبدل في طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء :

« فله الآخرة والأولى » ..

ولاننسى أن نلاحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكته المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هي طبيعة الأسلوب القرآني في الجمع بين أداء المعنى وتنظيم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذلك ، شأنه شأن كل ما هو من صنع الله . فالجمال في الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخذها !

وإذا خلس الأمر كله لله في الآخرة والأولى . فإن أوهام الشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة - من الملائكة - لم عند الله . كما قالوا : « ما نبدم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .. إن هذه



## سورة النجم

الأوهام لأصل لها . فالملائكة الحقة في السماء لا تملك الشفاعة إلا حين يأذن الله في شيء منها :  
« وكم من ملك في السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء

ويرضى » . . .

ومن ثم تسقط دعواهم من أساسها . فوق ما فيها من بطلان تولى تفيده في الآيات السابقة .  
وتتجرد العقيدة من كل غبش أو شبهة . فالأمر لله في الآخرة والأولى . ومنى الإنسان لا تغير من  
الحق الواقع شيئا . والشفاعة لا تنقل إلا بأذن من الله ورضى . فالأمر إليه في النهاية . والإنجاء  
إليه وحده في الآخرة والأولى .

وفي نهاية المقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين - الذين لا يؤمنون بالآخرة - عن  
الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهى ، الذى لا ينبغي أن تقوم عليه عقيدة أصلا :

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . إن

يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى عن الحق شيئا » . . .

وهذا التعقيب الأخير يوحى بملاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم  
إلى الله سبحانه ، وهى أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن . فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا  
شيئا مستيقنا عن طبيعة الملائكة . فأما نسبتهم إلى الله . فهى الباطل الذى لا دليل عليه إلا الوهم  
الباطل ! وكل هذا لا يغنى عن الحق ، ولا يقوم مقامه في شيء . الحق الذى يتركونه ويستغنون  
عه بالأوهام والظنون !

\*\*\*

وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهاونها عند الذين لا يؤمنون  
بالآخرة ، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب  
إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إيهام شأنهم ويمرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذى يعلم المسئىء  
والمحسن ، ويجزى المهدي والضال ، ويمالك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ،  
ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التى لا يصر عليها فاعلوها . وهو الخبير  
بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم في أطوار حياتهم جميعا :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن  
ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . والله مافى السماوات وما فى الأرض

ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يحتنبون كبائر الإثم والفواحش - إلا اللوم - إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإد أتم أجنة في بطون أمهاتكم . فلا تزكوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » . . .

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ ويقم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدير أمره ، ومحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة . وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله - فضلا على أن يعامل أو يعايش - من يعرض عن ذكر الله ، وينفى الآخرة من حسابه . لأن لكل منها منهجا في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف في تصور كل منها . فلا يمكن إذن أن يتعاونوا في الحياة أى تعاون ، ولا أن يشتركا في أى نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . ومادام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعى الاهتمام والاحتفال ؟ إن المؤمن يبحث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا وينفق طاقته التي وهب الله إياها في غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاهها آخر ، هو الترويض من شأن هذه الفئة . فئة الذين لا يؤمنون بالله ؛ ولا يبتغون شيئا وراء الحياة الدنيا . فمهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا . « ذلك مبلغهم من العلم » . وهو مبلغ تافه منها بدا عظيما . قاصر منها بدا شاملا . مضلل منها بدا هاديا . وما يمكن أن يعلم شيئا ذا الحكمة من يقف بقلبه وحده وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها - حتى في رأى العين -

## سورة النجمه

علم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البداهة . ولم يوجد عبثا متى كان له خالق .  
 وإنه امث أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية هذا الخلق الهائل وغايته . فإدراك حقيقة هذا  
 الكون من أى طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق . وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة .  
 نفيًا للبعث عن هذا الخالق العظيم الذى يبدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عن يتولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على  
 سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل فى غير موضعه . والإعراض على سبيل التهور والاحتقار لمن هذا  
 مبلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتلقى أمر الله لنطيعه . لالقول كما قالت يهود :  
 سمما وعصينا .. والعباذ بالله من هذا !

« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » ..

وقد علم أن هؤلاء ضالون : فلم يرد لنبيه ولاللهمتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن  
 الضالين . ولأن يصاحبهم ولا أن يحفلهم . ولأن يندعوا فى ظاهر علمهم المضلل القاصر ،  
 الذى يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشرى والحقيقة الخالصة ، التى تقود  
 من يدركها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتتخطى به حدود هذه الأرض القريبة ،  
 وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذى يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ليدو فى أعين العوام وأشباههم . عوام  
 القلب والإدراك والحس . شيئا عظيما ذا فاعلية وأثر فى واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لاينفى  
 صفة الضلال عنهم فى النهاية ، ولاصفة الجهل والقصور : حقيقة الارتباط بين هذا الوجود  
 وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هانان الحقيقتان ضروريتان لكل علم  
 حق . وبدونها يبقى العلم قشورا لا تؤثر فى حياة الإنسان ولازقيها ولاترفمها . وقيمة كل علم  
 مرهونة بأثره فى النفس وفى ارتباطات البشر الأديية . وإلافهو تقدم فى الآلات وانكاس فى  
 الآدميين . وماأبأسه من علم هذا الذى ترتقى فيه الآلات على حساب الآدميين !!

وشعور الإنسان بأن له خالقا خلقه وخلق هذا الكون كله ، وفق ناموس واحد  
 متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفا  
 وغاية أكبر وأتمم وأرفع ، لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته  
 المعدودة الأيام . وأ أكبر من أسرته المعدودة الأفراد . وأ أكبر من قومه ، وأ أكبر من وطنه ،

## الجزء السابع والعشرون

وأكبر من طبقته التي يطنن بها أصحاب المذاهب المادية الحديثة . وأرفع من اهتمامات هذه التشكيلات جميعا !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه . يغير من تصوراته ومن مواربه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن ثم يقوى « الإنسان » ويسيطر على تصرفات هذا الكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن إلى الخير واثق من انتصاره في الحساب الختامي . حتى لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات ! وهو مكاف دائما أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أو انتصر لأن الجزاء النهائي هناك ! إنها مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنها إما أن تكون فيكون « الإنسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك الحيوان !

وحين تفرق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صفة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » ..

« وثق مافي السماوات ومافي الأرض . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » ..

وهذا التقرير للملكية الله - وحده - لمافي السماوات ومافي الأرض ، يمنع قضية الآخرة قوة وتأثيرا . فالذي جعل الآخرة وقدرها هو الذي يملك مافي السماوات ومافي الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » ..

ثم يحدد الدين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى . . فهم :

## سورة النجمه

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا اللثم » .

وكبائر الإثم هي كبار المعاصي . والفواحش كل ما عظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهذا استثناء منقطع لأن اللثم من صفار الذنوب ومحتمرات الأعمال . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وأتتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين الثقيل ، وزنا اليدين الطش ، وزنا الرجلين المثى . ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو اللثم . وكذا قال مسروق والشعبي .

وقال عبد الرحمان ابن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي ، قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : « إلا اللثم » قال : القبلة والنظرة والعمزة والمباشرة . فإذا مس الحتان الحتان فقد وجب الغسل . وهو الزنا .

فهذه أقوال متقاربة في تعريف اللثم .

وهناك أقوال أخرى :

قال علي ابن طلحة عن ابن عباس : « إلا اللثم » إلا ما سلف . وكذا قال زيد ابن أسلم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثني ، حدثنا محمد ابن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال في هذه الآية : « إلا اللثم » قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه .

وقال ابن جرير : حدثني سليمان ابن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق ، عن عمرو ابن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم » . قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما ؟

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

وهكذا رواه الترمذی عن أحمد ابن عثمان البصری عن أبي عاصم النبیل . ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لانعرفه إلا من حديث زكريا ابن إسحاق . وكذا قال الزائر لانعلمه يروى متصلا إلا من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد ابن عبد الله ابن بزيع . حدثنا يزيد ابن زريع . حدثنا يونس ، عن الحسن ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - (أراه رفعه) في «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللغم» . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . قال : فذلك الإمام . وروى مثل هذا موقوفا على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللغم تحديدا غير الأول .

والذي نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسبا مع قوله تعالى بعد ذلك : «إن ربك واسع المغفرة» . فذكر سعة المغفرة يناسب أن يكون اللغم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يقوموا في شيء منها ثم يعودوا سريعا ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» . . . . . وسمى هؤلاء «المتقين» ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض<sup>(١)</sup> . فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوءى وبالحسنى مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس في أطوارهم كلها .

«هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذا اتم أجنة في بطون أمهاتكم» . . . . . فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم . العلم التعلق بحقيقتهم الثابتة ، التي لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا الذي خلقهم . علم كان وهو ينشأ أصلهم من الأرض وهم بعد في عالم الغيب . وكان وهم أجنة في بطون أمهاتهم لم يروا النور بعد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

(١) سورة آل عمران [ ١٣٣ - ١٣٦ ] .

في ظلال القرآن [ مجلد ٧ ]

## سورة النجم

ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو - بل من سوء الأدب - أن يعرفه إنسان بنفسه،  
وأن يعلمه - سبحانه - بحقيقته ! وأن يثنى على نفسه أمامه يقول له : أنا كذا وأنا كذا :

« فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » ..

فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؛ فعنده العلم الكامل .  
وعنده الميزان الدقيق . وجزاؤه العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

\*\*\*

بعد ذلك يحىء المقطع الأخير في السورة . في إيقاع كامل التنعيم . أشبه بإيقاع المقطع الأول .  
يقرر الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الخيفية الأولى . ويعرف البشر  
بخالقهم ، بتعليمهم بمشيئته الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم ويعرض آثارها واحدا واحدا بصورة  
تلمس الوجدان البشري وتذكره وتهزه هزا عميقا . . حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير  
تلفته الشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة :

« أفرايت الذي تولى ، وأعطى قليلا وأكدى ؟ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم ينأ بما  
في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى . الأزرر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .  
وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى .  
وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة  
الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب السموى . وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما  
أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى .  
فبأى آلاء ربك تتبارى ؟

« هذا نذير من الذر الأولى . أذفت الأزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفن هذا  
الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟

« فاسجدوا لله واعبدوا » ..

وذلك « الذي تولى ، وأعطى قليلا وأكدى » . . الذي يعجب الله من أمره الغريب ،  
تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، أنفق قليلا في سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل  
خوفا من الفقر . ويحدد الزمخشري في تفسيره « الكشاف » شخصه أنه عثمان ابن عفان - رضى  
الله عنه - ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من بعرف عثمان - رضى الله عنه -

وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلانوقف وبلا حساب كذلك ؛ وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته (١) .

وقد يكون المقصود شخصا بذاته . وقد يكون نموذجا من الناس سواء . فالذى يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أو من نفسه لهذه العقيدة ثم يكفى - أى يضعف عن المواصلة ويكف - أمره عجيب ، يستحق التعجب . ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

« أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ » . . .

والغيب لله . لا يراه أحد سواه . فلا يأمن الإنسان ماخبيء فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذرا موفيا طوال حياته؛ وألا يبذل ثم ينقطع ، ولا ضمان له في الغيب المجهول إلا حذرهم وعمله ووقاؤه ، ورجاؤه بهذا كله في مغفرة الله وقبوله .

« أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ... » . . .

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده . يصدق بعضه بعضا على توالى الرسالات والرسول ، وتباعد المكان والزمان . فهو فى صحف موسى . وهو فى ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذى وفى . وفى بسكل شيء . وفى وفاء مطلقا استحق به هذا الوصف المطلق . ويذكر الوفاء هنا فى مقابل الإكداء والانقطاع ، ويذكر بهذه الصيغة ( وفى ) بالتشديد تنبيها للإيقاع المنعم وللحفاية المطردة .

فماذا فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ؟ فيها :

« الأثر وازرة وزر أخرى » . . .

فلا تحمل نفس حمل أخرى ؛ لا تخفيا عن نفس ولا ثقيل على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تطوع فتحمل عن نفس شيئا !

(١) قال : « روى أن عثمان - رضى الله عنه - كان يعطى ماله فى الخير . فقال له عبد الله ابن سعد ابن أبي سرح - وهو أخوه من الرضاعة - يوشك أن لا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لى ذنوبا وخطايا . وإنى أطلب بما أسنم رضى الله تعالى ، وأرجو صفوه . فقال عبد الله : أعطنى نائتك برحلتها وأنا أتحمل منك ذنوبك كلها فأعطاء وأشهد عليه ، وأمسك من العطاء . فنزلت ا . . . . . وهى رواية ظاهرة البطلان . فاهكذا يتصور عثمان !



« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

كذلك . فما يحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لا يزداد عليه شيء من عمل غيره . ولا ينقص منه شيء لئنه غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلامانص عليه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به » (١) .. وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ، ولا حنهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليها (٢) .

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ..

فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وإفيا كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم . وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ؛ كريماً تاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

« وأن إلى ربك المنتهى » ..

فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعيم أو جحيم . . وهذه الحقيقة قيمتها وأثرها في تكيف مشاعر الإنسان وتصوره . فحين يحس أن المنتهى إلى الله . منتهى كل شيء . وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا عييص عنها . وبصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع : ويظل قلبه ونظره مطلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق ا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - بإسناده - عن أبي هريرة .

(٢) ابن كثير في التفسير .

## الجزء السابع والعشرون

وبعد ما يصل السياق بالقلب البشري إلى نهاية المطاف يكر راجعا به إلى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله . في كل مرحلة ، وفي كل حال :

« وأنه هو أضحك وأبكى » ..

وتحت هذا النص تكمن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبث صور وظلال موحية مثيرة ..  
أضحك وأبكى .. فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد ، الذي لا يقل تركيبه وتعقيده النفسى عن تركيبه وتعقيده العضوى . والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء .

وأضحك وأبكى .. فأنشأ للإنسان دواعى الضحك ودواعى البكاء . وجعله - وفق أسرار مقعدة فيه - يضحك لهذا ويبكى لهذا . وقد يضحك غدا مما أبكاه اليوم . ويبكى اليوم مما أضحكه بالأمس . في غير جنون ولا ذهول إغماهى الحالات النفسية المتقلبة . والموازن والدواعى والدوافع ، الاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال !

وأضحك وأبكى .. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكى منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك .. وهو هو في ذاته . ولكنه بملابساته بعيد من بعيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبه غدا أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يكن فعل وأن لم يكن ضحك . وكم من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

هذه الصور والظلال والشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ، وتترامى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصد النفس من التجارب ؛ وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء في النفوس - وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن .

« وأنه هو أمات وأحياء » ..

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لاعداد لها في الحس .

أمات وأحيا.. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذي خلق الموت والحياة » .  
وعما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعها المتكرر . ولكنها حافيان كل الحفا . حين يحاول البشر  
أن يعرفوا طبيعتها وسرها الخافي على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتها حين يتجاوز  
الإسان لفظها وشكلها الذي يراه ؟ كيف دبت الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ ومن أين  
جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا  
الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان .. قبل ديب الحياة . وبعد مفارقتها  
للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل ، يد الله !

أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الأحياء كلها . في اللحظة  
الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت  
رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لاتعلم ومن حيث لايعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات  
وقعت فإذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يتراءى على مدار القرون ، حين  
يستغرق الخيال في استمرار الماضي الطويل ، الذي كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا  
الكوكب . وندع ما يعلمه الله في غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لاخطر على  
بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، فهز القلب البشري من  
أعماقه . فلا يتمالك نفسه ولا يتناسك تحت إيقاعاتها المنوعة الأصداء !  
« وأنه خلق أزواجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » ..

وهي الحقيقة الهائلة الواقعة التكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام  
عينه ، وهي أعجب من كل عجيبة تبدها شطحات الخيال !

نطفة تمنى .. تراق .. إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالمرق والدمع  
والخاط ! فإذا هي بمد فترة مقدورة في تدبير الله .. إذا هي ماذا ؟ إذا هي إنسان ! وإذا هذا  
الإنسان ذكر وأنثى كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن - لولا وقوعها - تخطر على  
الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المقعد الشديد التقيد ؟ أين كان كما  
في النقطة المراقبة من تلك النطفة . بل في واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان  
كما نرى بظلمة ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظفاره . ومماته وشيائه وملاجه . وخلاته وطباعه

## الجزء السابع والعشرون

واستعداداته ؟ ! أين في هذه الخلية اليكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النطفة التي تسمى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكور وخصائص الأنثى في تلك الخلية . تلك التي انبثقت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف ؟ !

وأى قلب بشرى يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة . ثم يتالك أو يتأسك . فضلا على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت في طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ماركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا أودعها القدرة على إعادته وهي ضعيفة ضئيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريق لتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة ؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتعيدتها ؟ وما رغبتها هي وما مصلحتها في إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورأها تريد أمرا ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى . وهي واقعة مكرورة لا ينكرها منكر . يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى .

« وأن عليه النشأة الأخرى » ..

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمني ، قادر - ولا شك - على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفي الذي يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكرا أو أنثى . هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التي لا يتم فيها شيء كامل ؛ ولا يجحد المحسن جزاء إحسانه كاملا ، ولا السوء جزاء إساءته كاملا كذلك . لأن في حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى ..

وفي النشأة الأولى . وفي النشأة الأخرى . يعني الله من يشاء من عباده ويُقنيه :

« وأنه هو أغنى وأقنى » ..

## سورة النجمه

أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع الغنى وهي شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى  
الذرية . وغنى النفس . وغنى الفـكر . وغنى الصلة بالله والزاد الذي ليس مثله زاد .

وأغنى من عباده من شاء في الآخرة من غنى الآخرة !

وأغنى من شاء من عباده من كل ما يقتنى في الدنيا كذلك وفي الآخرة !

والخلق فقراء محلولون . لا يفتنون ولا يفتنون إلا من خزائن الله . فهو الذي أغنى . وهو

الذي أغنى . وهي لمسة من واقع ما يعرفون وما تتعلق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا

إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !

« وأنه هو رب الشعري » .

والشعري نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهي

أبعد من الشمس بليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من بعد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجمة ذى شأن . فتقرير أن الله

هو رب الشعري له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتحدث عن الرحلة إلى

الملا الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفي عقيدة الشرك الواهية المتهافة .

وبهذا تنتهى تلك الجولة المديدة في الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة في مصارع الغابرين ،

بعد ما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهي جولة مع قدرة الله ومشيته

وآثارها في الأمم قبلهم واحدة واحدة .

« وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى .

والمؤتفة أهوى . فنشأها ماغشم . فأى آلاء ربك تتبارى ؟ »

إنها جولة سرية . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تغز

الشعور وخزا .

وعاد وثمود وقوم نوح يعرفهم قارىء القرآن في مواضع شتى ، والمؤتفة هي أمة لوط .

من الإفك والبهتان والضلال .. وقد أهواها في الهاوية وخسف بها « فنشأها ماغشم » .. بهذا

التجهيل والتضخيم والتحويل ، الذي تراءى من خلاله صور الدمار والحسف والتكليل، الذي

يشمل كل شيء وينشأ فلايين !

« فأى آلاء ربك تتبارى ؟ » ..

## الجزء السابع والعشرون

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء لله وأفضالا . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعي ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأن آلاء ربك تتبارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب . ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى في البلوى !

وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر - بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها في الأنفس والآفاق - يلقى بالإيقاع الأخير قويا عميقا عنيقا . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى :

« هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » . . .

هذا الرسول الذي تتأرون في رسالته وفي نذارته هذا نذير من النذر الأولى التي أعقبها مآعقها ! وقد أزفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة التي جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده . ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه : « ليس لها من دون الله كاشفة » . . .

وبيئنا الخطر الدائم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أتم سادرون لاهون لا تقدرن الموقف ولا تفيقون .

« أفمن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأنتم سامدون . . . » . . .

وهذا الحديث جد عظيم يلقى على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى النهج الكامل . فم تعجبون ؟ وم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة . وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم في الأرض . . . كله يجعل البكاء أجدر بالمرقف الجد ، وما وراءه من الهول والكرب . . .

وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ في آذانهم وقلوبهم . ويهتف بهم إلى ما ينبغي أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

« فاسجدوا لله واعبدوا » . . .

وإنها لصيحة مزلزلة منهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبعد هذا التمديد الطويل ، الذي ترتمش له القلوب :

ومن ثم سجدوا . . . سجدوا وهم مشركون . وهم يعارون في الوحي والقرآن . وهم يجادلون في الله والرسول !

## سورة النجمه

سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتناسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون !

بهذا تواترت الروايات . ثم افرقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

\*\*\*

هذا الحادث الذي تواترت به الروايات . سادس سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندي إلى تعليل . قبل أن تقع لي تجربة شعورية خاصة علته في نفسي ، وأوضحت لي سببه الأصيل .

وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمي بحديث الغرائق ، الذي أورده ابن سعد في طبقاته ، وابن جرير الطبري في تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . . . الخ » . . . وهي الروايات التي قال فيها ابن كثير - جزاء الله خيرا - « ولكنها من طرق كلها مرسله . ولم أرها مسنده من وجه صحيح » . وأكثر هذه الروايات تفصيلا وأقلها إغراقا في الخرافة والافتراء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى ابن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن اسحاق الشيباني ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى ابن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه ؛ ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ماناله وأصحابه من أذام وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتعنى هدام . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإني لمن الغرائق العلى ، وإن شفاعتني لمي التي ترتجى . . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . . . فوعدت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة . وذلت بها ألسنتهم . وتباشروا

بها . وقالوا : إن محمدا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا أرفع ملء كفه ترابا فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين . . فاطمأنت أنفسهم - أي المشركون - لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة في الناس وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان ابن مظعون وأصحابه . وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغهم سجود الوليد ابن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد آمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعا ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من القرية . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . الخ » . . فلما بين الله قضاءه وبراه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلاتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم » . . انتهى

وهناك روايات أخرى أجراً على الافتراء تنسب قولة الغرائيق . . تلك . . إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعلل هذا برغبته - حاشاه صلى الله عليه وسلم - في مرضاة قريش ومهادتها ۱۱۱

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعا . . فهي فضلا عن مجافاتها لمصمة النبوة وحفظ الله كرم من العبث والتحريف ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفيًا قاطعا . إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلابجبال لإدخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان أتى بها في أسمع المشركين دون المسلمين . فهؤلاء المشركون كانوا عربا يتذوقون لغتهم وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدها : « ألم الذي ذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . الخ » . . ويسمعون بعد ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون للملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن



## سورة النجمه

وإن الظن لا يغني من الحق شيئا» .. ويسمعون قبله : « وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .. حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الكلام لا يستقيم . والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعاة ترتجى لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات ، التي تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أوجاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين ..

فأما أمر السجود فهو الذي تصدى له في هذه المناسبة ..

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لي احتمال أنه لم يقع ؛ وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل .

وبينا أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشمورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل ..

كنت بين رقعة نسر حينما طرق أسمعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا .

وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - في رحلته إلى الملائكة الأعلى . عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله أو عشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة . عند مدرة المنهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعني خيالي ، وتحلق بي رؤاى ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسى ..

وتابته في الإحساس بتهاقت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوتها ..

إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى ا

ووقفت أمام الكائن البشرى ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات . وعلم

الله يتابعها ويحيط بها .

## الجزء السابع والعشرون

وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة . الغيب المحجوب لا يراه إلا الله . والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء . والمنتهى إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد . والحشود الضاحكة والحشود الباكية . وحشود الموتى . وحشود الأحياء . والنظفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها ، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى . والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى !

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية : « هذا نذير من النذر الأولى . أذفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » ..

ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعب : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ؟ » .

فلما سمعت : « فاسجدوا لله واعبدوا » .. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقا إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته . فظل جسمي كله يختلج ، ولا أعمالك أن أثبتته ، ولأن أ ككف دموعا هاتئة ، لأملك احتباسها مع الجهد والمحاولة ! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح ، وأن تعليله قريب . إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة .

ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمها . ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت منى هذه الاستجابة . . . وذلك سر القرآن . . . فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير . فيكون منها ما يكون !

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعا . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله . ويميش في صورها التي عاشها من قبل بشخصه . وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد - صلى الله عليه وسلم - في أعصاب السامعين . فيرتجفون ويسمعون : « فاسجدوا لله واعبدوا » ويسجد محمد والمسلمون . . . فيسجدون . . .

ولقد يقال: إنك تقيس على لحظة مرت بك ، وتجربة عانيتها أنت . وأنت مسلم . تعتقد بهذا القرآن ، وله في نفسك تأثير خاص . . . وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن !

ولكن هنالك اعتبارين لهما وزنها في مواجهة هذا الذي يقال :

الاعتبار الأول : أن الذي كان يقرأ السورة كان هو محمد - صلى الله عليه وسلم - النبي . الذي تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان يتقل خطاه إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهي ! وفي هذه السورة بالذات كان يعيش لحظات عاشها في الملا الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يراه على صورته الأولى . . فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارىء . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثاني : أن أولئك المشركين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعدة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان العناد المصطنع هو الذي يحول بينهم وبين الإذعان . . والحادثان التاليان شاهد على ما كان يخالج قلوبهم من الارتعاش .

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة ابن أبي لهب ، من طريق محمد ابن اسحاق ، عن عثمان ابن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد ابن الأسود ، قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معها ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأؤذينه في ربه ( سبحانه وتعالى ) . فانطلق حتى أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد . هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى . . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » . ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ، ما قلت له ؟ فدكر له ما قاله . فقال : فما قال لك ؟ قال : قال : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه ! فسرنا حتى نزلنا أبراه - وهي في سدة - ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يا معشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد ؟ فإنها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم ! فقال أبو لهب : إنكم قد عرفتم كبر سني وحقى ؛ وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ، ثم افرشوا حولها . ففعلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فوق المتاع ، فشم وجهه ، ثم هزمه هزيمة ففسخ رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد !

هذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد الخصامين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - المناوئين له ، المؤلفين عليه هو وبيته . المدعو عليه في القرآن هو وبيته : « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سبلى نارا ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها

جل من مسد . . وذلك شعوره الحقيقي تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - على ابنه .

والحادث الثاني: صاحبه عتبة ابن أبي ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - يفاوضه في الكف عن هذا الذي فرق قريشا وعاب آلهتهم ، على أن يكون له منهم ما يريد من مال أورياسة أوزواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمان الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » . . ثم مضى حتى قوله تعالى : « فإن أعرضوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد ونمود » .. عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذعر وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف . . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويعقب عليه يقول : وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ، خشيت أن ينزل بكم العذاب (١)

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر المكبوت أمام العناد والمكابرة ظاهر . .

ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد - صلى الله عليه وسلم - فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين .. بلاغرائيق ولاغيرها من روايات المفتريين

(١) ملخصة من روايات عدة .

## سُورَةُ الْتَمْرِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٥٥

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَقْرَبَتْ السَّاعَةَ وَأُشِقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْرَبٌ \*  
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَعْرَبٌ \* وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ \*  
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ \* فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُوا الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكَرٍ \* خُشَعًا  
أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ \* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ، يَقُولُ  
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ .

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا: مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ \* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي  
مَغْلُوبٌ فَأَنْتَعِرْ \* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ \* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ  
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ \* وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسِرَ \* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ  
كُفِرَ \* وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدَّ كِرٍ ؟ \* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ؟ \* وَلَقَدْ  
بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَّ كِرٍ ؟

« كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ ؟ \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي  
يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَعْرَبٍ \* تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ \* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي  
وَنُذُرٍ ؟ \* وَلَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدَّ كِرٍ ؟  
وَكَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ \* قَالُوا: أَبَشْرًا مِثْلًا وَاحِدًا تَبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا ضَلَالٍ وَسُعْرٍ \*

أَلَيْسَ الَّذِي كَرِهْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا؟ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ \* سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ \*  
 إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ \* وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ  
 شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ \* فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ \* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي؟ \* إِنَّا  
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ \* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ،  
 فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟

« كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطٍ بالنذر \* إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ \*  
 نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا ، كَذَلِكَ تَجْزِي مَنْ شَكَرَ \* وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَارُوا بالنذر \*  
 وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي \* وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً  
 عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ \* فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي \* وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟  
 « وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ \* كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ

مُقْتَدِرٍ

« أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ؟ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ؟ \* أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ  
 مُنْتَصِرُونَ؟ \* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ \* بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ \*  
 إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ \* يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ  
 سَقَرَ \* إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ \* وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ \* وَلَقَدْ  
 أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ \* وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ \* وَكُلُّ صَغِيرٍ  
 وَكَبِيرٍ مُنْتَظَرٌ .

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ \* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ » ٥٥

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حلة رعية مفزعة عنيفة على قلوب المكذابين بالنذر ،  
 بقدر ما هي طمأنينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة للصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة ، كل

## سورة القمر

حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للكافرين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له : « فكيف كان عذابى ونذرى ؟ » . ثم يرسله بعد الضغط والهمز ويقول له : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى . فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد في الحتام . وبينها عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وعود . وقوم لوط . وفرعون ومثله . وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في سور شتى . . .

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهي تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ؛ يفيض منها الهول ، ويتأثر حولها الرعب ، ويظلمها الدمار والفرع والانهار !

وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبه سريعة لاهثة مكروبة . يشهدا المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا بستردها أنفسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً . . وهكذا حتى تنتهى الحلقات السبعة في هذا الجو المفرع الخانق . فيطل المشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمانينة والسكينة . إنه مشهد المتقين : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند ملك مقدر » . . فى وسط ذلك الهول الراجف ، والفرع المزلزل ، والعذاب المهين للكافرين : « يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . . .

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟

\*\*\*

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر . فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شئ نكر . خشا أبصارهم يخرجون من الأجدات كأنهم جراد منتشر . مهطمين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . . .  
مطلع باهر مشر ، على حادث كوني كبير ، وإرهاص بمحدث أكبر . لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير :

« اقتربت الساعة وانشق القمر » . . .

فيا له من إرهاب ! وياله من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر .

والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة . تنفق كلها في إثبات وقوع الحادث ، وتختلف في رواية هيئته تفصيلا وإجمالا :

من رواية أنس ابن مالك - رضى الله عنه - . . . قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : سألت أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر بمكة مرتين فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . . . وقال البخاري : حدثني عبد الله ابن عبد الوهاب . حدثنا بشر ابن الفضل ، حدثنا سعيد ابن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرهم آية . فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس .

ومن رواية جبير ابن مطعم - رضى الله عنه - . . . قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان ، عن محمد ابن جبير ابن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فرقتين . فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . . تفرد به أحمد من هذا الوجه . . . وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد ابن كثير عن أخيه سليمان ابن كثير ، عن حصين ابن عبد الرحمان . . . ورواه ابن جرير والبيهقي من طرق أخرى عن جبير ابن مطعم كذلك .

ومن رواية عبد الله ابن عباس - رضى الله عنه - . . . قال البخاري : حدثنا يحيى ابن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك ابن مالك ، عن عبيد الله ابن عبد الله ابن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - . . . ورواه البخاري أيضا ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس . . . وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقبه . . . وروى الموفى عن ابن عباس نحو هذا . . . وقال الطبراني بسند آخر



## سورة القمر

عن عكرمة عن ابن عباس قال: كسف القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: سحر القمر، فزلت: « اقتربت الساعة وانشق القمر - إلى قوله: مستمر » .

ومن رواية عبد الله ابن عمر - رضي الله عنها - : قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو بكر أحمد ابن الحسن القاضي ، قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس ابن محمد الدوري ، حدثنا وهب ابن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبد الله ابن عمر في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انشق فلقين فلقة من دون الجبل وفلقة خلف الجبل . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشهد » . . وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ..

ومن رواية عبد الله ابن مسعود - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان ابن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله ابن مخبرة ، عن ابن مسعود . وقال البخاري : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عوانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السفار ، فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال : فجاء السفار فقالوا ذلك . . وروى البيهقي من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله ابن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان في منى - وتحديد زمانه في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة . وتحديد هيئته في معظم الروايات أنه انشق فلقين ، وفي رواية واحدة أنه كسف ( أي خسف ) . . فالحدث ثابت من هذه الروايات للتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن

يكون قد وقع فعلا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات ، لو وجدوا منفذا للتكذيب . وكل ما روى عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلو كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه .

بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : « وما مننا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » (١) . فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا سرا رسولا . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوجيهة : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفا ، أو تأتي بالله وللائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ، ولن نؤمن لوقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل : سبحان ربي أهل كنت لإبشرا رسولا » (٢) .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية - أي خارقة - يبدو بعيدا عن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق ، وفي أحداث التاريخ سواء . . . فأما ما وقع فعلا للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراما من الله لعبده ، لا دليلا لإثبات رسالته . . .

(١) سورة الإسراء [ ٥٩ ]

ومن ثم ثبت الحادث - حادث انشقاق القمر - بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي نجد مكان الحادث وزمانه وهيئة . وتوقف في تليله الذي ذكرته بعض الروايات. ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة . باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب . . .

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويسجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يسجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى .

إن الحوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتباً لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادي . وكل الحوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الحوارق !

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر في ذاته آية أكبر ! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره في حياة الأرض ، وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد . هذه هي الآية الكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقى ظلالها ؛ وتقوم أمام الحس شاهداً على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عنادا أو مراء !

وقد جاء القرآن ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله ؛ وما فيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله بهذا الكون وآيات الله فيه في كل لحظة ؛ لا مرة عارضة في زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس في مكان محدود .

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل في آيات الله التي لا تنفد ، ولا تذهب ، ولا تغيب . وهو بحملته آية . وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشري مدعو في كل لحظة لمشاهدة الحوارق القائمة الدائمة ، والاستماع إلى شهادتها الفاصلة الحاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بسجائب الإبداع المتمعة ، التي يلتقي فيها الجمال بالكمال ، والتي تستجيش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والافتناع الهادي المميّق .

وفي مطلع هذه السورة نجيء تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعاً يهز

القلب البشرى هذا . وهو يتوقع الساعة التي اقتربت ، ويتأمل الآية التي وقعت ، ويتصور أحداث الساعة في ظل هذا الحدث الكوني الذي رآه المخاطبون بهذا الإيقاع الثير .

وفي موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مطوف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول : « بثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعه السبابة والوسطى (١)

ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقوع الحادث الكوني الثير ، وقيام الآيات التي يرونها في صور شتى .. فإن تلك القلوب كانت تلج في العناد ، وتصرع على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كالاتاثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعظة والكف عن التكذيب :

« وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله في انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر . فهذا قولهم كلما رأوا آية . ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، قد قالوا : إنه سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبير طبيعة الآيات وحققتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها . وكذبوا بالآيات وبشهادتها . كذبوا اتباعاً لأهوائهم لاستناداً إلى حجة ، ولا ارتكناً إلى دليل ، ولاتدبراً للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود . . .

« وكل أمر مستقر » . . . فكل شيء في موضعه في هذا الوجود الكبير . وكل أمر في مكانه الثابت الذي لا يتزعزع ولا يضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار . لا على الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؛ أو المصادفة العابرة والارتجال العارض . . . كل شيء في موضعه وفي زمانه ، وكل أمر في مكانه وفي إبانته . والاستقرار يحكم كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل شيء : في دورة الأفلاك ، وفي سنن الحياة . وفي أطوار النبات والحيوان . وفي الطواهر الثابتة للأشياء والمواد . لا بل في انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التي لا سلطان لهم عليها والتي لا تخضع للأهواء . وبيننا هذا الاستقرار يحيط بهم . ويسيطر على كل شيء من حولهم . ويتجلى في كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم . . . إذا هم وحدهم مضطربون تجاذبهم الأهواء .

(١) وأخرجه الشيخان من حديث أبي حازم سلمة ابن دينار .

## سورة القمر

« ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر » . . . أبناء الآيات الكونية التي صرفها الله لهم في هذا القرآن ؛ وأبناء المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأبناء الآخرة التي صورها القرآن لهم . . . وكان في هذا كله زاجر وراذع لمن يزدجر ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تديره الحكيم . ولكن القلوب المطموسة لا تفتح لرؤية الآيات ، والانتفاع بالأنبياء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير : « حكمة بالغة فما تغني النذر » . إنما هو الإيمان عبة الله للقلب المتهيء للإيمان ، المستحق لهذا الإنعام !

رعد هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنبياء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لا يخفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه : « فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر . خشما أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع يقول الكافرون : هذا يوم عسر » . . .

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك !

« وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل الهبات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر ( ومشهد الجراد المهبود يساعد على تصور المنظر المعروف ) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ؛ وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب نكير شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه . . . وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون : « هذا يوم عسر » . . . وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعب الرعب ا <sup>(١)</sup> »

فهذا هو اليوم الذي اقترب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يجيء ، ودعهم لصيرم فيه وهو هذا المصير الرعب الخيف ا

\*\*\*

وبعد هذا الإيقاع الضيف في مطلع السورة ؛ والشهد المكروب الذي يشمل للكذابين في

(١) مأخوذ بصرف خيف من كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » .

يوم القيامة . . يأخذ في عرض مشاهد التكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التي سلكت من قبل ملكهم ، بادئا بقوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا : مجنون ، وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب ، فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وجفنا الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تحرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

« كذبت قبلهم قوم نوح » . . بالرسالة وبالآيات « فكذبوا عبدنا » . . نوحا « وقالوا : مجنون » . . كما قالت : قريش ظالمة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهروه بعنف : « وازدجر » . . بدلا من أن يترجروا هم ويرعوا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهى إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يندلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

« فدعا ربه : أنى مغلوب . فانتصر » . .

انتهت طاقتي . انتهى جهدي . انتهت قوتي . وغلبت على أمرى . « أنى مغلوب فانتصر » . . انتصر أنت ياربى . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجتك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دورى !

وماتكاد هذه الكلمة تقال ؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة السكون المهائلة الساحقة . . فتدور دورتها المدوية المجلجلة : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وجفنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » . . وهى حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : « ففتحنا » فيحسن القارئ يد الجبار تفتح « أبواب السماء » . . بهذا اللفظ وبهذا الجمع . « بماء منهمر » . . غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : « وجفنا الأرض عيونا » . . وهو تمييز يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استعالت عيونا .

## سورة القمر

والتقى الماء انهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض .. « طى أمر قد قدر » .. التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر . حتى إذا صار طوهانا يضم ويم ، وينمر وجه الأرض ، ويطوى الدخس الذي يفتى هذا الوجه . وقد ينس الرسول من تطهره ، وغلب طى أمره في علاجه . امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته ، فتحرك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة والتكريم : « وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر » ..

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر (١) توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهي تجرى في رعاية الله بملاحظة أعينه . « جزاء لمن كان كفر » . وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم طى الاستهزاء . ويصور مدى القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر . إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته . والله من ورأها مجبروته وقدرته .

وطى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه إلى القلوب التي شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلهسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب :

« ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ » ..

هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال « فهل من مدكر ؟ » يتذكر ويعتبر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير :

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

ولقد كان كما صورته القرآن . كان عذابا مدمرا جبارا . وكان نذيرا صادقا بهذا العذاب . وهذا هو القرآن حاضر ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقرا ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، ومواقفة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لاتنفذ عجائبه ، ولا يخلق طى كثرة الرد . وكما تدبره القلب عادة ، زاد جديد . وكما صحبتها النفس زادت له ألفة وبه أنسا : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

(١) الدسر : السامير .

## الجزء السابع والعشرون

وهذا هو التعقيب الذي يتكرر ، بعد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب  
البشرى يدعو دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الآلي  
الذي حل بالمكذبين .

\*\*\*

« كذبت عاد ، فكيف كان عذابي ونذري ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس  
مستمر ، تزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذري ؟ ولقد يسرنا القرآن  
للكر فهل من مذكر ؟ » ..

وهذه هي الحلقة الثانية ، أو الشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذي يقف  
عليه بعد وقته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين .

يبدوه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجب والتحويل :  
« فكيف كان عذابي ونذري ؟ » .. كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الحاطف الرعيب :

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تزع الناس كأنهم أعجاز نخل  
منقعر » . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الريح . والنحس :  
الشؤم . وأي نحس يصيب قوما أشد مما أصاب عاد . والريح تزعهم وتجذبهم . ونحطهم .  
فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعورها ؟ !

والشهد منزع عفيف ، وعاصف عنيف . والريح التي أرسلت على عاد « هي من جنده الله »  
وهي قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق التاموس الكوني الذي اختاره ؛  
وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك التاموس ، بلا تعارض بين خط  
سيرها الكوني ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر وصاحب التاموس ،

« فكيف كان عذابي ونذري ؟ » ..

يكورها بعد عرض الشهد . والشهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب للكرار في السورة وفق نسقها الخاص :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ؟ » ..

\*\*\*



ثم يعنى إلى المشهد التالى فى السياق وفى التاريخ :

« كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر . ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غدا من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتماطى فمقر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدبر ؟ » ..

و ثمود كانت القبيلة التى خلفت عاداً فى القوة والتمكين فى جزيرة العرب . . كانت عاد فى الجنوب وكانت ثمود فى الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم فى أنحاء الجزيرة .

« فقالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر . ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » ..

وهى الشبهة المكرورة التى تحيك فى صدور المكذبين جيلا بعد جيل : « ألقى الذكر عليه من بيننا » ؟ كما أنها هى الكبرياء الجوفاء التى لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ » !

وماذا فى أن يختار الله واحدا من عباده . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . . فيلقى عليه الذكر - أى الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر - ماذا فى هذا الاختيار لئلا من عباده يعلم منه تهيوه واستمداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا فى النفوس المنحرفة . النفوس التى لا تريد أن تنظر فى الدعوة لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ؛ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون فى اتباعها له إشاره وتعظيم . وهى تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : « أبشرا منا واحدا نتبعه ؟ إنا إذن لنى ضلال وسمر » .. أى لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شئ أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم فى سمر - لافى سمر واحد - إذا هم فاءوا إلى ضلال الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذى اختاره الله ليقودهم فى طريق الحق والصدق . يتهمونهم بالكذب والطمع : « بل هو كذاب أشر » .. كذاب لم يلقى عليه الذكر . أشر : شديد الطمع فى اختصاص نفسه بالمسكنة ! وهو الاتهام الذى يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة

## الجزء السابع والعشرون

ستارا لتحقيق مآرب ومصالح . وهى دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس  
ومحركات القلوب .

وبينا يجرى السياق على أسلوب الحكاية لقصة عبرت فى التاريخ . . يلتفت فجأة وكأنما  
الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذى سيكون :  
« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » !

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهى طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية فى  
القصة ، وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ،  
ويرتقبونها فى مقلب الزمان !

« سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » . . وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . وإن يكونوا  
بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر !  
« إنا مرسلو الناقة فتنه لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل  
شرب محتضر » . .

ويقف القارىء يترقب ماسيق ، عندما يرسل الله الناقة فتنه لهم ، وامتحانا مميذا لحقيقتهم .  
ويقف الرسول - رسولهم عليه السلام - مرتقبا ماسيق ، مؤتمرا بأمر ربه فى الاضطبار عليهم  
حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليقات . . أن الماء فى القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة -  
ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة - فبوم لها وبوم لهم - تحضر  
يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم :

« فنادوا صاحبهم فتاعطى فقمر » ..

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين فى المدينة ، الذين قال عنهم فى سورة النمل : « وكان  
فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » . . وهو الذى قال عنه فى سورة  
الشمس : « إذ نبث أشقاها » ..

وقيل : إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئا على الفعلة التى هو مقدم عليها . وهى عقرا الناقة  
التي أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .. « فنادوا  
صاحبهم فتاعطى فقمر » وتمت الفتنة ووقع البلاء .

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

وهو سؤال التعجيب والتهويل . قبل ذكر ما حل من العذاب بعد النذر :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » ..

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت في موضع آخر في سورة « فصلت » توصف بأنها صاعقة : « فإن تولوا قل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .. وقد تكون كلمة صاعقة وصفا للصيحة . فهي صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيرا عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئا واحدا . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أرا من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحبها .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم « كهشيم المحتظر » .. والمحتظر صانع الحظيرة . وهو يصنمها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتحطم وتصبح هشيا . أو أن المحتظر يجمع لما شيته هشيا تأكله من الأعواد الجافة والمشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة . وهو مشبه بمفجع مفرع . يمرض ردا على التعالي والتكبر . فإذا المتعالون للتكبرون هشيم . وهشيم مهين . كهشيم المحتظر .

وأمام هذا للشهد العنيف الخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو مير للتذكر والتدبر :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » ..

ويسدل السار على الهشيم للبرين . وفي العين منه مشهد . وفي القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ...



ثم يرفع السار عن حلقة جديدة تالية - بعد ذلك - في التاريخ ، في محيط الجزيرة العربية كنفك :

« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطاعتنا فآثروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمنا أعينهم ففوقوا عذابا ونذر . ولقد صبغهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابا ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..

وقصة قوم لوط وردت مفصلة في مواضع أخرى . والقصود بمرضاها هنا ليس هو تفصيلاتها . إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . ومن ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالندر : « كذبت قوم لوط بالندر » . . . وطى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال :

« إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر » ..

والحاصب : الريح تحمل الحجارة . وفي مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين . ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو الشهد . ولم ينج إلا آل لوط - إلا أمراته - نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم .. كذلك نجزي من شكر » . فتجيه ونعم عليه في وسط المهالك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفيها : طرف التكذيب وطرف الأخذ الشديد . فإنه يعود لشيء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين .. وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إعجازات معينة من إيرادها في هذا النسق (١) . هذه التفصيلات هي :

« ولقد أنذرهم بطشتنا فهاروا بالندر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبغهم بكرة عذاب مستقر » ..

وظلما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذي كانوا يأتونه ، فهاروا بالندر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن راودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - وقد حسبوم غلما ناصباحا فهاج سارم الشاذ للوث القدر ، وساوروا لوطا يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبهم الذي حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القدر للمريض .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : « فطمسنا أعينهم » فلم يهودوا يرون شيئا ولا أحدا ؛ ولم يهودوا يقدرن على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ، والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا اللوح بهذا الوضوح . ففي موضع آخر

(١) مراجع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » .

## سورة القمر

ورد : « قالوا : يا لوط إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك » .. فزاد هنا ذكر الحالة التي صارت تمنعهم من أن يصلوا إليه . وهي انطاس العيون ا

وبينما السياق يجري مجرى الحكاية ، إذابه حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين : « فذوقوا عذابي ونذر » .. فهذا هو العذاب الذي حذرت منه ، وهذه هي النذر التي تماريتم فيها ا

كان طمس العيون في المساء .. في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخذهم جميعا :

« ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وهو ذلك العذاب الذي عجل بذكره في السياق . وهو الحاصب الذي طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادي المذبون وهم يمانون العذاب :

« فذوقوا عذابي ونذر » ا ا ا

ثم يجيء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟

\*\*\*

وتختم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة للذكورة . في إشارة سريعة خاطفة :

« ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » ..

وهكذا تختصر قصة فرعون ومكته في طرفها : مجيء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات

التي جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والافتقار

تلقى ظلال الشدة في الأخذ ؛ وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم . فقد ضاعت

العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الوهوم . وأخذ الله - هو وآله - أخذ عزيز حقا مقتدر صدقا .

أخذهم أخذاً شديداً يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار ..

\*\*\*

## الجزء السابع والعشرون

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسم إيقاع هذه المشاهد .. الآن والمصارع المتتالية حاضرة في خيالهم ، ضاغطة على حسم .. الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرم مصرعا كهذه المصارع . وينذرهم ماهو أدهى وأفظع :

« أ كفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من يذكر . وكل شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر » ..

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك في صدق هذا الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع في الهرب والفسك؛ أو المغالطة في الحساب والفرار من الجزاء! تلك كانت مصارع المكذبين . فما ينعم أنتم من مثل ذلك المصير ؟ « أ كفاركم خير من أولئكم ؟ .. وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ « أم لكم براءة في الزبر » .. تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائم الكفر والتكذيب ؛ لا هذه ولا تلك . فلم خيرا من أولئكم ، وليست لكم براءة في الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم :

« أم يقولون : نحن جميع منتصر » .

وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، وينترونها بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لاهازم لنا ولا غالب ؟

هنا يملأها عليهم مدوية قاضية حاسمة :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر » ..

فلا يصممهم بتجمعهم ، ولا تصرم قوتهم . والذي يملأها عليهم هو القهار الجبار .. ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون ا

قال البخاري بإسكاه إلى ابن عباس - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال وهو في قبة

## سورة القمر

له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب في الدرع ، وهو يقول : « سبهزم الجمع ويولون الدبر . . . » .

وفي رواية لابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : لما نزلت « سبهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي أي جمع يثب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثب في الدرع ، وهو يقول : « سبهزم الجمع ويولون الدبر » .

فعرفت تأويلها يومئذ !

وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هي الأخيرة . وليست هي الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى :

« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » . . .

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه في هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوماً فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصل كيف هي أدهى وأمر . يفصل هذا في مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

« إن المجرمين في ضلال وسمر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » . . . في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سمر تكوى الجلود والأبدان . . . في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : « أبعثنا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لنرى ضلال وسمر » . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السمر !

وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزدون عذاباً بالإيلام النفسي ، الذي كأنما يشهد اللحظة حاضراً معروفاً على الأسماع والأنظار : « ذوقوا مس سقر » !

•••

وفي ظل هذا المشهد المروع المنزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدييره . . .

إن ذلك الأخذ في الدنيا ، وهذا العذاب في الآخرة . وما كان قبلها من رسالات ونذير ، ومن قرآن وزبير . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود . . .

## الجزء السابع والعشرون

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

كل شيء .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء .. خلقناه بقدر ..

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويعس أنه خليفة متناسقة تناسقا دقيقا . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهبه هذه الوسائل ، ويطيقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائما ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها ، وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله للمياة له .. وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلتها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع الكواكب لم يروها بمد ؛ لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها . فوجودها في هذه اللواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها .. ثم يتحقق هنا الذي فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة للتناهي في توزيع هذه الأجرام ، في هذا القضاء المائل ، بهذه النسب المقدره ، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب ا

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افترض أي اختلال في أية نسبة من نسبتها يودي



بهذه الحياة كلها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ، وبمدها عن الشمس . وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدره تقديراً ، لو وقع الاختلال في أى منها لتبدل كل شيء ؛ ولكانت هي النهاية المقدره لعمر هذه الحياة على هذه الأرض .

ووصل في إدراك التماسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض . . . إلى حد يعطى فكرة عن تلك الحقيقة المميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء ، في وقت ما ، لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشيء من التفصيل في سور أخرى إلى التماسق في بناء الكون ، وفي ظروف الأرض (١) . .

« إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلاً على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة . وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطيمة الحياة في كل موطن ، لفضت على صغار الطيور وأفتتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أوقلت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض !

بغات الطير أكثرها فراخاً . وأم الصقر مقلاتٌ تنزور

وذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا ، كي تعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين

الجوارح والبغات !

والنباة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لعطى الدباب وجه الأرض بنتاجه؛ ولندت حياة كثير من الأجناس

(١) تراجع تفسير سورة الفرقان .

## الجزء السابع والعشرون

- وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه هذه الأرض. ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه ا  
والميكروبات - وهي أكثر الأحياء عددا ، وأسرعها تكاثرا ، وأشدّها فتكا - هي كذلك  
أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا . تموت بملايين الملايين من البرد ، ومن الحر ، ومن  
الضوء ، ومن أحماض المعدّات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تغلب إلا  
على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت  
الحياة والأحياء ا

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقى به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء . وتختلف  
هذه الأسلحة وتتنوع . ففكرة العدد سلاح . وقوة البطش سلاح . وبينها ألوان وأنواع ..  
الحيات الصغيرة مزودة بالسّم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثعابين الكبيرة مزودة  
بقوة العضل ، ومن ثم يندب فيها السام ا

والخنفساء - وهي قليلة الحيلة - مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من  
يلسها ، وقاية من الأعداء ا

والظباء مزودة بسرعة الجري والتفزز . والأسود مزودة بقوة البأس والاقتراس ا  
وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء .  
وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينتفع معها  
بهذا اللون من الطعام . . الإنسان والحيوان والطيور وأدنا أنواع الأحياء سواء . .  
البويضة بعد تلقيحها بالحيوان للنوى تلتصق بالرحم . وهي مزودة بخاصية أكلة ، تمزق  
جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم للناسب لامتصاصها ونموها ا والجبل السرى الذي  
يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعى في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون  
من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما  
قد يؤذيه (١) .

« والتدى يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا إلى الاصفرار . ومن عجيب صنع  
الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيميائية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض . وفي اليوم

(١) من كتاب : الله والعلم والحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦-٤٧ .

التالى لليلاد يبدأ اللبن في التكوين . ومن تدبير المدير الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدي يوما بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف في اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته ، وتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فزيد نسبتة النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوما بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو» (١)

وتتبع الأجهزة المختلفة في تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها في المحافظة على حياته وصحته . . يكشف عن العجب العجيب في دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تكلؤه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن تفصل هذه العجائب فنكتفى بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق في جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز الغدد الصم « تلك العامل الكيماوية الصغيرة التى تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءا من ألف بليون جزء منها تحدث آثارا خطيرة في جسم الإنسان . وهى مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيدا مدهشا ، وأن أى اختلال في إفرازها يسبب تلفا عاما في الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هذا الاختلال وقتا قصيرا» (٢)

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته . . « زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التى تعيش في الفلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفرسه من كائنات لا بد من مهاجمتها ، والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها ، فلا رجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوث معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والمظام» (٣)

(١) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨

(٢) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢

(٣) المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢

فأما الحيوانات المجترة للسناسة التي تعيش على المراعى ، فهي تختلف فيما زودت به . . .  
 « وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواها واسعة نسياً ؛ وقد تجردت  
 من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلاً منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاصحة قاطعة؛  
 فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدي  
 للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة  
 للهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان  
 اليومي وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلسوة » . ثم يرجع إلى الفم ،  
 فيمضغ ثانية مضغاً جيداً ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلايف » ، ثم إلى رابع  
 يسمى « الإنفحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيراً ما يكون هدفاً  
 لهجوم حيوانات كاسرة في المراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفي . ويقول  
 العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما  
 يحتويه من السيلوز الذي يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل  
 جداً ، فلو لم يكن مجتراً ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل في الرعى ، يكاد يكون  
 يوماً بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات في عمليات  
 التناول واللمضغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادةه بعد أن يصيب شيئاً من التخمر ، ليبدأ  
 اللضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم .  
 فيبحان للدبر » (١) .

« والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم .  
 بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمنرفة ، توأم البحث عن الغذاء في الطين  
 والماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .  
 أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدية لتؤدي  
 هذا الغرض . بينما منقار البجعة مثلاً طويل طويلاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب  
 ليكون كشبكة الصياد . إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

« ومنقار المهدد وأبو قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ،

(١) للصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣

## سورة القمر

التي غالباً ما تكون تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء  
أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

« أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب . فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حوصلة  
وقانصة تهضم الطعام . وبلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام » (١) .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لورحنا نتبع الأنواع والأجناس  
الحية من هذا النحو ، فنسرع الخطى إلى « الإميا » وهى ذات الخلية الواحدة ، لئرى يد الله  
سرها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها أمرها تقديراً .

« والإميا كائن حتى دقيق الحجم ، يعيش فى البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة  
فى القاع . ولا يرى بالعين إطلاقاً وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية ، يتغير شكلها بتغير الظروف  
والحاجات . فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون بزوائد ، تستعملها كالأقدام ،  
للسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء  
لها أمسكت به بزائدة أوزائدتين ، وتفرز عليه عصارة هاضمة ، فتغذى بالفيء منها ، أما الباقى  
فتطرده من جسمها وهى تنفس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء .. فتصور هذا  
الكائن الذى لا يرى إطلاقاً بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ، فإذا  
مات نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيواناً جديداً ..

« وعجائب الحياة فى النبات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائبها فى الإنسان والحيوان  
والطير . وبالتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروزاً عنه فى تلك الأحياء . » وخلق كل شئ بقدره  
تقديراً » (٢) . . .

\*\*\*

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل فى التقدير والتقدير . إن حركة هذا الكون كله  
بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدره مدبرة صغيرة وكبيرها . كل حركة فى التاريخ ككل انفعال  
فى نفس فرد ، ككل نفس يخرج من صدره ، إن هذا النفس مقدر فى وقته ، مقدر فى مكانه ،  
مقدر فى ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون ، محسوب حساباً فى التناسق  
الكونى ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا المود البرى النابت وحده هناك فى الصحراء . . . إنه هو الآخر قائم هناك بقدره . وهو

المصدر السابق ص ١٠١ - ١٠٢

(١) المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤

## الجزء السابع والعشرون

يؤدي وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان وهذه النملة السارية . وهذه الهبأة الطائفة .  
وهذه الحلية السابحة في الماء . كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء .

تقدير في الزمان ، وتقدير في المكان ، وتقدير في المقدار ، وتقدير في الصورة . وتناسق  
مطلق بين جميع الملابسات والأحوال .

من ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنيامين أخيه ،  
لم يكن حادثاً شخصياً فردياً . . إنما كان قدراً مقدوراً ليخوة يوسف من غير أمه عليه ،  
فيأخذوه فيلقوه في الجب - ولا يقتلوه - لتلقطه السيارة . لتبيمه . في مصر . لينشأ في قصر  
العزير . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعمل على الإغراء . ليلقى في السجن . . لماذا ؟  
ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك . ليفسر لها الرؤيا . . لماذا؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب !  
ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتمذب يوسف؟ لماذا يارب يتمذب يعقوب ؟  
لماذا يفقد هذا النبي بصره من الحزن؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كل هذا الألم، النوع الأشكال؟  
لماذا؟ . . ولأول مرة تجيء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب . لأن القدر يعده  
ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة في سنى القحط السبعة . ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبوه  
وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى -  
وما صاحب حياته من تقدير وتدير - لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش  
العالم فيها اليوم بكلية ! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً  
شخصياً فردياً . إنما كان وما سبقه في حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مفارته موطنه في العراق  
ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم .  
لينشأ محمد - صلى الله عليه وسلم - من نسل إبراهيم - عليه السلام - في هذه الجزيرة . أصلح مكان  
على وجه الأرض لرسالة الإسلام . . ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر في تاريخ  
البشرية العام !

إنه قدراته وراء طرف الحيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء  
كل قطعة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تفسير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الحيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتناول الزمن بين

## بهورة القمر

البدأ والمصير في عمرهم القصير . فتخفى عليهم حكمة التدبير . فيستمجلون ويقترحون . وقد  
يسخطون . أو يتناولون !  
والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليلسوا الأمر لصاحب الأمر، وتطمئن قلوبهم  
وتستريح ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تانسق، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن  
الثابت الوثيق . .

\*\*\*

ومع التقدير والتدبير ، القدرة التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :  
« وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » . .

فهي إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك  
جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح  
البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ  
من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة !  
واحدة تنشيء هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كما يشاء  
الله . وواحدة تحي كل حي . وواحدة تذهب به هنا وهناك . وواحدة ترده إلى الموت . وواحدة  
تبث في صورة من الصور . وواحدة تبث الخلائق جميعا . وواحدة تجممهم ليوم الحشر والحساب .  
واحدة لا تحتاج إلى جهد ، ولا تحتاج إلى زمن . واحدة فيها القدرة وممها التقدير . وكل أمر  
ممها مقدر ميسور .

\*\*\*

وبواحدة كان هلاك الكذابين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بمصير أمثالهم  
من الكذابين :  
« ولقد أهلكنا أشياكم فهل من مذكر ؟ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » .  
لهذه مصارع الكذابين ، معروضة في الحلقات التي تضمنتها السورة من قبل . . « فهل من  
مذكر ؟ » . . يتذكر ويستبر ؟  
ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فورا هم حساب لا يفلت منه شيء : « وكل شيء فعلوه  
في الزبر » . . مسطر في الصفائف ليوم الحساب : « وكل صغير وكبير مستطر » . . لا ينسى منه  
شيء وهو مسطور في كتاب !

\*\*\*

## الجزء السابع والعشرون

وعند هذا الحد من المرض والتعذيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين  
ويعرض صورة أخرى في ظل وادع أمين . صورة المتقين :

« إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر » ..

ذلك بينا المجرمون في ضلال وسمر . يسحبون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون  
بالتأنيب كما يلذعون بالسير : « ذوقوا مس سقر » ..

وهي صورة للنعم بطرفيه : « في جنات ونهر » . « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .  
نعم الحس والجوارح في تعبير جامع شامل : « في جنات ونهر » يلقى ظلال النماء واليسر  
حق في لفظه الناعم النسب . . وليس مجرد إيقاع القافية تجي كلمة « نهر » بفتح الهاء . بل  
كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعم في جرس اللفظ وإيقاع التعبير |

ونعم القلب والروح . نعم القرب والتكريم : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » ..  
فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مأنوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين . ذلك أنهم المتقون .  
الخائفون . الترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه في الدنيا ، وخوفها يوم  
القيامة فمن اتقاه في العاجلة أمنه في الآجلة . ومع الأمان في أفزع موطن ، يغمره  
بالأنس والتكريم .

\*\*\*

وعند هذا الإيقاع الهادي ، في هذا الظل الآمن ، تنهى السورة التي حفلت حلقاتها بالهزج  
والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادي طعم وروح أعمق وأروح ..  
وهذه هي الترية الكاملة . تربية الطيم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو  
التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر ، وهو اللطيف الخبير ..



# سُورَةُ الرَّحْمٰنِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ٧٨

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« أَرْحَمَ حَانَ ① عَمَّ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ • الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ •  
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ • وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ، وَوَضَعَ الْمِيزَانَ • أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ •  
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ • وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ • فِيهَا فَاكِهَةٌ  
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ • وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ • فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا  
تُكذِّبَانِ ؟

« خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ • وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ • فَبِأَيِّ  
آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ؟

« رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ • فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ؟

« مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ • بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ • فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا  
تُكذِّبَانِ ؟ • يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ • فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ؟ •  
وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ • فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ؟

(١) في روايات أنها مدنية ولي روايات أنها مكية . ونحن نرجح مكيتها . ولها تفسر في سنن القرآن  
للصفي . شأنها في هذا شأن سورة الرعد ، وفيها الاختلاف ذاته . وقد اعتبرنا ما مكية عند الحديث عنها  
للاسباب ذاتها .

• كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

• بِنَآئِهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

• سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

• فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بَيْمَاتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأُقْدَامِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

• وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • ذَوَاتَا أَفْنَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ • فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • مُتَكِينِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ، وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جَانٌ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ؟ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • مُدَاهِمَاتٍ •

سورة الرحمن

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا  
تُكَذِّبَانِ ؟ • فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • فِيهِنَّ  
خَيْرَاتٌ حِسَانٌ • فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبِلَامِ •  
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُ قَبْلَهُمْ وَلَا بَجانٌ • فَبِأَيِّ آلَاءِ  
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟ • مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبْقَرِيِّ حِسَانٍ • فَبِأَيِّ آلَاءِ  
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ؟

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ﴿٥٧﴾

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ،  
وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة . في جميل صنعه ، وإبداع خلقه ؛ وفي فيض نعمائه ؛ وفي تديده  
للوجود وما فيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم . . . وهي إسهاد عام للوجود كله على  
الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، في ساحة الوجود ، على مشهد من كل  
موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة  
من نعمه التي يمددها ويفصلها ويجعل ، الكون كله مرضاً لها ، وساحة الآخرة كذلك .  
ورنة الإعلان تجلي في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها .. تجلي في إطلاق الصوت  
إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بيد ؛ كما تجلي في اللطع للوقظ الذي يستثير الترقب والانتظار  
لما يأتي بعد اللطع من أخبار . . . الرحمان .. كلمة واحدة . مبتدأ مفردا . . . الرحمان كلمة واحدة  
في معناها الرحمة ، وفي رتتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك . بيان للسات الرحمة ومعرض  
لآلاء الرحمان .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه اللنة الكبرى على الإنسان . تسبق في الله كخلق  
الإنسان ذاته وتطيه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى .. البيان ..  
ومن ثم يفتح صفات الوجود الناطقة بآلاء الله .. الشمس والقمر والنجم والشجر والماء

## الجزء السابع والعشرون

لرفوعة . والليزان للوضوع . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والشرقان والغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبغيان ، وما يخرج منهما وما يجري فيهما . فإذا تم عرض هذه الصفائف الكبار . عرض مشهد فئاتها جميعا . مشهد الفناء المطلق للخلائق ، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه توجه الخلائق جميعا ، ليتصرف في أمرها بما يشاء .

وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يحيى التهديد المروع والتحدى الكوني للجن والإنس : « سنفزع لكم أيها الثقلان . يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين في تطويل وتفصيل . ثم يحيى الحتام المناسب لمرض الآلاء : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » . .

\*\*\*

إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من الملا الأعلى ، فتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود . .

\*\*\*

الرحمان . . . . .  
هذا للطلع المقصود بلفظه ومناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

الرحمان . . . . .  
بهذا الرنين الذي تجاوب أصداؤه الطليقة اللديدة المدوية في أرجاء هذا الكون ، وفي جنبات هذا الوجود .

الرحمان . . . . .  
بهذا الإيقاع الصاعد الداهب إلى بيد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ؛ ويتلفت على رتبه كل كائن ، وهو يملا فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب . .  
الرحمان . . . . .

## سورة الرحمن

ويكتم . وتنهى الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، في ارتقاب الخبر العظيم . بعد  
المطلع العظيم .

ثم يجيء الخبر المترقب ، انتهى يحقق له ضمير الوجود . . . .

« علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر  
يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا  
الميزان . والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان .  
فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

هذا هو المقطع الأول في بيان آلاء الرحمن . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان ..

« علم القرآن » ..

هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان . . القرآن .. الترجمة الصادقة  
الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذي يصل أهلها بناموس الوجود ؛  
ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم  
عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذي يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة ؛  
فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتي ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنع كل  
شيء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحياء ،  
حيناً ساروا وأقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

القرآن الذي يقر في أخلادهم أنهم خلفاء في الأرض ، وأنهم كرام على الله ، وأنهم حملة  
الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . فيشعرهم بقيمتهم التي يستمدونها من تحقيق  
إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة . . الإيمان . . الذي يجيى في أرواحهم نفخة الله . ويحقق  
نعمته الكبرى على الإنسان .

ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق في هذا الكائن معنى الإنسان .  
« خلق الإنسان علمه البيان » ..

وندمع - مؤقتا - خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتي ذكره في مكانه من السورة بعد قليل .  
إذ التصود من ذكره هنا هو مانلا من تعليمه البيان .

## الجزء السابع والعشرون

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين . . فنفسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الحارقة ، فإردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها . في مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟

إنه هذه الخلية الواحدة التي تبدأ حياتها في الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تكاد تبين . وهي لا تُبين ! ! !

ولكن هذه الخلية ماتلبث أن تكون الجنين . الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة . . عظمية . وغضروفية . وعضلية . وعصبية . وجلدية . . ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة : السمع . البصر . الذوق . الشم . اللمس . ثم . . ثم الحارقة الكبرى والسر الأعظم الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام . . كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التي لا تكاد تبين ، والتي لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمان ، وبصنع الرحمان .

فلتتظر كيف يكون البيان ؟ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » . .

إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقض منها العجب . . اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبه الهوائية والشعب والريثان . . إنها كلها تشترك في عملية التصويت الآلية وهي حلقة في سلسلة البيان . وهي على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية للعقدة، المتصلة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذي لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندري شيئا عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندري شيئا عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة . مجهولة في بعض المراحل خافية حتى الآن .

إنها تبدأ شعورا بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين . هذا الشعور ينتقل - لاندري كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية . . للمخ . . ويقال : إن للمخ مصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته بما علمه الله

## سورة الرحمن

للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرثة قدرا من الهواء المخزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لاتفاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان ، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنعام ؛ فيصوت الهواء في الحنجرة صوتا تشكله حسبما يريد العقل . . عاليا أو خافتا . سريعا أو بطيئا . حشنا أو ناعما . ضخما أو رفيعا . . إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأمتان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغط خاصة في مخارج الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوت الحرف بجرس معين . . وذلك كله لفظ واحد . . ووراءه العبارة . والموضوع . والفكرة . والشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب . بصنعة الرحمن . وفضل الرحمان .

\*\*\*

ثم يستطرد في بيان آلاء الرحمن في المعرض الكوني العام :

« الشمس والقمر بحسبان » ..

حيث تجلبي دقة التقدير ، في تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعورا بضخامة هذه الإشارة ، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار . إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام . فهناك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدودا ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءا . فالشمس الجمانية أثقل من الشمس بمشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسيك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف . وسيل أقوى من الشمس بألفين وخمسة مرة ... وهكذا ...

ولكن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا - نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير ، الذي يعيش هو وسكانه جميعا على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولكنه ذو أثر قوى في حياتها . وهو العامل الأهم في حركة الجزر واللد في البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبمدها عنا ، وسيرها في فلكها . وكذلك حجم القمر

وبعد و دورته .. كلها محسوبة حسابا كامل الدقة بالقياس إلى آثارها في حياة الأرض . وبالقياس إلى وضعها في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

ونتناول طرفا من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء .. إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحتقرت الأرض أو انصهرت أو استحوالت بخارا يتصاعد في الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءا من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشمس بضامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بددا !

وكذلك القمر في حجمه وبعدة عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافيا لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » ..

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباطا العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما



## سورة الرحمن

فسره بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوى على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذلك فإن مدى الإشارة في النص واحد . ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

والكون خليفة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها في حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدني فيه . ولكنها كانت تقيم عليه ، وتواري عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيد بتجارب الحواس .

ولقد استطاع أخيرا أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة في بناء الكون . ولكنه لا يزال بعيدا عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون ؛ وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هي قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفرادها .

فإلى أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته ؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه - وهي الحركة الأصلية فحركة ظاهره لانكون إلا تعبيرا عن حركة روحه - وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » . ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . . ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » . . .

وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشري متاعا عجيبا ، وهو يشعر بكل ما حوله حيا يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو في وقته بين أرواح الأشياء كلها ، وهي تدب فيها جميعا ، وتحيلها إخوانا له ورقاء .

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق . . .

« والسما رفعمها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »

والإشارة إلى السماء - كباقي الإشارات القرآنية إلى مجالي هذا الكون - تقصد إلى تنيبه القلب الناقل ، وإتقاده من بلاة الألفه ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسفه وجماله ، وإلى قدرة اليد التي أبدعته وجلالها .

## الجزء السابع والعشرون

والإشارة إلى السماء - أيا كان مداول السماء - توجه النظر إلى أعلى إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذي لا تبدو له حدود معروفة ؛ والذي تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلا يلتقى منها اثنان ، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحيانا ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي ، وفيها ما هو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات . شمسنا التي يبلغ قطرها مليوناً وثلث مليون كيلومتر ١١١ وكل هذه النجوم ، وكل هذه المجموعات تجري في الكون بسرعات مخيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سابعة متباعدة ، لا تلتقى ، ولا تصادم !

وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيمة « وضع الميزان » ميزان الحق . وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً . وضعه لتقدير القيم . قيم الأشخاص والأحداث والأشياء . كي لا يختل تعويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والفرس والهوى . وضعه في الفطرة ووضع في هذا النهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن :

وضع الميزان .. « ألا تطغوا في الميزان » .. فتغالوا وتفرطوا .. « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان .. ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران .

ومن ثم يرتبط الحق في الأرض وفي حياة البشر ، ببناء الكون ونظامه . يرتبط بالسماء في مدلولها المعنوي حيث ينزل منها وحى الله ونهجه ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته .. ويلتقى هذان المدلولان في الحس بإيقاعها وظلالها الموحية .

« والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان » . ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها . نحن لهذا كله لانكاد نحس يد القدرة التي « وضمت » هذه الأرض للأنام . جعلت استقرارنا عليها ممكناً وميسوراً إلى الحد الذي لانكاد نشعر به . ولانتبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه - إلا بين الحين والحين حين يشور بركان ، أو يعمور زلزال ، فيؤرجع هذه الأرض الطمئنة من تحتنا ، فتضطرب وتعمور . عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذي نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله .

والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة في كل لحظة ، لو أنهم ألقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التي يركنون إليها ، إن هي إلا هباءة سابعة في فضاء الله الواسع . هباءة تسبح في هذا

## سورة الرحمن

الفضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة . وتسبح - مع هذا - حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة . بينما هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بحملتها في هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة متجهة في اتجاه واحد نحو برج الجبار في السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بهم إلى أنهم محمولون على هذه الهبأة السابحة التي تنهب الفضاء نهباً بهذه السرعة ، معلقة في أجوازه بغير شيء ، إلا قدرة الله . . لظلوا أبداً معلقى القلوب والأبصار ، واجفى الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذي وضع الأرض للأنام ، وأقرم عليها هذا الإقرار !!

ولقد يسر لهم فيها الحياة ، وهي تدور بهم حول نفسها وحول الشمس ، وتركض مع الشمس وتوابعها بتلك السرعة المذهلة . وقد ر فيها أقواتها التي يذكر منها هنا الفاكهة - وبخص منها النخل ذات الأكام - ( والكَم كيس الطلع الذي ينشأ منه الثمر ) ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية . ويذكر منها الريحان . النبات ذا الرائحة . . وهي ألوان من نبات الأرض شتى . منها ما هو طعام للإنسان ومنها ما هو طعام للدواب ، ومنها ما هو رويح للناس ومتاع .

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع لليزان . ووضع الأرض للأنام . وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . . عند هذا القطع يهتف بالجن والإنسان ، في مواجهة الكون وأهل الكون : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن في مثل هذا المقام .

\*\*\*

ثم ينتقل من الامتنان عليها بآلاء الله في الكون . إلى الامتنان عليها بآلائه في ذوات أنفسها ، وفي خاصة وجودها وإنشائها :  
« خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار . . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . .

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والنسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة

لا تقاس أبعادها بأي مقياس مما يألّفه البشر . فجميع المقاييس التي في أيدي البشر أو التي تدركها عقولهم ، هي مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات !

فحين يمتن الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإنما يمتن عليها بالنعمة التي تفوق حد الإدراك .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهي كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذه حلقة في سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض في عناصر التكوين .

« وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأوكسجين ، والهيدروجين ، والفوسفور ، والسكرت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبتها في إنسان عن الآخر ، وفي الإنسان عن التراب . إلا أن أصنافها واحدة » (١) .

إلا أن هذا الذي أثبتته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للنص القرآني . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعني هذا الذي أثبتته العلم ، أو تعني شيئاً آخر سواه . وتقصّد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التي يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال . والذي ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية - تجريبية أو افتراضية - بنية ينان مافي القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية للتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها في نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب

(١) كتاب : آفة والطم الحديث ص ١٨٠ .

## سورة الرحمن

من الأساس ! وكل ما استفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها في تصورنا كلما أطلعنا العلم على شيء مما يشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم . إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه .

فأما خلق الجن من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذي خلق وهو أعلم عن خلق . . والمارج : المشتمل المتحرك كألسنه النار مع الرياح . وللجان قدرة على الحياة في هذه الأرض مع الإنس . ولكننا لا ندري كيف يمش الجن وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . » وكما هو الحال هنا في سورة الرحمن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرها بنعمة الوجود . كل من الأصل الذي أنشأ الله منه . وهي النعمة التي تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . ولا تكذيب في هذا المقام المشهود !

\*\*\*

« رب الشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهذه الإشارة التي تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر حوله في الآفاق . . حيث الشروق وحيث الغروب هناك الله . . ربوبيته ومشيته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته . .

والشرقان والمغربان قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبها كذلك . بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرق الشمس المختلفي الموضع في الصيف والشتاء ومغربها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هي الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى الشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته في الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذي يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر في المشارق والمغارب ، والزيادة الشعورية التي تفيض به الجوانح وتدخره الأرواح .

## الجزء السابع والعشرون

وربوية الله للمشرقين والمغربين ، بعض آلائه في هذا الكون . ومن ثم يجيء التقيب للمعهود في السورة ، بعد هذه اللفتة القصيرة : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » والمشرقان والمغربان فوق أنها من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيها من الخير لسكان هذه الأرض جميعا . بل من أسباب الحياة التي تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى الغروب . ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة .

\*\*\*

ومن هذه السحرة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر . قدر في نوعه ، وقدر في تصريفه ، وقدر في الانتفاع به :

« مرج البحرين يلتقيان . بينها برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منها اللؤلؤ والمرجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . .

والبحران المشار إليهما البحر المسالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلها وتركها يلتقيان ، ولكنها لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منها حده القدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينها برزخ من طبيعتها من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجيء مصادفة ولا جزافا . فهو مقدر تقديرا عجيبا . الماء المالح يفر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ؛ ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائما صالحا للحياة .

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع - ودون تغير في نسبه المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان . وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط - » (١)

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبت الأبحرة تحت حرارة الشمس ؛ وهي التي تمود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين

(١) عن كتاب الإنسان لا يقف وحده تأليف ( ا . كرسبي موريسون ) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة محمد صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

## سورة الرحمن

سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة . من نبات وحيوان وإنسان . .

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - في البحار . وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح ، فيحولها عن وظيفتها ويبغى على طبيعتها ، وبينها دائماً هذا البرزخ من صنع الله . فلا يغيان .

فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، في مجال الآلاء : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم .

« يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » . .

واللؤلؤ - في أصله - حيوان . و « لعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسيج ، تكون كصفاء تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها . ثم تتجمد مكونة لؤلؤة

وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ا » (١) . .

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاث مئة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وفتحة فمه التي في أعلى جسمه ، محاطة بمدد من الزوائد يستعملها في غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل في الحال ، والتصقت بها ، فتتكش الزوائد وتنحني نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان .

« ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي .

(١) عن كتاب الله والعلم الحديث ص ١٠٥

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي الزرر . وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي زررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة . تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تطلع غابة الدقة في نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها في البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غراء باهتة

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقى بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة .

« ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير ، الموجود بالشمال الشرقي لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة . ألفا و ٣٥٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلا . وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم (١)

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلي غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بها ، فيعقب على ذكرها في السورة ذلك التعقيب الشهود : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ثم ينتقل إلى الفلك التي تجرى في البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :

« وله الجوارى المنشآت في البحر كالأعلام » ..

ويجعل هذه الجوارى المنشآت « له » سبحانه وتعالى . فهي تجرى بقدرته . ولا يحفظها في خضم البحر وثبج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهي له سبحانه . وقد كانت - وما تزال - من أضخم النعم التي من الله بها على العباد ، فبسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا ينكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار . . « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

\*\*\*

والآن ينهى هذا الانتعاض في صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الثاني ، وتوارى أشباح الخلائق جميعا ، ويفرغ المجال من كل حي ، ويتجلى وجه الكريم الباقي ، متفردا بالبقاء ، متفردا بالجلال ؛ وتستقر في الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

(١) المصدر السابق ص ١٠٦-١٠٧ .



## سورة الرحمن

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس ، وتخضع الأصوات ، وتسكن الجوارح . . .  
وظل الفناء يشمل كل حي ، ويطوى كل حركة ، ويعمر آفاق السماوات والأرض . . . وجلال  
الوجه الكريم الباقي يظل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويعمر الوجود كله  
بالجلال والوقار . . .

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف ؛ ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني ،  
الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع ، والجلال الغامر ، والصمت الرهيب ، والذي يرسم  
مشهد الفناء الخاوي ، وسكون الموت الخيم بلا حركة ، ولا نائمة في هذا الكون الذي كان  
خافلاً بالحركة والحياة . ويرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ، ويطبعها في الحس البشري  
الذي لا يعرف في تجاربه صورة للبقاء الدائم ؛ ولكنه يدركها بعمق في ذلك النص القرآني العجيب !  
ويعقب على هذه المسمة العميقة الأثر بنفس التعقيب فيعد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة  
الفناء لكل من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده . يعد استقرار هذه الحقيقة نعمة  
يواجه بها الجن والإنس في معرض الآلاء : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » . . .

وإنها النعمة . بل هي أساس النعم كلها جميعاً . فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا  
الخلق ؛ وناموسه ونظامه وخصائصه . كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه . والحى الباقي هو  
الذي يخلق ويدع ، وهو الذي يحفظ ويكلا ، وهو الذي يحاسب ويجزي . وهو الذي يشرف  
من أفق البقاء على ساحة الفناء . . . فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء . وما يبرغ هذا  
العالم وما يستقيم أمره إلا ووراءه هذه الحقيقة . حقيقة البقاء وراء الفناء .

\*\*\*

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفاني ، تنبثق حقيقة أخرى . . . فكل أبناء الفناء إنما  
يتجهون في كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحى القيوم :  
« يسأله من في السماوات والأرض ، كل يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .  
يسأله من في السماوات والأرض ، فهو مناط السؤال ؛ وغيره لا يسأل لأنه فان لا يتعلق به  
سؤال . . . يسألونه وهو وحده الذي يستجيب ، وقاصده وحده هو الذي لا ينحيب . وما يتجه أحد  
إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفاني للفاني  
وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

## الجزء السابع والعشرون

وهو - سبحانه - كل يوم هو في شأن . وهذا الوجود الذي لا تعرف له حدود، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته، وهو قائم بتديره . هذا التدبير الذي يتناول الوجود كله جملة ؛ ويتناول كل فرد فيه على حدة ؛ ويتناول كل بضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطي كل شيء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدي وظيفته .

هذا التدبير الذي يتبع ما يذت وما يسقط من ورقة ، وما يمكن من حبة في ظلمات الأرض، وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك في بحارها ، والديدان في مسارها ، والحشرات في مخابها . والوحوش في أوكارها ، والطيور في أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية في جسم حي .

وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف . . .  
ومن هذا الشأن شأن العباد في الأرض من إنس و جن . ومن ثم فهو يواجهها بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

\* \* \*

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلي إلى الواحد الباقي، وتعلق مشيئته - سبحانه - بشئون الخلاق وتقديرها وتديرها ، فضلا منه ومنة على العباد . بتقرير هذه الحقيقة الكلية وما ينبثق عنها من حقائق ينهي الاستعراض الكوني ، ومواجهة الجن والإنس به ؛ ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفرع ، ووعد مززل مضمض . تهيدا لحوال القيامة الذي يطالع الثقلين في سياق السورة بعد ذلك :  
« سنفزع لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..  
« سنفزع لكم أيها الثقلان » ..

باللهول المرعب المززل ، الذي لا يثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم والأفلاك !

الله . جل جلاله . الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال . الله - سبحانه - يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، في وعيد وانتقام !

## سورة الرحمن

ه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال !

والله - سبحانه - ليس مشغولاً فيفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري . وإيقاع  
لوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورها سحفاً فهذا الوجود كله  
نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحفه لا يحتاج إلا واحدة كلح بالبصر .  
فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ، ليتولاهما بالانتقام ؟ !  
وفي ظل هذا الهول الرعب يسأل الثقلين المسكينين : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !  
ثم يمضي في الإيقاع المرعب المزلزل ، يتجدها أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :  
« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا .. »  
وكيف ؟ وأين ؟

« لاتنفذون إلا بسلطان » .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان . .

ومرة أخرى يواجهها بالسؤال : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهل بقي في كيانها شيء يكذب أو يهجم بمجرد النطق والبيان ؟ !

ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعب يلاحقها ، وللصير المردى

يتمثل لها :

« يرسل عليكم شواظ من نار ومحاس فلا تنصران » . .

« فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر - وفوق مألوف كل خلق - وفوق تصور البشر

وتصور كل خلق . وهي صورة فريدة ، وردت لها نظائر قليلة في القرآن ، تشبهها ولا تماثلها .

كما قال تعالى مرة : « فذرني والكدابين أولى النعمة » . . وكما قال : « ذرني ومن خلقت

وحيداً » . . وما يزال قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيتها الثقلان » . . أعنف وأقوى وأرعب وأدهى . .

\*\*\*

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة .

وما يقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب !

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وردة حمراء ، سائلة كالدهان .. ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : « إذا رجفت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا » .. ومنها : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. ومنها : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » .. ومنها : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت » .. ومنها : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله ..

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ولا

تكذيب عندئذ ولا نكران ..

« فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .. وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم الشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلتقى به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة يابضاً ، ويظهر هذا وذاك في سبأ الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

« يعرف المجرمون بسبأهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار .. فهل حينئذ من تكذيب أونكران ؟  
وبينا المشهد معروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

## سورة الرحمن

« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » .. هذه هي حاضرة معروضة - كما ترون -  
 « يطوفون بينها وبين حميم آن » .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار! وهم يترأضون  
 بين جهنم وبين هذا السائل الآتي . انظروا إنيهم يطوفون الآن! « فبأي آلاء ربكما تكذبان؟! »  
 هذه صفة العذاب الأليم . والآن إلى صفة النعيم والتكريم :  
 « ولمن خاف مقام ربه جنتان » ..

وللمرة الأولى - فيما مر بنا من سور القرآن - تذكر الجنتان . والأظهر أنها ضمن الجنة  
 الكبيرة المعروفة . ولكن اختصاصها هنا بالذكر قد يكون لمرتبتها . وسيأتي في سورة الواقعة  
 أن أصحاب الجنة فريقان كبيران : هما السابقون للقربون . وأصحاب اليمين . ولكل منهما نعيم .  
 فهنا كذلك نلح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذي مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين  
 القربين المذكورين في سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين .. ونلح أنها  
 لفريق يلي ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولننحس فيهما لحظات !

إنهما « ذواتا أفنان » .. والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فيها رياتان نصرتان .  
 « فيها عينان تجريان » .. فماؤهما غزير ، وسهل يسير .

« فيها من كل فاكهة زوجان » .. ففاكها منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » والإستبرق  
 المحمل الحرير السميك . فكيف بظواهر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

« وجنى الجنتين دان » .. قريب التناول ، لا يتمب في قطاف .

ولكن هذا لا يستقصى ما فيها من رفاة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :

« فهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » .. فهن عفيفات الشعور والنظر .

لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسن إنس ولا جن .

وهن - بمد هذا - ناضرات لامعات : « كأنهن الياقوت والمرجان » .

ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبده كأنه يراه ، شاعرا أن ربه يراه ، فبلغ بذلك

مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا جزاء الإحسان من

عطاء الرحمان :

« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ »

وفي معرض الإنعام والإحسان ، كان التعقيب بحجىء في موضعه بعد كل فقرة : « فبأى آلاء

ربك: تكذبان ؟ »

والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الآخرين .

« ومن دونها جنتان » . . وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فيها :

« مدهامتان » . . أى مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيها من أعشاب .

« فيها عينان نضاختان » . . تتضان بالماء . وهذا دون الجريان !

« فيها فاكهة ونخل ورمان » . . وهناك : « من كل فاكهة زوجان »

« فهن خيرات حسان » . . بكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويل

الخيرات بالكون أو الخيرات بالتشديد فى الآية التالية :

« حور مقصورات فى الخيام » . . وتلقى الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوى أو يمثل

مطالب أهل البداوة . . والخور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .

« لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان » . . فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك فى الصون والعتاف .

أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

« متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان » . . والرفرف الأبطة وكأنها من صنع

« عبقر » لتعريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادى الجن : عبقر !

ولكن التكاآت هناك بطائنها من إستبرق . وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان !

وهنا كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونميمهما : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

\*\*\*

وفى ختام السورة التى استعرضت آلاء الله فى الكون ، وآلاءه فى الخلق ، وآلاءه فى

الآخرة . بحجىء الإيقاع الأخير ، تسيبعا باسم الجليل الكريم ، الذى يفنى كل حى ، ويبقى

وجهه الكريم .

« تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . .

أنسب ختام لسورة الرحمان .

## سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ وآياتها ٩٦

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ \* لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَازِبَةٌ ⑤ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ \* إِذَا رُجَّتِ  
الْأَرْضُ رَجًا \* وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا \* فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا \* وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً \*  
فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ \* وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ \*  
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ \* أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ \* فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ \* ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى \*  
وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ \* عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ \* مُتَكِلِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ \* يَطُوفُ  
عَلَيْهِمْ وُلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ \* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ \* لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا  
وَلَا يُنزِفُونَ \* وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ \* وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ \* وَحُورٍ عِينٍ \* كَأَمْثَالِ  
اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ \* جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ \* لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَا \*  
إِلَّا قِيلًا : سَلَامًا سَلَامًا .

« وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ \* فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ \* وَطَلْحٍ مَنضُودٍ \* وَظِلِّ  
مَمْدُودٍ \* وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ \* وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ \* لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا تَمْنُوعَةٍ \* وَفُرُشٍ  
مَرْفُوعَةٍ \* إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً \* فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا \* غُرُبًا أَثْرَابًا \* لِأَصْحَابِ  
الْيَمِينِ \* ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى \* وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

« وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ \* فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ \* وَظِلِّ مِنْ يَحْمُومٍ \*

لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ \* إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ \* وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ  
الْعَظِيمِ \* وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ \*  
أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ \* قُلْ : إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ \* لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ  
مَعْلُومٍ \* ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ \* لَأَكُونُ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ \*  
فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ \* فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ \* فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ \* هَذَا  
نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

« نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ! \* أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ \* أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ  
أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ؟ \* نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ \* عَلَى أَنْ  
نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ \* وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا  
تَذَكَّرُونَ !

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ \* أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ؟ \* لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ  
حُطَامًا ، فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ \* إِنَّا لَمَغْرُمُونَ \* بَلْ نَحْنُ نَحْرُومُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ \* أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ؟ \*  
لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ، فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ .

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ؟ \* أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ؟ \*  
نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَحْمَةً لِلْمُقِيمِينَ \* فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ \* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ \* إِنَّهُ لَقُرْآنٌ  
كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ \* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .  
« أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ؟ \* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ؟ \*  
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ \* وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ \* وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ



مِنْكُمْ وَآلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ \* فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ \* تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ !

« فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ \* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ \* وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ \* فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ \* وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ \* فَضُلٌّ مِنَ جَحِيمٍ \* وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ .

« إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ \* فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » (٩٦) .

الواقعة .. اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة ، ردا على قولة الشاكيين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : « إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » ..

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهى كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم في هذا الأمر .. الواقعة .. « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » .. وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبذل الأرض غير الأرض ، كما يبذل القيم غير القيم سواء : « خافضة رافعة .. إذا رجفت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً . وكنتم أزواجا ثلاثة . . الخ » .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الجنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما يلقون من نعيم وعذاب ووصفا مفصلا أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للبيان . حتى يرى المكذبون رأي المين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الأليم الذي هم فيه : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرّون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون » .. وكأن العذاب هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقييح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقييح ما كانوا عليه من تكذيب !

## الجزء السابع والعشرون

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخياً توكيد قضية البعث التي هي موضوع السورة الأول ؛ بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ، في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان . أيا كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من معنى يُعنى . ويعرض موتهم ونشأة آخريين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على النشأة الأخرى ، التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى ، التي يعرفونها جميعاً . ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدرته الله ينزله من السحاب . ولو شاء جملة ملحا أجاجا ، لا ينبت حياة ، ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون ، وأصلها الذي تنشأ منه . . . الشجر . وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذرا . ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا اليقظة ليد الله وهي تنشأ وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن «الواقعة» فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويمظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئا ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئا عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسييح الله الخالق : «إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم» . . . فيلتم المطلع والختام أكمل الشام ..

\*\*\*

« إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجاً . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . . . » .

## سورة الواقعة

هذا المطلع واضح فيه التهويل في عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوبا خاصا يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فمرتين يبدأ بإذا الشرطية يذكّر شرطها ولا يذكر جوابها . « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » .. ولا يقول: ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهي خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثا جديدا : « إذا رجّت الأرض رجاء . وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا . » .. ومرة أخرى لا يقول : ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتائجها ، لأن نتائجها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروعة المفزعة التي يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمناها وبجرس اللفظ ذاته - بما فيه من مدّة ثم سكون - تلقى في الحس كأماهى ثقل ضخّم ينقض من عليّ ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! « ليس لوقعتها كاذبة » .. ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجحة محدثها حين يقع . ويلبي السياق هذا التوقع فإذا هي : « خافضة رافعة » . . وإنها لتخفض أقدارا كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقدارا كانت خفيضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ؛ ثم تستقيم في ميزان الله .

ثم يتبدى الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجاء - وهي حقيقة تذكر في التعبير الذي يتسق في الحس مع وقع الواقعة - ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول - تحت وقع الواقعة - إلى فتات يتطاير كالهباء . « وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا » . . فما أهول هذا الهول الذي يرج الأرض رجاء ، ويبس الجبال بسا ، ويتركها هباء منبثا . وما أجهل الذين يترضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشري ، ويهول الحس الإنساني ، تجاه القضية التي ينكرها المنكرون ، ويكذب بها المشركون . وينتهي هذا المشهد الأول للواقعة لشهد آثارها في الخفض والرفع ، وفي أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة :

« وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟ وأصحاب المشأمة ما أصحاب

للمشأمة ؟ والسابقون السابقون . . . »

ونجد الناس هنا أصنافاً ثلاثة - لاصنفين اثنين كما هو السائد في مشاهد الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة - أو أصحاب اليمين - ولكنه لا يفصل عنهم الحديث وإنما يصفهم باستفهام عنهم للتحويل والتضخيم : « فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ » . وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث . فريق السابقين . يذكرهم فيصفهم بوصفهم : « والسابقون السابقون » . . كأنما يقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لا يزيد الوصف شيئاً !

ومن ثم يأخذ في بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعيم لهم ، وتمديد أنواعه التي يمكن أن يدركها حس المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم :

« أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين . عسى سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق ومآس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عيون . كأَمْثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قِيلاً : سلاماً سلاماً .. »

إنه يبدأ في بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم : « أولئك المقربون في جنات النعيم » . . وجنات النعيم كلها لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها .. إنهم : « ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين » . . فهم عدد محدود . وفريق منتهى . كثرتهم في الأولين وقلتهم في الآخرين . واختلفت الروايات في من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول : أن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وأن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه . . والقول الثاني : أن الأولين والآخرين هم من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثاني رجحه ابن كثير . وروى في ترجيحه للحسن وابن سيرين : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن ابن محمد ابن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله ابن أبي بكر المزني ، سمعت الحسن أتى على هذه الآية : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فقال : « أما السابقون فقد مضوا ولكن

## سورة الواقعة

اللهم اجمعنا من أصحاب اليمين» . . ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السري ابن يحيى . قال : قرأ الحسن : « والسابقون السابقون . أولئك المقربون في جنات النعيم . ثلثة من الأولين » . . قال : ثلثة ممن مضى من هذه الأمة » . . وحدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز ابن المغيرة المقرئ ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد ابن سيرين ، أنه قال في هذه الآية : « ثلثة من الأولين ، وقليل من الآخرين » . . قال : كانوا يقولون ، أو يرجون ، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ في تفصيل مناعم الجنة التي أعدت لهم . وهي بطبيعة الحال المناعم التي في طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهاون إذرا كما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

« على سرر موضونة » . . مشبكة بالمعادن الثمينة . « متكئين عليها متقابلين » . . في راحة وخلو بال من الهموم والمشاكل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاذه وفي إقبال بعضهم على بعض يتسامرون . . « يطوف عليهم ولدان مخلدون » . . لا يفضل فيهم الزمن ، ولا تؤثر في شبابهم وصباحتهم السن كأشباهم في الأرض . يطوفون عليهم « بأكواب وأباريق وكأس من معين » . . من خمر صافية سائفة « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » . . فلا هم يفرقون عنها ولا هي تنفد من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام والأمان . « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » . . فهنا لا شيء ممنوع ، ولا شيء على غير ما يشتهي السعداء الخالدون ، « وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . . واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذي لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تخدشه عين ، وفي هذا كناية عن معان حسنة ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله : « جزاء بما كانوا يعملون » . . فهو مكافأة على عمل كان في دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذي كان ينقص كل المناعم في دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون في هدوء وسكون ، وفي ترفع وتنزيه عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذه : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيا . إلا قبيلا : سلاما سلاما » . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويلفهم السلام من الرحمان . فالجو كله سلام سلام . .

## الجزء السابع والعشرون

فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذي يليه :  
فريق أصحاب اليمين :

« وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟ في سدر مخضود ، وطلح منضود . وظل ممدود .  
وماء مكوب . وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء .  
فجعلناهن أبكارا . عربا أنرابا . لأصحاب اليمين . ثلثة من الأولين . وثلثة من الآخرين » ..  
وأصحاب اليمين هم أصحاب اليمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملة في أول السورة .  
ثم آخر تفصيل نعيمهم ، إلى مواعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك  
الصيغة التي تفيد التفضيم والتهويل : « ما أصحاب اليمين ؟ » ..

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادي محسوس ، يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة ، ويلى  
هواتف أهل البداوة حسباً تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم !

إنهم « في سدر مخضود » .. والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكة  
ومزروع . « وطلح منضود » .. والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوكة .  
ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . « وظل ممدود ، وماء مكوب » .. وتلك  
جميعاً من مراتع البدوى ومناعمه ، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! « وفاكهة كثيرة .  
لامقطوعة ولا ممنوعة » .. تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المعروفة لسكان  
البادية بالتعيين . « وفرش مرفوعة » .. وهى هنا لاموضونة ولا ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة .  
وللرفع في الحس معيان . مادي ومعنوي يستدعى أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع في  
المكان والطهارة من الدنس . فالرفوع عن الأرض أبعدهن نجسها . والرفوع في المعنى أبعدهن  
عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج : « إنا  
أنشأناهن إنشاء » إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافاً وهن الزوجات المبعوثات شواب :  
« فجعلناهن أبكارا » لم يعسن « عربا » .. متحيات إلى أزواجهن « أنرابا » متوافيات  
السن والشباب . « لأصحاب اليمين » .. مخصصات لهم . ليتسق ذلك مع « الفرش المرفوعة » ..  
فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم « ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين » .. فهم أكثر عدداً  
من السابقين المقربين . على الاعتبارين اللذين ذكرناهما في معنى الأولين والآخرين .  
وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال - وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة  
إليهم في مطلع السورة :

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم . وظل من محموم . لا بارد ولا كريم .  
 إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا  
 ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى  
 ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لا تكون من شجر من زقوم . فمأكلون  
 منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » ..  
 فلئن كان أصحاب اليمين « في ظل ممدود وماء مكوب » .. فأصحاب الشمال « في سموم  
 وحميم . وظل من محموم ، لا بارد ولا كريم » .. فالهواء شواظ ساخن ينفذ إلى اللسان  
 ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يروى وهناك ظل ! ولكنه « ظل  
 من محموم » .. ظل الدخان اللاص الحارق .. إنه ظل للسخرية والنهم . ظل « لا بارد ولا  
 كريم » .. فهو ظل ساخن لا رويح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراثة راحة ولا  
 إنعاشا ! .. هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .. وما آلم الشظف  
 المترفين ! « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » .. والحنث الذنب . وهو هنا الشرك بالله .  
 وفيه إلماع إلى الحنث بالمهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحده . « وكانوا  
 يقولون : إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » كانوا ..  
 هكذا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هي ماض . والحاضر  
 هو هذا الشهيد وهذا العذاب ؛ ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبي والمآب .  
 وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذلك : « قل :  
 إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » .. هو هذا اليوم الحاضر  
 المرود . المشهود !

ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذي يلقاه المترفون :

« ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لا تكون من شجر من زقوم » .. ولا يدرى  
 أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعمها كرؤوس الشياطين .  
 ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلتقي في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ « الزقوم »  
 نفسه يصور بجرسه ملسا خشنا شائكا مديبا يشوك الأكف - بله الخلق - وذلك في مقابل  
 الصدر الخضود والطلح المنضود - ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين فإنهم لا تكون منها

## الجزء السابع والعشرون

« فماتون منها البطون » . . فالجوع طاع والمحنة غالبية . . وإن الشوك الحشن يدفع إلى الماء لتسليك الحلق وري البطون ، وإنيهم لشاربون « فشاربون عليه من الحميم » . . الساحن الذي لا يبرد غلة ولا يروى ظمأ . « فشاربون شرب الحميم » . . وهي الإبل المصاة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوى من الماء ، « هذا نزلهم يوم الدين » . . والنزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار ، هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . .

بهذا انتهى استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهي كذلك الشوط الأول من السورة .

\*\*\*

فأما الشوط الثاني في السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية ، وفي تناول الدلائل الإيمانية ، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القرية الميسورة . .

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى ؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ؛ وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود . كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ؛ وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة في المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ؛ ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والحوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث القذة الحارقة والمعجزات الخاصة المدودة . كذلك لا يكافهم أن يبحثوا عن الحوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القرية منهم المعروفة لهم . . إنه لا يُبعد لهم في فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو نجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة ، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة في كل



## سورة الواقعة

ما بدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والبشوة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول الفهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة ، وسر الوحدة المبردة ، وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانهم هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ؛ والذي يحمل دلائل الإيمان ، وبراهين العقيدة ، فيبثها في كيانهم ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق . وعلى هذا المنهج يسير في هذا الشوط من السورة ؛ وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي يوقدون - وهي أبسط ما يتبع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنتهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجهاً لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفه وقفة فاصلة ، لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة ، وتبطل جميع التملات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق .. الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة .. والذرة على صغرها معجزة في ذاتها . والخلية على ضآلتها آية في ذاتها .. وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني .. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . والزرع . والماء . والنار . والموت .. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة نبتة . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ .. من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة .. وهذه المشاهدات البسيطة المألوفة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية - بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم - فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان :

مواقع النجوم تعنى هندسة الكون .

## الجزء السابع والعشرون

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. وهى كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .

والماء .. أصل الحياة .

والنار .. المعجزة التى صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة فى تناول الأشياء ، وبناء العقيدة والتفكير ، ليست طريقة البشر . فالإنسـر حين يخوضون فى هذه المجالات لا يلتفتون إلى هذه المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية . وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة فى قالب فلسفى تجرىدى معقد ، لا يصلح لإلحطاب طبقة خاصة من الناس ! أما الله فطريقته هى هذه . تناول المواد الأولية التى هى بذاتها المواد الكونية . وبناء العقيدة بها فى يسر وسهولة . تماما كما يصنع - سبحانه - فى تناول المواد الأولية التى هى مواد كونية ويصنع منها الكون ..

هذا من ذلك . وعلامة الصنعة واحدة ، واضحة هنا وهناك !

\*\*\*

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرايتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » ..

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع فى حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضعف هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشرى أو يجادل فيه : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! » ..

« أفرايتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه ؟ أم نحن الخالقون ؟ » ..

إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يعنى رحم امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة من العمل وحدها فى هذا الماء المهيى . تعما ، وحدها فى خلقه وتنميته . وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تم المعجزة ، وتقع الحارقة التى لا يصنعها إلا الله . والتى لا يدركها البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لا يعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها !

## سورة الواقعة

وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها .  
ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تبنى ، إلى أن تصير خلقا ، قصة أغرب من الخيال .  
قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلا ، ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر ، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا .  
كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ؛  
لأنها مكلفة أن تنشئ جانبا خاصا من المخلوق البشري ؛ فهذه خلايا عظام . وهذه خلايا  
عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب . . . ثم . . . هذه خلايا لعمل عين . وهذه  
خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل أذن . وهذه خلايا لعمل غدد . وهي أكثر تخصصا من  
المجموعات السابقة . . . وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطئ ، خلايا العين مثلا ، فتقطع في البطن  
أو في القدم . مع أنها لو أخذت أخذا صناعيا فزرعت في البطن مثلا صنعت هناك عينا ! ولكنها  
هي بإلهامها لا تخطئ ، فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلايا الأذن إلى القدم  
لتصنع أذنا هناك ! . . . إنها كلها تعمل وتنشئ هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين  
الخالق ، حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال (١)

هذه هي البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازا ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات  
البشر المألوفة :

« نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » . .

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي . . ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأي سلطان له لا يقاوم ؟  
إنه قدر الله . . ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد . . وهو حلقة في سلسلة  
النشأة التي لا بد أن تتكامل . .  
« على أن نبدل أمثالكم » . .

لعمارة الأرض والخلافة فيها بدمكم . والله الذي قدر الموت هو الذي قدر الحياة . قدر  
الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا . . فإذا  
انتهت عند الأجل الذي سماه كانت النشأة الأخرى :

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » في سورة النجم  
بهذا الجزء .

« وننشئكم فيما لا تعلمون » ..

في ذلك العالم المغيب المجهول ، الذي لا يدري عنه البشر إلا ما يحبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقراها .

هذه هي النشأة الآخرة .. « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » .. فهي قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هي ، ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان ..

إنها طريقة الله . مبدع الكون ، وخالق الإنسان ، ومنزل القرآن ...

\*\*\*

ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر في مشاهداتهم ، ليريهم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون :

« أفرايتم ما تحرثون ؟ أأنتم تزرعون أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه خطاما ، فظلمت تفكهنون : إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » ..

هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتي ثماره . مادورهم فيه؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التي صنعها الله . ثم ينتهي دورهم وتأخذ يد القدرة في عملها المعجز الحارق العجيب . تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدو وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ! الذي لا يخطئ ، مرة كما يخطئ الإنسان في عمله ، ولا ينحرف عن طريقه ، ولا يضل الهدف المرسوم ! إن يد القدرة هي التي تتولى خطاها على طول الطريق .. في الرحلة العجيبة . الرحلة التي ما كان العقل يصدقها ، وما كان الخيال ليتصورها ، لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان في صورة من الصور ، ونوع من الأنواع .. وإلا فأى عقل كان يصدق ، وأى خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلا يكمن فيها هذا القود وهذا الورق ، وهذه السنبل ، وهذا الحب الكثير ؟ ! أو أن النواة تكمن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما محتويه ؟ !

## سورة الواقعة ٢

أى عقل كان يمكن أن يتناول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولأنه يراها تقع بين يديه صباح مساء؛ ولولأن هذه القصة تكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس؛ وأى إنسان يمكنه أن يدعى أنه صنع شيئاً في هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التي صنعها الله؟

ثم يقول الناس : زرعنا !! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التي تمثلها كل حبة وكل بذرة . وأما الحارقة التي تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلها من صنع الخالق الزارع . ولو شاء لم تبدأ رحلتها . ولو شاء لم تتم قصتها . ولو شاء لجعلها حطاماً قبل أن تؤتى ثمارها وهي بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام !

ولو وقع هذا لظل الناس يلونون الحديث وينوعونه يقولون : « إنا لمغرمون » : غارمون « بل نحن محرومون » .. ولكن فضل الله يمنحهم الثمر، ويسمح للنبتة أن تتم دورتها، وتكمل رحلتها ، وهي ذاتها الرحلة التي تقوم بها الخلية التي تعنى .. وهي صورة من صور الحياة التي تنشأ القدرة وترعاها .

فماذا في النشأة الأخرى من غرابة . وهذه هي النشأة الأولى ؟ ..

\*\*\*

« أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا . فلولا تشكرون » !

وهذا الماء أصل الحياة ، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله . مادور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أما الذي أنشأه من عناصره ، وأما الذي أنزله من سحابه ، فهو الله سبحانه . وهو الذي قدر أن يكون عذبا فكان « لو نشاء جعلناه أجاجا » . مالحا لا يستاغ ، ولا ينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان ؟

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحاب ، في صورته المباشرة ، مادة حياتهم ، وموضع احتفالهم ، والحديث الذي يهز نفوسهم ، وقد خلده قصائد وأشعارهم .. ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضارى ، بل لعلها تضاعفت . والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعورا بقيمة هذا الحدث من سواهم . فهو مادة اهتمام للبدانى في الصحراء ، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء .

\*\*\*

## الجزء السابع والعشرون

« أفرايتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين » ..

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمرا مألوفا لا يثير الاهتمام . . . والإنسان يورى النار : أى يوقدها . ولكن من الذى أنشأ وقودها ؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع . . . على أن هناك لفظة أخرى في ذكر « شجرتها » فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم . على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم للعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة . : « نحن جعلناها تذكرة » تذكر بالنار الأخرى .. كما جعلناها « متاعا للمقوين » . . . أى للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين ، لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حتى حاضر في تجاربهم وواقعهم :

\*\*\*

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فهيب بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحيى هذه الحقيقة ويؤدي حقها ؛ ويلمس القلوب بها في حينها :

« فسبح باسم ربك العظيم » ..

\*\*\*

ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين :

« فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمنعه إلا للظهورون . تنزيل من رب العالمين » ..

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذي يدركونه بعيونهم

## سورة الواقعة

المجردة . ومن ثم قال لهم : « وإنه لقسم - لو تعلمون - عظيم » .. فأما نحن اليوم فنذكر من عظمة هذا القسم المتعلقة بالقسم به ، نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم ..

وهذا القليل الذي وصلنا إليه برصدنا الصغيرة ، المحدودة الناظر ، يقول لنا : إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا . مجموعة واحدة - هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية - تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادى ، يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جدا . إن لم يكن مستحيلاً (١) »

وكل نجم فى موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق فى آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتوازن هذه الخلائق كلها فى هذا الفضاء الهائل . فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان يملكه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو فى الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم « فلا أقسم بمواقع النجوم » .. فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم .. « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .. وهذا التلويح بالقسم والمدول عنه أسلوب ذو تأثير فى تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ... إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم بأجهااته « فى كتاب مكنون » .. مصون .. وتفسير ذلك فى قوله تعالى بعدها : « لا يسه

(١) كتاب : الله والعلم الحديث ص ٢٢

## الجزء السابع والعشرون

إلا للطهرون .. فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفي لهذا الزعم . فالشيطان لا يمس هذا الكتاب للكون في علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة الطهرون .. وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى « لا يمس إلا الطهرون » . فلا هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفي الأرض يمس هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر ، فلا يتحقق النفي على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابس . ملابس قولهم : تنزلت به الشياطين . ونفي هذا الزعم إذ لا يمس في كتابه السامى المكنون إلا الطهرون ..

ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا : « تنزيل من رب العالمين » .. لا تنزيل

من الشياطين !

وقد روى حديثان يقرران معنى آخر . وهو أن لا يمس القرآن إلا طاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما : « وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر والله اعلم » .

\*\*\*

ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة . لحظة الموت .. اللمة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التي تنهى كل جدال . واللحظة التي يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص :

« أفهذا الحديث أنتم مدهنون؟ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلو لا إذا بلغت الحلقوم وأتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلو لا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » ..

أفأتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة ؛ مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .. فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم؟

وما أسوأ من رزق !

فماذا أتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريقة المجهول ؟



## سورة الواقعة

ثم يصور الموقف التصوير القرآني الموحى، الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لسات سرية ناطقة بكل ما فيه، وبكل ما وراءه، وبكل ما يوحيه.

« فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن

لاتبصرون .. »

لكاد نسمع صوت الحشرة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله:

« فلولا إذا بلغت الحلقوم .. كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين

من خلال قوله : « وأتم حينئذ تنظرون .. »

هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها .

وهي تستقبل عالمًا لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئًا إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت

من خير أو شر .

هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عن حولها وما حولها . الجسد

هو الذي يراه الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئًا .

هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهي مجال البشر .

هنا يعرفون - ولا يجادلون - أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .

هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .

هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلاشائبة ولا شبهة

ولاجدال ولا محال :

« ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون » ١

وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره - سبحانه وتعالى - وهو حاضر في كل

وقت . ولكن التعبير يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا جلس الموت بجلاسه

رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الأسفة يجيء التحدى الذي يقطع كل قول

وينهى كل جدال :

« فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجمونها إن كنتم صادقين ١ »

فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن تطلقون غير مدينين ولا محاسبين.

## الجزء السابع والعشرون

فدونكم إذن فترجموها - وقد بلغت الحلقوم - لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء .  
وأتم حولها تنظرون . وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأتم ما تكون عاجزون !  
هنا تسقط كل تملة . وتتقطع كل حجة . وييطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويشغل  
صغط هذه الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

\*\*\*

ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يترامى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم ،  
وتستدير الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون :  
« فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ،  
فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم .  
وتصلية جحيم .. »

وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علام هذا النعيم  
الذي ينتظرها : روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداوة . وتلقى ظلال الراحة  
الحلوة ، والنعيم اللين ، والأنس الكريم .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين » . . . فإلتفت بالخطاب إليه . . . يبلغه سلام إخوانه من  
أصحاب اليمين . وما أُندي السلام ساعتئذ وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن  
بأله ويشعر بالأنس في الصحبة المقبلة مع أصحاب اليمين .

« وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم » . . . وما أسوأه  
نزلا ومثوى ذلك الحميم الساخن . وما أشده عذابا بذلك الجحيم ، يترامى له ويعلم أنه ملاقيه  
عن يقين !

\*\*\*

والآن وقد بلغ للوقف ذروته تجيء الحائمه في إيقاع عميق رزين :  
« إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..  
فتلقى رجاحة اليقين وتقله في ميزان الحق ، بالواقعة التي بدأت بها السورة . وتختم بما  
يوجه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم . . .

## سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ وآياتها ٢٩

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ \* هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ \* لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ \* يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ، وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ \* وَمَالَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ؟ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ \* هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ \* وَمَالَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ؟ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ \* يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَسَعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، بُشْرًا لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا : انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ . قِيلَ : ارْجِعُوا وِرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا . فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ، وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ \* ينادونهم : أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ قَالُوا : بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَتَرَبَّصْتُمْ ، وَارْتَبْتُمْ ، وَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ ، حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ، وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ \* فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَا أَوْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ⑩

هذه السورة بحملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشيء ، ولا تحتجز دونها شيئاً . لا الأرواح ولا الأموال ؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور . . . وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينة تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب بحقيقة الله ، فتخشع لذكوره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذل النفس وبذل المال : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، والله ميراث السماوات والأرض . لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلا وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير . »

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللحق الذي أنزله الله ليحيى البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى : « ألم

يَأْن لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَحْشَع قُلُوبُهُمْ لَدَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَسَتَ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . . .  
 وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق ؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية : « اعلّموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثُر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مضفراً ، ثم يكون حطاماً . وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . ساقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . . .

وظاهر من سياق السورة - إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة - أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم ، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم ، في خلوص نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق من أوهاق الأرض وجواذب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك - في الجماعة الإسلامية - فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع - وبخاصة بعد الفتح عند ما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله .

هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال ؛ وتزدهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص من دغائها وإغرائها .

وهؤلاء - بصفة خاصة - هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك المتأفات اللوحية التي أسلفنا نماذج منها، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التي تصفر معها كل قيم الأرض ، وتذوب في حرارتها كل عوائقها .

كذلك كانت هناك طائفة أخرى - غير هؤلاء - وأولئك - هي طائفة المناقين ، مختلطة غير متميزة. وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المناقون إلى التخفي والانزواء ؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصنة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يعززون ويعزلون عن المؤمنين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المناقون والمناقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى أولسكنتم فنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغرتم بالله الفرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم . وبئس المصير » . . .

وهذا إلى جانب من بقى في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة في ذلك الأوان ؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا « كالذين أتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد قست قلوبهم » . . . وهي إشارة إلى اليهود خاصة في الغالب . . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة في قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فما رعوها حق رعايتها . فآتيناهم آياتنا فمنهم من آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . . .

\*\*\*

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور البكية ، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الأسر للقلب والحس والشاعرا وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإيحاء الأسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المنفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجمة كل شيء إليها في نهاية اللطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا

## سورة الحديد

القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : « سبح لله ما في السموات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر الظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزا ، ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والاتجاه إليه ، والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيرا من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكد كده في مواضع شتى . كتلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات « يسمى نورهم بين أيديهم وبأيامهم » .. وتلك الصورة التي تقرر ضالة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » .. كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهي في طريقها إلى الله . فلا تطير جزعا ، ولا تبطر فرحا ، وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سببا ولا ظرفا ولا حادثا . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله .

\*\*\*

وقد سار سياق السورة في علاج موضوعها في شوطين اثنين أثبتنا أولهما في صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثاني في خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفي بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل ..

\*\*\*

« سبح لله مافي السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج في الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور .. »

هذا المطلع الموحى المختار . وماحشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، المهينة على كل شيء ، العليمة بكل شيء . وماتعرضه من إبداع اليد القادرة وهي تجول في محيط السماوات والأرض ، وتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب ، وتشرف من عل على الوجود ومافيه ومن فيه ..

هذا المطلع الموحى المختار يتناول القلوب ، فهزها هزا ، ويأخذها أخذاً ، وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجمد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس بغير الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا عنباً من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله مافي السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..

هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتح السورة ؛ فتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء في السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجية الفناء . ولا حاجة لتأويل النص عن ظاهر مدلوله . فالله يقول . ونحن لانعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه . . . ف « سبح لله مافي السماوات والأرض » تعني « سبح لله مافي السماوات والأرض » .. ولاتأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل مافي السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح . وإن هذا لهو أقرب تصور يصدق ماوردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها . . .

وقد جاء في القرآن الكريم : « يا جبال أوبي معه والطير » . . . فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء في الأثر : أخرج مسلم في صحيحه عن جابر ابن سمرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن بمكة حجراً كان يسلم على ليالى بشت . إني لأعرفه الآن » .. وروى



## سورة الحديد

الترمذى - بإسناده - عن علي ابن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فماستقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله » . وروى البخارى في صحيحه بإسناده عن أنس ابن مالك قال : « خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى لزيق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن » . . .

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » . . « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس » . . « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . ولا داعى لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولاً من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

« وهو العزيز الحكيم » . . فتسبيح ما في السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شيء بقوته ، وهو جاعل كل شيء وفق حكمته .

\*\*\*

وما يكاد القلب البشرى يفيق من فيض هذا النص ، ومن مهرجان الوجود المسبح لخالقه في السماوات والأرض ، حتى يعاجله السياق برحلة جديدة في ملكوت السماوات والأرض :

« له ملك السماوات والأرض ، يحي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » . . .

إن كل شيء في السماوات والأرض مسبح لله . مالك السماوات والأرض . الذى لا شريك له فى ملكه . فهو تسبيح المملوك للمالك المتفرد ، الذى يحي ويميت . فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حى ويقدر له الموت ؛ فلا يكون إلا قدره الذى قضاه .

والحياة ما تزال سرا فى طبيعتها ، وسرا فى مصدرها ؛ ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت ، ولا كيف جاءت . فضلا على أن أحدا لا يدري ماهى على وجه الحقيقة . والنص القرآنى يقول : إن الله هو الذى يحيى . الذى يعطى الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره . والموت كالحياة سر مغلف . لا يعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدثه .

## الجزء السابع والعشرون

لأن أحدا غير واهب الحياة لا يملك سلبها . . وهذا وذلك من مظاهر الملكية المطلقة لله في السموات والأرض يحي ويميت . . .

« وهو على كل شيء قدير » . . إجمالا بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضي بغير حد ولا قيد . وتعلق بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع وأي لون هو تصور باطل ، ناشئ من طبيعة العقل البشري المحدود ! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقها بلا قيود ولا حدود . فهي تختار هذه النواميس والسنن اختيارا طليقا، وتعملها في السكون غير مقيدة بها بعد إعمالها، ولا محصورة في نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس . .

والقرآن يولي هذه الحقيقة عناية كبيرة ، فينص عليها في كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي . لتبقى هذه الحقيقة واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب . فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولكنه أبقى للمشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء وهؤلاء : « خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك . . » . . وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة . ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لقرراته في هذا المجال . وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن ، لامن معين آخر غير القرآن !

ومن ثم يمثل للعقل البشري من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق في ملكه الذي لا شريك له فيه ، والذي يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

\*\*\*

وما يكاد يفوق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى ، لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة . فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء ، عليمة بكل شيء :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » . .

الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن

فليس دونه شيء .

الأول والآخ مستغرقا كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقا كل حقيقة المكان .  
وهما مطلقتان . ويتلفت القلب البشرى فلا يجد كينونة لشيء إلا الله . وهذه كل مقومات الكينونة  
ثابتة له دون سواه . حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمدا من وجود الله . فهذا  
الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده . وهذه الحقيقة هي  
الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء  
في هذا الوجود ..

« وهو بكل شيء عليم » . . علم الحقيقة الكاملة . حقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة  
الإلهية وصادرة عنها . فهي مستغرقة إذن بعلم الله اللدني بها : العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه  
وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب ، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه؟  
وكل شيء لاحقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمد منه تلك الحقيقة الكبرى؟  
وكل شيء وهم ذاهب ، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله ، المنفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء؟  
وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب لينحله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى  
هذا الاستقرار ، فإن هذه الآبة القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة  
الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى !

ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها  
مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله في كل شيء في الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله من  
وراء كل شيء في الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره في الوجود . . . وكلها  
أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال . إلا أن ما يؤخذ  
عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور . والإسلام في توازنه المطلق  
يريد من القلب البشرى أن يدرك هذه الحقيقة ويمش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة في  
الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض ،  
باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصورا مترنا ، متناسقا مع فطرة الإنسان وفطرة الكون  
كما خلقهما الله .

\*\*\*

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى: « هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يوج الليل في النهار ويوج النهار في الليل ، وهو عليم بذات الصدور » ..

حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق . وحقيقة العلم بأشياء بعضها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف في كيان الوجود ، وعلمه الخفي بذات الصدور .. وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى . . ولكن عرضها في هذا المجال الكوني يجعل لها في القلب البشري إيقاعات وظلالا .. والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، والطراد ظلواهرها . ثم إنها خلأق من خلق الله كالقلب البشري . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهي توقع على أوتاره إيقاعات لدية حين يتوجه إليها ، ويسمع لها ، ويعاطفها ! وهي تقول له : إن الذي خلقها هو خلقه . وهي تسبح لخالقها فليسبح لخالقه كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها !

والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هي الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . فترك علمها لله يطلمنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته . أما الاستواء على العرش فنحك أن تقول : إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق . استنادا إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله - سبحانه - لا تغير عليه الأحوال . فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش ، ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى : « ثم استوى » . . والأولى أن تقول : إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفا لأنه لا ينبغ من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذي يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته :

## سورة الحديد

ومع الخلق والهيمنة العلم الشامل اللطيف . يصور النص القرآني مجاله تصويراً عجيباً يشغل القلب بتبعمه في هذا المجال الواسع ، وبتصوره في حركة دائمة لا تفتت . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقائقه المجردة . أمر مؤثر موحٍ يملأ جوانب النفس ، ويشغل خواجِل القلب ، وترامى به سبحات التصور ووثبات الخيال :

« يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » . .

وفي كل لحظة يبلغ في الأرض ما لا عدده ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ؛ ويخرج منها ما لا عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفي كل لحظة ينزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأنبياء والأسرار ؛ ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصيه إلا الله . . والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التي لا تنتقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى ؛ ويدع القلب البشري في تلفت دائم إلى ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وفي تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، في مسارها ومعارجها .

والقلب في تلفته ذلك وفي يقظته هذه يعيش مع الله ، ويسبح في ملكوته بينما هو ثابٍ في مكانه ؛ ويسلك فجاج الكون ويجوب أقطار الوجود في حساسية وفي شفافية ، وفي رعشة من الروعة والانفعال .

وبينا القلب في تلفته ذلك في الأرض والسماء ، إذا القرآن يردّه إلى ذاته ، ويلسه في صميمه . وإذا هو يمجّد الله معه ، ناظراً إليه ، مطلماً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جد قريب :

« . وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » . .

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله - سبحانه - مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت ، وفي كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتأملها القلب . حقيقة مذهلة من جانب . ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيّة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفضه وتطهره ، وتدعه مشغولاً به عن كل أعراض الأرض ؛ كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياء والتحرج من كل دنس ومن كل إسفاف .

•••

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض في مجال آخر غير الذي وردت فيه أول مرة :

« له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور » . .

ففي المرة الأولى جاء ذكرها في معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجيء ذكرها في معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهي متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكاملة لحقيقتها . والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفتة لغير الله في أي أمر . في أول الأمر وفي آخره . ويحميه من التطلع لغير الله في أي طلب ، ومراقبة غير الله في أي عمل . ويقينه على الطريق إلى الله في سره وعلنه ، وحركته وسكونه ، وخواجه ونجواه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه !

\*\*\*

وينتهي هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة في مجال الكون ، وفي أطواء الضمير :  
« يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . وهو عليم بذات الصدور » . .  
ودخول الليل في النهار ، ودخول النهار في الليل ، حركة دائبة ، وهي في الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذته من النهار ، وطول النهار وأخذته من الليل : أو كان المعنى مجرد تداخل الليل في النهار عند الغروب ، وتداخل النهار في الليل عند الشروق . .  
ومثل هذه الحركة في حفاؤها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور . وذات الصدور هي الأسرار المصاحبة لها ، التي لا تفارقها ولا تبرحها !

والشعور يد الله تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، في لطف ؛ ينشئ في القلب حالة من التأمل الرفيق ، والحساسية الشفيفة . كالشعور بعلم الله يتلطف في الاطلاع على ذات الصدور ، الساكنة في خبايا الصدور !

\*\*\*

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب في حساسية مرهفة للتلقى . ومن ثم يجيء المهتاف لها بالإيمان والبذل في أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها ، وتوفرت مشاعرها ، واستمدت للاستماع . وهنا يجيء ذلك المهتاف في المقطع التالي في السياق . ولكنه لا يجيء مجرداً . إنما يجيء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته :

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم ، وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خير . . . »

إن الله - سبحانه - يخاطب القلوب التي خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها . وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقراراً تنشق منه آثاره وتنتجبه في واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقديم خالصه لله . . . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً ؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وترزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ؛ ولا يسكلها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب . . . ومنهج القرآن الإلهي في علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاء إلى الله أمامه طويلاً ؛ ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى في مطلع السورة من القوة والتوالي والعمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسة . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية .

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . . .

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهي إذن حقيقة الإيمان يدعوون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها . وهي لفظة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإنفاق ، ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذي « له ملك السماوات والأرض » . . . فهو الذي استخلف بنى آدم جملة في شيء من ملكه . وهو الذي « يحيي ويميت » . . . فهو الذي استخلف جيلاً منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية في مطلع السورة . ثم تقوم هي

بدورها في استتارة الحجل والحياء من الله ، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم ، فماذا هم قائلون حين يدعومهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه ومما أعطاهم ؟ ! وفي نهضة النفوس عن الشح ، والله هو المعطي ولا نفاد لما عنده ، فماذا يمكنكم عن البذل والعطاء ، وما في أيديهم رهن بعباء الله ؟ !

ولكنه لا يكلمهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . يخجلهم من كرم الله ويطممهم في فضله :  
« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل ؟  
غير أن القرآن لا يكلمهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموجبات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

« ومالككم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسبكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم » ..

فما الذي يعوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفي هذا وذلك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم . . نعمة فوق التصور حين تتعلاها نحن الآن من بعيد . . فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترة عجيبة حقا . . إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده - صلى الله عليه وسلم - وفي رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذلك ! ها هو ذا طريق فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فماكم حبل ! لقد أخطأتم وأتعمت فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تترددوا بعيدا ، ولا تمنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . . وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك -



قات كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعات كذا وهي خطيئة . فتعال هنا قدامى وتطهر وتب وعد إلى حماي . . . وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يضللك هذا حله . وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه . وعملك الذي عملت هذا وزنه . إنه الله . هو الذي يقول . يقول لهؤلاء المخاليق . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعا . أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها . . .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعيش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلا . . . ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللغات ، ومثل هذا التذكير . . . وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركها ويشعر بها من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة :

ورد في صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : « أي المؤمنين أعجب إليكم ؟ » قالوا : الملائكة . قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » . قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فنحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها » . . .

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم شيء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب : ما لهم لا يؤمنون ؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان في نفوسهم إن كانوا مؤمنين !

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير :

« وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميثاق السماوات والأرض ؟ » . . .

وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » . . . فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه في الميراث ! فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح وهوائف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب ؟

## الجزء السابع والعشرون

ولقد بذلت الخفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس والمال ، في ساعة العسرة وفترة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتر به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبا محاصرا من كل جانب ، مطاردا من كل عدو ، قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خالصا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبية من أهل الإسلام . كان بذلا منبثقا عن خيرة اختاروها عند الله ؛ وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وطى أرواحهم وأموالهم جميعا . . .

ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلا بالقياس إلى ما أصبح الدين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف يبذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ؛ هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الليزان ؛ ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :

« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » . . .

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، والأنصار قلة ، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة للنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردا كاملا لا شبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد ابن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمان ابن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمان : تستطيعون علينا بأيام سبقتمونا بها ؛ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتكم أعمالهم » (١) . . .

(١) يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذين تكرر تحذيره بشأنهم . فهم أولئك السابقون . وقد كان يقول للمستلمين حوله وعن صاحبوه : « دعوا لي أصحابي . . . » فدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يعني صحبة خاصة . . . وكذلك قال في مرة من الصديق - رضي الله عنه - : « دعوا لي صاحبى » . . .

وقى الصحيح : « لاتسبوا أصحابي فوالذي نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُدّاً أحدهم ولا نصيفه » (١) .

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله لهؤلاء ولهؤلاء عاد قرر أن للجميع الحسنى :  
« وكلا وعد الله الحسنى » ..

فقد أحسنوا جميعا ، على تفاوت ما بينهم في الدرجات .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون :  
« والله بما تعملون خير » ..

وهى لمسة موقظة للقلوب ، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهى التى تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين ..

\*\*\*

ثم مرحلة أخرى فى استجاشة القلوب للإيمان والبذل . ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ؟ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ا ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغررتكم الأمانى ، حتى جاء أمر الله ، وغرركم بالله الفرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هى مولاكم ، وبئس المصير » ..

إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للبياد الفقراء المحاويج : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ؟ » .. ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفى بأن يطير به إلى البذل طيرانا ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثرى الملىء منهم - وهم كلهم قراء - لأن السداد مضمون . ولم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثرى الملىء ، فكيف إذا كانوا يقرضون  
الغنى الحميد ؟

(١) انظر الهامشة السابقة .

ولا يكلمهم - سبحانه - إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يمدم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يمدم عليه الضعف في القدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : « فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ثم يعرض لهم صفحة وضيئة من ذلك الأجر الكريم ، في مشهد من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

« والشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد - بين المشاهد القرآنية - وهو من المشاهد التي يحياها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسماً قويا . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهدا عجيبا . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعا لطيفا هادئا . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخصوس الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشمت نورا يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها . . إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ، <sup>(١)</sup> ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها .

« ثم هانحن أولاء . نسع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير : « بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » . .

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا النظر الطريف اللطيف . . إن هناك المناققين والمناققات ، في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات : « يوم يقول المناقون والمناققات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم » . . فحيثما توجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أئى للمناققين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ؟ إن صوتا مجهلا يناديهم : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا » . . ويبدو أنه صوت للتهم ، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور .

(١) المعتقد الآن أن مادة الكون هي النور ، وأنه مؤلف من ذرات . وأن الذرة في حقيقتها ليست سوى إشعاع . وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصحة ، لأنها تسير على درب القرآن .

« وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والناققين والناققات . فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .. ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فهاهم أولاء الناققون ينادون المؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » .. فما بالنا نفترق عنكم ؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد ؟ « قالوا : بلى ا » كان الأمر كذلك . « ولكنكم فتنتم أنفسكم » .. فصرفتموها عن الهدى . « وتربصتم » .. فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة . « واربتتم » .. فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزيمة الأخيرة . « وغررتكم الأماني » الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفها ا « حتى جاء أمر الله » .. وانتهى الأمر . « وغرركم بالله الغرور » .. وهو الشيطان الذي كان يطعمكم ويمسككم . « ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » أم لعلها كلمة الملائكة الأعلى ، أو نطق الله الكريم ..

« ونظر من ناحية التناسق الفنى في عرض الشهد ، فنجد لاختيار مشهد النور في هذا الموضوع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن الناققين والناققات . . والناققون والناققات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون ، ويعيشون في ظلام من النفاق والديس والوقية . والنور يكشف الخبوء ويفضح المستور . كما أنه الصفحة القابلة الوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شيء بأن تطلق أشعته على الشهد الكبير . وبأن يبر بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينا الناققون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير وظلمات الحفاء المستورا » (١)

وبعد فأى قلب لا يهفو لتلك النور في ذلك اليوم ؟ وأى قلب لا يستجيب لهاتف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟  
إنه القرآن يعالج القلوب في ثبات واطراد ، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومدخلها ومسارها ؛ وما تستجيب له وما يؤثر فيها :  
والشوط الثانى في السورة استطراد في الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا النهج ، وفي هذا الطريق . .

(١) عرض هذا المعهد مأخوذ بتصرف من كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » .

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ؟ ⑤ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

« إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفُ لَهُمْ، وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

« أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ . وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ .

« سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا، إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ \* لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَانَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ \* وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ \* ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا،

وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً  
 وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا  
 حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .  
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ،  
 وَجَعَلَ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ \* لَيْتَآ يَعْلمَ أَهْلُ  
 الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ  
 يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » ﴿١٩﴾

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي : تحقيق حقيقة الإيمان في النفس ، حتى ينبثق  
 عنها البذل الخالص في سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب  
 مما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك المطلع العميق الثير .

وهو يبدأ برنة عتاب من الله - سبحانه - للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي  
 التي يريد بها الله لهم ؛ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق  
 في الأعمال ، وتحذير من هذا المآل ، الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع  
 إبطاءهم في عون الله الذي يحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها .

فإذا انتهت هذه اللسنة تبعها لمة أخرى - مجالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى  
 إقراض الله قرضا حسنا ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه في الدنيا من العوض المضاعف  
 والأجر الكريم . . . على نحو مما جاء في الشوط الأول .

ولمة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة . . . حيث تبدو قيم  
 الأرض لبا خفيفة الوزن ؛ وترجع كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذي يستحق الاهتمام .  
 ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة . . . في جنة عرضها كعرض السماء والأرض .  
 أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله .

ولمة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى مأمم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق

## الجزء السابع والعشرون

قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يزددهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء .

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفاً من تاريخ دعوة الله في الأرض ، تبدو فيه وحدة النهج ، واستقامة الطريق . وأن الذي يعبد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط . لينتهي من هذا إلى الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ويفرر لهم . ففضل الله ليس وقفاً على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء » والله ذو الفضل العظيم . . .

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، في خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، متنوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

\*\*\*

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون . اعلوا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . . .

إنه عتاب مؤثر من اللولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان بربها ، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته في النكون والخلق ما يبصر ويحذر . عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكراه ، وتلقى ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والحشة والطاعة والاستسلام ، مع راحة التنديد والاستبطاء في السؤال :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » . . .  
وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتعاس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنهى إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق :



## سورة الحديد

« ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فظال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشري سريع التقلب ، سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع ؛ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكار تبدل وقسا ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعمى ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخضع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبدل والقساوة .

ولكن لا بأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبدل . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ، وأن ينحشع لذكر الله . فالله يحيي الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبات والزهر ، وتمتص الأكل والثمار . . . وكذلك القلوب حين يشاء الله :

« اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » . .

وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما يحيي الأرض ؛ وما يمدها بالغذاء والرى والدفاء :

« قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

\*\*\*

ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب المخجل ، وذلك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبدل والفداء :

« إن الصدقين والصدقات ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

إن التصديق والتصدقات لا يفضلون على آخذى الصدقات ، ولا يتعاملون في هذا مع الناس . إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأى حافز للصدقة أوقع وأعمق من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفا ؛ وأن له بعد ذلك كله أجر كريم ؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما أسوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو يفضل الله ميسور لمن أرادته ، وليس وقفا على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله ورسوله يطمع في هذا المقام الرفيع ، ولا حرج على فضل الله :

« والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون » ..

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام !

روى الإمام مالك في كتابه « الموطأ » عن صفوان ابن سليم ، عن عطاء ابن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » .. قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : « بلى والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » (١) ..

فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة الفداء بقوله بعد ذلك :

« والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » ..

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات في القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد . جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشرهته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء في سبيل الله - وهم وخدمهم الذين يسمون شهداء - مقامهم . وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذى يعبر عنه بأنهم « عند ربهم » ..

جاء في الصحيحين : « أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فقتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة . فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء - إلا الشهيد - ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » .. وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الموحيات ، ويعرف مقام الشهادة عند الله ..

(١) أخرجه الشيخان من حديث مالك .

## سورة الحديد

روى الإمام مالك ... عن يحيى بن سعيد « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رغب في الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار يأكل تمرات في يده . فقال : إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منهن ! فرمى ما في يده وحمل بسيفه حتى قتل » . . وقد روى أن هذا كان هو عير ابن الحمام عليه رضوان الله .

وبينما الصديقون في ذلك المقام والشهداء في هذا المقام يقول النص القرآني عن الكافرين المكذبين :

« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .

فمن ذا الذي يترك الكرامة والنعيم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم؟!

\*\*\*

والممة الثالثة في هذا الشوط تجيء تعقيا على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة الفداء والتضحية . تعقيا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها :

« اعلوا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مضفرا ، ثم يكون حطاما . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب . ولهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . . هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يعضى يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة . . « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » . . والكفار هنا هم الزراع . فالكافر في اللغة هو الزارع ، يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا « ثم يهيج فتراه مضفرا » للصيد . فهو موقوت الأجل ، ينتهي عاجلا ، ويبلغ أجله قريبا « ثم يكون حطاما » . . وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة للأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهي بمشهد الحطام !

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » .. فهي لا تنتهي في لحظة كما تنتهي الحياة الدنيا . وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله .. إنها حساب وجزاء .. ودوام .. يستحق الاهتمام !

« وما الحياة الدنيا إلامتاع العرور » ..

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من العرور الخادع ؛ كما أنه يلهم وينسى فينتهي بأهله إلى غرور خادع .

وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلاتها التي ناطها بهذا الكائن البشري<sup>(١)</sup> . إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض . هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ؛ ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً . ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي ، للغاية التي تستحق السباق . الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم ، والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » ..

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ؛ إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض : « جنة عرضها كعرض السماء والأرض » ..

وربما كان بعضهم في الزمن الخالي-قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون-يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يترأهاها سكان الجنة كما يترأون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب .. فأما اليوم ومراسد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءى الغرف من بعيد ،

(١) يرجع إلى تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. في سورة الذاريات في هذا الجزء .

يتبع قدما موقع الحقيقة التربوية البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقا ، فإن ما بين الأرض والشمس مثلا لا يبلغ أن يكون شيئا في أبعاد الكون يقاس ، وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه : الإيمان بالله ورسوله . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . « والله ذو الفضل العظيم » . . . وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفي هذا فليتسابق المتسابقون . لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ؛ ولا يحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير . . لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بمقاربات الناس وأطباعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس . ويتأني من مقاومة الباطل وتشبته بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء . . . إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة . وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون ؛ وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحده ولا حتى أن تشير إليه !

ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعليا على واقع الأرض الصغير . . . . .  
مها تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزل والأبد . وفي ملك الآخرة الواسع العريض . وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتز لحلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة . . . وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها . . . . .

\*\*\*

ثم نجيء اللمسة الرابعة في إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذي لا يكون سواه :  
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » . . .

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه ، محسوب حسابه في كيانه . . . لا مكان فيه للمصادفة . ولا شيء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدر . . . وفي علم الله لا شيء ماض ، ولا شيء حاضر ، ولا شيء قادم . فتلك المواصل الزمنية إنما هي معالم لنا - نحن أبناء الفناء - نرى بها حدود الأشياء . فنحن لاندرک الأشياء بغير حدود تعيها . حدود من الزمان وحدود من المكان . نحن لانملك إدراك المطلق إلا في ومضات تصل فيها أرواحنا بذلك المطلق ، عن طريق غير الطريق الذي اعتدنا في إدراك الأشياء . فأما الله - سبحانه - فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود ، بلا حدود ولا قيود وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان . ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله . فكل مصيبة - من خير أو شر فاللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بخير ولا بشر - تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر أو المخاطبين منهم يومها . . . هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها . . . « إن ذلك على الله يسير » . . .

وقيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها الكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعا وتذهب معه حشرات عند الضراء . ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الأتزان عند السراء :

« لكي لاتأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » . . .

فانسع أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الكبير ، وتصور الأزل والأبد ، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدر في علم الله ، الثابتة في تصميم هذا الكون . . . كل أولئك يجعل النفس أوسع وأكبر وأكثر ثباتا ورزانة في مواجهة الأحداث العابرة . حين تكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين يفصل بذاته عن هذا الوجود : ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمر به ، وتغر بغيره ، والأرض كلها . . . ذرات في جسم كبير

## سورة الحديد

هو هذا الوجود . . . وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق .  
لازم بعضها لبعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون . . . حين يستقر هذا في  
تصوره وشموره، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت  
أسى يضعفه ويزلله ، ولا يفرح بحاصل فرحا يستخفه ويذهله . ولكن يعضى مع قدر الله  
في طواعية وفي رضى . رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذى ينبغى أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالمطلوب منهم ألا يخرجهم  
الأم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهذه وبذلك ، والاعتدال  
في الفرح والحزن . قال عكرمة - رضى الله عنه - « ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن  
اجعلوا الفرح شكرا والحزن صبرا » . . . وهذا هو اعتدال الإسلام لليسر للأسوياء . . .

« والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل » . . .  
ووجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الإختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل  
والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لا يختال ولا يفخر بما يعطاه .  
ولا يخجل ولا يأمر بالبخل في عطاءه . فأما الذى لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من  
مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ؛ ثم يخجل كذلك ببذل شيء منه ، ويحث غيره  
على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

« ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » . . .

فمن ينفق فأعما ينفق لنفسه ، ومن يستجيب فأعما يستجيب لمصلحته . والله هو الغنى فإبه من  
حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين !

\*\*\*

وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة ، يعرض باختصار خط سير ، الرسالة ، وتاريخ  
هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررًا حقيقتها وغايتها في دنيا الناس ؛ ملما بحال أهل  
الكتاب وأتباع عيسى - عليه السلام - بصفة خاصة .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأزلنا  
الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوى عزيز .  
ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ، فمنهم مهتد وكثير منهم

## الجزء السابع والعشرون

فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناها الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون . . .

فالرسالة واحدة في جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البيئات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول : « وأنزلنا معهم الكتاب » بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها .

« والميزان » . . . مع الكتاب . فكل الرسائل جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحقق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب للنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والصفة بلا محاباة . « ليقوم الناس بالقسط » . . . فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته ، لا يهتدى الناس إلى العدل ، وإن اهدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، وهي تضطرب في مهب الجبهالات والأهواء .

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . . . والتعبير بأنزلنا الحديد كالتعبير في موضع آخر بقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث ، فهي منزلة بقدره . وتقديره . فوق ما فيه هنا من تناسق مع جو الآية ، وهو جو تنزيل الكتاب والميزان ، فكذلك ما خلقه الله من شيء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

أنزل الله الحديد « فيه بأس شديد » . . . وهو قوة في الحرب والسلام « ومنافع للناس » . . . وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح ؛ تجيء في موضعها في السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم



لله ورسوله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر : « إن الله قوي عزيز » . .

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة في جوهرها وكتابتها وميزانها عاد يقرر وحدتها في رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

« ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب » . .

فهي شجرة واحدة باسقة ، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب . ممتدة من فجر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلا باسقا ممتدا إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التي جاءت بها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » . .

وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل ا

وقرب نهاية الخط بحى ، عيسى ابن مريم :

« ثم قمينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم » . .

أى على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إرواحه حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى ابن مريم : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأية ورحمة » . . وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح - عليه السلام - وروحها السمحة وتطهرها الروحي ، وشفافيتها الوضيئة والرافة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويه الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام ، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى ابن

مريم : « ورهبانية ابتدوها - ما كتبناها عليهم - إلا ابتغاء رضوان الله » .

والراجع في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعاداً عن أوسار الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم مرتبطين أمام الله بأن يرفعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ،

وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة . . مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبغ في الغالب طقوسا وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرا عاريا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل :  
« فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .  
والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور .

\*\*\*

وبعد هذا العرض السريع يجميء المهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين برسالة الله في تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين :  
« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نورا تمشون به ، ويفزر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . .

ونداؤهم على هذا النحو : « يا أيها الذين آمنوا » فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعومهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص . . معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

اتقوا الله وآمنوا برسوله . . « يؤتكم كفلين من رحمته » . . أي يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن في هذا التمييز زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض . .

« ويجعل لكم نورا تمشون به » . وهي هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوى بها الطريق . .  
« نورا تمشون به » . .

« ويفزر لكم . والله غفور رحيم » . . فالإنسان إنسان معها وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . . « والله غفور رحيم » . .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » . . لتألوا كفلين من رحمة الله . ويكون

لكم ذلك النور تمشون به . وتدرّكم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير.. « كلاً يعلم أهل الكتاب ألا يقدرّون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .. » قد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا » .. « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى .. » فإله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرّون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : « والله ذو الفضل العظيم » ..

وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستثارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختم بها السورة ختاماً يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .



وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ؛ وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ؛ وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بمدجولة ، وشوفا بمدشوط .. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقفون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب ا

إنها درس رباني من صانع القلوب ، ومنزل القرآن ، وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموقنون ...

تم الجزء السابع والمعرون وبليه الجزء الثامن  
والمعرون مبدوءا بحوله تعالى « قد سمع الله »

فهرس المجلد السابع

في ظلال القرآن

الجزء	الصفحة	مطالع الآيات	السورة
٥ - ٤٠	الثالث والعشرون		<b>سورة يس مكية وآياتها ٨٣</b>
٥	.....	يس والقرآن الحكيم	تفسير الآيات : ١ - ٢٩
١٩	.....	يا حسرة على العباد	١ - ٣٠ : ٦٨
٣٣ - ٤٠	.....	وما علمناه الشع وما ينفي	١ - ٦٩ : ٨٣
٤١ - ٧٥			<b>سورة الصافات مكية وآياتها ١٨٢</b>
٤١	.....	والصافات صفا فالزاحرات	تفسير الآيات : ١ - ٦٨
٥٥	.....	إنهم ألفوا اباءهم ضالين	١ - ٦٩ : ١٤٨
٦٩ - ٧٥	.....	فاستفتيهم الربك انبات	١ - ١٤٩ : ١٨٢
			<b>سورة ص مكية وآياتها ٨٨</b>
٧٦	.....	ص والقرآن ذي الذكر	تفسير الآيات : ١ - ١٦
٩١	.....	وأصبر على ما يقولون	١ - ١٧ : ٤٨
١٠٤	.....	هذا ذكر وان للمتقين لحسن	١ - ٤٩ : ٦٤
١٠٦ - ١١٢	.....	قل انما انا منذر وما من	١ - ٦٥ : ٨٨
١١٥ - ١٥٧	الرابع والعشرون		<b>سورة الزمر وآياتها ٧٥</b>
١١٥	.....	تنزيل الكتاب من الله العزيز	تفسير الآيات : ١ - ٧
١٢٦	.....	واذا مس الانسان ضر دعاء	١ - ٨ : ١٠
١٣٠	.....	قل اني امرت ان	١ - ١١ : ٢٠
١٣٣	.....	لم تر ان الله	١ - ٢١ : ٢٩
١٣٩	.....	انك ميت وانهم	١ - ٣٠ : ٣٥
١٤٠	.....	اليس الله بكاف عبده	١ - ٣٦ : ٥٢
١٤٩	.....	قل يا عبادي الذين	١ - ٥٣ : ٦١
١٥٢ - ١٥٧	.....	الله خالق كل شيء	١ - ٦٢ : ٧٥

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
سورة غافر مكة وآياتها ٨٥		٢١٣ - ١٥٨	
تفسير الآيات : ١ - ٢٠	حَمّ. تنزيلُ الكتابِ	١٥٨	
١	أولم يسيروا في الأرض	١٧٣	
١	إن الذين يجادلون في آيات	١٩٢	
١	ولقد ارسلنا رُسلاً من	٢١٣ - ٢٠٧	
سورة فصلت مكة وآياتها ٥٤		٢٥٣ - ٢١٤	
تفسير الآيات : ١ - ٣٦	حَمّ. تنزيل من الرحمن الرحيم	٢١٤	
١	ومن آياته الليل والنهار	٢٥٣ - ٢٤٢	
سورة الشورى مكة وآياتها ٥٣		٢٥٧ - الخامس والعشرون	
تفسير الآيات : ١ - ٢٤	حَمّ. تمثّق. كذلك	٢٥٧	
١	وهو الذي يقبلُ التوبةَ	٣٠٩ - ٢٨٤	
سورة الزخرف مكة وآياتها ٨٩		٣١٠ - الخامس والعشرون	
تفسير الآيات : ١ - ٢٥	حَمّ والكتاب المبين	٣٢٣ - ٣١٠	
١	وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه	٣٢٤	
١	ولما ضرب ابن مريم مثلاً	٣٥٤ - ٣٤١	
سورة الدخان مكة وآياتها ٥٩			
	حَمّ. والكتاب المبين	٣٧٣ - ٣٥٥	
سورة الجاثية مكة وآياتها ٣٧			
تفسير الآيات : ١ - ٢٣	تنزيل الكتاب من الله العزيز	٣٧٤	
١	وقالوا ما هي الآياتنا الدنيا	٣٩٥ - ٣٩١	
سورة الاحقاف مكة وآياتها ٣٥		٣٩٩ - السادس والعشرون	
تفسير الآيات : ١ - ١٤	حَمّ. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	٣٩٩	
١	ورصينا الانسان بوالديه	٤١٢	
١	وإذ صدقنا إليك نقرأ من الجن	٤٣٥ - ٤٢٤	
سورة محمد مدنية وآياتها ٣٨		٤٧٤ - ٤٣٦	
تفسير الآيات : ١ - ١٥	الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله	٤٣٦	
١	ومنهم من يستمع إليك حتى إذا	٤٥٨	
١	إن الذين كفروا وصدوا	٤٧٤ - ٤٦٧	

السورة	مطالع السور والآيات	الصفحة	الجزء
سورة الفتح مدنية وآياتها ٢٩	١٧ - ١٨	٤٧٥ - ٥١٦	
تفسير الآيات: ١ - ١٧	إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً.....	٤٧٥	
سورة الحجرات مدنية وآياتها ١٨	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة ق مكية وآياتها ٤٥	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة الذاريات مكية وآياتها ٦٠	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة الطور مكية وآياتها ٤٩	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة النجم مكية وآياتها ٦٢	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة القمر مكية وآياتها ٥٥	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة الرحمن مكية وآياتها ٧٨	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة الواقعة مكية وآياتها ٩٦	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	
سورة الحديد مدنية وآياتها ٢٩	٢٩ - ١٨	٥١٦ - ٥٠٢	

